

خَيْرِي حمّاد

تاريخ ألمانيا النازية

٣



تاريخ ألمانيا النازية



وليام بير

تاريخ المانيا المتلبر

نشأة وسقوط الرايخ الثالث

تقريب
خيري حماد

منشورات مكتبة المهنتي - بغداد

توزيع دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

THE
RISE AND FALL
OF THE
THIRD REICH

* * *

Part IV
A History of NAZI Germany
by
William L. Shirer.

الطبعة الثانية
مباط (فبراير) ١٩٦٦

القسم الثالث

الكتاب الرابع

الحرب

الانتصارات الأولى ونقطة التحول

سقوط بولندة

اجتمع الفريق هولدر في الساعة العاشرة من صباح الخامس من ايلول عام ١٩٣٩ ، الى الفريق فون براوخيتش ، القائد العام للجيش الألماني والفريق فون بوك قائد مجموعة جيوش الشمال . وتولى الفرقاء الثلاثة تقييم الوضع الحربي كما بدا في مستهل اليوم الخامس من الغزو الألماني لبولندة ، واتفقوا ، كما دون هولدر ، في يومياته « على أن العدو قد هزم تقريباً »

وكانت معركة الرواق البولندي قد انتهت في اليوم السابق ، باتصال جيش الفريق فون كلوغه الرابع المندفع شرقاً من بوميرانيا وجيش الفريق فون كويشار الثالث المندفع غرباً من بروسيا الشرقية . وكانت هذه المعركة هي أول المعارك التي أحرز فيها الفريق هاينز غودريان شهرته الأولى بدباباته . وقد تعرضت هذه الدبابات وهي تزحف راكضة شرقاً في فترة من الفترات للهجمات المضادة التي شنّها عليها لواء فرسان « بومورسكا » البولندي ، وقدّر لمؤلف هذا الكتاب أن يرى بأم عينه بعد بضعة أيام عندما قام بزيارة الجبهة ، أسلاء الخيول البولندية وهي مبعثرة في ميدان المعركة لتقوم دليلاً تتقزز منه النفس على طبيعة الحملة البولندية القصيرة .

يا لها من مفارقة ... الخيول تهاجم الدبابات . ورماح الفرسان الطويلة تصارع

مدافع الدبابات الضخمة . والنتيجة واضحة ولا شك ... فهما كان البولنديون
شجعاناً وبواسل ومتهورين ، فلمنهم كانوا أعجز من أن يصمدوا للهجوم الألماني
الساحق ، وكانت هذه هي التجربة الأولى التي مروا بها هم ، كما مر بها العالم أيضاً
في حروب الصاعقة الجديدة ... إنها الحرب التي تنسم بالهجوم المباغت ، وقد
حلقت الطائرات المحاربة والقاذفة مدوية بأزيزها في سماء الميدان ، بينما تعول
طائرات « الشوكا » بصراخها الذي يصم الآذان وهي تنقض من عل باعثة الرعب
والفرع . والفرق الكاملة من الدبابات تشق طريقها زاحفة إلى الأمام تقطع
المسافات الكبيرة في لحظة عين ، وتسجل في كل يوم تقدماً جديداً يتراوح بين
الثلاثين والأربعين ميلاً ، بينما تسرع عربات المدافع الثقيلة قاطعة أربعين ميلاً في
الساعة ، وقد جرت وراءها المدافع الذاتية التوجيه ، والسريعة الإطلاق ، حتى
على طرق بولندية السيئة . والمشاة بدورهم ، لا يدبون دبب النمل ، كما كان يحدث
في الحروب السالفة ، وإنما يستقلون العربات ، وقد أربى عددهم على المليون
ونصف المليون من الجنود توجههم وتشرف على تنظيمهم وتنسيق أعمالهم الحربية
شبكة الكترونية من المواصلات الإذاعية المعقدة والهواتف وأجهزة البرق . حقاً
لأنه أضخم استشهد آلي لم يشهد العالم مثيلاً له من قبل .

وتم تحطيم القوة الجوية البولندية في غضون الثاني والأربعين ساعة الأولى من
القتال ، إذ نسفت الطائرات الألمانية القاذفة القسم الأكبر من طائرات البولنديين
الصالحة للقتال والتي تعد نحواً من خمسمائة ، وهي جاثمة على أرضها قبل أن تتمكن
من التحليق في الجو . واشتعلت النيران في معظم الأبنية وتجهيزات المطارات ،
ولقي معظم العاملين فيها حتفهم أو تعرضوا لجراح بالغة . وسقطت « كراكاو »
عاصمة بولندية الثانية في أيدي الألمان في السادس من أيلول . وولست
الحكومة البولندية الأدبار تلك الليلة من وارسو قاصدة لوبلين . ولم يحل اليوم
التالي حتى كان هولدر يشغل نفسه بالخطط الرامية إلى البدء في نقل القوات إلى
الجبهة الغربية ، على الرغم من عدم ظهور أية بادرة تشير إلى قيام نشاط فيها .
ووصلت طلائع الفرقة الآلية الرابعة بعد ظهر الثامن من أيلول إلى ضواحي

العاصمة البولندية ، بينما استولى جيش الفريق رايخناو العاشر والزاحف شمالاً من سيليزيا وسلوفاكيا على كييلسي ، ووصل جيش الفريق ليست الرابع عشر ، الى ساندوميرز ، التي تقع عند التقاء نهري القستولا وسان .

وتمت هزيمة الجيش البولندي في غضون أسبوع واحد . وتعرض القسم الأكبر من فرقة الخمس والثلاثين ، إما إلى التمزيق الكامل ، أو إلى الوقوع محصورة في حركات التطويق الضخمة التي أطبقت على العاصمة على شكل فكي كماشة . ولم يبق أمام الألمان إلا الانتقال إلى « المرحلة الثانية » ، التي تتمثل في تضيق النطاق على الوحدات البولندية المحصورة ، والتي شنت الحرب الجديدة شملها وأصابها بالدهول ، تمهيداً لتحطيمها ، والشروع في حركة « كماشة » جديدة على بعد مائة ميل شرقاً ، لإيقاع ما تبقى من تشكيلات الجيش البولندي الموجودة إلى الغرب من بريست ليتوفسك ونهر بوغ في الطوق .

وبدأت المرحلة الثانية في التاسع من أيلول وانتهت في السابع عشر منه ، إذ اتجه الجناح الأيسر من مجموعة جيوش الشمال التي يقودها بوك ، إلى بريست ليتوفسك التي وصلها الفيلق التاسع عشر الذي يقوده غودريان في الرابع عشر من ايلول ليستولي عليها بعد يومين . واتصلت طلائع هذا الفيلق في السابع عشر منه مع دوربات جيش ليست الرابع عشر من وولدوا على بعد خمسين ميلاً إلى الجنوب من بريست ليتوفسك ، متممة فرض النطاق على ما تبقى من الجيش البولندي . وذكر غودريان فيما بعد ، أن هجمات البولنديين المضادة قد توقفت نهائياً في السابع عشر . وتم تطويق جميع القوات البولندية باستثناء حفنة قليلة ما زالت مرابطة على الحدود الروسية . وصمدت جيوب القوات البولندية في مثلث وارشوه وإلى الغرب على مقربة من بوزين صموداً اتمم بالبسالة ، ولكن مصير هذه القوات كان محتوماً ومقررأ . ووصلت الحكومة البولندية أو من تبقى من أعضائها ، بعد أن تعرضت بصورة مستمرة للقصف الجوي من طائرات السلاح الجوي الألماني إلى قرية على الحدود الرومانية في الخامس عشر من ايلول . وكان كل شيء قد انتهى بالنسبة إليها وإلى الشعب المتكبر ، باستثناء الموت في

ميدان القتال للوحدات التي كانت لا تزال صامدة بعزيمة لا تكاد تصدق ، محتملة كل ضروب المتاعب والتضحيات .
وحات الوقت للروس الآن للتقدم نحو البلاد المهشمة ، لاقتناص حصة من أسلابها .

الروس يغزون بولندة

فوجيء الكرملين في موسكو ، كما فوجئت عواصم الدول الأخرى بهذه السرعة الهائلة التي زحفت فيها الجيوش الألمانية في بولندة . وكان مولوتوف قد بعث في الخامس من ايلول ، برد رسمي خطير على الاقتراح النازي بأن تقوم روسيا بمهاجمة بولندة من الشرق ، وقد أوضح الرد بأن هذه الخطوة « ستم في الوقت المناسب » ، وأضاف أن هذا الوقت المناسب « لم يحن بعد » . وكان يرى أن « الاسراع الكثير » في هذه الخطوة قد يعرض « القضية » السوفياتية للأذى ، ولذا فقد أصر على الألمان في رده ، بوجوب احترام « خط الحدود » المقرر في الميثاق السري ، في حالة وصول الألمان أولاً إلى بعض الجهات المحددة للروس (١) . وكانت شكوك الروس من الألمان قد بدأت في الانتضاح يضاف إلى هذا أن الكرملين كان يعتقد بأن احتلال الألمان لبولندة قد يستغرق أمداً طويلاً .

وأبرق ريبنتروب بعد منتصف ليل الثامن من ايلول ، وكانت فرقة المانية مدرعة قد وصلت إلى ضواحي وارشو ، إلى شولنبرغ سفيره في موسكو ، برقية « عاجلة وسرية للغاية » يقول فيها أن العمليات العسكرية في بولندة « تتقدم بسرعة تفوق ما كان الألمان أنفسهم يتوقعونه » ، وأن المانيا تود أن تعرف في هذه الظروف « حقيقة النوايا الحربية للحكومة

(١) نص الرد الروسي (وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ٤ وتوجد بعض الرسائل المتبادلة في « العلاقات النازية - السوفياتية » .

السوفياتية « (١) ورد مولوتوف في الساعة الرابعة والدقيقة العاشرة من بعد ظهر اليوم التالي ، ان روسيا ستتحرك عسكرياً « في غضون الايام القليلة القادمة » . وكان وزير الخارجية السوفياتية قد هنا في ساعة سابقة من ذلك اليوم ، الالمات تهنته رسمية « بدخول جيوشهم الى وارشو » (٢) .

ووقع أول خلاف بين مولوتوف والسفير الالماني فون دير شولنبرغ في العاشر من أيلول . إذ عندما اجتمع الرجلان راح الوزير السوفياتي يعلن ان الحكومة السوفياتية قد بوغت مباغته كلية بالسرعة الهائلة التي « حققت المانيا فيها انتصاراتها العسكرية » وأضاف ان الاتحاد السوفياتي يجد نفسه تبعاً لذلك « في وضع شاق » ، ثم أخذ يشير الى المبرر الذي سيستند إليه الكوملين في تفسير العدوان الذي سيقوم به على بولندة . وكان هذا التفسير ، كما أبقى شولنبرغ لبرلين « سرياً ومستعجلاً للغاية » ... ثم قال :

« يود الروس أن يقولوا أن بولندة شرعت في الانهيار ، وان الواجب يحتم على الاتحاد السوفياتي ، نتيجة لذلك أن يسارع الى مساعدة الاوكرانيين والروس البيض الذين باتوا « مهددين » من المانيا . وأضاف مولوتوف أن هذه الحجة ضرورية لاضفاء شيء من التدبير المعقول بالنسبة الى الجماهير السوفياتية ، ولتجنب الاتحاد السوفياتي الظهور بمظهر المعتدي » .

واحتج مولوتوف أيضاً على بيان صدر عن الفريق فون براوخيتش ونقلته عنه وكالة الأنباء الألمانية قال فيه : « انه لم يعد ثمة حاجة الى أي عمل عسكري على حدود المانيا الشرقية » . وقال الوزير السوفياتي ان بيان القائد الألماني بروحي بأن الحرب قد انتهت وانه لم يعد ثمة مبرر لروسيا « في أن تشن حرباً جديدة » .

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٣٣-٣٤ .

٢ - تهنته مولوتوف - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٣٤ ووعدته بالعمل العسكري في ص ٣٥ .

وأضاف انه يحس بالامتعاض من تطور الوضع على النحو الذي وقع فيه (١) وراح مولوتوف ايزيد الامور تعقيداً ، يستدعي شولنبورغ الى الكرملين في الرابع عشر من ايلول ، وبعد ان ابلغه بأن الجيش الاحمر سيخف في وقت أبكر مما كانت متوقفاً ، طلب من السفير أن يبلغه موعد سقوط وارشو إذ ان الروس رأوا وجوب انتظار سقوط العاصمة البولندية لتبرير حركتهم العسكرية (٢) .

وأثار الوزير السوفياتي عدداً من الاسئلة المربكة المعقدة . فهو يريد أن يعرف موعد سقوط وارشو ، وهو يريد أن يعرف كذلك ، هل يرغب الالماني في أن يحمّلهم الروس جريرة تدخلهم وهل يقبلوا به ؟ . ولكن ريبنتراب راح في الخامس عشر من ايلول ، يهرق الى مولوتوف عن طريق سفيره ، رسالة « عاجلة للغاية وسرية » ، يرد فيها على هذه الاسئلة . وقال الوزير الالماني في رده أن وارشو « ستسقط في غضون بضعة أيام » ، وان المانيا « تود لو تدخل الروس بعملهم العسكري الآن » . وأضاف ريبنتراب ان المانيا ترى في الذريعة التي تود روسيا تبرير هجومها بها عن طريق إلقاء اللوم على المانيا ، أمراً لا يمكن قبوله ، ومتعارضاً مع حقيقة النوايا الالمانية ومخالفلاً لما اتفق عليه من ترتيبات في موسكو ، بالإضافة الى أنه سيظهر الدولتين أمام العالم كله بمظهر الدولتين العدويتين . وانتهى من رده طالباً الى الحكومة السوفياتية تحديد « اليوم والساعة » التي ستشرع فيها بالهجوم على بولندا (٣) .

وحددت روسيا ما طلبته المانيا في المساء التالي ، وتقدم برقيتان بعث بهما شولنبورغ ، وعثر عليهما بين الوثائق الالمانية المصادرة ، صورة عن خديعة الكرملين ، وعن الطريقة التي تمت فيها هذه الخديعة .. قال شولنبورغ في برقية بتاريخ ١٦ ايلول :

١ - برقية شولنبورغ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٤٤ - ٤٥

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٦٠ - ٦١

٣ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٦٨ - ٧٠

« قابلت مولوتوف في السادسة مساء . قال الوزير السوفياتي ان التدخل العسكري السوفياتي بات وشيك الوقوع ، وقد نغم غداً أو بعد غد . وأضاف ان ستالين يوالي مشاوراته الآن مع القادة العسكريين . »

« وذكر مولوتوف أن الحكومة السوفياتية تعتزم تبير اجرائها على النحو التالي : لقد وقع التفسخ في الدولة البولندية وزالت من جرائه من الوجود ، ولهذا غدت جميع الاتفاقات السابقة المعقودة مع بولندة لاغية . ومن المتوقع أن تحاول دول أخرى الافادة من الفوضى الناجمة عن هذا التطور . وتجد الحكومة السوفياتية نفسها ملزمة بالتدخل لحماية المواطنين الاوكرانيين والروس البيض ، ولتمكين هؤلاء المواطنين التعماء من العيش بأمان . »

واعترض شولنبورغ على هذا التبير ، لأن المانيا هي الدولة الوحيدة التي يمكن أن تكون المعنية بعبارة « الدول الأخرى » ... ثم مضى يقول في بوقيته :

« وأقر مولوتوف بأن المبرر المزمع الاستناد إليه من جانب الاتحاد السوفياتي ينطوي على تلميح بمس بمشاعر الالمان ، ولكنه طلب إلينا بالنظر الى الوضع الشاق الذي تجد الحكومة السوفياتية نفسها فيه ، أن تتسامح بهذا التلميح ، وأن لا نجعل من « الحبة قبة » . وأضاف أن الحكومة السوفياتية لا تجد لسوء الطالع إمكاناً في العثور على مبرر جديد ، طالما أن الاتحاد السوفياتي لم يكن قد اكثرت في الماضي بموضوع الاقليات الروسية في بولندة ، وطالما أنه في حاجة إلى تبير تدخله الراهن في الخارج بشكل أو بآخر (١) . »

وبعث شولنبورغ في الساعة الخامسة والدقيقة العشرين من بعد ظهر اليوم

التالي في السابع عشر من ايلول ، بريقة أخرى « عاجلة وسرية للغاية »
الى برلين ..

« استقبلي ستالين في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم ، وأبلغني
أن الجيش الاحمر ، سيجتاز الحدود السوفياتية في الساعة السادسة
مساء .. وستشرع الطائرات السوفياتية اليوم بقصف المناطق الواقعة
الى الشرق من لواو (ليمبرغ) » .

وعندما اعترض السفير الالماني على ثلاث نقاط واردة في البلاغ السوفياتي سارع
الديكتاتور السوفياتي « بمنتهى الرغبة والاستعداد » الى تغيير الصيغة (١) .

وهكذا تذرع الاتحاد السوفياتي بتلك الحجة الواهية من أن بولندة قد زالت
من الوجود وان ميثاق عدم الاعتداء البولندي - السوفياتي لم يعد باقياً ، وانه
بات يشعر باضطرابه الى حماية مصالحه ومصالح الاقليات الاوكرانية والروسية
البيضاء ، فراح يدوس بأقدامه ، بولندة المسكينة الهاوية صباح السابع عشر من
ايلول . وكان الاتحاد السوفياتي قد أبلغ السفير البولندي في موسكو « لزيادة
الظن ببلّة » بأنه سيحافظ على الحياد المطلق في الصراع البولندي ! . والتقى
الجنود السوفيات بالالمان في اليوم التالي ، الثامن عشر من ايلول ، عند بريست
ليتوفسك ، وهي المدينة التي كانت الحكومة البلشفية المولودة حديثاً ، قد
تنكرت فيها قبل واحد وعشرين عاماً ، لارتباطات بلادها بالخلفاء الغربيين ،
وقبلت من الجيش الالماني ، شروط الصلح المنفرد ، التي كانت مغرقة في
القسوة والشدة .

وعلى الرغم من أن الروس كانوا شركاء الآن لألمانيا النازية في ازالة بولندة
العريقة من الخارطة ، فإنهم ما لبثوا أن بدأوا يشكون برفقائهم الجدد . ففي
الاجتماع الذي عقده ستالين مع السفير الالماني عشية يوم العدوان السوفياتي ،
أعرب الطاغية الروسي عن شكوكه التي نقلها شولنبيرغ بإخلاص الى برلين ، فيما

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٧٩ - ٨٠

إذا كانت القيادة العليا الألمانية ستحافظ على اتفاقات موسكو وتسحب قواتها إلى الخط المتفق عليه . وحاول السفير تهدئة شكوكه ، وبعث الطمأنينة في نفسه ، ولكن محاولاته ذهبت كما يبدو أدراج الرياح . وراح شولنبرغ يقول في برقيته إلى برلين .. « وبالنظر إلى ما عرف عن ستالين من مزاج كثير التشكك ، فلماذا أكون ممتناً إذا حولتموني ، إصدار بيان آخر ، يكون من النوع الذي يضمن أن ينتزع من فؤاده كل ما بقي فيه من شكوك » (١) . وبعث ريبنتروب في اليوم التالي ، أي التاسع عشر من أيلول ، ببرقية إلى سفيره يخوله فيه « إبلاغ ستالين ، بأن ألمانيا ستحترم حتماً الاتفاقات التي عقدها هو — أي ريبنتروب — في موسكو ، وإنها تعتبر هذه الاتفاقات حجة الزاوية في علاقات الصداقة الجديدة بين ألمانيا والاتحاد السوفياتي » (٢) .

لكن الاحتكاك ظل قائماً على أي حال بين الشريكين اللذين لا تقوم شراكتها على أسس طبيعية . ووقع خلاف في السابع عشر من أيلول على نص البلاغ المشترك الذي كان من المقرر إصداره « لتبرير » اشتراك الروس والألمان في تدمير بولندا . فقد اعترض ستالين على الصيغة التي وضعها الألمان « لأنها تبسط الحقائق بصورة متناهية لا لزوم لها » وراح يضع الصيغة التي يقترحها هو ، والتي كانت نموذجاً في الخديعة والتضليل ، وأرغم الألمان على قبولها . وقد ذكرت هذه الصيغة أن الهدف المشترك لألمانيا وروسيا « إعادة السلام والنظام إلى بولندا بعد أن أدى تفسخ الدولة البولندية إلى انهيارها ، ومساعدة الشعب البولندي على إقامة أوضاع جديدة لحياته السياسية » . وهكذا عثر هتلر في شخص ستالين على صنوه في الفلسفة « الكلية » التي تقوم على الاستخفاف بعقول الناس .

ويبدو أن الديكتاتورين قد فكرا في بداية الأمر ، بإقامة « حطام دولة »

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ٩٢

٢ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ١٠٣

بولندية على نسق « دوقية وارشو الكبرى » التي أقامها نابوليون ، وذلك رغبة
منهما في تهدئة الرأي العام للعالمي . ولكن ما عثم مولوتوف في التاسع عشر من
أيلول أن أعلن أن البلاشفة قد أعادوا النظر في هذا الاقتراح . وبعد ان احتج
غاضباً إلى شولنبرغ على ما ادعاه من تجاهل القادة العسكريين الألمان لاتفاقات
موسكو عن طريق محاولتهم إلتهم أراض هي من حق موسكو بموجب هذه
الاتفاقات ، انتقل فوراً الى النقطة الأساسية ... كما أبرق شولنبرغ لبرلين ..

« أشار مولوتوف الى أن ما أحست به الحكومة السوفياتية
وستالين شخصياً من ميل سابق الى السماح بإقامة حطام دولة بولندية ،
قد اختفى ليحل محله ميل جديد الى اقتسام بولندية على أساس خط
بيزا - نارو - الفستولا - سان . وتود الحكومة السوفياتية أن
تبدأ المفاوضات مع ألمانيا على هذا الأساس فوراً » (١) .

وهكذا صدر الاقتراح باقتسام بولندية كلية وحرمان الشعب البولندي من أي
وجود مستقل مهما كان شكله ، عن الاتحاد السوفياتي . ولكن الألمان لم يكونوا
بدورهم في حاجة الى من يحسبهم على الموافقة على هذا الاقتسام . فقد أبرق ريبنتروب
الى شولنبرغ في الثالث والعشرين من ايلول ، بأمره بإبلاغ مولوتوف بأن
« الفكرة الروسية بإقامة خط للحدود على أساس الأنهار الأربعة المعروفة .
تتفق مع وجهة نظر حكومة الرايخ تمام الاتفاق » . واقترح ان يطير الى
موسكو ثانية لوضع تفاصيل هذا الاتفاق الجديد وكل ما يتعلق « بالكيان النهائي
للمنطقة البولندية » (٢) .

وتولى ستالين شخصياً الآن زمام المفاوضات ، وسرعان ما عرف حلفاؤه
البريطان والأمريكيون فيما بعد ، ما يتميز به هذا المساوم من انتهازية وصلابة
وكلبة . واستدعى الديكتاتور السوفياتي شولنبرغ الى الكرملين في الساعة

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ١٠٥ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ١٢٤ .

الثامنة من مساء الخامس والعشرين من ايلول ، وفتحت البرقية التي بعث بها هذا السفير في وقت لاحق من تلك الليلة عيون برلين على بعض « الوقائع القاسية » . وعلى أن بعض الفراخ قد سارعت الى اقنائها لتجثم فيها قبل الأوان . (إشارة الى وقوع تطورات منتظرة) ... قال شولنبرغ في برقيته :

« قال ستالين أنه يرى من الخطأ السماح باقامة حطام دواة بولندية مستقلة واقترح أن تضاف الى حصتنا امارة وارشو بكاملها التي تمتد الى الشرق من خط الحدود حتى نهر بوغ ، شريطة أن نتغلى مقابل ذلك عن كل مطالبنا في ليتوانيا .

« وأضاف ستالين أنه في حالة موافقتنا على اقتراحه ، فإن الاتحاد السوفياتي سيبادر فوراً الى وضع الحلول لمشكلة دويلات البلطيق على ضوء الملحق (السرى) لاتفاق الثالث والعشرين من ايلول ، وهو يعتمد في هذه القضية على تأييد الحكومة الالمانية المطلق ، وقد ذكر ستالين بوضوح كلاً من استونيا ولاتفيا وليتوانيا ، دون أن يذكر شيئاً عن فنلندة » (١) .

حقاً انها لمساومة مأكرة وقاسية . فستالين يعرض على المانيا امارتين بولنديتين باتتا في الواقع تحت سيطرة الالمان بعد احتلالها ، مقابل تخليهم عن دول البلطيق . وكان في مساومته هذه يستغل الخدمة العظيمة التي قدمها الى هتلر بتمكينه من الهجوم على بولندة ، ليحصل على كل شيء يتمكن من الحصول عليه لروسيا ، في الوقت الذي ما زال المجال فسيحاً فيه للمساومة . يضاف الى هذا انه يقترح أن يضم الالمان اليهم الأغلبية الغالبة للشعب البولندي . فهو يدرك كروسي ، ما علمته اياه قرون طويلة من التاريخ ، وهو أن البولنديين لن يستسلموا هادئين لفقد استقلالهم . ولذا فهو يرى انه اذا كان لابد لهم من إثارة المتاعب و « الصداع » فلتكن هذه المتاعب وذلك « الصداع » من نصيب الألمان

لا الروس . وسيأخذ في غضون ذلك دول البلطيق التي انتزعت من روسيا بعد الحرب الكونية الأولى ، والتي تسهل أوضاعها الجغرافية على الاتحاد السوفياتي الحماية الضخمة اللازمة ضد أي هجوم مباغت قد يشنه عليه حلفاؤه الألمان

ووصل ريبنتروب إلى موسكو بالطائرة للمرة الثانية في الساعة السادسة من مساء الثامن والعشرين من ايلول ، وأتيح له الوقت اللازم ، قبل المضي إلى الكرملين لقراءة برقيتين وصلتا من برلين ، تبصرانه بحقيقة ما يسعى إليه الروس وكانت البرقيتان صادرتين عن الوزير الألماني المفوض في تالين ينقل فيهما إلى حكومته ما أبلغته إياه الحكومة الاستونية قبل لحظات من ان الاتحاد السوفياتي قد طاب بعض القواعد العسكرية والجوية في أستونيا مهدداً « بالهجوم الفوري في حالة التقاعس عن تلبية هذا الطلب » (١) . وأبرق ريبنتروب في ساعة لاحقة من تلك الليلة إلى هتلر في برلين ، وبعد أن عقد اجتماعاً مطولاً مع ستالين ومولوتوف يقول ، ان ميثاقاً قد « عقد تلك الليلة نفسها » بخول الاتحاد السوفياتي وضع فرقتين من جنود الجيش الأحمر ، وكتيبة من السلاح الجوي على « الأرض الاستونية » دون المساس على أى حال بنظام الحكم الاستوني أو لغائه في هذا الوقت . ولكن الفوهرر ، وهو الخبير بهذا الطراز من الأعمال ، أدرك لتوه ، ضيق الفسحة الزمنية التي أتيحت لأستونيا قبل أن تلفظ أنفاسها الاخيرة ، ولذا فقد أبلغ ريبنتروب في اليوم التالي بأن الاوامر قد صدرت « باجلاء » (٨٦) ألف الماني من أستونيا ولاتفيا (٢) .

وهكذا أخذ ستالين في تقديم « فواتيره » ، وتحتم على هتلر مؤقناً على الاقل ، أن يؤدي قيمتها . فها هو يتخلى فوراً عن كل من استونيا ولاتفيا اللتين كان قد وافق في الميثاق النازي - السوفياتي على اعتبارهما من مناطق « المصالح » السوفياتية ولم ينته ذلك النهار حتى كان يتخلى أيضاً عن ليتوانيا الواقعة على

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ١٤٧-١٤٨ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ١٦٢ .

حدود ألمانيا الشمالية الشرقية ، وهي البلاد التي كانت البنود السرية في ميثاق موسكو قد نصت على أنها جزء من منطقة « مصالح » الرايخ .

وكان ستالين قد خير الألمان في الاجتماع الذي عقده مع ريبنتروب تلك الليلة والذي بدأ في العاشرة مساءً وانتهى في الواحدة من صباح الثامن والعشرين من أيلول بين أحد أمرين سبق له أن ذكرهما لشوانبرغ عند اجتماعه به في الخامس والعشرين . وهما : إما قبول الخط الأصلي للحدود في بولندية على طول أنهر بيزا ونارو والفستولا وسان ، مع الحصول على ليتوانيا أو التخلي عن هذه لروسيا مقابل الحصول على أرض بولندية أكثر اتساعاً بحيث تشمل أمانة لوبلين والاراضي الواقعة الى الشرق من وارسو ، مما يضمن للألمان السيطرة على الشعب البولندي بكامله . وحث ستالين الألمان حثاً ملحاً على قبول الخيار الثاني ، ونقل ريبنتروب هذه الرغبة الملحة الى هتلر في بوقية مطوّلة بعث بها اليه في الساعة الرابعة من صباح الثامن والعشرين من أيلول ، ووافق هتلر على القبول بها .

واستغرق تقسيم أوروبا الشرقية ، وما صاحبه من رسم مقعد للخرائط ، وقتاً طويلاً تجاوز حدود ثلاث ساعات ونصف الساعة من بعد ظهر الثامن والعشرين من أيلول ، عقبته وليمة رسمية في الكرملين ، واستأذن ستالين ومولوتوف أثناء الوليمة ، بالخروج للتحديث الى وفد لاتفي كانوا قد استدعياء للمجيء إلى موسكو . وهرع ريبنتروب خارجاً من المأدبة إلى دار الاوبرا لحضور فصل من أوبرا « بحيرة البجع » ، ليعود بعد انتهائه عند منتصف الليل الى الكرملين لإجراء محادثات أخرى بصدد الخرائط وغيرها من المواضيع . ووقع مولوتوف وريبنتروب في الساعة الخامسة صباحاً على ميثاق جديد ، أطلق عليه رسمياً اسم « معاهدة الحدود والصداقة الالمانية - السوفياتية » ، بينما أشرق وجه ستالين مرة ثانية ، على حد تعبير موظف ألماني في تقرير لاحق ، بعلامئ الرضى الواضحة « (١) » . وكان من حقه بالطبع أن يفرح وان يرضى « (٢) » .

١ - كتب هذا الموظف ويدعى اندور هينكي ، وكان يعمل دليلاً لوزارة الخارجية الالمانية

وأعلنت المعاهدة التي أذيعت نصوصها تخطيط الطرود بالنسبة الى « المصالح القومية للفريقين المتعاقدين » ضمن حدود « الدولة البولندية السابقة » وأوضحت أن الدولتين المتعاقدين ستعيدان « إقرار السلام والنظام » في المناطق التي حصلتا عليها وانهما ستضمنان للشعب الذي يعيش في هذه المناطق حياة سلمية تنسجم مع شخصيته القومية .

ولكن هذه المعاهدة ، شأنها في ذلك شأن سابقتها ، انطوت على « ملاحق سرية » ، عددها ثلاثة ملاحق تضمن اثنان منها زبدة الاتفاق وجوهره ، اذ نص الأول على اضافة ليتوانيا الى « منطقة النفوذ » السوفياتية مقابل اضافة مقاطعتي لوبلين ووارشو الشرقية الى « منطقة النفوذ » الالمانية ، بينما كان الملحق الثاني صريحاً وموجزاً في النص على أن لا ...

« تتسامح الدولتان المتعاقدتان في مناطقهما البولندية مع أي اضطراب بولندي قد يؤثر على المناطق الأخرى ، وتتعهدان باخذ أية اضطرابات من هذا النوع من مستهلها ، وبتبادل المعلومات فيما بينهما بصدد الاجراءات اللازمة لتحقيق هذا الهدف . »

وهكذا اختفت بولندية ، كما اختفت النمسا وتشيكوسلوفاكيا من قبل ، من خريطة أوروبا . لكن أدولف هتلر لم يكن وحيداً هذه المرة وانما تلقى العون والمساعدة ، في هذه العملية من ازالة هذه البلاد من الوجود ، من دولة تدعى « اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية » كانت تبدو دائماً بمظهر المدافع عن الشعوب المضطهدة ، وحامي حماها وكان هذا التقسيم هو الرابع لبولندية على

= بعد أن خدم عدة سنوات سابقة في سفارة بلاده في موسكو وصفاً مفصلاً وممتناً للمحادثات . وكان هذا الوصف هو التسجيل الالمانى الوحيد عن اجتماعات اليوم الثاني من المحادثات . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) الملحق رقم (١) .

٢ - يوجد نص المعاهدة وثلاثتها السرية والبلاغ الرسمي والرسائل المتبادلة بين مولوتوف وريبنتروب في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ١٦٤ - ١٦٨ .

أيدى ألمانيا وروسيا (١) . وكانت النمسا قد اشتركت في عمليات التقسيم السابقة ، وقدّر له أن يكون مـدّة بقاءه ، أكثر هذه العمليات قسوة وبمـدّاً عن الرحمة والاشفاق . إذ اتفق هتلر وستالين في الملحق السرى الذى عقده فى الثامن والعشرين من ايلول (٢) . على إقامة عهد من الارهاب فى بولندة ، قصد منه أن يقضى على حرية هذه البلاد وثقافتها ووجودها القومي .

ولقد حارب هتلر فى بولندة وكسب حربها ، لكن ستالين كان الرابع الاكبر فى هذه الحرب ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهى أنه لم يطلق رصاصة واحدة فيها (٣) . ولقد تمكن الاتحاد السوفياتي من أن يسيطر على نصف بولندة تقريباً وأن يقيم حاجزاً منيعاً فى دول البلطيق . وقد ضيق هذا الحاجز الحصار على المانيا بشكل أوثق ، وأبعدها عن تحقيق أى من هدفها الاساسيين البعيدى المدى ، وهما الحصول على قمع اوكرانيا والسيطرة على الزيت الرومانى . وتحتاج المانيا حاجة ماسة الى هاتين الماد . اذا كانت تريد البقاء ومقاومة الحصار البريطانى . وتمكن ستالين أيضاً من السيطرة على منطقة بوريسلان - دورغوبيكز البولندية الغنية بالبترول ، والتي كان هتلر يود لو تمكن من الاستيلاء عليها ، ولكنه ، أى ستالين ، وافق كرماءً منه على أن يبيع الالمان زيتاً يعادل فى كمّته الانتاج السنوى لهذه المقاطعة .

فلماذا دفع هتلر هذا الثمن الى الروس ؟ من الحق أن يقال ، انه قد وافق على دفعه فى شهر آب ، رغبة منه فى الابقاء على الاتحاد السوفياتي بـمـدّاً عن معسكر الحلفاء ، وخارج نطاق الحرب . ولكنه لم يكن قط ، صادقاً فى التمسك بمعاهداته واتفاقاته ، وكان فى مكنته الآن أن يستجيب الى حث قادة الجيش

١ - يطلق أرنولد تويني على هذا التقسيم فى كتبه المختلفة اسم التقسيم الخامس

٢ - أرخت هذه المعاهدة رسمياً فى الثامن والعشرين من ايلول ، على الرغم من التوقيع عليها فى الخامسة من صباح التاسع والعشرين منه .

٣ - اعلن الالمان رسمياً أن خسائرهم فى بولندة بلغت ١٠٠٥٧١ قتيلًا و ٣٠٠٣٢٢ جريحاً و ٣٤٠٠ مفقود .

وأن يعلن تنكره لميثاق الثالث والمشرين من آب ، ولا سيما بعد أن تم احتلال
بولندية نتيجة عمل مدهش لا مثيل له من أعمال السلاح الألماني . ولو اعترض ستالين
على ذلك ، لكان في مكنة الفوهرر أن يهدده بالهجوم مستخدماً أقوى جيش في
العالم ، كما أقامت الحملة البولندية الدليل على ذلك . ولكن هل كان بوسعه أن
يهاجمه فعلاً ؟ لا . طالما أن القوات البريطانية والفرنسية مازالت مرابطة في الغرب
تحمل سلاحها . ولكي يصفى أمره مع بريطانيا وفرنسا ، رأى إزاماً عليه
الإبقاء على مؤخرته في منجاة من الخطر . وكان هذا التفكير هو الذي حمله ، كما
شرح هو نفسه فيما بعد ، على السماح لستالين بالغلو في تلك الصفقة التي عقدها .
ولكنه ظل يذكر هذه المساومة القاسية من جانب الديكتاتور السوفياتي وهو يتجه
باهتمامه الآن الى الجبهة الغربية .

حَرْبُ «الجلوس» في الغرب

لم يقع الكثير في الجبهة الغربية . ولم تطلق حتى رصاصة واحدة إلا فيما ندر . . . وشرع « رجل الشارع » الألماني ، يطلق على هذه الحرب اسم « حرب الجلوس » . أما في الغرب فقد أخذوا يلقبونها « الحرب الزائفة » . ففي هذه الجبهة يقف « أقوى جيوش العالم (الجيش الفرنسي) » على حشد تمير اللواء (الجنرال) البريطاني جي . إف سي فولر ، « مواجهاً ما يزيد على ست وعشرين فرقة ألمانية ، يجلس رجالها هادئين ، قابعين وراء حصونهم من الإسمنت والفولاذ بينما تجري هناك إبادة دولة حليفة بأسلة الى أقصى حدود البسالة » (١) .

فهل دهش الألمان با ترى ؟ كلا انهم لم يدهشوا مطلقاً ، ففي يوميات الفريق هولدر نفسه ، وفي مستهلها الذي شرع في كتابته في الرابع عشر من آب ، وضع رئيس هيئة الأركان العامة للجيش الألماني ، تقريراً مفصلاً للوضع في الغرب في حالة قيام المانيا بمهاجمة بولندة . وقد رأى أن قيام الفرنسيين بالمهجوم في الغرب « احتمال بعيد للغاية » . وكان واثقاً من أن فرنسا لن تبعث بجيشها عبر الأراضي البلجيكية لمهاجمة ألمانيا ، « صد رغبات البلجيكيين أنفسهم » . وتوصل الى

١ - اللواء جي . فولر - الحرب العالمية الثانية . ص ٥٥ مقتبس من « الربع الأول »

النتيجة التي تقول بأن الفرنسيين سيواصلون التزام موقف الدفاع . وكنا قد ذكرنا قبل قليل ، أن الفريق هولدر ، شرع في السابع من ايلول ، بعد أن أيقن من القضاء على الجيش البولندي ، يشغل نفسه في وضع الخطط الرامية الى نقل القوات الالمانية الى الغرب .

ودون عشية ذلك اليوم نتائج اجتماع عقده الفريق بواوختيش بعد ظهر اليوم نفسه مع هتلر . فقال :

« لم تنضج العمليات في الغرب حتى الآن . هناك بعض الدلائل على عدم وجود نية فعلية في شن حرب في هذه الجبهة ... ويفتقر أعضاء الوزارة الفرنسية إلى الوزن البطولي . وهناك تلميحات أولى من جانب بريطانيا عن تأمل مغرق في التفكير ... »

وأصدر هتلر بعد يومين التوجيه الثالث عن إدارة دفعة الحرب مصدراً أوامره باتخاذ الاجراءات اللازمة لنقل وحدات من الجيش والسلاح الجوي من بولندا إلى الغرب . ولكن التوجيه لا يتطلب من هذه الوحدات أن تقاتل . ومضى التوجيه يقول بصراحة .. « وحتى لو بدأت بريطانيا العظمى بداية تقتقر الى التصميم في شن العمليات الحربية .. وحذت فرنسا حذوها ، فإن من الواجب الحصول على أوامري الصريحة في كل حالة من الحالات التالية . وهي قيام قواتنا الأرضية أو احدى طائرتنا باجتياز الحدود الغربية ، أو قيام طائرتنا بهجوم جوي على بريطانيا » (١) .

ولكن ترى ما هي الوعود التي صدرت عن فرنسا وبريطانيا لبولندا في حالة تعرض هذه للهجوم ؟ كانت الضمانة البريطانية عامة ، بينما كانت الضمانة الفرنسية محدودة ومعينة ، وقد تم النص عليها في الميثاق العسكري الفرنسي البولندي الذي عقد في التاسع عشر من ايار عام ١٩٣٩ . وأوضح هذا الميثاق ان الاتفاق قد تم على أن يشن الفرنسيون « عمليات هجومية تدريجية » ضد

١ - نص التوجيه في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٤١ .

أهداف محدودة في « نهاية اليوم الثالث من اعلان التعبئة العامة » . وقد أعلنت التعبئة العامة في فرنسا في الأول من ايلول . واتفق كذلك على أن تقوم فرنسا في حالة توجيه الالمان جهودهم الرئيسية ضد بولندة ، بشن هجوم رئيسي بمجموع قواتها ضد المانيا ابتداء من اليوم الخامس عشر بعد اعلان التعبئة الفرنسية العامة » . وعندما سأل العقيد جاكولينز نائب رئيس هيئة اركان الحرب البولندية ، عن عدد القوات الفرنسية التي يمكن توافرها لهذا الهجوم الرئيسي ، رد الفريق غاملان ، بأن هذه القوات ستراوح بين الخمس والثلاثين والثلاثين فرقة (١) .

ولكن عندما أصبح الهجوم الألماني متوقفاً في كل لحظة على بولندة ، في الثالث والعشرين من آب ، كانت الجنرال سيمو (الجنرال الاكبر) الفرنسي يبلغ حكومته ، كما رأينا من قبل انه لا يستطيع القيام بأي هجوم جدي « في أقل من نحو عامين .. أي في عام ١٩٤١ - ١٩٤٢ » ، مع افتراض شرط آخر وهو أن تكون فرنسا في ذلك الوقت قد تلقت « عون القوات البريطانية والمعدات الحربية الامريكية » .

وليس ثمة من شك في أن بريطانيا لم تكن قادرة في الأسابيع الاولى من الحرب . على ان توفد اكثر من قوات قليلة الى فرنسا . ولقد أصبح لها في الحادي عشر من تشرين الاول ، أي بعد ثلاثة اسابيع من انتهاء القتال في بولندة اربع فرق في فرنسا تعد (١٥٨) ألف رجل . واطلق تشرشل على هذه القوة اسم « المساعدة الرمزية » وذكر فولر ان الاصابة البريطانية الاولى ، التي كان ضحيتها عريف انكليزي قتل إبان قيامه بأعمال الدورية - قد وقعت في التاسع من كانون الاول . ويعلق فولر على ذلك بقوله . « كانت حرباً خالية من سفك الدماء ولم يعرف العالم مثيلاً لها منذ معركة مولينلا (Molinella) وزاغونارا

١ - فامير - في العهد النازي ص ٤٥٩ - ٤٦٠ يورد فامير نص الميثاق العسكري .

1 (Zagonara) « (١) .

وإذا ما عاد المرء بذاكرته الى الورا مستذكراً الوقائع وحاكماً عليها على ضوء ما وقع فعلاً فيما بعد ، تبين لنا ان القادة العسكريين الألمان اتفقوا في اثناء محاكمات نورمبرغ ، على ان الحلفاء الغربيين اضاعوا فرصة ذهبية بتقاعسهم عن الهجوم في الغرب . فلقد ذكر الفريق هولدر ..

« كان نجاحنا ضد بولندة ، ثمرة تمكنا بنجاح من تحصين حدودنا الغربية تحصيناً كاملاً . ولو تمكن الفرنسيون من ادراك منطق الاوضاع والامور ، واستغلوا فرصة انشغال القوات الألمانية في بولندة ، لكاث في امكانهم عبور نهر الراين دون ان تتمكن من منعهم ، ولهددوا بذلك منطقة الروهر ، وهي العامل الحاسم جداً في تسيير الالمان لدفة حربهم » (٢) .
وقال الفريق يودل ايضاً ..

« وإذا كنا لم نفشل ولم نتلاش فان الفضل في ذلك يعود الى بقاء المائة والعشر فرق فرنسية وبويطانية خاملة لا عمل لها في الغرب ، أمام ثلاث وعشرين فرقة المانية ، وذلك طيلة حملتنا في

١ - استقل الكاتب في التاسع من تشرين الأول ، القطار الذي يسير بجذاء الضفة الشرقية لنهر الراين باتجاه الشمال ، حيث يؤلف النهر مسافة نحو من مائة ميل الحد الفاصل بين فرنسا والمانيا ، ودون في يومياته ما يلي : « ليست هناك اية علامة على وجود حرب . وابلغني موظفو القطار انه لم تطلق رصاصة واحدة على هذه الجبهة منذ نشوب الجرب . وكان في وسعنا ان نرى المنابر الفرنسية ونصر بجواجز فرنسية كبيرة في بعض الاماكن حيث يقوم الجنود وراءها ببناء التحصينات . ولا تختلف الصورة في الجانب الالمانى عنها عند الفرنسيين . فالجنود يقومون بأعمالهم على مرأى من جنود العدو وعلى مرمى النار منهم . وكان الالمان ينقلون على الخط الحديدي المؤن والمدافع دون ان يتعرض لهم الفرنسيون بأذى . يا لها من حرب غريبة » (يوميات برلين للمؤلف ص ٢٣٤) .

٢ - شهادة هولدر الدفاعية في « قضية الوزراء » في محاكمات نورمبرغ في ٨ - ٩ ايلول هام ١٩٤٨ (محاكمات مجرمي الحرب - ١٢ - ص ١٠٨٦) .

بولندية « (١) .

واضاف الفريق كايتل رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة الشهادة التالية :
« وكنا نحن العسكريين نتوقع هجوماً من فرنسا إبان حملتنا في
بولندية ، وكانت دهشتنا بالغة عندما لم يتحقق ما توقعناه . ولو شن
الفرنسيون هذا الهجوم لما واجه إلا عمليات تغطية عسكرية المانية
دون ان يكون هناك دفاع حقيقي » (٢) .

إذن ترى ما الذي حال بين الجيش الفرنسي - إذ لم تصل الفرقتان البريطانيان
الاوليان الى الجبهة إلا في الاسبوع الاول من تشرين الاول وبين الهجوم في
الغرب على الرغم من تفوقه الهائل على القوات الالمانية هناك . تنفيذاً للوعود الخطية
الصادرة عن الفريق غاملان وعن الحكومة الفرنسية لبولندية ؟

هناك اسباب عدة حالت دون هذا الهجوم اولها روح الانهزامية التي سيطرت
على القيادة العليا الفرنسية وعلى حكومة فرنسا وشعبها . وثاني هذه الاسباب
الذكريات المريبة عن الحرب الكونية الاولى ، عندما سالت دماء الفرنسيين
انهاراً ، مما خلق تصميماً عند المسؤولين على عدم تكرار تلك المذابح ، اذا كانت
تجنبها ممكناً . وكان السبب الثالث هو ادراك المسؤولين في منتصف شهر ايلول ،
بأن الالمان قد أتموا هزم الجيش البولندي هزيمة كاملة ، وان من المحتمل ان
يتمكنوا قريباً - أى الالمان - من نقل قوات متفوقة الى الغرب تقضي على أية
مكاسب فرنسية اولية وتمحوها نحواً تاماً . أما السبب الرابع فهو خوف
الفرنسيين من تفوق الالمان عليهم في السلاح وفي الجو . وبالفعل كانت الحكومة
الفرنسية قد أصرت منذ البداية ، على ان يمنع السلاح الجوي البريطاني عن
مهاجمة الاهداف في ألمانيا مخافة ان يثار الالمان بالاغارة على المصانع الفرنسية ،

١ - شهادة بودل دفاعاً عن نفسه في ٤ حزيران ١٩٤٦ في نورمبرغ (محاكمات كبار
مجرمي الحرب (١٥) ص ٣٥٠) .

٢ - شهادة كايتل دفاعاً عن نفسه في ٤ نيسان ١٩٤٦ في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي
الحرب (١٠) ص ٥١٩) .

مع العلم بأن الإغارة بشكل قوي وشامل على الروهر . قلب ألمانيا الصناعي ، كان كفيلاً بأن يترك آثاراً مفعمة عند الألمان . وكان القادة الألمان يخشون هذا التطور أشد الخشية ، وظل يقض عليهم مضاجعهم طيلة شهر ايلول ، طبقاً لاعتراف الكثيرين منهم فيما بعد .

وليس ثمة من شك في ان تشرشل قد اوضح في مذكراته السبب الجوهرى الذى حمل فرنسا على عدم مهاجمة ألمانيا عندما قال : « لقد خسرت فرنسا هذه المعركة قبل سنوات طوال » (١) . اجل لقد خسرتها عندما سكت الحلفاء في ميونيخ عام ١٩٣٨ . وقبل ذلك عندما اعاد الألمان احتلال منطقة الراين في عام ١٩٣٦ ، وقبل سنة اخرى عندما أعلن هتلر التجنيد الازامى متحدياً بمعاهدة فرساي وهكذا دفع الآن ثمن تقاعس الحلفاء تقاعساً مؤلماً عن العمل في السنوات الماضية ، على الرغم من الحقيقة الواقعة ، وهي ان باريس ولن تدن صورتها ان في الامكان تأجيل دفع هذا الثمن عن طريق التقاعس عن العمل .

لكن البحر ، بات مسرحاً للعمل الحربى . ولم يحصر الاسطول الالماني في الاكفان التى حصر بها الجيش في القرب ، وتمكن هذا الاسطول في الاسبوع الاول من البدء بالعمليات الحربية من اغراق احدى عشرة باخرة بريطانية مجموع حمولتها (٦٤,٥٩٥) طناً وهو نصف الرقم للحمولة الاسبوعية التى اغرقتها الغواصات الالمانية في قمة نشاطها في نيسان عام ١٩١٧ ، عندما اشرفت بريطانيا العظمى على شفير الكارثة . وبدأت خسائر البريطانيين في الهبوط بعد ذلك ، فبلغت (٥٣,٥٦١) طناً في الاسبوع الثانى و (١٢,٧٥٠) في الاسبوع الثالث و (٤,٦٤٦) في الاسبوع الرابع ، وبذلك بلغت الخسائر في شهر ايلول بكامله ستاً وعشرين باخرة اغرقها الغواصات مجموع حمولتها (١٣٥,٥٥٢) طناً ، وثلاثاً اخرى اغرقها الالغام حمولتها (١٦,٤٨٨)

١ - مذكرات تشرشل ص ٤٧٨ .

وكان ثمة سبب لهذا الهبوط السريع ، لم يكن البريطانيون يعرفونه آنذاك . فلقد اجتمع الاميرال ريدر طويلاً الى هتار في السابع من ايلول وكان الفوهرر قد أحس بالزهو والطرب من انتصاراته الاولى في بولندة ، ومن تقاعس الفرنسيين عن الهجوم في الغرب . فنصح قائد الاسطول بالتؤدة في الحرب البحرية . وكانت فرنسا قد اظهرت « كبتاً لأعمالها في الميدانين السياسي والعسكري » ، كما كانت بريطانيا قد اظهرت « ترددأ واضحاً » وتقرر على ضوء هذه الاوضاع ان تمتنع الغواصات في المحيط الاطلسي عن مهاجمة كافة بواخر الركاب دون استثناء . وان تمتنع كلية عن مهاجمة البواخر الفرنسية ، وان تقلع بارجة الجيب « دويتشلاند » العاملة في شمال الاطلسي ، وبارجة الجيب « غراف شبي » العاملة في جنوب هذا المحيط ، الى مراكز الانتظار في الوقت الحاضر ، متوقفة عن العمل . ودون ريدر في يومياته ان « السياسة العامة اقتضت التمسك بضبط النفس الى ان يصبح الوضع السياسي في الغرب اكثر جلاء ، وهذا يستغرق

١ - كشف تشرشل ، وزير البحرية آنذاك ، عن الارغام التقريرية في بيان ألقاه في مجلس العموم في السادس والعشرين من ايلول . وعاد فذكر الارغام الرسمية « المصححة » في مذكراته . ولقد ذكر المجلس ايضاً ان ست غواصات المانية أو سبعاً قد اغرقت ، وعاد فصيح في كتابه ايضاً هذا الرقم فيما بعد فذكر ان غواصتين المانيتين فقط قد اغرقتا في هذه المدة .

وتبين خطاب تشرشل هذا بطرفة ممتعة : فقد ذكر ان قائد احدى الغواصات الالمانية قد بعث اليه شخصياً برسالة لاسلكية يبلغه فيها عن موقع باخرة بريطانية اغرقها قبل قليل، وحثه على ارسال وسائل النجدة لانقاذ بحارتها ، وقال تشرشل .. « ولم اعرف النوان الذي استطيع ان اوجه اليه الرد على هذه الرسالة ، لكنه بات الان في قبضتنا » . ولكن قائد الغواصة لم يقع في ايدي البريطانيين كما قال تشرشل . فقد عقدت معه وهو القبطان هيربرت شولتز ، حديثاً اذاعياً وجهته الى امريكا بعد يومين . وقد اضطلع لي من سجل غواصته البرقية التي بعث بها الى تشرشل (راجع مذكرات تشرشل ص ٤٣٦ - ٤٣٧ ، ويوميات برلين للمؤلف ص ٢٢٥ - ٢٢٧) .

غرق الباخرة اثينيا

واتفق هتلر وريدر في اجتماعهما في السابع من ايلول على قرار آخر . فقد دون الاميرال في يومياته . « يجب ان لا نقوم بأية محاولة لحل مشكلة «اثينيا» الى ان تعود الغواصات الى الوطن » .

وكنا قد ذكرنا ان الحرب في البحر ، بدأت بعد عشر ساعات من اعلان بريطانيا الحرب ، عندما نسفت الباخرة اثينيا التي تحمل (١٤٠٠) راكب بالطوربيد دون انذار في الساعة التاسعة من مساء الثالث من ايلول على بعد نحو من مائتي ميل الى الغرب من جزر « الهيبيرديز » ، مما ادى الى غرق (١١٢) شخصاً من ركابها بينهم (٢٨) من الامريكيين . و ارادت وزارة الدعاية الالمانية التأكد من الانباء الاولى التي اذيعت من لندن عن الحادث ، فاتصلت بالقيادة العليا للأسطول ، و قيل لها ان ليس ثمة من غواصات المانية في المنطقة التي تمزقت فيها الباخرة ، ونفت نفيّاً جازماً ان يكون الالمان هم المسؤولون عن اغراقها . وحيرت الكارثة هتلر وقيادته البحرية ، ومالا في البداية الى الشك في صحة الانباء البريطانية . وكانت القيادة البحرية العليا قد اصدرت اوامر صارمة الى جميع قادة الغواصات بملاحظة ميثاق لاهاي ، الذي يمنع قيام الغواصات بمهاجمة أية باخرة قبل انذارها . ولما كانت جميع الغواصات تمتنع عن اعطاء أية اشارات لاسلكية حرصاً على سرية حركاتها ، فلم يكن ثمة سبيل للتحقق مما وقع فوراً (٢) . ولكن هذا لم يحل بين الصحافة النازية الموجهة وبين توجيه التهمة في غضون

١ - « اجتماعات الفوهرر لبحث الشؤون البحرية » - ١٩٣٩ - ص ١٦ - ١٧

٢ - صدرت اشارة لاسلكية في اليوم التالي ، الرابع من ايلول الى جميع الغواصات هذا نصها : « يأمر الفوهرر ، بعدم القيام بأية عملية حربية ، مهما كان السبب مد أية باخرة من بواخر الركاب ، حتى ولو كانت تحت حراسة حربية » .

يؤمن الى بريطانيا بنسف هذه الباخرة رغبة منها في استفزاز الولايات المتحدة ودفعها الى الاشتراك في الحرب .

وسيطر القلق فعلاً على دوائر « الويلهلمستراسه » من رد فعل امريكا على الكارثة التي أدت إلى موت ثمانية وعشرين من المواطنين الامريكيين . واستدعى وايزساكر بعد يوم واحد من غرقها ، اليكزاندر كيرك ، القائم بأعمال السفارة الامريكية ونفى له ان تكون الغواصات الألمانية هي المسؤولة عن غرقها . مؤكداً ان أية قطع بحرية المانية لم تكن قريبة من مكان الحادث آنذاك . وذكر وزير الدولة ايضاً في شهادته اللاحقة في نورمبرغ ، انه راح يقابل الاميرال ريدر تلك الليلة . ليذكره كيف أدى اغراق الالمان للباخرة لوزيتانيا في الحرب الكونية الاولى الى دخول امريكا الصراع العالمي ، وليحثه «على اتخاذ كل وسيلة » لتجنب استفزاز الولايات المتحدة وقد أكد له الاميرال الالمانى أن « أية غواصات ألمانية لا يمكن أن تكون قد اشتركت في عمل كهذا » (١) .

ودعا الاميرال ريدر بطلب ملحق من ريننتروب ، الملحق البحري الامريكي لمقابلته في السادس عشر من ايلول ، وصرح له بأنه قد تلقى معلومات من جميع غواصاته ، وقد أصبح نتيجة لذلك على ثقة « من أن الغواصات الالمانية ليست المسؤولة عن غرق الباخرة أثينيا » ، وطلب إليه ابلاغ حكومته ذلك ، ففعل الملحق الامريكي ما طلبه منه (٢) .

ولكن أمير البحر الاكبر لم يكن قد روى الحقيقة . إذ لم تكن جميع الغواصات التي كانت تعمل في البحر في الثالث من ايلول قد عادت الى قواعدها .

١ - مذكرة وايزساكر عن محادثته مع كيرك (وزارة الخارجية الالمانية (٨ ص ٣-٤) وشهادته في نورمبرغ عن حديثه مع ريدر (محاکمات كبار مجرمي الحرب (١٤ ص ٢٨٧)

٢ - يبدو أن برقية الملحق الامريكي لم ترسل بالرموز ، فقد ظهرت صورة من البرقية في اوراق البحرية الالمانية في محاکمات نورمبرغ (محاکمات كبار مجرمي الحرب (٣٥ ص ٥٢٧ - ٥٢٩) .

فلقد كان بين هذه الغواصات الغواصة (يو ٣) التي يقودها الملازم الاول ليمب ، التي لم ترس في مياه الوطن حتى السابع والعشرين من ايلول . وقد استقبلها الاميرال دونيتز قائد سلاح الغواصات . الذي تولى بعد سنوات وفي نورمبرغ وصف الاستقبال ، وكشف أخيراً النقاب عن القصة الحقيقية لغرق الباخرة « اثينيا » إذ قال :

« قابلت القبطان ، الملازم الأول ليمب ، على رصيف ويلهلمسهاfen عندما كانت الغواصة تدخل الميناء ، وطلب ان اسمح له بالتحدث إليّ على انفراد . ولاحظت فوراً ، انه كان يبدو تعساً وقد ذكر لي فوراً بأنه يعتقد بأنه مسؤول عن غرق الباخرة اثينيا في منطقة الطريق الشمالية ، وكان تنفيذاً لتعليماتي السابقة ، يراقب مراقبة دقيقة ظهور أية بواخر تجارية مسلحة في مداخل الجزر البريطانية ، وقد نسف بطوربيداته باخرة تبين فيما بعد من الاذاعات اللاسلكية انها اثينيا ، وكان يخالها طراداً تجارياً مسلحاً يقوم بأعمال الدورية .

« وبعثت بليمب فوراً وبالطائرة الى برلين ليقدم تقريراً الى هيئة أركان البحرية . وأمرت في غضون ذلك بالسرية المطلقة كإجراء وقائي مؤقت . وتلقيت في صبيحة اليوم التالي ، أو في نفس اليوم . فقد نسيت التاريخ تماماً أمراً من القيادة العامة يقول :

« ١ - يجب الحفاظ على سرية القضية تماماً » .

« ٢ - لا ترى القيادة للأسطول ضرورة لمحاكمة القبطان أمام محكمة عسكرية ، نظراً لقناعتها بأنه ارتكب ما ارتكبه عن حسن نية » .

« ٣ - ستتولى القيادة العامة الايضاحات السياسية اللازمة » .

« ولم يكن لي على أي حال دور مهما كان شكله في الأحداث السياسية التي حملت الفوهرر على الادعاء بأن الغواصات الالمانية لم

تكن مسؤولة عن اغراق أثينيا ه (١) .

ولكن دونيتز الذي يفسر وجوده في الميناء لاستقبال الغواصة (يو ٣٠) عند عودتها الشكوك التي كانت تساوره منذ البداية في الموضوع كله ، قد اشترك فعلاً في تغيير سجل الغواصة ، وفي تغيير يومياته نفسها ، رغبة منه في طمس معالم أي دليل يقوم على الحقيقة . فقد اعترف هو نفسه في نورمبرغ ، بأنه قد أصدر الأمر بحرق أي ذكر للباخرة أثينيا من سجل الغواصة المذكورة ، كما طمس أية إشارة إليها في يومياته . وقام كذلك بحمل بحارة الغواصة على أداء اليمين بالحفاظ على السرية المطلقة (٢) .

وتحتفظ جميع القيادات العسكرية لجميع الدول في أيام الحروب بأسرار داخلية غير مستحبة ، وكان من المفهوم ، إن لم يكن من المقبول ، أن يصرف هتار ، كما شهد أمير البحر ريدر في نورمبرغ فيما بعد ، على الاحتفاظ بسرية موضوع أثينيا ، لا سيما وان القيادة البحرية العليا ، كانت تظن نفسها صادقة عندما نفت أولاً مسؤولية ألمانيا عن اغراقها . وكان لا بد من أن نحس بالكثير من الضيق إذا تحتم عليها أن تعترف بهذه المسؤولية فيما بعد . ولكن هتار لم يكتف بذلك أبداً . فلقد راح غوبلز وزير الدعاية يذيع بنفسه مساء الاحد الثاني والعشرين من تشرين الاول ، كما يذكر مؤلف هذا الكتاب تماماً ، ليتها في إذاعته تشرشل بإغراق

١ - شهادة دونيتز المشفوعة باليمين في نورمبرغ (المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ١١٤ - ١١٥) .

٢ - نقل ضباط الغواصة ومعهم قائدها ليمب وبعض بحارتها كذلك الى الغواصة « يو ١٠ » وقد غرقوا جميعاً معها عندما غرقت في التاسع من ايار عام ١٩٤١ . وقد أصيب أحد البحارة بجراح من نيران الطائرات بعد بضعة ايام من غرق الباخرة أثينيا . وأنزلته الغواصة في ميناء ريكجافيك في السليزية ، في منتهى السرية ، ثم نقل فيما بعد الى معسكر لأسرى الحرب في كندا ، ووقع بعد انتهاء الحرب على شهادة مشفوعة باليمين تسرد الحقائق . ويبدو ان الالمان كانوا يخشون من أن « يتحدث » ولكن يدور أنه لم يتبس بينة شدة حتى انتهاء الحرب . (المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ١٥٦ - ١٥٨) .

الباخرة «أثينيا» . وطلعت صحيفة النازيين الرسمية - الفولكشاير بيوباختر - في اليوم التالي تنشر قصة في صدر صفحتها الاولى تحمل العنوان الكبير التالي : « تشرشل يغرق اثينيا » ، ذكرت فيها ان وزير البحرية البريطانية قد وضع قنبلة موقوتة داخل الباخرة . وقد ثبت في محاكمات نورمبرغ ان الفوهرر قد أمر شخصياً بإذاعة ذلك الحديث ونشر ذلك المقال ، وانه على الرغم من أن ريدر ودونيتز ووايز ساكر كانوا قد أحسوا بالامتناع من هذه الكذبة الصارخة ، إلا أنهم لم يجرؤوا على القيام بأي عمل تجاهها (١) .

وقد قدر لهذا الجنب من جانب الأميرالين ومن جانب هذا الكبير المسؤول في وزارة الخارجية والمصر على إظهار نفسه بمظهر المناوئ للنازية ، وهو جن كان يشترك معهم فيه كل الاشتراك القادة العسكريون كلما ظهر سيد الحرب النازي المهووس بمظهر الجنون ، ان يقود المانيا الى حقبة من أكثر الحقب سواداً في تاريخها .

هتلر يقترح الصلح

دونت في يوميتي بتاريخ العشرين من ايلول . . . « تتحدث الصحف صراحة اليوم عن الصلح والسلام » ويكاد يؤكد جميع الالمان الذين التقيت بهم اليوم أن السلام سيعود ثانية في غضون شهر . ان مغنوياتهم عالية للغاية . . وأصغيت في القاعة المذهبة والمزخرفة في دانزيغ قبل ظهر اليوم السابق الى

١ - شهادة ريدير في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٤) ص ٧٨) ، وشهادة وايز ساكر (نفس المصدر ص ٢٧٧ و ٢٧٩ و ٢٩٣) وشهادة هانز فريتش من كبار موظفي وزارة الدعاية (نفس المصدر (١٧) ص ١٩١ و ٢٣٤ - ٢٣٥) ، ومقال الفولكشاير بيوباختر في المؤامرة النازية والدوان (٥) ص ١٠٠٨ . وإذاعة غوبلز من (يوميات برلين للمؤلف ص ٢٣٨) ،

هتلر وهو يلقي أول خطاب له بعد خطابه في الرايشتاغ في الأول من ايلول معلناً بدء الحرب وعلى الرغم من انه كان ثائراً إذ حيل بينه وبين لقاء هذا الخطاب في وارشو ، التي كانت حاميتها لا تزال صامدة ببسالة ، وكانت يقطر سماً كلما جاء على ذكر بريطانيا العظمى ، إلا انه أشار بإيماء خفيفة الى موضوع الصلح إذ قال : « ليست لدي أية اهداف حربية ضد بريطانيا وفرنسا » . ثم مضى يقول : « وانني لأشعر بالعطف على الجندي الفرنسي الباسل ، فهو لا يعرف السبب الذي يدفعه الى الحرب » . وراح يبتهل الى الله « الذي بارك قواتنا ان يهب الفهم للشعوب الاخرى لتدرك ما في هذه الحرب من خير وان يحملها على التكبير في نعم السلام » .

وشنت صحافة المانيا واذاعاتها في السادس والعشرين من ايلول ، أي في اليوم الذي سبق سقوط وارشو ، حملة ضخمة من اجل السلام . وكانت النعمة التي سادت هذه الحملة والتي دونتها في يومياتي .. ترى لماذا تريد بريطانيا وفرنسا ان تحاربا الآن .. ليس ثمة ما يستحق ان يحارب المرء بسببه . ان المانيا لا تريد شيئاً في الغرب » .

ومرغان ما انضمت روسيا بعد يومين اثنين ، وبعد ان شرعت تهضم بسرعة حصتها في بولندة ، الى حملة الصلح هذه . فقد طبخ مولوتوف وريبنتراب اثناء الاجتماعات التي دارت لعقد معاهدة الصداقة والحدود النازية السوفياتية بما فيها من بنود سرية لاقتسام اوروبا الشرقية ، تصريحاً مشتركاً سرعان ما اذاعاه في الثامن والعشرين من ايلول ، داعياً بصوت جهوري طنان الى الصلح والسلام .

وقد جاء في هذا التصريح المشترك ان حكومتي المانيا وروسيا بعد ان « توصلتا بصورة نهائية الى تسوية واضحة للمشاكل الناجمة عن تفسيخ الدولة البولندية ، وبعد ان خلقتا اساساً ثابتاً للسلام الدائم في اوروبا الشرقية ، تمران بصورة مشتركة عن اعتقادهما بأن بما يخدم المصالح الحقيقية لجميع الشعوب ، التوصل الى انتهاء حالة الحرب

القائمة بين ألمانيا وانكلترا وفرنسا . وستوجه هاتان الحكومتان تبعاً لذلك جهودهما المشتركة لتحقيق هذا الهدف في أسرع وقت ممكن . »

« أما إذا ظلت جهود هاتين الحكومتين دون جدوى ، فإن هذا الواقع يعرض آنذاك الحقيقة الماثلة وهي ان انكلترا وفرنسا ستكونان في هذه الحالة مسؤولتين عن استمرار الحرب ... » .

هل اراد هتلر السلام حقاً او انه كان يريد مواصلة الحرب ، وان يحل بمساعدة روسيا المسؤولية في استمرارها على الحليفتين الغربيتين ؟ من المحتمل ان لا يكون هتلر نفسه قد عرف ماذا يريد ، وان كان متأكداً الى حد ما من النتيجة .

فقد أجرى هتلر في السادس والعشرين من ايلول حديثاً طويلاً مع داهليروس الذي لم يكن قد تخلى بأى حال من الاحوال عن جهوده المادفة الى السلام . وكان السويدي الذي لا يكل ولا يمل ، قد تبقى قبل يومين بصديقه القديم اوغيلفي فوربس في مدينة اوسلو ، حيث كان المستشار السابق للسفارة البريطانية في برلين يعمل الآن مستشاراً لمفوضية بلاده في عاصمة النرويج . وتروي مذكرة سرية كتبها الدكتور شميدت (١) ان داهليروس نقل الى هتلر ، قول فوربس بأن الحكومة البريطانية ساعية الى الصلح . و اضاف ان المشكلة الوحيدة التي تشغل بالها ، هي كيف يمكن لها ان تصون ماء وجهها ؟

ورد هتلر قائلاً ... « إذا كان البريطانيون يريدون الصلح حقاً ، فان في وسعهم الوصول اليه في غضون اسبوعين دون اراقة ماء الحياء في وجوههم . »

واضاف الفوهرر ان على البريطانيين أولاً ان يهيئوا انفسهم لتقبل الحقيقة الواقعة وهي « ان بولندة ان تعود الى الوجود ثانية » . ومضى يقول .. انه إذا تحقق هذا الشرط ، فانه على استعداد ايضاً ان « الوضع الراهن فيما تبقى من اوروبا »

١ - مذكرة شميدت عن الحديث - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ١٤٠ - ١٤٥

وأن يضمن أيضاً « سلامة » بريطانيا وفرنسا والأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا واللوكسمبورغ) . وانتقل النقاش الى الطريقة التي يمكن فيها الشروع بمحادثات الصلح . واقترح هتلر أن يتولى موسوليني ذلك ، ولكن داهليروس رأى أن ملكة هولندا قد تكون أكثر « حياداً » للقيام بهذه الوساطة . واقترح غورنغ الذي كان يشهد المقابلة أيضاً أن يجتمع أولاً ممثلون عن بريطانيا وألمانيا سرّاً في هولندا ، وأن تقوم الملكة في حالة احراز هؤلاء الممثلين تقدماً في مفاوضاتهم ، بدعوة البلدين علناً الى اجراء محادثات الهدنة . ووافق هتلر الذي كان يعلن شكه في حقيقة « رغبة البريطانيين في الصلح » أخيراً ، على اقتراح السويدي بأن « يسافر في اليوم التالي الى انكلترا ، ليسبر غورها بصدد الاتجاه المشار إليه » .

وقال هتلر لداهليروس وهو يودعه : « في وسع البريطانيين أن يحصلوا على الصلح إذا أرادوه ، ولكن يتحتم عليهم أن يبادروا بسرعة الى تحقيقه » .

كان هذا أحد الاتجاهات في تفكير الفوهرر . وقد أوضح اتجاه آخر لقادة العسكريين . وقد روى الفريق هولدر في يومياته التي دوّنها بتاريخ الخامس والعشرين من ايلول ، تلقيه « كلمة من الفوهرر عن خطته للهجوم في الغرب » . وفي السابع والعشرين منه أي بعد يوم واحد من تأكيده لداهليروس استعدادة لعقد الصلح مع بريطانيا ، دعا هتلر القادة العامين افروع القوات المسلحة الى اجتماع عقد في دار المستشارية وأبلغهم قراره « بالهجوم في الغرب » ، في أسرع وقت ممكن ، طالما أن الجيوش الفرنسية والبريطانية ما زالت مفتقرة الى الاستعداد . وذكر (براوخيتش) أن الفوهرر حدد الثاني عشر من تشرين الثاني موعداً للهجوم (١) . وليس ثمة من شك في أن هتلر قد استشاط حماساً في ذلك اليوم بالأنباء التي وصلتته عن استسلام وارشو . ومن المحتمل أن يكون قد فكر

١ - شهادة براوخيتش في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٠) ص ٥٧٣) .
وهناك مذكورة في يوميات القيادة البحرية الألمانية العليا تؤكد هذه الفقرة المتبسة .

بأن في الامكان إجبار فرنسا على الأقل على الركوع بنفس السهولة التي تم فيها إخضاع بولندة ، وان كان هولدر قد دون بعد يومين في يومياته بأنه « يرغب » في أن يوضع للفوهرر أن « الأسلوب الذي اتبع في الحملة البولندية لا يصلح كوصفة في حملة مماثلة في الغرب ، إذ ان هذا الاسلوب لا يجدي مع جيش قوي التماسك » .

ومن المحتمل أن يكون شيانو قد أفلح في النفاذ الى عقل هتلر وتفهمه أحسن من غيره عندما جرى له حديث طويل مع المستشار في الأول من تشرين الأول . وقد وجد وزير خارجية إيطاليا الشاب ، الذي كان يكره الالمان الآن كراهية شديدة ، ولكنه يرى نفسه مضطراً الى التظاهر ب صداقتهم ، الفوهرر في وضع الوائق تماماً من موقفه . ولاحظ شيانو أن الفوهرر وهو يحدد له خطته ، كانت عيناه تومضان ببريق خاطف ينطوي على الشر ولا سيما عندما يتحدث عن طوقه ووسائله في القتال . وكتب الزائر الايطالي ملخصاً انطباعاته ما يلي :

« ... يبدو لي أن هناك أملاً يداعب خيال هتلر ويفرجه ، وهو أن يقدم لشعبه سلاماً ثابتاً بعد النصر العظيم الذي حققه له . أما إذا وجد أن الوصول الى هذا السلام يتطلب منه بعض التضحية ، حتى ولو ضوّلت ، بما مجرمه من بعض الشار التي يعتبرها مشروعة لانتصاره ، فإنه يؤثر والحالة هذه المضي الى المعركة ، وإيثاره هذا يبلغ ألف ضعف ما يحس به من رغبة في السلام » (١) .

وخيل إلي وأنا أجلس في دار الرايشتاغ مستمعاً ظهر السادس من تشرين الأول الى هتلر وهو يوجه نداءه من أجل السلام ، ان هذا الحديث اسطوانة

١ - لم يكن موسوليني يشارك هتلر ثقته في النصر ، وهي الثقة التي نقلها شيانو اليه في تقريره عن محادثاته . وكان يرى أن البرنطابين والفرنسيين « سيصمدون ، وان ليس من الخير في شيء خفاء هذه الحقيقة » . وسجل شيانو في يومياته بتاريخ الثالث من تشرين الاول « ان موسوليني يشعر بشيء من الالم ، والقيظ ، لهذا الارتفاع المفاجيء الذي حققه هتلر في طريق الشهرة » (ايوميات شيانو ص ١٥٥) و (أوراق شيانو الدبلوماسية ص ٣٠٩-٣١٦) .

ثدور على الحاكبي « الغرامافون » للمرة الخامسة أو السادسة . وعدت بذاكرتي الى المرات العديدة التي استمعت إليه فيها يتحدث من فوق هذا المنبر نفسه ، وبعد آخر فتح حقيقه ، وبنفس اللهجة الواضحة من التلطف والاخلاص ، داعياً الى السلام الذي يبدو إذا تجاهلنا ضحيته الاخيرة ، سلاماً كريماً ومعقولاً . وقد كرر نفس هذه المعزوفة في هذا اليوم المشمس من أيام الحريف ، بما عرف عنه من بلاغة في القول وزيف فيه . وكان خطابه هذه المرة طويلاً بل ولعله من أطول الخطب العامة التي ألقاها في حياته ، وعندما وصل الى نهايته ، وبعد أكثر من ساعة كاملة من سرد المغالطات النموذجية للتاريخ ، والتفاخر بما حققه السلاح الألماني في بولندة « تلك الدولة المضحكة » ، راح يعرض اقتراحاته للسلام معدداً الاسباب التي نحملة على تقديمها فقال :

« لقد اتجهت محاولاتي الأساسية ، كلها الى تحرير علاقاتنا مع فرنسا من كل أثر من آثار سوء النية ، وأن أجعلها مقبولة الى البلدين ... واني لأعلنها كلمة صريحة وهي أن ليس لألمانيا أية مطالب أخرى من فرنسا ... وقد رفضت أيضاً أن أشير بكلمة واحدة الى الالزاس واللورين ... وقد أعربت لفرنسا دائماً عن رغبتني في أن أدفن عداوتنا القديمة ، وأن أقرب بين هاتين الأمتين اللتين تميزان بالاحقاد العريقة .. » .
وانتقل الى بريطانيا فقال :

« ولم آل جهداً كذلك في تحقيق التفاهم بين انكلترا والمانيا ، بل ومضيت الى أبعد من ذلك ، إذ حاولت اقامة صداقة المانية - انكليزية . ولم أقم في أي وقت من الأوقات ، ولا في أي مكان من الأماكن بعمل يناقض المصالح البريطانية .. واني لأعتقد حتى الآن ، ان السلام الحقيقي لن يستتب في أوروبا وبالتالي في العالم بأسره ، إلا إذا توصلت المانيا وانكلترا الى التفاهم » .
وتحدث عن السلام فقال :

ولماذا نخوض هذه الحرب في الغرب ؟ هل نخوضها لإعادة بولندة ؟ . إن بولندة التي خلقتها معاهدة فرساي لن تعود ثانية الى الوجود ... فمشكلة اقامة الدولة البولندية لن تحل مطلقاً بالحرب في الغرب ، وانما تحل بالاتفاق بين روسيا والمانيا ... وليس من المعقول أن تعرض ملايين الارواح للفناء ، وما قيمته الملايين من الممتلكات للدمار ، لنعيد تأسيس دولة اعتبرت منذ ولادتها « طرْحاً » جهضت به معاهدة فرساي ، وذلك عند جميع الناس باستثناء الذين يمتون الى أصل بولندي .. فهل هناك من سبب آخر للحرب ؟ .

« أما إذا كنا نخوض هذه الحرب حقاً ، ليقم أعداؤنا في المانيا نظاماً جديداً من الحكم ، فان ملايين الأرواح سيضحي بها عبثاً ... لأن هذه الحرب في الغرب لا يمكن لها أن تحل أية مشكلة أو قضية ... » .

ولكن ثمة قضايا عدة يجب حلها . وراح هتلر يعدد قائمة كاملة بهذه القضايا ، فذكر منها « تشكيل دولة بولندية » على الرغم من أنه كان قد اتفق قبل وقت قصير مع الروس على عدم السماح بوجودها ، و« حل المشكلة اليهودية وتسويتها » وقضية مستعمرات المانيا السابقة ، وانعاش التجارة الدولية و« السلام المضمون بلا قيد أو شرط » و« خفض التسلح » و« وضع الانظمة للحرب الجوية وحرب الغازات والغواصات وما شابهها » وتسوية مشا كل الاقليات في أوروبا . واقتراح « لتحقيق هذه الاهداف العظيمة » عقد مؤتمر الدول الأوروبية الكبرى ، شريطة « اتخاذ الاعدادات اللازمة والكاملة له مسبقاً » ... ثم مضى يقول :

« ويستحيل أن يتمكن مؤتمر كهذا غايته تقرير مصير هذه القارة لأجيال عدة ، من تحقيق أهدافه والقيام بمشاوراته ، في الوقت الذي تواصل فيه المدافع هديرها والجيش الكاملة التعبئة فرض ضغطها عليه .

« وإذا كان لا بد من حل هذه المشا كل إن عاجلاً وان آجلاً ، فإن من المنطق كل المنطق ، المبادرة الى الحل قبل أن يتعرض الملايين من الناس للموت والبلاطين من الثروات للدمار . ولا يمكن للمرء أن يتصور استمرار هذه الاوضاع الراهنة في الغرب . فكل يوم يمضي يتطلب المزيد من التضحيات ... وستبدد ثروة أوروبا القومية في إنتاج القنابل والقذائف ، وستهدر حيوية كل بلد من البلاد في ميادين القتال ... »

« وهناك شيء واحد لا يسمع المرء إلا التثبت منه . فقد علمنا التاريخ العالمي ، انه لا يمكن أن يكون هناك منتصران ، بل عدد كبير من الخاسرين دائماً . فهل للشعوب التي تحمل مثل هذا الرأي ، وهل لقادتهم الذين يشاطرونها إياه أيضاً أن يردوا على ما أقول . وليرفض أولئك الذين يعتبرون الحرب الحل الامثل ، هذه اليد التي أمدتها اليهم » .

وانتقل بفكره الى تشرشل فقال ...

« أما إذا تغلبت أفكار المستر تشرشل وشركاه ، فسيكون هذا البيان آخر ما سأقوله . ولا بد من أن يكون هناك قتال والحالة هذه ... ولن يكون هناك تشرين ثان آخر في التاريخ الالماني » .
(إشارة الى هدنة عام ١٩١٨) .

ودونت في يومياتي عند عودتي من الرايشتاغ في ذلك اليوم . انني أشك كل الشك في أن البريطانيين والفرنسيين سيعيرون هذه الاقتراحات الغامضة للتفاهم ولو لمدة « خمس دقائق » . لكن الالمان كانوا متفائلين . وابتعت وأنا في طريقي الى دار الاذاعة ، لأبث رسالتي الى امريكا تلك الليلة ، نسخة من الطبعة المبكرة لصحيفة هتار « الفولكشاير بيوباختر » ، ووجدتها تحمل العناوين لنارية التالية :

« ارادة المانيا في السلام - لا أهداف حربية لنا مع انكلترا »

وفرنسا - لا مطالب أخرى لنا سوى المستعمرات السابقة - خفض
التسلح - التعاون مع جميع دول أوروبا - اقتراح عقد مؤتمر .
ونعرف الآن من الوثائق الألمانية السرية المصادرة ، أن دوائر الويلهلمشتراسة ،
كانت قد تلقت تقارير من باريس عن طريق السفيرين الاسباني والايطالي ،
شجعتها على الاعتقاد بأن الفرنسيين لا يميلون الى استمرار الحرب . وأبلغ السفير
الاسباني برلين في الثامن من ايلول ان بونه وزير خارجية فرنسا - نظراً لما
تلقاه الحرب من كراهية في فرنسا ، سيحاول الوصول الى تفاهم فور انتهاء
العمليات في بولندة . وهناك بعض الدلائل التي تشير الى انه على اتصال بموسوليني
لتحقيق هذه الغاية (١) .

وسلم أتوليكو - السفير الايطالي في برلين - الى وايز ساكر في الثاني من
تشرين الاول ، نص الرسالة الاخيرة التي تلقتها حكومته من سفير ايطاليا في
باريس ، وهو يذكر فيها أن غالبية أعضاء الوزارة الفرنسية يؤيدون عقد مؤتمر
للسلم ، ولم تعد القضية الآن أكثر من مجرد « تمكين فرنسا وانكلترا من انقاذ
وجهيهما » ، لكن رئيس الوزارة ديلاديه لم يكن على الغالب من رأي هذه
الأكثوية (٢) .

وكانت هذه المعلومات صحيحة . ففي السابع من تشرين الاول ، رد
ديلاديه على هتلر . وأعلن أن فرنسا لن تلقي سلاحها ، ما لم تحصل على ضمانات
صحيحة « لقيام سلام حقيقي وأمن عام » . ولكن هتلر كان أكثر اهتماماً
بالاستماع الى رأي تشمبرلين منه الى رأي الرئيس الفرنسي . وراح في العاشر من

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ٢٤ .

٢ - تلقى الامان من الايطاليين بعد فترة وجيزة أي في السادس عشر من تشرين الثاني أن
معلوماتهم من باريس تشير الى أن « المارشال بيتان ، يعتبر المدافع الاول في فرنسا عن سياسة
السلام . واذا قدر لقضية السلام ان تغدو أكثر حدة في فرنسا فإن بيتان سيلب دوره فيها » (وثائق
وزارة الخارجية الألمانية (٧) ص ١٤٤) . وكانت هذه هي الإشارة الاولى للامان بأن بيتان قد
يغدو ناصراً لهم فيما بعد . (وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ١٩٧ - ١٩٨) .

تشرين الأول ، وفي غضون خطاب قصير ألقاه في الميدان الرياضي في افتتاح حملة إغاثة الشتاء . Winterhilfe ، يؤكد مرة ثانية « استعدادة للسلام » . وأضاف « أن ليس لألمانيا أي سبب يدعوها الى الحرب مع الدولتين الغربيتين » .
وجاء رد تشبرلين في الثاني عشر من تشرين الاول . وكان بمثابة « دوش » بارد للشعب الألماني إن لم يكن هتلر (١) . فقد أطلق رئيس الوزراء على اقتراحات هتلر في خطاب ألقاه في مجلس العموم صفة « الغموض وعدم الثبات » ، وأضاف انها « لا تنطوي على أية اقتراحات لتصحيح الأخطاء التي ارتكبت بحق تشيكوسلوفاكيا وبولندية » . وقال انه لا يمكن الركون أبداً الى « وعود الحكومة الألمانية الراهنة » . وإذا كانت هذه الحكومة تريد السلام حقاً فعليها أن تقيم الدليل على رغبتها هذه « بالأفعال لا بالأقوال » . وطلب من هتلر « دليلاً مقنعاً » على أنه يريد السلام حقاً .

وهكذا تبين ان « رجل ميونيخ » - إشارة الى تشبرلين ، لم يعد مستعداً لقبول خديعة هتلر ووعدده . وصدر بيان رسمي ألماني في اليوم التالي ، أي الثالث عشر من تشرين الاول ، يعلن ان تشبرلين يرفضه عرض هتلر للسلام ، قد اختار الحرب عامداً متعمداً ووجد الديكتاتور النازي الآن المبرر الذي يريده .

ونحن نعرف من الوثائق الألمانية المصادرة الآن . ان هتلر ، لم يظل مكتوف اليدين بالفعل في انتظار رد رئيس الوزراء ، قبل أن يصدر أوامره بالاستعداد للهجوم الفوري في الغرب . واستدعى في العاشر من تشرين الاول ، قاده

١ - شهدت برلين في اليوم السابق أي في العادي عشر من تشرين الاول فتنسة تطالب بالسلام . فقد أعلنت اذاعة على موجة «برلين» في ساعات الصباح الباكر ان الحكومة البريطانية قد سقطت وان الهدنة الفورية ستقع في كل لحظة . وعندما انتشرت الشائنة عمت العاصمة الألمانية موجة طاغية من الفرح . وراحت المجازر يقذفن بما اشترينته من « ملفوف » من سوق الخضار في الهواء ، وتحطمت بعض المظلات في السوق ، من جراء مظاهره الفرح هذه ، ومضت المجازر الى اقرب حانة ليشرين « الشنايز » نخب السلام . (شراب ألماني) .

المسكرين ، وتلا على مسامعهم مذكرة مطولة عن حالة الحرب ، وأوضاع العالم ، وقذف في وجوههم بتوجيهه السادس عن إدارة دفعة الحرب (١) .

وأثار إصرار الفوهرر في نهاية شهر ايلول على وجوب شن الهجوم في الغرب في أسرع وقت ممكن ، غضب القيادة العليا للجيش . وتواطؤ براوخيتش وهولدر ومعها عدد آخر من القادة العسكريين على أن يقيموا الدليل للزعيم ، بأنه لا يمكن البحث الآن في موضوع أي هجوم فوري . وقالوا ان عملية إصلاح الدبابات التي استخدمت في بولنדה ، وإعدادها للعمل من جديد تتطلب عدة أشهر أخرى . وقدم الفريق توماس أرقاماً تثبت أن هناك عجزاً شديداً قدره ستائة ألف طن في إنتاج الفولاذ . وقدم الفريق فون ستولبنغل مدير قومينات الجيش ، أن الذخيرة الموجودة لا تكفي « لأكثر من ثلث فرقنا الحالية » لمدة أربعة عشر يوماً من القتال ، « وهو أمد لا يكفي مطلقاً لكسب الحرب ضد فرنسا . ولكن الفوهرر لم يشأ الإصغاء الى فائده العام ورئيس هيئة أركان الحرب ، عندما قدما إليه تقريراً رسمياً عن نقاط الضعف في الجيش ، في السابع من تشرين الأول . وذكر الفريق بودل وهو الرجل المطواع الثاني في القيادة العامة للقوات المسلحة بعد كايتل ، في حديث مع الفريق هولدر ، أن « أزمة حادة على وشك الوقوع » ، وذلك بسبب معارضة الجيش للهجوم في الغرب وان الفوهرر « يشهر بالمرارة لأن العسكريين لا يطيعونه » .

واستدعى هتلر نتيجة هذه المعارضة ، قادته العسكريين الى اجتماع عاجل في الساعة الحادية عشرة من صباح العاشر من تشرين الاول . ولم يطلب الفوهرر منهم الرأي والمشورة ، وإنما اكتفى بأن يردد على مسامعهم التوجيه السادس الذي أصدره في اليوم السابق ، والذي حدد لهم ما يفعلونه ... وهذا نصه :

١ - مذكرة هتلر (المؤامرة النازية والمدوان (٧) ص ٨٠٠-٨١٤) والتوجيه السادس (نفس المصدر (٦) ص ٨٨٠ - ٨٨١) .

سري للغاية

« إذا اتضح في المستقبل القريب ان انكلترا ، وان فرنسا التي تعمل في ظل قيادة حليفتها ، لا ترغبان في الوصول بهذه الحرب إلى نهايتها ، فلأنني عازم عزمًا قاطعاً على العمل بحزم ، وبصرامة ، ودون أي ابطاء ...

« ولهذا فلأنني أصدر الأوامر التالية :

« ١ - يجب اتخاذ الأهبة والاعداد لعملية هجومية ... عن طريق أراضي اللوكسمبورغ وبلجيكا وهولندا . ومن الواجب تنفيذ هذا الهجوم ، في أقرب تاريخ ممكن .

« ب - ويكون الهدف من هذا الهجوم هزم أقوى جزء من جيش فرنسا العامل ، وهزم حلفائه الذين يحاربون الى جانبه ، والحصول في الوقت نفسه على أوسع منطقة ممكنة من هولندا وبلجيكا وفرنسا الشمالية ، لاستخدامها قواعد ، لتسيير دفعة حرب ناجحة في الجو والبحر ضد انكلترا ...

« ولأنني أطلب الى القادة العاملين للقوات المسلحة ، أن يقدموا لي في أسرع وقت ممكن ، تقارير مفصلة عن الخطط التي يضعونها على أساس هذا التوجيه ، وأن يواصلوا اطلاعي على كل شيء ... »

وكانت المذكرة السرية المؤرخة كذلك في التاسع من تشرين الاول ، والتي تلاها هتلر على مسامع قادته العسكريين قبل أن يقدم إليهم توجيهه هذا ، من أكثر الوثائق التي دونها العريف النمساوي السابق تأثيراً . إذ تظهر هذه الوثيقة بالإضافة الى مفهوم الالمان عن التاريخ ، ومفاهيمهم عن السوقية (الاستراتيجية) العسكرية وعن الاساليب التعبوية (التكتيك) ، وهي مفاهيم بارزة كل البروز . بعض الإحساس بالغيب والتكهن عن الطريقة التي ستسير فيها الحرب في الغرب وما يمكن أن تؤدي إليه من نتائج . ويقول هتلر في مذكراته ، أن الصراع بين

المانيا والدولتين الغربيتين ، الذي ما فتىء مستمراً منذ انحلال الرايخ الالماني الاول في معاهدة ويستفاليا (مونستر) في عام ١٦٤٨ « يجب أن يخاض بشكل أو بآخر » . ولكنه لا يرى مانعاً ، على أي حال ، بعد النصر العظيم في بولنده ، من «إنهاء الحرب فوراً» شريطة عدم المساس بالمكاسب التي حققتها المانيا في بولنده . ومضى يقول

« وليس القصد من هذه المذكرة أن تدرس الاحتمالات في هذا المجال ، ولا حتى ان تأخذ هذه الاحتمالات في موضع العناية والاهتمام . ولذا فسأحصر الحديث فيها ، في الحالة الأخرى ليس إلا ، وهي ضرورة مواصلة القتال . وهدف المانيا من هذه الحرب « التصرف » عسكرياً وبصورة نهائية بالغرب ، أي تخطيم ما لدى الدولتين الغربيتين من قوة وطاقة ، لجعلها عاجزتين عن معارضة وضع أسس الاستقرار للشعب الالماني في أوروبا وتطويره المقبل ... » ومن الواجب بالنسبة الى العالم الخارجي . أن يمر هذا الهدف السرمدي ، بمراحل مختلفة من التعديلات في شؤون الدعاية ، على أن لا يشمل التعديل الهدف الحربي نفسه . وسيظل هذا الهدف كما هو الآن تخطيط أعدائنا الغربيين » .

وكان القادة العسكريون قد اعترضوا على الاسراع في التحول الى الهجوم في الغرب . لكن عامل الزمن في رأيه ، يقف الى جانب العدو . وراح يذكر هؤلاء القادة ، بأن الانتصارات الضخمة في بولنده ، لم تتحقق ، إلا لأن المانيا لم تقاتل بالفعل إلا في جبهة واحدة . وأضاف أن هذا الوضع ما زال قائماً ، ولكن ترى حتام يظل هذا الوضع على هذا النحو ؟ . ومضى يقول :

« ولا يمكن لأي ميثاق أو أية معاهدة ، أن يضمننا بقاء روسيا السوفياتية على الحياد بشكل دائم ومستمر ، وثابت . وتقوم جميع العوامل في الوقت الحاضر ضد خروج روسيا على حيادها . ولكن هذا الوضع قد يتبدل في غضون ثمانية أشهر أو سنة أو عدة

سنوات . وقد أثبتت حوادث السنوات الأخيرة ، تفاهة ما
المعاهدات من قيمة عند جميع الأطراف . ولعل أعظم ضمانات لنا
ضد وقوع هجوم روسي علينا ، تقوم في عرض حازم للقوة
العسكرية الألمانية » .

وأشار الى إيطاليا فقال ان « الأمل في مساعدة الإيطاليين لألمانيا » يعتمد
أكثر ما يعتمد على بقاء الدوتشي على قيد الحياة ، وعلى طاقة الانتصارات الألمانية
الجديدة على إغرائه . وعلينا أن لا ننسى في هذا الصدد عامل الزمن أيضاً ، وهو
ينطبق كذلك على بلجيكا وهولندا ، اللتين قد ترغبهما بريطانيا وفرنسا على النقيض
عن حيادهما ، وهو أمر لا تستطيع ألمانيا أن تظل مكتوفة اليدين منتظرة
حدوثه . وأضاف أن « عامل الزمن أيضاً ، يعمل ضد ألمانيا » بالنسبة الى موقف
الولايات المتحدة نفسها .

واعترف هتلر ، بأن ثمة أخطاراً عظيمة تهدد ألمانيا من الاستمرار في الحرب
أمدأ طويلاً ، وشرع يعدد بعض هذه الأخطار . فقد تنقلب الدول المحايدة من
صديقة أو لا صديقة الى الجانب الآخر ، كما حدث في الحرب الكونية الاولى
« لا ريب في أنه كان يفكر في روسيا وإيطاليا والولايات المتحدة ليس إلا » .
وقد نجد ألمانيا بالنسبة الى « أوضاع المواد الغذائية والاولية المحدودة عندها » ،
ان من الصعب عليها إيجاد السبل « للاستمرار في الحرب أمدأ طويلاً » وقال إن
الخطر الأكبر يقوم في « افتقار حوض الروهر الى المناعة » . وإذا قدر ثقل
الانتاج الصناعي الألماني هذا أن يصاب بأذى فإن أصابته ستؤدي الى « انهيار
اقتصاد ألمانيا الحربي ، وبالتالي الى انهيار طاقتها على المقاومة » .

وأرى ازماً علينا أن نعترف بأن « العريف » السابق ، قد أظهر في مذكرته
هذه فهماً مدهشاً للسوقية والتعبوية العسكريتين ، وان كان هذا الفهم مصحوباً
بالافتقار البارز كل البروز الى القواعد الاخلاقية . فقد تضمنت المذكرة صفحات
عدة عن الاساليب التعبوية لتطور حرب الدبابات والطائرات بالنسبة الى ما وقع
في بولندا ، بالإضافة الى تحليل مستفيض للصورة التي يمكن تطبيق هذه الاساليب

التعبوية فيها في الجبهة الغربية ، مع تحديد الاماكن التي تصلح لهذا التطبيق .
وقال هتلر في مذكرته أن النقطة المهمة الاولى ، هي تجنب حرب المواقع الثابتة
التي تميزت بها الحرب الكونية الاولى . ومن الواجب استخدام الفرق المدرعة في
تحقيق اختراق الجبهة اختراقاً حاداً ... ثم مضى يقول :

« وعلى هذه الفرق أن لا تضع في متاهات الصفوف التي لا نهاية
لها من البيوت في المدن البلجيكية . وقد لا يتوجب على هذه الفرق
أبداً أن تهاجم المدن ، ولكن عليها أن تحافظ على تدفق الجيش
وتقدمه ، وأن تحول دون تثبيت جبهات العدو عن طريق زحوف
ضخمة تشق طريقها عبر نقاط واضحة الضعف » .

وليس ثمة من شك في أن هذه الاقوال كانت استشفافاً دقيقاً كل الدقة للغيب ،
ولما وقع حقاً في الجبهة الغربية ، وعندما يقرأها المرء ، يدهش كل الدهشة ،
من عدم ظهور شخص واحد من الحلفاء ، تميز بمثل هذه الفراسة وقوة
الاستبصار .

وتصح هذه الاقوال أيضاً على آراء هتلر السوقية (الاستراتيجية) . فهو يرى
أن اللوكسمبورغ وبلجيكا وهولندا ، « هي المناطق الوحيدة الصالحة للهجوم » .
ومن الواجب أن يهدف الى غايتين عسكريتين أساسيتين ، أولاهما تحطيم الجيوش
الهولندية والبلجيكية والفرنسية والبريطانية ، وثانيتهما كسب مواقع على القناة
الانكليزية (المانش) وبحر الشمال ، يستطيع سلاح المانيا الجوي الاعتماد عليها
واستخدامها « استخداماً قاسياً » ضد بريطانيا .

ويعود بعد ذلك الى نظرياته التعبوية فيقول أن زمام المبادرة ، هو أهم
عامل .. ثم يمضي قائلاً :

« ونحتم طبيعة هذه الحملة الغربية اللجوء الى الابتكار والمبادرة
الى أقصى حدودهما . وذلك بتركيز القوات الدفاعية والهجومية في
بعض النقاط ، بأعداد تفوق المألوف كالدبابات أو وسائل محاربة
الدبابات وتخفيض هذه القوات من نقاط أخرى دون المستوى العادي .

وذكر هتلر لقادته العسكريين المترددين انه لا يرى « البدء بهذه العمليات في وقت مبكر للغاية ، وان كان يرى ان الشروع فيها يجب ان يتم في كل الظروف ، اذا امكن في هذا الحريف » .

* * *

ولم يكن الاميرالات الالمان على النقيض من زملائهم الفرقاء ، بحاجة الى « وخز » هتلر ، ليشروعوا في هجومهم ، على الرغم من تفوق الاسطول البريطاني على اسطولهم تفوقاً هائلاً . وظل ريدير يتوسل الى الفوهرر طيلة الايام الاخيرة من شهر ايلول ، والايام الاولى من تشرين الاول ، لرفع « القيود » عن الاسطول ، واطلاق يده في العمل . وتم للأميرال ما يريد على درجات ومراحل . وتمكنت غواصة المانية في السابع عشر من ايلول ، من نسف حاملة الطائرات البريطانية « كوريجيوس » بطوربيداتها الى الجنوب الغربي من ايرلندا . واصدر ريدير في السابع والعشرين من ايلول اوامره الى بارجتي الجيب « دويتشلاند » و « غراف شي » ، بمفادرة قاعدتي انتظارهما والشروع في مهاجمة الملاحه البريطانية . ولم يحل منتصف شهر تشرين الاول ، حتى كانتا قد اغرقتا سبع بواخر تجارية بريطانية ، وسجلتا ظفراً لهما باغراق الباخرة الامريكية ، مدينة الصوان (سيتي اوف فلينت City of Flint) .

وتمكنت الغواصة الالمانية (يو - ٤٧) التي يقودها الملازم الاول غونيتر براين (Guenther prien) من اختراق الخطوط الدفاعية التي كانت تبدو في منتهى المناعة بحيث لا يمكن اختراقها ، لميناء سكاپفلو ، القاعدة البحرية البريطانية العظمى ، ونسف البارجة الضخمة رويال اوك (Royal Oak) ، وهي راسية في قاعدتها ، مما سبب خسارة (٧٨٦) من ضباطها وبحارتها . ولقد استغل الدكتور غوبلز ، هذا العمل الحربي الجبار في دعايته ، واثاح للاسطول مكانة ضخمة في تفكير هتلر .

ومع ذلك فقد ظل القادة العسكريون يؤلفون مشكلة بالنسبة الى هتلر . وعلى الرغم من مذكراته المطولة والمدروسة التي وجهها اليهم ، وعلى الرغم من

صدور توجيهه السادس داعياً الى الاعداد لهجوم فوري في الغرب ، فقد ظلوا على ترددهم وتحاذلهم . ولم يكن هذا التردد ناجماً عن بعض النوازع الاخلاقية التي تحول دون اعتدائهم على بلجيكا وهولندا ، وانما كان ناتجاً عن تشككهم الكبير في النجاح في هذا الوقت . لكن في وسعنا استثناء واحد منهم على الأقل .

فهناك بعض الوثائق الالمانية التي تحسر النقيب عن ان الفريق ويلهم ريتز فون ليب قائد مجموعة الجيوش (ج) ، التي تقف مواجهة للفرنسيين على ضفاف الراين وعلى طول خط ماجينو ، لم يكن يشك في امكان النصر في الغرب فحسب ، بل كان يعارض أيضاً في مهاجمة هولندا وبلجيكا المحايدتين ، لدوافع أخلاقية على الأقل . وقد أعد ليب في الحادي عشر من تشرين الأول أي في اليوم الذي تلا اجتماع هتلر بقادته العسكريين مذكرة مطولة بدوره بعث بها الى براوخيتش وغيره من الفرقاء . وذكر في مذكرته هذه ان العالم بأسره سينقلب ضد المانيا .

« لمهاجمتها للمرة الثانية في غضون ربع قرن بلجيكا المحايدة ، بعد أن تعهدت حكومتها بالحفاظ على هذا الحياد واحترامه قبل بضعة أسابيع ليس الا » .

وراح بعد ان اسهب في سرد الحجج العسكرية ضد الهجوم في الغرب ، يدعو الى الصلح والسلام وقال ... « ان البلاد بأسرها تواقعة للسلام » (١) . ولكن هتلر كان يتلطف الآن للحرب وللمعارك ، وكان قد مل مما خيل اليه انه جبن لا يغتفر للقادة العسكريين . وتشاور براوخيتش وهولدر في الرابع عشر من تشرين الأول ، في اجتماع طويل عقده . وكان قائد الجيش يرى « ثلاثة احتمالات ، أولها الهجوم وثانيها الترقب والانتظار وثالثها احداث تبدلات جوهرية » . وقد دون هولدر هذه الاحتمالات في يوميته التي كتبها في ذلك اليوم ، وأوضح بعد انتهاء الحرب ان عبارة « التبدلات الجوهرية » عنت

« الاطاحة بهتلر » . ولكن براوخيتش الضعيف الخائر العزيمة رأى ان مثل هذا الاجراء الجذري « يعتبر سلبياً بصورة جوهرية ، ويعرضنا الى الاصابة في مقاتلتنا » . ولذا فقد قررا ان هذه الاحتمالات الثلاثة لا تتيح « مجالات للنجاح الحاسم » . وتبين ان الطريقة المثلى هي الاستمرار في التحالف على هتلر .

واجتمع براوخيتش الى الفوهرر مرة ثانية في السابع عشر من تشرين الأول ، ولكنه ما لبث ان ذكر هولدر ، ان حججه لم تترك أثراً في نفس هتلر . وأضاف أن الوضع قد بات « يائساً » ، ودون هولدر في يومياته لذلك اليوم ، ان هتلر أبلغ قائد جيشه بلهجة قاطعة ، « ان البريطانيين لن يرضوا بالتفاوض الا بعد أن ينالوا نصيبهم من الضرب . ولذا علينا أن نبادر الى مهاجمتهم في أسرع وقت ممكن . ومن الواجب وقوع الهجوم بين الخامس عشر والعشرين من تشرين الثاني على أكثر تقدير » .

ووقعت اجتماعات أخرى مع سيد الحرب النازي ، الذي فرض « قانونه » في النهاية على « جنرالاته » في السابع والعشرين من تشرين الاول . فبعد احتفال أنعم فيه هتلر على أربعة عشر منهم بوسام الصليب الحديدي من رتبة فارس ، انتقل الى الحديث عن موضوع الهجوم في الغرب . وعندما حاول براوخيتش مناقشته في ان الجيش لن يكون متأهباً للهجوم قبل شهر واحد على الأقل ، أي قبل السادس والعشرين من تشرين الثاني ، رد هتلر ، بأنه لا يستطيع الانتظار « هذا الوقت الطويل » ، وأمر بأن يبدأ الهجوم في الثاني عشر من تشرين الثاني . وانسحب براوخيتش وهولدر من الاجتماع وقد أحسا بالهزيمة واليأس . وحاول الواحد منهما تلك الليلة أن يسري عن رفيقه ويعزيه . ودون هولدر في يومياته يقول : « يبدو براوخيتش مجهداً ويائساً » .

مؤامرة زوسين للاطاحة بهتلر

وخيل للمتآمرين أن الوقت قد حان الآن للوثوب الى العمل من جديد .

وتحتم على براوخيتش وهولدر التعيين أن يختارا بين تنفيذ الاحتمال الثالث الذي بحثا فيه في الرابع عشر من تشرين الاول وهو الاطاحة بهتلر ، وبين اعداد هجوم في الغرب كانا يعتقدان بأنه سيكون بمثابة دأرثة لمانيا . وعاد المتآمرون العسكريون والمدنيون على حد سواء الى الحياة فجأة . وكان الفريق فون هامر شتاين الذي استدعي مؤقتاً من حياة التقاعد الطويلة التي عاشها عشية يوم الهجوم على بولنده ، قد سلم قيادة في الجبهة الغربية . وكان يحث هتلر طيلة الاسبوع الاول من الحرب لزيارة مقر قيادته ، ليظهر انه لم يكن يهمل تلك الجبهة أثناء استيلائه على بولنده . وكان هامر شتاين ، وهو الخصم اللدود لهتلر ، يضع الخطط فعلاً لاعتقاله اذا ما زار جبهته . وقد نقل فايبان فون شلابريندورف نبأ هذه الخطة الى أوغلفي فوريس في الثالث من ايلول ، أي يوم اعلان بريطانيا الحرب في اجتماع عاجل تم بينها ذلك اليوم في فندق أدلون في برلين . ولكن الفوهرر ثم رائحة التآمر ، فرفض زيارة القائد العام السابق للجيش في الجبهة وسرعان ما أقاله من منصبه (١) .

وواصل المتآمرون اتصالحهم ببريطانيا . ولما كانوا قد فشلوا في القيام بأي عمل للحيلولة بين هتلر وبين تدمير بولنده ، فقد ركزوا جهودهم الآن على محاولة منع الحرب من الانتشار الى الغرب . وقد أدرك المتآمرون المدنيون الآن أكثر من أي وقت مضى ، ان الجيش هو المنظمة الوحيدة في الرايخ ، التي تملك الوسائل لوقف هتلر ، لاسيما وقد اتسع سلطانه وأهميته اتساعاً كبيراً بعد التعبئة العامة وبعد الانتصارات الصاعقة التي حققها في بولنده . وحاول هولدر أن يوضح لهؤلاء المدنيين ان اتساع حجم الجيش ، يؤلف ايضاً عقبة في طريق تنفيذ أية مؤامرة . فقد اكتظت رتب الضباط التي « توسعت وانتفخت » بضباط الاحتياط الذين كان معظمهم من النازيين المتعصبين ، بينما تشبّع معظم الجنود بالعقيدة النازية تشبّعاً كاملاً . وذكر هولدر ايضاً - وكان عظيماً في تأكيد المصاعب للأعداء

١ - غيزيفوس - الى النهاية المرة - ص ٣١ .

والأصدقاء على حد سواء - ان من الصعب جداً العثور على أية تشكيلة عسكرية يمكن الركون اليها في التحرك ضد الفوهرر .

وكان هناك اعتبار آخر ، ألمح اليه القادة العسكريون من المتآمرين ، وتفهمه المدنيون تمام التفهم . فلقد قدروا بأنهم اذا قاموا بثورة على هتلر ، فان من المحتمل أن يستغل البريطانيون والفرنسيون ما سيصحبها من فوضى في الجيش وفي البلاد عامة ، فيقتحموا الجبهة الغربية ، ويحتلوا المانيا بأسرها ، ويفرضوا على الشعب الالمانى صلحاً قاسياً على الرغم من اطاحته بزعيمه المجرم . ولذا رأوا من الضروري الاستمرار في الاتصال بالبريطانيين ليصلوا معهم الى تفاهم بأن لا يستغل الحلفاء الانقلاب الالمانى المناهض للنازية لمصلحتهم .

واستخدمت طرق عدة لتحقيق هذا الاتصال . وكانت احدى هذه الطرق ، بواسطة الفاتيكان وقام الدكتور جوزيف مويلر ، المحامي البارز في ميونيخ ، والكاثوليكي الورع ، بدور الوسيط . وقد تميز هذا الرجل بقوة جسدية هائلة وطاقه كبرى على العمل ، وصلابة أكسبته في صباه لقب « جو الثور » . وقام هذا الرجل بتدبير من العقيد أوستر من رجال المخابرات الالمانية برحلة الى رومة في مطلع تشرين الاول ، حيث أقام في الفاتيكان اتصالاً مع الوزير البريطانى المفوض لدى الكرسي البابوي . وتقول المصادر الالمانية انه افلح في الحصول على تأكيد من البريطانيين وعلى موافقة البابا نفسه على القيام بدور الوسيط بين العهد الالمانى الجديد المناوئ للنازية وبين بريطانيا ^(١) .

وجرى الاتصال الثانى في مدينة برن في سويسرا . وكان وايزساكر قد نقل تيودور كوردت الذي كان الى عهد قريب قائماً بأعمال السفارة الالمانية في لندن ، الى برن ليعمل ملحقاً في المفوضية الالمانية فيها ، وقد عثر هذا الرجل في العاصمة السويسرية على الفرصة لمقابلة انكليزي يدعى الدكتور فيليب كونويل - ايفانز ،

١ - ويلر - بنبت - نعمة السلطان ص ٩٠ . يورد المؤلف مصادره الالمانية . راجع ايضاً يوميات فون هاسيل ومقال توماس « التفكير والتطورات » المنشور في المجلة الشهرية السويسرية .

الذي مكنه عمله كاستاذ في جامعة كونيغزبرغ الالمانية من أن يفدو خبيراً في الشؤون النازية ، وصديقاً ودوداً للنازيين . وتمكن كونويل - ايفانز في النصف الاخير من تشرين الاول من ان يحمل الى كوردت ما وصفه الاخير فيما بعد ، بالوعد القاطع من تشمبرلين بأن يسلك سلوكاً عادلاً ينطوي على التفهم مع أية حكومة المانية معادية للنازية في المستقبل . وكان البريطاني قد حمل معه في الحقيقة مقتطفات من الخطاب الذي ألقاه تشمبرلين في مجلس العموم والذي اعلن فيه بعد رفضه لمقترحات هتلر السلمية ان بريطانيا لا تشعر « بأية رغبة في ان تحرم المانيا من احتلال مكانها المشروع في أوروبا شريطة ان تعيش المانيا هذه في جو من الود والصدقة مع الدول الأخرى » . وعلى الرغم من ان الاذاعة البريطانية كانت قد بثت هذا البيان وغيره من البيانات الاخرى ذات الطابع الودود تجاه الشعب الالماني ، التي وردت في نفس الخطاب ، وعلى الرغم من ان المتآمرين لا بد وان يكونوا قد التقطوها ، الا انهم هملوا لهذا « العهد » الذي حمله الى برن بريطاني غير مسئول ، واعتبروه في منتهى الاهمية . وحمل المتآمرون هذا العهد ، والتأكيدات البريطانية الاخرى التي خيل اليهم انهم حصلوا عليها عن طريق الفاتيكان ، وراحوا يتجهون بها ، والامل يسيطر عليهم ، الى القادة العسكريين الالمان . لكن هذا الامل كان مصحوباً بشيء من اليأس أيضاً . فقد ذكر وايز ساكر لهاسيل في السابع عشر من تشرين الاول ، ان « أملنا الوحيد في الخلاص يتركز في انقلاب عسكري . ولكن كيف يمكن لهذا الانتلاب أن يقع ؟ » .

ان الوقت قصير . وقد تقرر الشروع في الهجوم الالماني عبر بلجيكا وهولندة في الثاني عشر من تشرين الثاني . ومن الواجب تنفيذ هذه المؤامرة قبل ذلك التاريخ . وكان هاسيل قد حذر رفاقه من صعوبة الحصول على « صلح شريف » بعد ان تكون المانيا قد خرقت حياد بلجيكا واعتدت عليها . وهناك روايات عدة من المشتركين في المؤامرة حول ما وقع بعد ذلك ، أو عن الأسباب التي حالت دون وقوع الكثير ، وهي أبناء متضاربة وتدعو الى

الحيرة والارتباك . ولقد كان الفريق هولدر رئيس هيئة اركان حرب الجيش ،
العنصر الرئيسي في المؤامرة تماماً كما كان في ايام مونيخ . ولكن هذا الرجل تميز
بالتردد والاضطراب والتخاذل . وقد أوضح عند استجوابه في نورمبرغ ان
« جيش الميدان » لم يستطع القيام بالثورة لأنه كان يواجه عدداً كامل التسليح
أمامه » . ويقول انه استنجد « بجيش الوطن الداخلي » الذي لم يكن مشتبكاً
آنذاك في قتال مع العدو ، للإسراع الى العمل ، ولكن أقصى ما تمكن من
الحصول عليه من قائده الفريق فريدريش (فرتيز) فروم هو اقسامه « بأنه
كجندي » سينفذ كل أمر يصل اليه من براوخيتش ^(١) .

ولكن براوخيتش كان اكثر ضعفاً من رئيس اركان حرب . وراح الفريق
بيك يقول لهولدر ... « ولكن اذا لم يكن براوخيتش قوياً في شخصيته الى الحد
الذي يمكنه من اتخاذ القرار فان عليك أنت ، أن تتخذه وان تواجهه بالأمر
الواقع » . ولم يقتنع هولدر بهذا القول وأصر على ان المسؤولية الاخيرة تقع على
براوخيتش بوصفه القائد العام للجيش . وهكذا ظلت المسؤولية تنتقل باستمرار
من هذا الى ذاك ودون هاسيل في يومياته باكياً في نهاية شهر تشرين الاول :
« مع الأسف ، ان هولدر لا يستطيع مواجهة الموقف لا بشخصيته ولا بالسلطة
التي تملكها » أما براوخيتش فكان على حد تعبير بيك « انساناً من الدرجة
السادسة » . ومع ذلك ظل المتآمرون يقودهم هذه المرة الفريق توماس الخبير
الاقتصادي للجيش والعقيد أوستر من رجال المخابرات ، يلحفون على هولدر ،
الى ان وافق أخيراً كما اعتقدوا على تدبير انقلاب يقع في اللحظة التي يصدر فيها
هتلر أمره النهائي بالهجوم في الغرب . أما هولدر فيقول ان موافقته ظلت رهن
شرط واحد ، وهو أن يصدر براوخيتش الأمر النهائي . ويقول العقيد هانز
غروسكورث من رجال القيادة العليا للقوات المسلحة ، والصديق الأمين لكل

١ — استجواب هولدر في نورمبرغ في ٢٦ شباط ١٩٤٦ (المؤامرة النازية والمدوان —
الملحق (٥) ص ١٥٦٤ — ١٥٧٥) .

من هولدر وأوستر ، ان الاول بعث على كل حال في الثالث من تشرين الثاني ، كلمة الى كل من الفريقين بيك وغويردلر وهامان كبار المتآمرين بأن يكونا على أتم الاستعداد اعتباراً من الخامس من تشرين الثاني . وغدت زوسين وهي البلدة التي يقوم فيها مقر القيادة العامة للجيش وهيئة اركان الحرب ، أشبه ما تكون بخلية نخل تعج بنشاط المتآمرين .

وكان الخامس من تشرين الثاني تاريخاً في غاية الأهمية . وكان من المقرر ان يبدأ في ذلك اليوم تحرك الجنود الى مراكز القفز المواجهة لهولندية وبلجيكا واللوكسمبورغ . وكان ثمة موعد في نفس اليوم لاجتماع عاصف بين براوخيتش وهتلر . وكان القائد العام ، يرافقه هولدر ، قد قام بزيارة القيادات الكبرى للجيش في الغرب في الثاني والثالث من تشرين الثاني ، وتسليح مع رفيقه بالآراء السلبية التي قدمها قادة الميدان . وأسر هولدر ليومياته قائلاً : « ليس ثمة من قيادة عليا في الميدان تعتقد بوجود أية فرصة لنجاح الهجوم » . وهكذا تسليح القائد العام للجيش الألماني تسليحاً وفيراً بالحجج التي أوردها القادة العسكريون في الجبهة الغربية ، والحجج التي توصل اليها هو وكل من هولدر وتوماس ، والتي ضمت في مذكرة أطلق عليها هولدر لسبب معقول اسم « المذكرة المضادة » ، لأنها ترد على مذكرة هتلر بتاريخ التاسع من تشرين الاول ، ومضى بسيارته في الخامس من تشرين الثاني الى دار المستشارية في برلين ، وقد حزم امره على اقناع الفوهرر بالعدول عن الهجوم في الغرب . وفهم المتآمرون انه في حالة فشل براوخيتش في مهمته ، فانه سينضم الى المؤامرة للاطاحة بالطاغية . وكان المتآمرون في حالة الهياج والتفاؤل . وشرع غويردلر ، على حد رأي غيزيفيوس في اعداد قائمة بأسماء الوزراء في أول حكومة مؤقتة مناهضة للنازية ، ولم يوقفه عن عمله هذا الا بيك الاكثر اتزاناً وعقلاً . وكان شاخت الشخص الوحيد بين المتآمرين المتشائم من نتائجها . وقال لرفاقه ... « عليكم ان تترثشوا ، وسترون أن هتلر قد شم رائحة المؤامرة ، وامتنع عن اتخاذ القرار في الغد » .

وكانوا ، كما هو دأبهم ، جميعاً على خطأ .

ولم يتمكن براوخيتش من تحقيق أي نجاح كما كان متوقفاً ، لا بالمذكرة التي يحملها ولا بالتقارير التي نقلها من قادة الجبهة ، ولا بالحجج التي أوردها . وعندما راح القائد العام يؤكد رداة الطقس في الغرب في هذا الفصل من السنة ، رد هتلر بأن هذا الطقس السيء يعمل ضد العدو أيضاً كما يعمل ضد الالمان ، يضاف الى ذلك انه لا يتوقع حدوث أي تحسن فيه في الربيع . وأحس قائد الجيش الحائر القوى باليأس من اقناع الفوهرر ، فشرع في غمرة يأسه بيلفه أخيراً ، ان الحالة المعنوية بين الجنود في الغرب مشابهة لما كانت عليه في عام ١٩١٧-١٩١٨ ، عندما كانت الانهزامية وروح التمرد وحتى العصيان منتشرة في الجيش الالمانى . ويقول هولدر الذي تعتبر يومياته المصدر الرئيسي لهذه الجلسة السرية للغاية ، ان هتلر عندما سمع هذه الاقوال من قائده العام ، انفجر في ثورة عارمة من الغضب . وراح يطلب الى الفريق ان يحدد له الوحدات التي ظهرت فيها حالات من الافتقار للانضباط وصرخ قائلاً : « قل لي ، ماذا حدث ؟ وأين ؟ » وأضاف انه سيطير الى المكان الذي يحدده القائد العام غداً . وأسقط في يد براوخيتش المسكين ، فلقد روى هولدر انه بالغ في حديثه « رغبة منه في منع هتلر من الهجوم » ، ولكنه بات الآن متعرضاً لثورة الزعيم العاصفة . وعاد الفوهرر يصرخ قائلاً .. « وما هي الاجراءات التي اتخذتها قيادة الجيش ؟ وكم عدد الافراد الذين نفذ فيهم حكم الاعدام » . ومضى يقول بصوت كهزيم الرعد .. « ان الحقيقة .. هي ان الجيش لا يريد ان يحارب » .

وقال براوخيتش لمحكمة نورمبرغ وهو يستذكر هذه التجربة السيئة التي مر بها ... « ووجدت ان النقاش بات مستحيلاً . ففادرت دار المستشارية » . وتذكر آخرون بأنه عاد وهو يترنح الى مقر قيادته في زوسين التي تبعد ثمانية عشر ميلاً ، وقد أصيب بنوع من الانهيار ، الى الحد الذي تعذر عليه فيه أن يروي قصة مفهومة ومترابطة عن حقيقة ما وقع .

وكانت هذه نهاية « مؤامرة زوسين » . وقد منيت بفشل معيب ، نظير سابقتها المسماة « مؤامرة هولدر » . في ايام ميونيخ . وكانت الاوضاع التي يشترط

المتآمرون وجودها ، تتحقق في كل مرة ، ومع ذلك كانوا يتقاعسون ويتخاذلون . فلقد تمسك هتلر هذه المرة بقراره في ان يهجم في الثاني عشر من تشرين الثاني . ولم يكذب براوخيتش المنهار يغادر حضرته حتى راح هتلر يؤكد قراره هاتفياً الى مركز القيادة العامة في زوسين . وعندما طلب هولدر ان يصل اليه القرار خطياً ، سارع الفوهرر الى تلبية طلبه . وهكذا أمسك المتآمرون في أيديهم بالدليل الملموس ، الذي سبق لهم أن أعلنوا احتياجهم له ، ليطيحوا بهتلر ، وهو الامر بالهجوم الذي يعتقدون بأنه سيحمل الكارثة الى المانيا . ولكنهم لم يفعلوا شيئاً آخر ، سوى ان الفزع قد سادهم . وأسرع المتآمرون يحرقون الأوراق التي تحمل أية أدلة على جريمتهم ، كما راحوا يطمسون كل آثار هذه الادلة . ويبدو ان العقيد أوستر كان الوحيد الذي ظل محتفظاً بهدوئه واتزانته . وبعث بانذار سري الى المفوضيتين البلجيكية والهولندية في برلين ، بأن تتوقعا هجوماً على بلديهما صباح الثاني عشر من تشرين الثاني (١) . ومضى الى الجبهة الغربية في مهمة غير مجددة محاولاً اقناع الفريق فون ويتزليين بقتل هتلر . ولكن الفرقاء وبينهم ويتزليين ، كانوا يعرفون الهزيمة عندما تحل بهم . وقد تمكن العريف السابق من الانتصار عليهم مرة ثانية بمنتهى السهولة . وبعد بضعة أيام استدعى رونشتادت قائد مجموعة الجيوش « أ » ، قادة فيالقه وفرقه ليجت معهم تفاصيل الهجوم . وعلى الرغم من ان شكوكه في النجاح ما زالت قائمة الا أنه نصح « فرقاءه » بأن يدفنوا شكوكهم وخاوفهم . وقال لهم ... « لقد تلقى الجيش الامر ، وعليه أن يطيعه وينفذ المهمة التي أوكلت اليه » .

* * *

وانهمك هتلر في اليوم الذي تلا شجاره مع براوخيتش ، ذلك الشجار الذي عرض القائد العام لخطر الانهيار العصبي ، في اعداد نصوص البيانات التي ستذاع

١ - وتفلز - « المارضة الالمانية لهتلر » .

على شعبي هولندية وبلجيكا ، لتبرير الهجوم عليهما . ودون هولدر هذا المبرر في يومياته بأنه « توقعاً من هجوم فرنسي واقع على بلجيكا » .
ولكن هتلر ، أجل في اليوم التالي السابع من تشرين الثاني موعد الهجوم ، وبعث تأجيله الارتياح في صدور القادة العسكريين .. وهذا نص القرار ..

سري للغاية

برلين في السابع من تشرين الثاني عام ١٩٣٩
« ... أمر الفوهرر والقائد الاعلى للقوات المسلحة بعد ان استمع الى التقارير المتعلقة بتكهنات الاحوال الجوية وأوضاع النقل في السكك الحديدية بما يلي :
« يؤجل يوم الانذار النهائي ثلاثة ايام . وسيصدر القرار التالي في الساعة السادسة من مساء التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٣٩ .

كايتل »

وكان هذا الأمر بالتأجيل الأول بين سلسلة من التأجيلات يبلغ عددها أربعة عشر طيلة الحريف والشتاء ، وقد عثر عليها جميعها في وثائق القيادة العامة للقوات المسلحة في نهاية الحرب (١) . وتظهر هذه الأوامر أن الفوهرر لم يتخل لحظة واحدة عن قراره بالهجوم في الغرب ، وان كل ما فعله هو تأجيل موعد هذا الهجوم من اسبوع الى آخر . ففي التاسع من تشرين الثاني تأجل الهجوم

١ -- المؤامرة النازية والمضوان (٦) ص ٨٩٣ - ٩٠٩ .

حتى التاسع عشر منه ، وفي الثالث عشر من تشرين الثاني تأجل حتى الثاني والعشرين ، وهكذا دواليك ، مع وجود فترة انذار مسبقة لا تقل عن ستة أيام ، وإعطاء حالة الطقس سبباً للتأجيل . ومن المحتمل ان تكون هذه التأجيلات قد وقعت استجابة لآراء الفرقاء العسكريين ، ومن المحتمل ايضاً ان يكون قد اقتنع بأن الجيش لم يكن مستعداً . وليس ثمة من شك في ان الخطط السوقية والتعبوية (الاستراتيجية والتكتيكية) لم تكن قد أعدت اعداداً كاملاً اذ انه ظل دائماً يتولى اصلاحها وترقيعها .

وقد تكون هناك أسباب أخرى لتأجيل هتلر الاول لهجومه . ففي السابع من تشرين الثاني ، وهو يوم القرار ، ارتبك الالمانيون ارتباكاً شديداً من جراء اعلان مشترك صدر عن ملك البلجيكي وملكة هولندا ، يعرضان وساطتهما لعقد الصلح واعادة السلام ، « قبل أن تبدأ الحرب في أوروبا الغربية على نطاق عنيف للغاية » . ووجد هتلر ان من الصعب عليه أن يقنع أي انسان ، كما كان يحاول في الاعلان الذي كان يعده آنذاك ، بأن الجيش الالماني انما يزحف على الاراضي الواطئة ، لأنه عرف بأن الجيش الفرنسي يعتزم الزحف على بلجيكا .

ومن المحتمل ان يكون هتلر قد أحس بأن هجومه على دولة بلجيكا الصغيرة ، لن تكون له قوة المباغتة ، التي كان قد اعتمد عليها . وكان غويردلر قد سافر الى بروكسل في نهاية تشرين الاول ، حاملاً رسالة سرية من وايز ساكر بحث فيها السفير الالماني هناك ، بيولو - شوانتي ، ليحذر ملك بلجيكا بصورة شخصية من « خطورة الموقف القصوى » . وقد نفذ السفير المهمة ، وسرعان ما هرع الملك الى لاهاي ليتشاور مع ملكة هولندا في الوضع وليصدر ما معاذلك الاعلان المشترك . وتلقى البلجيكيون معلومات أكثر دقة ، وقد جاء بعضها من أوستر كما رأينا قبل قليل . وبعث بيولو - شوانتي في الثامن من تشرين الثاني ببرقية الى برلين ، يحذرها فيها من أن الملك ليوبولد قد أبلغ ملكة هولندا بأنه تلقى « معلومات دقيقة موثوقة » عن حشد ألماني عسكري على حدود بلجيكا يشير الى

هجوم متوقع عبر بلجيكا « في غضون يومين أو ثلاثة أيام » (١) .
ووقع حادثان غريبان كل الغرابة عشية الثامن من تشرين الثاني ، وبعد ظهر
اليوم الذي تلاه ، أولهما انفجار قنبلة على مقربة من هتلر ، نجا منها بأعجوبة ،
واختطف الحرس النازي لرجلين من رجال المخابرات البريطانية في هولندا على
مقربة من الحدود الألمانية . وقد صرف الحادثان في البداية اهتمام سيد الحرب
النازي عن الخطط التي وضعها للهجوم على الغرب ، ولكنها أديا في النهاية الى
تقوية مركزه في المانيا بينما أثارا فزع متآمرى « زوسين » اللذين لم يكن لهما في
الواقع أي ضلع في أي من الحادثين .

عملية خطف نازية وقنبلة في حانة الجمعة

انفجرت قنبلة مساء الثامن من تشرين الثاني في حانة « بيوغيربروكلر » في
ميونيخ بعد اثنتي عشرة دقيقة من انتهاء الفوهرر من القاء خطابه السنوي في
الحانة المذكورة احتفاء بالذكرى السنوية لانقلاب حانة الجمعة في عام ١٩٢٣ .
وقد نجا الفوهرر من الموت بأعجوبة نظراً لقصر خطابه في ذلك العام عن
المألوف ، اذ كانت القنبلة المتفجرة من النوع الموقوت ، وقد وضعت في عمود يقف
خلف منصة الخطابة مباشرة ، وأدى انفجارها الى مصرع سبعة أشخاص
واصابة ثلاثة وستين آخرين بجراح . وعندما وقع الانفجار كان معظم القادة
النازيين الكبار ، قد غادروا القاعة مع هتلر ، على الرغم من أنهم ألقوا في
السنوات الماضية البقاء بعد انتهاء الخطاب ، يحتسون الجمعة ، ويستعيدون مع
رفاق الحزب القدامى ذكريات المحاولة الانقلابية الاولى .
وعملت صحيفة هتلر الخاصة وحدها - الفولكشاير بيوباختر - في الصباح

١ - شهد بيولو - شواتني في عاكايت نورمبرغ حول رسالة غويردار ، ومقابلته الخاصة للملك
ليوبولد . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١) ص ٣٨٤) . وتوجد بريقة الى برلين في
نفس المصدر في الصفحة ٣٨٦ .

التالي قصة المحاولة لاغتيال الفوهرر ، وحملت مسؤوليتها « لعملاء المخابرات البريطانية » ولتشميرلين نفسه . ودونت في يومياتي في ذلك المساء أقول : « لا ريب في أن محاولة الاغتيال ستوحد الرأي العام الألماني وتجعله صفاً واحداً وراء هتلر ، وتستثير الكراهية لانكلترا .. ويرى الكثيرون منا أن المحاولة مصطنعة أشبه ماتكون بقصة حريق الرايشتاغ » .

تري ماهي الصلة بين المخابرات البريطانية وبين هذا الحادث خارج نطاق عقل هملر المحموم ؟ لقد حاول الالماني خلق هذه الصلة فوراً . اذ لم تمض ساعة أو ساعتان على انفجار القنبلة في ميونيخ حتى كان هنريخ هملر ، رئيس الغستابو والحرس النازي ، يهتف الى واحد من مساعديه الناشئين في الحرس النازي ويدعى وولتر شيلينبرغ ، يقيم في دوسلدورف ، ويأمره تنفيذاً لتعليمات الفوهرر بعبور الحدود الى هولندا في اليوم التالي ، واختطاف عميلين من عملاء المخابرات البريطانية ، كان شيلينبرغ على اتصال بهما .

وأدى أمر هملر الى حادث من أغرب حوادث الحرب كلها ، فلقد كان شيلينبرغ ، وهو كزميله الفريد نوجوكس من قطاع الطرق المثقفين من خريجي الجامعات ، يواصل الاجتماع منذ نحو من أكثر من شهر في هولندا الى ضابطين من ضباط المخابرات البريطانية هما الرئيس إس بابن والرائد آر . إس . ستيفينز . وانتحل شيلينبرغ أمامهما اسم « الرائد شيميل » وشخصية الضابط المناوئ للنازية في مقر القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية (وكان هذا الاسم يحمله ضابط حقيقي في القيادة الألمانية) ، وراح يتلو على مسامعهما قصة مقنعة عن الطريقة التي اعتزم فيها بعض القادة العسكريين الالماني ، الاطاحة بهتلر . وقال لهما ان كل ما يطلبه هؤلاء القادة ، تأكيدات من حكومة لندن ، بأنها ستعامل العهد الجديد المناوئ للنازية معاملة تنطوي على الانصاف . ولما كانت الحكومة البريطانية قد سمعت ، كما رأينا من قبل ، عن وجود مؤامرة عسكرية المانية ، يريد المشتركون فيها مثل هذه التأكيدات ، فقد اهتمت مراجع لندن بتنمية الاتصال مع هذا الرائد الألماني « شيميل » : وزوده بيست وستيفينز بجهاز

ارسال صغير وجهاز استقبال ، وجرت اتصالات لاحقة عدة عن طريق هذين الجهازين ، كما عقدت اجتماعات اخرى في عدد من مختلف المدن الهولندية. وعندما اجتمع الجانبان في السابع من تشرين الثاني في بلدة فينلو الهولندية الصغيرة على الحدود الالمانية ، كان في وسع رجلي المخابرات البريطانية ان يقدموا الى «شيميل» رسالة غامضة الى حد ما من لندن موجهة الى قادة حركة المقاومة الالمانية تضع في عبارات عامة ، أسس الصلح العادل مع العهد الجديد المناوىء للنازية . واتفق على ان يأتي «شيميل» في اليوم التالي بأحد هؤلاء القادة ، وهو ضابط برتبة فريق ، الى فينلو ، لبدأ بمفاوضات محدودة . ولكن هذا الاجتماع قد تأجل حتى التاسع من الشهر .

وكانت أهداف الجانبين حتى هذه اللحظة واضحة كل الوضوح. فالبريطانيون يحاولون اقامة اتصال مباشر مع «الانقلابيين» العسكريين الالمان ، رغبة منهم في تشجيعهم ومساعدتهم . وكان هملر يحاول التوصل عن طريق البريطانيين الى معرفات هويات المتآمرين الالمان، ومدى ما لهم من اتصال بالمخابرات البريطانية. وكان من الواضح ان هملر وهتلر ، كانا قد بدءا في الشك في بعض القادة العسكريين وفي أشخاص من أمثال العقيد أوستر والاميرال كانايس من المخابرات الالمانية . أما الآن ، وعشية الثامن من تشرين الثاني ، فقد عثر هتلر وهملر على هدف جديد ، وهو خطف هذين البريطانيين لاتهم عملاء المخابرات البريطانية ورجالها ، بمحاولة اغتيال هتلر في حانة الجمعة وتفجير القنبلة فيها .

وسرعان ما ظهر على المسرح ، ممثل معروف لدينا هو الفريد نوجوكس ، الذي كان قد أعد «الهجوم البولندي الزائف» على محطة الاذاعة الالمانية في غليويتز ومعه اثنا عشر رجلاً من رجال المكتب السري الخاص S.D. ، لمساعدة شيلينبرغ في تنفيذ عملية الاختطاف . وتمت العملية بنجاح منقطع النظير . وكان شيلينبرغ يجلس في الساعة الرابعة من بعد ظهر التاسع من تشرين الثاني على شرفة أحد المقاهي في فينلو ، يحتمي قدحاً من «المشروبات» ، منتظراً موعده مع بيست وستيفينز ، عندما وصل الضابطان البريطانيان في

سيارتهم « البيويك » فأوقفها وراء المقهى ، سرعان ما انهار عليهما سيل من الرصاص من سيارة الحرس النازي الواقفة لهما بالمرصاد وقد امتلأت بأوغاد نوجوكس . وسقط الملازم « كلوب » ، وهو ضابط مخابرات هولندي ، كان يرافق البريطانيين دائماً في محادثاتها مع شولنبرغ . مصاباً بجراح قاتلة . وحمل البريطانيين الى السيارة الالمانية وكأنهما « حزمين من القش » ، على حد وصف شولنبرغ فيما بعد ، وحمل معهما « كلوب » الجريح ، ومضت السيارة تنهب الارض عبر الحدود الى المانيا (١) .

وهكذا تمكن هملر ، من أن يعلن في الواحد والعشرين من تشرين الثاني الى الجميع ، بأن جميع الأسرار المتعلقة بمحاولة اغتيال الفوهرر في حانة الجمعة قد تم اكتشافها . وأضاف ان المحاولة قد جرت بتحريض جهاز المخابرات البريطانية ، الذي اعتقل اثنان من كبار رجاله وهما ستيفنز وبيست « على مقربة من الحدود الالمانية - الهولندية » في اليوم الذي تلا المحاولة . أما المنفذ الفعلي فهو جورج ايلسر ، النجار الشيعي الألماني ، المقيم في مونيخ .

١ تقول الرواية الهولندية الرسمية ، التي ظهرت الى النور بعد انتهاء الحرب ، ان الالمان قد سحبوا السيارة البريطانية وفي داخلها ستيفنز وبيست وكلوب ، عبر الحدود الى المانيا ، إذ لم تكن الحدود تبعد عن المكان اكثر من (١٢٥) قدماً . ووجهت الحكومة الهولندية ابتداء من العاشر من تشرين الثاني ، أي اليوم التالي لوقوع الحادث ، تسعة طلبات خطية في فترات متباعدة الى الحكومة الالمانية لاستعادة كلوب والسائق الهولندي ، كما طلبت التحقيق من جانب الالمان لهذا الحرق للعباد الهولندي . ولم يرد الالمان نط على هذه الطلبات المتكررة والمتلاحقة حتى العاشر من أيار عندما برر هتلر هجومه على هولنده ، الى حد ما على أساس قضية فينلو ، التي أقامت الدليل على تواطؤ هولنديين مع جهاز المخابرات البريطانية . ومات كلوب متأثراً من جراحه بعد بضعة أيام . أما بيست وستيفنز فقد قضيا خمس سنوات في معسكرات الاعتقال النازية وخرجاً منها حين بعد انتهاء الحرب (راجع الروايات المختلفة عن حادث فينلو في كتاب . اس . بين . بيست . « حادث فينلو » وكتاب شيلينبرغ « مسالك الجن » وويلر - بنيت « نعمة السلطان » . وتوجد الرواية الهولندية الرسمية في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٣٩٥ - ٣٩٦ - راجع أيضاً محاكمات مجرمي الحرب (١٢) ص ١٢٠٦ - ١٢٠٨ .

وبدت لي قصة همار المستفيضة المسببة ، عن الجريمة ، قصة « زائفة » منذ البداية كما دوت في يومياتي في ذلك النهار . ولكن غايته التي حققها كانت واقعية للغاية . ورحت أقول ... « لقد كانت هدف همار وعصابته ، كما يبدو ، إقناع الشعب الألماني السريع التصديق ، بأن الحكومة البريطانية تحاول أن تكسب الحرب عن طريق اغتيال هتلر وكبار مساعديه » .

ولم يحسر النقاب قط عن سر واضح القنبلة بصورة كاملة . وعلى الرغم من أن إيلسر ، لم يكن من طراز ذلك « النصف مجنون » مارينوس فان ديرلوييه ، المتهم في قضية إحراق الرايشتاغ ، إلا أنه كان على الرغم من صدقه ، إنساناً ذا ذكاء محدود . ولم يكف بأن يتترف بجريمتة في صنع القنبلة وإعدادها ، وإنما تفاخر بذلك مزهواً أيضاً . وعلى الرغم من أنه لم يمكن قد اجتمع قط الى بيست وستيفنز قبل هذه المحاولة ، إلا انه تعرف على الاول منهما بان السنوات الطويلة التي قضياها معاً في معسكر اعتقال ساسينهاوزن . وهناك وفي المعتقل راح يروي للانكليزي قصة طويلة ومعقدة ، ولا تنسجم مع المنطق دائماً .. وهذه هي القصة ..

كان إيلسر معتقلاً منذ أواسط الصيف في معتقل داخاو بوصفه من أنصار الشيوعية ، وفي ذات يوم من أيام شهر تشرين الاول ، استدعاه قائد المعتقل الى مكتبه حيث قدمه الى شخصين أجنيين . وقد أوضح له الرجلان ضرورة الخلاص من بعض أتباع الفوهرر « الحونة » عن طريق تفجير قنبلة في حانة الجمعة ، فور انتهاء هتلر من إلقاء خطابه التقليدي المألوف عشية الثامن من تشرين الثاني ، ومغادرته القاعة . وذكر أن القنبلة يجب أن توضع في عمود يقع وراء منصة الخطيب مباشرة . ولما كان إيلسر نجاراً فنياً ، وذا خبرة في شؤون الكهرباء ، والعمل « السمكري » ، فقد اقترحا عليه أن يتولى هذا العمل . وأكد له أنه إذا قام بالعمل ، فسيرتبان أمر فراره إلى سويسرا . ويدفعان له مبلغاً كبيراً من المال يمكنه من العيش في رغد ورخاء هناك . ووعداه للتدليل على جديتهما في الموضوع بمعاملة أفضل في المعتقل في الفترة التي منسبق التنفيذ ، كما عطاءه غذاء أفضل

وملابس مدنية عادية وكمية كبيرة من لفائف التبغ ، إذ أنه كان من المدخنين
بنهم وإفراط ، كما وعداه « بعمدة » كاملة . وأعد ايلسر هناك قنبلة رغم عدم
اتقانها ، كافية لتحقيق الغاية المتوخاة منها ، ومعها جهازاً للتوقيت ، و « بدعة »
تمكن صاحب القنبلة من ابطالها ، عن طريق محوّل كهربائي . وأكد ايلسر ، أن
الرجلين أخذهما ذات ليلة مبكرة من ايلالي تشرين الاول ، الى الحانة ، حيث
أودع القنبلة في العمود المقرر .

وأضاف الرجل ان هذين الغريبين حملاه عشية الثامن من تشرين الثاني ، في
الموعد الذي كان من المقرر فيه أن تنفجر القنبلة ، الى الحدود السويسرية ، وقدموا
إليه مبلغاً من المال ، وصورة - وهنا وجه الطرافة - بحجم بطاقة البريد ،
للجزء الداخلي من حانة الجمعة ، ظهر فيها العمود الذي وضع قنبلته فيه ، وقد أُمير
إليه بعلامة الصليب . ولكن بدلاً من أن يساعده على اجتياز الحدود - وهذا
هو الذي أثار حيرة الرجل القليل الذكاء - تركاه ليقع في قبضة الغستابو ومعه
تلك الصورة . وسرعان ما شرع رجال الغستابو في تلقيه ما سيُعترف به لإلصاق
التهمة ببليست وستيفينز ، عندما تنعقد المحكمة لمحاكمتها ، حيث سيفقدوا مركز
الاهتمام ومحوره (١) .

ولكن المحاكمة لم تجر مطلقاً ونحن نعرف الآن أن هملر لأبواب يعرفها هو
دون غيره ، لم يجزؤ على اجراء أية محاكمة ونحن نعرف الآن ايضاً بأن ايلسر
قد عاش في معتقل ساشينهاوزن ، ومن ثم في معتقل داخاو ، وانه كان يلقي من

١ - وقد سرد ايلسر فيما بعد قصة مماثلة الى القس نيمولر ، الذي أعرب عن قناعته المطلقة ،
بأن هتلر هو الذي وافق على حادثة القنبلة ليزيد من شعبيته الشخصية ، ولينير الحماس للحرب عند
الشعب . وأرى من الانصاف ان اضيف بأن غيزيفوس ، عدو هتلر وهملر وشيلينبرغ الاكبر ،
يعتقد كما شهد في نورهبرغ وفي كتابه بأن ايلسر حاول اغتيال هتلر فعلاً وانه لم يكن له شركاء
من النازيين . أما شيلينبرغ ، الذي اعتبره أقل وثوقاً ، فيذكر انه كان يشك في البداية في هملر
وهايدريش ، ولكنه ما لبث ان تأكد بعد استجواب النجار وبعد قراءة الاستجوابات التي جرت
لايلسر بعد تحذيره أولاً وبعد تنويعه مقناطيسياً ، بأن القضية تعتبر محاولة أصيلة لاغتيال هتلر .

المعتقلين تلبية لأوامر الفوهرر الصريحة ، اعترافاً منه بما كسبه من تفجير القنبلة من نتائج ، معاملة انسانية في تلك الظروف . ولكن هملر ظل يراقبه طيلة المدة . ولم يكن من الخير أن يظل التجار حياً بعد انتهاء الحرب ليروي قصته . وهكذا قبيل انتهاء أي في السادس عشر من نيسان عام ١٩٤٥ ، أعلنت الغستابو ، ان جورج ايلسر قد قتل إبان غارة جوية شنتها طائرات الحلفاء في اليوم السابق . ونحن نعرف الآن أن الغستابو قد قتلت الرجل (١) .

حديث هتلر الى قادته العسكريين

ومضى هتلر قدماً بعد أن نجا من الاغتيال كما بدا في عيون الالمان ، وبعد أن أخذ روح التحدي عند قادته العسكريين ، يضع خطته للهجوم العظيم الذي ينتظر شنه في الغرب . وأصدر في العشرين من تشرين الثاني التوجيه رقم (٨) ، لإدارة دفعة الحرب ، وقد أمر فيه قادته العسكريين بالمحافظة على «حالة الاستنفار» ، وذلك « لاستغلال الاوضاع المناخية المواتية فوراً » . ووضع الخطط لتحطيم هولندا وبلجيكا . واستدعى رغبة منه في بعث الشجاعة في الحائري العزيمة ، وإيقاظهم لخطورة مهمتهم ، ولإيماناً منه بضرورة ذلك عشية خوض المعارك العظيمة الى دار المستشارية ظهر الثالث والعشرين من تشرين الثاني جميع القادة العسكريين في القيادات المختلفة وضباط هيئة أركان الحرب .

ولا ريب في ان هذه المقابلة السرية وما دار فيها من أحاديث مع كبار قادته العسكريين كانت من أمتع ما وقع في الحرب . ويرجع الفضل في اكتشاف ما دار فيها الى بعض الملاحظات التي دوّنها قائد مجهول شهد الاجتماع ، وعثر عليها

١ - راجع للاطلاع على الروايات المختلفة عن حادث القنبلة كتاب بيست « حادث فينلو » ، وكتاب شيلينبرغ « مسالك الجن » وكتاب ويلور بنيت « نقمة السلطان » وكتاب ريتلينغر . « الحرس النازي - يوميات برلين » وكتاب غيزيفيوس نحو « النهاية المرة » وهناك بعض المراجع الاخرى من محاكمات نورمبرغ .

الحلفاء في ملفات القيادة العامة للقوات الألمانية المسلحة في فلينسبرغ (١) ...
وبدأ هتلر حديثه الى قادته العسكريين قائلاً :

« ان هدفي من هذا الاجتماع هو أن أقدم لكم فكرة عن العالم
الذي تطوف فيه أفكاري وهي الأفكار التي تتحكم في مواجهة
الأحداث المقبلة ، وأن أنقل إليكم قراراتي » .

كان عقله مليئاً بوقائع الماضي والحاضر والمستقبل ، وقد تحدث الى هذه الفئة
المحدودة بشيء من الصراحة القائلة والبلاغة مقدماً ملخصاً رائعاً لكل ما طاف
بعقله الحبيب والمتنوي ، ومتكهنأ بدقة رائعة بشكل الأحداث المقبلة . ولكن
يبدو من الصعب على المرء أن يتصور أن كل من استمع إليه في ذلك اليوم ،
لا يمكن أن يظل في شك من أن هذا الرجل الذي يسيطر على مقدرات ألمانيا ،
والذي بات يقبض بيده على مصير العالم ، قد بات حتماً شخصاً مصاباً بالعظام
(جنون العظمة) الى حد خطر ... فقد راح يشرح في البداية ، الكفاحات التي
خاضها في البداية ، وقال :

« وكنت أعرف تعرفاً جلياً على التيار المحتمل للأحداث
التاريخية ، كما كانت لدي الارادة الثابتة الحازمة والقادرة على اتخاذ
أقصى القرارات ... وفي وسمي أن أصف نفسي كعامل أخير وبكل
تواضع ، بأني الانسان الذي لا يمكن أن يوجد له بديل . وليس في
وسع أي رجل سواء أ كان عسكرياً أو مدنياً أن يحتل محلي . وقد
تكرر محاولات الاغتيال . ولكنني واثق من طاقاتي الفكرية
ومن قدرتي على اتخاذ القرارات ... ولم يستطع أي انسان ان يحقق
ما حققته أنا ... فلقد قادت الشعب الألماني الى أعلى الذرى حتى
ولو كان العالم يكرهنا اليوم ... ويعتمد مصير الرايخ علي وعلى
وجودي وسأقوم بممارسة أعمالي على ضوء ذلك » .

١ - المؤامرة النازية والمدوان (٣) ص ٥٧٢-٥٨٠ . ومن وثائق وزارة الحسارية
الألمانية (٨) ص ٤٣٩-٤٤٦ .

وراح يؤنب القادة العسكريين على الشكوك التي ساورتهم عندما اتخذوا قراراته الصارمة كقرار الخروج من عصبة الأمم ، وقرار التجنيد ، واحتلال منطقة الراين ونخصيتها والاستيلاء على النمسا ، ثم قال ... « وكانت عدد الذين يؤمنون بي آنذاك صغيراً للغاية » .

وراح بصف فتوحاته بشيء من « الكليية » التي كان من سوء حظ العالم أن المستر تشرشل لم يسمع بها قط ، وقال : « كانت خطوتنا التالية احتلال بوهيميا ومورافيا وبولندا » . ثم مضى يقول :

« وكان من الواضح لي منذ الوهلة الأولى ، ان ليس في استطاعتي ان اقنع بأراضي السوديت الالمان . وكان هذا الحل جزئياً . واتخذت قرارى بالزحف على بوهيميا . وتبع ذلك ، قرار آخر ، وهو إقامة محمية بوهيميا ومورافيا ، وتم بذلك وضع الأسس لاحتلال بولندا . ولكنني لم أكن واثقاً آنذاك هل أبدأ أولاً بالشرق ، ثم انتقل الى الغرب ، أو أن أنفذ العكس تماماً . وأدى ضغط الأحداث الى توجيه الحرب نحو بولندا أولاً . وقد يتهمني المرء بأنني مولع بالحرب . واني لأرى مصير جميع المخلوقات مرتبط بالصراع . وليس في وسع المرء ، إذا لم يكن يقبل بالهبوط والتدهور إلا أن يحارب ويصارع .

« ويتطلب تزايد عدد الالمان مجالاً حيوياً أوسع . وكان هدفي ان اخلق صلة معقولة بين عدد السكان والمجال المتوافر لهم للعيش . وهكذا بدأ الصراع من هذا المنطلق . فليس في وسع أي بلد أن يحل حل هذه المشكلة ، وإلا فإن الاستسلام يغدو مصير هذا البلد ، ويؤدي به الاستسلام الى التدهور ... وليس للذكاء والحساب أي ثمرة هنا ، فالحل يجب ان يتم بالسيف وعلى الشعب الذي لا يستطيع أن ينتج القوة على الصراع ، ان ينسحب ويستخذي » .

وقال هتلر ان الخطأ في القادة الالمان في الماضي وبينهم بسمارك ومولتكبه ،

هو افتقارهم الى الصلابه الكافية . ولا يمكن إيجاد الحل إلا بالمجهود على أية بلاد في الوقت المناسب . وقد أدى الفشل في إدراك هذه الحقيقة الى وقوع حرب عام ١٩١٤ « في جبهات عدة . ولم يؤد هذا التطور الى أي حل لأية مشكلة » . ومضى يقول :

« ويجري الآن وضع الفصل الثاني في هذه المسرحية فلأول مرة منذ سبعة وستين عاماً ، لا نجد أنفسنا مرغمين على القتال في جبهتين . . ولكن ، ليس في وسع أي انسان أن يعرف مدة بقاء الوضع على هذا النحو . وأنا لم أقم بتنظيم قواتنا المسلحة ، لكي أتقاعس عن كيل الضربات لأعدائنا . فقرار الضرب يعيش معي دائماً » . وأوصلته أفكاره عن نعمة القتال في جبهة واحدة ، الى موضوع روسيا فقال :

« ولا تمثل روسيا في الوقت الحاضر أية خطورة ، فهناك أوضاع داخلية عديدة في هذه البلاد تؤدي الى ضعفها . لكن المعاهدات ، لا تحترم على أي حال ، إلا اذا كانت تخدم هدفاً . وليس ثمة من شك في أن روسيا ستحترم معاهدتها معنا طالما تعتقد ان احترامها لها هو في صالحها . وما زالت هناك أهداف بعيدة أمام روسيا ، ولعل أهمها تقوية مركزها في بحر البلطيق . ولن يكون في وسعنا أن نقاوم روسيا إلا اذا كنا مطلقي الأيدي في الغرب .

أما بالنسبة الى ايطاليا فكل شيء يتوقف على موسوليني « الذي يؤدي موته الى تغيير كل شيء . وكما ان موت ستالين يؤدي الى الاضرار بنا فإن موت الدوتشي يعرضنا الى الخطر . وقد خبرت مؤخرأ مدى السهولة التي يمكن أن يقع فيها موت رجل الدولة أو السياسي » . وكان هتلر لا يزال يرى أن لا خطورة هناك في موقف الولايات المتحدة وذلك « بسبب قوانين الحياد فيها » ، كما أن مساعدتها للحلفاء لم تصبح كبيرة حتى ذلك الوقت . لكن الوقت حليف للعدو . « وما زالت اللحظة مواتية اليوم ، ولكنها قد لا تظل كذلك بعد ستة

أشهر . . ولهذا ..

« فإن قرارى ثابت لا يتبدل . فساهاجم فرنسا وانكسرتا في أقرب فرصة ممكنة وأكثرها صلاحاً ، وأنا لا أعتبر خرق حياض بلجيكا وهولندا شيئاً هاماً ، ولن يسألنا أحد عن ذلك عندما نتنصر . ولن نحاول تبرير خرقنا للحياض على النحو اللاحق الذي يروا به هذا الخرق في عام ١٩١٤ » .

وقال هتلر لقادته العسكريين ان الهجوم في الغرب يعني « نهاية الحرب العالمية ، لا مجرد عمل فردي . فهي لا تتصل بمجرد قضية واحدة ، وإنما تتصل بوجود البلاد أو لا وجودها » وعاد يتدفق في خطابه كمادته فقال :

« ويجب ان تشد روح العظاء في تاريخنا من عزائنا نحن . ولا يتطلب القدر منا أكثر مما تطلبه من عظماء الرجال في التاريخ الالمانى . ولن تتسلط علي في حياتي كلها إلا فكرة واحدة وهي انتصار شعبنا . ولن أهن أو أضعف أمام أي شيء ، وسأقضي على كل من يجروء على معارضي . . ان ما أريده هو أن أقضي على أعدائنا » .

كان الخطاب جليلاً لا يحتاج الى أي إيضاح ، ولم يجروء أي قائد عسكري ، كما نعرف الآن على أن يرفع صوته إما معبراً عن الشكوك في إمكان نجاح الهجوم في هذا الوقت ، وهي الشكوك التي كانت تساور جميع قادة الجيش ، أو مثيراً موضوع اللاأخلاقية في مهاجمة بلجيكا وهولندا اللتين ضمنتهما الحكومة الألمانية حياض حدودهما ضماناً قاطعة . وروى بعض « الفرقاء » الذين شهدوا الاجتماع أن ملاحظات هتلر على افتقار كبار دهاقنة الجيش وهيئة أركان الحرب الى الروحانية الصامدة كانت أقسى من النحر الذي أوردناه في هذا التلخيص للخطاب .

واستدعى سيد الحرب النازي في ساعة لاحقة من ذلك اليوم أي في السادسة مساء ، كلا من بواوختيش وهولدر مرة ثانية ، وراح يلقي على مسامع القائد العام محاضرة في موضوع « زوجية روسين » ، بينما ترك رئيس هيئة أركان الحرب ينتظر في خارج مكتبه وكأنه ولد عاق . وقال هتلر ان القيادة العليا للجيش

مصابة « بالانضمامية » ، بينما يقف أركان حرب هولدر موقف « المشاكسة » بما يعرضهم الى الخلاف مع الفوهرر . وعرض براوخيتش الذي أصيب في كرامته ، كما روى هو نفسه فيما بعد على منصة الشهادة في نورمبرغ ، استقالته فرراً ، ولكن هتار رفضها ، مذكراً أباه بواجبه كقائد عام للعيش « وان عليه أداء هذا الواجب وما يتوجب عليه من التزامات كأبي جندي آخر » . ودون هولدر في يومياته لذلك اليوم ملاحظة بطريق الاختزال ... تمثلت في كلمتين « يوم عصب » (١) .

ومثل الثالث والعشرون من تشرين الثاني من نواح عدة ، علامة فارقة في التاريخ الالمانى الحديث ، فقد رمز الى انتصار هتار الحاسم والأخير على الجيش بعد أن كان هذا الجيش نفسه قد نحت في الحرب الكونية الأولى ، الأمبراطور غليوم الثاني جانباً ، قابضاً بنفسه على زمام السلطان السياسي والعسكري في ألمانيا . وشرع ذلك العريف النمساوي السابق منذ ذلك اليوم ، في اعتبار أحكامه العسكرية بالإضافة الى أحكامه السياسية متفوقة على أحكام قاداته العسكريين ، ورفض الاستماع الى نصائحهم أو السماح بانتقاداتهم ، مما أدى الى نتائج مفعجة للجميع .

وقال براوخيتش في محكمة نورمبرغ يصف ما وقع في ذلك اليوم من أحداث .. « لقد وقعت القطيعة التي ما لبثت ان اختفت ، ولكنها لم تصلح إصلاحاً كاملاً أبداً ... »

وأخفت خطاب هتار الى قاداته العسكريين في ذلك اليوم من أيام الحريف ، أية أفكار ، تراود أذهان هولدر وبراوختش وغيرهما في الاطاحة بالديكتاتور النازي مهما كانت تلك الافكار ضعيفة في طبيعتها . فلقد أنذرهم بأنه « سيقضي » على كل من يحاول الوقوف في طريقه ، وذكر هولدر ان هتار أضاف « مخصصاً » بأنه سيسحق بالقوة أية معارضة قد تبديها هيئة أركان الحرب لقراراته ولم يكن

هولدر ، في ذلك الوقت على الأقل ، بالرجل الذي يستطيع الصمود أمام هذا
الوعيد الخفيف . وروى هولدر نفسه فيما بعد ، ان الفريق توماس قام بزيارته بعد
أربعة أيام ، أي في السابع والعشرين من تشرين الثاني ، مدفوعاً من شأخنة
وبوبيتز لحته على مواصلة الضغط على براوخيتش للقيام بعمل ضد الفوهرر ، وانه
- أي هولدر - ذكر زائره « بالعقبات الكأداء » في طريقهم لا سيما وانه لم
يكن واثقاً من أن براوخيتش « سيشارك اشتراكاً فعلياً في أي انقلاب
عسكري » (١) .

وشرح هولدر بعد بضعة أيام لغويردler ، الأسباب المضحكة التي تحول بينه
وبين الماضي في خطته للخلاص من الديكتاتور . وسجل هاسيل هذه الأسباب
في يومياته . فبالإضافة الى أن « المرء لا يثور عادة عندما يواجه عدواً » ، راح
هولدر يعدد النقاط التالية : « علينا أن نتيح لهُنار فرصته الأخيرة لإنقاذ الشعب
الالمانى من عبودية الرأسمالية الانكليزية .. وليس ثمة من رجل عظيم آخر متوافر
لنا الآن .. ولم تنضج المعارضة بعد نضوجاً كافياً .. ولا يمكن للمرء أن يثق
بصغار الضباط » . وراح هاسيل نفسه يناشد أمير البحر كاناريس وهو من
المتآمرين الأصليين أن يضي قدماً في تحقيق الخطوة ، ولكنه لم يصل معه الى أية
نتيجة . وأمر السفير السابق ليومياته بتاريخ الثلاثين من تشرين الثاني : « لقد
يشس كاناريس من مقاومة القادة العسكريين ، وهو يرى أن من غير المجدي القيام
بأية محاولة أخرى في هذه الطريق » : ودون هاسيل بعد أيام أخرى في يومياته ..
« لم يعد براوخيتش وهولدر أكثر من تابعين صغيرين لهُنار » (٢) .

١ - المؤامرة النازية والدوان - الملحق (ب) ص ١٥٦٩ - ١٥٧٠ ومقال توماس
« التفكير والتطورات » أيضاً .

٢ - يوميات هاسيل ص ٩٣ وص ٩٤ وص ١٧٢ .

الارهاب النازي في بولنده

المرحلة الأولى

لم تمض أيام عدة على هجوم الالمان على بولنده ، حتى أخذت يومياتي تمتلئ بآبناء الارهاب النازي في البلاد المحتلة وقد علمت فيما بعد أن يوميات شخص آخر أخذت تحتشد بهذه الأنباء أيضاً . فقد روى هاسيل في يومياته بتاريخ التاسع عشر من تشرين الأول ، انه سمع « بالأعمال الوحشية التي يتركبها الحرس النازي في بولنده ولا سيما ضد اليهود » . وراح بعد بضعة أيام يسرّ الى يومياته بقصة سمعها من أحد أصحاب الأملاك الالمان في مقاطعة بوزن ..

« وكان آخر ما رآه ، الزعيم الاقليمي النازي الشل ، الذي أمر بفتح أبواب السجون ، حيث قتل خمساً من العاهرات وحاول الاعتداء على اثنتين أخريين » (١) .

ودون هولدر في الثامن عشر من تشرين الأول في يومياته النقاط الرئيسية للحديث الذي دار في ذلك اليوم بين هتلر وبين الفريق إدوارد واغتر مدير تموينات الجيش عن مستقبل بولنده . وكان هذا المستقبل قائماً فقد قال هتلر ..

« اننا لا نعتزم مطلقاً إعادة بناء بولنده .. ولن تكون دولة نموذجية على المقاييس الالمانية . ومن الواجب الحيلولة بين الفئات الهولندية المثقفة وبين توطيد أقدامها كطبقة حاكمة . وعلينا أن نحافظ على مستويات الحياة الخفيفة فيها ليكون أهلها عبيداً لا يكلفون كثيراً .

« وعلينا أن نخلق انخلاقاً كاملاً في البلاد . وستتيح حكومة الرايخ للحاكم العام في بولنده جميع السبل لتحقيق هذه الخطة

الشيطنية .

وقد اتاحت له ذلك فعلاً . وفي وسعنا الآن أن نورد وصفاً ملخصاً لبداية عهد الإرهاب النازي في بولنده ، كما نحسر عنها النقاب ، الوثائق الألمانية المصادرة ، والادلة التي ظهرت في مختلف محاكمات نورمبرغ . ولم تكن الأعمال التي اجترمت هناك إلا تمهيداً للفظائع السوداء التي أوقعها الالمان فيما بعد في جميع الشعوب المحتلة . ولكن هذه الفظائع كانت من البداية حتى النهاية أسوأ في بولنده منها في أية بلاد أخرى . فقد بلغت الوحشية النازية في هذه البلاد حداً لا يكاد يصدق مطلقاً .

وكان هتلر ، قد أبلغ قاداته العسكريين قبيل بدء الهجوم على بولنده ، عندما اجتمع إليهم في أوبر سالزبرغ في الثاني والعشرين من آب ان « الأمور قد تسير على نحو لا يرضي أذواق الرفقاء الالمان » ، وحذرهم « من التدخل في مثل هذه القضايا » ، وان يحصروا اهتمامهم بواجباتهم العسكرية . وكان هتلر يعرف بالطبع ما يقوله . إذ لم يمض طويل وقت حتى كانت الأنباء تنهال على مؤلف هذا الكتاب سواء في برلين أو عند زيارته لبولنده ، عن المذابح النازية . وقد انتهات هذه الأنباء نفسها على القادة العسكريين . فقد دوت هولدر في العاشر من ايلول ، وكانت الحملة البولندية لا تزال في عنفوانها ، حادثاً يعتبر مثلاً بارزاً لما وصل الى برلين من أنباء . وذكر القائد أن بعض غلاظ القلوب من فوج مدفعي من جيش الحرس النازي ، حملوا أكثر من خمسين يهودياً على العمل نهائياً بكامله في إصلاح أحد الجسور ثم قادوهم الى كنيس يهودي حيث تولوا ذبحهم فيه . ورفض الفريق فون كويشار قائد الجيش الثالث ، الذي أصيب فيما بعد بنوبات حادة من تبيكيت الضير ، التوقيع على حكم ليسن أصدرته المحكمة العسكرية على الذين قاموا بهذا العمل ، وهو يقضي بسجنهم سنة واحدة ، قائلاً ان هذا الحكم مغرق في اللين . ولكن براونخيتش القائد العام مالبث أن ابطال حتى هذه الأحكام اللينة ، بعد أن تدخل هملر ، محتجاً بأن قانون « العقو العام » ينطبق على المجرمين المذكورين .

ورأى القادة العسكريون الالمان ، وهم يعتبرون أنفسهم من المسيحيين الصادقين أن الوضع بات من النوع الذي لا يطاق ، والذي يعرضهم للحيوة والضيق . وعقد اجتماع في الثاني عشر من ايلول في قطار الفوهرر الخاص بين كايتل وأمير البحر كاناريس ، وقد احتج هذا على ما يقع من مظالم وفظائع في بولندة . ورد رئيس القيادة العامة للقوات المسلحة ، المستكين رداً مقتضباً فقال ان « الفوهرر قد اتخذ قراره في هذا الموضوع وليس ثمة مجال للبحث فيه » وإذا كان الجيش لا يرغب « في الاشتراك في هذه الوقائع ، فإن عليه أن يقبل باعتبار الحرس النازي والغستابو ندين له » أي أن تقبل كل وحدة عسكرية من وحدات الجيش بمفوضين من الحرس النازي في صفوفها يتولون « تنفيذ عمليات الابداء » . ودون أمير البحر كاناريس في يومياته التي ظهرت في نورمبرغ ما يلي ...

« وبينت للفريق كايتل انني واثق من أن ثمة مخططات للقيام بعمليات إبادة على نطاق واسع في بولندة ، وان هذه المخططات تهدف إلى إبادة النبلاء ورجال الدين . وقلت له ان العالم سيعتبر القوات الألمانية المسلحة مسؤولة حتماً عن هذه الأعمال » (١) .

وكان همار أشد ذكاء من أن يسمع للقادة العسكريين بالخلاص من المسؤولية . وقام مساعد همار الأول في التاسع عشر من أيلول بزيارة القيادة العامة للجيش وأبلغ الفريق واغتر ، بخطط الحرس النازي الهادفة الى عمليات « تطهير بولندة داخلياً من اليهود والمتقنين ورجال الدين والنبلاء » ودون هولدر رد فعله تجاه هذه الخطط في يومياته بعد ان نقل إليه واغتر أنباءها فقال ..

« يصر الجيش على أن لا تبدأ عمليات التطهير إلا بعد انسحاب الجيش ، وتحول الحكم في البلاد الى الادارة المدنية وذلك في مطلع كانون الأول » .

وتفسر هذه اليومية المختصرة التي دونها رئيس هيئه أركان الجيش لنا موقف

١ - يوميات الاميرال كاناريس - المؤامرة النازية والمدوان (٥) ص ٧٦٩ .

القادة العسكريين الألمان من الناحية الأخلاقية لعمليات التطهير . فهم لا يعتزمون معارضة عمليات التطهير التي تعني إبادة اليهود والمتقنين ورجال الدين والنسلاء معارضة جدية . وكل ما يريدونه هو « تأجيل » هذه العمليات الى أن يتم خروج « الجيش » من بولنده ، ليتجنب قاداته المسؤولية . وكانوا يلحفون بالطبع على وجوب أخذ الرأي العام العالمي في محل الاعتبار والاهتمام . وهذا ما دونه هولدر فعلاً في يوميته في اليوم التالي ، وبعد اجتماع طويل مع براوخيتش ، تركز البحث فيه على عمليات التطهير في بولنده .. إذ قال :

« علينا أن لا نسمع بحدوث ما يمكن له تزويد البلاد الأجنبية بالفرصة لشن أي نوع من الحملات الدعائية المعادية التي لا تستند الى مثل هذه الحوادث . والمساس برجال الدين الكاثوليك أمر غير عملي في هذا الوقت » .

وقدم هايدريش في الواحد والعشرين من أيلول الى قيادة الجيش العليا ، صورة من خططه الأولى لعمليات التطهير . وتنص هذه الخطط كخطوة أولى على « تجميع » اليهود في المسدن حيث يكون من السهل الإمساك بهم عندما يقع التطهير . وأعلن قائلاً : « ويتطلب تنفيذ الحل الأخير » . بعض الوقت ، ومن الواجب الحفاظ على سرية الكاملة . وليس ثمة من شك في أن أي قائد عسكري قرأ هذه المذكرة ، قد أدرك فوراً أن « الحل الأخير » يعني « الابادة » (١) . وعندما حان وقت التنفيذ بعد نحو من سنتين أصبحت هذه العبارة التي تنطلق على الألسنة ، ترمز الى أفطع ما ارتكبه النازيون من جرائم في الحرب .

وأصدر الفوهرر في الثاني عشر من تشرين الأول ، مرسوماً يقضي بقيام حكومة بولنده العامة في الأراضي التي بقيت بعد ان ضم الروس حصتهم في الشرق ، وضممت ألمانيا الأمارات السابقة التي كانت جزءاً منها قبل الحرب الأولى ،

الى الرايخ ، وعيّن هانز فرانك حاكماً عاماً ، وسابس - انيكورات «الكويزلنغ» النمساوي نائباً له . وكان هانز فرانك نموذجاً رائعاً ، لقاطع الطرق النازي المثقف ، فقد انضم الى الحزب في عام ١٩٢٧ فور تخرجه من كلية الحقوق ، وسرعان ما شيد لنفسه شهرة كالفكر القانوني للحركة . وتميّز هذا الرجل بالذكاء والفراهة والنشاط والثقافة الواسعة التي تتعدى حدود القراءات القانونية الى الآداب العالمية ، والميل الى الفنون ولا سيما الموسيقى . وبات بعد وصول النازيين الى الحكم قوة لها وزنها في المنظمات الحقوقية ، اذ عمل أولاً كوزير للعدل في بافاريا ، ثم غداً وزيراً للدولة بلا وزارة في حكومة الرايخ ، ورئياً للمجمع القانوني ونقيباً للمحامين الالماني . وتمكنت ثقافة هذا الرجل الأسمر الوجه ، النشط الحركة ، الكثير الحيوية ، ووالد أطفال خمسة من التغلب على تعصبه الفطري ، وجعلت منه حتى ذلك الوقت اقرب الرجال الذين يحيطون بهتلر الى القلب . ولكن كانت شخصية «القاتل المتمدد» تختفي في هذا الرجل وراء هذا القناع من المدنية والثقافة . فلقد كشفت «اليوميات» التي دوّنها في اثنين واربعين مجلداً عن حياته وأعماله التي ظهرت الى الأضواء في محاكمات نورمبرغ عن وثائق لا مثيل لها فيما تروحي به من رعب ، وعرضت مؤلفها في صورته الحقيقية كرجل متعطش للدماء ، متعجّر العواطف ، قاس لا يرحم ومغال في نشاطه وكفائاته . ويبدو انها لم تنس أي قول من أقواله البربرية (١) .

وأعلن في اليوم التالي لتوايه منصبه الجديد .. « سيكون البولنديون عبيد الرايخ الالماني » . وقال لأحد الصحفيين النازيين عندما سمع ان نورات «حامي» بوهيميا ، قد «علتق» اعلانات عن اعدام سبعة من الطلاب الجامعيين التشيكيين . « لو أردت أن آمر بتعليق اعلان واحد ، عن كل سبعة من البولنديين الذين أعدموا ، لما كانت هناك غايات كافية في بولندة لصناعة الورق اللازم لهذه

١ - عثر الملازم وولتر شتاين من الجيش الامريكى السابع على هذه اليوميات في أيار عام ١٩٤٥ في جناح فرانك في فندق بيرغهورف على مقربة من نيوهاوس في بافاريا .

الاعلانات « (١) » .

وعهد هتلر الى كل من هملر وهابدريش بإبادة اليهود . وكانت مهمة فرانك بالإضافة الى ابتزاز المواد الغذائية والمؤن والعمل الالزامي من بولندية ، تصفية المثقفين وإبائهم وقد وضع النازيون اسماً رمزياً جميلاً لهذه العملية إذ أطلقوا عليها اسم « عملية التهذئة الحارقة للعادة » أو عملية « (ا ب) » كما أصبحت تسمى . واستغرق الاعداد لها وقتاً طويلاً من فرانك ، ولم يشرع في تحقيق بعض النتائج منها الا في الربيع التالي عندما انشغل العالم بأسره بقضية الهجوم الالمانى الكبير في الغرب ، وانصرف بانتباهه عن بولندية . وتظهر يومياته نفسها انه كان في وسعه في الثلاثين من أيار أن يفاخر في حديث « مكتوم » الى مساعديه من قادة الشرطة باحراز بعض التقدم وبأن أرواح « بضعة آلاف » من المثقفين البولنديين قد ازهقت أو على وشك أن تزهق

وراح يقول لرجاله .. « واني لأرجوكم بإسادة أن تتخذوا من الاجراءات أقساها وأكثرها حزماً لمساعدتنا في مهمتنا هذه » . وأضاف يسر لهم ان هذه هي « اوامر الفوهرر » لأنه قد أصدرها على النحو التالي :

« يجب تصفية جميع الرجال القادرين على تولي الأدوار القيادية في بولندية . ومن الواجب إبادة الأشخاص الآخرين الذين يتبعونهم ويسيروا في ركابهم ، كل منهم بدوره ، وليس ثمة من حاجة الى تحميل الرايخ أعباء وجودهم ... كما لا حاجة الى الزج بهم في معسكرات الاعتقال في الرايخ » .

وأضاف ان من الواجب التخلص منهم هناك على أرض بولندية نفسها (٢) . ودوّن فرانك في يومياته عن ذلك الاجتماع أن رئيس شرطة الأمن قدم اليه تقريراً عن سير العمل . فقد قبض على نحو من ألفي رجل وعدة مئات من

١ - محاكمات كبار مجرمي الحرب (١) ص ٢٩٧ .

٢ - محاكمات كبار مجرمي الحرب (٧) ص ٤٦٨ - ٤٦٩ .

النساء ، في « مستهل عملية التهديم الخارقة للعادة . وقد تم » اعدام معظمهم بالجملة « وهو اصطلاح نازي يطلق على عمليات الابدادة . وأضاف التقرير ان مجموعة أخرى من المثقفين يجري اعتقالها الآن لعملية « الاعدام بالجملة » . وهكذا فإن نحواً من (٣٥٠٠) من أشد العناصر البولندية المثقفة خطورة سيتم الاهتمام بها (١) .

ولم يوفر فرانك اليهود ابدأ ، حتى ولو كانت الفستابو قد انتزعت مهمة إبادتهم منه . وتحتشد يومياته بما ساوره من أفكار في هذا الموضوع وما حققه من أعمال . وتتضمن هذه اليوميات خطاباً ألقاه في جمعية نازية في بولندا في السابع من تشرين الاول عام ١٩٤٠ ، لخص فيه ما قام به من أعمال في غضون العام الأول من حكمه في بولندا وقال :

« ايها الرفاق الأعزاء .. لم يكن في وسمي أن أقضي على كل ما في البلاد من قمل ويهود في عام واحد فقط . (ودون ان الجمهور المستمع إليه قد طرب لهذه العبارة) . ولكننا نستمكن من تحقيق هذا الهدف إذا ساعدتوني مع مرور الزمن » (٢) .

وأنتهى فرانك جلسة عقدها مجلس وزرائه في كراكاو التي جعل منها عاصمته ، قبل اسبوعين من عيد الميلاد في السنة التالية (١٩٤١) بقوله :

« أود ان اقول لكم بصراحة تامة ، ان من الواجب التخلص من جميع اليهود بطريق أو بآخر .. وأريد أن أطلب منكم أيها السادة أن تتخلصوا من كل مشاعر الرحمة . فعلياً ان نبيد اليهود تماماً » .

واعترف ان من الصعوبة بمكان « ان نقضي على ثلاثة ملايين ونصف المليون من اليهود المقيمين في أراضي « الحكومة البولندية العامة » ، بالقتل أو السم ،

١ - محاكمات كبار مجرمي الحرب ص ٤٤٧ - ٤٤٨ .

٢ - المواقرة النازية والعدوان ص ٨٩١ .

ولكننا سنتمكن من القيام بإجراءات ستؤدي الى حذر ما الى ابادتهم » وكانت هذه النبوءة دقيقة الى حد ما (١) .

وبدأت عملية ترحيل اليهود والبولنديين من الديار التي عاشوا فيها هم وعائلاتهم اجيالاً طويلة فور انتهاء القتال في بولندة . وعين هتلر في السابع من تشرين الاول ، أي في اليوم الذي تلا « خطاب السامي » المشهور ، هملر ليكون رئيساً لمنظمة جديدة هي « قوميسارية الرايخ لتقوية القومية الالمانية » أو ما اطلق عليها الاسم المختصر (R.K.F.D.V) تسهيلاً . وكانت مهمة هذه المنظمة نقل البولنديين واليهود أولاً من المقاطعات البولندية ، التي ضمت الى المانيا مباشرة ، والإستعاضة عنهم بالألمان الاصليين أو من الذين يمتون الى الاصل الألماني والذين كانوا يعيشون في اطراف بولندة البعيدة أو في دويلات البلطيق وأخذوا يتدفقون على المانيا الآن فراراً من الخطر الذي بات يهدد هذه البلاد من الشرق . وكان هولدر قد سمع بهذه الخطة قبل اسبوعين من تنفيذها ، ودون في يومياته ان « شخصين سيطردان من بولندة مقابل كل الماني يرتحل الى هذه المقاطعات » .

واصدر هملر في التاسع من تشرين الاول أي بعد يومين من توليه منصبه الجديد قراراً بترحيل (٥٥٠) ألفاً من مجموع (٦٥٠) ألف يهودي يعيشون في المقاطعات البولندية التي ضمت الى الرايخ مباشرة ، ومعهم جميع البولنديين الذي لا يصلحون « للاندماج » مع الألمان الى اراضي « الحكومة البولندية العامة » الى الشرق من نهر الفستولا . وتم في غضون يوم ترحيل مليون ومائتي ألف بولندي وثلاثمائة ألف يهودي ، من اماكنهم وابعدوا الى الشرق ، ليحل محلهم (٤٩٧) ألفاً من الألمان فقط . وكانت النسبة تفوق والحالة هذه ما قدره هولدر اذ ابعد ثلاثة من البولنديين واليهود مقابل كل مهاجر الماني .

ونميز شتاء عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ بالقسوة كما يتذكر المؤلف الآن ، وسقطت فيه « ثلوج » كثيرة ، وتم ترحيل البولنديين واليهود في هذا الجو القارس الذي

١ - المؤامرة النازية والمدوان (٤) ص ٨٩١ - ٨٩٢ .

تهبط فيه درجة الحرارة عن الصفر ، ووسط زوابع ثلجية ، بما أدى الى خسائر في الارواح تفوق عدد الذين ذهبوا ضحية مشانق النازيين و رصاصهم . وفي وسعنا ان نعتمد على أقوال هملمر نفسه ، فقد ألقى خطاباً في جماعات من الحرس النازي في الصيف التالي ، أي بعد سقوط فرنسا ، رسم فيه مقارنة بين عمليات « الترحيل » التي شرع رجاله في تنفيذها في الغرب ، وتلك التي قاموا بها في الشرق وقال :

« حدثت هذه العمليات في بولندة في طقس قارس تهبط فيه الحرارة أربعين درجة عن الصفر ، حيث تحتم علينا أن نغير اتجاه الألوف بل وعشراتنا ومئاتها ، من ناحية الى ناحية ، وكان لزاماً علينا ان نتحلى بالقسوة التي اود ان تسمعوا بها وان تنسوا ما سمعتموه فوراً ، اقتل الألوف من البولنديين البارزين ... وليس ثمة من شك في ان من الأسهل ايها السادة في كثير من الاحوال ان يضطرع الانسان مع جماعة عسكرية ، على ان يخمد جمهوراً متبرداً يتميز بالمستوى الثقافي الخفيض أو ان ينفذ عمليات إعدام ، أو يغير اتجاه جماعات من النساء اللاتي يمكن بكاء هستيرياً أو يجليهن عن مكان ما (١) » .

وكان الزعيم الأول ريشارد غليكس ، من كبار قادة جيش الحرس النازي ورئيس دائرة تفتيش المعتقلات ، قد ابلغ هملمر في الواحد والعشرين من شباط عام ١٩٤٠ بعد ان طاف بالمنطقة المحيطة بكراكار ، انه عثر على « موقع مناسب » لإقامة « معسكر جديد للحجز » في اوشويتز ، وهي بلدة صغيرة مهجورة ، وفي منطقة تغص بالمستنقعات تضم نحواً من اثني عشر ألف انسان ، وفيها بالإضافة الى بعض المصانع ، ثكنة غسوية قديمة للخيالة . وبدأ العمل في اعداد المعسكر فوراً . وتم في التاسع عشر من حزيران افتتاح معتقل اوشويتز

١ - المؤامرة النازية والدوان (٤) ص ٥٥٣ - ٥٥٤ .

للمسجونين السياسيين البولنديين الذين اراد الالمان ان يعاملوهم معاملة تنطوي على الكثير من القسوة . وسرعان ما تحول هذا المكان الى معتقل من اكثر المعتقلات شراً وفظائع . وكان مدير مؤسسة « فاربين » لاحتكار الصناعات الكيماوية الالمانية قد اكتشفوا في غضون ذلك ان « اوشويتز » موقع ممتاز لصناعة المطاط الكيماوي وزيت الفحم الصناعي . وتطلبت اقامة الابنية الجديدة اللازمة لهذه المصانع ، وادارة العمل فيها ، المزيد من اليد العاملة الرقيقة والرخيصة .

ووصلت الى اوشويتز في ربيع عام ١٩٤٠ زمرة من اغلظ رجال الحرس النازي قلباً بقيادة جوزيف كرامر ، الذي اشتهر امره فيما بعد عند الجماهير البريطانية وعرف باسم « وحش بيلزين » وذلك لتولي ادارة المعسكر وتأمين العمل الدقيق لمصانع فاربين . وكانت يساعده رودولف فراتز هوبس ، المحكوم المدان بتهمة القتل والذي قضى خمس سنوات في السجن ليصبح فيما بعد سجيناً ، والذي تفاخر فيما بعد في نورمبرغ ، في ١٩٤٦ وكان قد بلغ السادسة والاربعين من عمره ، بأنه أشرف في اوشويتز على إبادة مليون من المعتقلين ، يضاف اليهم نصف مليون آخر ، ماتوا جوعاً .

وقد قدر لأوشويتز ان يقدو اكثر معتقلات الإبادة شهرة ، ومن الواجب تمييزه عن معسكرات الاعتقال التي ظل بعض تزلاتها احياء حتى انتهاء الحرب . ولا ريب في ان من المهم كل الاهمية لتفهم الالمان ، حتى من اكثرهم جدارة بالاحترام في عهد هتلر ، ان يقال ان مثل هذه الشركة - شركة فاربين - ذات المكانة البارزة والشهرة الدولية ، والتي كان مديرها يكرمون على انهم من ابرز رجال الاعمال في المانيا واكثرهم نجاحاً ، ويبدون بمظهر الذين يخافون الله ، قد آثرت ان تجعل من معسكر الموت هذا مكاناً مناسباً لتجارها المربحة .

الاحتكاك بين الجماعيين

تميّز محور برلين رومة بكثرة ما دار فيه من صراخ في ذلك الحريف الاول من الحرب .

وتبدلت الخلافات الحادة على مختلف المستويات بين البلدين متناولة عدداً من المشا كل أهمها فشل الألمان في تنفيذ جلاء المواطنين من أصل الماني من التيرول الجنوبي الايطالي تنفيذاً لاتفاق سابق في حزيران الماضي ، وفشل الألمان ايضاً في تزويد ايطاليا بمليون طن من الفحم في كل شهر ، وتقاعس الايطاليين عن تجاهل الحصار البريطاني وتزويد المانيا بالمواد الاولية التي تحتاجها والتي تستورد عن طريق ايطاليا ، وازدهار انجار ايطاليا مع بريطانيا وفرنسا وتزويدها لهما ببعض المواد الحربية ، وتزايد مشاعر شيانو المناوئة للألمان .

وكان موسوليني ، كدأبه دائماً ، يترنح بين الحدة والبرود ، وقد دوّن شيانو مراحل هذا التقلب في يومياته . ولقي الدوتشي مشقة بالغة في التاسع من تشرين الثاني ، في اعداد برقية الى هتار ينهؤه فيها بنجاحه من محاولة الاغتيال . وقد دوّن شيانو في يومياته يقول :

« اراد ان تكون بوقيته دافئة عاطفية ، على ان لا تكون مغالية في دفئها ، اذ انه في تقديره ، لم يكن يرى ان هناك ايطاليا واحداً يحس احساساً شديداً بالفرح ، لأن هتار قد نجا من الموت ، والدوتشي في مقدمتهم .

» ٢٠ تشرين الثاني .. لا يستطيع موسوليني احتمال فكرة قيام هتار بشن الحرب ، او بكسبها وهو الاسوأ .

واعرب الدوتشي في اليوم الذي تلا عيد الميلاد عن « رغبته في هزيمة المانيا » ، وراح يوعز الى شيانو ، بأن يبلغ سراً كلاً من بلجيكا وهولندا بأنها تتعرضان لهجوم قريب (١) . ولكن لم يحل مطلع العام الجديد ، حتى كان يتحدث ثانية عن الدخول في الحرب الى جانب هتار .

١ - نقل شيانو التحذير الى السفير البلجيكي في رومة في الثاني من كانون الثاني ودون عمله هذا في يومياته . ويقول وايز ساكر ان الاذن التقطوا بوقيتين رمزيتين بعث بها السفير البلجيكي الى بروكسل ، ينقل فيها تحذير الوزير الايطالي وتولوا حلها (وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ٦٨٣) .

وكانت سياسة الالمان المؤيدة للروس هي السبب الرئيسي في الاحتكاك بين دولتي المحور . فلقد قام الجيش السوفياتي الأحمر في الثلاثين من تشرين الثاني عام ١٩٣٩ بمهاجمة فنلندا ، ووجد هتلر نفسه في وضع حرج للغاية عرضة للاذلال والمهانة . فاقد طرد الالمان من البلطيق ثمناً لميثاقهم الذي عقده مع ستالين ، ووجد هتلر نفسه مجبراً على اجلاء الأسر الالمانية التي عاشت في تلك البلاد قروناً طويلة ، بسرعة فائقة ، ونحتم عليه الآن ان يعلن رسمياً تساعده تجاه قيام الروس بهجوم غير مستفز على بلاد صغيرة تشدها الى المانيا أوثق الوشائج منذ عهد طويل ، وكان للجنود الالمان النظاميين في عام ١٩١٨ ، الفضل الأكبر في تحقيق استقلالها وخروجها على النطاق الشيوعي بعد قيام الحكم السوفياتي في روسيا (١) . وكانت « البرشامة » مرة كل المرة على مذاق هتلر ، ولكنه وجد نفسه مرغماً على ابتلاعها ، وقد ابتلعها . وصدرت تعليمات حازمة إلى البعثات الدبلوماسية الالمانية في الخارج ، وإلى الصحف والاذاعات الالمانية لتأييد عدوان روسيا وتجنب التعبير عن أي عطف على الفنلنديين .

ويبدو ان هذا كان الحيط الأخير بالنسبة الى موسوليني الذي تحتم عليه ان يواجه المظاهرات المعادية للألمان في طول ايطاليا وعرضها . وراح الدوتشي بعيد مطلع العام الجديد ، وفي الثالث من كانون الثاني على وجه التحديد بنفس عما يحس به من ضيق في رسالة مطولة بعث بها الى الفوهرر . ولم يكن الدوتشي قط لا من قبل ولا من بعد ، بمثل هذه الصراحة التي بدت في رسالته المذكورة ، عندما كان على استعداد لتقديم مثل هذه النصائح الحادة والقاسية لزميله هتلر .

وقال الدوتشي في رسالته انه « واثق ثقة مطلقة » من ان المانيا لن تستطيع حتى ولو ساعدها ايطاليا ، ارغام بريطانيا وفرنسا على الركوع والاستسلام أو

١ - انتخب البرلمان الفنلندي في التاسع من تشرين الاول عام ١٩١٨ - وهذه طرفة مضحكة من طرف التاريخ المجهولة - الأمير فريدريك كارل أوف هيسي ليكون ملكاً لفنلندا بأغلبية ٧٥ صوتاً مقابل ٢٥ وذلك اعتقاداً من النواب بأن المانيا هي التي ستكسب الحرب . ولكن انتصار الحلفاء بعد نحو من شهر وضع نهاية لهذه القصة المضحكة .

حتى التفريق بينهما . وحمل مثل هذا الأمل مجرد حلم خادع ، فلن تسمح الولايات المتحدة بهزيمة الدولتين الديمقراطيتين هزيمة كاملة . ولذا فليس من الضروري بعد ان أحس هتلر الآن بالاطمئنان على حدوده الشرقية ان « يجازف بكل شيء حتى بالعهد النازي نفسه ، ويضحي بزهرة الاجيال الالمانية » في محاولة لهزم هاتين الدولتين . وقال موسوليني انه يرى السلام ممكناً اذا سمحت المانيا بوجود دولة بولندية متواضعة وغير مسلحة شريطة ان تكون بولندية تماماً . وأضاف قائلاً : « وما لم تكن تعترف المضي في الحرب حتى النهاية ، فإني اعتقد ان خلق دولة بولندية .. قد يكون عنصراً نافعاً في تقرير الحرب ، وإقامة وضع صالح لحلق السلام » .

ولكن صفقة المانيا مع الروس هي التي تقض على الديكتاتور الابطالي مضجعه . أكثر من أي شيء آخر ، اذ مضى يقول :

« وقد افادت روسيا من الحرب دون ان تطلق رصاصة واحدة فائدة كبيرة تتمثل في ما استولت عليه في بولندة ودول البلطيق . ولكن في وسعي ، وقد ولدت انساناً ثورياً ، ان أقول لك ، ان ليس بإمكانك الاستمرار في التضحية بمبادئ ثورتك في سبيل المقتضيات التكتيكية للظروف الناتجة عن فترة سياسية معينة .. وأرى من واجبي ان أضيف بأن قيامك بأية خطوة جديدة في طريق علاقاتك مع موسكو سيؤدي إلى نتائج مفاجئة في ايطاليا (١) » .

ولم تكن رسالة موسوليني التحذيرية الى هتلر ، مجرد انذار عن تدهور العلاقات الايطالية - الالمانية فحسب ، وانما اصاب أيضاً هدفاً سهلاً المنال في الصميم ، وهو شهر العسل الذي يقضيه الفوهرر مع روسيا السوفياتية ، اذ ان ما يقع فيه من خلافات قد بدأ في التأثير على اعصاب العروسين . حقاً لقد ممكنه هذا

١ - نص الرسالة - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٦٠٤ - ٦٠٩ .

الزواج من شئ حربه على بولندة وتدميرها ، كما اتاح له ايضاً فوائد أخرى . فقد كشفت الاوراق الالمانية المصادرة عن سر يعتبر من أدق أسرار الحرب ، وهو تأمين الاتحاد السوفياتي الموانئ على المحيط المتجمد الشمالي والبحر الأسود والمحيط الهادئ ، لتستورد المانيا عن طريقها ما هي في حاجة اليه من مواد حربية ، كان الحصار البريطاني يحول دون وصولها اليها .

ووافق مولوتوف في العاشر من تشرين الثاني عام ١٩٣٩ ايضاً على ان يقوم الاتحاد السوفياتي كذلك بدفع اجور نقل هذه السلع على السكك الحديدية الروسية (١) . وتعهدت روسيا ايضاً بتأمين الوقود وخدمات الإصلاح للسفن والقواصات الالمانية في ميناء تيريبيركا الواقعة على المحيط المتجمد الشمالي الى الشرق من مورمانسك ، فقد ظن مولوتوف ان الميناء الاخير أي مورمانسك لا يؤمن « السرية المطلوبة » بينما يعتبر تيريبيركا « أكثر صلاحاً لبعده عن الخطوط الملاحية ، ولعدم وصول السفن الاجنبية اليه (٢) » .

وظلت المانيا وروسيا السوفياتية تتفاوضان طيلة خريف عام ١٩٣٩ وشتائه ، لزيادة الاتجار بينهما . ولم تحل نهاية كانون الاول حتى كانت شحنات الروس من المواد الاولية ولا سيما من الحنطة والزيت إلى المانيا قد بلغت حداً كبيراً ولكن الالمان ظلوا يطلبون المزيد . وبدأوا يتعلمون ايضاً ان الروس لا يقلون مهارة وصلابة في مساوماتهم الاقتصادية عن مهارتهم وصلابتهم في المفاوضات السياسية . واحتج المشير غورنغ وامير البحر الاكبر ريدر والفريق كيتل في الاول من تشرين الثاني ، « فرادى إلى وزارة الخارجية » طبقاً لما دونه وايز ساكر ، على مبالغة الروس في طلب المعدات الحربية من المانيا . وعاد كيتل إلى الاحتجاج ثانية إلى وايز ساكر ، بأن طلبات الروس من المنتجات الالمانية ولا سيما الآلات اللازمة لصناعة الذخيرة « أخذت تزداد شراهة وبعداً عن العقل والمنطق

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٣٩٤ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٢١٣ .

شيثاً فشيئاً (١) .

ولكن لما كانت المانيا بحاجة إلى الغذاء والزيت من روسيا . فقد كان لازماً عليها ان تدفع إلى موسكو السلع التي تحتاجها وتريدها . وكانت حاجة الرايخ « المحصور » إلى هذه المواد الضرورية من روسيا كبيرة إلى الحد الذي حمل هتلر على ان يصدر في الثلاثين من آذار عام ١٩٤٠ ، وفي لحظة من أكثر اللحظات حرجاً ، امره بأن تعطى الاولوية لتسليم المعدات الحربية إلى روسيا حتى بالنسبة إلى ما يحتاجه القوات الالمانية المسلحة نفسها (٢) . ودفع الالمان في وقت من الاوقات الطراد الثقيل « لوبتراو » الذي لم يكن قد تم بناؤه بعد ، كجزء من مدفوعاتهم إلى موسكو . وكان امير البحر ريدر قد اقترح في الخامس عشر من كانون الاول ان يبيع الالمان إلى موسكو ، تصميماً البارجة « بسمارك » ذات حمولة (٤٥) ألف طن والتي تعتبر أضخم بارجة في العالم ، وهي تحت البناء إذا دفع الروس « ثمناً غالياً جداً لها (٣) » .

واستترك ستالين شخصياً في نهاية عام ١٩٣٩ في المفاوضات التي تدور في موسكو مع الوفد التجاري الالمانى . ووجد الاقتصاديون الالمان فيه مساوماً من الدرجة الاولى . وهناك في وثائق الويلهلمشتراسة المصادرة مذكرة طويلة مسببة عن ثلاثة اجتماعات لا تنسى عقدها الوفد الالمانى مع ستالين الذي بعث المهابة في نفوسهم ، والذي ادهشهم بما يعرفه من كثرة التفاصيل . وقد وجدوا ان ليس من السهل خداع ستالين أو « بلفه » ، وانه يواصل الاحلاف والمطالبة بقسوة وشراسة ، حتى انه كان في بعض الاحيان ، على حد رواية الدكتور

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٤٩٠ .

٢ - ابلغ غورنغ الفريق توماس (المستشار الاقتصادي للقيادة العامة للقوات المسلحة) بعد احتلال فرنسا والاراضي المنخفضة ان « الفوهرر يرغب في تسليم الروس ما يطلبونه في المواعيد المقررة حتى ربيع عام ١٩٤١ فقط » ثم مضى يقول ... « أما بعد ذلك التاريخ فلن تكون لنا مصلحة في ارضاء المطالب الروسية وتلبيتها » . (المؤامرة النازية والمدوان (٤) ص ١٠٨٢) .

٣ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٥٣٧ .

شئوري ، أحد المفاوضين النازيين ، في تقريره الذي بعث به الى برلين ، « تأثراً الى حد كبير » . وراح ستالين يذكر المفاوضين الألمان بأن الاتحاد السوفياتي « قدم خدمات عظيمة لألمانيا ، واكتسب أعداء له بسبب هذه الخدمات » . وهو يتوقع شيئاً من الاحترام من برلين مقابل هذه الخدمات . . . وفي اجتماع عقد في الكرملين عشية رأس سنة ١٩٤٠ . .

« وصف ستالين الثمن الاجالي للطائرات بأنه مسألة خارجة عن الموضوع تماماً . اذ ان هذا الثمن يمثل أضعاف الثمن الحقيقي . وهو يود ان تصارحه المانيا اذا كانت عزوفة عن تسليم هذه الطائرات اليه » .

وفي جلسة عقدت عند منتصف ليلة الثامن من شباط في الكرملين . . . « طلب ستالين من الألمان ان يقترحوا أسعاراً معقولة ، وان لا يبالغوا في وصفها على النحو الذي وقع سابقاً . وأورد على سبيل المثال ، ما طلبه الألمان من ثمن للطائرات بلغ ثلاثمائة مليون مارك . وما طلبوه ثمناً للطراد « لوتيزاو » بلغ حدود ١٥٠ مليوناً من الماركات . وأضاف ان على الألمان ان لا يستغلوا طيبة الاتحاد السوفياتي وحسن نواياه (١) » .

وتم التوقيع في موسكو أخيراً في الحادي عشر من شباط عام ١٩٤٠ على اتفاق تجاري معقد ، ينص على تبادل السلع بين الدولتين في غضون الثمانية عشر شهراً التالية في حدود (٦٤٠) مليوناً من الماركات كحد أدنى . ويضاف هذا المبلغ ، إلى ما اتفق عليه في الاتفاق التجاري الذي عقد في شهر آب الماضي والذي ينص على تبادل في السلع يبلغ (١٥٠) مليوناً من الماركات في العام تقريباً . ونص الاتفاق الجديد ايضاً على ان تحصل روسيا بالاضافة الى الطراد « لوتيزاو » وتصميمات البارجة « بسمارك » ، على عدد من المدافع البحرية الثقيلة وغيرها من

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٥٩١ و ٥٥٣ .

المعدات ، وعلى ثلاثين من احدث الطائرات الالمانية المحاربة بينها طائرات مقاتلة من طراز « مسرشميت ١٠٩ » و (١١٠) وطائرات « يونكرز ٨٨ » المتفظة . وتقرر ايضاً ان يتسلم الروس الآلات لصناعاتهم الكهربائية والنفطية ، والقاطرات والمحركات الدوارة (توربينات) ، والمولدات ، وقاطرات الديزل والبواخر وقطع الآلات وغماذج من مدافع الالمان ودباباتهم ومتفجراتهم ومعداتهم للحرب الكيميائية وما اشبه ذلك من آلات (١) .

وسجلت وثائق القيادة العليا للقوات المسلحة ما حصل عليه الالمان في السنة الاولى من الروس ، وتضمنت القائمة مليون طن من الحبوب ونصف مليون من القمح وتسعمائة الف طن من الزيت ومائة الف طن من القطن وخمسمائة الف طن من الفوسفات وكميات كبيرة من المواد الاولية المهمة الاخرى ، ونقل مليون طن من « حبوب الصويا » من منشوريا (٢) .

وأعد الدكتور شنوري الحبير الاقتصادي في وزارة الخارجية الالمانية والموجه الوفد التجاري في موسكو ، عند عودته الى برلين مذكرة مطوّلة ، ضمنها المكاسب التي حققها للرايخ في مفاوضاته . وقد جاء في هذه المذكرة ان ستالين بالاضافة الى ما قدمه من مواد اولية تحتاجها المانيا أمس الحاجة عرض « مساعدة سخية » وهي ان تتولى روسيا دور « المشتري للمعادن والمواد الاولية بالنيابة عن المانيا في بلاد أخرى » ، وانهى مذكرته قائلاً :

« ويعني هذا الاتفاق ، فتح الباب على مصراعيه لنا باتجاه الشرق ... وليس ثمة من شك في انه سيضعف الحصار البريطاني المفروض علينا الى حد كبير (٣) » .

-
- ١ - نص الاتفاق التجاري الموقود في ١١ شباط عام ١٩٤٠ والارقام التي تحدد الشحنات المتبادلة في « وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٧٦٢ - ٧٦٤ » .
 - ٢ - المؤامرة النازية والمدون (٤) ص ١٠٨١ - ١٠٨٢ .
 - ٣ - مذكرة شنوري بتاريخ ٢٦ شباط عام ١٩٤٠ موجودة في « وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٨١٤ - ٨١٨ » .

ولعل هذه المساعدة الاقتصادية كانت من أهم الأسباب التي حلت هتلر على ابتلاع ما أصاب كبرياءه من اذلال ، وعلى مساعدة روسيا في عدوانها على فنلندا ، وهو عدوان لم يلق قط تأييداً من الشعب الألماني ، وعلى قبول التهديد الموجه ضد ألمانيا وحدها دون غيرها ، من إقامة الجنود والطيارين الروس في القواعد الجديدة التي حصل عليها ستالين في دول البلطيق الثلاث . فلقد ساعده ستالين على التغلب على الحصار البريطاني ، وما زال يتيح له الفرصة - ولعل هذا هو المهم كل الأهمية - للقتال في جبهة واحدة ليس إلا ، ولتركيز قوته العسكرية الهائلة في الغرب ، ليوجه بها الضربة القاضية ، ضد فرنسا وبريطانيا ، ويحتاج بها بلجيكا وهولندا ، ليتمكن بعد ذلك كله من تنفيذ المخطط الذي وضعه ، والذي سبق له ان نقله إلى قادته العسكريين .

وكان في السابع عشر من تشرين الاول عام ١٩٣٩ ، وبعد انتهاء الحملة البولندية قد ذكر كايكل بأن الاراضي البولندية . .

« مهمة لنا من وجهة نظر عسكرية . كنقطة قفز أمامية ، ولحشد سوقى لقواتنا الحربية . ومن الواجب تحقيقاً لهذه الغاية الحفاظ على ما في بولندا من طرق حديدية وطرق برية ووسائل أخرى للمواصلات ، سليمة من كل أذى (١) » .

وأدرك هتلر مع اقتراب عام ١٩٣٩ الجليل الشأن من نهايته ، كما سبق له ان قال لقادته العسكريين في مذكرته بتاريخ التاسع من تشرين الاول ، انه لا يمكن الركون الى حياد السوفيات الى الابد . وأضاف ان الاوضاع قد تبدل في غضون ثمانية أشهر أو سنة . وعاد يؤكد في خطابيه الذي القاه على هؤلاء القادة في الثالث والعشرين من تشرين الثاني « ان ليس في وسعنا ان نقاوم روسيا إلا عندما نتحرر من الغرب » . وظلت هذه الفكرة مهيمنة على عقله

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٦٢٠ .

القلق امدأ طويلاً .

واختفت السنة القدرية في ضباب التاريخ في جو غريب وعجيب .
فعلى الرغم من وجود حرب عالمية ، لم يكن هناك قتال في البر ، ولم تكن
القاذفات الضخمة تحمل في الجو الا منشورات دعائية من اسوأ ما كتب من
دعابات . واقتصرت الحرب الفعلية على البحر . اذ واصلت القواصات الالمانية
فرض جزيتها على البواخر البريطانية وحتى الحابدة في مياه شمال الاطلسي
القاسية والباردة .

وخرجت « غراف شي » وهي احدى بوارج الجيب الالمانية الثلاث من
مرکز انتظارها الى جنوب الاطلسي وتمكنت في غضون ثلاثة أشهر من اغراق
تسع بواخر نقل بريطانية حولتها خمسون الف طن وفي الرابع عشر من كانون
الاول عام ١٩٣٩ ، وقبل ايام من أول عيد ميلاد يقضيه العالم في الحرب ،
تكهربت جماهير الالمان من الانباء التي نشرت تحت عناوين لاهبة ، والتي اذيعت
على شكل خاطف سريع على موجات الاثير ، تنقل اليها نبأ انتصار عظيم في
البحر . فلقد قيل في البيانات ان البارجة الالمانية اشتبكت مع ثلاث طرادات
بريطانية في اليوم السابق على بعد اربعمائة ميل من ميناء مونتفيديو في اميركا
الجنوبية وعطلتها عن العمل . ولكن سرعان ما تحول المرح الى دهشة . فلقد
اذاعت الصحف الالمانية بعد ثلاثة أيام فقط ان البارجة قد اغرقت نفسها عند
مصب نهر لابلاتا على مقربة من عاصمة اورغواي . ترى أي نصر هذا ؟
واعلنت القيادة البحرية العليا في الواحد والعشرين من كانون الاول ان قائد
« غراف شي » القبطان هانز لانفسدورف قد «حذا حذو سفينته ، فمات منتحراً»
قائماً بواجبه كمحارب وبطل ، وبحققاً الآمال التي كان يعلقها عليه الفوهرر والشعب
الالما في والاسطول .

ولم يعرف الرأي العام الالما في قط ان « غراف شي » قد اصيبت بأضرار
بالغة من الطرادات الثلاثة التي قيل انها عطلتها ، والتي كانت تقل عن البارجة

في قوة مدافعها (١) ، وانما اضطرت الى اللجوء الى مونتفيدو طلباً لإصلاحها ، وان حكومة اورغواي ، لم تسمح لها طبقاً للقانون الدولي إلا بالبقاء مدة اثنتين وسبعين ساعة ، وهي مدة لا تكفي لإصلاحها وان القبطان « البطل » لانفسدورف ، أثر على المجازفة بمعركة أخرى يخوضها مع الوحدات البريطانية ببارجته المعطلة ، ان يغرقها ، وانه بدلاً من ان يمضي معها الى اعماق البحار ، انتهر بعد يومين باطلاق النار على نفسه في غرفة في أحد فنادق بيونيس ايرس . ولم يعرف الشعب الالمانى أيضاً ، ان الفوهرر كما روى الفريق يودل في يوميته بتاريخ الثامن عشر من كانون الأول ، « غضب أشد الغضب لاغراق البارجة غراف شبي دون معركة » ، وبعث في طلب أمير البحر ريدر الذي تلقى منه اعنف التوبيخ (٢) .

واصدر هتلر في الثاني عشر من كانون الاول توجيهاً آخر ، « سرياً للقاية » أجل فيه الهجوم في الغرب ، وحدد ان أي قرار جديد لن يتخذ قبل السابع والعشرين من الشهر ، وان أقرب تاريخ للغزو ، سيكون في الاول من كانون الثاني عام ١٩٤٠ . ونصح تبعاً لذلك بمنح اجازات عيد الميلاد للعسكريين . وأرى في يومياتي التي دونتها عن تلك الايام ، ان برلين احتفلت بعيد الميلاد في ذلك العام - وهو من أكثر اعيادها في العادة مرحاً وصخباً - بشكل كثيب قاتم ، ولم تقدم فيه الهدايا كالعادة ، وتميز الغذاء الذي قدم فيه بالتقير والشح ، بينما كان معظم الرجال غائبين عن بيوتهم والشوارع يسودها الظلام ، ونوافذ الدور معتمة اسدلت عليها سحب وستائر ثقيلة ، وكل من في العاصمة يتمتع متذمراً من الحرب وأوضاع الغذاء وشدة البرد القارص .

١ - اوعز غوبلز في اليوم الذي سبق غرق البارجة الى الصحف الالمانية بنشر برقية مزورة صادرة عن مونتفيدو تقول ان « غراف شبي » لم تصب الا « بأضرار طفيفة » ، وان الأبناء البريطانية عن اصابتها بأضرار تشلها عن الحركة ليست الا اكاذيب صارخة .

٢ - مؤتمرات هتلر في الشومون البحرية (١٩٣٩ . ص ٦٢) - نص رسالة لانفسدورف المؤثرة وفي نفس المصدر المواد الاخرى المتعلقة بالمعركة وما وقع بعدها (٥٩ - ٦٢) .

وتبودلت برقيات التهئة بالعيد بين هتلر وستالين ، إذ ابرق هتلر قائلاً :
« ابعث اليك بأحسن التمنيات لسعادة شخصك الكريم ، ولرخاء شعوب الاتحاد
السوفيياتي الصديقة ومستقبلها الطيب »

ورد ستالين قائلاً ... « هناك كل ما يبرر خلود الصداقة القائمة بين شعبي
المانيا والاتحاد السوفيياتي التي وثقتها المشاركة في الدم ، وان يحفظها على
أمنس راسخة » .

واغتم السفير السابق فون هاسيل في برلين فرصة العيد للتحدث إلى رفاقه
المتأمرين من أمثال بوبيتز وغويردلر والفريق بيك ، ودون في يومياته بتاريخ
الثلاثين من كانون الثاني الحطة الأخيرة التي توصل اليها ... وكانت على
النحو التالي :

« تقف عدد من الفرق الحربية في برلين ، وهي في طريق
نقلها من « الغرب إلى الشرق » . ويظهر ويتزليبين في برلين وبأمر
بجمل جيش الحرس النازي . ويمضي بيك على هذا الأساس إلى
زوسين حيث يتولى القيادة العامة من براوخيتس . ويقوم أحد
الاطباء باعلان عجز هتلر عن البقاء في الحكم ، ويحمل بعد ذلك إلى
الاعتقال التحزبي . ويصدر نداء بعد ذلك إلى الشعب يتضمن
النقاط التالية : الحيلولة دون أية فظائع يقوم بها الحرس النازي ،
اعادة الأخلاق المسيحية والشرف والنزاهة ، المضي في الحرب مع
الاستعداد لعقد الصلح على اسس معقولة ... » .

ولكن هذه الحطة لم تكن أكثر من مجرد سفسطة وكلام لا طائل تحته ، إذ
انها كانت بعيدة عن الواقع . ويبدو ان « المتأمرين » كانوا على اختلاف في
آرائهم حتى ان هاسيل خصص جزءاً كبيراً من يومياته لدراسة ما إذا كانت
الضروري الاحتفاظ بغورنغ أو الاطاحة به ايضاً .

واستغل غورنغ نفسه بالاضافة إلى هتلر وهملر وغوبلز ولي وغيرهم من زعماء
الحزب ، فرصة العام الجديد لاصدار بيانات تنطوي على العظمة والفخامة .

وقال لي في بيانه... « ان الفوهرر على حق دائماً ... فأطيعوه » . وقال الفوهرر نفسه ، انه لم يكن « هو الذي أشعل الحرب وانما أشعلها دعائهم من اليهود والرأسماليين » ثم مضى يقول ...

« وما نحن نقف على عتبة هذا العالم الحاسم في التاريخ الالمانى ونحن متحدون في بلادنا ، أقوياء في اقتصادنا ، ومسلّحون الى اقصى التسليح في جهازنا الحربي ... واننا لنأمل في ان تكون سنة ١٩٤٠ سنة القرار الحاسم . وستتميز بها وقع فيها بالنصر الذي سنحققه » .

وكان هتلر في السابع والعشرين من كانون الاول قد عاد الى تأجيل الهجوم في الغرب مدة « اسبوعين على الاقل » . وحدد في العاشر من كانون الثاني موعد الهجوم بصورة حاسمة في الساعة الثامنة والدقيقة السادسة عشرة من صباح السابع عشر من كانون الثاني أي « قبيل شروق الشمس بربع ساعة » . وأمر بأن يشرع السلاح الجوي في هجومه في الرابع عشر من كانون الثاني ، أي قبيل الموعد المحدد بثلاثة أيام ، جاعلاً مهمته تدمير مطارات العدو في فرنسا دون المساس ببلجيكا وهولندا . وحزم أمره على ان يترك الدولتين المحايدتين الصغيرتين في حيرة من مصيرهما حتى اللحظة الأخيرة .

ولكن سيد الحرب النازي عاد فجأة الى تأجيل الهجوم ثانية في الثالث عشر من كانون الثاني « اسبب الأوضاع الجوية » . وظل ملف القيادة العليا للقوات المسلحة عن يوم الغزو في الغرب صامتاً حتى السابع من أيار . ومن المحتمل ان يكون الطقس قد لعب دوراً في تأجيل الهجوم في الثالث عشر من كانون الثاني . ولكننا نعرف الآن ان هناك حادثين آخرين كانا مسؤولين عن هذا التأجيل الى حد كبير وأولهما هبوط طائرة عسكرية المانية بصورة اضطرارية في بلجيكا في العاشر من كانون الثاني ، وثانيهما ظهور فرصة جديدة الآن في الشمال .

ففي العاشر من كانون الثاني وهو اليوم الذي أمر فيه هتلر بأن يبدأ الهجوم في

السابع عشر عبر بلجيكا وهولندا ، اضطرت طائرة حربية المانية كانت تطير من مونيستر الى كولون الى الهبوط في بلجيكا بعد ان ضلت طريقها بسبب السحب الكثيفة وذلك على مقربة من بلدة ميشيلان الواقعة على نهر الموز . وكانت هذه الطائرة تقل الرائد هيلموت راينبرغر ، وهو من ضباط الأركان المهمين في قيادة السلاح الجوي الالماني ، وقد حمل في حقيبة يده الخطط الالمانية الكاملة للهجوم في الغرب مع خرائطها التفسيرية اللازمة . وعندما بدأ الجنود البلجيكيون في الاقتراب من الطائرات المأبوضة ، مضى الرائد الى اجمة قريبة وأشعل النار بالحقيبة التي يحملها ، ولفت عمله هذا اهتمام الجنود البلجيكيين ، فهرعوا الى النار يطفئونها ، وينقذون ما ظل فيها من محتويات . وعندما نقل راينبرغر الى مقر قيادة بلجيكية قريبة ، راح الضابط الالماني يقفز بحركة يائسة ويمسك بالاوراق التي كانت النار قد التهمت جزءاً منها ، التي كان الضابط البلجيكي قد وضعها على مكتبه ، ويقذف بها في موقد تشتعل فيه النيران ، ولكن الضابط البلجيكي تمكن من انقاذها بسرعة خارقة .

ونقل راينبرغر الى مقر قيادة سلاحه الجوي في برلين عن طريق السفارة الالمانية في بروكسل ، نجحاه في احراق الاوراق التي لم تبقى منها الا اجزاء صغيرة في « حجم راحة اليد » . . لكن القلق سيطر على الدوائر العليا في برلين . وراح بودل ينقل الى هتلر آراءه فيها « يحتمل ان يكون العدو قد عرفه أو لم يعرفه » . ولكنه لم يكن في الواقع على ثقة مما يقول . وراح يدون في يومياته بتاريخ الثاني عشر من كانون الثاني بعد مقابلته للفوهرر . . . ما يلي . . اذا تمكن العدو من حيازة الملفات ، فان الوضع يغدو مفاجئاً بل وقريباً من الكارثة » . وبعث ريبنتروب في تلك الليلة برفقية « عاجلة للغاية » الى السفارة الالمانية في بروكسل يطلب اليها فيها ان تبعث فوراً بتقرير عن ائتلاف ما كان يحملته الرسول » . وتكشف يومياً بودل في الثالث عشر من كانون الثاني ان غورنغ عقد اجتماعاً في صباح ذلك اليوم مع ملحقة الجوي في بروكسل الذي طار الى برلين على جناح السرعة وان كبار قادة الطيران قد شهدوا هذا الاجتماع . ومضى

يودل يدون قائلاً : « كانت نتيجة الاجتماع ان المحفظة قد احرقت بكل تأكيد » .

وتمضي يوميات يودل فتقول ان هذه النتيجة لم تكن اكثر من مجرد تخييط أعشى في ظلمة الليل . ثم تذكر ان الامر قد صدر في الساعة الواحدة بعد الظهر الى الفريق هولدر هاتفياً « بوقف كل حركات عسكرية » .

ونقل السفير الألماني في بروكسل الى حكومته في نفس اليوم الثالث عشر ، من كانون الثاني انباء حركات عسكرية بلجيكية واسعة النطاق « نتيجة انباء مفزعة تلقتها هيئة اركان الحرب البلجيكية » . وبعث السفير في اليوم التالي برسالة عاجلة اخرى الى برلين يقول فيها ان البلجيكين قد أصدروا الأمر بتطبيق « الحالة د » التي تعتبر قبل الأخيرة في موضوع التعبئة العامة ، وانهم استدعوا طبقتين اخريين من القوات الاحتياطية . وهو يعتقد ان السبب الذي حدا بهم الى اتخاذ هذه الخطوات هو ما حملته اليهم « الأنباء من تحركات عسكرية المانية على الحدود البلجيكية والهولندية ، وكذلك محتويات ما كان يحمله الرسول العسكري من بريد احترق بعضه وعثر على بعضه الآخر مع الضابط الماني الطيار » . ولم يحل مساء الخامس عشر من كانون الثاني حتى كانت الشكوك قد ساورت عقول كبار العسكريين المسؤولين في برلين ، في صحة رواية الرائد راينرغر عن احراقه الوثائق التي تدين المانيا . ودون يودل بعد أن شهد اجتماعاً آخر حول الموضوع ... « يبدو ان هذه الوثائق قد احرقت في الظاهر ليس الا » . ولكن بول هنري - سباك وزير خارجية بلجيكا استدعى السفير الألماني في بروكسل ، وابلفه بصراحة ، كما روى السفير في البرقية التي بعث بها الى برلين بعد انتهاء المقابلة ..

« بأن الطائفة التي اضطرت الى الهبوط في العاشر من كانون الثاني قد وضعت في ايدي البلجيكين وثيقة من اكثر الوثائق أهمية وخطورة ، اذ ضمت أدلة واضحة على وجود النية في الهجوم . ولم تكن هذه الوثيقة مجرد مخطط لعملية حربية ، وانما هي أمر

بالهجوم ارفق بجميع التفاصيل المتعلقة به ولا ينقصه الا تحديد موعد الهجوم الذي كان لا بد وان يوضع في المكان المحصن له والذي ترك خالياً . »

ولم يتأكد الألمان قط ، مما اذا لم يكن سباك يخدعهم « ويبلقهم » بهذه الأقوال . وسلمت نسخ من هذه الأوراق الألمانية الى هيئتي اركان الحرب البريطانية والفرنسية . وكان الميل سائداً هاتين الهيئتين بأن الأوراق الألمانية كانت تستهدف « الخدعة » ليس الا . ويقول تشرشل انه اعترض بشدة على هذا التفسير ، وأعول لأن أحداً لم يهتم بتحذيره الخطير . وكل ما نعرفه الآن معرفة أكيدة ان هتلر قد أجل في الثالث عشر من كانون الثاني عندما عرف بما حدث ، موعد الهجوم ، وانه عندما حان الوقت أخيراً لاتخاذ القرار النهائي في الربيع كانت الخطة السوقية كلها للعملية قد تغيرت تغيراً جوهرياً () .

ولكن الهبوط الاضطرابي في بلجيكا ورداءة الطقس لم يكونا العاملين الوحيدين في تأجيل الهجوم . فقد بدأت النضوج في برلين ابان ذلك خطط أخرى لهجوم الماني جريء على دولتين محايدتين اخريين في الشمال ، واحتلت الآن مكان الأولوية . وهكذا مع مجيء الربيع كانت الحرب « الزائفة » تقترب من نهايتها بالنسبة الى الألمان .

١ - اعتمدت في قصة الهبوط الاضطرابي على بعض المصادر الألمانية الرئيسية . اما مصادر التقارير التي بعث بها السفير الألماني والملحق الجوي في بروكسل الى برلين فواردة في وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) وفي يوميات بيدل . ويظهر نص الخطة الألمانية للهجوم في الغرب على النحو الذي تمكن الألمان من تنفيذه في (المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٢٣ - ٢٨) وقد اورد كارل بارتر وصفاً للحادث في كتابه « لما احترقت السماء » . اما ملاحظات تشرشل عن الموضوع فتد في مذكراته ص ٥٥٦ - ٥٥٧ وهو يورد تاريخاً خاطئاً لموعد الهبوط الاضطرابي .

احتلال الدانمارك والنرويج

استخدم الالمان عبارة « تمرين ويسر » الرمزية البريئة ، لتعني الخطة الاخيرة للعدوان الالماني . وكانت جذور هذه الخطة وتطورها من النوع الفريد الذي لا يشبه بأي حال من الاحوال ذلك الطراز من الهجوم غير المستفز الذي احتشدت به صفحات هذا الكتاب ولم تكن وليدة عقل هتلر كما كانت الاخرى ، وانما كانت ثمرة تفكير امير بحر طموح وانسان نازي مبتذل دائم السكر مشوش الفكر . وكان هذا العمل ، هو العدوان العسكري الالماني الوحيد الذي لعب فيه الاسطول الالماني الدور الحاسم . وكان ايضاً الحركة الوحيدة التي وضعت القيادة العليا للقوات المسلحة خططها وترتيبات التنسيق فيها بين الفروع الثلاثة للقوات المسلحة . وفي وسعنا القول بأن القيادة العليا للجيش وهيئة اركان حربه لم تستشارا في هذه الخطة مجرد استشارة ، مما اثار انزعاجها وسخطها ، كما ان غورنغ لم يطلع عليها ويلعب دوره على مسرحها الا في اللحظة الاخيرة ، وهو تجاهل أحس الرئيس البدين للسلاح الجوي بشعور من المهانة تجاهه .

كانت عيون البحرية النازية تتطلع منذ أمد طويل نحو الشمال . فليس لالمانيا أي منفذ مباشر نحو المحيطات الواسعة ، وهي حقيقة جغرافية انطبعت في عقول ضباط البحرية الالمانية منذ أيام الحرب الكونية الاولى . فلقد أقام

البريطانيون شبكة محكمة النطاق عبر بحر الشمال من جزر « شيتلاند » الى الساحل النرويجي ، يعززها سياج من الألغام ، ودوريات دائمة من البوارج الحربية . وقد حصرت هذه الشبكة الاسطول الامبراطوري الالماني القوي ، ومنعت الغواصات من النفاذ الى شمال الاطلسي ، وحالت بين السفن التجارية الالمانية وبين الوصول الى البحار الواسعة . وتمكن الحصار البحري البريطاني من خنق المانيا الامبراطورية في الحرب الاولى . وراح ضباط البحرية الالمان الذين يعدون على الاصابع في فترة بين الحربين ويتولون قيادة الاسطول المتواضع الحجم يفكرون بهذه التجربة التي مرت بها بلادهم وبتملك الحقيقة الجغرافية ويصلون الى النتيجة القائلة وهي ان على المانيا ان تحاول الحصول على قواعد بحرية في النروج في أية حرب مقبلة مع بريطانيا . وثبت لهم ان هذه القواعد تحطم خط الحصار البريطاني عبر بحر الشمال ، وتفتح المحيط واسعاً أمام سفن المانيا الحربية وغواصاتها ، وتتيح الفرصة للرايخ ليقبض الاوضاع ويفرض بدوره حصاراً فعالاً على الجزر البريطانية .

وليس من الغريب والحالة هذه عندما نشبت حرب عام ١٩٣٩ ، اذا ما راح امير البحر رولف كارلز ، وهو الرجل الثالث بين قادة الاسطول الالماني ، وصاحب الشخصية القوية ، يطر أمير البحر ريدير كادون هذا في يومياته ، وكما شهد أمام محكمة نورمبرغ بالرسائل التي يقترح فيها « اهمية احتلال المانيا للساحل النرويجي (١) » . ولم يكن ريدير بحاجة الى الكثير من الحث ، وراح في الثالث من تشرين الاول وبعد انتهاء الحملة على بولندة ، يبعث بسؤال « مكثوم » الى هيئة أركان حرب البحرية يطلب اليها فيها التثبت من « احتمال الحصول على قواعد في النروج ، في ظل الضغط المشترك لروسيا و المانيا » . واستشير ريبنتروب في هذا الموضوع وفي موقف موسكو فرد بأن في « الامكان الاعتماد على تأييد واسع من تلك الناحية » . وقال ريدير لأركان حربه ، بأن من الواجب اطلاق

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٤) - ص ١٠٤ و (٦) ص ٨٩١ - ٨٩٢ .

هتلر على هذه « الاحتمالات » في اسرع وقت ممكن (١) .

وراح ريدير يقترح على الفوهرر في تقرير مطول بعث به اليه في العاشر من تشرين الاول عن سير العمليات البحرية ، أهمية الحصول على قواعد بحرية في النروج بمساعدة روسيا اذا اقتضى الأمر . وتظهر الوثائق المصادرة ان هذه هي المرة الاولى التي لفتت البحرية الالمانية اهتمام هتلر الى هذا الموضوع . ويقول ريدير ان الزعيم « ادرك على الفور أهمية المشكلة النروجية » . وطلب الى قائده البحري ، ان يترك له كل ما لديه من ملاحظات حول هذه القضية واعدأ بإيلائها ما تستحقه من درس وعناية . ولكن سيد الحرب النازي كان في غضون ذلك غارقاً في موضوع الهجوم على الغرب ، وفي التغلب على ما يديه قاداته العسكريون من تردد (٢) . ويبدو ان النروج قد بعدت عن تفكيره بعض الوقت (٣) . ولكن هذه الفكرة ما لبثت ان عادت الى عقل هتلر بعد شهرين لأسباب ثلاثة .

كان أول هذه الاسباب حلول الشتاء . وكان وجود المانيا كله يعتمد على استيراد معدن الحديد من السويد . وكان الالمان يعتمدون لخططهم للسنة الاولى من الحرب على أحد عشر مليوناً من الاطنان من السويد من مجموع خمسة عشر مليوناً هي الاستهلاك الكلي لالمانيا في العام . وكان نقل هذه المادة التي لا غنى لالمانيا عنها يجري في أشهر الدفء من شمال السويد الى خليج بوتنيا ومن ثم عبر بحر البلطيق الى المانيا ، دون ان يسبب هذا النقل أية مشكلة حتى في أيام الحرب نظراً لتمكن الالمان من حماية هذا البحر حماية فعالة من غواصات البريطانيين وسفنهم الحربية . ولكن هذا الطريق البحري يتوقف عن العمل في الشتاء بسبب

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٢٨ و ٩٧٨ .

٢ - كان هتلر قد استدعى في العاشر من تشرين الاول قاداته العسكريين وتلا على مسامعهم مذكرة مطوية عن ضرورة القيام بهجوم فوري في الغرب ، وسلمهم توجيه السادس الذي يأمر باتخاذ الاستعدادات لشن الهجوم عبر هولندا وبلجيكا .

٣ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٨٩٢ ومؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٣٩)

كثافة الثلج وتجمد البحر . وكان من الضروري ان ينقل الحديد في أشهر الشتاء بطريق السكة الحديدية الى ميناء نارفيك النرويجي في الشمال ، وان تحمله البواخر على طول السواحل النرويجية الى المانيا . وكان في وسع البواخر الالمانية الحاملة للحديد ان تبخر طيلة الطريق ضمن المياه النرويجية الاقليمية وان تكون في مأمن من تدمير السفن البحرية والطائرات البريطانية .

وهكذا كانت للنروج المحايدة في بادئ الامر فائدتها لالمانيا على حد تعبير هتلر لقادته العسكريين ، اذ انها مكنتها من الحصول على شريان حياتها من الحديد دون تدخل بريطانيا .

وقد ادرك تشرشل وزير بحرية بريطانيا هذه الحقيقة منذ البداية ، وفي الاسابيع الاولى من الحرب ، وحاول اقناع الحكومة التي هو عضو فيها بالسماح له بزرع الألغام في مياه النروج الاقليمية لوقف نقل الحديد الى المانيا . ولكن تشمبرلين وهاليفاكس ترددا كثيراً في خرق حياد النروج ، وتقرر تأجيل النظر في اقتراح تشرشل مؤقتاً (١) .

وبدل هجوم روسيا على فنلندة في الثلاثين من تشرين الثاني عام ١٩٣٩ تبديلاً جذرياً في الدول الأسكندنافية اذ ضاعف من اهميتها السوقية (الاستراتيجية) بالنسبة الى الحلفاء الغربيين والى المانيا . وشرعت بريطانيا وفرنسا في تنظيم حملة مشتركة في اسكوتلندة لايفادها الى فنلندة لمساعدة أهلها البواسل الذين تحذوا جميع التكهّنات فصمدوا بعناد واصرار في وجه هجمات الجيش الاحمر الساحقة . ولكن هذه الحملة لا تستطيع الوصول الى فنلندة الا عبر اراضي السويد والنروج وأدرك الالمان لفورهم ان قوات الحلفاء اذا ما سمح لها بالعبور من الجزء الشمالي للدولتين الأسكنديناويتين أو اذا ما قامت باحتلاله لهذه الغاية ، فانها ستبقى فيه قوات كافية بحجة المحافظة على طرق المواصلات لقطع طريق تموين المانيا

بالحديد السويدي (١) . يضاف الى هذا ان الدولتين الغربيتين ستطوقان جناح المانيا من الناحية الشمالية . ولم يتقاعس امير البحر ريدر عن تذكير الفوهرر بجميع هذه الاخطار . ووجدت البحرية الالمانية الآن حليفاً ، مهماً لها في النروج يعمل لتحقيق خططها ، في شخص الرائد فيد كون ابراهام لوريتز كوزلنغ الذي سرعان ما بات اسمه مرادفاً لكلمة « الخائن » في كل لغة من اللغات .

ظهور فيد كون كوزلنغ

بدأ كوزلنغ حياته بداية شريفة . ولد في عام ١٨٨٧ من أسرة من الفلاحين وتخرج اولاً من الكلية العسكرية النروجية ، وعندما بلغ العشرين من عمره ، اوفد ملحقاً عسكرياً الى بيتروغراد . وانعمت عليه الحكومة البريطانية بتقديراً للخدمات التي بذلها للعناية بالمصالح البريطانية بعد قطع العلاقات بين بريطانيا والحكومة البلشفية بوسام الامبراطورية البريطانية من درجة قائد . وكان في هذه الآونة من الميالين الى بريطانيا والى البلاشفة في وقت واحد . وظل في روسيا السوفياتية بعض الوقت كمساعد لفريد تجوف نانسين المكتشف السوفيياتي المشهور والعالم الانساني ، يعينه في اعمال الاغاثة للروس .

وقد تأثر الضابط النروجي الشاب كل التأثير بنجاح الشيوعيين في روسيا ، حتى انه عندما عاد الى اوپلو عرض خدماته على حزب العمال الذي كان في تلك الآونة عضواً في الدولية الشيوعية (الكومنترن) . واقترح تأليف « حرس احمر » ولكن حزب العمال ، شك فيه كثيراً وفي مشروعه ثم أبعده . وسرعان ما تحول الى جانب الآخر المتطرف . وقام بعد أن شغل منصب وزارة الدفاع

١ - كان هذا الافتراض صحيحاً كل الصحة . فقد عرف الآن ان مجلس الحلفاء الحربي الأعلى الذي اجتمع في باريس في الخامس من شباط عام ١٩٤٠ قرر ان تقوم القوات المشتركة التي سترسل كحملة الى فلندة باحتلال مناجم الحديد السويدي ، بعد نزولها في ميناء نارفيك النروجي الذي لا يبعد كثيراً عن هذه المناجم (راجع كتاب المؤلف ... تحدي اسكتلدينا في ص ١١٥ - ١١٦) . ويقول تشرشل في مذكراته انه تقرر عرضاً اثناء الاجتماع « السيطرة على مناجم الحديد في غوليفار » (مذكرات تشرشل الجزء الثاني صفحة ٥٦٠) .

الوطني مدة عامين بين عام ١٩٣١ و ١٩٣٣ ، بإنشاء حزب « الاتحاد الوطني » مقتبساً من النازية عقائدها وأساليبها ، بعد ان كانت قد وصلت الى الحكم في المانيا . ولكن لم يقدر للنازية أن تنجح في تربة النروج الديموقراطية الخصبة ولم يتمكن كوينلنغ حتى من النجاح في الانتخابات والوصول الى عضوية البرلمان . وهكذا استدار ناحية المانيا بعد ان هزمه شعبه عند صناديق الاقتراع .

واتصل في المانيا بالسكير الفرد روزنبرغ الفيلسوف الرسمي للحركة النازية وكان بين مهامه ، ادارة مكتب الحزب للشؤون الخارجية . وخيل لهذا الأحمق البلطقي ، الذي كان من أقدم اعوان هتلر واخذانه انه يرى في هذا الضابط النروجي امكانات ضخمة ، اذ كان من خيالات روزنبرغ المحبوبة ، اقامة امبراطورية « نوردية » ، يحرم منها اليهود وغيرهم من العناصر « غير النقية » ، وتتولى السيطرة على العالم تحت زعامة المانيا النازية . ولذا فقد ظل منذ عام ١٩٣٣ على اتصال بكوينلنغ ، يشبعه بفلسفته غير المعقولة ودعايته .

وعندما كانت نذر الحرب تتجمع في سماء أوروبا في حزيران عام ١٩٣٩ اغتم كوينلنغ فرصة حضوره مؤتمراً للجمعية النوردية في لوبك ليطلب الى روزنبرغ ان يقدم اليه شيئاً آخر اكثر من الدعم العقائدي . وتقول تقارير روزنبرغ السرية التي ظهرت في نورمبرغ ، ان كوينلنغ حذر روزنبرغ من خطر سيطرة بريطانيا على النروج في حالة نشوب الحرب ، وبين له ما تحصل عليه المانيا من مزايا في حالة احتلال المانيا لها ، وطلب مساعدة جوهرية لحزبه وصحافته . وراح روزنبرغ وقد عرف عنه ولعه بكتابة المذكرات ، يبعث بثلاث منها الى هتلر وغورنغ وريبنتروب ، ولكن يبدو ان « الكبار الثلاثة » قد تجاهلوا ، اذ لم يكن هناك في المانيا من يحمل « الفيلسوف الرسمي » على حمل الجذ . وتمكن روزنبرغ على أي حال من اعداد العدة لتدريب خمسة وعشرين من رجال جيش العاصفة الذي أسسه روزنبرغ لمدة اسبوعين في المانيا في شهر آب .

ولم يقع أي اتصال في غضون الأشهر الاولى من الحرب بين أمير البحر ريدير ،

كما شهد في نورمبرغ فيما بعد ، وبين روزنبرغ ، الذي لم يكن يعرفه الا لملحاً ، كما لم يتصل بكويزلنغ الذي لم يكن قد سمع عنه شيئاً . ولكن ما كاد الروس يهاجمون فنلندة ، حتى شرع ريدر في تلقي التقارير من ملحقه البحري في اوسلو ، الرئيس ريشارد شرايبر ، عن توقع نزول الحلفاء في وقت قريب في النرويج . وقد تحدث امير البحر عن هذه التقارير الى هتلر في الثامن من كانون الاول ، ونصحه بصراحة قائلاً : « من المهم ان نحمل النرويج (١) » .

وبعث روزنبرغ بعد أمد قصير ، بمذكرة غير مؤرخة الى أمير البحر ريدر ، حول « زيارة عضو المجلس الخاص كويزلنغ » . وكان المتأمر النرويجي قد وصل الى برلين ، ووجد روزنبرغ ان من الخير ان يعرف ريدر عنه شيئاً وان يعرف ماذا جاء يفعل . وقال ان لكويزلنغ عدداً من المؤيدين بين كبار ضباط الجيش النرويجي ، واطلعه ، كدليل على ما يقول ، على رسالة أخيرة من العقيد كونراد سوندلو ، قائد منطقة نارفيك النرويجي وصف فيها رئيس وزراء بلاده بالانسان (البليد) وأحد كبار وزرائه (بالعجوز الثمل) ، ومعرباً عن استعدادة (للمجازفة بنفسه في سبيل البعث القومي) . ولكن العقيد سوندلو لم يغامر فيما بعد بنفسه للدفاع عن بلاده ضد العدوان .

ولقد ابلغ روزنبرغ ريدر بالفعل بأن كويزلنغ يضع خطة للقيام بانقلاب عسكري . ولا بد ان يكون هذا النبأ قد لقي آذاناً صاغية في برلين ، اذ أن مثل هذا الانقلاب لا بد وان يكون صورة مقتبسة من اتحاد النمسا (الانشلوس) . وسيجري تدريب عدد من جنود العاصفة الكويزلنقيين بسرعة في المانيا على ايدي (الاشتراكيين الوطنيين المدربين ، والكثيри الفعالية ، والخبيرين بمثل هذه العمليات) . وعندما يعود هؤلاء الطلاب الى النرويج ، فيسحاولون السيطرة على بعض النقاط ذات الأهمية السوقية (الاستراتيجية) في اوسلو ويتحتم على الاسطول الالماني في الوقت نفسه معززاً بوحدات

من الجيش الالماني الظهور في خليج يختار لهذه الغاية خارج ارسلو ،
تلبية لنداء خاص من الحكومة النروجية الجديدة) .
انه عين الاسلوب الذي اتبع في ضم النمسا (الانشلوس) يعود الى الظهور
من جديد ، مع قيام كوينلنغ بتمثيل الدور الذي مثله سايس انيكوارت ...
وأضاف روزنبرغ قائلاً ...

« ولا يساور الشك نفس كوينلنغ في ان مثل هذا الانقلاب ...
سيلقى تأييداً من فئات الجيش التي أقام الآن ارتباطات بها ...
وهو يعتقد ان الملك سيقبل ايضاً بمثل هذا الامر الواقع ...
» وتتفق تقديرات كوينلنغ عن عدد القوات الالمانية التي يحتاج اليها في هذه
العملية مع التقديرات الالمانية نفسها (١) .

واجتمع امير البحر ريدر الى كوينلنغ في الحادي عشر من كانون الاول ،
وقد رتب روزنبرغ هذه المقابلة عن طريق أحد رجال الأعمال النروجيين ويدعى
فيلجام هاغيلين الذي كانت اعماله تتطلب بقاءه اغلب الوقت في المانيا ، والذي
كان يتولى القيام بدور ضابط الارتباط لكوينلنغ فيها . وقد تحدث هاغيلين
وكوينلنغ الى ريدر في الكثير من الامور ودون ريدر ما استمع اليه منها في
مذكرة احتفظ بها في الوثائق الالمانية السرية ..

قال كوينلنغ ... ان البريطانيين يعدون المدة لانزال قواتهم
في ضواحي ستافانغر ومن المعقول ان تصبح كريستيانساند قاعدة
بريطانية محتملة . ويسيطر اليهودي المشهور كارل هامبرو ، رئيس
مجلس الشيوخ النروجي والصدى الحميم للوزير البريطاني هور
بليشا على الحكومة النروجية الحاضرة ، وعلى برلمان البلاد
وسياستها الخارجية ... وشرح كوينلنغ بالتفصيل الاخطار التي

١ - مذكرة روزنبرغ (المؤامرة النازية والمدون (٦) ص ٨٨٥ - ٨٨٧ ومؤتمرات
هتلر في الشؤون البحرية ١٩٣٩ ص ٥٣ - ٥٥) .

تعرض لها المانيا من احتلال بريطانيا للنرويج ...
واقترح كوزلنغ تحسباً من أية حركة بريطانية ان تضع تحت تصرف القيادة العامة للقوات المسلحة الالمانية ، القواعد النرويجية اللازمة . وقد تم شراء الرجال الذين يحتلون مراكز مهمة في السكك الحديدية والبريد والمواصلات في جميع المناطق الساحلية لتحقيق الهدف . وقد جاء هو وهاغلين الى برلين لاقامة « علاقات واضحة مع المانيا بالنسبة الى المستقبل ... ولهذا فهو يرغب في عقد اجتماعات للبحث في العمليات المشتركة ونقل القوات الى اوسلو وما شابه ذلك من مواضيع (١) .

وشهد ريدير في نورمبرغ فيما بعد انه تأثر بهذه الاقتراحات ، وقال لزارثيه بأنه سيتحدث الى الفوهرر . ثم يبلغها بنتائج هذا الحديث . وقد اجتمع الى هتلر فعلاً في اليوم التالي ، وحضر المقابلة كايتل ويودل ايضاً . وقد ابلغ القائد العام للأسطول الذي عثر على تقريره عن هذا الاجتماع بين الوثائق المصادرة ، هتلر ، بأن كوزلنغ قد ترك في نفسه « انطباعاً يوحى بالثقة » . وراح بعد ذلك يلخص للفوهرر النقاط التي ذكرها النرويجي مؤكداً علاقات كوزلنغ الطيبة مع ضباط الجيش النرويجي « واستعداده للاستيلاء على الحكومة عن طريق انقلاب سياسي يقوم بعده بطلب العون من المانيا » . واتفق جميع الحاضرين على انه ليس في وسع المانيا مقاومة قيام البريطانيين باحتلال النرويج ، ولكن سرعان ما تحول امير البحر ريدير الى الحذر والحيطه ، فأعلن ان « احتلال الالمان للنرويج ، يستثير بريطانيا على القيام باجراءات مضادة » وأضاف ان « الاسطول الالمانى ليس على استعداد بعد لمواجهة هذه الاجراءات مدة طويلة » ، وان هذه الحقيقة يجب ان تحمل على انها نقطة ضعف في حالة الاحتلال ، لا سيما وان المنطقة نفسها تصبح معرضة لأي هجوم » . واقترح أمير البحر من الناحية الاخرى ان تقوم القيادة العامة للقوات المسلحة ...

« بأعداد الخطط اللازمة مع كوزلنغ وتنفيذ الاحتلال بأحدى طريقتين ... »

« أ - الوسائل السلمية أي أن تتولى النروج دعوة القوات الألمانية المسلحة .

« ب - القوة والعنف » .

ولم يكن هتلر على استعداد بعد للمضي بعيداً الى هذا الحد في الوقت الحاضر ورد بأنه يود ان يتحدث الى كوزلنغ شخصياً قبل كل شيء « ليتمكن من تكوين فكرة عن الرجل ^(١) » .

وفعلاً اجتمع هتلر في اليوم التالي أي الرابع عشر من كانون الثاني الى كوزلنغ ، وقد تولى ريدير شخصياً مصاحبة الحائنين النروجيين الى دار المستشارية . وعلى الرغم من عدم عثورنا على أي سجل لهذا الاجتماع الا ان كوزلنغ قد أثر كما يبدو على الديكتاتور الألماني ^(٢) كما اثر سابقاً على قائد الاسطول ، اذ ان هتلر أمر في نفس الليلة القيادة العامة للقوات المسلحة ، بأعداد مشروع خطة بالتشاور مع كوزلنغ . وقد سمع هولدر بأن هذه الخطة ستشمل ايضاً القيام بعمل عسكري ضد الدانمارك ^(٣) .

وعاد هتلر الى الاجتماع بكوزلنغ مرتين في السادس عشر والثامن عشر من كانون الاول على الرغم من انها كما في الانبياء السيئة التي توات عليه من « غراف شي » . ولا ريب في ان النكسة البحرية التي مني بها ، قد ضاعفت من

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٣٩) ص ٥٧ - ٥٨ .

٢ - ولكنه لم يؤثر ابدأ على الوزير الألماني المفوض في اوسلو ، الدكتور كورت بريتر ، اذ انه حذر برلين مرتين في شهر كانون الاول من « حل كوزلنغ على مجمل الجدد ، ذلك لان فوزه وآماله ليسا كبيرين » (وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ٥١٥ و ص ٥٤٦ و ٥٤٧) . وقد كلف هذا الموقف من الصراحة والرغبة في عدم تحقيق مشيئة هتلر ، الوزير ثماً باهظاً في وقت قريب

٣ - يوميات يودل بتاريخ ١٢ و ١٣ و ١٤ كانون الاول عام ١٩٣٩ .

اهتمامه بموضوع الحملة الاسكندنافية ، التي يتوقف كل شيء فيها على الاسطول . وروى روزنبرغ ان الفوهرر قد اكد لزمائره بأن « الحيات التام هو خير موقف يمكن للنروج ان تقفه » لكن اذا كان البريطانيون يستعدون حقاً لاحتلال النروج ، فان على المانيا ان تسبقهم الى ذلك . وأضاف انه سيزود كوينلنغ في غضون ذلك بالأموال اللازمة لمكافحة الدعاية البريطانية ، ودعم حركته الموالية لالمانيا . وتقرر تخصيص مبلغ مائتي ألف مارك ذهبي لهذه الغاية في شهر كانون الثاني المقبل مع الوعد بأن يدفع له في كل شهر مبلغ عشرة آلاف جنيه استرليني لمدة ثلاثة أشهر اعتباراً من الخامس عشر من آذار (١) .

وأوفد روزنبرغ قبل عيد الميلاد عميلاً خاصاً الى النروج يدعى هانز ويلهم شايدت ، للعمل مع كوينلنغ ، وشرع عدد من ضباط القيادة العليا للقوات المسلحة في غضون ذلك في اعداد الخطة التي اطلق عليها اسم « دراسة الشمال » . وانقسمت الإراء في الاسطول الالمانى ، اذ كان ريدر مقتنعاً كل الاقتناع من ان بريطانيا تعتزم احتلال النروج في المستقبل القريب . لكن قسم العمليات في هيئة اركان حرب البحرية كان يخالفه رأيه هذا ، وقد اوضح هذا الخلاف في اليوميات الحربية السرية بتاريخ الثالث عشر من كانون الثاني عام ١٩٤٠ ، على النحو التالي (٢) :

« لا يعتقد قسم العمليات البحرية باحتمال وقوع احتلال بريطاني سريع للنروج . وهو يعتبر ان قيام المانيا باحتلال النروج اذا لم يكن هناك خطر عمل بريطاني مشروع خطر كل الخطورة » .

وتوصل اركان حرب الاسطول الى النتيجة القائلة بأن « بقاء الوضع الراهن هو حتماً السبيل الامثل » ، وأكدوا ان هذا الاستمرار سيسمح بدوام استخدام المياه الإقليمية النروجية في حركة نقل الحديد الى المانيا « بسلام وأمان » .

١ - مذكرة روزنبرغ (المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٢ - ٢٥) .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٦٦٣ - ٦٦٦ .

ولم يرض هتلر عن تردد البحرية ولا عن النتائج التي توصلت اليها « دراسة الشمال » والتي قدمتها اليه القيادة العامة للقوات المسلحة في منتصف كانون الثاني. وأوعز الى كايتل في السابع والعشرين من كانون الثاني باصدار توجيه سري للغاية يقول ان العمل في موضوع « دراسة الشمال » سيستمر تحت اشراف « الفوهرر الشخصي ومراقبته الفورية » ، وان الاوامر قد صدرت الى كايتل بأن يتولى كافة الاعدادات اللازمة . وقرر الفوهرر ايضاً قيام لجنة صغيرة عاملة من اركان الحرب ، تضم ممثلاً واحداً عن كل من الفروع الثلاثة للقوات المسلحة ، وذلك في مقر القيادة العامة ، وان يطلق على هذه العملية منذ هذه اللحظة اسم « تمرين ويسر » الرمزي (١) .

ويبدو ان هذه الخطوة قد رمزت الى انتهاء أي تردد عند الفوهرر في موضوع احتلال النرويج . ولا ريب في ان الحادث الذي وقع في المياه النرويجية بتاريخ السابع عشر من شباط ، قد وضع حداً لأية شكوك يمكن ان تكون قد ساورتها حتى تلك اللحظة .

كانت باخرة التموين الاضافية « التارك » التي عملت مع البارجة « غراف شي » قد تمكنت من التسلل عبر النطاق البحري البريطاني ، واكتشفتها طائرة استكشاف بريطانية في الرابع عشر من شباط وهي تمضي بسرعة نحو الجنوب باتجاه المانيا عبر مياه النرويج الاقليمية . وكانت الحكومة البريطانية تعرف ان هذه الباخرة تحمل على ظهرها ثلاثمائة من البحارة البريطانيين الاسرى من البواخر البريطانية التي اغرقتها « غراف شي » ، وهم ينقلون الآن الى المانيا ليحتجزوا في معتقلاتها . وكان الضباط البحريون النرويجيون قد قاموا بعملية تفتيش سطحي على ظهر الباخرة ، فلم يجدوا فيها اسرى بريطانيين ، كما قرروا انها غير مسلحة ولذا فقد سمحوا لها بالمضي نحو المانيا . ولكن تشرشل الذي كان واثقاً من النقيض ، اصدر اوامره الشخصية الى عمارة من المدمرات البريطانية بالمضي

الى المياه النرويجية ، وطلب ان يصعد بعض رجالها على الباخرة الالمانية لتحرير الاسرى البريطانيين منها .

وتولت المدمرة البريطانية « قوزاق » التي يقودها القبطان فيليب فيان هذه المهمة ، ليلة السادس عشر - السابع عشر من شباط في خليج جوسينغ النرويجي ، حيث كانت الباخرة التارك قد لجأت ناشدة الامان وبعد معركة قتل فيها أربعة من الالمان وجرح خمسة آخرون تمكن الفريق البريطاني الذي صعد الى ظهر الباخرة التارك من تحرير (٢٩٩) بحاراً بريطانياً كانوا محتجزين في عنابر الباخرة وفي « قسطل » خال من قساطل الزيت ، لمنع النرويجيين من رؤيتهم .

وقدمت الحكومة النرويجية احتجاجاً عنيفاً الى بريطانيا على هذا الخرق لحرمة مياهها الاقليمية ، ورد تشمبرلين في مجلس العموم بأن النروج هي التي خرقت حرمة القانون الدولي بسماعها للألمان بنقل الاسرى البريطانيين عبر مياهها الاقليمية الى معسكرات الاسرى في المانيا .

وكان هذا الحادث « القشة » الاخيرة التي تمسك بها هتلر . وقد اقنعه بأن النرويجيين لن يعترضوا اعتراضاً جدياً على أي عرض بريطاني للقوة في مياههم الاقليمية . وقد اشتدت ثورته ايضاً كما دون يودل في يومياته ، لان بحارة غراف شبي الذين كانوا يستقلون الباخرة التارك لم يبدوا مقاومة اعنف للبريطانيين ... اذ لم يكن ثمة مقاومة أو خسائر بريطانية ، وتحسر يوميات يودل في التاسع عشر من شباط النقاب عن ان الفوهرر « ضغط بشدة » لاستكمال الخطط اللازمة « لتموين ويسر » وراح يقول ليودل ... « جهزوا البواخر ، واعدوا مختلف القطعات » . ولكن هذه العمليات كانت لا تزال مفتقرة الى القائد الذي يتولى قيادة المغامرة ، وراح يودل يذكر هتلر بأن الوقت قد حان لتعيين قائد برتبة فريق مع هيئة اركان حربه لهذه الغاية .

واقترح كاتيل ضابطاً كان قد اشترك في القتال في فنلندة في نهاية الحرب الكونية الاولى ، في فرقة الفريق فون دي غولتز ، ويدعى الفريق نيكولاوس فون فالكهورست . وكان يتولى في هذه الآونة قيادة فيلق الماني في الجبهة

الفريية . وسرعان ما راح هتلر الذي كان قد اهل هذه المسئلة الصغيرة ، يدعو هذا القائد لمقابلته . وعلى الرغم من ان هذا القائد يمت الى اسرة عسكرية سيليزية عريقة تدعى « جاستر زيمبسيكي » وكان هو قد استبدل اسمها بالاسم الالماني « فاكلنهورست » الذي يعني « عش النسر » ، الا ان هتلر ، لم يكن قد عرفه معرفة شخصية من قبل .

وقد روى فاكلنهورست فيما بعد لمحكمة نورمبرغ ، اثناء استجوابه ، كيف وقع اجتماعه الاول مع هتلر في دار المستشارية في صباح الواحد والعشرين من شباط . وتضمنت روايته بعض النواحي الطريفة . ولم يكن القائد قد سمع قط بعملية الشمال ، وكانت هذه هي المقابلة الاولى لسيد الحرب النازي ، الذي لم يبعث الرهبة كما يبدو في فؤاد الفريق كما كان يفعل مع غيره من القادة العسكريين... قال فاكلنهورست ..

« طلب الي هتلر ان اجلس . ورحت اروي له دقائق العمليات في فنلندة عام ١٩١٨ ... وقال الفوهرر ... « اجلس وابلغني كيف سارت تلك العمليات » ، ونفذت بالطبع رغبته ... « وسرعان ما نهضنا من مقاعدنا ، وقادني الى منضدة كانت الحرائط تغطيها . ثم قال ... « تلقت حكومة الرايخ معلومات تؤكد اعتزام البريطانيين النزول في اراضي النروج » .

وقال فاكلنهورست في رسالته ، انه حمل انطبعا من مقابلته لهتلر بأن حادث الباخرة التمارك هو الذي اثر على الزعيم اكثر من غيره واستفزه « على تنفيذ الخطة الآن » ، وسرعان ما دهش الفريق من انه وجد نفسه في تلك اللحظة وفي ذلك الاجتماع قد عين قائداً عاماً . وأضاف هتلر ان الجيش سيضع خمس فوق تحت تصرفه . وتتلخص الخطة في وجوب احتلال المونء النروجية الرئيسية .

وصرف الفوهرر فاكلنهورست من حضرته عند الظهر ، وطلب اليه ان يعود الى الاجتماع به في الساعة الخامسة مساء ، على ان يحمل معه جميع الخطط

لاحتلال النرويج ... وذكر فالكنهورست في شهادته في نورمبرغ :
«... وخرجت لأبتاع دليلاً للسائحين لأعرف أولاً ما هي النرويج
وما هي اوضاعها ، اذ لم تكن لدي اية فكرة عنها... وانتقلت
بعد ذلك الى غرفتي في الفندق ، واخذت ادرس هذا الدليل ،
وعندما حلت الساعة الخامسة مساء ، كنت اعود من جديد لمقابلة
الفوهرر » (١).

وكانت الخطط التي وضعها الفريق على ضوء دراسته للدليل . اذ لم يطلع
احد قط على الخطط التي وضعها القيادة العامة للقوات المسلحة ، مرتجلة وعلى
شكل مخططات سريعة ، ولكنها نالت كما يبدو اعجاب هتلر . وقد نصت على
تخصيص فرقة واحدة لكل من موانئ النرويج الخمس وهي اوسلو وستافانغر
وبيرغن وتروندهايم ونارفيك . وقال فالكنهورست فيما بعد « ... ولم يكن
بوسعي أن أفعل أكثر من ذلك ، فهذه هي الموانئ الرئيسية في البلاد » . وبعد
ان أقسم لهتلر على الكتمان والسرية ، صرفه هذا من حضرته بعد أن حثه على
السرعة في العمل ، وراح يتخذ اهبطه .

وظل براوخيتش وهولدر ، على جهل بكل ما وقع ، اذ كانا منهماكين في
اعداد الخطط للهجوم في الغرب ، الى أن جاء فالكنهورست لزيارة رئيس هيئة
أركان حرب الجيش في السادس والعشرين من شباط ، ليطلب اليه بعض القوات
ولا سيما من الوحدات الجبلية لتنفيذ عملياته . ولم يبد هولدر أية رغبة في التعاون ،
بل كان على النقيض من ذلك ساخطاً ، وطلب المزيد من المعلومات عما كان يجري
اعداده ، وعما يحتاجه هذا الاعداد من قوات وقال هولدر في يومياته .. « لم يجر
تبادل أية كلمة في هذا الصدد بين الفوهرر وبراوختش . ومن الواجب تسجيل
هذه الحقيقة حرصاً على تاريخ الحرب » .

١ - استجواب فالكنهورست في نورمبرغ (المؤامرة النازية والعدوان الملحق (ب) ص ١٥٣٤

- (١٥٤٧) .

لكن هتلر الذي كان شديد الزرابة بالقادة العسكريين من رجال العهد القديم ولا سيما برئيس أركان حربه ، ما كان ليتراجع أو يعود عن قراره . وصدق في التاسع والعشرين من شباط وهو شديد الحماس على خطط فالكنهورست . وأمر بأعداد فرقتين جبليتين وأعلن أن تنفيذ الخطة يتطلب المزيد من القوات لأنه يرى الحاجة ماسة الى وجود « قوة كبيرة في كوبنهاغن » . وكان الفوهرر قد أضاف الدانمارك الى قائمة ضحاياه ، اذ أن السلاح الجوي كان يتطلع الى قواعد فيها لاستخدامها ضد بريطانيا .

وأصدر هتلر في اليوم الاول من آذار توجيهه الرسمي لتمرين ويسر وهذا نصه :

سري للغاية

سري جداً

« تطلب تطور الوضع في اسكندينايفيا اتخاذ كافة الاعدادات لاحتلال الدانمارك والنرويج . وستحول هذه العملية بين بريطانيا وبين التسلسل الى اسكندينايفيا والبلطيق . يضاف الى هذا انها ستضمن الحفاظ على القاعدة التي نستمد منها الحديد في السويد وتتيح لاسطولنا وقوتنا الجوية مجالاً أوسع للعمليات ضد بريطانيا . »
« وبالنظر الى ما تتمتع به من سلطان سياسي وعسكري بالنسبة الى الدول الاسكندينايفية ، فان القوة التي سنستخدمها في « تمرين ويسر » ستظل أصغر ما يمكن . وسنستعيز عن الضعف العددي بالأعمال الجريئة والتنفيذ المباغت .

« وسنبذل كل جهودنا لاضفاء صفة الاحتلال السلمي من ناحية المبدأ على العملية ، وأن يكون هدف هذا الاحتلال تأمين الحفاظ

عسكرياً على حياد الدول الاسكندنافية . وسنتقدم بطلبات مماثلة الى حكومات هذه الدول في بداية عمليات الاحتلال . وسيؤمن الاسطول والسلاح الجوي والتأكد اللازم لعرض هذه الاهداف إذا تطلب الأمر . واذا ما ظهرت مقاومة على الرغم من كل هذه المظاهر فسنلجأ الى الوسائل العسكرية لتحطيمها ... ومن الواجب ان يقع اجتياز الحدود الدانماركية والهبوط في النروج في وقت واحد ...

« ومن المهم جداً أن تفاجأ الدول الاسكندنافية والخصوم القريبون بعملياتنا هذه ... ومن الواجب عدم اطلاق القوات على حقيقة أهدافنا إلا بعد أن تنزل هذه القوات الى البحر ... »^(١)

وعم « السخط » القيادة العليا للجيش في ذلك المساء ، أي الاول من آذار - على حد تعبير يودل - بسبب ما طلبه هتلر من قوات لتنفيذ « عملية الشمال » وثار حنق « غورنغ » على كايتل ومضى الى هتلر يشكوه . وكان هذا الحنق ناجماً عن أن المشير البدين ظل جاهلاً للسّر هذه المدة الطويلة ، كما غضب لوضع الطيران الجوي « اللوفتوان » تحت امره فالكنهورست . وأحس هتلر بالخطر من وقوع خلاف خطير على « الاختصاصات » . فاستدعى قادة الفروع الثلاثة للقوات المسلحة الى اجتماع عقد في دار المستشارية في الخامس من آذار ، لتهدئة الاوضاع ، ولكنه وجد صعوبة في تذليل المشاكل ، على حد قول يودل في يومياته :

« وأطلق المشير سخيمة حقه ، لأنه لم يستشر بالعملية منذ البداية . وسيطر الرجل البدين على النقاش ، وحاول أن يقيم الدليل على أن جميع الاعدادات السابقة ، لا تصلح لشيء » .

١ - نص التوجيه (المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ١٠٠٣ - ١٠٠٥ ووثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٨٣١ - ٨٣٣) .

وهذا الفوهرر من تأثرته بمنحه بعض الامتيازات ، ومضت الخطط في طريقها تغذ السير . وكان هولدر ، كما ذكر في يومياته ، قد حمل الانطباع منذ الواحد والعشرين من شباط بأن الهجوم على الدنرك والنروج لن يبدأ الا بعد أن يكون الهجوم الكبير في الغرب قد شن ووصل « الى حد ما » وكان هتلر نفسه متردداً في تقرير العملية التي يجب أن يشرع فيها أولاً ، وأثار الموضوع مع يودل في السادس والعشرين من شباط . ونصح يودل بالبقاء على العمليتين منفصلتين عن بعضهما ، ووافق هتلر على هذه النصيحة « اذا كان تنفيذها ممكناً » .

وقرر في الثالث من آذار أن يسبق « تمزين ويسر » في توقيته « العملية الصفراء » ، وهو الاسم الرمزي الذي يطلق على الهجوم الكبير في الغرب . وأعرب ليودل « بصراحة وبجزم عن ضرورة القيام بعمل حازم وقوي في النروج » . وكان الجيش الفنلندي الباسل ، نتيجة ما يواجهه من تفوق معاد وطاق في الرجال والمدفعية ، قد تعرض الى الكارثة من الهجوم الروسي الساحق ، وكانت الانباء تترى عن أن الحملة الانكليزية - الفرنسية المشتركة تعزم الحركة قريباً من قواعدها في اسكوتلندة باتجاه النروج ، للزحف عبر مناطقها الشالية وعبر أراضي السويد الى فنلندة لانقاذ جيشها ومساعدته ^(١) . ولا ريب في أن هذا الخطر ، كان السبب الرئيسي في عجلة هتلر .

١ - ابلغ الفريق ايرونساييد ، رئيس هيئة اركان حرب القوات البريطانية في السابع من آذار المشير الفنلندي مانراهيم ، بأن حملة بريطانية فرنسية قوامها سبعة وخمسون الف جندي ، باتت على اعتماد الذهاب الى فنلندة لمساعدتها في حربها وأن الفرقة الاولى التي تعد خمسة عشر الف جندي تستطيع الوصول الى فنلندة في نهاية آذار اذا سمحت لها السويد والنروج بعبور أراضيها وكان مانراهيم قد عرف بأن حكومتي السويد والنروج ، رفضتا في الثاني من آذار ، طلب فرنسا وبريطانيا منحهم الحق في مرور قواتها عبر أراضي الدولتين المذكورتين . ولم يحل هذا دون تقرير الرئيس ديلايديه في الثامن من آذار للفنلنديين على عدم توجيه طلب رسمي لقوات الحلفاء بمساعدتهم ، ودون الاشارة بأن قوات الحلفاء سترسل الى فنلندة دون الاكتراث باحتياجات السويد والنروج لكن الخديعة لا تجوز على مانراهيم ، اذ نصح حكومته بأن تطلب الصلح ، والجيش الفنلندي ما زال متمسكاً وغير مهزوم ووافق على ارسال وفد للصلح الى موسكو في =

وانتهت الحرب الروسية - الفنلندية فجأة في الثامن عشر من آذار بعد أن قبلت فنلندا شروط روسيا القاسية لعقد الصلح . وعلى الرغم من ترحيب برلين بصورة عامة بهذا التطور ، لأنه أنقذ المانيا من الظهور بمظهر المدافع البغيض عن عدوان الروس على الفنلنديين ، ولأنه وضع حداً مؤقتاً للزحف السوفيياتي باتجاه البلطيق ، إلا أنه أربك هتلر من الناحية الأخرى ، بالنسبة إلى مغامرته الاسكندنافية المقبلة . وذكر يودل في يومياته أن هذا الصلح قد زاد من صعوبة الحصول على « دافع » لاحتلال النرويج والدانمرك . ودون في يومياته بتاريخ الثاني عشر من آذار أن « عقد الصلح بين فنلندا وروسيا ، قد حرم انكلترا كما حرمانا نحن من الدافع السياسي لاحتلال النرويج » .

وجهد هتلر في الواقع في البحث عن مبرر ودون يودل الصادق في يومياته بتاريخ الثالث عشر من آذار أن الفوهرر كان لا يزال يحدد في « البحث عن أي مبرر » . ودون في اليوم التالي ... « ان الفوهرر لم يكن قد اتخذ قراره بعد بصدد إيجاد المبرر « لتمرير ويسر » ومضى قائلاً ... « ويبدو ان الفوهرر كان يشك فيما اذا كان من المهم أن يتستر وراء الحرب الوقائية (؟) في النرويج » (١) .

وتردد هتلر بعض الوقت ، فقد ظهرت في غضون ذلك مشكلتان جديدتان ، أولاهما كيفية التصرف مع سمتر ويلز وكيل وزارة الخارجية الامريكية الذي كان قد وصل الى برلين في الاول من آذار ، موفداً من الرئيس روزفلت للبحث فيما اذا كان ثمة أي احتمال في انتهاء الحرب قبل وقوع المجزرة في الغرب وثانيتهما

= الثامن من آذار . ويبدو ان القائد الفنلندي العام كان يشك في ان الجيش الفرنسي الذي لا يبدي حماساً للحرب في بلاده سيبدي حماساً للحرب في فنلندا (راجع مذكرات المشير مانزهايم) . وفي وسع الانسان ان يتخيل ما كان سيحدث من اضطراب بين المتحاربين لو ان الحملة البريطانية الفرنسية قد وصلت الى فنلندا واشتركت في الحرب ضد الروس ، اذ لم يمض اكثر من عام تقريباً حتى كانت المانيا قد باتت في حرب مع روسيا وأصبح أعداء هذه الفريقين ، حلفاء لها في الشرق .

١ - يوميات يودل من ١٠ الى ١٤ آذار عام ١٩٤٠ .

طريقة تهدئة ايطاليا الحليفة التي أحست بالألم من اهمالها وتجاهلها . ولم يكن هتلر قد كلف نفسه بعد عناء الرد على خطاب موسوليني المشحون بالتحدي والمؤرخ في الثالث من كانون الثاني ، وكانت العلاقات بين برلين ورومة قد فترت فتوراً ملحوظاً واعتقد الالمان ان المهمة الحقيقية لسمنر ويلز ، من رحلته الى اوروبا - وكان لهم بعض الحق في هذا الاعتقاد - هي محاولة اخراج ايطاليا من المحور المتصدع واقناعها على اي حال بعدم الدخول في الحرب الى جانب المانيا في حالة استمرار الصراع . وكانت برلين قد تلقت سيلاً من النذر من رومة تؤكد ان الوقت حان للقيام بعمل يضمن الحفاظ على الدوتشي المتبرم في صف المانيا .

اجتماع هتلر بسمنر ويلز وموسوليني

كان هتلر يحفل بالولايات المتحدة وأوضاعها جهلاً فاضحاً يشاركه فيه كل من غورنغ وريبنتروب^(١) . وعلى الرغم على ان سياستهم في هذه الآونة كانت تتجه

١ - بينت في فصول سابقة أمثلة على نظرة هتلر القريبة وآرائه في امريكا ، ولكن تضم الوثائق الالمانية المصادرة ، وثيقة للخارجية الالمانية تلقي ضوءاً على حالة هتلر العقلية في هذه الآونة . فلقد دار في الثاني عشر من آذار حديث طويل بين هتلر وبين كولين روس « الحبير » الألماني في شؤون الولايات المتحدة ، وكان قد عاد مؤخراً من رحلة في امريكا التي فيها محاضرات عدة ، أسهم فيها بنشر ما تتضمنه الدعاية الالمانية من «عنونة» . وعندما ذكر روس لهتلر ان هناك « انجماً استعمارياً » يسيطر على الولايات المتحدة ، سأله هذا (طبقاً لادونه الدكتور شيدت من ملاحظات عن هذا الاجتماع) ، عما اذا « كان هذا الميل الاستعماري لم يقو من الرغبة في ضم كندا الى الولايات المتحدة ، خالفاً « موقفاً مادياً لانكلترا » .

وأرى لزماً علي ان اعترف بأن مستشاري هتلر في الشؤون الامريكية لم يكونوا عوناً له في تبصيره بالحقائق المتعلقة بموضوع امريكا . ففي هذه المكالمة التي جرت بين هتلر وروس ، افضى هذا بالردود التالية ، بالإضافة الى نقاط اخرى ، محاولاً عن طريقها الاجابة على سؤال هتلر عن الاسباب التي تحمل الولايات المتحدة على الوقوف هذا الموقف المتناوئ للامانيا :

« . . . تؤلف قوة اليهود الهائلة في امريكا ، عاملاً مساعداً في الكراهية التي يحملها

الى ابقاء امريكا خارج الحرب. إلا انهم كأسلافهم في برلين في حرب عام ١٩١٤، لم يكونوا ينظرون الى بلاد «الليانكي» (الولايات المتحدة) ، نظرة جدية أو يعتبرونها قوة عسكرية كبيرة . وكان الفريق فريدريك فون بويتشر ، الملحق العسكري الألماني في سفارة واشنطن قد نصح القيادة العامة للقوات الألمانية المسلحة في برلين في الاول من تشرين الاول عام ١٩٣٩ ، بأن لا تقلق مطلقاً من فكرة ارسال حملة امريكية الى اوروبا ، إذ أن هذا الاحتمال غير قائم مطلقاً . وراح في الأول من كانون الأول ، يبلغ رؤساء العسكريين في برلين بأن التسلح الأمريكي غير كاف للقيام « بأية سياسة حربية عدوانية » وأضاف أن هيئة أركان الحرب في واشنطن ، ما زالت تحمل على التقيض من سياسة وزارة الخارجية الأمريكية القائمة على كره ألمانيا وعدائها وفي سياسة روزفلت الاستفزازية القائمة على مغالاة في تقدير قوة امريكا العسكرية ، الكثير من التفهم لألمانيا وطريقة سيرها بالحرب القائمة . وكان بويتشر قد أكد في برقيته الأولى ان « ليندبرغ والطيار المشهور ريكنبيكر » يدعوان الى الابقاء على امريكا خارج نطاق الحرب ، لكنه في برقيته الثانية بتاريخ الأول من كانون الأول ، قد حذر القيادة الألمانية العليا من « ان الولايات المتحدة قد تدخل الحرب ، اذا كانت ترى ان

الامريكيون لألمانيا . فاليهودم الذين يوجهون بذلك خارق حقاً ، وبراءة في التنظيم ، النضال ضد كل ما هو ألماني واشتراكي وطني ... »

وتحدث كولن روس بعد ذلك عن روزفلت الذي يعتقد بأنه عدو لدود للفوهرر ، بسبب ما يحس به من حسد شخصي له ، وما يتطلع اليه من شهوة في السلطان... فقد وصل الى الحكم في الولايات المتحدة في نفس السنة التي جاء فيها هتلر الى الحكم ، ووجد نفسه ملزماً بمراقبة هتلر وهو يحقق مشاريعه المظيئة بينما لم يستطع هو - أي روزفلت - أن يصل الى أهدافه. وهو يحمل كذلك بعض الآراء الديكتاتورية التي تشبه الى حد ما افكار الاشتراكية الوطنية . ومع ذلك فان ادراكه بأن الفوهرر قد حقق أهدافه ، بينما لا يزال هو بعيداً عن تحقيق مراميه ، أضفى على طموحه السقيم في ان يمثل على مسرح التاريخ العالمي دور المنافس لهتلر . . . »

وقد علق هتلر بعد خروج امهر كولن روس من حضرته ، بأن هذا الرجل مفرط في الذكاء ويجعل آراء طيبة كثيرة ووافرة . (وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ٩١٠ - ٩١٣) .

النصف الغربي مهدد من المانيا « وذلك على الرغم من استهانتها بالقوة العسكرية الامريكية^(١) .

وحاول هانز تومسون القائم بالأعمال الالماني في واشنطن جهده ، ان ينقل بعض الحقائق عن موقف الولايات المتحدة الى وزير خارجيته الجاهل . وفي الثامن عشر من ايلول ، وكانت الحملة البولندية تقترب من نهايتها ، راح يحذر الويلهمشتراسة ، من ان « عواطف الاغلبية الغالبة من الشعب الامريكي مع اعدائنا ، وان امريكا مقتنعة كل الاقتناع من جريمة المانيا في شن الحرب » . وأبرز في برقيته هذه النتائج السيئة التي قد تثيرها أية محاولة تقوم بها المانيا للتخريب في امريكا ، وطلب ان لا تقوم حكومته بأي عمل تخريبي « من أي نوع »^(٢) . ويبدو ان برلين لم تكثرث بطلبه هذا ، اكثرأناً جدياً إذ راح تومسون يبرق الى برلين في الخامس والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٤٠ قائلاً :

« علمت ان امريكياً من أصل الماني يدعى فون هوسبرغر ، وان المانياً يقيم في نيويورك أيضاً ويدعى وولتر ، يضعان الخطط للقيام بأعمال تخريبية في مصانع الاسلحة الامريكية ، بايعاز من المخابرات الالمانية . ويعتقد ان فون هوسبرغر يحتفظ ببعض المتفجرات في منزله بنيويورك » .

وطلب تومسون من برلين ان تمتنع عن هذه الاعمال وقال :
« ليس ثمة من طريقة اكثر ضماناً في حمل امريكا على خوض الحرب ، من اللجوء ثانية الى طراز من العمل ، يشبه ذاك الذي دفع بامريكا الى صفوف اعدائنا في الحرب الكونية السابقة ، على الرغم من انه لم يؤثر قط على الصناعة الحربية في الولايات المتحدة » .
واضاف القائم بالأعمال ان الرجلين لا يصلحان كذلك بأي حال من الاحوال

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ١٧٩-١٨١ و ٤٧٠-٤٧١ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) ص ٨٩-٩١ .

للعمل كوكلاء للمخابرات الألمانية (١) .

ولم يكن التمثيل بين ألمانيا والولايات المتحدة منذ قيام روزفلت باستدعاء سفيره من برلين في تشرين الثاني عام ١٩٣٨ ، كاحتجاج على الاعمال التي ارتكبتها النازيون بصورة رسمية ضد اليهود ، قد عاد الى وضعه الطبيعي ، بوجود سفير لكل منهما في عاصمة الدولة الاخرى . وكانت التجارة بين البلدين قد هبطت الى حدود الصفر تقريباً بسبب المقاطعة الامريكية ، ثم ما لبثت ألمانيا ان انقطعت نهائياً نتيجة الحصار البريطاني على ألمانيا . وقرر مجلسا الشيوخ والنواب الامريكيان في الرابع من تشرين الثاني عام ١٩٣٩ ، رفع الحظر المفروض على السلاح ، فمهد هذا القرار السبيل امام الولايات المتحدة لتزويد الحليفتين الغربيتين بالأسلحة الامريكية . وعلى هذا الاساس من التدهور السريع في العلاقات بين البلدين وصل سمنر ويلز الى برلين في اليوم الأول من آذار عام ١٩٤٠ .

وكان هتلر قد أصدر في اليوم السابق ، اي التاسع والعشرين من شباط — اذ كانت السنة كبيسة — توجيهاً سرياً عن « المحادثات مع المستر سمنر ويلز » (٢) . ودعا التوجيه الجانب الألماني الى « التحفظ » ونصح بان « يترك المجال امام

١ - رد وايز ساكر على هذه البرقية بأن كانا ريس نفسه قد أكد بأن أيأ من هذين الرجلين اللذين ذكرهما ومسون ، لم يكن من عملاء المخابرات الألمانية . ولكن المفهوم ان دوائر المخابرات في أي بلد من بلاد العالم لا تعترف بهوية من يعملون معها . ونحس وثيقة اخرى في وزارة الخارجية الألمانية النقاب عن ان عميلاً آخر من عملاء المخابرات قد غادر بيونيس آيرس في الرابع والعشرين من كانون الثاني يحمل تعليمات للاتصال بفريتز فون هوسبرغر في ويوكين في نيوجرسي « ليتلقى منه تعليماته في مهمته الخاصة » . وأوفد عميل آخر من بيونيس آيرس ايضاً الى نيويورك في كانون الأول لجمع المعلومات عن مصانع الطائرات الامريكية وعن شحنات الاسلحة الامريكية الى الحلفاء . وروى تومسون نفسه في برقية بتاريخ العشرين من شباط ، وصول البارون قسطنطين فون ميديل ، المواطن الاستوني من أصل ألماني الى واشنطن وإعلامه السفارة الألمانية فيها بأنه موفد في مهمة « تخريرية » من المخابرات الألمانية .

٢ - نص توجيه هتلر (وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ٨١٧ - ٨١٩) .

المستر ويلز ليتولى هو معظم الحديث على قدر الامكان . ووضع التوجيه بعد ذلك نقاطاً خمساً ، لارشاد كبار الموظفين الذين سيجمعون الى المبعوث الامريكي . وكانت الحجة الالمانية الاساسية هي ان المانيا لم تكن هي التي قد اعلنت الحرب على بريطانيا وفرنسا ، وان هاتين الدولتين هما اللتان اعلنتا الحرب عليها ، وان الفوهرر قد عرض عليها الصلح في تشرين الأول ولكنها رفضت عرضه ، وان المانيا قبلت التحدي ، كما تضمنت ان اهداف بريطانيا وفرنسا من الحرب « تحطيم الدولة الالمانية » ، وان المانيا والحالة هذه لا تجد مفرأ من المضي في الحرب ومواصلتها . وتوصل هتلر في نهاية توجيهه الى ما يلي :

« من الواجب تجنب البحث في اية قضية سياسية محدودة كقضية الدولة البولندية المستقبلية بقدر الامكان . واذا اثار ويلز مثل هذه المواضيع ، فمن الواجب ابلاغه بأنني انا الذي اقرر وحدي في هذه القضايا . ومن البديهي ، انه يجب عدم الخوض مطلقاً في اي بحث يتعلق بالنمسا او بحمية بوهيميا ومورافيا ... »

« ويجب تجنب كل بيانات قد تفسر على ان المانيا مهتمة في الوقت الحاضر ببحث اية احتمالات للسلام . وانني لأطلب ان لا يترك أي مجال للشك عند سمرويلز بأن المانيا ستنتهي هذه الحرب نهاية ظافرة » .

وقد تمسك كل من ريبنتروب وغورنغ وهتلر نفسه ، بنص هذا التوجيه تمسكاً حرفياً عندما اجتمع كل منهم الى ويلز على انفراد في الاول والثاني والثالث من آذار . واذا ما حكمنا على الأمور من التقارير المسهبة التي وضعها الدكتور شميدت من وقائع هذه الاجتماعات والتي عثر عليها بين الوثائق المصادرة تبين لنا ان الدبلوماسي الامريكي وهو رجل كثير الشكوك من ناحيته ، ومعروف بالصمت ، قد كوّن لنفسه انطباعاً بأنه ينزل في مستشفى للجاذيب ، هذا اذا اعار كل ما سمعه شيئاً من اهتمامه فلقد آثر كل من النازيين الكبار الثلاثة ، اغراق ويلز ، بأعظم المغالطات التاريخية التي تقلب فيها الحقائق بشكل لا يكاد

يصدق ، كما تفقد ابسط الكلمات كل معنى لها ^(١) . وقد استقبل هتلر ، الذي اصدر توجيهه في الأول من آذار « لتمرير ويسر » ، المبعوث الأمريكي في الثاني من الشهر نفسه ، واصر اثناء المقابلة على ان هدف الحلفاء من الحرب « الافناء والابادة » بينما لا تهدف المانيا الا الى السلام . وراح يلقي محاضرة على زائريه تناول فيها كل ما فعله للحفاظ على السلام مع بريطانيا وفرنسا . ومضى تقرير شميدت يقول :

« وكان السفير البريطاني قد جلس قبيل اندلاع نيران الحرب في نفس المقعد الذي جلس اليه سمتر ويلز الآن ، وكان الفوهرر قد قدم اليه اسخى ما صدر عنه من عروض حتى الآن » .

واضاف هتلر ان بريطانيا قد رفضت جميع العروض التي قدمها اليها ، وها هي الآن ماضية في طريقها تحاول تحطيم المانيا . ولهذا فهو يعتقد ان « من الواجب خوض الصراع حتى النهاية » ... وليس ثمة من حل آخر ، الا هذا الكفاح في سبيل الموت او الحياة .

وليس من المستغرب ان يكون ويلز قد أسرّ لوايز ساكر ، كما ردد لفورنغ عند اجتماعه اليه في اليوم التالي ، انه لا يرى مجالاً للبحث اذا كانت المانيا مصممة على ان تكسب نصراً عسكرياً في الغرب ، وانه لا يرى والحالة هذه اي طائل لرحلة الى اوروبا ^(١) .

١ - هتف فورنغ بسمتر قائلاً .. « استطيع ان اقسم امام الله والعالم ان المانيا لم تكن راغبة في الحرب مطلقاً ، وان هذه الحرب قد فرضت عليها فرضاً .. ولكن ما عسى ان يكون بوسع المانيا ان تفعله وهي ترى ان الآخرين يحاولون تحطيمها ؟ »

٢ - شهدت برلين في نفس الوقت وسيطاً امريكياً آخر ، يعمل بصفة لا رسمية لاحلال السلام وهو جيمس دي موني ، نائب رئيس شركة «جنرال موتورز» . فلقد كان هذا الرجل في برلين كما اذكر ، قبيل نشوب الحرب او بعد نشوبها بقليل ، وكان يحاول كزيميله الهاوي السويدي الآخر ، داهليوس ، وان كان يقل عنه شأناً في اتصالاته على انقاذ السلام في العالم وقد استقبل هتلر في اليوم الذي تلا رحيل سمتر ويلز عن برلين ، أي في الرابع من آذار عام ١٩٤٠ ، الممثل موني الذي ابلغه كما روت الوثائق الالمانية المأدرة عن الاجتماع ، ان الرئيس روزفلت « اكثر =

وعلى الرغم من ان ويلز قد اكد في محادثاته مع الالمان ، انه سينقل ما يسمعه من ساسة اوروبا إبان رحلته هذه الى الرئيس روزفلت ليس الا ، فانه وجد ان من الحكمة ان يتجنب « الكتبان » بعض التجنب ، وان ينقل الى هتلر وغورنغ نبأ « الاجتماع الطويل والبناء والمفيد » الذي عقده مع موسوليني وان يذكر لهما ان الدوتشي لا يزال « يرى احتمالاً ضخماً في الوصول الى سلام دائم وثابت في اوروبا » . وادرك الالمان ان الوقت قد حان لتصحيح هذه الآراء التي يحملها الديكتاتور الايطالي . اذا صح ما رواه لهم المبعوث الامريكى فهم يريدون السلام ولكن بعد ان يحققوا نصراً ألمانياً ضخماً في الغرب .

وكان تأخر هتلر في الرد على رسالة موسوليني التي بعث بها اليه في الثالث من كانون الثاني . قد اثار القلق المتزايد في نفس الدوتشي . وواصل السفير

= ودأ وعطفاً على الالمان ، مما هو سائد على التفكير في برلين » وان الرئيس على استعداد للقيام بدور « الماطف » للتقريب بين الدول المتحاربة . واكتفى هتلر بأن يكرر على مسامعه ما سبق له ان قال للمستر ويلز قبل يومين .

وبعث تومسون في الحادي عشر من آذار بذكره سرية الى برلين اعدها مخبر امريكى لم يذكر اسم ، يقول فيها ان موني ، « من مؤيدي ألمانيا على أي حال » . ومن الثابت ان الالمان كانوا قد اجتذبوا هذا المدير في شركة « جنرال موتورز » . وتقول مذكره تومسون ان موني قد ابلغ روزفلت على اساس حديث سبق له ان اجراه مع هتلر ، بان الفوهرر « راغب في السلام وانه يريد ان يحول دون سفك الدماء في حملة الربيع » . وقد اجتمع هانز ديكهوف ، السفير الالمانى المسحوب من واشنطن ، والذي كان يقتل ايامه في برلين ، الى موني فور مقابلته الاخيرة للفوهرر ، ورفع تقريراً الى وزارة الخارجية الألمانية ذكر فيه ان رجل الأعمال الامريكى لا يبدو ان يكون « ثثاراً » وانه - اي السفير « لا يستطيع ان يصدق ، ان حركة موني تنطوي على اية أهمية كبيرة » . « توجد وقائع اجتماعات سمع ويلز مع هتلر وغورنغ وريبنتروب كما دونها تيمث في وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٨) . كما توجد مذكرات وايز ساكر عن احاديثه مع ويلز في نفس المصدر . وقد قابل المبعوث الامريكى ايضاً شاخت ، الذي كان الفوهرر قد استدعاه رغم اقصائه لوجهه في الخط الذي يجب ان يتبعه في حديثه مع ويلز . راجع ايضاً يوميات هاسيل . ص ١٢١ . وروى ويلز قصته عن احاديثه في برلين في كتابه « حان الوقت للقرا » (راجع وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ٨٦٥ - ٨٦٦ لرؤية تقرير ديكهوف ايضاً) .

اتولى كوالاستعلام من ريبنتروب طيلة الشهر عن الموعد الذي يستطيع فيه ان يتوقع تسلم هذا الرد ، ملمحاً اليه ان علاقات ايطاليا بفرنسا وبريطانيا وتجارتها معها على الأخص تسير في طريق التحسن .

وكان هذا الاتجار الذي اشتمل على قيام ايطاليا ببيع المواد الحربية الى الحليفتين الغريبتين ، قد اثار سخط الالمان ، الذين واصلوا باستمرار الاحتجاج الى رومة بأنها تساعد هاتين الدولتين مساعدة لا ضرورة لها . وظل السفير فون ماكنزن ينقل الى صديقه وايز ساكر « قلقه العميق » من الوضع ، وساورت المخاوف هذا - اي وايز ساكر - من ان يؤدي الاستمرار في تجاهل رسالة موسولينى التي لم يبعث الفوهرر برد عليها ، الى اثاحة المجال للدوتشي ليكون « حراً في عمله » ، وان يؤدي ايضاً الى ضياع ايطاليا بصورة نهائية من صف المانيا (١) .

ولكن هتلر ما لبث ان تلقى فرصة يتنفس فيها الصعداء . فقد اعلن البريطانيون في الأول من آذار انهم قرروا منع شحن الفحم الألماني من ميناء روتردام الهولندي بحراً الى ايطاليا . وكان هذا القرار ضربة قاصمة وشديدة للاقتصاد الايطالي ، مما اثار نائرة الدوتشي ضد البريطانيين ، وحدد ميوله نحو الالمان الذين وعدوه بالعثور على الوسائل لنقل فحمهم بطريق السكة الحديدية الى ايطاليا . واغتم هتلر فرصة هذا الوضع فبعث برسالة مطولة الى موسولينى في الثامن من آذار ، تولى ريبنتروب تسليمها شخصياً الى الدوتشي في رومة بعد يومين (٢) وهذا ما جاء فيها ...

« لو قمت بسحب القوات الألمانية من اراضي حكومة بولنده العامة ، لما ادى ذلك الى تهدة الاوضاع في بولنده ، وانما الى قيام فوضى مخيفة ، لاتمكن الكنيسة فيها من أداء واجباتها في تقديم فروض الشكر لله ، وانما يتعرض فيها القسس الى قطع رقابهم ... »

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ٦٥٢ - ٦٥٦ ، و ٦٨٣ - ٦٨٤ .

٢ - نص رسالة هتلر الى موسولينى في الثامن من آذار عام ١٩٤٠ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ٨٧١ - ٨٨٠ .

ومضى هتلر يقول ... أما بالنسبة الى زيارة سمرو ويلز فانها لم تحقق شيئاً .
أما هو فما زال مصمماً على الهجوم في الغرب . وهو واثق من ان المعركة
القادمة لن تكون مجرد نزهة عسكرية ، وانما ستكون من اقصى المعارك في
التاريخ الألماني ... انها معركة الحياة او الموت .

وهنا عرض هتلر اول اشارة منه الى موسوليني لدخول الحرب فقال :
« واني لواثق يادوتشي ، ان نتيجة هذه الحرب ستقرر ايضاً
مستقبل ايطاليا ... وستواجه ذات يوم نفس الخصوم الذين يقاتلون
المانيا اليوم ... واني لأرى ايضاً بأن مصير بلدينا وشعبينا وثورتنا
وعهديننا واحد ، ولا فصم فيه » .

« واود ان اؤكد لك اخيراً ، بأنني اعتقد رغم كل شيء ، بأن
القدر سيرغمنا ان عاجلاً وان آجلاً في يوم ما على ان نقاتل جنباً الى
جنب ، أي انك لن تنجو ايضاً من هذا التقارع في السلام ، مهما
كان الشكل الذي ستتطور فيه كل ناحية من نواحي الاوضاع
الراهنة ، وسيكون مكانك الى جانبنا اكثر من اي يوم مضى ،
كما سيكون مكاننا الى جانبك » .

واستفزت الرسالة غرور موسوليني فوراً فراح يؤكد لريبنتروب انه يتفق
مع هتلر على ان مكانه الى جانب الفوهرر « في خط القتال » . ولم يضع وزير
الخارجية النازي فرصته في اغراء مضيفه فراح يقول ان الفوهرر « قد غضب
للاجراءات البريطانية الاخيرة الرامية الى منع نقل شحنات الفحم الألماني الى
ايطاليا بطريق البحر » . وراح يسأله عن كمية الفحم التي تحتاجها ايطاليا ، فرد
موسوليني بأنها تتراوح بين الخمسمائة والسبعمائة طن في الشهر الواحد . وقال
ريبنتروب بطلاقة لسان ان المانيا على استعداد الآن لتزويد ايطاليا بمليون طن
في الشهر . وانها ستؤمن القسم الاكبر من العربات اللازمة لنقلها .

وعقد اجتماعان مطولان بين الرجلين ، شهدهما شيانو وذلك في الحادي عشر
من آذار والثاني عشر منه . وتروي الملاحظات التي دوّنها الدكتور شميدت عن

الاجتماعين ان ريبنتروب كان في احسن حالاته^(١) . وعلى الرغم من وجود عدد ضخم من المواضيع التي يتناولونها بالبحث راح يعرض بعض الوثائق الدبلوماسية البولندية المصادرة والتي تشمل برقيات واردة من المواسم الغريبة عارضة « الجريمة المريعة التي ارتكبتها الولايات المتحدة في اشمال الحرب » .

« ووضح وزير الخارجية ان هذه الوثائق قد اظهرت بصورة خاصة الدور الشرير الذي لعبه سفراء امريكا وهم بوليت في باريس وكينيدي في لندن ودريكسيل بيدل في وارشو . وهي توضح الاساليب التي تتبعها الزمرة اليهودية-البلوتوقراطية التي كان نفوذها يمتد عن طريق مورغان وروكفلر الى جميع الدوائر حتى يصل الى روزفلت نفسه » .

وظل وزير الخارجية النازي يهرف عدة ساعات ، عارضاً جهله المألوف بالشؤون العالمية ، ومؤكداً المصير المشترك للدولتين الفاشيتين ومؤكداً ان هتلر سيهجم في الغرب فوراً « ليهزم الجيش الفرنسي في غضون الصيف » وليطرد البريطانيين من القارة قبل « حلول الخريف » . وظل موسوليني يصغي طيلة الوقت قاطعاً حديث ضيفه بين الآونة والأخرى بملاحظة تنطوي على الهزاء والسخرية ، دون ان يتمكن الوزير النازي من فهمها او تمييزها . فعندما اعلن ريبنتروب مثلاً بشيء من الزهو والاعتداد « بأن ستالين قد تخلى عن فكرة السيطرة العالمية » ، رد الدوتشي ، كما روى شميدت في ملاحظاته ، قائلاً : « اتصدق حقاً هذا القول ؟ » وعندما قال ريبنتروب « ان ليس ثمة من جندي الماني فرد ، لا يعتقد بأن النصر سيكون حليف المانيا هذا العام » قاطعه موسوليني قائلاً : « حقاً انها ملاحظة مسلية » . ودون شيانو في يومياته تلك

١ - ملاحظة شميدت عن الاجتماع (وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ٨٨٢-٨٩٣ و ص ٨٩٨-٩٠٩) . اوراق شيانو الدبلوماسية ص ٣٣٩ - ٣٥٩ . شميدت - ترجان هتلر ص ١٧٠-١٧١ . يوميات شيانو .

الليلة يقول :

« وعندما ظلمت وحدي مع موسوليني بعد المقابلة ، قال انه لا يصدق بأن الألمان سيهاجمون ، كما لا يصدق بأنهم سيحوزون نصراً كاملاً » .

وكان الدوتشي قد وعد بأن يفضي بآرائه في جلسة الغد ، وكان ريبنترروب قلقاً تنتابه الهواجس من طبيعة هذه الآراء ، فراح يبرق لهتلر قائلاً بأنه لم يستطع ان يتميز « أية اشارة توضح افكار الدوتشي » .

وقد اثبتت الحوادث ان قلقه كان بلا داع ، اذ كان موسوليني في اليوم التالي رجلاً مختلفاً كل الاختلاف . فقد تحول فجأة كما دوّن شميدت في يومياته « الى تأييد الحرب كل التأييد » . وراح يقول لزائره ، ان القضية لاتتعلق بما اذا كانت ايطاليا ستدخل الحرب الى جانب المانيا ، وانما تتعلق بموعد دخولها هذا . و اضاف ان قضية التوقيت « دقيقة » للغاية . اذ انه لا يشعر بضرورة التدخل قبل ان تستكمل استعداداته كلها . تحاشياً من ان يصبح عبئاً على شريكه « ومضت ملاحظات شميدت تقول :

« وهو يشعر على اي حال بضرورة الايضاح في هذا الوقت بكل صراحة ، بأن ايطاليا ليست في وضع مالي يمكنها من تحمل اعباء حرب طويلة ، فهو لا يستطيع ان ينفق بليون ليرة ايطالية في كل يوم ، كما تفعل انكلترا وفرنسا مثلاً » .

ويبدو ان هذه الملاحظة قد فاجأت ريبنترروب بعض الوقت ، ولذا فقد حاول ان يحمل الدوتشي على تحديد موعد لدخول ايطاليا الحرب . ولكن هذا كان احرص من ان يلزم نفسه بشيء ، وقال : « سيحين الوقت ، عندما تحدد ايطاليا علاقاتها بفرنسا وانكلترا أي عندما تقع القطيعة مع هاتين الدولتين » . و اضاف ان من السهل عليه ان يستفز مثل هذه القطيعة وان كان يصبر على عدم تحديد موعد قاطع لريبنترروب . وهو يرى ان من الواجب تدخل هتلر شخصياً في هذه القضية . ولذا فقد اقترح وزير الخارجية النازي عقد اجتماع في برينتر بين

الرجلين في النصف الثاني من شهر آذار أي بعد التاسع عشر منه ، ووافق موسوليني بارتياح على هذا الاقتراح ، ولم ينس ريبنتروب ، طبعاً ببنت شفة عن خطط هتلر لاحتلال الدانمارك والنرويج . وكانت هناك بعض الأسرار التي لا يذكرها المرء لحليفه حتى ولو كان يضغط على هذا الحليف لمجمله على الاشتراك معه في الحرب .

وعلى الرغم من اخفاق هتلر في حمل موسوليني على الموافقة على تحديد موعد دخوله الحرب ، إلا انه تمكن من غوايته الى الحد الذي حمل على التعهد بالاشتراك فيها . وراح شيانو ينتحب مدوّناً في يومياته .. « واذا كان يهدف الى تعزيز المحور فلا ريب في انه قد أفلح في تحقيق هدفه هذا » . وعندما عاد سمنر ويلز الى رومة في السادس عشر من آذار للاجتماع ثمانية بموسوليني بعد أن طاف ببرلين وباريس ولندن ، وجد ان الديكتاتور الايطالي قد غدا رجلاً آخر ، ودوّن الدبلوماساتي الأميركي فيما بعد قائلاً :

« يبدو انه قد فقد الكثير من وزنه . وكثيراً ما خيل إليّ أنه في هضون الأسبوعين اللذين انقضيا بعد زيارتي الأخيرة له في رومة ، قد حزم أمره على عبور نهر الروبيكون (اشارة الى قرار لا رجوع عنه) ، كما خيل إلي ان ريبنتروب قد نجح إبان زيارته في ارغام ايطاليا على دخول الحرب » (١)

* * *

ولم يكن ويلز بحاجة الى الكثير من الخيالات والاستغراب . إذ ما كاد ريبنتروب يفادر رومة في قطاره الخاص عائداً الى برلين ، حتى وجد الديكتاتور الايطالي الحزين نفسه فريسة أفكار أخرى . ودوّن شيانو في يومياته بتاريخ الثاني عشر من آذار يقول .. « انه يخشى بأن يكون قد مضى بعيداً في تعهده بالحرب ضد الحلفاء . وهو يود الآن أن يقنع هتلر بالمدول عن

١ - ويلز - حان الوقت للقرار ص ١٣٨ .

هجومه ، وهو يأمل في ان يحقق ذلك في الاجتماع الذي سيقع في ممر برينر .
ولكن شيانو ، على الرغم من تفاهته ، كان يعرف أكثر من غيره . فقد أضاف في
يومياته يقول : « وليس ثمة من ينكر بأن الدوتشي شديد الإعجاب بهتلر ، وهو
إعجاب يمت الى اعماق الاعماق في تكوينه . وليس ثمة من ريب في أن الفوهرر
سيحصل من الدوتشي على أكثر مما حصل عليه ريبنتروب منه » . وقد صدقت
نبوءة شيانو مع بعض التحفظات ، كما سيظهر لنا عما قريب .

ولم يكد ريبنتروب يصل الى برلين حتى راح يهتف الى شيانو في الثالث عشر
من آذار طالباً اليه تقديم موعد اجتماع برينر بين الديكتاتورين ، عن الموعد
السابق ، وان يكون في الثامن عشر من آذار . وتفجّر موسوليني قائلاً : « ان
الامان لا يطاقون . فهم لا يفسحون المجال للانسان للتنفس أو حتى للتفكير .
ومع ذلك وافق على الموعد الجديد ودون شيانو في يومياته في ذلك اليوم يقول :
« كان الدوتشي عصبي المزاج اليوم . فلقد كان حتى هذه اللحظة
يعيش في وهم امكان تجنب الحرب الحقيقية . وقد أخذت فكرة
وقوع تصادم حقيقي قد يظل هو خارجه ، تؤرق عليه ليله ، بل
انها تذله ، اذا آثرنا استعمال عباراته نفسها » (١)

وكان الثلج يتساقط ، عندما اقترب قطار الديكتاتورين في الساعات المبكرة
من صباح الثامن عشر من آذار عام ١٩٤٠ من المحطة الصغيرة الواقعة على الحدود
عند ممر برينر ، والتي تقبع في ظل جبال الألب السامقة التي تغطيها الثلوج .
ودارت المقابلة كترضية لموسوليني في عربته الخاصة في القطار ، ولكن هتلر ،
تولى دفعة الحديث معظم الوقت . وقد لخص شيانو مؤتمر ذلك اليوم في يوميته التي
دونها في المساء فقال :

« كان المؤتمر أشبه ما يكون بالمأكلة (المونولوج) ... فهتلر هو الذي
يتولى زمام الحديث طيلة الوقت ... أما موسوليني فيصفي إليه

بكل ما لديه من انتباه: «مشغولاً بجديته ومهتماً به . وهو لا يقول إلا القليل مؤكداً عزمه على التحرك مع المانيا ولكنه يحتفظ لنفسه فقط بالحق في اختيار اللحظة المواتية » .

وقال موسوليني عندما أتيح له المجال للتكلم أخيراً ، بأنه يدرك بأن « من المحال بقاءه على الحياد حتى نهاية الحرب » . فهو يرى ان التعاون مع انكلترا وفرنسا « شيء لا يمكن تصوره » ، لأنه يكرههما . ولهذا فدخل ايطاليا الحرب شيء حتمي » . وقضى هتلر نحواً من ساعة محاولاً إقناعه بذلك ، هذا اذا أرادت ايطاليا ، ان لا تبقى وحيدة مهلة ، أو أرادت ان لا تغدو على حد تعبيرة دولة من « دول الدرجة الثانية »^(١) ولكن بعد ان رد على سؤال هتلر الأساسي مرضياً اياه برده ، انقلب فوراً يحاول اتقاء الخطر فقال :

« ان التاريخ يؤلف المشكلة الأساسية على أي حال .. فهناك شرط يتعلق بهذا الموضوع ويجب تحقيقه . فمن الواجب أن تكون ايطاليا « مستعدة كل الاستعداد » .. ووضعها المالي لا يسمح لها بخوض حرب طويلة ..

« وهو يسأل الفوهرر اذا كان ثمة من خطر على المانيا في حالة تأجيل الهجوم . وهو لا يرى وجوداً لهذا الخطر مطلقاً ... فهو سيكمل استعداداته العسكرية في غضون ثلاثة أشهر أو أربعة ، ولن يكون في وضع محرج ، بحيث يرى زميله يقا تل فعلاً ، بينما يقتصر عمله هو على مجرد التظاهر .. فهو يريد أن يعمل أكثر من التظاهر ، ولكن وضعه حتى الآن لا يسمح له بأكثر من ذلك » .

ولكن سيد الحرب النازي لا يعتزم تأجيل هجومه في الغرب ، وقد أعلن عزمه هذا الى حليفه . ولكن هناك « بعض الافكار النظرية تساوره » ، وقد

١ - ملاحظات الدكتور شميدت عن الاجتماع (وثائق وزارة الخارجية الالمانية) (٩)

ص ١ - ١٦) .

تعمل على مساعدة موسوليني في حل متاعبه بتجنب الهجوم الجبهي عن الأقسام الجبلية في جنوب فرنسا لأن هذا الهجوم سيكلف إيطاليا كما يرى « الكثير من الدماء المسفوقة ». واقترح الفوهرر ان تقوم إيطاليا بتجهيز قوة عسكرية قوية تزحف جنوباً الى جنب مع القوات الألمانية على طول الحدود السويسرية باتجاه نهر الراين « للالتفاف حول جبهة الألب الفرنسية - الإيطالية من مؤخرتها ». وستكون الجيوش الألمانية قبل هذه الحركة قد اكتسحت الجيوش الفرنسية والبريطانية في الشمال . ويبدو ان هتلر كان يتوخى تسهيل الأمر على الإيطاليين .. ومضى هتلر يقول :

« وعندما يتم تحطيم العدو في شمال فرنسا ، سيحين الوقت لإيطاليا للتدخل عملياً ، لا في نقاط الألب الصعبة الوعرة ، بل في أماكن أخرى ..

« وسيقرر مصير الحرب في فرنسا ، واذا ما تم التخلص منها ، فان إيطاليا ستغدو سيدة البحر الأبيض المتوسط ، ويتحتم على بريطانيا آنذاك ان تطلب الصلح » .

وأرى لزماً علينا أن نقول أن موسوليني كان سريع التمسك بهذا الأمل المشرق ليحني أكبر الفوائد بعد ان يكون الألمان قد تحملوا جميع متاعب القتال الشاق ..

« ورد الدوتشي بأنه سيدخل الحرب فور تمكن الألمان من احراز تقدم منتصر . وأكد انه لن يضيع وقتاً ، إذ عندما يكون الهجوم الألماني قد هز الحلفاء هزاً ، لا تكون الحاجة ماسة إلا لضربة ثانية لإزغامهم على الركوع على ركبهم . »

ولكن الدوتشي ظل متحفظاً ، فقال انه يؤثر الانتظار في حالة البطء في الهجوم الألماني .

ويبدو ان هذه المساومة الخوارة الغريبة قد أزعجت هتلر كل الازعاج ، وإذا صح ما قاله شيانو من ان موسوليني كان شديد الإعجاب بشخصياً بهتلر ، لسبب يمت

إلى اعتمق الاعماق في تكوينه ، فإن في وسعنا ان نقول ، بأن هذا الاعجاب كان متبادلاً ، وان هتلر كان معجباً بموسوليني لنفس الأسباب الخفية . وعلى الرغم من ان هتلر لم يكن وفيّاً لبعض أصدقائه المقربين ، إذ قتل عدداً منهم ، كروم وشتراسر مثلاً ، إلا انه ظل على وفائه الغريب وغير المألوف لشريكه الايطالي المضحك ، وقد ظل هذا الوفاء قوياً لم يصبه وهن أو ضعف ، بل تعزز وتقوى ، عندما حل الشقاء ووقعت الكارثة بالقيصر الروماني المترنح ، والواقع في الرغام .

وهكذا وعدت ايطاليا أخيراً بدخول الحرب وعداً قاطعاً ، على الرغم من تفاهة ما لها من قيمة ، كان الألمان باستثناء هتلر نفسه ، يقرّون بها ، وبينهم عدد من القادة العسكريين . وكان في وسع سيد الحرب النازي أن يتجه بأفكاره بعد الآن الى فتوحات قريبة وجديدة . ولكنه لم يفه بكلمة واحدة لصديقه وحليفه ، عن هذه الفتوحات التي كان من المقرر وقوعها قريباً جداً في الشمال .

خبيّة أمل المتآمرين من جديد

قام المتآمرون المناهضون للنازية من جديد باقناع القادة العسكريين بخلع الفوهرر ، وذلك قبل ان يشن عدوانه الجديد هذه المرة في الشمال . وهو العدوان الذي كانت انبأؤه قد وصلت الى مسامعهم . وكان كل ما أراده المتآمرون المدنيون هذه المرة ، الحصول على تأكيد من الحكومة البريطانية بانها ستعقد صلحاً مع العهد المناوئ للنازية في المانيا ، وكانوا يصرون مع ما هم عليه من موقف ، بأن تسمح أية تسوية جديدة مع حكومة الرايخ المقبلة ، لهذه الحكومة بالاحتفاظ بمعظم المكاسب الإقليمية التي حققها هتلر ، وهي النمسا وأراضي السودان وحدود عام ١٩١٤ مع بولندة ، على الرغم من أن هذا الكسب الأخير لم يتحقق في الماضي إلا بإزالة الشعب البولندي من الوجود .

وقد غامر هاسيل ، متدرعاً بشجاعته الشخصية الفائقة ، بالسفر الى بلدة أروزا في سويسرا في الواحد والعشرين من شباط عام ١٩٤٠ ، حاملاً مثل هذا الاقتراح ، وهادفاً الى البحث فيه مع شخص بريطاني أطلق عليه اسم « السيد س » في يومياته ، وان كنا قد عرفنا حقاً انه جي لونسدیل برايانز . وقد اجتمع الرجلان أربعة اجتماعات في الثاني والعشرين والثالث والعشرين من شباط ، وأحيطت اجتماعاتها بمنتهى السرية . ولم يكن برايانز هذا ، على الرغم من مكانته الدبلوماسية في رومة إلا صورة أخرى من صور هؤلاء المفاوضين الهواة الذين يعينون أنفسهم ، لإجراء محادثات تتعلق بالسلام ، والذين رويننا قصص عدد منهم في سياق هذا الكتاب . وكانت للرجل اتصالات في داوونج ستريت ، وقد أثر على فون هاسيل فور اجتماعه به تأثيراً قوياً . ولقد طرأ على البريطانيين بعض التشكك في قصة المتآمرين كلها ، بعد القصة الهزلية التي لابتست المحاولات التي جرت لاتصال الرائد ستيفينز والرئيس بيست في هولندة معهم ، ولذا فقد أصر برايانز على ان يعرف من هاسيل بعض المعلومات الموثوقة ، عن هوية الأشخاص الذين يتحدث باسمهم ، واستشاط المبعوث الألماني غضباً وقال : « لست في وضع أتمكن فيه من تسمية الرجال الذين يقفون خلفي . ولكن في وسعي أن اؤكد لك أن بياناً يصدر عن هاليفاكس يصيب كبد الحقيقة ، ويقع في أيدي الصالحين من الناس ^(١) .

وراح هاسيل يرسم بعد ذلك آراء « المعارضة » الألمانية . فهي ترى ان هتلر يجب ان ينتهي قبل « البدء بعمليات عسكرية ضخمة في الغرب » ، وان عملية الاطاحة به « يجب ان تكون المانية مجردة » ، وان من الضروري « صدور بيان انكليزي من مصدر عال » عن الطريقة التي سيعامل بها « العهد المناوىء النازية في برلين » ، وأضاف هاسيل ان المعارضة الألمانية ترى ان العقبة الأساسية في تبدل العهد تقوم في قصة عام ١٩١٨ ، « إذ ان الالمان يخشون ان تتطور

١- فون هاسيل - يوميات ص ١١٦-١١٨ .

الأمر كما تطورت آنذاك بعد أن ضحوا بالقيصر » . واكد هاسيل انه يريد مع رفاقه ضمانات بأن تعامل المانيا بعد التخلص من هتلر ، معاملة أكرم من تلك التي عوملت بها بعد ان تخلص الالمان من غليوم الثاني .

وقام بعد ذلك بتسليم برايانز مذكرة كان هو نفسه قد أعدها باللغة الانكليزية . وعلى الرغم من غموض المذكرة ، إلا انها كانت تنطوي على الكثير من العواطف الطيبة عن عالم الغد ، الذي يقوم « على مبادئ الاخلاق المسيحية والعدل والقانون والرفاه الاجتماعي وحرية الفكر والضمير » . وأضاف هاسيل ان الخطر الأكبر من استمرار هذه الحرب المجنونة يقوم في بلشفة اوروبا . وهو خطر يراه أكبر من استمرار النازية ، وهو يضع شرطاً أساسياً واحداً للسلام وهو ان يترك لألمانيا كل ما قام به هتلر من فتوحات راح يبعدها . وقال انه لا يرى احتمالاً للبحث في استيلاء المانيا على النمسا وأراضي السوديت في أي صلح مقترح ، وان من حق المانيا أن تعيد حدودها مع بولندة الى ما كانت عليه في عام ١٩١٤ ، وهو يعني بذلك تلميحاً لا تصريحاً حدودها السابقة مع روسيا إذ أن بولندة لم تكن في حينئذ الوجود في عام ١٩١٤ .

ووافق برايانز على وجوب السرعة في العمل بالنظر الى توقع الهجوم الالماني الكبير في الغرب في كل لحظة ، ووعد بنقل مذكرة فون هاسيل الى اللورد هاليفاكس . وعاد هاسيل الى برلين ليطلع شركاءه على الحركة الأخيرة التي قام بها . وعلى الرغم من الآمال التي علقوها على السيد « س » ، صديق هاسيل ، إلا أنهم كانوا أكثر اهتماماً في تلك اللحظة « بتقرير س » على حشد تعبيرهم ، وهو التقرير الذي وضعه هانز فون دوهنانيا ، أحد أعضاء الجماعة ومن رجال المخابرات على أساس الاتصال الذي جرى بين الدكتور مويلر وبين البريطانيين في الفاتيكان وقد جاء في هذا التقرير ان البابا على استعداد للتدخل مع بريطانيا لعقد صلح معقول ، مع الحكومة الجديدة المناهضة للنازية ، ولا ريب في أن احد الشروط التي وضعوها ، والتي تعتبر مقياساً لآرائهم هو الزعم بأن قداسة البابا يؤيد « تسوية المسئلة الشرقية في صالح المانيا » . وقد تمكن الديكتاتور النازي المجنون

من الحصول على تسوية في الشرق « في صالح المانيا » عن طريق العدوان المسلح ، وكان المتآمرون النازيون الطيبون يريدون عين هذه التسوية ، على ان يسلمها البريطانيون اليهم مصحوبة ببركات البابا .

وظل تقرير «س» مسيطراً على افكار المتآمرين طيلة شتاء ذلك العام ١٩٣٩ — ١٩٤٠ . وتولى الفريق توماس اطلاق براوخيتش على هذا التقرير في نهاية شهر تشرين الاول ، هادفاً من وراء ذلك الى اشراك القائد العام للجيش في تحولاته اقناع هتلر بعدم شن الهجوم الكبير في الغرب في ذلك الخريف . ولكن براوخيتش لم يقدر هذا التشجيع حق قدره ، وراح يهدد الفريق توماس بالاعتقال ، ان عاد الى إثارة الموضوع من جديد ، صارخاً به ان هذا العمل « خيانة كبرى وواضحة » .

وحمل توماس التقرير بعد ان بات العدوان النازي الجديد وشيك الوقوع الى الفريق هولدر مؤملاً ان يقوم هذا بالعمل على ضوئه . ولكن آماله كلها ذهبت أدراج الرياح ، فلقد اعلن رئيس هيئة اركان الحرب الى غويردلر الذي كان ايضاً من اشد المتآمرين نشاطاً وحماساً ، والذي كان قد ابتهل اليه ليتولى دور القيادة طالما ان براوخيتش الجبان ، يتردد في توليه ، بأنه لا يستطيع أن يبرر في هذه اللحظة نكته بالقسم الذي أداه لهتلر ، كجندي الماني . ومضى يقول :

« يضاف الى هذا ، ان انكلترا وفرنسا هما اللتان اعلنتا الحرب ضدنا وان على الجندي الالماني ان يخوضها حتى النهاية . وكل صلح يقوم على الحلول الوسطى ، لا معنى له ولا قيمة . ولا يمكن للمرء أن يقوم بالعمل الذي يريده غويردلر إلا في حالات الضرورة القصوى » .

وهتف هاستيل وهو يدون في يوميته بتاريخ السادس من نيسان عام ١٩٤٠ صورة الحالة العقلية التي يرى فيها هولدر ، كما شرحها له غويردلر ... « ياله من كلب رعديد » .. وأضاف هاستيل يقول : « لا ريب في ان هولدر الذي شرع بالبكاء إبان مناقشة مسؤوليته ، يوحى بالانطباع بأنه رجل ضعيف ذو أعصاب

محطمة .

ومن حقنا ان نشك في صحة هذا الانطباع . فعندما يقرأ المرء اليوميات التي دوّنها هولدر في الاسبوع الاول من شهر نيسان ، والتي تعج بمئات الشروح والتفاصيل عن الاستعدادات التي كان يساعد هو في اتخاذها تأهباً للهجوم الضخم الجبار في الغرب ، لا يشك مطلقاً ، كما لم يشك مؤلف هذا الكتاب ، في ان رئيس اركان الحرب كان يمر في حالة مزاجية نضالية محاربة ، وقد تجلّت في المناقشات التي كان يجريها مع قادة الميدان والتي كان يدق في غضونها في الخطط الاخيرة لأعظم عملية عسكرية واكثرها جرأة في التاريخ الالماني . وليست هناك أية اشارة في يومياته الى وجود افكار خائنة تراوده أو تعاوده ، ولا الى أي حالة اضطراع مع ضميره . وعلى الرغم من انه لا يخفي في يومياته هذه شكوكه في الهجوم على الدانيمارك والنرويج ، إلا ان هذه الشكوك تقوم على أسس عسكرية مجردة ، وليس في ما دوّنه أية كلمة ، ولو واحدة عن القلق الاخلاقي تجاه العدوان النازي على الدول الأربع المحايدة الصغيرة ، التي كانت المانيا قد ضمنت حدودها ، والتي كان هولدر يعرف ان المانيا أصبحت على وشك مهاجمتها . لا سيما وانه قد تولى بنفسه دوراً قيادياً في وضع الخطط للهجوم على اثنتين منها وهما هولندا وبلجيكا .

وهكذا انتهت المحاولة الأخيرة « للألمان الطيبين » للاطاحة بهتلر قبل ان يفوت الأوان . وكانت هذه هي فرصتهم الاخيرة في الحصول على صلح سخي كريم . ولم يكن القادة العسكريون ، كما ذكر براوخيتش وهولدر بوضوح ، مهتمين بعقد صلح على أساس التفاوض . وكل ما كانوا يفكرون به الآن ، هو ما يفكر به الفوهرر نفسه ، من فرض الصلح ، بعد ان تحقق المانيا انتصارها . ولم يعد هؤلاء القادة عودة جدية الى افكارهم « الخيانية » القديمة ، التي كانت قوية في أيام ميونيخ وزوسين للاطاحة بديكتاتورهم المجنون ، إلا بعد أن خبت تلك الآمال في النصر الذي علقوا الكثير عليه . وعلمنا ان نذكر هذه الحالة العقلية ، وهذه الطبيعة ، بالنسبة الى ما سيقع من أحداث تالية ، والى ما سيحاك

من أساطير وروايات .

الاستيلاء على الدانمارك والنرويج

وصف بعض الكتاب والمؤرخين استعدادات هتلر لاجتياح الدانمارك والنرويج ، بأنها من اعظم الأحداث التي حوفظ في الحرب على سريتها . ولكن مؤلف هذا الكتاب يخالفهم رأيهم هذا ، إذ انه يرى ان الدولتين الاسكندنافيتين وبريطانيا لم نباغت بما وقع ، لأنها لم تتلق التحذيرات في الوقت المناسب بما هو واقع لانها لم تصدق هذه التحذيرات في الوقت المناسب ، وقبل أن يفوت الاوان . فلقد قام العقيد اوستر ، وهو احد المتأمرين ومن رجال المخابرات الالمانية قبل وقوع الكارثة بعشرة ايام بتحذير العقيد . جي . جي . ساس ، صديقه الحميم والملحق العسكري الهولندي في برلين من الخطط التي تضعها المانيا ، « لتمرين ويسر » ، وتولى هذا نقلها بدوره ، وفوراً الى الملحق البحري الدانماركي في برلين ، الرئيس كجولسين^(١) . ولكن الحكومة الدانماركية المتراخية لم تشأ ان تصدق ملحقها البحري ، وعندما أوفد الوزير الدانماركي في برلين ملحقه البحري الى كوبنهاغن على جناح السرعة في الرابع من نيسان ، ليكرر الانذار شخصياً على مسامع المسؤولين ، لم يحمل هؤلاء معلوماته على محمل الجد . وهناك ما هو ادهى من هذا وأمر . ففي مساء الثامن من نيسان ، أي عشية يوم الكارثة . وكانت الانباء قد تناقلت نفس باخرة نقل المانية ملأى بالجنود على مقربة من ساحل النرويج الجنوبي ، الى الشمال قليلاً من الدانمارك ، وكان الدانماركيون قد رأوا بأمر أعينهم اسطولاً المانياً ضخماً يبحر باتجاه الشمال بين جزرهم نفسها ، ابتسم ملك الدانمارك ساخراً عندما قيل له ، وهو يتناول العشاء ان بلاده معرضة للخطر . وروى أحد ضباط الحرس الملكي فيما بعد ، وكان يحضر العشاء ان الملك لم يصدق ما قيل له ، بل مضى فعلاً وبعد انتهاء العشاء الى المسرح الملكي ، وقد سيطرت عليه حالة عقلية من الثقة والسعادة^(٢) .

١- آلين دالاس - الحركة السرية في المانيا ص ٥٩ .

٢- شير - تحدي اسكندنافيا ص ٢٢٣ - ٢٢٥ .

وكانت الحكومة النرويجية قد تلقت في مستهل شهر آذار تحذيرات من مفوضيتها في برلين ، ومن السويديين عن وجود تحشدات المانية للقوات العسكرية والسفن الحربية في بحر الشمال وموانئ البلطيق ووصلت في الخامس من نيسان الى اوسلو أنباء موثوقة من برلين عن نزول الماني متوقع فوراً في السواحل الجنوبية من النرويج . ولكن وزارة النرويج المتخاذلة الكسول ، ظلت متشككة في هذه الحقائق . ولم تر هذه الوزارة المتراخية ضرورة حتى في السابع من نيسان ، عندما شوهدت بواخر المانية حربية تقترب من الساحل النرويجي ، وعندما وصلت أنباء تقول بأن الطائرات البريطانية شأدت اسطولاً المانياً حربياً في مدخل مضيق سكا جير الك . لان تتخذ خطوات دفاعية واضحة كتعبئة الجيش ، ووضع الحاميات القوية في القلاع التي تحمي الموانئ وتعزيز وسائل المقاومة في المطارات واغلاقها وزرع الالغام في المداخل المائية الضيقة للعاصمة والمدن الكبرى رغم سهولة الدفاع عنها . وظل هذا التراخي قائماً حتى في الثامن من نيسان عندما تولت الاميرالية البريطانية ابلاغ مفوضية النرويج في لندن بأن وحداتها اكتشفت قوات بحرية المانية ضخمة تقترب من ميناء نارفيك ، وراحت الصحف في اوسلو ، تنقل أنباء انقاذ الجنود الالمان من باخرة النقل ريودي جانيرو التي نسفتها غواصة بولندية في ذلك اليوم على مقربة من الساحل النرويجي عند ليليسان ، وأعلن التاجون من الجنود انهم كانوا في طريقهم الى بيرغين للمساعدة في الدفاع عنها ضد البريطانيين . ولو فعلت الحكومة النرويجية غير ما فعلته من استرخاء واستخذاء ونفذت التدابير التي أشرت إليها ، لكان من المحتمل ان يتخذ التاريخ اتجاهاً مغايراً لما حدث .

وبدأت النذر تتوارد الى لندن ، على حد رواية تشرشل منذ الاول من نيسان ، وقامت وزارة الحرب المصغرة في الثالث من نيسان بدراسة آخر الأخبار ، الوارد معظمها من استوكهولم ، والتي تحدثت عن قيام الالمان بجمع قوات عسكرية ضخمة في موانئ البلاد الشمالية مستهدفة التحرك باتجاه اسكندنافيا . ولكن يبدو ان الحكومة لم تحمل هذه الأنباء على محمل الجد .

وفي الخامس من نيسان أي بعد يومين ، وكانت الدفعة الأولى من سفن التموين الألمانية قد مضت مآخرة في البحر ، راح رئيس الوزراء تشمبرلين يعلن في خطاب ألقاه ، ان هتلر ، بعد أن فشل في القيام بهجوم في الغرب عندما لم يكن البريطانيون والفرنسيون على استعداد لمقابلته ، قد « فاته الباص » وهو تعبير سرعان ما ثبت بطلانه (١) .

وكانت الحكومة البريطانية ميالة في هذا الوقت على حد قول تشرشل الى الاعتقاد بأن هذه الحشود الألمانية في بحر الشمال والبلطيق انما تهدف الى تمكين هتلر من توجيه ضربة مقابلة في حالة قيام البريطانيين بزرع الألغام في المياه النرويجية ، لقطع تموينات الحديد من نارفيك الى المانيا ، واحتلال ذلك الميناء وبعض الموانئ الأخرى الى الجنوب .

وكانت الحكومة البريطانية تفكر في الحقيقة في مشروع احتلال كهذا . وكان تشرشل ، وزير البحرية قد نجح بعد سبعة أشهر طويلة من خيبة الأمل في الحصول على موافقة وزارة الحرب ومجلس الحلفاء الأعلى ، على زرع الألغام في الطريق البحرية النرويجية في الثامن من نيسان في عملية اطلق عليها البريطانيون اسم « ويلغريد » الرمزي . ولما كان من المتوقع ان يرد الالمان رداً عنيفاً على هذه الضربة المميتة التي تقضي بجرمانهم من شحنات الحديد من نارفيك بعد اغلاق الطريق المؤدية إليها ، فقد تقرر ايفاد قوة انكليزية - فرنسية مشتركة الى نارفيك على ان تتقدم هذه القوة باتجاه الحدود السويدية . وتقرر انزال وحدات أخرى في تروندهايم وبيرغين وستافانغر ، الى الجنوب ، « لحرمان العدو من هذه القواعد » على حد تعبير تشرشل . وقد أطلق على هذه العملية اسم « الخطة س - ٤ » (٢) .

-
- ١ - اجرت البواخر الألمانية الثلاث الاولى من بواخر التموين الى نارفيك في الساعة الثانية من صباح الثالث من نيسان . وغادرت أضخم ناقلة المانية للزيت من مورمانسك باتجاه نارفيك في السادس من نيسان ، بتواطؤ مع الروس الذين زودوها من مينائهم هذا بمحمولة ضخمة من الزيت .
 - ٢ - مذكرات تشرشل الجزء الاول ص ٥٧٩ . وورد النص الرسمي للخطط البريطانية في كتاب ديري « الحملة في النرويج » .

وهكذا بينما كانت القوات الألمانية تحمّل في مختلف السفن الحربية في غضون الأسبوع الأول من نيسان ، لتعبر الى النرويج « كانت القوات البريطانية تحمّل ، وان كانت في اعداد أقل من القوات الألمانية ، في سفن النقل في كلايد وفي الطرادات في فورت ، متجهة الى نفس الهدف .

* * *

وأصدر هتلر بعد ظهر الثاني من نيسان ، وبعد اجتماع طويل مع غورنغ ورييدر وفالكنهورست توجيهاً رسمياً أمر فيه بأن تبدأ عملية « تمرين ويسر » في الساعة الخامسة والرابع من صباح التاسع من نيسان . وأصدر هتلر في نفس الوقت توجيهاً آخر ينص على « وجوب منع ملكي الدانمارك والنرويج من الفرار من بلاديهما أثناء الاحتلال بمختلف السبل والوسائل »^(١) . وراحت القيادة العليا للقوات المسلحة تطلع وزارة الخارجية في نفس اليوم على السر . وصدر توجيه مطول آخر الى ريبنتروب يوعل له ، بإعداد الاجراءات الدبلوماسية اللازمة لاقتناع الدانمارك والنرويج بالاستسلام دون حرب ، حالما تهبط القوات المسلحة الألمانية في أراضيها و « طبخ » نوع من التبرير لعدوان هتلر الاخير^(٢) .

ولم تكن الخديعة محصورة في وزارة الخارجية إذ تقرر ان يلجأ الأسطول الألماني الى استخدامها أيضاً . وراح يودل في الثالث من نيسان ، أي في موعد انبحار البواخر الألمانية الاولى يفكر وهو يدوّن يومياته ، بمشكلة الطريقة التي يجب ان تتبع في خداع النرويجيين في حالة تبادل الشكوك الى اذهانهم من جراء وجود مثل هذا العدد الكبير من السفن الحربية الألمانية في جوارهم . وكانت البحرية الألمانية قد أعدت بالفعل الخطة لهذه العملية ، فأوعزت الى سفنها الحربية وبواخر نقلها ، بأن تحاول الظهور بمظهر السفن البريطانية وان ترفع اذا اقتضى الأمر العلم البريطاني . ووضعت القيادات البحرية الألمانية السرية

١ - نص التوجيه في وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٩) ص ٦٦-٦٨ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٩) ص ٦٨ - ٧٣ .

الأوامر المفصلة لخداع النروج وتضليلها في موضوع الغزو الألماني (١) .

سري للغاية

سلوك القوات عند دخولها الى الموانئ

« يجب تعميم كافة السفن ... ومن الواجب الحفاظ على التنكر في شكل سفن بريطانية أطول وقت ممكن . ويجب ان يرد باللغة الانكليزية على جميع الاشارات اللاسلكية التي تصدر عن السفن النروجية برموز « المورس » طالبة معرفة هويات البواخر الألمانية بالجواب التالي : « نعزم زيارة برغين فترة قصيرة ... وليس لدينا أي هدف معاد » .

« وإذا ما سألت السفن النروجية عن اسماء هذه السفن يرد على سؤالها بالنحو التالي :

« كويلن - تتستر باسم الباخرة البريطانية « القاهرة » .
« كوينغزبرغ - تتستر باسم الباخرة البريطانية « كلكتوتا » .. الخ .
« يجب اتخاذ الترتيبات لإضاءة الاعلام الحربية البريطانية ...
« على السفن المتجهة الى برغين ... ان تسير وفق المبدأ الموجه التالي في حالة اضطرارها الى الرد على استفسارات من سفن عابرة ..
« يعطى اسم « القاهرة » للباخرة كويلين ..
« في حالة صدور إيعاز من السفن النروجية لبواخرنا بالوقوف ، يرد عليها (أولاً) نرجو إعادة الاشارة و (ثانياً) لا نستطيع ان نفهم الاشارة .
« وفي حالة اطلاق قذيفة انذارية نروجية .. يكون الرد

١ - المؤامرة النازية والمدوان (٦) ص ٩١٤-٩١٥ .

« أوقفوا النار . نحن بواخر بريطانية . اننا بواخر صديقة .
» وفي حالة الاستفهام عن الإتجاه والهدف يرد بالعبارة التالية :
نحن متجهون الى برغن ، مطاردين بعض البواخر الألمانية » (١) .

وهكذا في الساعة الخامسة والدقيقة العشرين من صباح التاسع من نيسان عام ١٩٤٠ (أي الساعة الرابعة والدقيقة العشرين من وقت الدانمارك) ، وقبل ساعة من طلوع الفجر أيقظ المبعوثان الدبلوماسيان في كل من كوبنهاغن وأوسلو وزيرى خارجية هاتين الدولتين من رقادهما قبل عشرين دقيقة من وصول القوات الألمانية ، تنفيذاً لتعليمات ريبنتروب الدقيقة ، وسلما اليها إنذاراً رسمياً من الحكومة الألمانية الى حكومتيها ، بوجوب قبول « حماية الرايخ » فوراً ودون مقاومة . وكان هذا الانذار أوقع ما وضعه هتلر وريبنتروب من وثائق ، إذ كان هذان الرجلان قد اتقنا الآن ، الحداد الدبلوماسي بعد تجاربها السابقة (٢) .

وبعد أن أعلن الانذار ان قوات الرايخ قد جاءت لمساعدة الدانمارك والنرويج ، في حماية نفسيهما من الاحتلال الانكليزي - الفرنسي ، مضى قائلاً :

« ولهذا فان القوات الألمانية لا تطأ اقدامها الأرض النرويجية ، كقوات معادية . ولا تعترم القيادة العليا الألمانية الافادة من النقاط التي تحتلها قواتها ، كقواعد للعمليات الحربية ضد انكلترا ، طالما انها غير مضطرة الى مثل ذلك ...

« ولا تهدف العمليات الألمانية العسكرية على النقيض من ذلك إلا لحماية الشمال من الاحتلال البريطاني المتوقع للقواعد النرويجية

١ - حاول امير البحر الاكبر ريدر في محاكمات نورمبرغ تبرير هذه الاساليب على اساس انها اساليب مشروعة و « خدع حربية مقبولة » ، لا تقبل من الناحية القانونية أي اعتراض عليها « محاكمات كبار مجرمي الحرب الالمان (١٤) ص ٩٩ و ١٩٤ » .

٢ - نص الانذار في المؤامرة النازية والسدوان (٨) ص ٤١٠ - ٤١٤ . وكذلك في وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٩) ص ٨٨ - ٩٩ .

بواسطة القوات الانكليزية - الفرنسية .

« وتعلن حكومة الرايخ على ضوء العلاقات الطيبة القائمة بين المانيا والنروج حتى هذا اليوم ، الى الحكومة الملكية النروجية ، ان المانيا لا تعترم المساس عن طريق اجراءاتها بسلامة مملكة النروج الاقليمية واستقلالها السياسي ، لا في الحال ولا في المستقبل .

« وتتوقع حكومة الرايخ والحالة هذه ان لا تتعرض لأية مقاومة من حكومة النروج أو شعبها . اذ ان أية مقاومة ستحطم بجميع السبل والوسائل ، ولن تؤدي والحالة هذه إلا الى سفك دماء لا ضرورة له ولا جدوى منه مطلقاً ... »

وكانت توقعات الالمان صحيحة بالنسبة الى الدانمارك لا الى النروج واتضح هذه الحقيقة لدوائر الويلهاستراسه بعد تلقيها أولى الرسائل العاجلة من وزيرها المفوضين في هاتين البلدين . فقد ابرق المبعوث الالماني في كوبنهاغن الى ريبنتروب في الساعة الثامنة والدقيقة الرابعة والثلاثين صباحاً يقول ان الدانماركيين قد قبلوا « جميع طلباتنا على الرغم من تسجيلهم احتجاجاً عليها » . اما كورت بروير ، الوزير المفوض في اوسلو فقد بعث برواية مخالفة . اذ بعث في الساعة الخامسة والدقيقة الثانية والخمسين صباحاً أي بعد اثنتي وثلاثين دقيقة من تسليمه الانذار الالماني ، ببرقية الى برلين تحمل الرد العاجل للحكومة النروجية على النحو التالي .. « لن نستسلم طواعية . وقد بدأنا النضال » (١) .

واحتد ريبنتروب المغرور من هذا الرد (٢) . وعاد يبعث الى كورت بروير

١ - برقية ريشفينك من كوبنهاغن (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ١٠٢ - ١٠٣ وبرقية بروير من اوسلو (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ١٠٢) .

٢ - لم ير مؤلف هذا الكتاب ريبنتروب قط في حالة لا تطاق كما رآه في ذلك الصباح فلقد هرع داخلاً الى مؤتمر صحفي طارئ عقده في ذلك الصباح في وزارة الخارجية، وقد ارتدى بزة عسكرية براقة وفاخرة، وهو يبدو كإدوينت في يومياتي وكأنه (يملك العالم بأسره). وراح يندفع =

في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والخمسين ببرقية عاجلة للغاية قال فيها :
« عليك ان تقنع الحكومة هناك بأن ليس ثمة من منطق او معنى لأية
مقاومة نروجية » .

ولم يكن في وسع المبعوث الألماني التعس ان ينفذ لوزير خارجيته رغبته .
فلقد كان ملك النروج وحكومته واعضاء البرلمان قد فروا جميعاً في هذا الوقت
من العاصمة الى الجبال في الشمال . وقد صمموا جميعاً على المقاومة ، على الرغم من
عدم التكافؤ في القوى . وكانت المقاومة قد بدأت في الواقع في بعض الاماكن
وان لم يكن في كلها ، مع وصول البواخر الألمانية في تلك الليلة .

وكان الدانماركيون في وضع اكثر قنوطاً ويأساً وكانت بلادهم الجميلة المؤلفة
من الجزر ، إعجز عن الدفاع من جارتها . فهي اكثر استواء ، واصغر مساحة
من النروج ، وكانت جتلند ، التي تؤلف الجزء الأكبر من البلاد ، مفتوحة برأ
امام جحافل هتلر المدرعة . ولم تكن هناك جبال يستطيع ملكها وحكومته
الفرار اليها ، كما لم يكن باستطاعتها ان تأمل في أي عون يأتيها من بريطانيا .
ولقد قيل ان الدانماركيين كانوا اكثر حضارة من ان يحاربوا في مثل هذه
الظروف ، وبالفعل فانهم لم يحاربوا مطلقاً . وطلب الفريق و . و .
بريور ، القائد العام للجيش ، المقاومة ، ولكن رئيس الوزراء ثورفالد ستونينغ
خالفه الرأي وابطل قراره . وأيد الملك ووزير الخارجية ادوار مونك رئيس

= بكلامه قائلاً ... « لقد اصدر افوهرر رده ... ان المانيا تخطل التربة الدانماركية والنروجية
لحماية هاتين البلدين من الخلفاء ، وستدافع عن حياهما الصحيح حتى نهاية الحرب . وهكذا تمكنا
من ائقاذ جزء كريم من اوروبا من الانهيار الأكيد » .

ووجدت صحف برلين ما تقوله ايضاً في ذلك اليوم ، فلقد كتبت « البورصن زايتونغ تقول » :
« تدوس انكلترا باقدامها عامدة متمدة اجساد الشعوب الصغيرة بعد قتلها . وتتولى المانيا حماية
الدول الضعيفة من قطاع الطرق الانكليز .. وعلى النروج ان ترى عدالة العمل الألماني الذي
استهدف ضمان حرية الشعب النروجي » . وطلعت صحيفة هتلر « الفولكشاير بيوباختر » تحمل العنوان
الضخم التالي : « المانيا تنقذ اسكنديناويا » .

الوزراء في قراره ، وكان الملك قد رفض نداء القائد العام بإعلان التعبئة العامة ، عندما وصلت أولى الانباء السيئة في الثامن من نيسان . ولم يستطع مؤلف هذا الكتاب ، على الرغم من التحقيق الذي اجراه في كوبنهاغن ، معرفة الاسباب التي ظلت غامضة بالنسبة اليه ، والتي ادت الى امتناع الاسطول الدانماركي عن اطلاق طلقة واحدة ، لا من سفنه الحربية ، ولا من بطارياته الساحلية ، حتى في اللحظة التي مرت بها السفن الالمانية الناقلة للجنود ، في مرمى هذه المدافع ، التي كان في وسعها ان تصلحها ناراً حامية ، وان تمزقها شذر مذر . اما الجيش فقد اشتبك في بعض المناوشات القليلة في جوتلند ، كما اطلق الحرس الملكي بعض الطلقات النارية حول القصر الملكي في العاصمة ، وأصيب بعض افراده بالجراح . وانتهى كل شيء في الدانمارك ، في اللحظة التي كان الدانماركيون فيها قد أتموا فطورهم الصباحي . واستسلم الملك تلبية لنصيحة حكومته وخلافاً لرأي الفريق بريور ، وأمر بوقف كل ما بدا من مقاومة ضعيفة .

وتظهر الوثائق الألمانية المصادرة ، ان الخطط التي وضعت للاستيلاء على الدانمارك بالمباغطة والحداع ، قد أعدت بعناية فائقة . وكان الفريق كورت هايمر ، رئيس اركان القوات التي عهد اليها باحتلال الدانمارك قد وصل الى كوبنهاغن في السابع من نيسان بالملابس المدنية ، ليستكشف اوضاع العاصمة ويقوم بالترتيبات اللازمة لاختيار رصيف مناسب ، ترسو اليه السفينة هانسيستادت دانزيغ ، الناقلة للجنود ، وانتقاء سيارة شاحنة لنقل بعض المؤن وجهاز للارسال . وكان قائد الفوج الألماني الذي وجدت القيادة انه كافٍ لاحتلال هذه العاصمة الكبيرة ، قد زار كوبنهاغن ايضاً في الملابس المدنية ، قبل يومين ، ليحمل صورة عنها .

ولم يكن من الغريب والحالة هذه ان تنفيذ الخطط التي وضعها القائد هايمر وقائد الفوج ، دون وقوع اي خطأ فيها . ووصلت الباخرة الناقلة للجنود الى كوبنهاغن قبيل الفجر ، ومرت دون ان تتعرض لاطلاق النار من مدافع القلعة التي تحمي الميناء ولا من السفن الدورية الدانماركية ، ورست بهدوء وأمان على

رصيف « لانفيليني » في قلب المدينة وعلى مرمى حجر من القلعة ، التي يتخذها الجيش الدانماركي مقراً لقيادته العليا ، وعلى بعد قريب للغاية من قصر « أمالينبورغ » حيث يقيم الملك . واستولى الفوج الألماني الصغير بسرعة كبيرة على القصر والقلعة دون أية مقاومة تستحق الذكر .

وعقد الملك في قصره ، وبين هذه الطبقات النارية المتفرقة اجتماعاً للتشاور مع وزرائه . وأيد الجميع قرار اللامقاومة . وكان الفريق بريور الوحيد الذي طلب السماح له بالمقاومة . ورجا الملك ان يغادر القصر الى اقرب معسكر حربي في هوفيلتي ، للنجاة من الأسر . لكن الملك وافق وزرائه على رأيهم في عدم المقاومة . ويقول شاهد عيان ان الملك سأل قائد جيشه « اذا كان الجنود قد خبروا القتال طويلاً » فكان رد الفريق انهم لم يقاتلوا (١) .

وسيطر القلق على الفريق هايمر من الابطاء في التسليم ، فهتف الى مقر القيادة العامة التي اقيمت في همبورغ ، وكانت السلطات الدانماركية قد اهملت قطع خطوط الهاتف مع المانيا ، وروى هو بنفسه (٢) ، انه طلب من القيادة ايفاد بعض قاذفات القنابل للتخليق فوق كوبنهاغن « لارغام الدانماركيين على القبول والتسليم » . ودار الحديث بصورة رمزية ، وفهمت القيادة العامة للسلاح الجوي ان هايمر يطلب من الطائرات القيام بقصف حقيقي للمدينة ، ووعدت بتنفيذ طلبه فوراً ، وهو خطأ تم اصلاحه في الوقت المناسب ، وقبل ان يقع الخطأ . ويقول هايمر ان الطائرات « هدرت بأصواتها فوق العاصمة الدانماركية » ونجحت في تحقيق الغاية منها ، اذ قبلت الحكومة مطالب المانيا .

١ - بلغ مجموع خسائر الدانماركيين في طول المملكة وعرضها ثلاثة عشر قتيلًا وثلاثة وعشرين جريحاً . وبلغت خسائر الالمان نحواً من عشرين رجلاً . . استندت في الرواية الدانماركية عن الاحتلال الالمانى على كتابي « تعدي اسكنديناويا » وعلى كتاب « الدانمارك في عهد الاحتلال » اعداد بورج اوتري . وافدت ايضاً من المساعدة التي قدمها لي المقدم ثولاد ، وهو من ضباط الحرس الملكي .

٢ - من وثائق الجيش الالمانى السرية (المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٢٩٩-٣٠٨) .

وكانت هناك صعوبة في إيجاد وسيلة لإذاعة نبأ استسلام القوات الدانماركية على الشعب ، اذ ان محطات الاذاعة المحلية ، لم تكن قد بدأت ارسالها بعد في هذه الساعة المبكرة . وحلت المشكلة عن طريق اذاعة النبأ على الموجة الدانماركية بواسطة جهاز الارسال الذي حمله الفوج الألماني الفاتح معه . والذي كان الفريق هايمر قد نقله على ظهر شاحنة ، مفكراً بمثل هذا الاحتمال الى القلعة .

وقام الفريق هايمر يرافقه سيسيل فون رينته - فينك وزير المانيا المفوض بزيارة ملك الدانمارك ، الذي لم يعد صاحب السيادة في بلاده ، وإن جهل هذه الحقيقة في الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم نفسه . وخلف لنا هايمر صورة خطية للاجتماع في وثائق الجيش السرية ، وهذا ما جاء فيها :

« بدا الملك الذي يبلغ السبعين من عمره ، وقد تحطم في نفسيته ، على الرغم من احتفاظه بالمظاهر الخارجية ، وتمسكه بكرامته المطلقة إبان الاجتماع . ورأيت أنه يرتجف من قمة راسه الى أخمص قدميه . وأعلن أنه سيحاول مع حكومته القيام بكل وسيلة ممكنة للحفاظ على السلام والنظام في البلاد ، وإزالة أي احتكاك بحري بين بلاده وبين القوات الألمانية . وأعرب عن رغبته في أن ينجب بلاده أية تعاسة أو شقاء .

« ورد الفريق هايمر ، بأنه يأسف شخصياً أشد الأسف لمجيئه الى الملك في مثل هذه البعثة ، ولكنه يقوم بواجبه كجندي . ولقد اتينا هنا كأصدقاء .. وعندما سأله الملك ، اذا كان في وسعه ان يحتفظ بحرسه الخاص ، رد الفريق هايمر ، بأنه لا يشك مطلقاً في ان الفوهرر سيسمح له بالاحتفاظ به . انه واثق كل الثقة من ذلك .

« وأحس الملك ببعض الارتياح من ذلك ، وبدأ هذا الارتياح على وجهه . وازداد هذا الارتياح إبان المقابلة ، وراح يقول للفريق الألماني عند انتهائها ... « اسمع يا جنرال ، هل يمكنني كجندي قديم ان أقول لك شيئاً ، وان احدثك كما يحدث الجندي زميله ؟

لقد قمتم ايها الألمان بشيء لا يكاد يصدق ثانية . وارى لزماً علي ان اعترف بأن عملكم كان رائعاً » .

* * *

ولم يثر الملك وشعبه ، وهو الشعب السليم البنية والطوية ، الكثير الحضارة والذي يعرف التمتع بعيشه . أية مشاكل للألمان طيلة السنوات الاربع التالية ، الى ان كان مد الألمان الحربي قد تحول الى جزر واتاح المحتلون للملك وحكومته ومحاكمه حتى برلمانهم وصحافته ، في البداية الكثير من الحرية ، مما يثير الدهشة . وظل حتى اليهود الذين يعدون سبعة آلاف في البلاد ، يعيشون حياة الأمن والطمأنينة رداً من الزمن . ولكن الدانماركيين ادركوا اخيراً ، وبعض غيرهم من الشعوب المحتلة ان المضي في سياسة « التعاون المخلص » كما اسموها ، مع طغاتهم التوتونيك ، الذين تضاعفت وحشيتهم مع مضي السنين ومع تردي الاوضاع الحربية ، بات مستحيلاً اذا شاءوا الاحتفاظ بشيء مهما ضؤل من احترام النفس والكرامة . وشرعوا يرون ايضاً بأن المانيا قد لا تربح الحرب على أي حال ، وان الحكم على الدانمارك الصغيرة بأن تعيش كما خشي الكثيرون في البداية عيشة الدولة التابعة في نظام هتلر الجديد ، لم يكن مبرراً . وأنداك بدأت المقاومة في البلاد .

مقاومة النرويجيين

بدأت المقاومة في النرويج منذ اللحظة الأولى ، وان لم تكن تشمل البلاد كلها . ففي نارفيك ، الميناء الواقع في الشمال ، ونهاية الخط الحديدي الناقل للحديد من السويد ، استسلم العقيد كونراد سوندلو ، آمر الحامية المحلية والتابع المتعصب لكويزلنغ ، كما رأينا من قبل ، دون ان يطلق عياراً نارياً واحداً . أما القائد البحري في الميناء ، فكان من طراز آخر . فعندما اقتربت عشر مدمرات المانية من مدخل الخليج الطويل ، راحت المدرعة القديمة « آيدز فولد » الراسية

في الميناء ، تطلق قذيفة انذار ، مصحوبة بالاشارة الى المدمرات للكشف عن هويتها . ورد الرير اميرال فريتز بونتي قائد مجموعة المدمرات الألمانية ، بإيفاد ضابط من رجاله في زورق بخاري الى المدرعة النرويجية ليطلب اليها التسليم . وهنا لجأ الألمان الى الخديعة ، وقد حاول الضباط البحريون فيما بعد الدفاع عن انفسهم محتجين بأن الغاية تبرر الوسطة ، وان ضرورات الحرب لا تعرف قانوناً . وعندما رد الضابط الذي يستقل الزورق ، على أمير البحر الألماني ، بأن النرويجيين اعلنوا المقاومة ، انتظر بونتي الى ان ابتعد الزورق من الطريق ، ونسف المدرعة النرويجية بطوربيداته . واطلقت المدرعة الثانية « نورج » نيرانها آنذاك ، ولكنها سرعان ما اغرقت ، وقضي على نحو ثلاثمائة بحار نرويجي ، كانوا يؤلفون قوة المدرعتين الفريقتين . ولم تحل الساعة الثامنة صباحاً حتى كانت نارفيك قد سقطت في ايدي الألمان بعد ان احتلتها المدمرات العشر التي تسالت بعيدة عن انظار الاسطول البريطاني القوي . وتألقت القوات المحتلة من فوجين من القوات النازية ، تحت قيادة العميد (البريغادير) ادوار دايتل ، خدن هتلر البافاري القديم منذ ايام انقلاب حانة الجمعة ، والرجل الذي برهن على شجاعة ونبوغ عسكري ، عندما التحم في معارك ضارية في نارفيك ، بدأت بطلوع اليوم التالي .

واحتل الألمان تروندهايم الواقعة الى الجنوب من نارفيك وفي وسط الساحل النرويجي بسهولة فائقة ايضاً . ولم تطلق البطاريات الساحلية النرويجية اية طلقة على السفن الحربية الألمانية التي يقودها الطراد الثقيل هيبير ، وهي تدخل الخليج الطويل . ونزل الجنود من ذلك الطراد ومن اربع مدمرات ترافقه الى الساحل بسلام وامان ، ودون اية مقاومة . وصمدت بعض القلاع القريبة بضع ساعات ، كما صمد مطار فيرنيس (Vaernes) المجاور مدة يومين ، ولكن هذه المقاومة لم تؤثر على احتلال هذا الميناء الرائع الصالح لاستعمال اضخم السفن الحربية والفواصات والذي يقع في نهاية خط حديدي يعبر الشمال الاوسط من النرويج الى السويد ، ويأمل الألمان في استخدامه للحصول على المؤن في حالة تمكن

البريطانيين من قطع طريق البحر عنهم .

وصمدت برغين بعض الوقت وهي الميناء الثاني في النروج ، واهم مدنها بعد اوسلو . وتقع على بعد ثلاثمائة ميل الى الجنوب من تروندهايم وترتبط مع اوسلو العاصمة بخط حديدي . واصابت البطاريات التي تحرس الميناء الطراد كوينغزبرغ وسفينة المانية اضافية اخرى ببعض الاضرار ، ولكن القوات تمكنت من النزول بأمان من بواخر اخرى واحتلت المدينة قبل حلول الظهيرة . وقد وصل اول عون بريطاني مباشر الى النروجيين المذهولين ، الى برغين هذه . فقد تمكنت خمس عشرة طائرة بحرية بريطانية من طائرات الانقضاض من اغراق الطراد كوينغزبرغ في ساعات بعد الظهيرة ، فكانت أول سفينة حربية من هذا الحجم تفرق نتيجة الغارات الجوية . وكان هناك خارج الميناء اسطول بريطاني ضخيم يضم اربعة طرادات وسبع مدمرات ، وكان في وسعه ان يقضي على القوة الألمانية البحرية الصغيرة . واوشك هذا الاسطول على دخول الميناء عندما تلقى الأوامر من الاميرالية البريطانية بالقاء الهجوم خشية تعرضه لخطر الالغام والقذف الجوي ، وهو قرار سرعان ما أسف تشرشل الذي اشترك في اتخاذه ، لصدوره . وكان هذا القرار أول دليل على الحذر والاجراءات الناقصة التي كلفت البريطانيين غالياً في الايام الحرجة التالية .

واستولت قوات المظليين الألمان على مطار سولا القريب من ميناء ستافانغر على الساحل الجنوبي الشرقي . بعد ان تمكنت من اسكات مراكز المدافع الرشاشة النروجية ، اذ لم تكن فيه وقاية حقيقية من الغارات الجوية ، وكان هذا اكبر مطارات النروج ، وله اهمية سوقية ضخمة بالنسبة الى السلاح الجوي الألماني ، إذ كان في مكنة قاذفات القنابل فيه لا أن تهاجم الاسطول البريطاني على طول الساحل النروجي فحسب بل وان تهاجم القواعد البحرية البريطانية الرئيسية في شمال بريطانيا أيضاً . وقد اتاح الاستيلاء عليه للألمان التفوق الجوي المباشر في النروج ، وقضى على اية محاولة قد يقوم بها البريطانيون للهبوط بقوات ضخمة على الساحل .

وقاومت كريستيانساند الواقعة على الساحل الجنوبي، الألمان مقاومة فعالة، وتمكنت بطارياتها الساحلية من اقضاء اسطول الماني مرتين، كان الطراد الخفيف كارلسرو يتولى قيادته ولكن السلاح الجوي الألماني تمكن من اخفات هذه القلاع بسرعة، وتمكن الاسطول من احتلال الميناء بعد الظهر. ولكن عندما كان الطراد كارلسرو يغادر الميناء في ذلك المساء، نسفته غواصة بريطانية بطوربيداتها واصابته باضرار جسيمة بحيث اضطر بجارته الى اغرقه.

وهكذا لم تحل الظهيرة ذلك اليوم أو بعدها بقليل حتى كانت المدن النروجية الرئيسية الخمس وموانئها والمطار الكبير الوحيد على طول السواحل الغربية والجنوبية التي تمتد مسافة الف وخمسمائة ميل من سكاجيراك الى المحيط المتجمد الشمالي، قد غدت كلها في ايدي الألمان. وقد تمكنت حفنة من الجنود نقلها اسطول يقل حجماً وشأناً عن الاسطول البريطاني من الاستيلاء عليها وهكذا تمكنت المرأة والخديعة والمباغثة من ان تضمن لهتلر نصراً ضخماً بثمن ضئيل للغاية.

أما في اوسلو. وهي الصيد الثمين، فقد لاقت قواته العسكرية ودبلوماسيته متاعب غير منتظرة.

ففي ليلة الثامن - التاسع من نيسان الباردة كالثلج كانت هناك فئة مرحلة من رجال المفوضية الألمانية يقودها الرئيس شرايبر، الملحق البحري، وينضم بين الفينة والفينة الوزير « المنهمك » بالعمل، الدكتور بروير، تقف على الرصيف في ميناء اوسلو تنتظر وصول الاسطول الألماني والبواخر من ناقلات الجنود. وكان هناك ملحق بحري الماني صغير، يقفز في الخليج بزورقه البخاري ينتظر ان يمثل دور المرشد للاسطول، وقد سارت في مقدمته بارجة الجيب لوتزاو (وكان اسمها دويتشلاند، ولكن هتلر بدل اسمها لأنه لم يرغب في ان يحازف بفرق بارجة تحمل هذا الاسم)، والطراد الثقيل الجديد « بلوخر » الذي يرفع راية اميرال الاسطول.

وانتظر هذا الفريق عبثاً. فالسفن الضخمة لم تصل، اذ قاومتها في مدخل

الخليج الذي يمتد مسافة خمسين ميلاً ، زراعة الالفام النروجية « اولاف تريخفسون » التي تمكنت من اغراق زورق طوربيد الماني واصابة الطراد الحفيف ايمدن ببعض الاضرار . وتمكن الأسطول الألماني بعد أن انزل قوة صغيرة من الجنود لإسكات البطاريات الساحلية ، من مواصلة سيره صاعداً في الخليج . وعندما وصل الى نقطة تبعد خمسة عشر ميلاً الى الجنوب من اوسلو ، حيث يضيق الماء الى عرض خمسة عشر ميلاً ، تعرض الاسطول لمشاكل جديدة . ففي هذه النقطة ، تقوم قلعة اوسكار سبورغ القديمة ، التي كان حمايتها اكثر وعياً وانتباهاً ، مما تصور الألمان . وراحت مدافع كروب ذات عيار (٢٨) ستمترأ تطلق نيرانها قبيل الفجر على البارجة لوتزاو والطراد بلوخر ، كما اطلقت الطوربيدات من الشواطئ على الاسطول المهاجم . واشتعلت النيران بالطراد بلوخر ذي حمولة عشرة آلاف طن ، وسرعان ما تمزق شذر مذر ، من جراء تفجر الذخائر فيه ، ومضى الى قعر البحر ، يحمل معه الى الموت والفناء ألفاً وستائة انسان بينهم عدد من رجال الفستابو ، والموظفين الاداريين ، وكل ما لديهم من اوراق ، وكان من المتوقع ان يعتقلوا الملك وحكومته ، وان يتولوا شؤون الادارة في العاصمة . واصيبت لوتزاو ايضاً باضرار ، ولكنها لم تتعطل بصورة نهائية . وتمكن الرير اميرال اوسكار كوميتز ، قائد السرب البحري ، والفريق ايروين اينغلبرت ، الذي قاد فرقة المشاة المائة والثلاث والستين وكانا على ظهر بلوخر ، من السباحة الى الشاطئ ، حيث اسرهما النرويجيون . وعاد الاسطول الألماني الذي اصيب بالمعجز ادراجه مؤقتاً ، ليمسح الجراح التي اصيب بها . وقد فشل هذا الاسطول في مهمته وهي الاستيلاء على الهدف الألماني الرئيسي ، المتمثل في عاصمة النروج . ولم يتمكن من الوصول الى هذا الهدف إلا في اليوم التالي .

وقد سقطت اوسلو في الحقيقة في يدي قوة المانية رمزية هبطت من الجو في المطار المحلي الذي لم يدافع عنه . وأدت الأنباء المفجعة التي وصلت من الموائىء الاخرى ، والهدير الداوي من المدافع على بعد خمسة عشر ميلاً ، من العاصمة الى

الجنوب في خليج اوسلو ، الى قيام الأسرة المالكة النرويجية والحكومة واعضاء البرلمان ، بركوب قطار خاص حملهم جميعاً من العاصمة في الساعة التاسعة والنصف صباحاً ، الى هامار على بعد ثمانين ميلاً الى الشمال وغادرت العاصمة ايضاً في نفس الوقت خمس عشرة سيارة شاحنة ملأى بذهب بنك النروج ، وثلاث اخرى تحمل الاوراق السرية لوزارة الخارجية . وهكذا احبطت المقاومة الباسلة التي ابدتها حامية اوسكار سبورغ خطط هتلر ، في اعتقال ملك النروج واعضاء حكومته ، وذهبها .

ولكن اوسلو ظلت في حالة من الارتباك والذهول الكاملين . وكان ثمة بعض الجنود النرويجيين فيها ، ولكنهم لم يكونوا قد وضعوا في حالة استعداد للدفاع . يضاف الى هذا ، ان أي اجراء لم يتخذ لاجلاق مطار فورنبيو القريب ، مع ان هذا كان امراً سهلاً للغاية ، ولا يحتاج تنفيذه الى اكثر من بضعة سيارات قديمة توضع في مدرج المطار وحوله . وكان الرئيس سييلر الملحق الجوي الالماني في اوسلو قد اقام في المطار في الليلة السابقة للترحيب بالجنود الألمان الذين كان من المقرر هبوطهم من الجو بعد ان يكون الاسطول قد وصل الى المدينة . وعندما فشلت السفن الحربية في الوصول في الوقت المعين ، بعثت المفوضية برسالة لاسلكية محمومة الى برلين تبلغها فيها بالتطور المزعج وغير المتوقع . وكان رد برلين فورياً . وسرعان ما أخذت قوات المظليين والجنود الذين تحملهم الطائرات تهبط في مطار فورنبيو . واحتشدت في المطار عند الظهر نحو من خمس سرايا وكان في مكتبة القوات النرويجية الموجودة في العاصمة ان تقضي عليها بسهولة ، وبالنظر الى الاسلحة الخفيفة التي كان يحملها افرادها . ولكن لأسباب ما زلنا نجهلها ، اذ ان الفوضى كانت قد ضربت اطنابها في اوسلو ، لم تجمع هذه القوات ، ولم توزع في الوقت نفسه توزيعاً صحيحاً ، وزحفت القوة الألمانية الرمزية الى العاصمة ، وراء فرقة موسيقية تعزف ألحانها العسكرية . وهكذا سقطت آخر مدينة في النروج ، ولكن النروج نفسها ظلت صامدة .

وعقد البرلمان النروجي جلسة في هامار بعد ظهر التاسع من نيسان ، شهدها

جميع اعضاءه المائتين باستثناء خمسة فقط ، ولكن الجلسة ما لبثت ان أجلت في الساعة السابعة والنصف مساءً ، عندما وردت الانباء عن اقتراب القوات الألمانية من البلدة ، وارتحل اعضاء البرلمان الى ايلفيروم التي تقع على بعد بضعة اميال نحو الشرق باتجاه الحدود السويدية . وكان الدكتور بروير ، بالحاف من ريبنتروب ، يطلب مقابلة فورية مع الملك . ووافق رئيس الوزراء على هذه المقابلة شريطة ان تنسحب القوات الألمانية الى مسافة بعيدة باتجاه الجنوب . ولكن الوزير الألماني المفوض لم يوافق على هذا الطلب .

وكان الألمان يعدون في هذه الآونة خدعة جديدة فقد غادر الرئيس سيلر ، الملحق الألماني الجوي ، مطار فورنيبو يرافقه فصيلان من المظليين الألمان باتجاه هامار لاعتقال الملك المتردد واعضاء حكومته . وخيل اليهم ان تراجع الملك وحكومته لا يعدوا ان يكون لهواً ولعباً . ولما كانت القوات النرويجية لم تطلق عياراً واحداً لتحول دون دخول الألمان الى اوسلو ، فقد توقع سيلر ان لا يجد أية مقاومة في هامار . واستقل العقيدان الألمانيان سيارتي «باص» ومضيا في طريقهما يتطلعان الى المناظر الرائعة التي تحيط بهما . ولم يحسبا حساب ضابط في الجيش النرويجي سلك سلوكاً مغايراً للآخرين ، وهو العقيد روج المفتش العام للمشاة ، الذي كان قد رافق الملك في اتجاهه شمالاً ، وأصر على تأمين نوع من الحماية للحكومة الهاربة ، ولذا أقام حاجزاً على الطريق على مقربة من هامار يعززه فوجان من المشاة كان هذا الضابط الباسل قد جمعها بسرعة . وأوقف النرويجيون السيارتين الألمانيتين ، وتبعت ذلك مناوشة اصاب فيها سيلر بجراح قاتلة . ومني الألمان باصابات اخرى واضطروا الى العودة الى اوسلو .

وراح الدكتور بروير يغادر اوسلو وحيداً في اليوم التالي باتجاه هامار لمقابلة الملك . وبالطبع لم يكن هذا الدبلوماسي المتهن من رجال المدرسة القديمة ميالاً الى اداء هذه المهمة الشاقة ، ولكن ريبنتروب ظل يحثه باصرار على التحدث الى الملك وحكومته ليطلب اليها الاستسلام . وأدى وقوع بعض الأحداث السياسية في اوسلو الى الزيادة في تعقيد مهمة الألماني . ففي الليلة السابقة ، تحرك كوينز لنغ

أخيراً ، بعد ان أحس بشبات مركز الالمان في اوسلو ، واقتحم دار الاذاعة ، حيث ألقى بياناً على الشعب النرويجي ، اعلن فيه نفسه رئيساً للحكومة الجديدة وطلب الى جميع النرويجيين وقف كل مقاومة للألمان فوراً . وعلى الرغم من عدم تفهم بروير لهذه الحقيقة ، وعلى الرغم من عدم تفهم الالمان لها ، حتى بعد عهد طويل ، فان هذا العمل الخياني ، قضى بالفشل على كل محاولات الالمان لاقناع النرويج بالاستسلام . وفي وسعنا القول على سبيل المناقضة ، ان خيانة كوينلنغ على الرغم من تمثيلها لحظة من لحظات العار القومي بالنسبة الى الشعب النرويجي ، إلا انها حشدت جميع النرويجيين الذين أذهلتهم المفاجأة وراء حركة المقاومة التي غدت قوية وبطولية .

واجتمع الدكتور بروير ، الى الملك هاكون السابع ، وهو الملك الوحيد في القرن العشرين الذي انتخبه الشعب لارتقاء العرش ، كما كان الملك الاول في النرويج ، من أصل نرويجي ، منذ خمسة قرون ، وقد دارت المقابلة في بلدة صغيرة تدعى ايلفيروم في الساعة الثالثة من بعد ظهر العاشر من نيسان (١) . وفي وسعنا ان نقدم وصفاً لما دار في هذا الاجتماع على ضوء الحديث الذي دار بين المؤلف فيما بعد وبين الملك هاكون ، وعلى ضوء دراسة الوثائق النرويجية ، والتقرير السري الذي وضعه الدكتور بروير والذي عثرت عليه بين الوثائق الالمانية المصادرة . ولقد رضي الملك بعد تردد طويل ، بالاجتماع الى المبعوث الالماني بحضور الدكتور هالفدان كوهت وزير الخارجية . وعندما أصر بروير على مقابلة انفرادية مع الملك ، رضي هذا أخيراً ، بعد موافقة وزير خارجيته .

وحاول الوزير الالماني المفوض ، تنفيذاً للتعليمات التي تلقاها من حكومته ،

١ - ظلت النرويج جزءاً من الدانمارك مدة اربعة قرون ، ثم اصبحت جزءاً من السويد مدة قرن آخر ، ولم تستعد استقلالها الكامل الا في عام ١٩٠٥ ، عندما انفصلت عن اتحادها مع السويد ، وانتخب شعبها الأمير كادل الدانماركي ملكاً للنرويج ، حاملاً اسم الملك هاكون السابع . وكان هاكون السادس قد توفي في عام ١٣٨٠ . وكان الملك هاكون السابع شقيقاً للملك كريستيان العاشر الدانماركي ، الذي استسلم الى الالمان صباح التاسع من نيسان عام ١٩٤٠ .

التملق الى الملك من ناحية ، وارهابه من الناحية الاخرى . فألمانيا تريد - كما قال - الحفاظ على الأسرة المالكة . وكل ما تريد من هاكون ان يعمل ، هو ان يحذو حذو اخيه ملك الدانمارك . واذن النتيجة الوحيدة لهذه المقاومة ، مقاومة الجيش الألماني « الفير ماخت » ، اذ ان النتيجة الوحيدة لهذه المقاومة ، مذابح لا طائل تحتها ، ولا فائدة منها . وطلب المبعوث من الملك ان يقر قيام حكومة كويزلنج وان يعود الى عاصمته . وراح هاكون وهو الرجل الديموقراطي بطبعه ، والمتمسك أشد التمسك حتى في هذه اللحظات المفجعة في تاريخ بلاده بالاجراءات الدستورية ، يحاول ان يوضح للدبلوماسي الألماني ، ان الملك في الزوج ، لا يقرر المسائل السياسية ، وان مثل هذا التقرير من صلاحية الحكومة ليس إلا ، ولذا فهو يرى ضرورة مشاورتها . وانضم وزير الخارجية في هذه اللحظة الى الملك في محادثاته ، واتفق على ان ينقل رد الحكومة هاتفياً الى بروير ، وهو في طريق العودة الى اوسلو .

ولم يكن ثمة إلا رد واحد عند هاكون للألمان ، رغم عدم اتخاذ القرارات السياسية ، وذلك نتيجة قدرته على التأثير عليها . وكان هذا الرد هو التراجع الى نزل متواضع من قرية نيرغساند القريبة من ايلفيروم ، مخافة ان يحاول الألمان اعتقاله بهجوم مباغت آخر بعد عودة الوزير الألماني . واستدعى الى هذا النزل جميع اعضاء حكومته ليؤلفوا مجلساً أعلى للدولة ، وراح يقول لهم :

« لا يستطيع من ناحيتي ان اقبل بالمطالب الألمانية ، اذ ان هذا القبول يتعارض مع كل ما اعتبرته واجباً كملك للنروج ، منذ ان جئت الى هذه البلاد قبل نحو من خمسة وثلاثين عاماً . وانا لا أود ان أوثر ببياني هذا على القرار الذي تتخذه الحكومة ... فليس في وسعي ان أعين كويزلنج رئيساً للوزراء ، وهو الرجل الذي اعرف تمام المعرفة ان شعبنا ومثليه في البرلمان لا يثقون به مطلقاً .

« ولهذا فاذا اختارت الحكومة قبول المطالب الألمانية ، وانا

ادرك الاسباب التي قد تحملها على هذا القبول ، بالنظر الى خطر الحرب التي يتحتم على الكثيرين من النرويجيين الشبان التضحية بأرواحهم فيها ، فان السبيل الوحيد الذي يظل ماثلاً امامي ، هو النزول عن العرش « (١) » .

وعلى الرغم من وجود بعض المترددين والمتشككين من الاعضاء ، حتى هذه اللحظة ، إلا ان الحكومة وجدت نفسها عاجزة عن ان تكون أقل شجاعة من الملك وسرعان ما التفت حوله وأيدت موقفه . وتلقى الوزير الألماني عندما وصل الى ايدزفولد الواقعة في منتصف الطريق الى اوسلو ، رد الحكومة النرويجية ، وقد نقله اليه الدكتور كوهت وزير الخارجية عن طريق الهاتف وراح بروير يهتف به فوراً الى مفوضيته في اوسلو ، التي تولت بدورها نقله الى برلين على جناح السرعة .. وهذا هو الرد :

« قرر الملك تلبية للمشورة الجماعية من حكومته ، ان لا يعين حكومة يرئسها كوزلنغ .. أما بالنسبة الى السؤال المحدد الموجه الي ، فان المقاومة ستستمر اطول وقت ممكن « (١) » .

وألقت الحكومة النرويجية في ذلك المساء من محطة اذاعة ريفية صغيرة وقريبة ، هي كل ما تبقى من سبيل للاتصال مع العالم الخارجي ، بقفاز التحدي في وجه الرايخ الثالث القوي . وقد اعلنت قرارها بعدم قبول المطالب الألمانية ، وناشدت شعبها الذي يعد ثلاثة ملايين ليس إلا ، مقاومة الغزاة . وقد اشترك الملك ايضاً في اصدار هذا النداء .

ولكن الفاتحين النازيين لم يستطيعوا حمل انفسهم على الاعتقاد بصحة ما يقوله النرويجيون . وجرت محاولتان اخريان لإقناع الملك . فقد اوفد كوزلنغ في الحادي عشر من نيسان رسولا هو الرئيس ايرغينس ، ليستحث الملك على

١ - من وثائق الدولة النرويجية . مقتبس من كتاب المؤلف (تحدي اسكتديناfia)

العودة الى العاصمة . وقد وعده بأن يقوم كوزلنغ بخدمته بولاء و اخلاص .
ولكن الملك رفض عرضه باحتقار صامت .

ووصلت بعد الظهر رسالة عاجلة من بروير يطلب فيها مقابلة اخرى مع الملك لتقديم « اقتراحات معينة اخرى » . وكان الوزير الألماني الواقع تحت الضغط والاحاف قد تلقى تعليمات من ريبنتروب ، بأن ينقل الى الملك « رغبته في ان يتيح للشعب النرويجي ، الفرصة الأخيرة ، لعقد اتفاق معقول^(١) » . وتلقى الوزير الألماني هذه المرة بعد التشاور مع الملك ، رد وزير الخارجية ، بأن في وسعه ان ينقل هذه « الاقتراحات المعنية » الى الوزير اذا اراد .

وكان رد الالمان على هذه الصدمة من دولة صغيرة ، لا حول لها ولا طول كالنروج فورياً ومتفقاً مع طبيعة النازيين . فلقد فشلوا اولاً في وضع ايديهم على الملك وعلى اعضاء حكومته ، وها هم يفشلون في حملهم الآن على الاستسلام . ولم يبق امامهم إلا ان يقتلوهم . ووافدوا بعد ظهر الحادي عشر من نيسان طائرات سلاحهم الجوي ، لتعطي لقرية « نيرغساند » ، الدرس الذي تستحقه . وقام الطيارون النازيون بتدمير القرية كلها بالقنابل المتفجرة والمحارقة ، كما أصابت بنيران مدافعها الرشاشة أولئك الذين حاولوا النجاة من الخرائب المحرقة . ويبدو ان الالمان اعتقدوا بادىء ذي بدء انهم قد افلحوا في ذبح الملك واعضاء حكومته . فقد تضمنت يومية طيار الماني عثر عليها فيما بعد في شمال النروج الفقرة التالية بتاريخ الحادي عشر من نيسان : « حكومة اوسلو . تم مسحها

١ . هناك اشارة مشؤومة عن خديعة المانية اخرى في تعليمات ريبنتروب السرية . فقد امر بروير بأن يرتب المقابلة في نقطة تقع بين « اوسلو وبين المكان الحالي الذي يقيم فيه الملك . وقد طلب منه ايضاً لأسباب واضحة ، ان يبحث هذه الحركة بحثاً مستفيضاً مع الذيرق فون فالكتهورست ، وان يبلغ الاخير عن المكان الذي اتفق على عقد الاجتماع فيه » . وذكر غاوس الذي هتف لبروير بتعليمات ريبنتروب في تقريره ان « المهر بروير قد فهم بوضوح معنى هذه التعليمات . وفي وسع المرء ان يتصور بأن الملك لو ذهب الى هذه المقابلة ، لوضعت قوات فالكتهورست يدها عليه (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٧) ص ١٢٩) .

من الوجود .

اجل لقد مسحت القرية من الوجود ولكن الحكومة والمملك ظلا في حيز الوجود . وقد احتفى الملك واعضاء حكومته عند مجيء القاذفات النازية في غابة مجاورة . ووقفوا جميعاً في الثلج حتى ركبهم وشاهدوا الطائرات الالمانية وهي تحيل القرية الصغيرة الى انقاض . وتحتم عليهم ان يختاروا بين احد امرين ، إما الانتقال الى الحدود السويدية القريبة ، والعثور على الملجأ في السويد المحايدة ، أو الاندفاع شمالاً في جبالهم ، التي ما زالت تغطيها ثلوج الربيع . وقررا اخيراً الصعود مع وادي غودبراندز ، الذي يمر بهامار ويليها مار وعبر الجبال الى اندالسنس على الساحل الشمالي الغربي على بعد مائة ميل الى الجنوب الغربي من تروندهايم . وتصورت الحكومة ان ما في وسعها في الطريق تنظيم ما تبقى من قوات متفرقة ، ما زالت تعملها الدهشة ، لابداء مقاومة اخرى . وكان ثمة بعض الأمل في ان تصل قوات بريطانية في النهاية لتقديم العون لهم .

معارك النرويج

وكان الاسطول البريطاني قد رد رداً قوياً على الاختلال الالمانى المفاجيء في اقصى الشمال . وقد اعترف تشرشل ، الذي كان مسؤولاً عن الاسطول في هذا الحين ، بأن الالمان تفوقوا عليه في المكر والدهاء . إذ لما كانت المنطقة في أقصى الشمال ، بعيدة على الأقل عن مرمى القاذفات الالمانية التي تستند الى القواعد الارضية ، فقد تحول الاسطول البريطاني فيها الى الهجوم . ففي صباح العاشر من نيسان ، أي بعد اربع وعشرين ساعة من استيلاء المدمرات الالمانية على نارفيك وانزالها قوات دايتل فيها ، دخلت قوة مؤلفة من خمس مدمرات بريطانية الى ميناء نارفيك واغرقت مدمرتين من المدمرات الالمانية الخمس ، الموجودة في الميناء ، وعطلت الثلاث الباقية واغرقت جميع بواخر الشحن الالمانية باستثناء واحدة منها . وقد قتل القائد البحري الالمانى الرير اميرال بونتي في هذه العملية

ولكن ما كادت المدمرات البريطانية تخرج من الميناء حتى اصطدمت بالمدمرات الألمانية الخمس الباقية ، وقد طلعت لها من الخليجان المجاورة . وتمكنت الوحدات الألمانية بمدافعها المتفوقة من اغراق مدمرة بريطانية واحدة ، وارغام اخرى على الجنوح الى الشاطئ ، واصابة ثلاثة بأضرار بالغة . وقد اصيب القائد البريطاني القبطان واربورتون - بي وكان على ظهر المدمرة الثانية بجراح قاتلة وتمكنت ثلاث من المدمرات البريطانية من النجاة الى البحر ، حيث اغرقت عند انسحابها سفينة نقل المانية ضخمة ، ملأى بالذخائر ، كانت في طريقها الى الميناء .

وعاد الاسطول البريطاني ظهر الثالث عشر من نيسان ، تتقدمه هذه المرة البارجة « وورسبايت » ، وهي من البوارج التي نجت من معركة جتلند البحرية في الحرب الكونية الأولى ، ومعها عمارة من المدمرات ، الى نارفيك فازالت من الوجود ما تبقى من السفن الحربية الألمانية في الميناء . وراح نائب الاميرال و. جي . ويتوورث قائد الاسطول المهاجم يبعث ببرقية لاسلكية الى الاميرالية يتحدث فيها عما قام به من اعمال ، ويحثها فيها على وجوب قيام القوات البريطانية الاساسية باحتلال نارفيك ، بعد ان اصيبت القوات الألمانية الموجهة على الساحل بالذهول وتفرقت ايدي سبا ، بينما كان دايتل قد انسحب في الحقيقة مع رجاله الألمان الى الجبال المحيطة بالميناء . وكان امير اللواء بي . جي . ماكيسي ، القائد البريطاني ، لسوء حظ الحلفاء من النوع الشديد الحذر والحيطه ، فلما وصل في اليوم التالي بقوة طليعية تتألف من ثلاثة افواج مشاة ، قرر ان لا يفامر بالنزول في نارفيك ، وان يهبط بقواته في هارستاد ، التي تبعد خمسة وثلاثين ميلا الى الشمال ، والتي كانت لا تزال في ايدي النرويجيين . وكانت غلطة كلفت الحلفاء غالبا .

واذا ما عرفنا الحقيقة الواقعة وهي ان البريطانيين كانوا قد اعدوا حملة صغيرة للنروج من قبل ، تبين لنا انهم كانوا جد مبطين في ايفاد قواتهم الى الميدان فبعد ظهر الثامن من نيسان ، وكانت الانباء قد وصلت عن تحرك وحدات الاسطول الألماني باتجاه الساحل النرويجي ، راح الاسطول البريطاني ينزل بسرعة

القوات التي كانت قد استقلت بواخره ووحداته استعداداً لاحتلال ستافانفر وبرغين وتروندهايم ونارفيك ، على اساس الاعتقاد بأنه سيحتاج الى كل باخرة من بواخره للعمليات البحرية . وعندما عادت الاميرالية الى ارجاع هذه القوات الى البواخر ، كاذت جميع هذه المدن النروجية قد باتت في ايدي الألمان وعندما وصلت هذه القوات الى اواسط النروج كان مصيرها قد تقرر كما تقرر مصير السفن الحربية البريطانية التي عهد اليها بحماية القوات البرية بفضل سيطرة السلاح الجوي الألماني على سماء المعركة .

وهبط الى البر في العشرين من نيسان لواء بريطاني تعززه ثلاثة افواج من الرماة الألبين الفرنسيين ، وذلك في موقع نامسوس الميناء الصغير الذي يقع على بعد ثمانين ميلاً الى الشمال الشرقي من تروندهايم ، كما هبط لواء بريطاني ثانٍ في اندالسنس التي تقع على بعد مائة ميل الى الجنوب الغربي من تروندهايم ، وكانت الحطة ترمي الى مهاجمة المدينة من الشمال والجنوب . لكن هاتين القوتين نظراً لافتقارهما الى مدفعية الميدان ، والمدافع المضادة للطائرات ، والدعم الجوي ، لم تستطيعا تهديد تروندهايم تهديداً جدياً ، وذلك لتعرض قواعدهما الى القصف الجوي المتواصل ليلاً ونهاراً من القاذفات الألمانية التي حالت كذلك دون انزال اية مؤن جديدة أو تعزيزات للقوات الهابطة وحوّل اللواء البريطاني الذي هبط في اندالسنس اتجاهه بعد ان التقى بقوة نروجية في دومباس ، بمركز التقاء الخطوط الحديدية الواقع على بعد ستين ميلاً الى الشرق ، فتخلى عن فكرة الهجوم شمالاً نحو تروندهايم ، وراح يدفع الى الجنوب الشرقي مع وادي غود براند سداً ، هادفاً الى مساعدة القوات النروجية الرئيسية ، التي كانت تعمل تحت قيادة العقيد روج النشيطة في ابطاء الزحف الألماني الرئيسي المتقدم مع الوادي من مدينة اوسلو .

ووقع أول اشتباك في الحرب بين القوات البريطانية والألمانية في بلدة ليلهامار الواقعة الى الشمال من هامار . في الواحد والعشرين من نيسان ، لكن كفة القوى لم تكن متوازنة إبدأً فلقد غرقت الباخرة التي كانت تنقل اللواء

البريطاني مدفعيته ، ونحتم على الجنود البريطانيين والحالة هذه ان يحاربوا بالبنادق والمدافع الرشاشة قوات المانية تفوقهم عدداً ، وتعززها المدفعية والدبابات الخفيفة . يضاف الى هذا ان قوات المشاة البريطانيين ، وهي تفتقر الى العون الجوي ، تعرضت باستمرار الى قصف عنيف من طائرات السلاح الجوي الألماني العاملة من مطارات النروج القريبة . وسقطت ليلها مار في يد الألمان بعد معركة دامت اربع وعشرين ساعة ، وشرعت القوات البريطانية والنروجية في عملية تراجع مسافة مائة واربعين ميلاً مع الوادي وبمحاذاة السكة الحديدية الى اندالسنس ، متوقفة هنا وهناك لخوض معركة تعويقية ، اخرت الزحف الألماني ولكنها لم توقفه مطلقاً . وتم اجلاء القوات البريطانية من اندالسنس في الثلاثين من نيسان والاول من ايار ، وسحبت الوحدات البريطانية والفرنسية من نامسوس في الثاني من ايار ، وهي عمليات جلاء رائعة في حد ذاتها اذ ان المينائين كانا قد باتا شعلة من النيران من جراء القصف الجوي الألماني . وقام الطراد البريطاني « غلاسجو » في التاسع والعشرين من نيسان ينقل ملك النروج واعضاء حكومته من « مولديه » الواقعة على خليج « رومسدال » على مقربة من اندالسنس التي غدت في حد ذاتها حطاماً من الرماد من غارات الطائرات الالمانية ونقلتهم الى ترومسو الواقعة في الدائرة القطبية الى الشمال من نارفيك ، حيث اقيمت الحكومة النروجية المؤقتة في الاول من ايار .

وكان القسم الجنوبي من النروج في هذه الفترة بكل ما فيه من مدن وبلدان مهمة ، قد وقع تحت سيطرة الالمان ولكن بدا ان القسم الشمالي من البلد سيظل حراً من سيطرتهم . وقد تمكنت قوة للحلفاء قوامها خمس وعشرون الف رجل بينهم لواءان من النروجيين ولواء من البولنديين وفوجان من الفرقة الاجنبية الفرنسية ، باخراج الالمان من نارفيك نتيجة تفوق الحلفاء العددي الهائل ولم يبذل أي سبب يدعو الى الشك في ان هتلر سيحرم من حاجاته الى الحديد ، وسيمنع من احتلال جميع اجزاء النروج ، وارغام الحكومة النروجية على الاستسلام . ولكن كانت القوات الالمانية المسلحة في هذه الآونة قد وجهت

ضربت بها بقوات مذهلة في الجبهة الغربية ، وكان الحلفاء في حاجة الى كل جندي من جنودهم لسد الثغرة . واضطروا الى الجلاء عن نارفيك . واعيد الجنود الى البواخر بسرعة ، وعاد الفريق دايتل الالماني الذي كان قد صمد بقواته في المنطقة الجبلية الوعرة القريبة من الحدود السويدية ، الى احتلال الميناء في الثامن من حزيران ، فاستسلم اليه بعد اربعة ايام القائد النرويجي الباسل والشجاع العقيد روج ومن تبقى معه من قوات غلب عليها الغضب والدهشة من جراء ما أحسوا به من تخلي البريطانيين عنهم ونقل الملك هاكون وحكومته على ظهر الطراد البريطاني « ديفونشاير » من ترومسو في السابع من حزيران ليقلهم الى لندن ليقضوا فيها خمس سنوات من النفي المؤلم^(١) . ورفعت برلين دايتل الى رتبة

١ - لم يعد حكم كوزلنغ في محاولته الاولى للسيطرة على النرويج طويلاً . فبعد ستة ايام من اعلان نفسه رئيساً للوزراء ، قام الألمان بطرده في الخامس عشر من نيسان وعينوا مجلساً ادارياً مؤلفاً من ستة اشخاص من كبار النرويجيين ، وبينهم المطران ايفيند بيرغراف ، رئيس الكنيسة اللوثرية في النرويج وبأل بيرغ رئيس المحكمة العليا . وكان هذا التطور نتيجة جهود بيرغ المشروع البارزة والعنيد الذي بات فيما بعد رئيس حركة المقاومة السرية النرويجية . واختار هتلر في الرابع والعشرين من نيسان جوزيف تيربوفن ، احد الشبان النازيين البارزين ليصبح مفوض الرايخ في النرويج ، فبات بالفعل حاكماً البلاد الحقيقي ، الذي تزايدت شرارته ووحشيته يوماً بعد آخر خلال فترة الاحتلال . واستدعت برلين في السابع عشر من نيسان وزيرها المفوض برور ، الذي عارض كوزلنغ منذ البداية واحالته الى الاستداع من السلك الدبلوماسي ، ثم بعثت به فيما بعد كجندي الى الجبهة الغربية . وعاد الالمان فنصبوا كوزلنغ رئيساً للوزراء في عام ١٩٤٢ ، وعلى الرغم من ان الشعب النرويجي ظل على كراهيته الشديدة له ، الا ان سادته الالمان لم يمنحوه السلطة مطلقاً على الرغم من مساعيهم الكبرى لارضائهم وخدمتهم .

وقد حوكم كوزلنغ في نهاية الحرب بتهمة الخيانة العظمى ، وأدين بعد محاكمة طويلة ومجيدة ، وقضي عليه بالاعدام الذي نفذ فيه في الرابع والعشرين من تشرين الاول عام ١٩٤٥ . وأثر تر بوفين الموت علي ان يقع اسير في ايدي الحلفاء . وحوكم نوت هامسون الكاتب القصصي النرويجي العظيم بتهمة الخيانة العظمى لتماونه الصريح مع الالمان والاشادة بهم وكيل المديح لهم ، ولكن القضاء برأ ساحته نظراً لشيخوخته وما اصابه من خرف . ولكنه حوكم بتهمة (استغلال العهد النازي) وأدين وقضت عليه المحكمة بدفع غرامة قدرها (٦٥) الف دولار . وقد توفي في التاسع عشر من شباط عام ١٩٥٢ وهو في الثالثة والتسعين من عمره . وحوكم الفريق فون فاكلنهورست كمجرم حرب =

الفريق الكاملة، ومنحته ارفع الأوسمة ، ونعته هتلر بلقب « بطل نارفيك » .

* * *

ولقد واجه الفوهرر على الرغم من انتصاراته المدهشة لحظات عصيبة إبان الحملة النرويجية . وتحشد يوميات يودل ، بفقرات رائعة في صياغتها تتحدث عن السلسلة المتعاقبة من الأزمات العصبية التي مرّ بها سيد الحرب . فقد دوّن في الرابع عشر من نيسان يقول ان الفوهرر اصيب « بنوبة عصبية فظيعة » لدى تلقيه الأنباء بإزالة القوات البحرية الألمانية في نارفيك من الوجود . وطلب ان تجلّى قوات الفريق دايتل من منطقة نارفيك بطريق الجو ، وهو أمر مستحيل . ودوّن يودل في يوميته لذلك اليوم ايضاً « ان كل مجموعة من الأنباء السيئة تؤدي الى أسوأ المخاوف في نفس الفوهرر » وعاد بعد يومين يقول : « تجددت الأزمة . فشلت الاجراءات السياسية . استدعي الوزير بروير . ويقول الفوهرر ان القوة يجب ان تستخدم ... »^(١) واحتد النقاش في الاجتماعات التي عقدت في دار المستشارية في برلين في ذلك اليوم التاسع عشر من نيسان ، وأخذ رؤساء الفروع الثلاثة للقوات المسلحة يتبادلون التهم في موضوع الابطاء في العمليات العسكرية الى الحد الذي اضطر معه كايتل الجبان الى الخروج من الغرفة . و اضاف في يوميته بتاريخ الثاني والعشرين من نيسان يقول : « يشعر الفوهرر بقلق متزايد من النزول البريطاني في النرويج » .

وادى البطء في تقدم القوات الألمانية المتجهة من اوسلو الى الشمال نحو

= امام محكمة عسكرية بريطانية - نرويجية مختلطة، بتهمة تسليم بعض فدائيي الحلفاء الذين وقعوا في أسرهم الى الحرس النازي لاعدائهم . وقد حكم عليه بالاعدام في الثاني من آب عام ١٩٤٦ ولكن الحكم ما لبث ان خفف الى السجن مدى الحياة .

١ - قام الفريق فون فاكلمنهورست في الثالث عشر من نيسان ، تلبية لامر هتلر حتماً ، الذي كان في أوج غضبه بسبب المقاومة النرويجية بتوقيع أمر يقضي باعتقال عشرين من كبار رجال النرويج البارزين كرهائن ، بينهم المطران بيرغراف وبأل بيرغ . وكان من الغم ، على حد تمثيل الوزير الألماني المفوض بروير (اعدام هؤلاء في حالة استمرار المقاومة او محاولة القيام بأي عمل من اعمال التدمير) . وثائق وزارة الخارجية الألمانية ، (٩ ص ١٨٦) .

تروندهايم واندالسنس ، الى ازدياد موجة « الحماس والهياج » في الثالث والعشرين من نيسان ، على حد تعبير يودل ، ولكن عادت الانباء فتحسنت في اليوم التالي ، ثم تابعت اثراتها اعتباراً من ذلك اليوم . وكان سيد الحرب قد بات في السادس والعشرين من نيسان في وضع مرخ رائع ، حتى انه في الساعة الثالثة والنصف من صباح ذلك اليوم ، وبعد جلسة استمرت طيلة الليل مع مستشاريه العسكريين ، راح يعلن لهم انه يعتزم البدء بالعملية « الصفراء » بين الاول من ايار والسابع منه . وكان هذا الاسم الرمزي قد اطلق على الهجوم الكبير في الغرب عبر هولندة وبلجيكا . وعلى الرغم من ان القلق على تروندهايم قد عاود هتار في التاسع والعشرين من نيسان إلا انه ما لبث في اليوم التالي ان « غمره الفرح » بعد ان وصلته الانباء بأن جماعة مقاتلة من اوسلو قد وصلت الى المدينة . وبات في وسعه الآن ان يركز جميع اهتمامه في الجهة الغربية . واصدر في الأول من ايار أمره بأن تكون الاستعدادات كاملة قبل الخامس من ايار للهجوم في الغرب .

وقد ذاق قادة القوات الالمانية المسلحة من امثال غورنغ وبراوختش وهولدر وكايتل ويودل وريدر والبقية ، لأول مرة وإبان الحملة النروجية ما يصيب زعيمهم المجنون من انهيار ، لدى وقوع اية نكسات مهما كانت ضئيلة في المعركة . وكان هذا ضعفاً في الزعيم ما لبث ان نما معه ، عندما تحول تيار الحرب بعد سلسلة من الانتصارات العسكرية المذهلة ، وكان عاملاً مهماً اسهم اسهاماً قوياً في التصدع النهائي الذي اصاب الرايخ الثالث .

ولكن مهما كان الشكل الذي يرى فيه المرء هذه الصورة ، فان السرعة التي تم فيها احتلال الدانمارك والنرويج كان نصراً مهماً لهتلر ، وهزيمة مثبطة للعزائم بالنسبة الى البريطانيين . فقد أمن هذا النصر لهتلر طريق الحديد في الشتاء ، وضمن حماية اضافية لمدخل بحر البلطيق ، وسمح للأسطول الألماني الجريء ، باختراق الحصار الى شمال الأطلسي ، وسمح للألمان بموانئ ممتازة تستخدمها الغواصات والسفن الحربية الأخرى في حربها البحرية ضد بريطانيا . وزود هذا

النصر هتلر بقواعد جوية تقربه مئات الأميال من العدو بالنسبة الى قواعده
الاصلية . ولعل اهم نتيجة لهذا النصر انه ضاعف من سمعة الرايخ الثالث
العسكرية واطعف بالتالي سمعة الحلفاء الغربيين . وبدأت المانيا النازية في عيون
الناس وكأنها الدولة التي لا تقهر . فقد اذعنت النمسا وتشيكوسلوفاكيا
وبولندة ، والدانمارك والنرويج بسهولة لسيطرة هتلر ، او لتهديده باستعمال قوته ،
وبدت مساعدة الدولتين الغربيتين الكبيرتين ، كما وقع في النرويج مثلاً ، وكأنها
ليست كبيرة النفع أو ذات جدوى وبدأ ان موجة المستقبل ، كما كتبت سيدة
امريكية بارزة ، ملك هتلر والنازية .

وكان فتح هتلر الاخير بالنسبة الى ما تبقى من الدول المحايدة عبرة مرعبة .
وبدا من الواضح ان الحياد لا يؤمن الحماية للدول الديموقراطية الصغيرة التي
تحاول البقاء في عالم تسيطر عليه الانظمة الجماعية . وقد اكتشفت فنلندة هذه
الحقيقة ، وجاء الآن دور النرويج والدانمارك . وكان على هذه الدول ان تلوم
نفسها لأنها كانت عمياء البصيرة ، ولأنها رفضت ان تقبل في الوقت المناسب
وقبل ان يقع العدوان الفعلي العون من الدول الكبيرة الصديقة .

ولقد سمعنا تشرشل يقول في مجلس العموم في الحادي عشر من نيسان :

« واني لو اتق من ان الدول ستفكر تفكيراً عميقاً في
هذه الحقيقة ، اذ انها قد تتعرض غداً او بعد اسبوع أو بعد شهر ،
الى ان تغدو فريسة لخطة مدروسة درساً كاملاً وضعتها هيئة اركان
حرب متقنة ، لتدميرها واستعبادها » (١)

ومن الواضح ان تشرشل كان يفكر في كل من هولندة وبلجيكا عندما قال
قوله هذا ، على الرغم من ان المانيا شاءت ان تفسح لهاتين الدولتين نعمة الراحة
لمدة شهر آخر ، ولكنهما لم تكونا مطلقاً تفكر ان هذا التفكير (٢) .

١ - تشرشل - مذكرات - الجزء الاول - ص ٦٠١ .

٢ - وجد السويدون أنفسهم بين روسيا في فنلندة ودول البلطيق ، وبين المانيا التي تسيطر على
جارتهم النرويج والدانمارك ، فكروا طويلاً وقرروا ان لامناص لهم من التمسك بمبادئهم الغريب =

وكانت هناك دروس عسكرية يجب تعلمها من فتح هتلر الخاطف للدولتين الاسكندنافيتين . ولعل ابرز هذه الدروس ، اهمية السيطرة الجوية وتفوقها على القوات البحرية عندما تكون القواعد البرية للقاذفات والمقاتلات قريبة من ميادين القتال . ولعل الدرس الثاني الذي لا يقل اهمية عن سابقه هو الدرس القديم القائل بأن النصر يكون دائماً حليف الجريء ، والواسع الخيال . وكان الاسطول والسلاح الجوي الالمانيان يتميزان بهاتين الصفتين معاً ، كما ابدى دايتل في نارفيك ما يتميز به الجيش الألماني من دهاء وسعة حيلة تفتقر اليها جيوش الحلفاء كل الافتقار .

وكانت ثمة ثمرة عسكرية للمغامرة النرويجية لم يكن في الامكان تقدير قيمتها

= وان يؤتوا وهم يقاثلون اذا تعرضوا للهجوم . وكانوا قد ارضوا الاتحاد السوفياتي بعدم السماح لقوات الحلفاء بعبور فنلندا ، وهامهم يحاولون الآن ترضية المانيا بعد ان تعرضوا لضغطها الشديد . وعلى الرغم من ان السويد كانت قد بعثت بكميات كبيرة من السلاح الى فنلندا الا انها رفضت ان تبسح السلاح أو حتى الوقود للتروج عندما هوجمت . وظل الالمان طيلة شهر نيسان يطلبون من السويد السماح لهم بنقل قواتهم الى نارفيك لنجدة الفريق دايتل ، ولكنها رفضت السماح لهم بذلك حتى انتهاء العمليات الحربية ، عل الرغم من سماحها لنطار يقل بعثة طبية وبعض المواد بالعبور في اراضيها . وادعت السويد في التاسع عشر من حزيران لضغط هتلر بخافة تعرضها لهجومه المباشر ، ووافقت على السماح بنقل القوات النازية والمعدات الحربية الى التروج على خطوطها الحديدية ، شريطة ان يكون عدد القوات المرسلة الى التروج موازياً الى التي تنقل في طريق العودة الى المانيا ، وذلك لضمان عدم تعزيز الحاميات الالمانية في التروج عن طريق هذا الترتيب .

وكان هذا المؤن كبيراً لألمانيا . فقد وفر سماح السويد لهتلر بنقل القوات الجديدة والمعدات الحربية بطريق البر الى التروج ، عليه تمرير هذه القوات والمعدات لخطر الفرق على ايدي البريطانيين . وتم في الستة اشهر الاولى من هذا الاتفاق تبادل نحو من (١٤٠) الف جندي الماني في التروج كما تم تعزيز هذه القوات بكميات كبيرة من المؤن والمعدات . وقبل بدء الهجوم الألماني الكاسح على روسيا ، سمحت السويد للقيادة العليا الالمانية بنقل فرقة عسكرية كاملة من التروج عبر اراضيها الى فنلندا لاستخدامها في الهجوم على الاتحاد السوفياتي . وهكذا فقد سمحت لألمانيا الآن بما ضنت به على الحلفاء في السنة السابقة . وفي وسع القاري للحصول على تفاصيل الضغط الألماني على السويد ونصوص الرسائل المتبادلة بين الملك غوستاف وبين هتلر ، ان يراجع كتاب « وثائق عن السياسة الخارجية الالمانية (٩) » . وقد بحث المؤلف في هذا الموضوع بحثاً وافياً في كتابه « تحدي اسكندنافيا » .

فوراً ، وذلك بسبب عدم التمكن من النظر بعيداً الى المستقبل . وكانت خسائر
النريقين في النروج ضئيلة للغاية . فقد خسر الألمان ١٣١٧ قتيلاً و ٢٣٧٥ مفقوداً
و ١٦٠٤ من الجرحى ، وبلغ بذلك مجموع الخسائر (٥٢٩٦) ، بينما بلغت خسائر
النروجيين والفرنسيين والبريطانيين أقل من خمسة آلاف . وخسر البريطانيون
حاملة طائرات وطراداً وسبع مدمرات كما خسر كل من البولنديين والفرنسيين
مدمرة واحدة اما خسائر الالمان البحرية فكانت اضخم نسبياً ، اذ فقدوا عشر
مدمرات من مجموع عشرين يملكونها ، وثلاثة طرادات من مجموع ثمانية ، كما أصيبت
البارجتان - الطرادان شارنهورست وغفيزنار وبارجة الجيب لوتيزاو بأضرار
ثقيلة للغاية حتى انها ظلت عاطلة عن العمل عدة اشهر . ولم يكن لدى هتلر
اسطول يستحق الذكر بالنسبة الى احداث الصيف المقبلة . وعندما حان الوقت
لفزو بريطانيا ، وهو ما وقع فعلاً بعد وقت قصير ، ثبت ان هذه الحقيقة تؤلف
عقبة لا يمكن تذليلها .

ولم تخطر ببال هتلر قط في بداية شهر ايار النتائج المحتملة لهذا الشلل العنيف
الذي اصاب الاسطول الألماني . فقد اضاف الدانيمارك والنروج الى قائمة فتوحاته
الطويلة ، واخذ يعمل مع قادته العسكريين المتلهفين ، بعد ان تخلوا الآن عن
كل ما كان لديهم من شكوك في الخريف المنصرم ، في اعداد آخر الاستعدادات
للفتح الذي كانوا على ثقة من انه سيكون اضخم فتوحاتهم واعظمها كلها .

النصر في الغرب

استدعى سفير بلجيكا في برلين وزير هولندا المفوض فيها بعد فجر العاشر من ايار عام ١٩٤٠، وكان يوماً من ايام الربيع المشرقة الى وزارة الخارجية الألمانية الوليلهمشتراسة ، حيث ابلغها رينتروب ان الجيوش الألمانية بدأت تدخل بلاديهما لضمان حيادهما تجاه هجوم متوقع من الجيوش الانكليزية - الفرنسية . وكان هذا المبرر الزائف هو عين المبرر الذي اعتمد عليه هتلر قبل نحو من شهر لغزو الدانمارك والنرويج . وطلب الانذار الألماني الرسمي الذي وجه اليهما من حكومتيهما ، ان تضمننا عدم ابداء اية مقاومة . واضاف انه في حالة وقوع أية مقاومة ، فستسحق بكل الوسائل ، وستقع مسؤولية سفك الدماء بصورة كاملة على الحكومتين الملكيتين البلجيكية والهولندية .

وشق المبعوثان الألمانيان في بروكسل ولاهاي ، كما فعل زميلاهما في كوبنهاغن واوسلو قبل نحو شهر ، طريقهما الى وزارتي خارجية البلدين يحملان رسالتين مماثلتين . ولعل من سخرية الاقدار ان حامل الانذار من لاهاي ، كان الكونت جوليوس فون زيخ-بيركسرودا الوزير الألماني المفوض ، وهو صهر بيتمان-هولوينغ ، مستشار القيصر غليوم الذي اعلن في عام ١٩١٤ ، ان ضمانه المانيا لحياذ بلجيكا الذي خرقة حكومة الهوهنزولرن آنذاك ، لم

يكن اكثر من مجرد « قصاصة من الورق » .

وبينا كانت القاذفات الالمانية تهدر بدويها في السماء فوق بروكسل ، وكان صوت انفجار القنابل التي تقذف بها على المطارات القريبة يهز النوافذ هزاً ، شرع سفير المانيا في بروكسل بيولو - شواني ، يخرج من جيبه مغلفاً في وزارة الخارجية البلجيكية ، ليقدمه الى وزيرها ، واذا بالوزير بول هنري سباك يوقفه قائلاً .. « استميتك العذر يا سيدي السفير ، فأنا اريد الكلام أولاً » . ومضى الوزير البلجيكي يقول وهو لا يحاول إخفاء مشاعر الغضب المسيطرة عليه :

« لقد بدأ الجيش الالماني بمهاجمة بلادنا . وهذه هي المرة الثانية في غضون خمسة وعشرين عاماً ، تقترف فيها المانيا عدواناً اجرامياً على بلجيكا المحايدة والمخلصة لحيادها . ولعل ما حدث الآن يفوق ما حدث في عام ١٩١٤ . فلم تتسلم الحكومة التروجية حتى هذه اللحظة اي انذار أو مذكرة أو احتجاج من أي نوع . ولم تعرف بلجيكا ، بأن المانيا قد نقضت العهد التي قطعتها على نفسها إلا عن طريق الهجوم الذي وقع فعلاً ... وسيحكم التاريخ على ان الرايخ الالماني هو المسؤول أولاً واخيراً . أما بلجيكا ، فانها عازمة على الدفاع عن نفسها . »

وشرع الدبلوماسي الالماني الذي وجد نفسه اثر ذلك في موقف حرج يتلو الانذار الالماني الرسمي ، فقاطعه سباك قائلاً ... « سلمني الوثيقة ... اني أود ان أوفر عليك هذه المهمة الشاقة (١) . »

وكان الرايخ الثالث قد قدم الى هاتين « الدولتين المنخفضتين » ضمانات لا عد لها ولا حصر لحيادهما . فقد كانت الدول الأوروبية الكبرى الخمس ، قد قدمت في عام ١٨٣٩ ضمانات « دائمة » لاستقلال بلجيكا وحيادها ، وظل هذا الميثاق محترماً وقائماً حتى عام ١٩١٤ عندما خرقة المانيا في عام ١٩١٤ .

١ - بلجيكا - الوصف الرسمي لما حدث ١٩٣٩ - ١٩٤٠ ص ٢٧ - ٢٩ .

وتمهدت جمهورية ويمار الالمانية بأن لا تحمل السلاح قط ضد بلجيكا ، وقد عاد هتلر بعد وصوله الى الحكم الى تأكيد هذه السياسة باستمرار ، وقدم ضمانات مماثلة الى هولندا . وسبق للمستشار النازي أن اعلن في الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٣٧ ، وبعد إلغائه ميثاق لوكارنو ما يلي :

« ولقد قدمت الحكومة الالمانية تأكيدها الى بلجيكا وهولندا ، بأنها على استعداد للاعتراف بحيادهما . وحصانتها من الانتهاك ، وضمان هذا الحياد وتلك الحصانة » .

وأحست بلجيكا بخوف من عودة الرايخ الثالث الى التسليح ، واستعادة منطقة الراين في ربيع عام ١٩٣٦ ، فتخلت عن السياسة التي اتبعتها بحكمة بعد عام ١٩١٨ ، وهي السياسة البعيدة عن الحياد ، وعادت الى التمسك به من جديد طمعاً منها بأن يحميها . وقامت بريطانيا وفرنسا في الرابع والعشرين من نيسان عام ١٩٣٧ ، بتحريرها من التزاماتها بموجب ميثاق لوكارنو ، وعادت ألمانيا في الثالث عشر من تشرين الاول من العام نفسه الى التأكيد بصورة رسمية ...

« بأنها تعترم عزمًا قاطعاً وأكيداً ، على عدم المساس ، مهما كانت الظروف بسلامة بلجيكا وكيانها وحصانتها على الانتهاك ، وبأنها ستحترم في جميع الاوقات الاراضي البلجيكية ، وستساعد في حالة تعرضها لأي هجوم ... »

ولكن بدأ منذ ذلك اليوم ، التناقض في فكرة هتلر تجاه حياد هاتين الدولتين - بلجيكا وهولندا يظهر بشكل ملحوظ في تأكيداتهما وفي احاديثه الخاصة مع قادته العسكريين . ففي الرابع والعشرين من آب عام ١٩٣٧ ، تحدث عندما قدمت اليه بعض الاوراق المتعلقة بالعملية الخضراء ، وهي العملية التي تتناول الهجوم على تشيكوسلوفاكيا ، عن المزايا العظيمة التي يمكن لألمانيا الحصول عليها اذا ما احتلت بلجيكا وهولندا ، وزاح يسأل الجيش عن رأيه في الاوضاع التي يمكن ان يتم فيها احتلال هذه المنطقة وعن الزمن الذي

تستغرقه عملية الاحتلال ، ولكنه في الثامن والعشرين من نيسان عام ١٩٣٩ ، عاد يؤكد لروزفلت في رده عليه « البيانات الملزمة » التي سبق له ان قدمها الى الى هولندية وبلجيكا وغيرهما من الدول . ولم يمض شهر واحد على هذا التأكيد ، حتى كان يقول لقادته العسكريين في الثالث والعشرين من ايار ، كما رويننا من قبل ، ان « من الواجب احتلال القواعد الجوية الهولندية والبلجيكية بالقوات المسلحة ، بسرعة البرق الخاطف ، وان من الواجب تجاهل بيانات الحياد » . ولم يكن قد شرع في حربه هذه ، حتى كانت خططه العسكرية قد باتت جاهزة . وكان في الثاني والعشرين من آب ، أي قبل اسبوع واحد من شنه الحرب بالهجوم على بولندية قد تشاور مع قادته العسكريين في موضوع « احتمال » خرق حياد بلجيكا وهولندية . وأضاف قائلاً : « لن تقوم انكلترا وفرنسا بحرق حياد هاتين الدولتين » وأصدر بعد اربعة ايام أي في السادس والعشرين من آب أوامره الى مبعوثيه في بروكسل ولاهاي ببلاغ حكومتها بأن المانيا لن تمس بأي حال من الاحوال اذا ما نشبت الحرب ، حصانة هولندية وبلجيكا على الانتهاك » . وعاد يكرر هذا التأكيد بصورة علنية في السادس من تشرين الاول بعد انتهاء الحملة البولندية . واصدر الفريق فون براوخيتش في اليوم التالي أي في السابع من تشرين الأول أوامره الى قادة مجموعات الجيوش بإيعاز من هتلر طبعاً ...

« بأن يقوموا بجميع الاعدادات اللازمة للقيام بهجوم فوري على الاراضي الهولندية والبلجيكية ، اذا تطلبت الاوضاع السياسية هذا الهجوم ^(١) . »

واصدر هتلر بعد يومين ، في توجيهه السادس بتاريخ التاسع من تشرين أوامره ...

« باتخاذ الأبهة الكاملة لعملية هجومية عبر اللوكسمبورج

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ١٠٣٧ .

وهولندة وبلجيكا. ويجب تنفيذ هذا الهجوم في اسرع وقت ممكن، وبأقصى ما يمكن من قوة... وهدف هذا الهجوم الحصول على منطقة واسعة من أراضي هولندة وبلجيكا وفرنسا الشالية (١)».

وبالطبع لم يكن البلجيكيون والهولنديون على علم بأمر هتلر السرية، ومع ذلك فقد تلقوا تحذيرات عما تخبؤه الاقدار لهم. وسبق لنا ان بينا عدداً من هذه التحذيرات، وقلنا ان العقيد اوستر، وهو من كبار المتآمرين ضد النازية انذر الملحقين العسكريين البلجيكي والهولندي في برلين في الخامس من تشرين الثاني، بأن يتوقعا هجوماً المانياً في الثاني عشر من الشهر نفسه وهو الموعد المقرر للهجوم. ومضى غويردلر في نهاية تشرين الاول - وهو احد المتآمرين ايضاً - الى بروكسل بتحريض من وايز ساكر، لتحذير البلجيكيين من الهجوم المتوقع في كل لحظة. وسبق لنا ان قلنا ايضاً ان الخطة الالمانية الكاملة للهجوم في الغرب، قد وقعت في العاشر من كانون الثاني عام ١٩٤٠ في أيدي البلجيكيين، عندما اضطر ضابط الماني كان يحملها الى النزول بطائرته في الاراضي البلجيكية.

وكانت هيئتا اركان الحرب في هولندة وبلجيكا قد عرفتاً من مخبراتها على الحدود بأن الالمان يحشدون نحواً من خمسين فرقة على حدود بلاديهما. واتيح لهما الانتفاع من مصدر ممتاز للمعلومات في العاصمة الالمانية. وهو العقيد جي. جي ساس الملحق العسكري الهولندي في برلين. وكان هذا الرجل صديقاً حميماً للعقيد اوستر وكثيراً ما تناول معه العشاء في منزل الاخير في ضاحية زيليندروف المنعزلة الهادئة. وكان من السهل بعد نشوب الحرب عند مثل هذه الاجتماعات بسبب « التعميم » الذي مكن الكثيرين من الاشخاص في ذلك الحين في برلين، من ألمان وأجانب، من القيام بمختلف الاعمال « الهدامة والمناوئة للعهد » دون الخوف من اكتشاف امرهم. وكان اوستر قد أبلغ ساس هذا في

مطلع شهر تشرين الثاني نبأ الهجوم الألماني المقرر في الثاني عشر من تشرين الثاني. ثم عاد الى تحذيره من جديد في مطلع شهر كانون الثاني . ولا ريب في ان عدم وقوع الهجوم في كل من التاريخين اللذين حددهما ساس ، قد اضعف الثقة باقواله في لاهاي وبروكسل ، لا سيما وان العاصمتين كانتا تجهلان الحقيقة الواقعة وهي ان هتلر قد حدد بالفعل هذين التاريخين لهجومه ثم عاد فأجله لأسباب مختلفة . لكن التحذير الذي تلقاه ساس من اوستر قبل عشرة ايام ، عن غزو النرويج والدانمارك ، وتحديده الموعد الدقيق لهذا الهجوم ، قد أعاد للمحقق الهولندي المكانة التي كانت له في بلاده .

ونقل اوستر في الثالث من ايار بصراحة الى ساس ان الهجوم الألماني في الغرب سيقع في العاشر منه عبر هولندية وبلجيكا ، وقام هذا بدوره بنقل النبأ الى حكومته فوراً . وتلقت لاهاي تأييداً لهذا النبأ في اليوم التالي من الفاتيكان . وتولى الهولنديون نقل المعلومات بدورهم فوراً الى البلجيكيين . وكان الخامس من ايار من ايام الآحاد ، وعندما بدأ الاسبوع الجديد ، اتضح وضوحاً جلياً لكل من كان في برلين ان الضربة في الغرب ، ستقع في غضون بضعة ايام . واشتد التوتر في العاصمة . ولم يكذب محل الثامن من ايار ، حتى كنت ابرق الى مكتبنا في نيويورك ، بأن يوقف احد مراسلينا في امستردام ، بدلا من ايفاده بجرأ الى النرويج ، حيث كانت الحرب قد انتهت على أي حال ، وسمح لي المراقبون العسكريون في تلك الليلة بأن أشير في اذاعي الى اقتراب موعد الهجوم في الغرب ، وبأن هذا الهجوم سيشمل هولندية وبلجيكا .

وتناول اوستر وساس عشية التاسع من ايار العشاء لآخر مرة . وأكد الضابط الألماني لصديقه ان الأمر الأخير بالهجوم في الغرب ، قد صدر وانه سيقع في فجر اليوم التالي ، وان القيادة العليا للقوات المسلحة في الولهلمستراسه قد أيدت له ذلك ، عندما مر بها اليوم للتثبت من عدم وجود أي تغيير في الخطة العسكرية وتوقيتها . وقال اوستر لضيفه ساس : « لقد تحول الخنزير الى الجبهة الغربية » ، وهو يقصد « هتلر » بالخنزير طبعاً . وتولى ساس نقل النبأ الى

الملحق العسكري البلجيكي ، ثم مضى الى مفوضيته حيث سجل طلباً هاتفياً الى لاهاي . وكان الملحق قد أعد رموزاً خاصة لمثل هذه المناسبة ، وراح يقول لقيادته في لاهاي عبارات لا ضمير فيها تتضمن الرسالة التالية : « غداً عند الفجر . استعدوا (١) . »

ومن الغريب كل الغرابة ، ان الدولتين الكبيرتين في الغرب ، أي بريطانيا وفرنسا ، قد بوغمتا بالهجوم وهما نائمتان تغطان في سبات عميق . ولم تكثرث هيئتا أركان الحرب فيهما بالتقارير العسكرية الواردة من بروكسل ولاهاي : وانشغلت لندن نفسها في ذلك الوقت . بأزمة وزارية استغرقت ثلاثة ايام ثم حلت عشية العاشر من ايار ، بحلول تشرشل محل تشمبرلين في رئاسة الوزارة . وكان أول ما سمعه مقر قيادتي القوات الفرنسية والبريطانية عن الهجوم الألماني ، هو هدير القاذفات الألمانية وهي تقطع هدوء الساعات التي سبقت فجر ذلك اليوم من أيام الربيع . وعويل طائرات الانقضاض من طراز شوكا . وهي تظهر في السماء ، ليعقبها بعد انبلاج الفجر ، سيل من النداءات المحمومة من هولندا وبلجيكا تطلب المساعدة ، بعد ان كانت قد أبقت قوات الحلفاء على بعد ذراع منها مدة ثمانية أشهر دون أن تكلف نفسها عناء تنسيق خطط الدفاع المشترك معها .

ومضت رغم ذلك ، خطة الحلفاء في مواجهة الهجوم الألماني في بلجيكا في اليومين الأولين بدقة ونظام دون أي تبدل أو صعوبة ، فلقد سارع جيش انكليزي - فرنسي ضخيم باتجاه الشمال الغربي من الحدود الفرنسية - البلجيكية ، لتعزيز خط الدفاع البلجيكي الرئيسي على طول نهري دايبل والموز إلى الشرق من بروكسل . وكان هذا هو ما تريده القيادة العليا الألمانية تماماً كما ثبت ذلك فيما بعد ، إذ أن هذه الحركة الضخمة التي قام بها الحلفاء قد اتفقت مع خطة القيادة

١ - آلين دالاس - الحركة السرية في ألمانيا ص ٥٨ - ٦١ . ويقول دالاس ان العقيد ساس قد أكد له هذه الرواية شخصياً بعد انتهاء الحرب

الألمانية تمام الاتفاق . وهكذا سارعت الجيوش الانكليزية الفرنسية الى الوقوع في الشرك الذي وضعته لها القيادة الألمانية ، وعندما اطبق هذا الشرك ، كان مفجعاً في نتائجه كل الفجعة .

الخطط المتقابلة

وقع تبدل جذري في الخطة الألمانية الأصلية للهجوم في الغرب ، بعد وقوعها في ايدي البلجيكيين كما سبق لنا ان رأينا ، وفي ايدي الفرنسيين والبريطانيين كما توقع الألمان في شهر كانون الثاني . وكانت القيادة العليا للجيش الألماني قد اعدت بأمر من هتلر وتحت ضغطه وإلحافه خطة الهجوم في الغرب على ان يقع في أواسط تشرين الثاني بسرعة فائقة في خريف عام ١٩٣٩ ، وهي الخطة التي اطلق عليها اسم « الحالة الصفراء » . وهناك خلاف في الرأي بين المؤرخين العسكريين وبين « الجنرالات » الألمان انفسهم ، حول ما اذا كانت هذه الخطة الأولى ، صورة معدلة لخطة شلايفن القديمة أو لا . وكان من رأي هولدر وغودريان انها صورة معدلة للخطة الأولى . وكانت تقضي بوقوع الزحف الألماني الأصلي من الجناح الأيمن عبر بلجيكا وشمال فرنسا ، وتهدف الى احتلال موانئ بحر المانش . وكانت هذه الخطة تقلّ بعض الشيء عن خطة شلايفن المشهورة ، التي فاتها النجاح بصورة غريبة في عام ١٩١٤ ، والتي لم تهدف فقط الى احتلال موانئ القناة الانكليزية وحدها ، بل هدفت ايضاً الى المضي في الحركة الالتفافية الضخمة ، التي تحمل الجناح الأيمن للزحف الألماني عبر بلجيكا وشمال فرنسا ، وعبر نهر السين ، لتتجه شرقاً بعد ذلك الى الجنوب من باريس مطوقة ما تبقى من القوات الفرنسية ومحطمة اياها وكان الهدف منها ايضاً وضع نهاية سريعة للمقاومة الفرنسية المسلحة ، لتمكن المانيا في نفس العام - أي عام ١٩١٤ من الاستدارة نحو روسيا بكل ما لديها من قوة عسكرية جبارة .

لكن هتلر لم يكن بحاجة في عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ الى القلق من وجود جبهة

روسية . فلقد كان هدفه على أي حال أكثر محديدا . ولقد وضع خطته هذه المرة للمرحلة الأولى من الحملة ، على أساس دفع الجيش الفرنسي الى الوراء بدلاً من توجيه ضربة قباضية اليه ، واحتلال ساحل المانش ، ليعزل بذلك بريطانيا عن حليفها ، وليضمن لنفسه في عين الوقت قواعد جوية وبحرية يستطيع ان يفرض عن طريقها الحصار على الجزر البريطانية وان يكيل لها الضربات القاتلة . وقد اتضح من احاديثه العديدة الى قادته العسكريين في هذا الوقت انه كان يعتقد بأن بريطانيا وفرنسا ستميلان بعد هذه الهزيمة الى عقد الصلح ، والى السماح له بتوجيه اهتمامه من جديد الى الجبهة الشرقية .

وكانت القيادة العليا للحلفاء قد توقعت حتى قبل وقوع الخطة الأصلية « للعملية الصفراء » في أيدي الحلفاء ، مثل هذه الخطة من جانب الألمان وكان مجلس الحلفاء الحربي الأعلى قد اتخذ في السابع عشر من تشرين الثاني عند انعقاده في باريس « الخطة د » التي تقضي في حالة هجوم الألمان عبر بلجيكا ، باندفاع الجيشين الفرنسيين الأول والتاسع والحملة البريطانية في فرنسا إلى الأمام الى خط الدفاع البلجيكي الرئيسي على نهري داييل والموز ، من انتويرب عبر لوفان ونامور وجيفيت الى ميزير . وكانت هيئتا اركان الحرب البريطانية والفرنسية بعد عدة اجتماعات سرية عقدتها مع القيادة العليا البلجيكية قد تلقيا منذ بضعة ايام تأكيدات قاطعة من البلجيكيين بأن يعززوا خطوطهم الدفاعية هناك وان يصمدوا فيها صمودهم الرئيسي . ولكن البلجيكيين وكانوا لا يزالون يتعلقون بأوهام الحياد وخيالاته ، وهي الأوهام التي عززت أملهم في اجتناب التورط في الحرب ، لم يكونوا راغبين في المضي الى أبعد من ذلك . وكان من رأي رؤساء اركان الحرب البريطانيين ، ان المجال لن يتسع امامهم لنشر قوات الحلفاء على هذه المسافة البعيدة في حالة هجوم الألمان ، ولكنهم اضطروا الى السير وفق الخطة « د » تحت ضغط الفريق غاملان والحافه .

واضاف الحلفاء في نهاية تشرين الثاني خطة تقضي بدفع الجيش الفرنسي السابع الذي يقوده الجنرال هنري جيرو الى ساحل القناة ، لمساعدة الهولنديين الى الشمال

من انتويرب في حالة تعرض هولنده الى الهجوم ايضاً . وهكذا اصبح من المحتم ان تواجه أية محاولة المانية لاجتياح بلجيكا - وهولنده على سبيل الاحتمال ايضاً - والالتفاف حول خط ماجينو ، في مراحلها الاولى ، قوات الحملة البريطانية كلها ، وغالبية الجيش الفرنسي واثنين وعشرين فرقة بلجيكية وعشر فرق هولندية ، وبذلك تكون جيوش الحلفاء مكافئة من ناحية عددها لقوات الالمان .

واقترح الفريق فون مانشتاين (اسمه الأصلي لوينسكي) ، رئيس اركان حرب مجموعة الجيوش (P) التي يقودها رونشتادت في الجبهة الغربية لتجنب هذا الصدام العنيف ولإقامة شرك للجيوش البريطانية والفرنسية التي ستسرع في زحفها ، تعديلاً جذرياً في « العملية الصفراء » . وكان مانشتاين هذا ضابط ركن موهوب وواسع الافق والخيال ، وقد أفلح رغم صغر رتبته بالنسبة الى القيادة الآخرين في ايصال فكرته الجريئة الى هتلر إبان الشتاء ، على الرغم من معارضة براوخيتش وهولدر وعدد من كبار « الفرقاء » العسكريين الاولية . ويقضي اقتراح مانشتاين بأن يشن الهجوم الالماني الرئيسي في الوسط عبر الاردن بحشد هائل من القوات المدرعة التي يمكنها آنذاك ان تعبر نهر الموز الى الشمال من سيدان وان تخترق جبهة الحلفاء ، ولتنفذ الى الارض العراء لتغذ السير مسرعة الى القناة عند مدينة ابفيل .

واهتم هتلر الذي تستهويه المشاريع الجريئة وحتى المغامرة ، بخطة مانشتاين . وواصل رونشتاد الإحاف لقبول هذه الفكرة لا لمجرد ايمانه بها فحسب ، بل ولأنها ستتيح لمجموعة الجيوش التي يتولى قيادتها ، ان تلعب الدور الحاسم في الهجوم وعلى الرغم من كراهية هولدر الشخصية لمانشتاين ، ومن وجود نوازع الحسد المهني عند بعض القادة العسكريين الذين يعلمون هذا القائد رتبة ، مما أدى الى نقله من مركزه في رئاسة اركان حرب جيش الشمال الى قيادة فيلق المشاة في نهاية كانون الثاني ، إلا انه تمكن من الافصاح عن آرائه المتطرفة والتي تخالف القواعد العسكرية الى هتلر شخصياً في حفلة عشاء اقيمت في برلين في السابع عشر من شباط تكريناً لعدد من قادة الفيالق . وقال ان توجيه ضربة

من السلاح المدرع عبر الاردن سيصيب الحلفاء في اضعف نقطة لهم ، لا يتوقعون مجيء الضربة فيها ، اذ ان « فرقاءهم » العسكريين يعتبرون كمعظم القادة الالمان هذه المنطقة الجبلية التي تغطيها الغابات ، غير صالحة لحرب الدبابات . و اضاف ان تظاهر الجناح الايمن من قوات الالمان بالهجوم ، سيحمل الجيوش البريطانية والفرنسية على الاندفاع بسرعة نحو بلجيكا . وآنذاك يوجه الالمان ضربتهم في سيدان ، فيحطمون الفرنسيين ويتجهون غرباً على طول الضفة الشمالية لنهر السوم حتى يصلوا الى القنساء ، وبذلك يوقعون القوات الانكليزية - الفرنسية والجيش البلجيكي بأسره في الفخ الذي نصبوه .

وكانت الخطة جريئة ولكن لها مخاطرها ، كما أكد عدد من الفرقاء وبينهم بودل نفسه . ولكن هتلر وكان قد شرع يعتبر نفسه عبقرياً في فنون الحرب ، اعتقد عملياً ان هذه الفكرة فكرته ، ولذا فقد ازداد حماسه لها . وبدأ هولدر نفسه الذي كان قد اعتبرها في بداية الامر ، فكرة انسان مجنون ، يتبناها ايضاً ، وأضاف عليها بعض التحسينات مستعيناً بعدد من ضباط اركان حربه . وهكذا أقرت هذه الخطة رسمياً في الرابع والعشرين من شباط عام ١٩٤٠ و صدر بها توجيه جديد من القيادة العامة للقوات المسلحة ، و صدر الامر للقادة العسكريين بأن يعيدوا توزيع قواتهم ونشرها طبقاً لها اعتباراً من السابع من آذار ، وكانت خطة احتلال هولندا ، التي كانت قد اسقطت من العملية الصفراء عرضاً عند اعادة النظر فيها في التاسع والعشرين من تشرين الاول عام ١٩٣٩ ، قد اعيدت الى الخطة نفسها في الرابع عشر من تشرين الثاني بطلب من السلاح الجوي الالمانى ، الذي اراد ان يستخدم المطارات الهولندية ضد بريطانيا ، ولذا فقد قدم عدداً ضخماً من القوات التي تحملها الطائرات للاشتراك في هذه العملية الصغيرة والمعقدة في وقت واحد . وهكذا تقرر مصائر الشعوب الصغيرة احياناً على اساس مثل هذه الاعتبارات (١) .

١ - هناك مصادر عدة عن تطور الخطط الالمانية للهجوم في الغرب وفد افدت من المصادر =

وهكذا عندما اقتربت حملة النروج من نهايتها الظافرة، وعندما بدأت أخيراً أول أيام شهر ايار الدافئة ، وقف الجيش الالماني ، الذي كان اقوى ما عرفه العالم من جيوش حتى ذلك الوقت ، على استعداد ليوجه ضربته الهائلة في الغرب . وكانت القوتان من الناحية العددية متكافئتين ، فهناك (١٣٦) فرقة المانية تواجه (١٣٥) فرقة فرنسية وبريطانية وبلجيكية وهولندية . وكان المدافعون يتمتعون بمزية التحصينات الدفاعية ، المؤلفة من خط ماجينو الذي لا يمكن اختراقه في الجنوب ، والخط الهائل من القلاع البلجيكية في الوسط ، والخطوط المائية المنيعه الهولندية في الشمال . وكان عدد دبابات الحلفاء يضاھي ايضاً عدد دبابات الالمان ، ولكنهم لم يكونوا قد حشدوهم بصورة مركزة كالالمان . وادى انحراف الهولنديين والبلجيكين في اتجاه الحياذ ، الى عدم قيام مشاورات بين اركان الحرب ، لتجميع خطط المدافعين وتنسيقها ، وحشد مواردھم لضمان اكبر فائدة ممكنة . وكانت للألمان قيادة واحدة ، وكانوا يتميزون بأفضلية المهاجم ، كما لا يحسون بأي ندم أو شكوك تجاه العدوان ، وعندهم الثقة المطلقة بأنفسهم وبخططهم الجريئة . وقد خبروا الحرب وجربوها في بولنڈة . وهناك فحصوا اساليبهم واسلحتهم القتالية الجديدة ووضعوها في محك التجربة . وقد عرفوا قيمة طائرات الانقضاض وعرفوا ما يحقّقه استخدام الدبابات جماعياً من نتائج . وقد عرفوا ، ما سبق لهتلر ان اكده ، ان الفرنسيين

= التالية : يوميات هولدر ويودل وكتاب هولدر « هتلر كفائد ميدان » . ويوميات القيادة العامة الحربية كما نشرت في « المزامرة النازية والعدوان » و « محاكمات كبار مجرمي الحرب . وتوجيهات هتلر والقيادة العامة المتددة كما وردت في الجزئين الثامن والتاسع من وثائق وزارة الخارجية الالمانية . وكتاب مانشتاين « نصر صائع » وكتاب غوريلتر « تاريخ هيئة اركان الحرب الالمانية » وكتابه « الحرب العالمية الثانية » وكتاب جاكوبسين « وثائق عن الحوادث التمهيديّة للهجوم في الغرب » ، وكتاب غوردريان « قائد فرق الصاعقة » وكتاب بلومينترت « فون رونشتادت » وكتاب ليدل هارت « الفرقاء الالمان يتكلمون » وكتاب « مذكرات تشرشل » وايليس « الحرب في فرنسا والفلاندرز » ، وكتاب فولر « الحرب العالمية الثانية » وكتاب دريبر « حرب الاساييس الستة » وكتاب تيلغوردتيلور « زخف الفتح » .

على الرغم من دفاعهم عن تربتهم يفتقرون الى العزيمة للقتال ومواجهة ما يخبؤه
الغد لهم .

ولقد اظهرت الوثائق السرية المصادرة ان القيادة الألمانية العليا على الرغم من
ثقتها وتصميمها ، عانت من بعض لحظات الهلع عندما اقتربت ساعة الصفر ،
وان هتلر القائد الأعلى نفسه قد احس بالكثير من القلق . وقد دون الفريق
يودل جميع هذه اللحظات في يوميته . وقام هتلر بعدة تأجيلات في اللحظة
الاخيرة لموعده القفز الذي كان قد حدده في الأول من ايار . ليكون في الخامس
منه . ففي الثالث من ايار أمر هتلر بتأجيل الهجوم حتى السادس منه بسبب
حالة الطقس ، وقد يكون سبب هذا التأجيل ان وزارة الخارجية وجدت ان
مبرره المقترح لخرق حياد بلجيكا وهولندا ليس بالأمر الكافي أو المجدي وعاد
في اليوم التالي فأجله حتى السابع من آذار ، ثم كرر تأجيله من جديد حتى
يوم الاربعاء في الثامن منه . ودون يودل في يومياته يقول : « لقد اتم الفوهرر
العثور على المبررات اللازمة للعملية الصفراء » . وتوصل هتلر الى الاستنتاج بأن
من الواجب توجيه التهمة الى بلجيكا وهولندا بسلوك مسلك مخالف للحياد .
ومضى يودل يدون في يومياته :

« ٧ أيار — من المقرر ان يغادر قطار الفوهرر فينكنكروغ في
الساعة الرابعة والدقيقة الثامنة والثلاثين بعد الظهر . ولكن
الطقس ما زال على حاله ولهذا فإن أمر الهجوم سيؤجل . . .
ويبدو الفوهرر مضطرباً اشد الاضطراب من التأجيل الجديد اذ
ان ثمة خطراً بقيام خديعة وخيانة ، يوحي الحديث الذي دار بين
مبعوث بلجيكا الى الفاتيكان وبين بروكسل بالاستنتاج بأن خيانة
قد اقترفت ، وان القوائم بها شخصية المانية غادرت برلين الى رومة
في التاسع والعشرين من نيسان . . .

« ٨ أيار — وصلت انباء مفزعة من هولندا . . . ألفت هناك
الاجازات العسكرية وبدأت عمليات اجلاء المدنيين ، واقامت

الحواجز في الطرق ، ونفذت اجراءات التعبئة ... ان الفوهرر لا يريد ان ينتظر مدة اطول ، بينما يريد غورنغ التأجيل حتى العاشر على الاقل ... يبدو الفوهرر شديد الهياج ، ولكنه وافق على التأجيل حتى العاشر من ايار ، على الرغم من قوله بأن هذا التأجيل يخالف إلهامه ولكنه لن يوافق على التأجيل يوماً آخر . « ٩ ايار - قرر الفوهرر قراراً لارجوع عنه ان يبدأ الهجوم في العاشر من ايار ، سنسافر مع الفوهرر في قطاره في الساعة الخامسة مساء من فينكنكروغ ، ستعطى الاشارة الرمزية «دانزيغ» في الساعة التاسعة مساء بعد تلقي تقرير الاحوال الجوية ، بأن الطقس سيكون مواتياً للحركة .

ووصل هتلر يرافقه كاتيل ويودل وغيرهما من رجال اركان حرب القيادة العليا للقوات المسلحة الى مقر القيادة العامة التي اطلق عليها اسم « فيلسينست » أو « ايري » على مقربة من مونسترافيل ، عند فجر العاشر من ايار . وكانت القوات الالمانية قد اجتازت الحدود البلجيكية على بعد خمسة وعشرين ميلاً الى الغرب من مقر القيادة واندفعت القوات النازية على جبهة طولها (١٧٥) ميلاً ، تمتد من بحر الشمال الى خط ماجينو ، تحتاز حدود ثلاث دول محايدة صغيرة هي هولندا وبلجيكا ولكسمبورغ ، ناقضة بذلك العهد التي قطعها المانيا ، والتي كررتها اكثر من مرة وبصورة قاطعة جازمة .

حرب الاسابيع الستة

من ١٠ ايار حتى ٢٥ حزيران ١٩٤٥

لم تستغرق الحرب مع هولندا اكثر من خمسة ايام ، وقد تقرر في هذه الفترة القصيرة ايضاً ، مصير بلجيكا وفرنسا وقوات الحملة البريطانية . ومضى كل شيء

بالنسبة الى الألمان وفق الخطة المرسومة ، أو حتى بصورة تفضل هذه الخطة ، وذلك بالنسبة الى السوقية العسكرية (الاستراتيجية) والى الاساليب التعبوية (التكتيك) . وقد فاق نجاح هذه الخطط كل ما كان يساور هتلر من آمال . وذهل حتى «الفرقاء» من قادته العسكريين من سرعة الانتصارات الخاطفة التي حققوها ومن سعة مداها . اما بالنسبة الى قادة الحلفاء ، فقد اصابوا بالشلل السريع من جراء التطورات التي وقعت والتي لم يكونوا يتوقعونها مطلقاً ، كما لم يستطيعوا فهمها في خضم ما تلاها من فوضى واضطرابات .

واصيب ونستون تشرشل نفسه الذي تولى رئاسة الوزراء في اول يوم من ايام المعركة بالوجوم مما حدث . فقد استيقظ في الساعة السابعة والنصف من صباح الخامس عشر من ايار على جرس الهاتف يرن لينقل اليه صوت بول رينو رئيس الوزارة الفرنسية وهو يقول له بصوت يغلبه التأثر : « لقد هزمنا . لقد غلبنا على امرنا » . ورفض تشرشل تصديق ما سمعه . هل يمكن للجيش الفرنسي العظيم ان يقهر في اسبوع واحد ان هذا مستحيل . وعاد يكتب فيما بعد : « لم استطع ان افهم عنف الثورة التي طرأت على اساليب الحرب منذ الصراع العالمي السابق ، بادخال السلاح المدرع السريع الحركة على شكل جماعي ضخم » (١) .

انها الدبابات . سبع فرق منها ركزت في نقطة واحدة ، هي اضعف النقاط في الخطوط الدفاعية الغربية ، لتتحم الجبهة . فحققت هذه النتيجة . تضاف اليها طائرات الانقضاض « الشوكا » ، وقوات المظليين ، والقوات التي تنقل بالطائرات لتنهبط وراء خطوط الحلفاء ، أو فوق القلاع التي كانت تبدو منيعة لاتقهر ، لتحدث فيها الفوضى والاضطراب .

ولكننا نحن الذين كنا في برلين ، استغربنا اشد الاستغراب ، لماذا فاجأت هذه الاساليب التعبوية الألمانية قادة الحلفاء مثل تلك المفاجأة او لم تظهر

١ - تشرشل - مذكرات الجزء الثاني - ص ٤٢ - ٤٣ .

قوات هتلر كفايتها وفعاليتها في الحملة البولندية ؟ فقد تحقق الاختراق العظيم هناك ، والذي ادى الى تطويق الجيوش البولندية او تدميرها في غضون اسبوع عن طريق تركيز السلاح المدرع بعد ان كاذت طائرات الانقضاض قد تولت اضعاف كل مقاومة واخمادها وقد فشلت قوات المظليين والقوات الهابطة من الجو ، في بولنده في اداء مهماتها حتى على النطاق الضيق الذي استعملت فيه ، وخابت في الاستيلاء على الجسور الرئيسية سليمة دون ان يلحق بها اذى ولكنها نجحت نجاحاً بارزاً في الخروج قبل شهر واحد من بدء الهجوم في الغرب ، فاحتلت اوسلو وجميع المطارات ، واستعملت في تعزيز الفئات الصغيرة من الجنود التي هبطت من البحر في ستافانغر وبرغين وتروندهايم ونارفيك ممكنة اياها من الصمود . أو لم يقم قادة الحلفاء العسكريون بدراسة هذه الحملات ليتعلموا الدرس منها ؟

احتلال هولنده

لم يكن في وسع النازيين الاستغناء عن اكثر من فرقة مدرعة واحدة لاحتلال هولنده ، الذي تم في غضون خمسة ايام عن طريق المظليين والقوات الهابطة من الطائرات وراء الخطوط المائية العظيمة التي اعتقد الكثيرون في برلين انها ستصمد امام الالمان عدة اسابيع . وقدر للهولنديين الداهلين ان يروا بتجربة التعرض لأول هجوم محمول بالجو على نطاق واسع ، يشهده تاريخ الحرب . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار افتقارهم الى الاستعداد لمثل هذه المحنة ، والمباغطة الكاملة التي تعرضوا لها ، تبين لنا ، الآن ، انهم ابلوا بلاء حسناً يفوق ماتصوره الناس آنذاك .

وكان هدف الالمان الاول ، ازالة قوة كبيرة من الجو في المطارات القريبة من لاهاي ، لاحتلال العاصمة فوراً ، ولوضع يدهم على المملكة وحكومتها ، تماماً كما حاولوا قبل نحو من شهر مع النرويجيين . ولكن خطتهم فشلت في لاهاي ،

كما سبق لها ان فشلت في اوسلو، وان كان الفشل يعزى الى ظروف وعوامل مختلفة . اذ تمكن المشاة الهولنديين تعززهم المدفعية ، بعد ان استفاقوا من ذهولهم الاولي الذي خلط حابلهم بنابلهم ، من اخراج الالمان الذين يعدون كسيتين كاملتين من المطارت الثلاثة التي تحيط بالعاصمة ، مساء العاشر من ايار . وحقق هذا النجاح الاولي انقاذ العاصمة والحكومة مؤقتاً ، وان كان قد حرم الهولنديين من الافادة من قواتهم الاحتياطية التي كانوا في حاجة ماسة ويأثس لها في اماكن اخرى .

وكان الاستيلاء على الجسور الواقعة الى الجنوب من روتردام ، على نهري النيووي - الموز والى الجنوب الشرقي على فرعي الموز الكبيرين في دوردرخت ومويرد جيڪ بواسطة القوات التي تحملها الطائرات ، وهو مفتاح الخطة الألمانية كلها . فقد أمل الفريق جورج فون كويشيلر ، ان يعبر بحيشه الثامن عشر الزاحف من الحدود الألمانية على بعد مائة ميل ، على هذه الجسور ليصل الى قلب هولندا الخصب . وليس ثمة من سبيل آخر الى احتلال هذا المكان المنيع الذي يقبع خلف حواجز مائية هائلة ، والذي يضم مدن لاهاي وامستردام واوترخت وروتردام ولبدن ، بسرعة وسهولة .

وتم الاستيلاء على هذه الجسور في الصباح من ايار على ايدي وحدات هابطة من الجو ، وكانت بينها سرية هبطت في طائرات بحرية قديمة على النهر عند روتردام قبل ان يصحوا الحراس الهولنديون من ذهولهم لينسفوا الجسر . وبذل الهولنديون الذين تعززت قواهم جهوداً بائسة لأخراج الالمان من هذه الجسور ، وكادت جميع محاولاتهم تمل بالنجاح ، ولكن الالمان صمدوا صموداً عجيباً حتى صباح الثامن عشر من ايار ، عندما وصلت اليهم فرقة مدرعة من فرق كويشيلر ، بعد ان شقت طريقها عبر خط غريب - بيل ، الذي يؤلف جبهة محصنة الى الشرق تعززها عدد من الحواجز المائية التي كان الهولنديون يركزون آمالهم عليها في الصمود بضعة ايام امام الالمان .

وكان ثمة أمل في وقف الالمان قبل الوصول الى جسور مويردجيڪ بواسطة

الجيش الفرنسي السابع الذي يقوده الفريق جيرو ، الذي غز سيرة مسرعاً من القنطرة ووصل الى تيلبورغ بعد ظهر الحادي عشر من ايار . ولكن الفرنسيين شأنهم في ذلك شأن الهولنديين المجهدين ، كانوا يفتقرون الى الغطاء الجوي والى المدرعات والمدافع المضادة للطائرات والدبابات ، ولذا سرعان ما ردهم الالمان الى بريدا . وفتح هذا التطور الطريق امام الفرقة الالمانية المدرعة التاسعة لعبور الجسور في مويردجيك ودورد رخت ، لتصل بعد ظهر الثاني عشر من ايار الى الضفة الجنوبية من نهري نيوي - الموز ، امام روتردام ، حيث كانت القوات الالمانية الهابطة من الجو لا تزال تحتفظ بالجسور التي احتلتها اول أيام الهجوم . ولم يكن في وسع الدبابات ان تعبر جسور روتردام ، اذ كان الهولنديون قد اغلقوها في غضون ذلك من اطرافها الشمالية . وهكذا كان الوضع في صباح الرابع عشر من ايار بالنسبة للهولنديين يائساً ، وان كان الأمل لم ينقطع تماماً . فالقلعة الهولندية لم تهشم بعد . وقد تم أسر القوات الالمانية القوية الهابطة من الجو على مقربة من لاهاي او تشيتها في القرى المجاورة . وما زالت روتردام صامدة . ولم تكن القيادة الالمانية العليا راضية عن الوضع نظراً لتلفها على سحب الفرقة المدرعة العاملة هناك ، وما يعززها من قوات مناصرة ، ودفعها في مكان آخر للافادة من فرصة جديدة فتحت امامها في الجنوب من فرنسا . واصدر هتلر صباح الرابع عشر من ايار التوجيه الحادي عشر الذي قال فيه : « لقد برهنت قوة مقاومة الجيش الهولندي على انها اصلب مما كنا نتوقع . وتتطلب الاعتبارات السياسية والعسكرية تحطيم هذه المقاومة في اسرع وقت ممكن » . ولكن كيف ؟ انه يأمر بأن تسحب وحدات من القوات الجوية العاملة في جبهة الجيش السادس في بلجيكا « لتسهيل احتلال القلعة الهولندية بالسرعة الكاملة » (١) .

وأصدر هتلر وغورنغ أمراً بضرب روتردام ضرباً عنيفاً من الجو وسيحمل الهولنديون على الاقتناع بوجوب التسليم عن طريق جرعة من الارهاب النازي ،

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٣٤٣ - ٢٤٤ .

تماماً كما جرى في الحزيف السابق مع وارشو المحاصرة .

وعبر ضابط ركن ألماني من الفيلق التاسع والثلاثين صباح الرابع عشر من ايار ، الجسر عند روتردام ، وهو يحمل علماً ابيض لينطلب استسلام المدينة . وانذر بأنه في حالة رفضها التسليم فسيجري قصفها قصفاً عنيفاً من الجو . وبينما كانت مفاوضات التسليم سائرة في طريقها المعتاد ، اذ وصل ضابط هولندي الى مقر القيادة الالمانية قرب الجسر لبحث الشروط ، وكان في طريق عودته الى المدينة حاملاً مطالب الالمان . ظهرت القاذفات الالمانية وأزالت قلب المدينة العظيمة من الوجود . وقتل نحو من ثمانمائة شخص معظمهم من المدنيين كما اصيب عدة آلاف بجراح ، وبات (٧٨) الفاً بلا مأوى^(١) . ولن ينس الهولنديون قط هذه الخدعة ، ولا هذه القسوة المتعمدة ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان كلا من غورنغ وكيسلرنگ (من سلاح اللوفتوافه) قد دافعا عن نفسيهما في محاكمات نورمبرغ بالادعاء بأن روتردام لم تكن مدينة مكشوفة ، وانما كانت مدينة يدافع عنها الهولنديون بضراوة . وقد انكر الرجلان انها كانا يعرفان بوجود مفاوضات للاستسلام ، عندما بعثا بالقاذفات ، على الرغم من وجود دليل قوي في الوثائق الالمانية العسكرية على انها كانا يعرفان بوجود المفاوضات^(٢) . ومهما كان الموقف ، فان القيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية لم تحاول العثور على مبرر في ذلك الوقت . فقد استمعت بنفسها عشية الرابع عشر من ايار الى بلاغ هذه القيادة تذييعه محطة برلين جاء فيه :

١ - قيل في بادئ الامر . وصدق الناس هذا القول طويلاً ، بأن ما يتراوح عدده بين الخمسة والعشرين الفاً والثلاثين الفاً من الهولنديين قد قتلوا ، وكان هذا هو الرقم الذي ذكرته « دائرة المعارف البريطانية (انايكلوبيديا بريتانيكا) في عددها لعام ١٩٥٣ » لكن الحكومة الهولندية قدمت الرقم (٨١٤) من القتلى الى محاكمات نورمبرغ . محاكمات كبلر مجرمي الحرب (٩) ص ١٧٥ - ١٧٧ ، ٢١٣ - ٢١٨ ، ٣٣٨ - ٣٤٠) .

٢ - لم تصدر أية قرارات بالتجريم في نورمبرغ بالنسبة الى قصف روتردام . (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٣٦) ص ٦٥٦) .

« استسلمت مدينة روتردام تحت تأثير الضغط الهائل لطائرات
الانقضاض الألمانية والفرع من الهجوم المتوقع كل لحظة للدبابات
الألمانية ، وانقذت نفسها باستسلامها من الدمار » .

وهكذا استسلمت روتردام أولاً ، ثم ما لبثت ان استسلمت القوات الهولندية
المسلحة وفرت الملكة وهلمينا واعضاء حكومتها الى لندن على ظهر مدمرتين
بريطانيتين . واصدر الفريق اش. جي وينكلمان ، القائد العام للقوات الهولندية ،
عندما حل غسق اليوم الرابع عشر من أيار أوامره الى الجيش الهولندي بالقاء
سلاحه ، ووقع في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي وثيقة الاستسلام
الرسمية . وهكذا انتهى كل شيء في غضون خمسة ايام . أجل لقد انتهى القتال ،
وجثم على صدر هذه الدولة الصغيرة المتحضرة والمعتدى عليها ليل من الارهاب
الألماني المتوحش قدر له ان يطول خمس سنوات .

سقوط بلجيكا

ووقوع الجيوش الانكليزية-الفرنسية في الفخ

ما كان الهولنديون يستسلمون ، حتى جاء دور بلجيكا وفرنسا والحملة البريطانية .
وكان الرابع عشر من ايار على الرغم من انه هو اليوم الخامس من الهجوم يوم القدر
بالنسبة الى الحملة كلها . ففي الليلة السابقة تمكن السلاح الألماني المدرع من اقامة
اربعة رؤوس جسور على نهر الموز المنخفض الضفة والذي تغطي الغابات الكثيفة
جانيبه ، وذلك بين دينانت وسيدان ، كما احتل المدينة الاخيرة التي كانت مسرح
استسلام الامبراطور الفرنسي نابليون الثالث للقائد الألماني مولتيكيه في عام
١٨٧٠ ، والتي سجلت نهاية الامبراطورية الثالثة ، ثم هددت قلب خطوط الحلفاء
تهديداً خطيراً ، اذ كانت المحور الذي التفت حوله زهرة الجيوش البريطانية
والفرنسية بسرعة لتقذف بنفسها في خضم بلجيكا

وانفجر التيهور الهائل في اليوم التالي ، الرابع عشر من ايار . فقد اندفع جيش من الدبابات لم يسبق له مثيل في تاريخ الحروب في حجمه وتركيزه وحركته وقوته الضاربة عبر غابات الاردن مبتدئاً من الحدود الالمانية في العاشر من ايار ، وامتدأ في ثلاثة ارنال الى مسافة مائة ميل وراء الراين ، شاقاً طريقه عبر الجيشين الفرنسيين التاسع والثاني ، غاذاً السير بسرعة هائلة ليصل الى القناة الانكليزية ، قاطعاً طريق الرجعة على قوات الحلفاء العامة في بلجيكا . وكان هذا الجيش بمثابة الاله الهندي « يغر نوط » الذي يبحث عن سيادة العالم لنفسه ، باعثاً الرعب والمهابة . وكانت موجات طائرات الانقضاض من طراز « شتوكا » التي تتولى تليين المواقع الدفاعية الفرنسية وتخنيثها ، والطائرات التي تلتقي بالمهندسين العسكريين ، يقذفون على الفور زوارقهم المطاطية في الانهر ، وقيمون جسور القوارب المتحركة عليها العبور القنوات والانهار ، تتقدم كل فرقة من فرق العاصفة المدرعة هذه ، التي تملك الواحدة منها بالاضافة الى اسلحتها العادية ، المدافع الذاتية الحركة ، وكتيبة من المشاة الآلية ، لتشق طريقها الى الامام تتبعها الفيالق المدرعة ، التي تسير وراءها فرق المشاة الآلية لتثبيت اقدامها في المواقع التي استولت عليها الدبابات . ولم يكن في وسع المدافعين الداهلين ، بكل ما لديهم من وسائل وقف هذه الجحافل من الفولاذ والنار ، او منعها من التقدم . واضطر الفرنسيون على جانبي دينانت الواقعة على الموز ، الى فسخ الطريق امام الفريق هيرمان هوث الذي يقود الفيلق الالمانى الخامس عشر المدرع المؤلف من فرقتين للدبابات يقود احدهما الزعيم الجريء الشاب ايرون رومل . وكان نفس الترتيب يجري تنفيذه الى الجنوب على طول النهر عند مونتير من ، على يدي الفريق جورج هانز راينهاردت الذي يقود الفيلق المدرع الحادي والاربعين المؤلف من فرقتين من فرق الدبابات .

لكن اعظم الضربات حلت بالفرنسيين عند سيدان ، ذات الذكريات المفجعة بالنسبة الى الفرنسيين . ففي هذه الجبهة اندفعت فرقنا الدبابات اللتان يقودهما الفريق هاينز غودريان قائد الفيلق المدرع التاسع عشر في صباح الرابع عشر من

ايار عبر جسر من القوارب آقيم بسرعة خلال الليل فوق نهر الموز ، واتجهت نحو الغرب^(١) . وعلى الرغم من المحاولات اليائسة التي قام بها السلاح الفرنسي المدرع والقاذفات البريطانية لتدمير هذا الجسر ، مما كلفها ثمناً باهظاً ، اذ خسرا أربعين طائرة بريطانية من مجموع سبعين أسقطت في غارة واحدة بالقذائف المضادة للطائرات ، وسبعين دبابة فرنسية ، فان الجسر ظل قائماً . ولم يحل المساء ، حتى كان رأس الجسر الألماني عند سيدان ، قد امتد ثلاثين ميلاً عرضاً وخمسة عشر ميلاً عمقاً ، بينما تمزقت القوات الفرنسية العاملة في القلب الحيوي لخطوط الحلفاء . وتحولت هذه القوات التي كانت تؤلف جيشاً منظماً في يوم ما ، الى جماعات تم تطويق بعضها ، وأسر بعضها الآخر ، بينما تراجع البعض الثالث بصورة تقتقر الى النظام . وغدت الجيوش الفرنسية والبريطانية في الشمال بالاضافة الى اثنتين وعشرين فرقة بلجيكية معرضة لخطر التطويق والعزلة عن مواصلاتها .

وكان قد خيّل الى الحلفاء بأن اليومين الاولين من المعركة الجبارة قد انتهت الى صالحهم . وخيل لتشرشل نفسه الذي اندفع بحماس منقطع النظير يتولى مسؤولياته الجديدة كرئيس للوزراء ، انه « لم يكن هناك حتى ليلة الثاني عشر من ايار » كما دون فيما بعد « أي مبرر للافتراض بأن العمليات لا تسير سيراً حسناً^(٢) . » وكان غاملان القائد الأعلى لقوات الحلفاء مرتاحاً من الوضع كل الإرتياح . فلقد كانت الجيوش الفرنسية الأولى والسابع والتاسع ، وهي أحسن القوات الفرنسية واضخمها ، قد انضمت مع قوات الحملة البريطانية المؤلفة من تسع فرق بقيادة اللورد غورت ، في ذلك المساء الى القوات البلجيكية حسب الخطة المرسومة ، لتحمي خطاً دفاعياً منيعاً يمتد على نهر دايبل من انتويرب عبر لوفان الى وامز ومنها عبر ثفرة غيمبلو الى نامور وانتويرب البلجيكيتين المنيعتين

١ - ألف الفيلتان المدرعان اللذان يقودهما راينهاردت وغودريان ، مجموعة قوات العاصفة المدرعة التي يقودها الفريق ايوبولد فون كلايست والتي تضم خمس فرق للدبابات وثلاث فرق مشاة مدرعة .

٢ - تشرشل - مذكرات الجزء الثاني ص ٤٠ .

في جبهة تمتد ستين ميلاً فقط ، قوات تفوق في عددها المهاجمين الالمان ، اذ كانت لهم ست وثلاثون فرقة مقابل عشرين فرقة يؤلفها جيش رايختاو السادس . وعلى الرغم من ان البلجيكيين قد قاتلوا ببسالة على أطراف حدودهم الشمالية ، إلا انهم لم يصمدوا فيها طويلاً كما كان يتوقع منهم ، أو كما سبق لهم ان صمدوا في عام ١٩١٤ . وكان السبب في ذلك بسيطاً ، فقد عجزوا شأنهم كشأن الهولنديين الى الشمال منهم عن مواجهة الأساليب التعبوية الثورية الجديدة التي لجأت اليها القوات الالمانية المسلحة . وقد استولى الألمان هنا كما في هولندا على الجسور المهمة باستخدام مجموعة من الجنود المدربين خصيصاً لهذه الغاية ، وانزلهم بجرأة عجيبة عند الفجر من طائرات عديمة الصوت . وتمكن هؤلاء الألمان من التغلب على الحراس البلجيكيين عند جسرين من الجسور الثلاثة فوق قناة البرت وراء « ماستريخت » قبل ان يتمكن المدافعون من نسفها .

وأحرز الالمان نصراً كبيراً في الاستيلاء على قلعة « ايبن ايميل » التي تسيطر على نقطة التلاقي بين نهر الموز وقناة البرت . وكان الحلفاء والالمان على حد سواء يعتبرون هذه القلعة العصرية ذات المركز الاستراتيجي الهام ، أعظم تحصين منيع في اوروبا ، يفوق في مناعته أي شيء تمكن الفرنسيون من بنائه في خط ماجينو أو الالمان من اقامته في الجدار الغربي . وقد أقيمت هذه التحصينات على شكل سلسلة من الاروقة المشادة من الفولاذ والاسمنت المسلح ، تمتد عمقاً تحت الأرض . وقد حميت ابراج مدافعها بالدروع الثقيلة يقوم وراءها الف ومائتا جندي . وكان من المنتظر ان تصمد هذه القلعة الجبارة أمام أشد القنابل والقذائف المدفعية الضخمة . ولكنها سقطت بعد ثلاثين ساعة في يد ثمانين جندياً المانياً يقودهم عريف ، هبطوا على سطحها في تسع طائرات لا محركات لها . ولم تزد خسائرهم الإجمالية على ستة قتلى وتسعة عشر جريحاً . واني لأذكر ، وانا في برلين آنذاك ، ان القيادة العليا للقوات المسلحة قد اضفت شيئاً من الغموض والسرية على المشروع ، اذ أعلنت في بلاع خاص صدر عشية الحادي عشر من ايار ان القوات الالمانية قد استولت على قلعة « ايبن ايميل » بوسيلة جديدة من

وسائل الهجوم . وأدى هذا البيان الى انتشار الشائعات ، التي شعر غوبلز بالفرح الزائد ، من توسعها ، بأن الالمان يستعملون « سلاحاً سريعاً » جديداً وميتاً ، قد يكون من غازات الاعصاب التي تشل المدافعين مؤقتاً وتفقدهم كل قدرة على الحركة .

لكن الحقيقة كانت أقل شعرية من ذلك كله . فلقد أقام الالمان بما عرف عنهم من ميل الى الاهتمام بجميع الدقائق في كافة اعداداتهم ، في شتاء عام ١٩٣٩-١٩٤٠ في موقع هيلدشام ، صورة اصطناعية للقلعة والجسور عبر قناة البرت ، ودربوا نحواً من أربعمئة جندي من الذين تحملهم الطائرات التي لا محركات لها ، على احتلالها . وتقرر ان يعهد الى ثلاث مجموعات باحتلال الجسور الثلاثة وان يعهد الى المجموعة الرابعة باحتلال القلعة . وقد هبطت هذه المجموعة المؤلفة من ثمانين رجلاً على سطح القلعة ، ووضعت في أبراج المدافع المدرعة متفجرات « مجوفة » أعدت خصيصاً لهذه الغاية تمكنت من تعطيل هذه المدافع ونشرت ألسنة اللهب والغازات في الغرف القائمة في الداخل . واستخدمت قاذفات تحمل اللهب أيضاً في فوهات المدافع وفتحات المراقبة . وقد تمكن الالمان في غضون ساعة من الوصول الى الأروقة العليا ، وأبطلوا مفعول المدافع الخفيفة والثقيلة الموجودة في القلعة الفظيعة ، كما حالوا دون تمكن مراكز المراقبة من أداء واجبها . وحاول المشاة البلجيكيون المتركون وراء القلعة ، عبثاً ان يخرجوا الفئة الصغيرة المهاجمة من مراكزها ولكن طائرات « شتوكا » المنقضة والتعزيزات التي تلقاها المهاجمون من المظليين قد حالت بينهم وبين تحقيق غايتهم . ولم يحل صباح الحادي عشر من أيار حتى كانت الوحدات المدرعة الامامية التي راحت تنهب الارض فوق الجسرين السليمين القائمين في الشمال ، قد وصلت الى القلعة وأحاطت بها ، وبعد قصف آخر من طائرات شتوكا ، وقاتل بالسلاح الابيض في الانفاق الواقعة تحت الارض ، رفع المدافعون عند الظهر علم التسليم الابيض ،

وخرج الف ومائتا جندي بلجيكي، غلبتهم الحيرة والدهشة يسلمون أنفسهم^(١). وأدى هذا العمل الحربي الرائع، مع ما رافقه من احتلال الجسور وعنف الهجوم الذي قام به جيش الفريق فون راينخاوس السادس يعززه الفيلق المدرع السادس عشر المؤلف من فرقتي دبابات وفرقة مشاة آلية بقيادة الفريق هوينر، إلى اقتناع القيادة العليا للحلفاء، بأن الجناح الأيمن، هو الذي يحتمل كما احتل في عام ١٩١٤، أعباء الثقل الرئيسي في الهجوم الألماني العام، وانها، أي هذه القيادة مقتنعة من الوسائل الصالحة التي اتخذتها لوقفه. وبالفعل ظلت القوات البلجيكية والبريطانية والفرنسية حتى عشية الخامس عشر من أيار صامدة بقوة على خط داييل من أنتويرب إلى نامور.

وكان هذا ما تريده قيادة الألمان العليا. وأصبح من الممكن بالنسبة إليها الآن أن تسارع إلى تنفيذ خطة مانشتاين، وأن توجه ضربتها الهائلة في الوسط. وتمكن الفريق هولدر، رئيس هيئة أركان حرب الجيش الألماني من تفهم الوضع وما فيه من فرص، بوضوح عشية الثالث عشر من أيار... ولذا دون في يومياته يقول:

«في وسعنا أن نعتمد إلى الشمال من نامور على تركيز كامل لنحو من (٢٤) فرقة بريطانية وفرنسية و (١٥) فرقة بلجيكية. ونحن نملك مقابل هذه القوى جيشنا السادس الذي يضم نحواً من خمس عشرة فرقة في الجبهة وست فرق في الاحتياط... ونحن قادرون هناك على إحباط أي هجوم قد يقوم به العدو. ولسنا في حاجة

١ - الوصول إلى معلومات أكثر تفصيلاً، راجع كتاب وولتر - ميلتر «قناة البرت وقاعة إيبين - إيميل» وكتاب رودولف ويتريغ (احتلال حصن إيبين إيميل) (كان الملازم ويتريغ هو المنتدب لقيادة العملية ولكن خلاطراً على طائرته التي لا محرك لها أخره عن الوصول إلا بعد أن كان رجاله بقيادة العريف ويتريغ قد حققوا رسالتها) وكتاب الفريق فان أوفرستريت (من البرت الأول إلى ليوبولد الثالث - بلجيكا الرواية الرسمية لما حدث). وكتاب تيلفورد تيلور «زحف الفتح» ص ٢١٠ - ٢١٤.

الى المجيء بأية قوات جديدة . أما الى الجنوب من نامور فنحن نواجه عدداً أضعف ، اذ لا تبلغ قوته نصف ما لدينا من قوات هناك . وستقرر نتيجة الهجوم في الموز مصير المعركة كلها ، إذا عرفنا كيف ومتى يجوز لنا استغلال تفوقنا . ولا يملك العدو وراء هذه الجبهة أية قوات تستحق الذكر .

أجل لم تكن هناك قوات تستحق الذكر وراء هذه الجبهة ، التي تحطمت في اليوم التالي .

وطار رئيس الوزراء تشرشل في السادس عشر من ايار الى باريس ليرى بنفسه ماذا حدث . وعندما كان يقطع شوارع باريس بسيارته بعد ظهر ذلك اليوم متجهاً الى « الكي دورسيه » لمقابلة رينو ، رئيس الوزراء الفرنسية والفريق غاملان ، كانت رؤوس رمال الالات الألمانية المدرعة قد غدت على بعد ستين ميلاً الى الغرب من سيدان ، وهي تتوغل في الارض العراء التي لا دفاع فيها . ولم يكن هناك ما يحول بينها وبين الوصول الى باريس أو الى بحر المانش ولكن تشرشل لم يكن يعرف هذه الحقيقة . وراح يسأل غاملان قائلاً : « واين القوات الاحتياطية الاستراتيجية ؟ » ثم تحول الى القوات الفرنسية قائلاً « واين قوات المناورة » . وراح القائد العام لقوات الحلفاء يلتفت اليه وهو يهز رأسه قائلاً ويحرك كتفيه : « ليست لدينا قوات احتياطية او قوات للمناورة » (١) .

وقال تشرشل في مذكراته : « ووجمت ولم استطع ان انبس ببنت شفة » . فلم يسبق لانسان ان سمع بأن جيشاً عظيماً كالجيش الفرنسي لا يحتفظ بقوات احتياطية لمواجهة بها اي هجوم يتعرض له . وعاد تشرشل يقول : واني لأعترف بأن هذه المفاجئة كانت من اعظم ما مررت به من مفاجئات

١ - روى غاملان بعد انتهاء الحرب ان رده كان « لم يعد لدينا قوات احتياطية او للمناورة » (عدد ٢١ تشرين الثاني عام ١٩٤٩ من صحيفة اورور الفرنسية) .

في حياتي» (١) .

ولم تكن هذه المفاجئة أقل غرابة للقيادة العليا الألمانية او لهتلر او لفرقاء القيادة العليا للقوات المسلحة على الأقل ان لم تكن هولدر . فلقد تردد الفوهرر الذي ادار بنفسه الحملة في الغرب ، مرتين في هذه الحملة . وكانت المرة الاولى في السابع عشر من ايار عندما واجهته ازمة عصبية حادة . فلقد تلقى غودريان الذي كان قد قطع ثلث الطريق نحو المانش ، بفيلقه المدرع أمراً بالتوقف في موضعه ، اذ كان السلاح الجوي الألماني قد نقل معلومات الى القيادة العامة بأن الفرنسيين يعدون هجوماً مضاداً ضخماً لقطع « الشقين » المدرعين الألمانيين النحيلين اللذين امتدا الى الغرب من سيدان . وتشاور هتلر بسرعة مع قائد جيشه براوختش ومع رئيس اركان حربه هولدر وكان على يقين من تزايد تهديد فرنسي خطير من ناحية الجنوب . وأيده في رأيه هذا رونشتادت قائد مجموعة الجيوش (١) وهي القوة الرئيسية التي احدثت « الاختراق » عند نهر الموز ، عندما اشترك في المشاورات في ساعة متأخرة من ذلك اليوم . وقال انه يتوقع « هجوماً مضاداً مباغتاً وعظيماً تقوم به قوات فرنسية ضخمة من منطقتي فردان وشالون على نهر المارن » . وبدأت امام عقل هتلر المحموم صورة معركة اخرى كعركة « المارن » ، في الحرب الاولى . وراح يكتب الى موسوليني في اليوم التالي : « انني حريص كل الحرص ، على ان لا تعود معجزة المارن الى الظهور من جديد » (٢) .

ودون هولدر في يومياته مساء السابع عشر من ايار يقول :

« كان يوماً مزعجاً . فالفوهرر متوتر الاعصاب للغاية . فهو قلق على نجاحه ، لا يريد ان يغامر بشيء ويصر على كبح جماحنا . وهو

١ - تشرشل - مذكرات الجزء الثاني ص ٤٦ - ٤٧ .

٢ - من هتلر الى موسوليني في ١٨ ايار ١٩٤٠ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩)

ص ٣٧٤ - ٣٧٥) .

يتذرع بأن كل ما يقلقه ناجم عن وضع الجناح الايسر . وهو لم يأت لنا بشيء جديد الا الحيرة والشكوك » .

ولم يظهر أي تحسن في مزاج سيد الحرب النازي في اليوم التالي ، على الرغم من الانباء الهائلة التي وصلت عن انهيار فرنسا . وسجل هولدر الأزيمة في يومياته للثامن عشر من ايار قائلاً :

« ان الفوهرر يحس بقلق لا يكاد يوصف حول وضع الجناح الجنوبي . فهو يصرخ ويثور قائلاً بأننا نوشك على ائتلاف العملية كلها وبأننا نتجاهل ما للهزيمة من أخطار . انه لا يريد ان يشترك في مواصلة الزحف غرباً فكيف بالزحف الى الجنوب الغربي ، ويصر على فكرة الاندفاع نحو الشمال الغربي . ولعل هذا الموضوع هو الذي يخلق المناقشات وخلافات مزعجة بين الفوهرر من ناحية وبين براوختش وبينى من الناحية الثانية » .

وسجل الفريق يودل من رجال القيادة العليا للقوات المسلحة ، وهو الرجل الذي يؤمن بأن الفوهرر لا يخطئ أبداً ، هذا الخلاف بين الكبار في يومياته بتاريخ الثامن عشر من ايار قائلاً :

« اشتد التوتر اليوم ، لم يقم براوختش القائد العام بتنفيذ عزمه في اقامة موضع التفاني جديد بأسرع وقت ممكن باتجاه الجنوب .. وقد استدعى الفوهرر براوختش وهولدر فوراً وأمرهما بحزم باتخاذ الاجراءات اللازمة فوراً » .

ولكن هولدر كان مصيباً في رأيه ، اذ لم يكن لدى الفرنسيين قوات يستطيعون بها ان يشنوا هجوماً مضاداً من الجنوب . وعلى الرغم من ان الفرق المدرعة ، وهي التي تحترق غيظاً وكمداً قد تلقت اوامر ، بان لاتفعل شيئاً سوى التقدم « بقوات استطلاعية » ، الا ان هذه القوات كانت كافية وحدها للضغط باتجاه القناة الانكليزية . ولم يحل صباح التاسع عشر من ايار حتى كانت سبع فرق مدرعة ، قد احدثت فجوة كبيرة في صفوف الحلفاء ، ومضت مسرعة

الى الغرب ، في شمال نهر السوم ، عابرة بمسارح الممارك الكبرى التي دارت في الحرب الكونية الأولى ، والتي رويت القصص الكثيرة عنها وغدت على بعد خمسين ميلاً من القناة . وفوجيء مقر قيادة هتلر عشية العشرين من ايار ، بوصول الفرق المدرعة الثانية الى مدينة ابيفيل عند مصب السوم . وهكذا سقطت القوات البلجيكية والحملة البريطانية كلها وثلاثة جيوش فرنسية في الفخ . وراح يودل يدوّن في يومياته في تلك الليلة :

« يكاد الفوهرر يطير من الفرح . انه يتحدث معرباً عن تقديره العظيم للجيش الالماني وقيادته . انه يعد الآن معاهدة الصلح ، التي تنطوي على الانعام التي طامارددها عن عودة الأراضي التي سرقت من الشعب الالماني منذ اربعمائة عام ، كما تنطوي ايضاً على الفوائد الكثيرة ... »

« وتوجد مذكرة خاصة في الملفات تحتوي على العبارات التي تخنقها العواطف ، والصادرة عن الفوهرر ، عندما تلقى النبأ الهاتفي من القائد العام للجيش عن احتلال بلدة ابيفيل . »

وكان الأمل الوحيد للحلفاء للخلاص من هذا الطوق الذي يهددهم بالكارثة هو ان تتجه الجيوش الموجودة في بلجيكا فوراً نحو الجنوب ، متخليّة عن القتال الذي كانت تشتبك فيه مع الجيش الالماني السادس الذي يهاجمها هناك ، وان تحاول شق طريقها عبر الفجوة الألمانية المدرعة التي تمتد في شمال فرنسا نحو الساحل ، لتصل الى القوات الفرنسية الجديدة التي اخذت في الاندفاع شمالاً من السوم . وكانت هذه الخطة هي ما تضمنها الامر الذي اصدره الفريق غاملان فعلاً في صباح التاسع عشر من ايار ، ولكنه نحي عن منصبه في المساء ، ليخلفه فيه الفريق مكسيم ويغان الذي ألغى ذلك الأمر فوراً . وأراد ويغان الذي كان يتمتع بشهرة عسكرية ضخمة حققها في الحرب الكونية الأولى ، ان يتشاور اولاً مع قادة الحلفاء في بلجيكا قبل ان يصل الى القرار الذي سيتخذه بصدد ما يفعله . وأدى هذا الوضع الى ضياع ثلاثة ايام قبل ان يصل ويغان الى عين الخطة التي سبق

لسلفه غاملان ان قررهما. وكان هذا التأخير باهظ الثمن والتكاليف . فلقد كانت هناك أربعون فرقة فرنسية وبريطانية وبلجيكية تمسكت على الحرب في الشمال ، ولو وجهت هذه القوة الضخمة ضربتها باتجاه الجنوب عبر الخط الألماني « الرقيق » في التاسع عشر من ايار كما أمر غاملان ؛ لكان نجاحها في اختراق الطوق كبير الاحتمال ولكن عندما شرعت هذه الجيوش في العمل بعد فترة التأخر ، كانت المواصلات بين القيادات المختلفة من فرنسية وبريطانية وبلجيكية ، قد غدت في حالة من الفوضى ، وكانت جيوش الحلفاء المتعددة التي اشتد الضغط عليها قد بدأت تعمل في أهداف متعارضة . ولكن خطة ويفان ظلت فكرة في عقل القائد ، اذ لم تكن هناك قوات فرنسية تستطيع الاندفاع شمالاً من السوم .

وكانت القيادة العليا الألمانية قد قذفت في غضون ذلك بكل ما توافر لديها من قوات المشاة لتعزيز « الثغرة » المدرعة وتوسيعها . ولم يحل الرابع والعشرون من ايار حتى كانت دبابات غودريان الزاحفة من ايفيل مع ساحل القناة الانكليزية قد استولت على بولون وحاصرت كاليه وهما الميناءان الرئيسيان . ثم وصلت الى « غريغلين » التي تبعد نحو عشرين ميلاً على الساحل من دنكرك . وكانت الجبهة في بلجيكا قد تحركت نحو الجنوب الغربي نتيجة محاولة الحلفاء الخلاص من الطوق هناك . وهكذا لم يحل الرابع والعشرون من ايار حتى كانت الجيوش البريطانية والفرنسية والبلجيكية في الشمال قد حصرت في مثلث صغير نسبياً ، قاعدته على ساحل القناة الانكليزية تمتد في « غريغلين » الى « تيرنوزين » ورأسه عند فالينين التي تقع على بعد سبعين ميلاً الى الداخل . ولم يعد ثمة أمل في النجاة من الطوق ، وبات الأمل الوحيد ، رغم ضآلته هو الجلاء بجرأ من دنكرك .

وفي هذه اللحظة الحرجة ، في الرابع والعشرين من ايار ، تلقى السلاح الألماني المدرع ، الذي بات الآن على مرأى من دنكرك ، وقد وقف على طول قناة « آ آ » بين « غريغلين » وسنت اومير على استعداد لتوجيه الضربة القاضية الأخيرة ، أمراً غريباً ، لم يستطع الجنود في الميدان فهمه او تفسيره . يقضي

بالتوقف عن الزحف وكان هذا الأمر اول خطأ رئيسي ارتكبه القيادة العليا الألمانية في الحرب الكونية الثانية وغدا موضع الجدل العنيف لا بين القادة الالمان وحدهم ، بل بين المؤرخين العسكريين الذين راحوا يستقصون المسؤول عن اصداره والسبب في صدوره . وسنعود الى هذا الموضوع بعد لحظة على ضوء ما لدينا من معلومات متوافرة الآن . ومهما كانت الاسباب التي أدت الى هذا الأمر بالوقوف ، فقد اتاح للحلفاء فرصة هي أشبه ما تكون بالمعجزة لم تنقذ البلجيكيين ابداً .

استسلام الملك ليوبولد

استسلم ليوبولد الثالث ملك البلجيك في الساعات المبكرة من صباح الثامن والعشرين من ايار . فهذا الملك الشاب ، الصعب المراس ، الذي اخرج بلاده من حظيرة التحالف مع فرنسا وبريطانيا مؤثراً عليه الحياء الاحمق ، والذي رفض ان يعيد هذا التحالف حتى في الاشهر التي كان يعرف فيها خير معرفة ان الالمان يعدون العدة لهجوم ضخم عبر حدوده ، والذي استنجد في اللحظة الاخيرة ، وبعد ان وجه هتلر ضربته اليه ؛ بالبريطانيين والفرنسيين طالباً مساعدتهم التي تلقاها فعلاً ، وراح الآن يتخلى عنهم في ساعة محنتهم ، ويفتح الطريق امام الفرق الألمانية لتنصب على جناح القوات الانكليزية - الفرنسية المتعرضة للضغط الشديد . ومع ذلك ، فقد قام بهذا العمل . كما ذكر تشرشل لمجلس العموم في الرابع من حزيران دون أية مشورة سابقة معنا ، ودون مهلة انذار كافية . ودون نصيحة من وزرائه وانما بحافز شخصي منه .

وليس ثمة من شك في انه قام بهذا العمل ضد رغبة حكومته الجماعية التي كان قد أقسم يميناً دستورياً على اتباعها . ولقد عقدت في الساعة الخامسة من صباح اليوم الخامس والعشرين من ايار جلسة عاصفة في مقر قيادة الملك ،

شهادتها بالاضافة اليه ثلاثة من اعضاء حكومته وبينهم رئيس الوزراء ووزير الخارجية . وقد حثوه لآخر مرة ، على عدم الاستسلام شخصياً لئلا يصبح اسيراً عند الالمان ، اذ لو فعل ذلك لانهضت منزلته الى منزلة «الدكتور هاشا» في براغ . وقد ذكروه ايضاً بأنه رئيس دولة وقائد عام للجيش وبأنه اذا ساءت الأمور الى الحد الأقصى فإن في وسعه ان يمارس صلاحياته في المنفى ، كما تمارسها ملكة هولندة وملك النروج ، الى ان يتحقق النصر النهائي للحلفاء .
ورد ليوبولد قائلاً : « لقد قررت البقاء . فقضية الحلفاء خاسرة » (١)

وفي الساعة الخامسة من بعد ظهر السابع والعشرين من ايار ، اوفد الملك الفريق ديروسو نائب رئيس هيئة الأركان العامة ليطلب الهدنة من الالمان . وعاد الفريق في الساعة العاشرة يحمل شروط الالمان وهي تنص على « ان الفوهرر يطلب لقاء السلاح دون قيد او شرط » . وقبل الملك بالاستسلام غير المشروط في الساعة الحادية عشرة مساء واقترح ان يتوقف القتال في الرابعة صباحاً . وهذا ما تم بالفعل .

واستنكر رينو رئيس وزراء فرنسا استسلام ليوبولد استنكاراً غاضباً في خطاب عنيف ألقاه من الاذاعة ، واذاغ بييرلو رئيس وزراء بلجيكا رسالة مماثلة من باريس ولكن في عبارات اكثر تهديباً ، وابلغ الشعب البلجيكي بأن الملك قد اتخذ قراره ضد نصيحة حكومته الجماعية ، وانه قد قطع صلاته بشعبه ، ولم يعد في وضع يمكنه من الحكم ، وان الحكومة البلجيكية في المنفى ستواصل القتال . وتحفظ تشرشل عندهما ألقى خطابه في مجلس العموم في الثامن والعشرين من ايار في حكمه على عمل الملك ليوبولد ، ولكنيه عاد فاشترك في حملة الانتقاد العامة في خطابه في الرابع من حزيران .

١- رواية الملك ورئيس وزرائه عن الاجتماع في التقرير الرسمي للحكومة البلجيكية (الملاحق . ص ٦٩ - ٧٥) وقد نقلها بول رينو رئيس وزراء فرنسا . كتابه (حملة الحركة) ص ٤٢٠ - ٤٢٥ .

واستمر الجدل حول هذا الموضوع طويلاً بعد ان انتهت الحرب . وكان هناك الكثيرون داخل بلجيكا وخارجها من الناس الذين دافعوا عن ليوبولد ، واعتقدوا بأنه قد فعل الشيء الصحيح والكريم والشريف ، في اشتراكه مع شعبه في مصيره ومصير جنوده . وقد طلبوا كثيراً وزمروا ، للزعم القائل بأن الملك لم يقم بعمله هذا في الاستسلام كرئيس دولة ، وإنما كقائد عام للجيش . وليس ثمة من خلاف في ان القوات البلجيكية المحطمة كانت في وضع يائس من السابع والعشرين من ايار . وكانت هذه القوات قد وافقت شهامة منها وبسالة على توسيع جبهتها رغبة منها في تحرير البريطانيين والفرنسيين لتمكينهم من شق طريقهم جنوباً . ولكن هذه الجبهة المتوسعة كانت تنهار بسرعة على الرغم من قتال البلجيكيين قتالاً حروناً عنيداً . ولم يكن ليوبولد قد ابلغ كذلك بأن اللورد غورت قد تلقى في السادس والعشرين من ايار - أوامر من لندن ، للانسحاب من دنكرك ، وانقاذ ما يمكن انقاذه من قوات الحملة البريطانية . وهذا جانب واحد من المناقشة ولكن هناك جانباً آخر لها . فالجيش البلجيكي كان تابعاً لقيادة الحلفاء المشتركة ، وقد قام ليوبولد بعقد هذا الصلح المنفرد دون استشارة هذه القيادة . ويقول المدافعون عنه انه ابرق في السابع والعشرين من ايار وفي الساعة الثانية عشرة والنصف بعد الظهر الى اللورد غورت يقول له انه سيجد نفسه مضطراً عما قريب « للاستسلام لتجنب الانهيار » . ولكن القائد البريطاني المنهمك في انسحابه والدائم الحركة في تلك الآونة لم يتلق هذه البرقية . وقد شهد فيما بعد انه سمع لأول مرة بالاستسلام بعيد الساعة الحادية عشرة من مساء السابع والعشرين من ايار ووجد نفسه « فجأة يواجه ثغرة اتساعها عشرين ميلاً بين ايبريس والبحر ، يستطيع العدو النفاذ منها للوصول بقواته المدرعة الى الشاطئ » (١) . ووصلت الانباء الى الفريق وignan ، وهو القائد الاعلى عسكرياً للملك بوصفه قائد الحلفاء الاعلى ، من ضابط الارتباط الفرنسي في مقر القيادة البلجيكية بعد الساعة السادسة مساء وقد اصابته على

١ - رسائل اللورد غورت ملحق الجريدة الرسمية البريطانية - لندن عام ١٩٤١ .

نجد قوله فيما بعد « كالمصاعقة الهابطة من السماء » اذ لم يكن قد تلقى انذاراً مسبقاً عنها من قبل (١) .

واخيراً ، كان من الواجب على ليوبولد حتى بوصفه قائداً أعلى للقوات المسلحة ، ان يقبل بنصيحة حكومته وذلك طبقاً للاعراف الدستورية في بلجيكا كبلد ديموقراطي . ولم يكن بوسع لا في هذه الصفة ولا بوصفه رئيساً للدولة ، ان يستسلم بقرار منه وحده . وقد أصدر الشعب البلجيكي ، وهذا حق من حقوقه ، الحكم على ملكه . اذ لم يستدع للعودة الى العرش من سويسرة التي لجأ اليها بعد انتهاء الحرب ، إلا بعد مرور خمس سنوات من اقامته فيها . وعندما جاءته الدعوة في العشرين من تموز عام ١٩٥٠ ، اثار اقتراح (٥٧) في المائة من مجموع المقترعين في الاستفتاء العام الى جانب دعوته ، اثار رجوعه الى البلاد رد فعل عنيف بين السكان الى الحد الذي هدد بنشوب حرب أهلية ، مما أرغمه على التنازل عن العرش لمصلحة ولده .

ومهما قيل عن سلوك ليوبولد ، فليس ثمة من خلاف ، مع وجود بعضه فعلاً ، في الطريقة الرائعة التي حارب بها جيشه (٢) . و كنت قد لحقت بجيش راينخاؤ السادس بضعة أيام من شهر ايار عبر الاراضي البلجيكية ورأيت العناد الذي ابداه البلجيكيون في قتالهم ضد قوات تفوقهم عدداً بشكل هائل . ولم تنهر مقاومتهم مرة واحدة أمام هذا القصف الجوي الذي تعرضوا له دون ان تنهياً لهم سبل مقاومتهم على الرغم من وحشيته ، ولا أمام السلاح الألماني المدرع عندما حاول اختراق صفوفهم . ولا يمكن ان يقال هذا القول بالنسبة الى قوات معينة اخرى من قوات الحلفاء في تلك الحملة . فلقد صمد البلجيكيون ثمانية عشر يوماً ، وكان من الممكن ان يصمدوا مدة أطول ، لولا انهم كقوات الحملة البريطانية

١ - ويغان - « دعي الى الخدمة العسكرية » ص ١٢٥ - ١٢٦ .

٢ - من بين الذين خالفوا هذا الرأي الفريق السير الان بروك الذي كان يتولى قيادة الفيلق الثاني في الحملة والذي اصبح المشير اللورد الان بروك ، رئيس هيئة اركان حرب الامبراطورية . راجع كتاب السير ارثر برايان (تحول التيار) المستند الى يوميات الان بروك .

وجيوش فرنسا الشمالية ، قد وقعوا في فخ لم يكونوا هم المسؤولون عن السماح بوجوده .

المعجزة في دنكرك

شرعت الاميرالية البريطانية بايعاز شخصي من تشرشل ، منذ العشرين من ايار عندما شقت دبابات غودريان طريقها الى ابيفيل على البحر ، في تجميع البواخر اللازمة للقيام بجلاء محتمل لقوات الحملة البريطانية وغيرها من القوات الحليفة الاخرى من موانئ القناة . وبدأ نقل الموظفين غير المحاربين وغيرهم من أصحاب « الأفواه التي تأكل » والذين لا ضرورة لوجودهم عبر البحر الضيق الى بريطانيا فوراً . وعندما حل الرابع والعشرون من ايار ، كانت الجبهة البلجيكية في الشمال ، كما ذكرنا آنفاً على وشك الانهيار ، وكان السلاح الالماني المدرع في الجنوب والمتجه مع الساحل من ابيفيل ، قد وصل بعد الاستيلاء على بولون وتطويق كاليه الى قناة (أ آ) التي تبعد عشرين ميلاً فقط عن دنكرك . وقد حاصر الالمان في هذا الطوق الذي ضربوه الجيش البلجيكي بكامله ، وتوسع فرق من الحملة البريطانية وعشر فرق من الجيش الفرنسي الاول ، وعلى الرغم من وعورة الارض في الطرف الجنوبي من هذا « الجيب » ، وعدم صلاحها للدبابات بالنظر الى تشابك القنوات فيها ووفرة الاخاديد والمناطق التي تغمرها المياه ، الا ان فيالتق غودريان ورينهارد المدرعة تمكنت من اقامة خمسة « رؤوس جصور » عبر العائق الرئيسي وهو قناة (أ آ) بين « غريغلين على البحر وسنت أومير » وكانت تستعد لتوجيه الضربة القاضية التي تحصر جيوش الحلفاء بين مطرقتها وبين سندان الجيشين الالمانيين السادس والثامن عشر المندفعين جنوباً من ناحية الشمال الشرقي ، وللقضاء عليها قضاء مبرماً .

وفجأة وفي مساء الرابع والعشرين من ايار صدر الأمر الفجائي من القيادة العليا باصرار من هتلر الذي أيده كل من رونشتادت وغورنغ ، ورغم اعتراضات

براوختش وهولدر العنيفة ، بوقف قوات الدبابات على خط القناة ، وعدم القيام بأية محاولة للتقدم . وقد اتاح هذا التوقف للورد غورت فرصة جوهرية لم يكن يتوقعها . وسرعان ما استغلها الاسطول والسلاح الجوي البريطانيان اكبر استغلال ، وغدت على حد تعبير رونشتادت فيما بعد ، اثر انبلاج الحقيقة امامه « احدى نقاط التحول العظيمة في الحرب » .

فكيف صدر هذا الأمر بالتوقف عندما كان الألمان على عتبة ما كان يبدو كشيء مؤكد ، اكبر نصر تجرزه المانيا في هذه الحملة ؟ وما هي الأسباب التي أدت الى صدوره يا ترى ؟ ومن المسؤول عن صدوره ؟ انها اسئلة اثارت اعظم المناقشات المتعلقة بالحرب بين القادة الألمان من ذوي العلاقة ، وبين المؤرخين ايضاً . لقد انجى القادة العسكريون يقودهم رونشتادت وهولدر باللوم على هتلر كلية . وصب تشرشل الزيت على النار التي اشعلها هذا الجدل في المجلد الثاني من مذكراته عن الحرب ، عندما ذكر ان المبادرة الى هذا الامر صدرت عن رونشتادت نفسه لا عن هتلر ، مستنداً في قوله هذا على الأدلة التي استخلصها من يوميات الحرب في مقر قيادة رونشتادت . وكان من الصعب علي في خضم هذه الأقوال المتباينة والمتضاربة ، أن أصل الى الحقائق أو أثبت منها . ورأيت وانا أعد هذا الفصل ان اكتب الى الفريق هولدر اطلب اليه ايضاحات اخرى عن الموضوع وقد تلقيت منه رداً كريماً ومسهباً . وعلى ضوء هذه الرسالة ، وعلى ضوء الأدلة الأخرى التي اصبحت متوافرة الآن ، بات في مكنتي ان أصل الى استنتاجات معينة قد تضع حداً لهذا الجدل ، ان لم يكن نهائياً ، فقادراً على الاقناع على الأقل .

وليس ثمة من شك في ان رونشتادت على الرغم من تأكيداته اللاحقة بعدم وجود اية مسؤولية عليه في اصدار هذا الأمر الشهير ، يتحمل على النقيض قسطاً منها مع هتلر نفسه . فلقد قام الفوهرر في صباح الرابع والعشرين من ايار بزيارة مقر القيادة العامة لمجموعة الجيوش (١) التي يتولى رونشتادت قيادتها ، وذلك في مدينة شارليفيل . وقد اقترح رونشتادت عليه وقف الفرق المدرعة عند خط

القناة (آ آ) ، ترقباً لوصول قوات جديدة من المشاة لتعزيزها (١) . وقد وافق هتلر على هذا الاقتراح مشيراً الى وجوب الاحتفاظ بالسلاح المدرع للعمليات المقبلة ضد الفرنسيين الى الجنوب من نهر السوم . وأعلن أيضاً بأنه في حالة تضيق مساحة الفخ الذي وقع فيه الحلفاء الى حد كبير للغاية فإن هذا الضيق يؤدي الى عرقلة ما يبذله السلاح الجوي الالماني من نشاط ومن المحتمل ان يكون رونشتادت قد أصدر هذا الأمر بالتوقف بعد موافقة الفوهرر ، وذلك لان تشرشل يروي ان الحملة البريطانية التقطت رسالة لاسلكية ألمانية تتضمن هذا الأمر في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثانية والاربعين من ذلك الصباح (٢) . وكان هتلر

١ - لم تمنع هذه الحقيقة المستقاة من سجلات قيادة رونشتادت بين هذا القائد وبين اصدار عدة بيانات بعد الحرب يلقي اللوم فيها كلية على هتلر . فقد ذكر الرائد ميلتون شولمان ضابط الخبايا الكندي قائلاً : « لو كنت حراً فيما اعمل ، لما تمكن الانكليز من الخلاص بمثل تلك السهولة من دنكرك . ولكن أوامر هتلر نفسه كانت تقيد يدي . فبينما كان الانكليز يصعدون الى البواخر من الشطآن الرملية ، كنت مجبراً على الوقوف في خارج الميناء ، دون ان أقوم بأي عمل ، وغير قادر على الحركة .. وظللت خارج المدينة أرقب الانكليز وهم يفرون ، بينما كانت الأوامر تمنع دباباتي ومشاتي من الحركة . ولا ريب في ان هذا الخطأ الذي لا يكاد يصدق ، ناجم من فكرة هتلر الشخصية عن القيادة (شولمان - الهزيمة في الغرب . ص ٤٢ - ٤٣) .

وأضاف رونشتادت في وثيقة خطية قدمها الى لجنة تابعة للمحكمة العسكرية الدولية في نورمبرغ في العشرين من حزيران عام ١٩٤٦ ، يقول : حقاً لقد كان خطأ كبيراً من القائد... وليس في وسع أي انسان ان يصف في ذلك الوقت مدى ما كنا نحس به من غضب » . وقد افضى رونشتادت بيانات مماثلة الى ليدل هارت «الفرقاء الالمان يتكلمون ص ١١٢ - ١١٣» ، وإلى محكمة نورمبرغ العسكرية في القضية التي رفعتها الولايات المتحدة ضد ليب (ص ٣٣٥٠ - ٣٣٥٣ و ص ٣٩٣١ - ٣٩٣٢) .

وقد حلل نيلفورد تيلاور في كتابه «زحف الفتح» والرائد . ال . اف . ايليس في كتابه (الحرب في فرنسا والاندروز) ما ذكرته السجلات الالمانية عن الحادث وتوصلا الى استنتاجات مختلفة الى حد ما . ويعتبر كتاب ايليس النص البريطاني للحملة ، ولكنه يضم وثائق ألمانية أيضاً . ويعتبر تيلاور الذي قضى اربع سنوات ممثلاً للنياحة العامة الامريكية في محاكمات نورمبرغ حجة في الوثائق الالمانية .

٢ - تشرشل - مذكرات - ص ٧٦ -

ورونشتادت يعقدان اجتماعاً في تلك اللحظة .

على كل حال ، اصدر هتلر في تلك الليلة ، الأمر الرسمي من القيادة العليا للقوات المسلحة ، وقد دوّنه كل من هولدر ويودل في يومياتهما . وكان هولدر ، رئيس اركان الحرب يعرب عن سخطه في يومياته على هذا الأمر عندما قال :

« وهكذا تحتم على جناحنا الايسر المؤلف من السلاح المدرع والقوات الآلية ، ان يقف جامداً عن الحركة في نصف الطريق بأمر مباشر من الفوهرر ! وعهد الى القوة الجوية بتصفية ما تبقى من قوات العدو المطوّقة ! » .

وتشير اشارة التعجب هذه التي وردت في ذيل الفقرة ، الى ان غورنغ قد تدخل مع هتلر في هذا الموضوع ، وها نحن نعرف الآن انه تدخل فعلاً . فلقد عرض على الفوهرر ان يصفي بقواته الجوية ما تبقى من قوات العدو ! وقد شرح هولدر في رسالته المؤرخة في التاسع عشر من تموز عام ١٩٥٧ للمؤلف الاسباب التي حملته على هذا الاقتراح المشيع بالطموح والغرور اذ قال :

« اتضح لنا في الايام التي تلت الرابع والعشرين من ايار ان غورنغ كان صاحب التأثير الاكبر على هتلر في اصدار امره هذا . فلقد اعتبر الديكتاتور بسبب افتقاره الى الثقافة العسكرية ، الحركة السريعة التي قام بها الجيش والتي لم يستطع هو فهم ما تنطوي عليه من احتمالات ونجاح ، شيئاً مشؤوماً ... بأن الانتكاس قد يحل في كل لحظة ...

« وقد استغل غورنغ الذي كان اعرف الناس بزعيمة هذا القلق . ولذا عرض عليه ان يخوض ما تبقى من معركة التطويق العظيمة وحيداً بقواته الجوية ، مزيلاً بذلك اي خطر قد ينجم من استخدام التشكيلات المدرعة الثمينة ... وقد عرض اقتراحه هذا لأسباب تتفق كل الاتفاق مع شخصية غورنغ الطموحة ... فلقد

اراد ان يضمن لقوته الجوية في تلك العمليات الرائعة التي قام بها الجيش حتى ذلك الوقت العمل الحاسم الأخير في تلك المعركة العظمى ، ليكسب اجماد النصر لنفسه امام العالم بأسره .

وراح الفريق هولدر يتحدث في رسالته بعد ذلك ، عن الرواية التي سمعها من براوختش بعد الحديث الذي دار بين الأخير وبين قائدي الطيران الفريقين ميلش وكيسلر ، في سجن نورمبرغ في كانون الثاني عام ١٩٤٦ ، إذ أعلن له القائدان الطياران ...

« ان غورنغ اكد لهتلر في ذلك الوقت ايار عام ١٩٤٠ بأن سمعته في الوطن الألماني ستتحطم الى حد بعيد يصعب اصلاحه ، اذ كانت الانتصارات العظيمة التي كانت تسيّر سيرها الطبيعي في الجبهة ، ستعزى الى قادة الجيش الألماني وحده . ولا يمكن الحيلولة دون ذلك الا اذا قام سلاح الطيران لا الجيش بانهاء المعركة الفاصلة » .

ويتضح من هذا الى حد كبير ، ان فكرة هتلر ، التي ايدها كل من غورنغ ورونشتادت ، وعارضها كل من براوختش وهولدر معارضة عنيفة كانت تتلخص في ان يسمح للقوة الجوية وللمجموعة الجيوش (ب) التي يقودها بوك ، والتي لاتضم اية قوات مدرعة تستحق الذكر ، وان كانت تواصل دفع البلجيكيين والبريطانيين امامها ببطء نحو القناة الانكليزية ، بتصفية ما تبقى من قوات العدو في « الجيب » . ولذا تقرر ان يعهد الى مجموعة الجيوش (أ) التي يقودها رونشتادت والتي تضم سبع فرق من فرق الدبابات بالتوقف عند الخطوط المائية الى الغرب والجنوب من دانكرك ، وان تحافظ على النطاق الذي تفرضه على العدو المحصور . ولكن السلاح الجوي الألماني ومجموعة جيوش بوك ، لم يكونا قادرين على تحقيق هذا الهدف كما ثبت فعلاً . وراح هولدر ينفث غضبه في يومياته التي كتبها في صباح السادس والعشرين من ايار قائلاً .. ليس لهذه الاوامر الصادرة من عل اي معنى ... ان دباباتنا تقف وكأنها مشلولة عن الحركة » .

وعاد هتلر أخيراً في مساء السادس والعشرين من أيار فألقى أمر التوقف ، ووافق بالنظر الى الزحف البطيء الذي تقوم به قوات بوك في بلجيكا ، والى وصول سفن النقل البريطانية الى الشاطئ ، على ان تستأنف القوات المدرعة تقدمها نحو دنكرك . ولكن الفرصة كانت قد ضاعت ، وفات أوانها . فقد اتيح للعدو الوقت الكافي لتعزيز خطوطه الدفاعية ، وشرع ينسل في حماية هذه الخطوط نحو البحر .

ونحن نعرف الآن ان هناك اسباباً سياسية اخرى ، حدث بهتلر الى اتخاذ قراره الخطير هذا . فلقد دوّن هولدر في يومياته بتاريخ الخامس والعشرين من ايار ، وهو اليوم الذي بدأ كما قال « بواحدة من تلك المشاحنات المؤلمة التي تكررت في تلك الآونة بين براوختش والفوهرر عن الخطوات المقبلة في معركة التطويق » .. ما نصه :

« لقد كوّنت القيادة السياسية الآن الفكرة الثابتة بأن المعركة الفاصلة يجب ان لا تقع على الارض البلجيكية وانما في شمال فرنسا » .

وقد ادهشتني هذه الفقرة ، وجرت في امرها ، وكتبت الى رئيس اركان الحرب السابق ، اسأله ، اذا كان باستطاعته ان يذكر الاسباب السياسية التي حدثت بهتلر الى الرغبة في انتهاء المعركة في شمال فرنسا لا في بلجيكا . وقد تذكر هولدر هذه الاسباب تمام التذكر ، ورد عليّ قائلاً : « ما زالت ذاكرتي الحية المنتعشة تعي ان هتلر في محادثاته معنا في ذلك الوقت ، عزز الاسباب التي دعت الى اصدار امر التوقف بخطتين فكريين أوردتهما . وكان أول هذين الخطتين متعلقاً بالاسباب العسكرية ، أي بالطبيعة الجغرافية والأرضية غير الصالحة للدبابات ، مما يؤدي الى إلحاق الخسائر الكبيرة بها ، ويضعف من قوة جيشنا وطاقته في الهجوم المتوقع على ما بقي من فرنسا ... الخ ... » ويضي هولدر فيكتب في يومياته ... قائلاً :

« وذكر الفوهرر سبباً ثانياً ، كان يعرف بأننا كجنود لا نستطيع

ان نناقشه او نعارضه فيه لطبيعته السياسية لا العسكرية ..
« فلقد قال انه لأسباب سياسية يرى ان هناك سبباً ثانياً لهذا
التوقف . وهو انه لا يريد وقوع المعركة الاخيرة الحاسمة ، التي
ستلحق حتماً أعظم الاضرار بالسكان في ارض يسكنها الشعب
الفلمنكي (قسم من الشعب البلجيكي) . وأضاف انه عازم على ان
يقيم دولة استراكية وطنية مستقلة في الارض التي يسكنها الفلمنكيون
من أصل الماني ، ليشدهم الى المانيا شداً وثيقاً . وكان مؤيدوه في
الارض الفلمنكية ناشطين في هذا الاتجاه منذ أمد بعيد ، وقد وعدهم
بالحفاظ على اراضيهم في نجوة من ويلات الحرب واضرارها . واذا لم
يحافظ على وعوده لهم ، فإن ثقتهم به ستصاب بأضرار قاسية . ولا
ريب في ان مثل هذا الوضع يعتبر خسارة سياسية لألمانيا التي يتحتم
عليه بوصفه الزعيم السياسي المسؤول ان يتجنبه » .

ما اغرب هذه الأقوال ؟ وإذا كنا نرى في هذه الأقوال بعض الانحرافات
الفكرية المفاجئة التي عرفت عن هتلر ، واذا لم تكن قد اقنعت براوختش وهولدر
على حد قول الأخير ، فقد كانت هناك اعتبارات سياسية اخرى أسر بها الى
غيرهما من الفرقاء وكانت اكثر تعقلاً وأهمية . فقد وصف الفريق غونتر بلومنتريت
مدير العمليات الحربية في قيادة رونشتادت ، لليدل هارت الكاتب العسكري
البريطاني ، بعد انتهاء الحرب ، المقابلة التي جرت بين هتلر ورونشتادت في الرابع
والعشرين من ايار .. بقوله :

« كان هتلر في حالة مزاجية رائعة ... وذكر لنا انه يرى ان
الحرب ستنتهي في ستة اسابيع وأضاف انه يريد بعد ذلك ان
يصل الى صلح معقول مع فرنسا وتصبح الطريق آنذاك مهددة لعقد
اتفاق مع بريطانيا ..

« وأذهلنا بعد ذلك إذ راح يتحدث باعجاب عن الامبراطورية
البريطانية ، وعن ضرورة وجودها ، وعن الحضارة التي حملها

بريطانيا الى العالم .. وقال ان كل ما يريده من بريطانيا هو ان
تعترف بوضع المانيا في القارة الأوروبية . و اضاف ان المانيا ترغب
حتماً في استرجاع مستعمراتها ، ولكنها لا تعتبر هذه العودة شيئاً
لا بد منه .. وانتهى من ذلك الى القول بأن هدفه هو ان يعقد صلحاً
مع بريطانيا على ان يكون من النوع الذي لا ترى فيه مساساً
بكرامتها « (١) » .

وقد أفضى هتلر بمثل هذه الآراء مرات عدة في غضون الاسابيع القليلة القادمة
الى قادته العسكريين والى شيانو وموسوليني ، ومن ثم علناً الى الشعب في النهاية .
وأعرب شيانو عن دهشته بعد شهر ، عندما وجد الديكتاتور النازي ، وهو في
أوج قوته ونجاحه ، يعزف على وتر أهمية الحفاظ على الامبراطورية البريطانية
« كعامل اساسي في التوازن العالمي » (٢) . ودون هولدر في الثالث عشر من
تموز في يومياته ، ما رآه من حيرة الفوهرر الناطقة بالألم من جراء رفض بريطانيا
قبول الصلح . وقد قال لقادته العسكريين في ذلك اليوم نفسه : « ان ارغام
انكلترا على الركوع على ركبتيها بالقوة لن يفيد المانيا ، وانما سيفيد اليابان
والولايات المتحدة وغيرهما » .

وقد يقال على ضوء هذا الخط الفكري البادي عند هتلر ، على الرغم من
تشكك البعض فيما يقال ، بأن هتلر أوقف قواته المدرعة امام دنكرك ليوفر على
بريطانيا اذلالاً مؤلماً ، وليسهل عليها قبول تسوية صلحية . ولقد قال هتلر ، ان
مثل هذا الصلح يجب ان يكون من النوع الذي يضمن من بريطانيا السماح للالتفات
ثانية جهة الشرق ، أي ناحية روسيا في هذه المرة . وعلى لندن ان تعترف كما قال
ايضاً بسيطرة الرايخ الثالث على القارة . وظل هتلر طيلة الشهرين التاليين على
ثقة من ان مثل هذا الصلح في متناول يده . وكان هتلر الآن اكثر من أي وقت
مضى في السنوات السالفة قد تفهم طبيعة الشعب البريطاني ، أو طراز العالم الذي

١ - ليدل هارت - الفرقاء الألمان يتكلمون - ص ١١٤ - ١١٥ .

٢ - يوميات شيانو ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

قرر مع زعمائه ، المضي في القتال حتى النهاية .
ولم يكن هو أو قادته العسكريون ، جهلاً منهم بالبحر ، يحملون بأن في إمكانية
هذا الشعب البريطاني ذي التفكير البحري ، ان يجلي نحواً من ثلث مليون
انسان من ميناء صغير يتعرض لقصف متواصل ومن شطآن عارية مكشوفة تقع
مبسطة امام اعينهم .

وفي الساعة السادسة والدقيقة السابعة والخمسين من مساء السادس والعشرين
من ايار ، أي بعد صدور الأمر الجديد بالغاء أمر هتار السابق بوقف السلاح
المدرع ، بعثت الاميرالية البريطانية بإشارة لاسلكية موعزة ببدء «عملية دينامو»
وهو الاسم الرمزي الذي اطلق على عملية الجلاء عن دنكرك . واستأنف السلاح
الالمانى المدرع تلك الليلة هجومه على الميناء من الجنوب والغرب ، لكن هذه
الفرق المدرعة لم تجد المهمة سهلة الآن . فقد اتيج للورد غورت في فترة التوقف ،
ان يحشد ضدها ثلاث فرق للمشاة تدعمها المدفعية القوية . ولم تحرز الدبابات الا
تقدماً طفيفاً . وشرعت القوات البريطانية بالجلاء في غضون ذلك . فقد احتشدت
في دنكرك قوة بحرية جبارة تضم (٨٥٠) باخرة من مختلف الاحجام والاشكال
واساليب الدفع والسير ، بينها الطرادات والمدمرات والزوارق الشراعية الصغيرة
والقوارب الهولندية ، وقد قام على إعدادها متطوعون مدنيون من مختلف المدن
الساحلية البريطانية . وقد حملت هذه السفن في اليوم الأول أي السابع والعشرين
من ايار نحواً من (٧,٦٦٩) جندياً ، ثم (١٧,٨٠٤) في اليوم الثاني و (٤٧,٣١٠)
في اليوم الثالث و (٥٣,٨٢٣) في اليوم الرابع فبلغ بذلك المجموع الكلي في
الايام الاربعة الاولى (١٢٦,٦٠٦) من الاشخاص . وعندما بدأت العملية ، كان
المشرفون عليها يتوقعون اجلاء (٤٥) الف رجل فقط في اليومين الأولين ، إذ لم
يكونوا يتصورون ان المجال سيتاح لهم لمدة اطول .

ولم تستفق القيادة العليا الألمانية لما هو واقع إلا في هذا اليوم الرابع من بدء
«عملية دينامو» ، أي في الثلاثين من ايار . وكانت بلاغات هذه القيادة تؤكد
طيلة هذه الايام الاربعة ، بأن مصير الجيوش المطوّقة بات محتوماً . وذكر بلاغ

صدر في التاسع والعشرين من ايار ودونته في يومياتي بالحرف الواحد ما يلي :
« لقد تقرر مصير الجيش الفرنسي في ارتوا ... أما الجيش البريطاني الذي ضغط
ضغطاً شديداً في المنطقة المحيطة بدنكرك فيسير ايضاً نحو دماره النهائي امام
هجماتنا المركزة » .

لكنه لم يكن يسير نحو هذا الدمار في الحقيقة ، وانما كان يمضي إلى البحر .
ومن الحق ان يقال ، انه كان يتخلى عن اسلحته الثقيلة ومعداته ، ولكنه
كان يمضي بكل تأكيد بالرجال ، الذين يستطيعون ان يعيشوا ليخوضوا الحرب
في يوم آخر .

وأسرّ هولدر الى يومياته في صباح الثلاثين من ايار « بأن تقسخ العدو الذي
اتمنا تطويقَه يستمر » . واعترف ان بعض البريطانيين « يقاتلون بأسنانهم
وأظافرهم » بينما يفرّ البعض الآخر الى الساحل محاولاً عبور القناة الى انكلترا
بكل ما يتوفر له من اشياء تعوم . انها .. كارثة وانحلال « مشيراً بذلك الى
رواية اميل زولا المشهورة عن انهيار فرنسا في الحرب الفرنسية - البروسية » .
وقد استفاق رئيس هيئة اركان الحرب ، بعد ظهر ذلك اليوم ، وبعد
اجتماع مع براوختش الى اهمية هذه الاسراب من القوارب الصغيرة الحقيرة التي
يستخدمها البريطانيون في فرارهم فكتب يقول :

« ان براوختش غاضب ... كان في امكاننا ان نغلق هذا الجيب
من ناحية البحر لو ان سلاحنا المدرع لم يتوقف . وقد حاولت رداءة
الطقس دون قيام طائراتنا بواجبها ، وعلينا ان نقف الآن وان
نشهد الوف الاعداء وهم ينجون الى انكلترا تحت سمعنا وبصرنا » .

حقاً هذا ما وقع . اذ على الرغم من الضغط المتزايد الذي فرضه الألمان
فوراً على جميع اطراف الجيب ، فقد صمدت الخطوط البريطانية ، وتمكنت
القيادة المعادية من اجلاء عدد آخر من القوات . وكان اليوم التالي الواحد والثلاثون
من ايار اضخم هذه الايام بما تحقق فيه من نتائج . فقد تم نقل (٨٦) الف بريطاني
فيه إلى انكلترا ثلثهم من الشطآن الرملية والثلاثان الباقيان من ميناء دنكرك .

وهكذا تم اجلاء (١٩٤٠، ١٩٤١) رجلاً من دنكرك ، أي ما يعادل أربعة اضعاف التقديرات الأولية .

واين كان سلاح المانيا الجوي ذو الشهرة الكبيرة ؟ لقد حال الطقس السيئ بينه وبين العمل بعض الوقت كما دون هولدر في يومياته . أما في الاوقات الباقية فقد واجه مقاومة لم يكن يتوقعها من السلاح الجوي الملكي البريطاني . الذي تمكن من الوقوف امامه موقف التحدي من قواعده عبر القناة لأول مرة^(١) . وقد اقامت طائرات « Spitfires - باصقات النار » البريطانية الجديدة الدليل على انها تستطيع ان تقف اكثر من موقف النكد من طائرات « مسرشميت » الألمانية ، وتولت اسقاط القاذفات الألمانية المزعجة . وتمكنت طائرات غورنغ في بعض الاحيان من الوصول الى سماء دنكرك في الفترات التي انقضت بين عودة سرب من الطائرات الى قواعده ، ووصول سرب آخر ، وحدثت اضراراً بالغة في الميناء ، بحيث عطلته عن العمل ، واجبرت الجنود على استخدام الشواطئ في الانتقال الى البواخر . ووجه السلاح الجوي الألماني ايضاً هجماته العنيفة الى البواخر البريطانية وتمكن من اغراق (٢٤٣) من مجموع (٨٦١) قطعة . ولكن هذا السلاح فشل في ان ينفذ لهتلر ما وعده به غورنغ وهو إبادة الحملة البريطانية بكاملها . وفي الأول من حزيران ، عندما قام السلاح الجوي باعنف هجوم له ، كلفه ابلغ الخسائر ، اذ خسر كل من الجانبين الألماني والبريطاني ثلاثين طائرة ، تمكن من اغراق ثلاث مدمرات بريطانية وعدد من سفن النقل

١ - لم يشعر الكثيرون من الجنود البريطانيين المجهدين، وهم على الشطآن بهذه الحقيقة نظراً لتعرضهم المستمر للقصف العنيف ، اذ ان المعارك الجوية كانت تدور دائماً فوق السحب أو على مسافات بعيدة من مدى النظر . وكل ما كانوا يعرفونه ان الطائرات الألمانية كانت تواصل قذفهم بقنابلها، واصلاهم بنيرانها الحامية طيلة الصريق التي مروا فيها من بلجيكا الشرقية الى دنكرك وكانوا يحسون بأن قواتهم الجوية مد تحلت عنهم . وعندما وصل هؤلاء الى موالي الوطن كان بعضهم يوجه اهاناته الى الجنود الذين يرتدون بزة الطيران . وقد حزن تشرشل لهذا حزناً شديداً، وخرج عن طوره ليضع الامور في نصابها الصحيح عندما خطب في مجلس العموم في الرابع من حزيران . وقد قال إن « عملية الخلاص من دنكرك قد تمت بفضل السلاح الجوي » .

الصغيرة . ولكن البريطانيين تمكنوا من انقاذ (٤٢٩ و ٦٤) رجلاً وعندما حل فجر اليوم التالي لم يكن هناك في القطاع إلا نحو من اربعة آلاف بريطاني ، يتولى حمايتهم نحو من مائة الف فرنسي ، هم الذين يقيمون على صيانة الخطوط الدفاعية . واصبحت المدفعية الألمانية المتوسطة في غضون ذلك على مرمى القطار ، وتحتم على القيادة البريطانية وقف عمليات الجلاء في وضح النهار . ولم يكن السلاح الجوي الألماني يعمل آنذاك في ظلام الليل ، ولذا فقد تمكنت هذه القيادة ليلتي الثاني والثالث من حزيان من اجلاء من تبقى من رجال الحملة البريطانية وستين الف فرنسي بنجاح بارز . أما دنكرك التي ظل نحو من اربعين الف جندي فرنسي يدافعون عنها باصرار وعناد فقد صمدت حتى صباح الرابع من حزيان . وكان نحو من (٣٣٨ و ٢٢٦) جندياً بريطانياً وفرنسياً قد نجوا حتى ذلك اليوم من براثن الالمان ولم يكن هؤلاء بعد نجاتهم يؤلفون جيشاً بمعنى الكلمة ، اذ كان معظمهم ، كما هو منتظر ، قد بات في حالة مخزنة للغاية . ولكنهم كانوا قد خبروا الحرب والقتال ، وادركو انهم اذا احسن تسليحهم ، وضمنوا القطاء الجوي المناسب ، فإن في وسعهم ان يصمدوا للالمان . وقد برهن معظمهم على هذه الحقيقة عندما تحقق التوازن في السلاح ، وفي شواطئ على القناة لاتبعد كثيراً عن الشواطئ التي تم انقاذهم منها .

حقاً لقد كانت دنكرك تمثل الانقاذ للبريطانيين . ولكن تشرشل راح يذكرهم في الخطاب الذي القاه في مجلس العموم في الرابع من حزيان ان « الحروب لا تربح بعمليات الجلاء » . وكانت التكهينات بالنسبة الى بريطانيا العظمى اكثر قتاماً وظلاماً ، واشد خطورة مما كانت عليه في اي وقت مضى منذ ايام الفتح النورماني قبل نحو من الف عام . فليس لدى بريطانيا الجيش الذي يستطيع الدفاع عن جزرها . وقد منيت القوة الجوية البريطانية بنحسائر بالغة في فرنسا اضعفتها . ولم يبق لها الا اسطولها ، وقد اثبتت الحملة النرويجية ، ضعف البواخر الحربية الكبيرة امام الطائرات التي تعمل من قواعد ارضية . وقد باتت القاذفات الألمانية الآن على بعد خمس دقائق او عشر من القناة الانكليزية الضيقة . وما

زالت فرنسا صامدة وراء السوم والآين . ولكن خيرة جنودها وسلاحها ، قد ضاع في بلجيكا وشمالي فرنسا ، كما دمرت قوتها الجوية الصغيرة وغير الملحوظة تدميراً يكاد يكون كاملاً ، وبدأ قائدها الشهير ان المشير بتان والفريق ويفان ، يسيطران الآن على حكومتها الضعيفة المترجرجة ، وهما لم يعودا راغبين في القتال ضد عدو متفوق .

وكانت جميع هذه الحقائق المرعبة ماثلة امام ونستون تشرشل عندما نهض في مجلس العموم في الرابع من حزيران عام ١٩٤٠ ، بينما كانت آخر قوافل النقل تنزل من دنكرك وقد صمم ، كما كتب فيما بعد ، على ان يظهر لا لشعبه فحسب بل وللعالم كله ايضاً ولا سيما للولايات المتحدة الامريكية « ان اصرارنا على القتال يقوم على اسس جدية » . وكانت هذه هي المناسبة التي فاه فيها بخطابه الشهير ، الذي سيخلد التاريخ ، والذي سيظل واحداً من اشهر الخطب التي عرفها التاريخ في مختلف العصور اذ قال :

« وعلى الرغم من ان مساحات شاسعة من اوروبا ، وعلى الرغم من ان دولاً كثيرة عريقة ومشهورة ، قد سقطت ، او قد تسقط في قبضة الغستابو ، وتحت وطأة جهاز الحكم النازي الرهيب ، فإننا لن نهن ولن نستسلم ، بل سنمضي الى النهاية . وسنحارب في فرنسا وفي البحار والمحيطات ، وسنقاتل بثقة تتزايد ، وقوة تنمو في الهواء ، وسندافع عن جزيرتنا مهما كان الثمن غالياً . اجل سنقاتل على الشطآن ، وفي المطارات ، واماكن الهبوط . وسنحارب في الشوارع والحقول ، وفي التلال والوهاد ، ولن نستسلم . واذا قدر ، وهذا ما لا اتصوره لحظة واحدة ، لهذه الجزيرة او لقسم كبير منها ان يسقط في يد العدو ، وتموت جوعاً . فإن امبراطوريتنا وراء البحار ، يعززها ، ويحرسها الاسطول البريطاني ، ستحمل راية النضال ، الى ان تحين ارادة الله . فيسارع العالم الجديد ، بكل ما لديه من عزم وقوة الى انقاذ العالم القديم وتحريره » .

انهيار فرنسا

يبدو ان اصرار البريطانيين على القتال ، لم يزعج أفكار هتلر قيد شعرة واحدة . وكان على ثقة من انهم سيروا صباح الحقيقة ، بعد أن ينتهي من فرنسا التي شرع الآن في إنهائها . وقد شرع الألمان في صباح اليوم الذي تلا سقوط دنكرك ، أي في الخامس من حزيران بهجوم واسع وضخم على السوم ، وسرعان ما امتد هذا الهجوم القوي الطاعني ليشمل جبهة تمتد اربعمائة ميل عبر فرنسا كلها من ابفيل حتى أعالي نهر الراين . وتقرر مصير الفرنسيين . ولم يكن في وسعهم أن يحشدوا أمام القوات الألمانية المهاجمة التي تعد (١٤٣) فرقة بينها عشر من الفرق المدرعة ، إلا خمساً وستين فرقة معظمها من فرق الدرجة الثانية ، بعد أن ضاع أحسن الفرق ومعظم السلاح المدرع في بلجيكا . ولم يبق لدى الفرنسيين الا قوة جوية لا تكاد تذكر . ولم يكن في وسع البريطانيين ان يقدموا أكثر من فرقة مشاة واحدة ، كانت ترابط في السار ، وبعض فئات من فرقة مدرعة . ولم يكن في وسع السلاح الجوي الملكي البريطاني أن يستغني إلا عن عدد ضئيل من الطائرات للاشتراك في هذه المعركة ، إلا اذا كانت بريطانيا ستترك جزرها دون وقاية جوية كافية . وأصبحت القيادة العليا الفرنسية ايضاً بعد ان سيطر عليها بتان وويغان ، تحت كابوس من الانهزامية . ومع ذلك فقد قاتلت بعض الوحدات الفرنسية بشيء كثير من البسالة والعناد ، متمكنة من وقف السلاح الألماني المدرع وقفاً مؤقتاً هنا وهناك ، وصامدة بإصرار أمام القصف الجوي العنيف من الطيران الألماني .

لكن القتال لم يكن متكافئاً . واندفعت القوات الألمانية لتحتاج فرنسا في « فوضى النصر » على حد تعبير تيلفورد تيلور الرائع ، وكأنها موجة من موجات المد ، وقد نجمت الفوضى عن وجود أعداد كبيرة من هذه القوات ، وعن

سرعة حركتها ، واضطرار بعضها احياناً الى عرقلة زحف البعض الآخر (١) .
وهجرت الحكومة الفرنسية في العاشر من حزيران وبسرعة هائلة مدينة باريس ،
وتمكن جيش الفريق فون كويشيلر في الرابع عشر من حزيران من احتلال تلك
المدينة العظيمة ، التي تتمثل فيها اجماد فرنسا ، والتي تركت دون دفاع عنها .
وسرعان ما راح علم « الصليب المعقوف » يرفرف على برج ايفل . واستقالت
حكومة الرئيس رينو في السادس عشر من حزيران ، وكانت قد فرت الى
بورجو ، وحلت محلها حكومة اخرى برئاسة بتان ، الذي راح يطلب من
الألمان في اليوم التالي وعن طريق السفير الاسباني عقد الهدنة (٢) . ورد هتلر في

١ - تيلفورد تيلور - زحف الفتح - ص ٢٩٧ .

٢ - بعث القيصر غليوم من منفاه في دورن في هولندا المحتلة في هذا اليوم السابع عشر من
حزيران عام ١٩٤٠ ببرقية تهنئة الى هتلر ، بعد ان ظل امداً طويلاً يزدرية ، معتبراً اياه انساناً
عادياً « حديث النعمة » . وقد عثر على هذه البرقية في الوثائق النازية المصادرة . وهذا نصها :
« متأثراً تأثراً عميقاً باستسلام فرنسا ، اغتنم الفرصة لتهنئتك وتهنئة القوات الألمانية
المسلحة كلها بهذا النصر الجبار الذي شاء الله ان يمنحنا اياه مقتبساً عبارات الامبراطور
وبلهام الاكبر في عام ١٨٧٠ عندما قال : « ياله من تحول في الاحداث جاءت به
الارادة الالهية » .

« وتتردد اليوم في افئدة الألمان جميعاً اصدااء ترنيمة لوئين (*) ، التي اشدها
منتصرو معركة لوئين من جنود الملك العظيم عندما قالوا « لتتوجه جميعاً الى الله
بالشكر » .

ولما كان هتلر يعتقد ان الفضل في هذا النصر الجبار يعود اليه لا الى الله ، اعد رداً متحفظاً على
هذه البرقية التي لا يعرف احد ما اذا كانت قد ارسلت الى غليوم او لا اذ لم يظهر ذلك في الوثائق
الألمانية (نص البرقية والرد في وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٩)) .

وكان الفوهرر قد استشاط غضباً قبل وقت قصير ، عندما عرف بأن الوحدة الألمانية التي
استولت على دورن ، وضعت حرس شرف على قصر الامبراطور المبعد عن البلاد . وسرعان
ما اصدر هتلر امره برفع حرس الشرف واعلان البلدة محظورة على العسكريين الألمان . وقد
توفي غليوم فيها في الرابع من حزيران عام ١٩٤١ ودفن فيها . ودون هاسيل في الصفة
(٢٠٠) من يومياته ، ان وفاته مضت دون ان يحس بها انسان في المانيا .

(*) لوئين اسم قرية في سيليزيا البولندية اشتهر امرها بالمركة الظافرة التي انتصر فيها
فريدريك الكبير على النمساويين في عام ١٧٥٧ . - المغرب -

نفس اليوم ، بأنه يجد نفسه مضطرا اولا الى استشارة حليفه موسوليني . إذ كان هذا المحارب المزهو بنفسه ، قد سارع يقفز كابن آوى الى الحرب في العاشر من حزيران ، بعد ان تأكد من هزيمة الجيوش الفرنسية التي لامفر منها ، ليحصل على شيء من الأسلاب .

الدوتشي يغمد خنجره الصغير في ظهر فرنسا

وجد هتلر ، رغم انشغاله الكلي ، بمعركة الغرب التي خاضها ، الوقت الكافي لكي يكتب الى موسوليني في فترات متقاربة بشكل يثير الدهشة ، ليطلعه على سير الانتصارات الألمانية المتعاقبة .

فبعد الرسالة الأولى التي وجهها في السابع من ايار الى موسوليني ، مبلغا اياه بأنه على وشك مهاجمة بلجيكا وهولندة « لضمان حيادهما » ، وبأنه سيواصل اطلاعه أولاً بأول على سير الأمور حتى يمكن الدوتشي من اتخاذ قراره في الوقت المناسب ، وجه اليه رسائل اخرى في الثالث عشر من ايار والثامن عشر منه والخامس والعشرين وكانت كل رسالة منها أكثر تفصيلا وحاسا من الرسالة السابقة لها ^(١) . وعلى الرغم من ان القادة العسكريين لم يكونوا ليكثر ثواقيد شعرة ، كما تظهر يوميات هولدر ، بما ستفعله ايطاليا ، وهل ستدخل الحرب أو لا ، كان الفوهرر لسبب ما يعلق أهمية كبرى على تدخل ايطاليا . وما كادت هولندة وبلجيكا تستسلمان ، والجيوش الانكليزية - الفرنسية في الشمال تتحطم وما تبقى من القوات البريطانية يسرع الى الزوارق في دنكرك ناجيا مجلده ، حتى كان موسوليني يقرر التسلل الى الحرب . وراح يبلغ هتلر في رسالة بعث

١ - نصوص الرسائل المتبادلة بين موسوليني وهتلر بين شهري ايار وحزيران عام ١٩٤٠ في وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٩) .

بها اليه بتاريخ الثلاثين من ايار أن موعد دخوله الحرب قد تقرر في الخامس من حزيران . وقد رد هتلر فوراً بأنه « تأثر أشد التأثير بهذا القرار » . وراح يقول في رده الذي بعث به اليه في الواحد والثلاثين من ايار ما يلي :

« اذا كان لا يزال ثمة ما يقوّي إيماني الذي لا يتزعزع بالنتيجة الطافرة في هذه الحرب ، فإن بيانك الذي بعثت به إليّ ، هو هذا الشيء ... وليس ثمة من ريب في ان الحقيقة المجردة المتعلقة بدخولك الحرب تؤلف عنصراً يؤدي الى اصابة جبهة اعدائنا بضربة تحملها على الترنح » .

لكن الفومرر راح يطلب الى حليفه على أي حال ، أن يؤجل الوعد ثلاثة أيام أخرى لأنه يود ان يقضي أولاً على القوة الجوية الفرنسية . وقد استجاب له موسوليني فأجل الموعد خمسة ايام اخرى أي الى العاشر من حزيران ، وأضاف ان العمليات الحربية ستبدأ في اليوم التالي .

ولكن عمليات الدوتشي الحربية لم تكن كبيرة ابداً . ففي الثامن عشر من حزيران ، عندما استدعى هتلر شريكه الصغير الى ميونيخ للبحث في الهدنة مع فرنسا ، لم تكن الفرق الايطالية الاثنتان والثلاثون قد تمكنت بعد اسبوع من القتال من تحريك قوة فرنسية صغيرة لا تعدو الفرق الست من مواضعها على جبهة الألب ، والى الجنوب على ساحل الريفيرا ، على الرغم من ان المدافعين كانوا يتعرضون آنذاك للهجوم على مؤخرتهم من القوات الالمانية المكتسحة كل ما أمامها والزاحفة مع مجرى نهر الرون ^(١) . ودون شيانو في يوميته بتاريخ

١ - منعت القيادة الفرنسية العليا الانهزامية ، القيام بأي عمل هجومي ضد ايطاليا . وقامت مجموعة فرنسية بحرية في الرابع عشر من حزيران بضرب المصانع ومستودعات الزيت ومعامل التكرير الايطالية القريبة من جنوة ، ولكن امير البحر دارلان حرم القيام بأي عمل آخر من هذا النوع . وعندها حاول السلاح الجوي البريطاني ان يبعث بقاذفاته من المطارات القريبة من مرسيليا لقصف ميلان وتورين ، قذف الفرنسيون بمدد من ميارات الشحن الى المطارات للحيلولة دون طيران الطائرات منها .

الواحد والعشرين من حزيران ما يلي :

« يحس موسوليني بالكثير من الذلة لأن قواتنا لم تخط خطوة واحدة الى الأمام . ولم تفلح حتى في هذا اليوم في احراز أي تقدم ، وقد توقفت أمام التحصينات الفرنسية الأولى التي أبدت بعض المقاومة » (١) .

وقد تكشف ما في قوة موسوليني العسكرية التي كثيراً ما تبجح بها من خواء منذ البداية ، وقد أحال هذا مزاج الديكتاتور الايطالي القميء الى التجهم والعبوس ، عندما استقل مع وزير خارجيته شيانو القطار مساء السابع عشر من حزيران الى ميونيخ ليتشاور مع هتلر في موضوع الهدنة مع فرنسا . وكتب شيانو في يومياته يقول :

« يبدو موسوليني ساخطاً ، فهذا الهجوم المفاجيء يثير في نفسه القلق . وقد تحدثنا أثناء الرحلة مطولاً ، لإيضاح الأوضاع التي يمكن فيها منح الهدنة الى الفرنسيين . ويرغب الدوتشي في المضي بعيداً الى حد احتلال الأرض الفرنسية كلها ، وتسليم الاسطول الفرنسي . ولكنه يدرك ان ليس لرأيه اكثر من قيمة استشارية . فلقد ربح هتلر الحرب دون أي اسهام عسكري فعلي من جانب ايطاليا ، ولذا فلا ريب ان الكلمة الاخيرة هي لهتلر . ويزعج هذا الوضع بدهياً موسوليني ويبعث في نفسه الاسى » .

وكان لين « كلمة الفوهرر الأخيرة » بمثابة هزة واضحة نزلت بالايطاليين عندما تشاوروا مع سيد الحرب النازي في دارة الفوهرر في ميونيخ حيث كانت تشيمبرلين وديلاديه قد أظهرها منتهى التساهل مع الديكتاتورين في موضوع تشيكوسلوفاكيا قبل أقل من عامين . وتوضح المذكرة السرية الالمانية التي أعدت عن الاجتماع (٢) ، ان هتلر كان عازماً قبل كل شيء على عدم السماح

١ - يوميات شيانو ص ٢٦٧ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٦٠٨ - ٦١١ .

للاسطول الفرنسي بالوقوع في ايدي البريطانيين . وكان يشعر بالقلق ايضاً من جراء احتمال فرار الحكومة الفرنسية الى افريقيا الشمالية أو لندن ، حيث تواصل الحرب . ولهذا قرر ان تكون شروط الهدنة ليس إلا معتدلة ، إذ ان شروط الصلح النهائي قد تكون شيئاً آخر ، وتهدف الى السماح « لحكومة فرنسية بالعمل على الارض الفرنسية » كما تضمن ايضاً « تجميد الاسطول الفرنسي » . ورفض رفضاً حازماً الاستجابة الى مطالب ايطاليا باحتلال حوض الرون بما في ضمنه مدينة طولون . القاعدة الفرنسية البحرية الكبيرة على البحر المتوسط حيث يوجد القسم الأكبر من الاسطول ، ومدينة مرسيليا ، وبتجريد كل من كورسيكا وتونس وجيبوتي من السلاح . وتقول المذكرة الالمانية ان شيانو ذكر المدينة الاخيرة بصوت منخفض ، مع انها مفتاح الجبهة التي تحتلها ايطاليا .

ووجد شيانو ايضاً ان رينيتروب المتزمت والمتصلت ، كان « ميالاً أشد الميل الى الاعتدال والهدوء ومؤيداً للسلام » . ولاحظ ايضاً ان موسوليني المحارب أحس بارتباك شديد ..

« فهو يحس بأن دوره عديم الاهمية .. ويخشى الدوتشي بصورة خاصة ، ان تكون ساعة السلام قد قربت ، وان حلم حياته الذي لم يتحقق ، باحراز الالمجاذ في ميادين القتال قد شرع في الاختفاء والذبول » (١) .

ولم يستطع موسوليني ايضاً ان يقنع هتلر بالموافقة على مفاوضات هدنة مشتركة مع الفرنسيين . ولم يكن الفوهرر راغباً في ان يشرك معه بنصره في هذه اللحظة التاريخية ، « جوني - الذي جاء متأخراً » ، وان لم يكن قد أفصح عن نيته هذه لصديقه المتخلف . ولكنه وعد الدوتشي بأن لا يوضع اتفاق الهدنة الذي سيعقده مع فرنسا موضع التنفيذ إلا بعد ان يكون الفرنسيون قد وقعوا الهدنة مع ايطاليا .

١ - يرميات شيانو ص ٢٦٦ .

وغادر موسوليني ميونيخ بخيبة الأمل والألم ، ولكن شيانو تأثر تأثراً طيباً من ناحية جديدة في هتلر . أوضحها في يومياته ، لم يكن قد رآها من قبل أو تصور وجودها . فقد قال في يومياته بعد عودته الى رومة :

« يتضح من كل ماقاله هتلر ، انه يود الاسراع في العمل لانهاء كل شيء . فهتلر اشبه ما يكون بالمغامر الذي فاز بضربة عظيمة من ضربات الحظ ، وبات راغباً في مغادرة المائدة الخضراء ، دون ان يقامر بأي شيء آخر . فهو يتحدث اليوم بشيء من التحفظ والاتزان اللذين يبدوان غريبين كل الغرابة بعد هذا النصر العظيم . ولا يمكن لانسان ان يتهمني بالافراط في الميل اليه ، ولكنني اقول اليوم انني اعجبت به حقاً » (١) .

الهدنة الثانية في كومبيين

لحقت بالجيش الالماني الى باريس في حزيران ، وهو اجمل شهور السنة في تلك العاصمة الجلييلة ، التي اصابها الويل والإذلال ، وفهمت في التاسع عشر من حزيران ما سيضعه هتلر من شروط للهدنة التي طلبها بتان قبل يومين . وقد تقرر ان توقع الهدنة في نفس المكان الذي استسلمت فيه الامبراطورية الالمانية في الحادي عشر من تشرين الثاني عام ١٩١٨ لفرنسا وحلفائها ، أي في نفس الفجوة الصغيرة الموجودة بين غابات كومبيين . فسيثأر الفوهرر لألمانيا بذلك ، وستضيف روعة المكان الى ما يحس به من عدوية النصر . وكانت الفكرة قد لاحت له في العشرين من ايار أي بعد عشرة ايام فقط من بدء الهجوم العظيم في الغرب ، وفي نفس اليوم الذي وصلت دباباته فيه الى ابيفيل . فلقد دون يودل في يومياته لذلك اليوم يقول : « يعمل الفوهرر الآن في اعداد معاهدة الصلح ... انه

١ - يوميات شيانو ص ٢٦٦ .

يريد ان تدور المفاوضات الأولى في غابة كومبيين . » ورحت في ساعة متأخرة من بعد ظهر التاسع عشر من حزيران الى المكان ووجدت المهندسين العسكريين الألمان ينسفون جدران المتحف الذي اقيم هناك للحفاظ على عربة النوم التي كان يستقلها المشير فوش والتي وقعت فيها هدية عام ١٩١٨ . وعندما تركت المكان كان المهندسون الألمان وهم يعملون بمناقب هوائية ، قد تمكنوا من « تهبط » الجدار وشرعوا يسحبون العربة الى الخط في منتصف الفجوة ، أي في عين المكان الذي كانت فيه كما قالوا في الساعة الخامسة من صباح الحادي عشر من تشرين الثاني عام ١٩١٨ عندما شرع فوش يأمر المبعوثين الألمان بوضع توابعهم على اتفاق الهدنة .

وهكذا عندما وقفت بعد ظهر ذلك اليوم الحادي والعشرين من حزيران عند طرف غابة كومبيين لأشهد آخر انتصارات هتلر واعظمها ، بعد ان شهدت في سني عملي الكثير منها في تلك السنوات المضطربة . لقد كان ذلك اليوم من اجمل ايام الصيف التي اذكر اني قضيتها في فرنسا . وكانت شمس حزيران الدافئة تنعكس على الاشجار العالية الرائعة على بلوط وسنديان وصفصاف وصنوبر ، ملقية بظلالها الجميلة على الممرات الصغيرة بين الاشجار المؤدية الى الفسحة الدائرية الصغيرة . وفي الساعة الثالثة والربع مساء على وجه التقريب وصل هتلر بسيارته المرسّدة الفارحة ، يصحبه غورنغ وبراوختش وكايتل وريدر ورينتروب وهس ، وجميعهم في بزاتهم العسكرية المختلفة ، بينما وقف غورنغ وهو المشير الوحيد في الرايخ يلهو بعضا المارشالية التي يحملها في يده . وقد هبطوا من سياراتهم على بعد مائتي ميل ، امام تمثال الالزاس واللورين الذي غطته الرايات الحربية الألمانية ، حتى لا يرى الفوهرر السيف الضخم الذي اذكر اني رأيته في زيارات سابقة في ايام الخير والسعادة . وهو سيف الحلفاء المنتصرين في عام ١٩١٨ ، مخترقا جسد نسر جريح ، يمثل امبراطورية الهوهنزولرن الالمانية . وتطلع هتلر بطرف عينه الى التمثال ، ثم مضى في طريقه ، ودوّنت في يومياتي لذلك اليوم اقول :

« لاحظت وجهه . كان عابساً متجهماً تعلوه سياء الجذو وإن
أشرقت في عينيه علائم الفرخ للثأر . ورأيت في هذه النظرات كما
في خطواته الواثبة ، صورة الفاتح المنتصر ، ومتحدي العالم . وكان
ثمة شيء آخر ... انه نوع من الفرخ الذاتي الباطني الذي يشير الى
الزراية بكل شيء ، لأنه يشهد هذا الانعكاس العظيم للقدر ،
الانعكاس الذي خلقه هو بنفسه » .

وعندما وصل الى تلك الفسحة القائمة في وسط الغابة ، وأضحى شخصه هو
في مركزها ، اجتذبت انتباهه كتلة ضخمة من الغرانيت تقف على ارتفاع ثلاثة
أقدام من الأرض ... ودونت قائلاً :

« وسار الآخرون وراء هتلر ، ومشى هو نحو هذه الكتلة . ثم
صعد درجها ، وقرأ ما عليها من كتابة بالفرنسية ، دونت بالأحرف
الضخمة :

« هنا وفي الحادي عشر من تشرين الثاني عام ١٩١٨ استسلمت
كبرياء الامبراطورية الألمانية الاجرامية — بعد ان قهرتها الشعوب
الحرة التي حاولت استعبادها » .

« وقرأها هتلر ، ثم تبعه غورنغ وسرعان ما قرأها الجميع ،
وقد وقفوا واجمين تحت نيران شمس حزيران الحارقة . وتطلعت
الى وجه هتلر أقرأ ما فيه من تعبيرات . وانا لا أبعد عنه اكثر من
خمسین ياردة ، وأراه في نظارتي وكأنه امامي مباشرة . وكنت قد
رأيت هذا الوجه عدة مرات في اللحظات التي مر بها في حياته .
أما اليوم ! فقد اتقد هذا الوجه بتعابير الاحتقار والغضب
والكراهية والثأر والانتصار .

« واجتاز النصب ، وقد نجح في ان يبدي ايماء تعتبر قطعة
فنية من الامتهان . وعاد يلتفت اليه ، وتعابير الزراية والغضب
ما زالت ماثلة في محياه . انه غضب تكاد تلمسه لأنه لا يستطيع ان

يمحو تلك الكلمات المثيرة والمرعبة بحركة واحدة من حذائه البروسي^(١). ويعود فيتطلع حوله داخل الفرجة بين الأشجار ، وعندما التقت عيناه بعيوننا ، كان في وسعنا ان نحس بعمق ما فيها من كراهية . ولكن فيها أيضاً لمحات من الانتصار ، انه الكره المنتقم المنتصر . وفجأة ، وكأن بحياه لا يعكس التعابير الكاملة لعواطفه ، نراه يقوم بحركات عضوية تتناسق مع مزاجه . وبسرعة يضع راحتيه في خصره ، ويعلو بكثفيه ، ويبعد بين قدميه . انه التعبير الرائع عن التحدي وعن الامتهان اللاهب لهذا المكان في هذه اللحظة ، ولكل ما مثله في الاثنتين والعشرين سنة الماضية منذ ان شهد اذلال الامبراطورية الالمانية » .

ودخل هتلر وصاحبه عربة القطار التي شهدت الهدنة الماضية وجلس الفوهرر في المقعد الذي احتله فوش في عام ١٩١٨ . ووصل الوفد الفرنسي بعد خمس دقائق يرئسه الفريق شال هوتزنجر ، قائد الجيش الثاني في سيدان ، ويضم أحد أمراء البحر ، « وفريقاً » من السلاح الجوي ، وأحد المدنيين وهو ليون نويل السفير الفرنسي السابق في بولندة ، الذي قدر له ان يشهد الآن « الانهيار » الثاني الذي احدثته الأسلحة الألمانية . وبدأ الفرنسيون محطمين وان كانوا قد احتفظوا بشيء من الكبرياء المفجعة . ولم يكن أحد قد ذكر لهم ، انهم سيقادون الى هذا النصب الفرنسي المتكبر ، ليمروا بلحظات لا مثيل لها من الاذلال ، ولذا فإن الهزّة التي اصابتهم كانت من النوع الذي توقعه هتلر . ودون هولدر في يومياته في تلك الليلة ، بعد ان روى له براوختش ما شهدته في ذلك اليوم ما يلي :

« لم يتلق الفرنسيون أي اشعار بأن الألمان سيسلمونهم شروط الهدنة في نفس المكان الذي شهد مفاوضات عام ١٩١٨ . ويبدو ان هذا الترتيب هزهم هزّة عنيفة ، وقد مالوا في البداية الى التجهّم والتبرم » .

١ - لقد نسب ذلك النصب بعد ثلاثة ايام ، حسب أوامر الفوهرر .

ومن المحتمل أن يكون طبيعياً بالنسبة الى الماني مثقف كهولدر أو براوختش ان يخلط بين الكبرياء المتجهمه وبين التبرم . فلقد كان في وسع كل من شهد ذلك المنظر ان يرى موجة من الدهشة التي تقرب من الشمول ، قد سيطرت حقاً على الفرنسيين . ولقد حاولوا ، خلافاً لما انتشر من اقوال آنذاك ، ان يلبّثوا بعض الأجزاء القاسية من شروط هتلر ، وان يبعدوا تلك التي رأوا فيها ما يس بكرامة بلادهم وشرفها . لكن محاولاتهم هذه التي قامت الأدلة على وجودها في الوثائق السرية النازية المصادرة ، ذهبت أدراج الرياح ^(١) .

وغادر هتلر وحاشيته عربية الهدنة بعد ان انتهى الفريق كايكل من تلاوة مقدمة شروط الهدنة على مسامع الفرنسيين تاركاً ، أمر المفاوضات الى رئيس قيادته العليا للقوات المسلحة ، دون ان يسمح له بالابتعاد ولو شعرة واحدة عن الشروط التي وضعها هو بنفسه .

وراح هوتزنجر يعلن للألمان بعد استماعه الى الشروط ، انها « قاسية وخالية من الرحمة » ، وانها اسوأ من تلك التي سلمتها فرنسا الى المانيا في عام ١٩١٨ . وأضاف قائلاً ان « فرنسا لن تدعن إذا قامت دولة أخرى تقع وراء الألب ، ولم

١ - على الرغم من ان سجلات الوقائع ، التي عثر عليها في المحفوظات الالمانية غير موقعة ، الا ان الدكتور شميدت شهد أمام محكمة نورمبرغ ، بأنه هو الذي تولى وضعها . ولما كان هو الذي قام بدور المترجم في الاجتماع ، فلقد كان خير من يستطيع تقديم وصف لما دار فيه . وتوجد هذه الوقائع في « محاكمات كبار مجرمي الحرب (٩) على النحو التالي : مفاوضات الواحد والعشرين من حزيران ص ٦٤٣ - ٦٥٠ ، تسجيل المعاهدة الهاتفية بين الفريق هوتزنجر والفريق ويفان (في بوردو) مساء الواحد والعشرين من حزيران ، كما دونها شميدت الذي أمر بالاصفاء اليها ص ٦٥٢ - ٦٥٤ ، تسجيل المعاهدة الهاتفية بين هوتزنجر والعقيد بورجيه مرافق ويفان في الساعة العاشرة من صباح ٢٢ حزيران ص ٦٦٤ - ٦٧١ ، نص اتفاق الهدنة ص ٦٧١ - ٦٧٦ ، مذكرة عن المواضيع التي اثارها الفرنسيون في مفاوضات كومبيين ورد الالمان عليهم ص ٦٧٦ - ٦٧٩ ، وقد اصدر هتلر تعليماته باعتبار هذه الوثيقة على الرغم من انها ليست جزءاً من الاتفاق ملزمة للجانب الالمني . وقد سجل الالمان بأجهزة سرية كل ما دار من حديث في عربية القطار . وقد سمعت بنفسى جزءاً من هذه التسجيلات . ولا أعلم أن هذه التسجيلات قد نشرت ، كما لا أعلم عن الثور عليها . وكانت ملاحظاتي التي دونتها جزئية الا بالنسبة الى الجلسة الدرامية الختامية .

تنتصر على فرنسا (يقصد ايطاليا التي لم يذكرها صراحة اشارة الى ازدرائه لها) ،
بتقديم شروط مماثلة ، مهما كانت النتائج . وستقاتل حتى النهاية المرة .. ولهذا
فهو يشعر باستحالة وضع توقيعه على الشروط الالمانية » ..

ولم يتوقع الفريق يودل ، وهو الضابط الثاني في رئاسة القيادة العليا للقوات
المسلحة ، وكان يتولى مؤقتاً رئاسة الجلسة ، مثل هذه العبارات التي تنطوي على
التحدي من عدو مهزوم يائس ، ورد بأنه على الرغم من اضطرابه الى التعبير عن
« تفهمه » لما قاله هوتزنجر عن الايطاليين ، إلا انه لا يملك الصلاحية لتبديل
شروط الفوهرر . وأضاف ان كل ما يستطيع ان يفعله هو « ان يقدم الايضاحات
ويشرح بعض النقاط الغامضة » . وعلى الفرنسيين اما قبول وثيقة الهدنة كما هي
أو رفضها .

وكان الالمان قد تضايقوا من وصول الوفد الفرنسي دون ان تكون لديه
الصلاحيات لعقد اتفاق الهدنة دون الموافقة الصريحة من حكومة بوردو . وكانوا
قد أفلحوا بمعجزة هندسية رافقها بعض الحظ الحسن ، من اقامة خط اتصال
هاثفي من عربة النوم القديمة ، عبر خطوط المعركة حيث كان القتال لا يزال دائراً
على أشده ، الى مدينة بوردو . وقد سمح للمفاوضين الفرنسيين باستخدام هذا
الخط لنقل نصوص الهدنة وشروطها ، ولبحثها مع حكومتهم . وصدر الأمر
الى الدكتور شميدت الذي يعمل ترجماناً ، بالاستماع من عربة مجاورة الى المحادثات
الهاتفية ، بعد ان أخفى الالمان هذه العربة وراء مجموعة من الأشجار . وقد
تمكن في اليوم التالي من الاستماع الى جزء مما سجله الالمان عن هذه المحادثات بين
الفريقين هوتزنجر وويغان .

وأرى لزماً علينا ان نذكر حسنة لويغان الذي يتحمل المسؤولية الكبرى
في الانهزامية الفرنسية وفي الاستسلام النهائي لبلاده وقطيعتها مع بريطانيا
العظمى ، وهي انه حاول جاهداً على الاقل ، الاعتراض على الكثير من مطالب
الالمان . وكان من أغرب هذه المطالب ، إرغام الفرنسيين على ان يسلموا الى
الرايخ جميع اللاجئين السياسيين الالمان من اعداء النازية في فرنسا وفي ممتلكاتها .

ووصف ويفان هذا الشرط بأنه امتهان لكرامة فرنسا ومناقض لتقاليدھا العريقة في منح اللجوء السياسي ، ولكن عندما عاد المتفاوضون الى بحث هذه النقطة في اليوم التالي ، رفض كايٲل المتعنت طلب الفرنسيين حذفھا . وقال بصوت عال يكاد يكون صراخاً : « لقد كان المهاجرون الالمان أعظم دعاة الحرب والمحرضين عليها . ولقد خانوا شعبهم ولذا يجب تسليمهم مهما كان الثمن » . ولم يعترض الفرنسيون على بند في الاتفاق يقول بصراحة ان جميع الفرنسيين الذين يلقى القبض عليهم وهم يحاربون في صفوف دولة ثالثة ضد المانيا ، يعتبرون « ارهابيين » يجوز اعدامهم فوراً . وكان هذا البند يستهدف ديقول الذي كان قد شرع في محاولاته لتنظيم قوة من الفرنسيين الأحرار في بريطانيا . لكن كايٲل ويفان ، لم يكونا يجھلان ان هذا البند يعتبر خرقاً فاضحاً لقواعد الحرب الأساسية . ولم يناقش الفرنسيون كذلك بنداً ينص على بقاء جميع أسرى الحرب في اسرهم الى ان يتم التوصل الى الصلح النهائي . ويبدو ان ويفان كان على ثقة من ان الالمان سيحتلون بريطانيا في غضون ثلاثة أسابيع وان اسرى الحرب الفرنسيين سيطلق سراحهم بعد هذه الفترة القصيرة . وهكذا قضي على مليون ونصف مليون من أسرى الحرب الفرنسيين بأن يظلوا رهن الاعتقال مدة خمس سنوات .

وكانت مشكلة التصرف بالأسطول الفرنسي هي النقطة الأساسية في اتفاق الهدنة . وكان تشرشل ، قد عرض على فرنسا عندما بدأت تترنح ، ان يحررها من التزاماتها بعدم عقد صلح منفرد ، شريطة ان تصدر الأوامر الى الاسطول الفرنسي بالابحار الى الموانئ البريطانية . ولكن هتلر كان عازماً على ان لا يقع هذا . فلقد كان يدرك تمام الإدراك ، كما ذكر لموسوليني في رسالته اليه في الثامن عشر من حزيران ، ان وقوع الاسطول الفرنسي في يد بريطانيا سيعزز قوتها العسكرية الى حد كبير . ولما كان يحس بضخامة الخطر من هذا الاسطول ، فقد تحتم عليه ، ان يتساهل مع العدو المهزوم ، أو ان يعده بشيء على الأقل . فقد نص اتفاق الهدنة على وجوب تجميد سفن الاسطول الفرنسي ونزع سلاحها .

ووقفها عن الحركة في موانئ الوطن ... وقد تعهدت الحكومة الالمانية مقابل ذلك ... تعهداً جازماً للحكومة الفرنسية :

« بأنها لا تعتزم ان تستخدم مطلقاً لأهدافها الحربية ، الاسطول الفرنسي الذي يقبع في الموانئ الفرنسية تحت اشراف الالمان . وهي تعلن أيضاً بصراحة ووضوح انها لا تعتزم مطلقاً المطالبة بالاسطول الفرنسي عندما تعقد معاهدة الصلح » .

ولكن هذا الوعد سرعان ما نقض كغيره من وعود هتلر .

ووافق هتلر أخيراً على أن يترك للحكومة الفرنسية منطقة غير محتلة في الجنوب والجنوب الشرقي ، حيث تكون حرة في الظاهر في الحكم كما تهوى وتشاء . وكانت هذه الحركة في منتهى الفطنة والذكاء . فهي لن تؤدي فقط الى تجزئة فرنسا جغرافياً وإدارياً ، بل وستجعل من المعتذر بل المستحيل اقامة أية حكومة فرنسية في المنفى ، كما تحبط الخطط التي يفكر فيها بعض الساسة في بوردو لنقل عاصمة الحكومة الفرنسية الى افريقيا الشمالية ، وهو مشروع كاد يلقي النجاح ، لو لم يفشل لا بتأثير الالمان بل بتأثير الانهزاميين الفرنسيين من أمثال بيتان وويغان ولافال وأعوانهم . وعرف هتلر فوق ذلك ان الرجال الذين تسلموا الآن زمام الحكم في حكومة بوردو من أعداء الديمقراطية الفرنسية ، وقد توقع منهم شيئاً من التعاون لمساعدته في اقامة النظام النازي الجديد في أوروبا .

ومع ذلك تمسك المندوبون الفرنسيون في مفاوضات الهدنة في كومبيين في اليوم التالي بموقف المنافرة والتسويق . وكان من أسباب التأجيل اصرار هوتزنجر ، على ان يكتفي ويغان بمنحه صلاحية التوقيع على اتفاق الهدنة ، بل يصدر له الامر بتوقيعها ، اذ لم يكن هناك في فرنسا من يرغب في تحمل المسؤولية . وأخيراً وجه كايتمل انذاراً نهائياً الى الفرنسيين في الساعة السادسة والنصف مساء . ونص الانذار على وجوب قبول الشروط الالمانية أو رفضها في غضون ساعة واحدة . واستسلمت فرنسا في غضون هذه الساعة . وفي الساعة السادسة

والدقيقة الخمسين من بعد ظهر الثاني والعشرين من حزيران عام ١٩٤٠ وقع هوتزنجر وكايتل اتفاق الهدنة^(١) .

واستمعت الى المناقشات الأخيرة من مكبرات الصوت الخفية الموضوعة في عربة القطار . وقبل التوقيع بلحظات ، أعلن القائد الفرنسي بصوت تخنقه الرعدة انه يود ان يفضي ببيان شخصي . ودوت هذا البيان ، وهو يتلوه بالفرنسية ... قال هوتزنجر :

« انني أعلن هنا ان الحكومة الفرنسية قد أمرتني بتوقيع شروط الهدنة هذه ... وعلى أثر اضطرار فرنسا بحكم السلاح الى وقف القتال الذي كنا نشتبك فيه الى جانب الحلفاء ، تجد فرنسا نفسها مرغمة على توقيع هذه الشروط القاسية للغاية . ومن حق فرنسا ان تتوقع من المانيا في المفاوضات المقبلة روحية تسمح لها ان البلادين العظيمتين المتجاورتين بالعيش والعمل معاً بسلام » .

ولم يقدر لهذه المفاوضات لعقد الصلح ان تقع مطلقاً ، ولكن الروحية التي أظهرها الرايخ الثالث فيما بعد ، أخذت تتضح مع اتجاه الاحتلال نحو الحشونة ، ومع تزايد الضغط على عهد بتان الذليل . فقد قضي على فرنسا ان تعدو تابعة لألمانيا ، وهو ما آمن به في الظاهر كل من بتان وويغان ولافال ، وقبلوا به .

وبدأ رذاذ من المطر يتساقط عندما غادر المندوبون عربة القطار وشرعوا يعودون بسياراتهم الى أماكنهم . وكان في وسع المرء ان يرى خطأ طويلاً غير متقطع من اللاجئين يغذون السير على أرجل مجعدة تعب ، أو على دراجاتهم وعرباتهم ، أو في الشاحنات القديمة اذا ساعدتهم حظهم على الوصول اليها . ومضيت الى الفجوة القائمة بين الاشجار ، ورأيت جماعة من المهندسين العسكريين الالمان ، يصرخون بحماس ، وهم يحركون عربة القطار القديمة التي وقعت فيها الهدنة ..

١ - نصت شروط الاتفاق على ان يوضع موضع التنفيذ في اللحظة التي يتم التوقيع فيها على الهدنة الفرنسية الايطالية كما نصت على توقف العمليات الحربية بمدست ساعات من ذلك التوقيع.

وقلت أسألهم .. الى أين تنقلون هذه العربية ؟ ..
فردوا .. الى برلين^(١) .

* * *

ووقعت الهدنة بين فرنسا وإيطاليا بعد يومين اثنين في مدينة رومة . ولم يتمكن موسوليني من احتلال إلا ما استولت عليه قواته فعلاً ، وهو لا يزيد على بضعة مئات من الياردات من الأراضي الفرنسية ، وإن يفرض قيام منطقة عمقها خمسون ميلاً منزوعة السلاح مقابل الأراضي الإيطالية في فرنسا وتونس . وتم التوقيع على الاتفاق في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين من بعد ظهر الرابع والعشرين من حزيران . وبعد ست ساعات سكّت هدير المدافع ودويها في فرنسا .

وهكذا خرجت فرنسا من الحرب بعد ستة أسابيع من بدء الهجوم ، بينما كانت قد تمكنت من الصمود في الحرب الأولى أربع سنوات دون أن تقهر . ووقفت القوات الألمانية موقف الحراسة في معظم أنحاء أوروبا من رأس الشمال فوق الدائرة القطبية حتى بوردو في الجنوب ، ومن القناة الانكليزية غرباً حتى نهر بوغ في بولندة الشرقية . وقد وصل أدولف هتلر الى أوجه . وبات الأفاق النمساوي السابق ، الذي كان أول من استطاع توحيد الالمات في دولة قومية صحيحة ، وهذا الرجل الذي عرفته الحرب الكونية الأولى عريفاً ، أعظم الفاتحين الذين عرفتهم المانيا . ولم يقف في وجه السيطرة الألمانية الكاملة التي أرادها على أوروبا في ظل نظامه الديكتاتوري ، إلا شخص انكليزي واحد ، لا يعرف الهزيمة ، يدعى ونستون تشرشل ، ووراءه شعب حزم امره على أن لا يعترف بالهزيمة التي واجهته ، بعد أن بات وحيداً ، يفتقر الى حد كبير الى السلاح ، وقد طوقت الجزر التي يعيش فيها من قبل اعظم جهاز عسكري عرفه العالم طيلة تاريخه الطويل .

١ -- وصلت العربية الى برلين في الثامن من تموز . ولعل من سخرية الاقدار ان تنال طائرات الحلفاء قد حطمتها في العاصمة الألمانية في وقت لاحق من الحرب .

هتلر يتطلع للسلام

ذكرنا آنفاً ان الفريق يودل دوّن في يومياته بعد عشرة ايام من بدء الهجوم الألماني الكاسح في الغرب ، وعشية وصول الدبابات الألمانية الى ابيفيل ، ان الفوهور « يعيش تحت سيطرة فرح طاغ » و اضاف انه « شرع يعمل في اعداد معاهدة الصلح ... وفي وسع بريطانيا ان تحصل على صلح منفرد في ابي وقت بعد حل مشكلة المستعمرات » . وكان هذا في العشرين من ايار . ويبدو ان هتلر ظل عدة اسابيع لا يشك مطلقاً في ان بريطانيا ستكون بعد اخراج فرنسا من الحرب تواقفة الى عقد الصلح . وكانت شروطه من وجهة النظر الألمانية ولا سيما بعدما تلقاه البريطانيون من ضرب عنيف في النروج وفرنسا ، سخية كل السخاء . وكان قد اعلن هذه الشروط الى الفريق فون رونشتادت في حديثه اليه في الرابع والعشرين من ايار معرباً عن اعجابه بالامبراطورية البريطانية ومؤكداً « ضرورة » بقائها . و اضاف ان كل ما يريده من لندن هو ان تسمح له بحرية العمل في القارة الأوروبية .

وكانت هذه الثقة متأصلة في نفسه في ان بريطانيا ستوافق على ذلك ، الى الحد الذي حمله بعد انهيار فرنسا على اهمال اعداد الخطط اللازمة للمضي في الحرب ضد بريطانيا . ولم تكلف هيئة اركان الحرب الكثيرة التعاضم والتفاخر نفسها عناء تزويده بأية خطة مع العلم بأنها عرفت بدقتها « البروسية » المتناهية في اتخاذ الأهبة مسبقاً لكل احتمال ولم يشتر هولدر رئيس هيئة اركان الحرب في يومياته المسهبة الى هذا الموضوع في هذا الوقت بالذات مطلقاً . وكان اكثر قلقاً من جراء التهديد الروسي في البلقان والبلطيق منه ، بالنسبة الى بريطانيا .

وقد يتساءل المرء حقاً ، ما هي العوامل التي دفعت بريطانيا العظمى الى المضي فريدة في حربها ضد قوات هائلة تجعل وضعها يائساً ؟ ولماذا تواصل هذه

الحرب مع ان في استطاعتها الحصول على صلح يضمن بقاءها ، خلافاً لفرنسا وبولندة وغيرها من الدول المهزومة ، سليمة وحررة لا تمس ؟ وكانت هذه الاسئلة توجه في كل مكان إلا في دوانغ ستريت حيث لم يفكر انسان ، كما كشف تشرشل النقاب فيما بعد ، حتى بالبحث فيها ، لأن الردود عليها بدهية لا تحتاج الى سؤال ^(١) . ولكن الديكتاتور النازي ، لم يكن على علم بما يجري هناك . ولم يصدق هتلر اذنيه عندما سمع تشرشل يعلن ان بريطانيا ماضية في حربها ، وخيل اليه ان تشرشل يهزل ولا يجد في قوله هذا . وظل هذا التشكك قائماً في نفس هتلر ، حتى بعد ان استمع الى رئيس وزراء بريطانيا وهو يخطب في مجلس العموم في الرابع من حزيران بعد الانسحاب من دنكرك ، ويقول بعباراته البليغة ان بلاده ستحارب في الجبال والوهاد وعلى الشواطىء . ولم يسمح كذلك لنفسه بأن يصدق تشرشل وهو يؤكد في مجلس العموم في الثامن عشر من حزيران بعد ان طلب بتان الهدنة ، تصميم بريطانيا الذي لا يلحق به وهن على المضي في القتال . وكذب اذنيه كذلك عندما استمع الى تشرشل يقول في احدى خطبه البليغة الخالدة وهو ينهي كلامه :

« علينا اذن ، ان نكرس انفسنا لواجباتنا ، وان نتحمل وان نصبر ، حتى اذا قدر للامبراطورية البريطانية ولجامعة شعوبها (الكومونولث) ان تعيش الف عام اخرى .. هتف ابناؤهما قائلين : حقاً كانت هذه اعظم ساعة في امجادنا » .

وخيل لهتلر ، وهو الخطيب الذرب اللسان ، الفصيح الكلام ، ان هذه العبارات ليست إلا مجرد « عبارات بليغة » تصدر عن خطيب موهوب . ولا ريب في انه لقي التشجيع الكافي لهذه الافكار من محاولات جس النبض التي جرت في العواصم المحايدة ، ومن النداءات التي صدرت عن هذه العواصم لانهاء الحرب . فقد تلقى في الثامن والعشرين من حزيران رسالة « مكتومة » من البابا ، الذي وجه رسالتين

١ - تشرشل - مذكرات - الجزء الثاني ص ١٧٧ .

مماثلين الى موسوليني وتشرشل ، عارضاً وساطته ، للوصول الى « صلح عادل وشريف » . ومعلناً انه يود قبل القيام بهذه الخطوة في سبيل احلال السلام ، التأكد بصورة مكتومة من الطريقة التي ستقابل بها خطوته في هذه العواصم الثلاث (١) . ونشط ملك السويد ايضاً نشاطاً ملحوظاً في عرض الصلح على كل من لندن وبرلين .

وكانت السفارة الالمانية في واشنطن ، بادارة هانز تومسون القائم بالأعمال ، تنفق كل دولار تستطيع الوصول اليه ، لدعم دعاة العزلة في الولايات المتحدة ، لابقاء امريكا خارج الحرب ، وبذلك تضمن تثبيت عزيمة بريطانيا على المضي فيها وتحشد وثائق وزارة الخارجية الألمانية بالرسائل التي بعث بها تومسون يروي فيها جهود سفارته في اقناع الرأي العام الامريكي بتأييد هتلر . وكان حزبا امريكا الكبيران يعدان العدة لعقد مؤتمريهما في صيف ذلك العام ، ولم يتوان تومسون عن بذل كل جهد ممكن للتأثير على مخططات السياسة الخارجية للحزبين المذكورين ولا سيما للحزب الجمهوري .

ولقد ابرق تومسون الى برلين بالرموز مثلاً في الثاني عشر من حزيران ، برقية « عاجلة للغاية وفي منتهى السرية » يقول فيها ان « احد الاعضاء البارزين في الحزب الجمهوري في الكونغرس » ، وهو يعمل متعاوناً تعاوناً وثيقاً مع السفارة الالمانية قد عرض مقابل ثلاثة آلاف دولار ، ان يدعو خمسين عضواً انغزالياً من اعضاء الكونغرس الى مؤتمر الحزب الجمهوري « لكي يضمن تأثيرهم على بقية الوفود لتأييد سياسة خارجية انغزالية » . وروى تومسون في برقية ثانية ان هذا الشخص عينه طلب ثلاثين الف دولار ، ليدفعها لنشر اعلانات صفحات كاملة في الصحف الامريكية تحت عنوان « ابعدوا امريكا عن الحرب ! » (٢) .

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (١٠) ص ٤٩ - ٥٠ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٩) ص ٥٥٠ - ٥٥١ . ولقد ظهر مثل هذا الاعلان في عدد الخامس والعشرين من حزيران عام ١٩٤٠ من صحيفة النيويورك تايمز .

وأبرق تومسون في اليوم التالي الى برلين يقول ان هناك مشروعاً جديداً يتفاوض بشأنه عن طريق احد الناشرين الامريكيين لحل خمسة من كتاب امريكا المشهورين على وضع كتب ينتظر منها « نتائج عظيمة » . وهو يطلب لتحقيق هذا المشروع مبلغ عشرين الف دولار ، أمر زيننتروب بصرفها بعد بضعة ايام» (١).

وقد اذاع هتلر ، اول حديث عام له عن آماله في السلام مع بريطانيا ، في مقابلة صحفية اجراها مع كارل فون ويغاند ، مراسل صحف هيرست الامريكية ، ونشرت في عدد الرابع عشر من حزيران من صحيفة « نيويورك جورنال امريكان » . وابلغ تومسون وزارة الخارجية الألمانية بعد اسبوعين انه أوعز بطبع مائة الف نسخة اضافية من الصحيفة التي نشرت الحديث . ثم قال :

« وقد تمكنت ايضاً عن طريق عميل أثق به ، من اقناع عضو الكونغرس الانعزالي ثور كيلسون (نائب ديمقراطي عن ولاية مونتانا) ، بطبع حديث الفوهرر في سجل الكونغرس بتاريخ

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٥٥٨ - ٥٥٩ وص ٥٨٥ - وعندما حل الخامس من تموز عام ١٩٤٠ ، كان تومسون خائفاً أشد الخوف من مدفوعاته ، حتى انه أبرق الى برلين يطلب اذنها في احراق كل ما لديه من وصولات وحسابات فقال :

« يجري الدفع دائماً الى المسلمين عن طريق وسطاء موثوقين ، ولكن بالنسبة الى الظروف الراهنة ، لا يمكن الحصول على وصول بالاستلام .. فمثل هذه الوصول او أية وثائق مماثلة قد تقع في ايدي الشرطة الامريكية السرية ، اذا قامت السلطات الامريكية فجأة بافتحام السفارة والاستيلاء عليها . وعلى الرغم من جميع وسائل التعمية والتغطية التي نتمتع بها ، فان مجرد وجود هذه الوصولات ستعني الدمار السياسي لاصدقائنا مما يترك آثاراً خطيرة ، لا سيما وان اعدائنا يعرفون هؤلاء الاصدقاء ... ولهذا فاني اطلب تخويل السفارة الحق في احراق كل وصولات وحسابات في حوزتها وان تتوقف عن تسجيل أية حسابات للمدفوعات الجديدة » . وقد احرق هذا التقرير نفسه بين وثائق السفارة .

(وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ١٢٥ - ١٢٦) .

الثاني والعشرين من حزيران . ويضمن هذا للحديث الصحفي مجالا جديداً من النشر والتوزيع » (١) .

وكانت السفارة النازية في واشنطن تتمسك بكل « قشة » تقع في يدها وفي ذات يوم من ايام ذلك الصيف ، قدم ملحقها الصحفي اقتراحاً قال انه تلقاه من فولتون لويس (الصغير) ، المعلق الاداعي المعروف الذي وصفه بأنه من « المعجبين بألمانيا والفوهرر ومن الصحفيين الامريكيين المحترمين جداً » .. وهذا نص رسالة الملحق :

« يجب على الفوهرر ان يبعث ببرقيات الى روزفلت .. يضمنها العبارات التقريرية التالية : « لقد وجهت الي يا مستر روزفلت ، مراراً وتكراراً نداءات تعرب فيها عن رغبتك في تجنب حرب دموية . لم اكن انا الذي اعلنت الحرب على انكلترا ، وانما كنت دائماً على النقيض من ذلك ، اؤكد عدم وجود اية رغبة لدي في تحطيم الامبراطورية البريطانية ولقد رفضت شرشل بعناد واصرار طلباتي المتكررة التي وجهتها اليه بأن يكون « متعقلاً » وان يعمل على الوصول الى صلح شريف معنا واني لأعرف ان انكلترا ستعاني أشد الويلات عندما أمر بشن حرب جماعية على الجزر البريطانية . واني لأسألك تبعاً لذلك ، ان تتصل بشرشل من ناحيتك وان تغط عليه للتخلي عن عناده الذي لا معنى له ولا طعم » . و اضاف لويس ان روزفلت سيبعث بالطبع برد قاس ينطوي على الامتهان ، ولكن رده هذا لا يغير من واقع الأمر شيئاً . اذ ان مثل هذه الرسالة من جانب هتلر ستترك اثراً عميقاً على شعوب امريكا الشمالية ، وعلى شعوب امريكا الجنوبية بصورة خاصة .. » (٢)

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٣٩ - ٤٠

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٢٩٨

ولم يكثر ادولف هتلر بنصيحة المستر لويس ذات المرمى البعيدة ، ولكن وزارة الخارجية الالمانية ابرقت الى سفارتها تسألها عن المكانة التي يحتلها المعلق الاذاعي في امريكا . وقد رد تومسون بأن لويس قد « حقق نجاحاً بارزاً مؤخراً .. ولكنه من الناحية الاخرى اذا ما قورن ببعض المعلقين الامريكيين البارزين فانه لا يتمتع بأهمية سياسية كبيرة ^(١) » .

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٢٤ و ص ٤٣٥ . تؤلف الاعمال التي قامت بها السفارة الالمانية في واشنطن في هذه الفترة ، كما اوضحتها برقياتها المنشورة في « وثائق وزارة الخارجية الالمانية » ، مادة رائمة لكتاب مدهش . ولعل اكثر ما يلفت نظر القارئ هو ما يجده من ميل لدى الدبلوماسيين الالمان لينقلوا الى الديكتاتور النازي ، ما يود هو ان يسمه ، وهذا اجراء مألوف لدى الممثلين الدبلوماسيين للدول الجماعية . وقد صرح لي ضابطان من رجال القيادة العليا للقوات المسلحة في برلين ، ان قيادتهما ، أو هيئته اركان الحرب على الاقل ، كانت تشك اكبر الشك في موضوعية التقارير التي تبث بها سفارة واشنطن ، وانه لذلك اقامت لنفسها جهاز خبايراتها العسكري في الولايات المتحدة .

واذا ما حكم المرء على ضوء التقارير التي تبث بها الفريق فريدريش فون بويتشر الملقب العسكري الالمانى في واشنطن ، والموجودة في وثائق وزارة الخارجية الالمانية تبين له ان هذا القائد ايضاً لم يكن صادفاً في خدمته للقيادة العامة . فلم يكل هذا القائد قط او عىل من التأكيد للقيادة العامة للقوات المسلحة ، ولهيئتي اركان حرب الجيش والسلاح الجوي ، وهي الجهات التي كان يوجه اليها برقياته ، بأن اليهود والماسونيين هم الذين يحكمون امريكا ، وهذا ما كان يقوله هتلر دائماً . ويبدو ان بويتشر قد غالى ايضاً في تقدير نفوذ الانعزاليين في السياسات الامريكية ، ولا سيما نفوذ العقيد شارل ليندبرغ ، الذي يبدو في رسائل الملقق ، بطلا عظيماً . وارى أن اقتطف بعض الاقتطفات من رسائله لأوضح اتجاهها ، واعطي صورة عنها :

« ٢٠ تموز عام ١٩٤٠ ... يود روزفلت بوصفه وافماً تحت تأثير اليهود الذين يسيطرون عن طريق الحركة الماسونية على الجماهير الامريكية ، ان تواصل انكلترا القتال وان يؤدي ذلك الى اطالة الحرب . وقد اتضح هذا التطور للحلقة التي تحيط بليندبرغ ، وهي تحاول الآن على الاقل ، عرقلة سيطرة اليهود سيطرة مفاجئة على السياسة الامريكية . وقد بعثت اليكم مراراً وتكراراً عن الحملات الشريرة والحذيرة التي تشن على ليندبرغ لان اليهود يرون فيه أقوى خصومهم واشدم (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٢٥٤ - ٢٥٥) . » آب عام ١٩٤٠ - معلومات عامة عن ظهور ليندبرغ علناً وعن الحملات التي تشن عليه .

= « يحتل العنصر اليهودي الآن مراكز هامة للغاية في القوات الامريكية المسلحة ، بعد ان اشغل اليهود في الاسابيع الاخيرة مناصب ، وزير الحربية ، ووكيل وزارة الحرب ، ووزير البحرية ، بأفراد هدامين ، كما عينوا يهوديا من اصحاب النفوذ والشخصية البارزة هو « العقيد » جوليوس أوخس - ادلر ، سكرتيرا لوزير الحربية .

« وقد اوضحت في تقاريري السابقة القوى التي تقاوم العنصر اليهودي ، وسياسة الولايات المتحدة الراهنة ، مركزا الاهمية على هيئة اركان الحرب . وليس ثمة من ريب في ان ليندبرغ الموهوب حقا ، والذي تصل علاقاته الى آفاق واسعة ، هو اهم شخصية في هذه القوى . ويخشى العنصر اليهودي ، كما يخشى روزفلت نفسه ما لهذا الرجل من تفوق روحي واخلاقي ، وما يتصف به من طهر .

« وقد وجه ليندبرغ يوم الاحد الرابع من آب ضربة لا بد وان تلحق باليهود افدح الاذى . فلقد أكد ان على امريكا ان تبذل جهودها لتحقيق التعاون المخلص مع المانيا هادفة الى اقرار السلام والحفاظ على الثقافة الغربية . ولم تمض بضعة ساعات حتى كان الفريق بيرشينغ العجوز الذي يمثل منذ عهد طويل الالوية في يدي روزفلت وبالتالي بين يدي اليهود ، يذيع بيانا من الاذاعة ، فرضه عليه « جاذبو الخيوط » من ارباب النفوذ ، قال فيه ان امريكا ستعرض للخطر من جراء هزيمة انكلترا .

« ولا ريب في ان ما تحاوله جوقة العناصر اليهودية من القاء الشكوك حول ليندبرغ في الصحافة ، والحملة عليه من لوكاس عضو مجلس الشيوخ ، الذي هاجمه علنا يوم الاثنين الماضي بحث من روزفلت على موجات الاثير متهما اياه بأنه من رجال « الطابور الخامس » ، وملصقا به وصمة الخيانة ، انما يشير كله الى ما تحس به اليهودية من خوف من السلطان الروحي لهذا الرجل ، الذي تحدثت اليكم في تقاريري السابقة منذ بداية الحرب عن سير تقدمه ، والذي اعتقد بأهميته البالغة بالنسبة الى العلاقات الامريكية الالمانية المقبلة . (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٤١٣ - ٤١٥) .

وروى تومسون في تقرير آخر بعث به في الثامن عشر من ايلول ، وصفا مسهبا لمحادثة سرية دارت بين ليندبرغ وبين عدد من ضباط الاركان الامريكيين . وذكر في هذا التقرير ان ليندبرغ اعرب عن رأيه بأن انكلترا سرعان ما ستنهار امام الهجمات الجوية الالمانية . ولكن ضباط الاركان اصرروا على رأيهم بأن القوة الجوية لا يمكن ان تنجح في اتخاذ قرار فصل (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٤١٣ - ٤١٥) .

وكان هتلر قد منح ليندبرغ في التاسع عشر من تشرين الاول عام ١٩٣٨ ، أي بمد ثلاثة اسابيع من استسلام ميونيخ ، « وسام صليب النسر الالمانى مع النجم المرصع » ، واعتقد ان هذا الوسام يعتبر ثاني وسام الماني رفيع ويمنح عادة الى الاجانب البارزين الذين « يستحقون المكافاة من الرايخ » .

وقد أحس تشرشل نفسه كما روى فيما بعد في مذكراته ببعض الضيق والحرج من محاولات السلام المنبعثة عن السويد والولايات المتحدة والفايكان ، وبات مقتنعاً من أن هتلر يحاول استغلال هذه المحاولات استغلالاً كلياً لمصلحته ، مما حتم عليه اتخاذ اجراءات حازمة تجاهها . وعندما علم تشرشل ان تومسون ، القائم بأعمال السفارة الالمانية في واشنطن ، قد حاول ان يتحدث الى السفير البريطاني فيها ، ابرق الى اللورد لوثيان يأمره بأن لا يرد على رسالة القائم بالأعمال الالمانى بأية حالة من الأحوال (١) .

وأعد رئيس الوزراء الحازم ، رداً قوياً على رسالة ملك السويد التي حث فيها بريطانيا العظمى على قبول الصلح مع المانيا وهذا نصها :

« من الواجب قبل البحث في هذه المطالب والاقتراحات ، تقديم الضمانات الفعالة ، بالأعمال لا بالأقوال من جانب المانيا بحيث تؤكد إعادة الحياة الحرة المستقلة الى كل من تشيكوسلوفاكيا وبولندا والنرويج والدانمارك وهولندا وبلجيكا ، وفرنسا قبل كل شيء ... » (٢) .

كانت هذه هي عقدة قضية تشرشل . ويبدو انه لم يكن هناك في لندن من حلم قط بجل هذه العقدة عن طريق الوصول الى صلح قد يضمن الحفاظ لبريطانيا ولكنه يستعبد البلاد التي استولى هتلر عليها بصورة دائمة . ولكن برلين لا تفهم هذا الواقع ، حيث كان كل انسان كما أذكر في تلك الايام من أيام الصيف ، ولا

١ - تشرشل - مذكرات - الجزء الثاني ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

٢ - مذكرات تشرشل - الجزء الثاني ص ٢٦١ - ٢٦٢ . هناك عدة برقيات في مجلدات واثاق وزارة الخارجية الالمانية ، واردة الى الوزارة عن اتصالات مزعومة مع مختلف الشخصيات البريطانية والدبلوماسيين الانكليز ، بعضها مباشر وبعضها عن طريق بعض المحايدين من أمثال اسباني فرنكو . ونقل الامير ماكس فون هوهنباو هي ، الالمانى السويدي المشايخ لانكلترا ، الى برلين ما دار من حديث له مع الوزير البريطاني المفوض في سويسرة السير ديفيد كيلي ، ومع آغا خان . وزعم ان الاخير قد طلب اليه نقل الرسالة التالية الى الفوهرر :

سيما من رجال الويلهاستراسه والبندلشتراسه ، واثقا من ان الحرب قد اقتربت من نهايتها .

وظل هتلر طيلة الاسبوعين الاخيرين من حزيران والايام الأولى من تموز ، ينتظر كلمة من لندن بأن الحكومة البريطانية على استعداد للاعتراف بالهزيمة وعقد الصلح . وقد ذكر لدينو الفيري^(١) سفير ايطاليا الجديد في الأول من تموز بأنه « لا يستطيع ان يتصور احداً في انكلترا لا يزال يعتقد بالنصر^(٢) » . ولهذا لم تقم القيادة العليا بأي اجراء لمواصلة الحرب ضد بريطانيا .

واصدرت القيادة العليا للقوات المسلحة في اليوم التالي الثاني من تموز اول توجيه لها في الموضوع . وكان هذا الامر الذي صدر اخيراً ينطوي على التردد ..

« قرر الفوهرر والقائد الاعلى ما يلي :

« ان النزول الى انكلترا شيء ممكن شريطة الحصول على التفوق

الجوي وتحقيق بعض الاوضاع الضرورية الاخرى . لم يتقرر موعد

البدء بالحركة . من الواجب الشروع في كافة الاستعدادات فوراً » .

« لقد اتفق خديوي مصر الموجود هنا معي ، على انه في اللحظة التي يصل فيها الفوهرر ، الى قصر وندسور لقضاء ليلة فيه ، سيشرب معاً زجاجة من الشبانيا نخب هذا القصر . وقال آغا خان انه سيضع نفسه تحت تصرفنا في حالة تفكير المانيا وايطاليا بالاستيلاء على الهند . . والصراع مع انكلترا لا يمكن ان يكون صراعاً مع الشعب الانكليزي وانما مع اليهود . فنشرشل عميل مأجور لهم منذ سنوات طويلة ، والملك أضعف وأقل ادراكاً من ان يقاوم . . وقال انه اذا ذهب الى انكلترا بهذه الآراء ، فان نشرشل سيودعه السجن (وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٢٩٤ - ٢٩٥) .

وعلى المرء ان يذكر ان هذه التقارير المانية وقد لا تكون صادقة ابداً ، ولكنها تصور المادة التي كان هتلر يطلع عليها . وسنورد فيما بعد الخطة النازية للاستعانة بالدوق وندسور بمد خطفه ومحاولة استغلاله كما جاءت في الاوراق السرية لوزارة الخارجية .

١ - استبدلت ايطاليا بايعاز من ريننروب سفيرها اتوليكو بالسفير الفيري وذلك في شهر ايار .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٨٢ .

وينعكس شعور هتلر المتخاذل تجاه العملية ، واعتقاده بأن لا ضرورة لها ، في الجزء الاخير من التوجيه اذ يقول :

« يجب اتخاذ كافة الاعدادات على اساس الغزو ما زال خطة او مشروعاً ولم يتخذ القرار النهائي بصده » (١)

وعندما اجتمع شيانو الى الفوهرر في برلين في السابع من تموز ، تكون لديه الانطباع الذي دوّنه في يومياته ، بأن سيد الحرب النازي يتعرض لمشاغل فكرية تقض عليه مضجعه ... وقال في هذه اليوميات :

« انه يميل الى الاستمرار في الصراع ، والى اطلاق زوبعة عاصفة من الغضب والفولاذ على الانكليز . لكنه لم يصل بعد الى القرار النهائي . ولهذا السبب وحده يؤجل الفوهرر خطابه الذي يريد كما قال هو ، ان يزن كل كلمة من كلماته » (٢) .

وشرع هتلر في الحادي عشر من تموز يجمع كبار قادته العسكريين في اوبرسالزبرغ ، ليرى مدى شعورهم تجاه الموضوع . وقد دار حديث طويل بين الفوهرر في ذلك اليوم وبين امير البحر ريدير الذي تحتم على اسطوله ان يتولى نقل الجيش النازي عبر القناة الانكليزية . ويبدو ان كلا الرجلين لم يرغب في معالجة المشكلة ، وانما قضيا معظم الوقت معاً في مناقشة مشكلة تطوير القاعدتين البحريتين في تروندهايم ونارفيك في النرويج .

واذا ما استند الى تقرير ريدير السري عن الاجتماع (٣) ، تبين لنا ان القائد الاعلى كان في وضع مستكين . وراح يسأل امير البحر ، ما اذا كان يرى بأن خطابه الى الرايشتاغ « سيكون مؤثراً وفعالاً » . ورد ريدير بأنه سيكون كذلك ولا سيما اذا سبقه قصف « مركز » على بريطانيا . وذكر امير البحر قائده الاعلى بأن السلاح الجوي الملكي البريطاني يوالي « هجماته المؤذية » على

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ٦١ - ٦٢ .

٢ - يوميات شيانو ص ٢٧٤ .

٣ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ٦٢ - ٦٦ .

القواعد البحرية الألمانية الرئيسية في ويلهلمستهافن وهمبورغ وكييل ، وان من واجب السلاح الجوي الألماني ان يشرع في العمل فوراً ضد بريطانيا . ولكن القائد العام للأسطول ، كان فاتراً فتوراً واضحاً في موضوع غزو بريطانيا . وقد نصح زعيمه بأن لا يقوم بهذه المحاولة « إلا كآخر ملجأ لارغام بريطانيا على طلب الصلح » . ويقول التقرير :

« يعتقد ريدر ان في الامكان ارغام بريطانيا على طلب الصلح ، عن طريق قطع شريان تجارتها الخارجية بواسطة حرب الغواصات والهجمات الجوية على القوافل ، والغارات الجوية الثقيلة على مراكزها الرئيسية ... »

« ولهذا لا يستطيع القائد العام للأسطول ان يوصي من ناحيته بغزو بريطانيا كما فعل في موضوع النروج » .

ويبدو ان امير البحر شرع يوضح ايضاحاً طويلاً ومسهباً جميع الصعوبات التي ينطوي عليها مثل هذا الغزو . ولا ريب في ان ايضاحاته هذه كانت مشبته لعزائم هتلر . لكنها كانت مقنعة في نفس الوقت ايضاً . اذ ان تقرير ريدر يشير الى « ان الفوهرر يرى كذلك ان الغزو هو الملجأ الاخير » .

ووصل القادة العسكريون بعد يومين أي في الثالث عشر من تموز الى « عش النسر » في برختسغادن ، للتشاور مع القائد الأعلى . وقد وجدوه ما زال ذاهلاً من موقف بريطانيا . فلقد دوّن هولدر في يومياته في تلك الليلة ، ان « الفوهرر يعيش تحت سيطرة كابوس خفيف ، هو التساؤل عن الاسباب التي تحمل بريطانيا على عدم الرغبة في اتخاذ طريق الصلح » . ولكن يبدو ان أحد هذه الاسباب ، قد بدأ يتجلى لأول مرة امام الفوهرر ، فقد دوّن هولدر مايلي :

« انه يرى كما نرى نحن ان الرد على هذا السؤال يقوم في الحقيقة الواقعة وهي ان انكلترا ما تزال تركز املها على روسيا . وهو يتوقع كذلك ، ان تجد انكلترا نفسها مضطرة تحت تأثير القوة الى عقد الصلح . لكنه عزوف عن استعمال هذه القوة على أي حال .

ولعزوفه هذا اسباب عدة ، منها انه يرى اننا اذا حططنا انكلترا عسكرياً ، فإن الامبراطورية البريطانية ستصاب بالتفسخ والتحلل . لكن المانيا لن تستفيد بأي حال من الاحوال من مثل هذا التطور . وسيستخدم الدم الالماني في تحقيق امر تفيد منه اليابان وامريكا وغيرهما من الدول » .

وبعث هتلر في نفس اليوم الثالث عشر من تموز برد الى موسوليني يعتذر فيه اعتذاراً مضحوباً بالشكر عن قبول عرض الدوتشي تقديم القوات والطائرات الايطالية للاشتراك في عملية غزو بريطانيا . ويتضح من هذه الرسالة ان هتلر قد شرع في النهاية يحزم امره . فالبريطانيون الغربيون في اطوارهم لن يصغوا لصوت العقل والمنطق ...

« لقد كتب الفوهرر يقول : قدمت لبريطانيا عدة عروض للاتفاق وللتعاون ايضاً ، ولكنها عاملتني معاملة تنطوي على الازدراء ، بحيث بت مقتنعاً الآن ، بأن أي نداء أوجهه اليها للتعقل والتمسك بالمنطق ، سيقابل بعين الرفض . فالحكم الذي يقوم في تلك البلاد في الآونة الحاضرة ، لا يمكن ان يعتبر حكماً المنطق ^(١) » .

وتوصل سيد الحرب النازي بعد ثلاثة ايام ، أي في السادس عشر من تموز الى قرار فاصل . واصدر توجيهه رقم ١٦ عن « الاستعدادات التي يجب القيام بها لضمان نجاح عملية الانزال في بريطانيا ^(١) »

١ - رسالة هتلر الى موسوليني في ١٣ تموز ١٩٤٠ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٢٠٩ - ٢١١ .

٢ - نص التوجيه رقم ١٦ في المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٣٩٩ - ٤٠٣ ، وفي وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٢٢٦ - ٢٢٩ .

سري للغاية

مقر قيادة الفوهرر

في ١٦ تموز - ١٩٤٠

« لما كانت انكلترا على الرغم من وضعها العسكري اليأس ،
لا تبدي اية اشارة أو استعداد للرغبة في التفاهم ، فقد قررت
اعداد عملية ازالة ضد بريطانيا ، وتنفيذ هذه العملية اذا اقتضى
الأمر .

« والغاية من هذه العملية ، هو ازالة خطر استخدام الوطن
الانكليزي قاعدة لمواصلة الحرب ضد المانيا ، واحتلالها احتلالاً
تاماً اذا تطلب الامر ذلك » .

وقد اطلق على العملية الاسم الرمزي « اسد البحر » . وطلب الفوهرر
إتمام الاستعدادات اللازمة لها قبل منتصف شهر آب .

انه ما زال متردداً كما تظهر عبارات التوجيه ، فهو على الرغم من تزايد
شعوره بضرورة هذه العملية إلا انه ما زال يقول : « اذا اقتضى الأمر » .
وكانت « اذا » الشرطية هذه ما زالت ماثلة امام ناظره ، عندما نهض في
الرايشستاغ عشية التاسع عشر من تموز ، ليلقي عرضه الأخير للصلح مع بريطانيا
وكان هذا الخطاب آخر خطبه العظيمة في الرايشستاغ ، وآخر ، ما استمع اليه
المؤلف من خطب القيت في هذا المكان لعدة سنوات اخرى . وليس ثمة من شك
ايضاً في ان هذا الخطاب كان من اعظم خطبه . وقد سجلت في تلك الليلة
انطباعاتي عنه ... بقولي :

« كان هتلر الذي رأيناه في الرايشستاغ هذه الليلة هو الفاتح
القاهر ، الذي يحس بما حققه من فتوحات . ولكنه كان في الوقت
نفسه مثلاً رائعاً ، وقد تجلى نبوغه في معالجة العقل الألماني ، اذ كان

يمزج مزجاً رائعاً بين ثقة الفاتح المطلقة وبين التواضع الذي يؤثر على الجماهير اشد التأثير لا سيما اذا عرفت ان صاحبه يقف في القمة . وكان صوته اكثر انخفاضاً من المعتاد ولم اسمعه يصرخ كما تعودنا ان نسمعه . ولم اره يتفجّر مرة واحدة بعواطف هستيرية ، كما سبق لي ان رأيته كثيراً من فوق هذا المنبر .

وليس ثمة من ريب في ان خطابه الطويل كان غاصاً بالمغالطات التاريخية ، وتنتشر فيه هنا وهناك ، اهانات شخصية لتشرشل ولكن هذا الخطاب كان على أي حال معتدلاً في لهجته ، وهكذا اخذنا بعين الاعتبار الظروف المشرقة المتألقة التي ألقاه فيها . وكانت غايته الماكرة من هذا الخطاب ان لا يكسب تأييد شعبه فحسب ، بل وتأييد الشعوب المحايدة ، وان يقدم للجماهير في انكلترا مادة تحملها على التفكير الطويل ... قال في خطابه :

« انني لا اسمع اليوم من انكلترا الا صوتاً واحداً ، انه صوت الساسة لا صوت الشعب ، وهو ينادي بأن الحرب يجب ان تستمر ! ولست ادري اذا كان هؤلاء الساسة يحملون فكرة صحيحة عن الشكل الذي سيبدو فيه استمرار هذه الحرب . وهم يعلنون ، هذا حق وصدق ، انهم سيواصلون الحرب ، وانهم سيواصلونها من كندا ، اذا قدر لبريطانيا العظمى ان تمّحي من الوجود وتزول . ولا يستطيع ان اصدق مطلقاً انهم يعنون بذلك ان على شعب بريطانيا ان يرحل الى كندا . ويندو ان هؤلاء السادة الذين يهتمهم ان تستمر الحرب ، هم الذين سيذهبون الى هناك . أما الشعب ، فعليه ان يبقى في بريطانيا ... وسينظر الى الحرب حتماً بعين تخلف عن تلك التي ينظر فيها اليها اولئك الزعماء المزعومون ، وهم قابعون في كندا .

« صدقوني ايها السادة ، ان قلت لكم ، بأن نفسي لتتنقز تنقزاً عميقاً من هذا الطراز من الساسة الذين يودون خراب بلاد بأسرها .

واني لاشعر بالآلم عندما افكر بأن القدر قد اختارني لتوجيه الضربة
النهائية القاضية الى هذا الكيان الذي زلزل هؤلاء السادة قواعده
واركانه ... وليس لدي من شك في ان المستر تشرشل سيمضي الى
كندا ، السقي بعث اليها اولئك الذين يهمهم ان تستمر الحرب ،
بأطفالهم وما يملكون من أموال . أما بالنسبة الى الملايين من الناس
الآخرين ، فانهم سيعانون اشد الآلام السقي سيتعرضون لها فوراً .
وأود ان اقول ان على المستر تشرشل ، ان يصدقني ولو مرة واحدة
عندما اقول له ان امبراطورية عظيمة ستتخطم ، وهي الامبراطورية
التي لم اكن افكر قط في تحطيمها او إلحاق الاذى بها ... »
وهكذا بعد ان انهال هتلر على رئيس الوزراء الراسخ القدم بالضربات
يكيلها اليه ، محاولاً ان يفرق بينه وبين الشعب البريطاني ، وصل اخيراً الى
النقطة الرئيسية التي استهدفها من خطابه الطويل ... فقال :

« واني لاشعر من واجبي في هذه الساعة ، امام ضميري ، ان
اناشد بريطانيا العظمى من جديد ، التعقل والمنطق ، كما اناشدهما
في اي مكان آخر . واني لاعتبر نفسي في وضع يمكنني من توجيه
هذا النداء ، لاسيما وانني لست المهزوم الذي يطلب الاحسان
والصدقة ، وانما المنتصر الذي يتحدث نيابة عن العقل والمنطق .
« انني لا ارى سبباً يدعو الى استمرار هذه الحرب » (١)

١ - وقع منظر رائع ، لا مثيل له في التاريخ الالماني ، عندما توقف هتلر فجأة عن الخطابة في
في منتصف حديثه ليمنح عصا الماريشالية الى اثني عشر فريقاً المانياً ، وليمنح رتبة ضخمة لفورنغ ،
اذ منحه الرتبة الجديدة التي خلقها وهي مارشال الرايخ الالماني الأعظم فجعله بها ، فوق غيره من
المارشالات . وقدمنه ايضاً الصليب الأعظم من وسام الصليب الحديدي ، وهو وسام لم ينله
غيره طيلة الحرب كلها . وقد تخطت هذه الترفيات الى رتبة «المنير» هولدر ، الذي رفع فقط الى
رتبة الفريق الكامل . وقد ادت هذه المكافآت السخية ، بتقديم رتبة «المشير» الى هذا العدد
الضخم ، الى خنق اية معارضة محتملة لهتلر بين قادته العسكريين لاسيما بعد ان حاول بعضهم الاطاحة
به ثلاث مرات في الماضي ويجدر بنا ان نذكر هنا ان القيصر لم يمنح هذه الرتبة طيلة الحرب =

ولم يوضع ما يريد قوله ، بأكثر من هذا اذ لم يذكر اية اقتراحات محددة عن شروط الصلح الذي يطلبه ، ولم يشر بقليل أو بكثير الى المائة مليون من البشر الذين يرزحون تحت الحكم النازي في البلاد المحتلة . ولكن لم يكن بين اعضاء الرايشتاغ في تلك الليلة إلا عدد ضئيل ، إن وجد هذا العدد ايضاً ، يودون لو راح يفصل في هذه المرحلة ما يريده . ورحت اختلط بأكثر عدد من الضباط والموظفين عند نهاية الاجتماع ، ولم يكن لدى اي منهم ، شك ، كما قالوا ، في ان البريطانيين سيقبلون ما خالوه هم عرضاً سخياً وشهماً من الفوهرر . ولكن لم يقدر لهم ان يظلموا مخدوعين طويلاً .

ورحت امضي بسيارتي فوراً الى « روندفونك » لأبث تقريراً اذاعياً عن الخطاب الى الولايات المتحدة . ولم اكد اصل الى دار الاذاعة ، حتى كنت التقط اذاعه من لندن موجهة باللغة الالمانية ، وكانت تعطي الى الألمان رد بريطانيا على عرض هتلر . ولم يكن هذا الرد إلا عبارة « لا » ، مصحوبة بكل عزم وتصميم ^(١) .

ورأيت عدداً من صغار الضباط من القيادة العامة ومن الموظفين من مختلف الوزارات يجلسون في القاعة ، وهم يصغون الى ما تنقله الاذاعة لهم بمنتهى الاهتمام . ورأيت الوجوم يعلو وجوههم . انهم لا يكادون يصدقون ما سمعوه . وهتف احدهم لي قائلاً : « هل تستطيع ان تفسر لنا هذا ؟ » كانت الحيرة تبدو

= الكونية الاولى الا الى خمسة ضباط ، لم يكن بينهم لودندورف نفسه وليس ثمة من شك في ان هتلر ، في امتهانه لهذه الرتبة التي تعتبر أعلى رتبة عسكرية في الجيش الالمانى ، بترقيته هذا العدد الضخم اليها ، قد سلك سلوكاً ينطوي على الدهاء لتشديد قبضته على الجنرالات . وقد رفع تسعة من الفرقاء الى رتبة المشير وهم براوخس وكايتل ، وروشنات ، وبوك ، وليب وليست وكلوغة وويتزليين ورايخناو ، وثلاثة من الفرقاء (الجنرالات) الجوين وميلش وكسلرغ وسييرل .
١ - اعلن تشرشل فيما بعد ان هذا الرفض الفوري الصارم لعرض هتلر للصلح قد « صدر عن دار الاذاعة البريطانية نفسها دون اي حث من حكومة صاحبة الجلالة ، فور ان استمع المسؤولون عنها الى خطاب هتلر من الاذاعة الالمانية » (مذكرات تشرشل - الجزء الثاني ص ٢٦٠) .

واضحة عليه . ومضى يهتف بصوت عال : « هل في وسعك ان تفهم هؤلاء
المجانين البريطانيين ؟ » ... ثم قال : « هل يرفضون الصلح الآن ؟ حقاً انهم
مجانين » .

واستمع شيانو ^(١) في ساعة متأخرة من ذلك المساء الى رد فعل برلين على
المجانين الانكليز ، على مستوى اعلى بكثير من المستوى الذي استمعت فيه انا .
ودون في يومياته بقول : « انتشر بين الألمان في ساعة متأخرة تلك الليلة
عندما وصلت اولى ردود الفعل من انكلترا على الخطاب ، موجة من خيبة الأمل
التي لم يحسنوا اخفائها » . وكان التأثير على موسوليني على النقيض تماماً من ذلك .

« فهو يصف الخطاب بأنه « فعال للغاية في مكره » . وهو
يخشى ان يجد فيه الانكليز ، ذريعة للبدء في المفاوضات . ان مثل
هذا الاحتمال يحزن موسوليني اشد الحزن ، وذلك لأنه اشد رغبة
اليوم في الحرب منه في أي وقت مضى » ^(٢) .

ولاحظ تشرشل فيما بعد ، انه كان من واجب الدوتشي ان لا يثور
ويكبت ثورته في نفسه . فسيحتاج له ان يذوق الكثير من طعم الحرب التي
ارادها » ^(٣) .

ودوننت في يوميتي في تلك الليلة اقول : « لا ريب في ان خطاب هتلر كان
قطعة رائعة من البيان كمنافرة يقصد منها حشد الشعب الألماني للحرب ضد
بريطانيا . فسيقول الشعب الألماني الآن بعد ان استمع الى هذا الخطاب ان هتلر
قد عرض الصلح على انكلترا ، ولكنها لم تستجب له . ولقد قال الفوهرر انه

١ - سلك وزير خارجية ايطاليا مسلك المهرج ابان جلسة الرايشتاغ ، واثبأ تارة وهابطاً
تارة اخرى . كدمية الأطفال ، ليحي التحية الفاشية في كل مرة يلتقط فيها هتلا انفاسه . ورايت
كذلك كوزانغ ، الرجل القميء ذا العين التي تشبه عين الخنزير ، قابلاً في مقعد يقع في الزاوية في
الشرقة الاولى . لقد جاء الى برلين ليرجو الفوهرر ، اعادته الى الحكم في اوسلو .

٢ - يوميات شيانو ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

٣ - مذكرات تشرشل - الجزء الثاني ص ٢٦١ .

لا يرى سبباً لاستمرار هذه الحرب . أما اذا استمرت ، فان الخطأ هو خطأ
انكلترا » .

أولم يكن هذا هو السبب الرئيسي في تقديمه لهذا العرض بعد ثلاثة ايام من
اصداره التوجيه السادس عشر ، لإعداد العدة لغزو بريطانيا ؟ وقد اعترف
بهذا ، كما حدث من قبل الى اثنين من الايطاليين المقربين وهما الفييري وشيانو .
فلقد صرح في الأول من تموز للسفير قائلاً :

« ... لا ريب في ان اظهار العدو بمظهر المسؤول عن السير
المقبل للأحداث ، امام الرأي العام ، هو اسلوب طيب ونافع .
فمثل هذا الاجراء ، يشدد من معنوية المرء ويضعف من عزائم
عدوه . ولا ريب في ان العملية التي كانت المانيا تعمل على اعدادها
كانت دموية للغاية . . وعلى المرء والحالة هذه ان يقنع الرأي العام
بأن كل شيء قد تم اعداده لتجنب هذا الهول ...

» ولقد كان في خطابه في السادس من تشرين الأول الذي
عرض فيه الصلح على الغرب عند انتهاء الحملة البولندية يتلقى
الايجاء من الفكرة القائلة بتحميل اللوم للجانب الآخر في جميع
التطورات اللاحقة . وهكذا فقد كسب الحرب حقاً قبل ان تبدأ
بداية فعلية . ولهذا فهو يعتزل لأسباب نفسية ان يدعم الروح
المعنوية ، لينقل الى مرحلة العمل التي ينوي القيام بها » ^(١)

وأسر هتار بعد نحو من اسبوع أي في الثامن من تموز الى شيانو
بأنه : « سيعرض تمثيلية اخرى ، حتى اذا ما قدر للحرب ان
تستمر وهو الاحتمال الواقعي الوحيد الذي يعتقد بأنه سيصبح
موضوع الحديث ، فستترك هذه التمثيلية اثرأ نفسياً لدى الشعب
الانكليزي ... وقد يكون من الممكن عن طريق نداء ينطوي

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٧٩ - ٨٠ .

على الدماء ، ويوجه الى الشعب الانكليزي ، عزل الحكومة
الانكليزية الى مدى أبعد في بلادها (١) » .

ولكن الحوادث لم تبرهن على امكان تحقيق هذا الهدف . فلقد ترك خطاب
التاسع عشر من تموز اثره لدى الشعب الألماني لا الشعب البريطاني . واصر
اللورد هاليفاكس في الثاني والعشرين من تموز اذاعة خاصة رفض بريطانيا الرسمي
لهرض هتلر السلمي . وعلى الرغم من ان برلين كانت تتوقع هذا الرفض ، إلا
انه ادهش وزارة الخارجية الألمانية ، حيث قابلت عدداً من الوجوه الساخطة
بعد ظهر ذلك اليوم . وقال لنا الناطق الرسمي باسم الحكومة : « لقد رفض
اللورد هاليفاكس عرض الفوهرر للصلح . اذن فستكون حرباً ضروساً
ايها السادة » .

وكان القول بالطبع اسهل من العمل . لم يكن هتلر على وجه التأكيد ولا
قيادته العليا او اركان حرب جيشه واسطوله وقوته الجوية قد درسوا دراسة
جديدة الطريقة التي يمكن بها خوض الحرب مع بريطانيا العظمى وكسبها .
أما وقد حل منتصف صيف عام ١٩٤٠ فلم يكونوا قد عرفوا بعد ما يمكن عمله
بانتصاراتهم اللامعة المشرقة ، ولم يكونوا قد وضعوا الخطط اللازمة او تحلوا
بالارادة الصادقة لاستغلال هذه الانتصارات العسكرية التي تعتبر اعظم ما حصل
عليه شعبهم المحارب طيلة تاريخه . وكان هذا من اضخم المتناقضات والغرائب
في الرايخ الثالث . ففي اللحظة التي وقف فيها هتلر في اوج قوته وعظمته
العسكرية ، اذ باتت معظم أجزاء القارة الأوروبية طريحة تحت قدميه ، وامتدت
جيوشه الظافرة من جبال البيرانيز حتى الدائرة القطبية ، ومن الاطلنطي الى
ما وراء نهر الفستولا ، تقف على قدم الالهة والاستعداد ، للقيام باي هجوم
جديد ، نجد ان هذا المنتصر ، لا يكون اية فكرة عن الطريقة التي سيمضي
فيها للوصول بالحرب الى نهاية ظافرة ، ويصدق هذا القول ايضاً على « فرقائه »

العسكريين الذين ارتقى اثنا عشر منهم الى رتبة المشير .
وكان ثمة سبب لكل هذا التراخي ، وان كان لم يصل الى علمنا ، ولم يتضح لنا في ذلك الوقت . فالألمان على الرغم من مواهبهم العسكرية الضخمة يفتقرون الى المفاهيم السوقية (الاستراتيجية) الدقيقة . فأفاقهم محدودة ، وكانوا دائماً محصورين الفهم في الحروب البرية ، ضد الدول المجاورة لهم في القارة الأوروبية . وكان هتلر نفسه شديد الهلع دائماً من البحر ^(١) ، كما كان كبار مساعديه يحفلونها جهلاً تاماً . فسعة ادراكهم تقتصر على البر ، ولا تمتد الى البحر وعلى الرغم من ان جيوشهم كانت قادرة على سحق القوات البريطانية الضعيفة الموجودة في جزرها ، لو اتيح لها ان تشتبك معها في غضون اسبوع ، إلا ان هذه المياه الضيقة في مضائق دوفر التي تفصل بينهم وبين اعدائهم ، كانت دائماً تقراءى امامهم ، مع اقتراب الصيف من نهايته ، عائقاً لا يعرفون طريقة التغلب عليه ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان في وسع المرء اذا وقف على الشاطئ الفرنسي ان يرى الناس الذين يواجهونه على الشاطئ المقابل .

وكان هناك بالطبع مجال آخر ، مفتوح امام الالمان . ففي وسعهم ان يرغموا بريطانيا على الركوع ، عن طريق توجيه الضربة اليها عبر البحر الابيض المتوسط مع حليفهم ايطاليا باحتلال جيب طارق الواقع عند مدخله الغربي ، وبالزحف في الشرق ، من القواعد الايطالية في افريقيا الشمالية ، عبر مصر وقناة السويس الى ايران لقطع طريق يعتبر من شريانات الحياة الرئيسية للامبراطورية . ولكن هذه الخطة تتطلب عمليات وراء البحار تبعد كثيراً عن قواعد الوطن وكانت تبدو في عام ١٩٤٠ وراء مجالات الخيال الألماني .

وهكذا تردد هتلر ومساعدوه ، وهم في سمت نجاحهم المذهل . فلم يكونوا قد فكروا بعد بالخطوة المقبلة . ولا بطريقة تنفيذها . وقد قدر لهذا الاهمال

١ - قال هتلر ذات يوم لرونشادت . . « انا بطل في البر وجبان في البحر » (شولمان - الهزيمة في الغرب . ص ٥٠) .

القدرى ، ان يبرهن على انه من اهم نقاط التحول في الحرب ، وفي التاريخ القصير لحياة الرايخ الثالث وفي سير ادولف هتلر الذي يشبه سير الشهب الثاقبة في سرعته . وقدر للفشل ان يبدأ الآن بعد هذه الانتصارات المذهلة . ولكن لم يكن في وسع انسان ان يتكهن بهذا وهو يرى بريطانيا المحاصرة ، تصمد الآن لونها . تتأهب بما لديها من إمكانات ضعيفة للغزو الألماني الكاسح في نهاية الصيف .

عملية "سيد البحر"

غزو بريطانيا الفاشل قبل بدايته

كتب الفريق يودل رئيس دائرة العمليات الحربية في القيادة العليا للقوات المسلحة في يومياته بتاريخ الثلاثين من حزيران عام ١٩٤٠ يقول : « لم يعد الانتصار الألماني النهائي على انكلترا الآن إلا قضية وقت ليس إلا . وليس في ممكنة العدو بعد الآن ان يقوم بأية عمليات هجومية على نطاق واسع » .

وكان واضح الخطط السوقية المقرب الى هتلر ، في حالة مزاجية ترمز الى الثقة وهدوء النفس . فلقد استسلمت فرنسا في الاسبوع الماضي ، تاركة بريطانيا وحدها في وضع يائس كما يبدو . وكان هتلر قد ابلغ قادته العسكريين في الخامس عشر من حزيران انه يريد تسريح جيشه تسريحاً جزئياً ، وخفض قوامه من (١٦٠) فرقة الى (١٢٠) . ودون هولدر في يومياته في ذلك اليوم يقول : « والافتراض القائم وراء هذا القرار ، ان مهمة الجيش قد انتهت ، وان مهمة مواصلة الحرب ضد انكلترا ، سيعهد بها الى القوة الجوية والاسطول وحدهما » .

ومن الحق ان يقال ، ان الجيش لم يبدِ كبير اهتمام بمواصلة الحرب . ولم يكن الفوهرر نفسه كثير القلق والاهتمام بها . فلقد نقل العقيد وولتر وورليمونت

نائب يودل الى قيادة الاسطول في السابع عشر من حزيران ، ان « الفوهرر لم يعرب بعد عن عزمه على النزول في بريطانيا ... ولهذا لم يجر اعداد أي عمل تحضيري من اي نوع حتى هذه اللحظة في القيادة العليا للقوات المسلحة » (١) .
وقيل لقيادة الاسطول بعد اربعة ايام أي في الواحد والعشرين من حزيران ، في نفس اللحظة التي كان هتلر يدخل فيها عربية الهدنة في كومبيين ، لإذلال الفرنسيين ان « هيئة اركان حرب الجيش لن تشغل نفسها في موضوع انكلترا ، فهي ترى ان تنفيذ الغزو مستحيل . وهي لا تعرف الطريقة التي يمكن ان تجري فيها العملية من البحار الجنوبية ... ان هيئة اركان الحرب ترفض العملية » (٢) .

ولم يدر أي من المخططين الموهوبين في القوات الألمانية المسلحة الثلاث الطريقة التي يمكن ان يتم فيها غزو بريطانيا ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان الاسطول ، كان اول هذه القوات الثلاث الذي اولى الموضوع بعض التفكير . وكان ريدير في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩٣٩ ، عندما كان هتلر يحفز قادته العسكريين عبثاً على الشروع في الهجوم في الغرب ، قد اوعز الى اركان حربه البحريين « دراسة الامكانيات لزيارة انكلترا ، وهو احتمال قد ينشأ في حالة تحقيق بعض الاوضاع ، من جراء الاستمرار في الحرب » (٣) . وكانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يطلب فيها الى ضباط اركان من الألمان

١ - يوميات اركان حرب الاسطول الحربية في ١٨ حزيران عام ١٩٤٠ . اقتبست من كتاب رونالد ويتلي « عملية اسد البحر » ص ١٦ . وقد اتبع للمؤلف وهو عضو في فريق بريطاني يضع تاريخاً رسمياً للحرب ، ان يصل دون اية قيود الى الوثائق الألمانية المصادرة من حربية وبحرية وجوية ودبلوماسية ، وهو امتياز لم يمنح حتى وضع هذا الكتاب ، الى أي مؤلف امريكي لا من السلطات الامريكية ولا البريطانية وهما اللتان تشرفان بالاشتراك على هذه الوثائق . ولهذا فان كتاب ويتلي يعتبر دليلاً نافعاً عن المصادر الألمانية المحدودة عن عملية اسد البحر :

٢ - سجلات القيادة العليا البحرية - ويتلي . ص ٢٦ .

٣ - يوميات اركان حرب اسطول الحربية في ١٥ تشرين الثاني عام ١٩٣٩ - (ويتلي ص ٤ - ٧) .

دراسة مثل هذا العمل . ويبدو ان ريدير قد قام بهذه الخطوة لانه اراد ان يتوقع أي انحراف مفاجيء من جانب زعيمه غير الموزون . وليس ثمة من وثيقة تثبت استشارة هتلر في هذه القضية او معرفته بها . وكان اقصى ما وصلت اليه افكاره في هذا الحين ، الحصول على المطارات والقواعد البحرية في هولندا وبلجيكا وفرنسا ، لتضييق الحصار على الجزر البريطانية .

ولم يحل كانون الأول عام ١٩٣٩ ، حتى كانت قيادة الجيش والسلاح الجوي قد شرعنا في ايلاء هذه القضية بعض تفكيرهما . وقد تبودلت بعض الافكار الغامضة بين هذه الفروع الثلاثة ، ولكنها لم تمض بعيداً . ورفض الاسطول والسلاح الجوي في كانون الثاني عام ١٩٤٠ خطة وضعها الجيش على اعتبار انها مفتقرة الى الواقعية . ورأى الاسطول فيها تجاهلها القوة البحرية البريطانية كما رأى فيها السلاح الجوي انها اهملت قوة بريطانيا في الجو وعلقت هيئة اركان القوة الجوية في ردها على هيئة اركان الجيش قائلة : « وفي الختام فإن عملية مشتركة تهدف الى الانزال في انكلترا يجب ان ترفض رفضاً قاطعاً » (١) . وسنرى فيما بعد ، كيف تحتم على غورنغ ومساعديه ، ان يتبنوا وجهة نظر مغايرة لهذه تمام المغايرة .

وقد ورد اول ذكر في الوثائق الألمانية بأن هتلر يواجه احتمال غزو بريطانيا في الواحد والعشرين من أيار ، اي في اليوم الذي تلا وصول القوات المسلحة الى البحر عند ابينفيل . وبحث هتلر « بصورة خاصة » مع الفوهرر « في احتمال القيام بنزول لاحق في انكلترا » . وكان ريدير نفسه هو مصدر المعلومات (٢) ، اذ لم يكن اسطوله قد اشترك في ايجاد الانتصارات المذهلة التي حققها الجيش والاسطول الجوي في الغرب ، وكان يود لو عثر على بعض الوسائل التي تمكنه من اظهار خدماته في الصورة ولكن افكار هتلر تركزت في معركة

١ - ويتلي ص ٧ - ١٣ .

٢ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٥١ . ويوميات اركان حرب الاسطول الحربية

بتاريخ ٢١ ايار ١٩٤٠ ويتلي ص ١٥ .

التطويق الجارية في الشمال ، وفي جبهة اليوم التي كانت ، قيد التكوين في الجنوب . ولم يكن يود ان يشغل قاداته العسكريين بأمور تتعدى حدود هذه المهام .

لكن ضباط البحرية ، واصلوا على أي حال ، نظراً لفضالة ما يعملونه ، دراسة مشكلة الغزو ، وفي السابع والعشرين من ايار ، طلع الرير اميرال كورت فريك ، رئيس دائرة العمليات البحرية بخطة جديدة اطلق عليها اسم « دراسة انكلترا » . وقد شرع أيضاً في إعداد الأعمال التمهيديّة لجميع البواخر ، والاكثر من السفن اللازمة للانزال ، وهي للقطع التي كان الاسطول الألماني يفترق اليها كل الافتقار . وكان الدكتور غوتفريد فيدر الخبير الصناع في الشؤون الاقتصادية ، الذي سبق له ان اعان هتلر في وضع برنامج الحزب في ايام ميونيخ الاولى ، والذي غدا الآن وزير دولة في وزارة الاقتصاد ، حيث كانت آراؤه الفارحة تلقى قبولاً سريعاً ، قد انتج الآن تصاميم لما اسماه « تمساح الحرب » . ولم يكن هذا الابتكار إلا قارباً ذاتي الانطلاق ، مصنوعاً من الاسمنت المسلح ، يستطيع ان يحمل جماعة يبلغ تعدادها مائتي رجل ، ومعهم معداتهم الكاملة ، او يحمل عدداً من الدبابات او المدافع ؛ وفي استطاعته ان يندفع الى أي ساحل ، وان يؤمن الغطاء الناري للقوات والعربات الهابطة . وقد حملت القيادة البحرية هذا الاختراع على محمل الجد ، واشترك في ذلك هولدر ايضاً ، الذي اشار اليه في يومياته . كما بحث فيه مفصلاً هتلر ويردر اثناء اجتماعها في العشرين من حزيران . لكن هذا الاختراع لم يسفر في النهاية عن أي شيء عملي .

ولم ير امراء البحر عندما اقترب شهر حزيران من نهايته ان هناك أي أمل في نجاح غزو الجزر البريطانية . فبعد ان انتهى هتلر ، من الفصل المسرحي الذي مثله في كومبيين في الواحد والعشرين من حزيران ، مضى مع بعض اخوانه القدامى الى باريس لرؤيتها^(١) ، ولزيارة بعض ميادين القتال ، في معارك الحرب

١ - اراد هتلر ان يشاهد قبر نابليون في ضريح « الانفاليد » . ولقد صرح الى مصوره الامين ، هنريخ هوفمان ، بأن هذه اللحظة كانت من اعظم واروع ما شهدته من لحظات في حياته .

الأولى حيث كان يعمل كجندي مراسلة. وقد رافقه في هذه الزيارة الرجل الذي كان يعمل عريفاً في كتيبته في الحرب الأولى ، والذي امتاز بالصرامة والشدة ، وبات الآن الناشر النازي المليونير وهو ماكس امان ويبدو انه لم يفكر قيد أنملة بسير الحرب المقبل ضد بريطانيا ، اذ انه كان يعتقد كما يبدو ، بأن هذه القضية قد سويت وان البريطانيين سيستجيبون الآن الى صوت العقل والمنطق ، وسيقبلون على الصلح .

ولم يعد هتار الى مقر قيادته الجديد ، تاننبرغ ، الى الغرب من فرويد نستادت في الغابة السوداء ، إلا في التاسع والعشرين من حزيران . وعندما هبط ثانية الى الارض في اليوم التالي من الخيالات والأوهام التي عاشها بعد انتصاره على فرنسا ، شرع يتبصّر في المذكرة التي أعدها يودل عن الخطوة المقبلة . وكان عنوان هذه المذكرة « مواصلة الحرب ضد بريطانيا » ^(١) . وعلى الرغم من ان يودل لم يكن يقل ايماناً عن كايتمل في عبقرية الفوهرر إلا انه كان بين رجال القيادة العليا للقوات المسلحة العالم المتبصّر لسوقية الحرب . ولكنه كان يشترك في هذه الآونة مع غيره من رجال القيادة العليا ، في الرأي بأن بلاده قد فازت بالحرب ، وانها قد وصلت الى نهايتها . وكان يرى ، انه اذا لم تكن بريطانيا قد ادركت هذه الحقيقة فإن من الواجب اللجوء الى بعض القوة لملها على هذا الادراك . واقترحت مذكرته ثلاث خطوات لفرض « الحصار » على انكلترا ، وهي الاسراف في الحرب الجوية والبحرية الألمانية ضد الملاحة البريطانية وضد مستودعات التخزين والمصانع والسلاح الجوي البريطاني ، وشن « هجمات ارهابية » على المراكز الآهلة بالسكان ، وانزال القوات التي تهدف الى احتلال انكلترا .

وادرك يودل ان الحرب ضد السلاح الجوي البريطاني « يجب ان يحتل مكان الصدارة » ، ولكنه رأى ان هذه الخطوة مع الصور الأخرى من الهجوم ، يمكن

١ - محاكمات كبار مجرمي الحرب الالمان (٢٨) ص ٣٠١ - المؤامرة النازية والعدوان (١)

ص ٤٠٤ - ٤٠٦ .

ان تقع دون أي عناء أو متاعب .. اذ قال في مذكرته :

« وليس ثمة من ريب في ان هذه الخطوة مع الهجمات الارهابية التي تقع من آونة الى اخرى ، والتي تصوّر على انها عمليات انتقامية ، ستعمل على اضعاف قواعد التموين البريطانية بصورة متزايدة ، وتشل من ارادة الشعب على المقاومة ويضعفها ، مما يرغم الحكومة على الاستسلام » ..

ومضت المذكرة تتحدث عن الانزال فقالت :

« لا يمكن التفكير بأية عملية من هذا النوع إلا بعد ان تحقق المانيا السيطرة في الجو ، ولهذا فإن الانزال يجب ان لا يهدف الى احتلال انكلترا عسكرياً ، اذ يمكن ان يعهد بهذه المهمة الى السلاح الجوي والأسطول . ومن الضروري ان يكون الهدف توجيه الضربة القاضية الى انكلترا التي باتت مشلولة اقتصادياً وعاجزة عن القتال في الجو اذا كان هذا العجز مازال ضرورياً » ^(١)

ومع ذلك يرى يودل ان جميع هذه الامور قد لا تكون ضرورية ...
« لما كانت انكلترا قد باتت عاجزة عن القتال في سبيل النصر ، وانما تقاتل من اجل الحفاظ على ممتلكاتها ، وعلى سمعتها الدولية ، فإن عليها طبقاً لجميع الاحتمالات ان تكون ميالة الى عقد الصلح ، عندما تدرك ان في وسعها الآن ان تحصل عليه بثمن ضئيل نسبياً . وكان هذا يماثل تفكير هتلر نفسه ، وقد شرع يعمل في هذا الاتجاه بخطابه السلمي الذي القاه في الرايشتاغ . ولكنه أمر في غضون ذلك ، كما سبق لنا ان رأينا من قبل ، أي في الثاني من تموز ، بوضع الخطط التمهيدية للقيام بعملية انزال الى البحر ، وعندما حل السادس عشر من تموز ، ولم تكن أية عبارة

١ - اقترح يودل ايضا احتمال « توسيع الحرب الى ميادين اخرى » اي مهاجمة الامبراطورية البريطانية بمساعدة ايطاليا واليابان واسبانيا وروسيا .

« معقولة » قد وردت من لندن ، راح يصدر توجيهه السادس عشر باعداد عملية « اسد البحر » . وهكذا بعد ستة اسابيع من التردد تقرر اخيراً غزو بريطانيا « اذا اقتضى الأمر » . ولقد كانت هذه الخطة ، كما ادرك هتلر « وفرقاؤه » اخيراً عملية عسكرية رئيسية ، لا تفتقر الى المجازفة والاضطراب ، وتعتمد في نجاحها على ما اذا كان السلاح الجوي والاسطول ، يستطيعان ان يمهدا الطريق للقوات للنزول امام اسطول بريطاني متفوق تمام التفوق ، وامام سلاح جوي معاد لا يمكن ان يعتبر بأي حال من الأحوال تافهاً او مهملاً .

ولكن هل كانت خطة اسد البحر عملية جدية ؟ وهل كان القصد منها تنفيذها فعلاً ؟

ما زال الكثيرون حتى اليوم يشكون في جديتها ، وقد عزز شكوكهم هذه ما صدر عن « جوقة » الفرقاء الالمان من اقاويل بعد انتهاء الحرب . فلقد ذكر رونشتادت الذي اسندت اليه قيادة الغزو ، لمحققي الحلفاء في عام ١٩٤٥ ما يلي :

« كان الغزو المقترح لانكلترا ، مجرد سخافة لا طائل تحتها ، اذ ان البواخر اللازمة للغزو لم تكن متوافرة ... وكنا ننظر الى الامر كله على ان مجرد لعبة ليس الا ، اذ كان من الواضح ان الغزو لن يكون ممكناً في الوقت الذي لا يكون فيه اسطولنا قادراً على تغطية عبور القناة او نقل الامدادات . ولم يكن السلاح الجوي الالمانى ايضاً قادراً على المضي في هذه الواجبات اذا عجز الاسطول عن القيام بها .. وكانت الشكوك تراودني دائماً تجاه القضية كلها ... واني لاشعر بأن الفوهرر لم يرغب قط رغبة صادقة في غزو انكلترا ... اذ كان يفتقر الى الشجاعة ... وكل ما كان يأمل فيه ان الانكليز سينشدون الصلح ... »^(١)

١ - مجلة المخابرات العسكرية البريطانية (عدد تشرين الثاني ١٩٤٥) - نقلها شولان - الهزيمة في الغرب ص ٤٩ - ٥٠ .

واعرب بلومينتريب مدير دائرة العمليات الحربية في قيادة رونشتادت عن آراء نمائلة الى ليدل هارت بعد انتهاء الحرب ، زاعماً انهم كانوا يتحدثون عن عملية اسد البحر ، كمجرد بلفة ليس الا » (١)

ولقد قضيت بضعة ايام في اواسط شهر آب في مدن ساحل القناة ، متنقلاً من انتويرب الى بولون بجثاً عن جيش الغزو ، ورأينا في الخامس عشر من آب بين كاليه ورأس الانف الرمادي (Cap Gris - Nez) جماعات من القاذفات والمقاتلات الألمانية تغبر القناة باتجاه انكلترا ، في الفارة التي كانت اول هجوم جوي مركز عليها . وبينما كان من الواضح ان السلاح الجوي الألماني كان جاداً في هجومه . إلا ان مارأيت من افتقار الى البواخر ولا سيما الى زوارق الغزو في الموانئ والقنوات والانهار قد خلق لدي الانطباع بأن الألمان كانوا هازلين لا جانين . فلقد كانوا كما رأيت يفتقرون الى الوسائل التي تمكن قواتهم من عبور القناة الانكليزية .

ولكن المراسل الصحفي لا يستطيع الا رؤية القليل عن الشؤون المتعلقة بالحرب ، ونحن نعرف الآن ، ان الألمان لم يشعروا في تجميع أسطول الغزو إلا في الأول من أيلول . بالنسبة الى الفرقاء ، فكل من يقرأ افاداتهم الى المحققين في محاكمات نورمبرغ أو يصغي الى اجاباتهم ، على الاسئلة ، يدرك ان شهادتهم بعد الحرب ، لم تكن تساوي في عين الحقيقة شيئاً (٢) . والذاكرة تخدع المرء كثيراً ، ولم يكن الفرقاء الألمان استثناء لهذه القاعدة . وكانوا يهدفون الى اشياء كثيرة ، لعل في طليعتها الخط من قيادة هتلر العسكرية وشأنها . وكانت غايتهم الاساسية التي تظهر باسهاب ووضوح في مذكراتهم في شهادتهم ، وافاداتهم اثناء التحقيقات في نورمبرغ ، ان يوضحوا انهم لو تركوا أحراراً في اتخاذ قراراتهم فإن

١ - ليدل هارت - الفرقاء الالمان يتكلمون ص ١٢٩ .

٢ - وقد اهتم حتى ليدل هارت نفسه وهو الناقد العسكري الكبير ان يفعل ذلك دائماً ولا ريب في ان اهماله هذا هو الذي يشوه كتابه « الفرقاء الالمان يتكلمون » . وقد تكلموا ، ولكن ذاكراتهم لم تكن دائماً طيبة . ولم يكن قولهم هو الصدق دائماً .

هتلر ما كان يستطيع قيادة الرايخ الثالث الى الهزيمة .
ولكن من سوء حظهم هم ومن حسن حظ الاجيال القادمة . والحقيقة ، لا
تترك اكوام الملفات العسكرية الألمانية البرية أي شك في ان خطة هتلر لغزو
بريطانيا في مطلع خريف عام ١٩٤٠ ، كانت جدية تمام الجدية ، وأنها على الرغم
مما رافقها من كبير تردد ، فإن الديكتاتور الذي كان يعتزم عزماً أكيداً ،
تنفيذها ، لو كانت هناك اية احتمالات معقولة في النجاح . ولم يكن الافتقار الى
التصميم أو المجهود هو الذي قرر مصيرها ، وانما قرره صعود الحرب ونحوسها ،
اذ اخذت تتحول الآن وللمرة الأولى ضده .

* * *

وفي السابع عشر من تموز أي بعد يوم واحد فقط من صدور التوجيه السادس
عشر ، بأعداد خطط الغزو وقبل يومين من خطاب الفوهرر السلمي في
الرايخستاغ ، خصصت القيادة العامة للجيش القوات اللازمة لعملية أسد
البحر ، وأمرت بأعداد ثلاث عشرة فرقة ، لنقاط القفز على ساحل القناة ،
لتؤلف الموجة الأولى من القوات الغازية . وامت قيادة الجيش في نفس اليوم
وضع الخطة المفصلة للنزول على جبهة واسعة على الساحل الجنوبي من انكلترا .
وقد تقرر ان يعهد الى المشيرفون رونشتادت الذي عيّن في التاسع عشر من
تموز قائد مجموعة الجيوش (١) ، بالقيام بالهجوم الرئيسي ، وهو عين الدور
الذي مثله في معركة فرنسا . وتقرر ان تنزل ست فرق للمشاة من قوات جيش
الفريق ايرنست بوش السادس عشر من منطقة خليج كاليف على الشواطئ بين
رامسفيت وبيكسهيل . وتقرر ان تعبر اربع فرق من جيش الفريق ادولف
شترأوس التاسع ، القناة الانكليزية من منطقة الهافر ، وان تهبط بين برايتون
وجزيرة وايت . وعهد الى ثلاث فرق من جيش المشيرفون راينخاوس السادس
التابعة لمجموعة الجيوش (ب) التي يتولى المشيرفون بوك قيادتها ، بأن تتحرك
من شبه جزيرة شربورغ في الغرب ، وان تهبط في خليج (لايم) بين ويموث
و « لايم ريجز » وهكذا تتألف الموجة الأولى من تسعين الف جندي ، وقضت

خطة القيادة العليا بأن يهبط الى الساحل عند نهاية اليوم الثالث من الغزو (٢٦٠) الف جندي . وستتولى القوات المحمولة من الجو والتي ستنزله الطائرات في خليج « لايم » وفي مناطق أخرى تعزيز هذه العملية . وستهبط مع الموجة الثانية قوة لا يقل تعدادها عن ست فرق من فرق العاصفة وثلاث فرق آليسة ، وبهذا يتم في بضعة الايام الاولى انزال قوة مؤلفة من تسع وثلاثين فرقه بالاضافة الى فرقتين اخريين ، تحملها الطائرات .

وكانت المهمة التي رسمت لهذه القوات على النحو التالي . بعد تأمين رؤوس الجسور ، تندفع قوات مجموعة الجيوش (١) من الجنوب الشرقي نحو هدفها الأول وهو خط يصل بين « غريفسند » وسارثها مبتن . ويتقدم جيش راينخاوس السادس الى بريستول ، عازلاً ديفون وكورنول . ويكون الهدف الثاني خطأً يمتد بين مالدون على الساحل الشرقي الى الشمال من مصب نهر التيمس حتى نهر سيفيرن ، عازلاً مقاطعة ويلز . وكان من المتوقع ان تدور « معارك عنيفة مع قوات بريطانية ضخمة » في نفس الوقت الذي يصل فيه الالمان الى هدفهم الأول . ولكن النصر سيتحقق بسرعة في هذه المعارك ، ويتم تطويق لندن ويستأنف الزحف شمالاً ^(١) . وقد ابلغ براوختش ريدر في السابع عشر من تموز ان العملية كلها ستتم في غضون شهر واحد وستكون في منتهى السهولة ^(٢) .

١ - من اوراق القيادة العامة للجيش الالمانى - نقلها ويتلي ص ٤٠ وص ١٥٢ - ١٥٥ ، وص ١٥٨ . وظلت الخطة عرضة للتبديل طيلة الاسابيع الستة التالية .

٢ - يوميات اركان حرب الاسطول الحربية - ويتلي - ص ٤٠ - غالت المخابرات الالمانية في تقدير قوة بريطانيا البرية طيلة اشهر تموز وآب وايلول ، بنحو من ثماني فرق . وقدرت اركان حرب القيادة الالمانية في مطلع تموز القوة البريطانية بما يتراوح عدده بين خمس عشرة وعشرين فرقة من « فرق الميدان » . وكانت هناك في الحقيقة تسع وعشرون فرقة في انكلترا في ذلك الوقت لا تزيد عدد فرق الميدان فيها على النصف اذ انها تفتقر عمليا الى المدافع والمدركات . ولكن خلافا للاعتقاد الذي كان سائدا في ذلك الحين والذي ظل قائما حتى يومنا هذا ، كان الجيش البريطاني قد بات في اواسط ايلول معادلا للفرق الالمانية المعدة لموجة =

لكن ريدير وقيادته البحرية ، ظلا يشكان في احتمال النجاح . اذ لم يكن في وسع الاسطول الألماني ، ان ينقل القوات اللازمة لهذه العملية وان يتولى حمايتها ، لاسيما وان العملية تحتاج الى قوات ضخمة وتمتد على جبهة واسعة تنتشر على مسافة مائتي ميل من رامسغيت الى خليج « لايم » . وقد تولى ريدير ابلاغ قيادة الجيش رؤية هذا بعد يومين ، وعاد الى اثارته في الواحد والعشرين من تموز عندما استدعاه هتلر مع براوختش والفريق هانز جيشونيك رئيس هيئة اركان القوة الجوية ، لمقابلته في برلين . وكان الفوهرر لا يزال حائراً « فيما يقع فعلاً في انكلترا » . وقد اعرب عن تفهمه للمتاعب التي يحس بها الاسطول ، ولكنه اكد اهمية انتهاء الحرب في اقصر وقت ممكن . وقال ان الغزو يحتاج الى اربعين فرقة ، وان « العملية الرئيسية » يجب ان تتم في الخامس عشر من ايلول . وكان سيد الحرب في الحقيقة في وضع متفائل على الرغم من رفض تشرشل في تلك اللحظة الاكثارات بنداثة السلمي . ودون هولدر في يومياته يقول :

« قال هتلر ان وضع انكلترا غداً يائساً . فلقد كسبنا نحن الحرب . ولا يمكن لأحواها ان تنعكس مطلقاً » ^(١) .

* * *

لكن قيادة الاسطول ، لم تكن على نحو ثقته ، وهي تواجه هذه المهمة الهائلة

== الغزو الاولى . فقد بات لديه في ذلك الوقت ست عشرة فرقة مدربة خير تدريب بينها ثلاث مدرعة ، متركزة في الساحل الجنوبي لمواجهة الغزو تضاف اليها اربع فرق اخرى مع لواء مدرع لحماية الساحل الشرقي في نهر « التيمز » حتى « ووش » . ولا ريب في ان هذه القوة تمثل نقاعة بارزة بعد كارثة دنرك، التي تركت بريطانيا عزلاء في البر طيلة شهر حزيران .

وكانت المخابرات البريطانية عن خطط الالمان مخطئة كل الخطأ، وظلت طيلة الاشهر الثلاثة الاولى من خطر الغزو على خطأ كامل . وقد ظل تشرشل ومستشاروه العسكريون طيلة الصيف يعتقدون ان الالمان سينزلون قواتهم الرئيسية على الساحل الشرقي ، وظلت قوات بريطانيا الرئيسية البرية متمركزة في هذه الناحية حتى شهر ايلول .

١ - يوميات هولدر في ٢٢ تموز ومؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٧١ - ٧٣ .

في نقل جيش ضخـم عبر القناة الانكليزية الشاطرة للبرين الانكليزي والفرنسي أمام اسطول بريطاني يفوقها الى حد هائل في القوة ، وأمام قوة جوية معادية تبدو نشيطة وفعالة . وقد قدّمت هيئة اركان البحرية في التاسع والعشرين من تموز مذكرة تنصح فيها « بعدم القيام بهذه العملية في هذه السنة » وتقتـرح « التفكير فيها في ايار عام ١٩٤١ أو بعد هذا التاريخ ^(١) . »

ولكن هتار اصرّ على دراستها في الواحد والثلاثين من تموز عام ١٩٤٠ عندما استدعى قادته العسكريين من جديد ، الى دارته في اوبرسالزبرغ هذه المرة وقد حضر الاجتماع بالاضافة الى ريدير كل من كايتل ويودل من القيادة العامة للقوات المسلحة وبراوختش وهولدر من القيادة العامة للجيش . وقد تولى الاميرال هذه المرة كما في المرات السابقة ، معظم الحديث ، اذ انه لم يكن في وضع يدعو الى التفاؤل مطلقاً .

قال ريدير ان الخامس عشر من ايلول ، هو الموعد المبكر الذي يمكن لعملية اسد البحر ان تبدأ فيه ، هذا اذا لم تكن هناك « ظروف غير منظورة بسبب عوامل الطقس أو استعدادات العدو » . وعندما استعلم منه هتار عن مشاكل الطقس راح ريدير يلقي محاضرة عن الموضوع بدت في غاية البلاغة وداعية الى التشاؤم حقاً . وقال ان الطقس يكون « سيئاً بصورة عامة في القناة وفي بحر الشمال باستثناء الاسبوعين الأولين من تشرين الأول ، اذ ان الضباب الخفيف يحل في منتصف ذلك الشهر ليعقبه ضباب شديد في نهايته . ولكن هذا لم يكن إلا ناحية واحدة من نواحي مشكلة الطقس . اذ اعلن ان « العملية لا يمكن القيام بها الا اذا كان البحر هادئاً » . اذ تفرق الزوارق اذا كان البحر عالياً ، وتصبح السفن الكبيرة ايضاً عاجزة ومشالولة ، اذ انها لا تستطيع ان تفرغ محمولها من المؤن . وقد غدا الاميرال ، اكثر تشاؤماً مع كل دقيقة فكر فيها بما يقوم أمامه من أهوال . ومضى يقول :

١ - يوميات اركان حرب الاسطول الحربية - ٣٠ تموز - وبتلبي من ٤٥ - ٤٦ .

« وحق لو تمكنت الموجة الأولى من عبور القناة بنجاح ، في
اوضاع طقس مواتية ، فليس ثمة من ضمانات على ان هذا الطقس
المواتي نفسه سيظل مستمراً اثناء نقل الموجتين الثانية والثالثة ...
وعلينا ان ندرك كأمر واقع ، بأنه قد تمضي بضعة ايام دون ان
نتمكن من نقل قوات تستحق الذكر » الى ان نكون قد اتمنا
الافادة من بعض الموانئ »

وكان حرياً بهذا الوضع ان يترك الجيش في مأزق حرج ، وان يدعه في
حالة من الضيق على الشواطئ مفتقراً الى المؤن والنجادات . ووصل ريدير الآن
الى النقطة الرئيسية في الخلافات بين الجيش والاسطول . فالجيش يريد جبهة
واسعة تمتد من مضائق دوفر الى خليج لايم . ولكن الاسطول لا يستطيع ان
يؤمن البواخر اللازمة لعملية كهذه ضد رد فعل قوي ومتوقع من الاسطول
والسلاح الجوي البريطانيين . ولهذا كان من رأي ريدير تقصير الجبهة وان تحصر
بين مضائق دوفر وايستبورن وأجل امير البحر قوله الفصل حتى النهاية ...
ثم فاجأ به الآخرين قائلاً :

« وهكذا على ضوء جميع الاعتبارات تبين لنا ان الوقت الامثل للبدء
بالعملية سيكون في ايار عام ١٩٤١ » .

ولكن هتلر لا يريد ان ينتظر هذه المدة الطويلة . وقد أقر بأن من
« الطبيعي » تعذر عمل شيء ضد الطقس . وعلى الموجودين ان يدرسوا النتائج
المحتملة لاضاعة الوقت . فالاسطول الألماني لن يكون في الربيع القادم أفضل
بالنسبة الى الاسطول البريطاني من وضعه الحالي . والجيش البريطاني الآن في
أسوأ حالاته . فاذا ما اتاحت له فسحة من الوقت تتراوح بين الثانية أشهر
والعشرة ، فستصبح لديه فرق تتراوح بين الثلاثين والخمسة والثلاثين وهي قوة
كافية للدفاع في منطقة محدودة كالمنطقة التي يقترح وقوع الغزو فيها . ولهذا
فقد كان قراره ، كما ورد في الملاحظات السرية التي دوّنّها كل من ريدير

وهولدر^(١) على النحو التالي :

« من الواجب دراسة احتمال تحويل اهتمام العدو الى افريقيا .
لكن النتيجة الحاسمة لا يمكن تجنبها إلا بهجوم على انكلترا نفسها .
ولهذا يجب اعداد محاولة لتهيئة العملية في الخامس عشر من ايلول
عام ١٩٤٠ وسيتم اتخاذ القرار الذي يقضي إما بوقوع العملية في
ايلول ، أو تأجيلها حتى ايار عام ١٩٤١ ، بعد ان تكون القوة
الجوية ، قد قامت بهجمات مركزة على انكلترا الجنوبية لمدة اسبوع
واذا كان تأثير الهجمات من النوع الذي يضمن اصابة قوة العدو
الجوية ، وقواه البحرية وموانئه اصابات شديدة ، فإن عملية اسد
البحر ستنفذ آنذاك في عام ١٩٤٠ . وإلا فان العملية ستؤجل
حتى شهر ايار عام ١٩٤١ » .

وهكذا بات كل شيء متوقفاً على السلاح الجوي .

واصدر هتلر في اليوم التالي ، الأول من آب نتيجة لذلك توجيهين من
القيادة العليا للقوات المسلحة ، وقع هو احدهما ، ووقع كايتل التوجيه الثاني . . .

مقر قيادة الفوهرر

في اول آب ١٩٤٠

سري للغاية

التوجيه رقم ١٧ لادارة الحرب الجوية والبحرية
ضد انكلترا

.. رغبة في اقامة الاوضاع اللازمة لاحتلال انكلترة نهائياً ،

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ١ آب ١٩٤٠ - هذا هو تقرير ريدير السري عن
الاجتماع وقد قدم هولدر تقريره في برفية طويلة في الواحد والثلاثين من تموز .

أود ان تستمر الحرب الجوية والبحرية ضد الوطن الانكليزي بصورة اكثر عنفاً من السابق .

« وتحقيقاً لهذه الغاية اصدر الأوامر التالية :

« ١ - على القوة الجوية الألمانية ان تتغلب على القوة الجوية البريطانية بجميع السبل المتوافرة تحت تصرفها وفي اسرع وقت ممكن .

« ٢ - بعد الحصول على التفوق الجوي المحلي أو الوقي يجب ان تستمر الحرب ضد الموانئ ولا سيما ضد المؤسسات المتعلقة بالمواد الغذائية ... ويجب ان تقع الهجمات على موانئ الساحل الجنوبي الشرقي على اضييق نطاق ممكن ، وذلك بالنسبة الى عملياتنا المقصودة ...

« ٣ - على السلاح الجوي الألماني ان يقف على قدم الابهة للاشتراك في عملية اسد البحر .

« ٤ - احتفظ لنفسي بحق القرار بالنسبة الى الهجمات الارهابية التي يقصد منها الثأر أو الانتقام .

« ٥ - يجب ان تبدأ الحرب الجوية المتضخمة في السادس من شهر آب أو حواليه . والاسطول البحري نحوّل بأن يبدأ الحرب البحرية العنيفة والمخطط لها ، في نفس الوقت ايضاً .
أدولف هتلر . (١)

وانقل الآن بعض ما جاء في التوجيه الثاني الذي اصدره كايتل نيابة عن هتلر في نفس اليوم ..

١ - وناق وزير الخارجية الألمانية (١٠) ص ٣٩٠ - ٣٩١ .

سري للغاية

عملية اسد البحر

« لما كان القائد العام للأسطول ، قد نقل الى الفوهرر في الواحد والثلاثين من تموز ان الاستعدادات الضرورية لعملية أسد البحر لا يمكن استكمالها قبل الخامس عشر من ايلول ، فقد اصدر الفوهرر أمره بما يلي :

« يجب مواصلة الاستعدادات اللازمة لعملية أسد البحر على ان يستكملها الجيش والسلاح الجوي قبل الخامس عشر من ايلول .

« سيقرر الفوهرر ، بعد مدة تتراوح بين الثانية ايام والاربعة عشر يوماً من شن الهجوم الجوي على بريطانيا . المخطط له ان يبدأ في الخامس من آب ، ما اذا كان الغزو سيقع في هذا العام او لا ، وسيعتمد القرار الى حد كبير على نتيجة الهجوم الجوي ..

« وعلى الرغم من تحذير الاسطول ، بان في وسعه ان يضمن فقط الدفاع عن شقة ضيقة من الساحل لا تتجاوز في بعدها غرباً ، يستبورن ، يجب اتخاذ الاستعدادات اللازمة للقيام بالهجوم على اساس واسع كما كان مقرراً في البداية (١) .. »

ولم تؤد الفقرة الاخيرة إلا الى اشغال الخلاف بين الجيش والاسطول في موضوع وقوع الغزو على جبهة طويلة أو قصيرة . وكانت هيئة اركان حرب البحرية قد قدرت قبل اسبوعين ان تحقيق مطالب الجيش في ازال مائة الف رجل مع معداتهم ومؤنهم في الموجة الاولى على جبهة تمتد مائتي ميل من رامسفيت

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية في ١ آب عام ١٩٤٠ . ص ٨١ - ٨٢ .

الى خليج لايم ، يتطلب جمع نحو من ١٧٢٢ زورقاً و ١١٦١ قارباً بخارياً و ٤٧١ من زوارق الجذب البخارية و ١٥٥ سفينة نقل . وقد نقل ريدير لهتلر في الخامس والعشرين من تموز ان مثل هذا الاجراء سيحطم الاقتصاد الالماني اذ ان حشد مثل هذا العدد الكبير من القوارب وزوارق الجذب ، سيدمر جميع نظام النقل الالماني في القنوات المائية ، الذي تعتمد عليه حياة البلاد الاقتصادية الى حد كبير ^(١) . وقد أوضح ريدير على أي حال ، بأن حماية مثل هذا الاسطول الضخم وهو يحاول تزويد جبهة عريضة كهذه بالمؤن والذخيرة ، من غارات اسطول بريطانيا وسلاحها الجوي ، تفوق طاقة القوات البحرية الالمانية وقدرتها . وقد حذر اركان حرب الاسطول ، قيادة الجيش في وقت ما من ان اصرارها على هذه الجبهة الواسعة قد يعرض الاسطول الى خسارة جميع ما لديه من سفن حربية .

ولكن الجيش أصر على رأيه . فقد أدت المبالغة في تقدير قوة البريطانيين ، الى الاعتقاد بأن النزول في جبهة ضيقة سيؤدي الى مواجهة المهاجمين ، قوة بريطانية برية تفوقهم « عدداً » . وحدثت مشادة بين القيادتين عندما اجتمع هولدر في السابع من آب بقرينه في القيادة البحرية وهو أمير البحر شنايويند رئيس هيئة اركان حرب البحرية . وكان الصدام بين الرجلين حاداً واشبه ما يكون بالتمثيل المسرحي .

وهدر رئيس هيئة اركان حرب الجيش ، وهو الرجل الهاديء عادة يقول في ثورة غاضبة : « انني أرفض اقتراح البحرية . وانني اعتبره من وجهة نظر الجيش ، اشبه ما يكون بالانتحار الكامل . وانني اوثر ان اضع القوات التي تنزل في آلة لصنع « السحق » من ان اعرضها لمثل هذه المجزرة » .

ويقول سجل هيئة اركان حرب البحرية عن الاجتماع ^(٢) أن الاميرال شنايويند ، رد بأن محاولة نقل الجنود الى مثل الجبهة الواسعة التي يقترحها الجيش

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٧٣ - ٧٥ .

٢ - لم يسجل هولدر في اليومية التي كتبها في ذلك التاريخ ، هذه الاقوال التي =

« لا تقل في نتائجها الانتحارية بالنظر الى تفوق بريطانيا البحري » .
حقاً لقد كانت معضلة فظيعة . فالقيام بفتح جبهة واسعة ، ونقل هذا العدد الضخم من الجنود لها يعرض الحملة الألمانية كلها الى خطر قيام الاسطول البريطاني بإغراقها . ولو تبني الجيش فكرة الجبهة القصيرة التي تعززها قوات أقل ، فإن في امكان الجيش البريطاني صد الغزاة والقذف بهم الى البحر . وراح براوختش القائد العام للجيش يبلغ القيادة العليا للقوات المسلحة في العاشر من شهر آب انه لا يستطيع قبول فكرة النزول بين فولكستون وايستبورن . لكنه كان على استعداد على أي حال ، يوماً متدمراً ، للتخلي عن فكرة النزول في خليج لايم لتقصير الجبهة ومقاتلة الاسطول في منتصف الطريق .

ولكن تساهل براوختش لم يكن كافياً لامراء البحر العنيدين ، وقد بدأ ما يتصفون به من حذر وعناد يترك أثراً في القيادة العليا للقوات المسلحة . وأعد يودل في الثالث عشر من آب « تقريراً للوضع » حدد فيه خمسة شروط لنجاح عملية اسد البحر ، وهي شروط لا بد وان تكون قد ظهرت بمظهر « الافتراضات المضحكة للغاية » لو لم تكن معضلتهم التي يواجهونها من النوع الجديد للغاية . فلقد اشترط أولاً محو الاسطول البريطاني من الساحل الجنوبي ، كما اشترط ثانياً محو السلاح الجوي البريطاني من الاجواء البريطانية ، وتناولت الشروط الاخرى ازالة القوات بأعداد ضخمة وبسرعة تفوق ما لدى الاسطول من امكانيات . وقال : انه ما لم تتحقق هذه الشروط ؛ فإن الانزال سيكون « عملاً » يائساً لا يمكن تنفيذه الا في وضع يائس ، والذي لاحق لنا في تنفيذه في الوقت الحاضر (١)

= اوردناها ، ولكنه اعلن على أي حال ، ان الحديث ادى الى « وجود هوة في الخلاف في الرأي لا يمكن اجتيازها » ولقد قال ان الاسطول الألماني « يخشى اسطول بريطانيا في المحيطات البعيدة » واكد ان درء هذا الخطر عن طريق السلاح الجوي الألماني امر مستحيل . ويبقى ان قيادة الاسطول الألماني ، ان لم تكن قيادة الجيش . لم تكن مخدوعة في هذه المرحلة بالقوة الضاربة لسلاح غورنغ الجوي .

١ - من يوميات يودل واوراق القيادة العامة للقوات المسلحة - ويتلي ص ٦٨ .

واذا كانت مخاوف البحرية قد انتقلت عدواها الى يودل ، فإن تردد رئيس العمليات الحربية في القيادة العليا للقوات المسلحة ، اخذ يؤثر على هتلر ولقد ظل الفوهرر طيلة الحرب اكثر اعتماداً على يودل منه على رئيس القيادة العليا كايتمل ، الرجل المتبدل الذهن الخائر العزيمه . وليس من الغريب والحالة هذه ، ان نرى هتلر بوصفه القائد الاعلى يميل في الثالث عشر من آب عندما قابله ريدير في برلين ليطلب اليه اتخاذ قراره في موضوع الخيار بين الجبهتين الواسعة والضيقة ، الى الاتفاق مع الاسطول في رأيه المناهض بالعملية الصغيرة . ووعد بأن يصدر قراراً محدوداً في اليوم التالي بعد ان يكون قد اجتمع الى القائد العام للجيش (١) . وهكذا بعد ان استمع الى آراء براوختش في الرابع عشر من آب عن القيادة العليا للقوات المسلحة والموقع من كايتمل يعلن بأن الفوهرر قد قرر التخلي عن النزول في خليج لايم الذي كان من المقرر ان يقوم به جيش رايخناو السادس . وتقرر ان تستمر الترتيبات للنزول في الجبهة الاكثر ضيقاً في الخامس عشر من ايلول ، ولكن شكوك الفوهرر الخاصة تسلت الآن وللمرة الأولى الى توجيهه السري . وازداد التوجيه ان « الاوامر النهائية لن تصدر الى ان يتضح الوضع تماماً . » لكن الأمر الجديد كان على أي حال بمثابة حل وسط اذ ان توجيهاً آخر صدر في ذلك اليوم قضى بتوسيع الجبهة الضيقة .

« يجب ان يكون العبور الرئيسي في جبهة ضيقة . ومن الواجب ان يتم نزول ما يتراوح عدده بين اربعة آلاف وخمسة آلاف من الجنود في برايتون من الزوارق ومثل هذا العدد تقريباً من الطائرات في دليل -- رامسفيت . وعلى السلاح الجوي ان يقوم بهجوم عنيف في اليوم الذي يسبق الغزو على مدينة لندن ، مما قد يدفع الاهلين الى الهرب من المدينة واغلاق الطرق المؤدية اليها » (٢)

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٨٢ - ٨٣ .

٢ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٨١ - ٨٢ .

وعلى الرغم من ان هولدر كان يدوّن في الثالث والعشرين من آب ملاحظة بطريقة الاختزال في يومياته قال فيها : « ان أي هجوم لا يقدر له النجاح في هذا العام على هذا الأساس » ، صدر توجيه من كايتمل في السابع والعشرين من آب ، حدد الخطط النهائية للنزول في أربع مناطق رئيسية على الساحل الجنوبي بين فولكستون و « سيلسي بيل » الواقعة الى الشرق من بورتسموث ، على ان يكون الهدف الأول ، كما كان من قبل خطأ « يمتد بين بورتسموث ونهر التيمز » الى الشرق من لندن عند « غريفسند » وان تصل القوات الى هذا الخط ، فور ايجاد الاتصال بين رؤوس الجسور هذه ، وفور تنظيم هذا الاتصال ، لتتمكن القوات من الزحف شمالاً . وصدرت في نفس الوقت الأوامر بالاستعداد لتنفيذ بعض مناورات التضليل التي تؤلف عملية « رحلة الخريف » المناورة الرئيسية فيها . ونصت هذه المناورة على توجيه هجوم ضخم زائف باتجاه ساحل بريطانيا الشرقي ، حيث كان تشرشل ومستشاروه العسكريون لا يزالون يتوقعون ان توجه الضربة الرئيسية إليه . وتقرر لهذه الغاية ان تغادر أربع بوaxter ألمانية ضخمة من بوaxter الركاب بينها الباخرتان الكبريان « يوروبا » و « برمين » ، وعشر من السفن الأخرى الأصغر حجماً ، تحرسها كلها أربعة طرادات ، موانئ الساحل الزوجي الجنوبي ، وشبه جزيرة هليغولند ، قبل يومين من موعد الغزو ، وان تتجه الى الساحل الانكليزي بين ابردين ونيوكاسل . وكان من المقرر ان تكون جميع البوaxter خالية من الجنود ، وان تعود الحملة بأسرها الى الموانئ التي غادرتها عندما يحيم الظلام مكررة المناورة كلها في اليوم التالي (١) .

وأصدر براوختش في الثلاثين من آب أمراً مطولاً ضمنه التعليمات المتعلقة بالنزول ، وليس ثمة من شك في ان القادة العسكريين الذين تسلموا هذا الأمر قد استغربوا ما يفتقر إليه من حماس للمشروع . وقد أطلق على الأمر الاسم التالي :

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٨٥ - ٨٦ وويتلي ص ١٦١ - ١٦٢ الذي يعطي تفصيلات وافية عن رحلة الخريف من الوثائق العسكرية الألمانية .

« تعليمات لاعداد عملية أسد البحر » ، ولا ريب في ان هذا العنوان يعني بعض التأخر في الاشتراك في إصدار الأمر بالاعداد ، إذ لا يعقل ان يكون أمر الاعداد قبل خمسة عشر يوماً فقط من موعد التنفيذ الذي حدده هتلر في الخامس عشر من ايلول . وأضاف ان امر التنفيذ « يعتمد على الوضع السياسي » ، وهو لا بد وان يكون قد أدهش القادة العسكريين الذين لا شأن لهم في السياسة (١) .

وبدأ البحار البواخر من الموانئ الألمانية الواقعة على بحر الشمال ، نحو موانئ التحرك على ساحل القناة الانكليزية في الأول من ايلول ، وصدر عن القيادة العليا للقوات المسلحة توجيه آخر بعد يومين أي في الثالث من ايلول هذا نصه :

« تقرر تعيين أقرب موعد للبحار في عملية الغزو في العشرين من ايلول على ان يكون النزول في الواحد والعشرين منه .
« وسيصدر الأمر ببدء الهجوم قبل عشرة ايام من يوم الغزو ،
أي في الحادي عشر من ايلول على وجه التقريب .
« أما الأوامر الأخيرة فستصدر ظهر اليوم الثالث قبل موعد الغزو .

« يجب ان تظل جميع الاستعدادات قابلة للالقاء قبل أربع وعشرين ساعة من ساعة الصفر .

كايتل (٢) .

وبدا أن القيادة كانت جادة هذه المرة . لكن هذا الجد كان خادعاً . فلقد اجتمع ريدير الى هتلر مرة ثانية في السادس من ايلول . وسجل امير البحر في يوميات الحرب لأركان حرب البحرية في تلك الليلة يقول : « لم يتخذ قرار

١ - نص تعليمات براوختش من ملفات القيادة العليا للجيش - ويتلي ص ١٧٤ - ١٨٢

٢ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٨٨ .

الفوهرر بالنزول في انكلترا شكلاً قاطعاً بعد ، إذ انه واثق كل الثقة من ان هزيمة بريطانيا يمكن ان تتحقق دون اللجوء الى النزول فيها ، ويظهر تسجيل ريدر المطول عن الحديث في الواقع ان الفوهرر تحدث بأسهاب عن كل موضوع إلا موضوع عملية أسد البحر ، فقد تحدث عن النروج وجبل طارق والسويس و « مشكلة الولايات المتحدة » ومعاملة المستعمرات الفرنسية ، وعن آرائه المضحكة في اقامة « اتحاد جرمانى شمالي » ^(١) .

ولو كان تشرشل وقادته العسكريون قد أحسوا بما وقع في هذا المؤتمر البارز فإن عبارة « كرومويل » الرمزية ، ما كانت لتنتقل في انكلترا في مساء اليوم التالي ، السابع من ايلول مشيرة الى ان الغزوات « وشيك الوقوع في كل لحظة » ، ولما أدى اطلاقها الى ما لا حصر له من الاضطراب والى قرع اجراس الكنائس على أيدي رجال الحرس الوطني ونسف المهندسين الملكيين لعدد من الجسور ، والى وقوع عدد لا حد له من الاصابات التي لا ضرورة لها والتي وقعت من جراء تعثر الناس بالألغام التي زرعت بسرعة هائلة ^(٢) .

وبدأ الألمان بعد ظهر السبت السابع من ايلول ، أولى غاراتهم الجوية الضخمة على مدينة لندن ، وقد اشتركت فيها (٦٢٥) طائرة قاذفة تحرسها (٦٤٨) طائرة محاربة . وكانت هذه الغارة أعظم ما وقع من هجمات مدمرة من الجو حتى تلك اللحظة على أية مدينة من المدن ، إذ ان الفارات التي وقعت على

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٩١ - ٩٧ .

٢ - يقول تشرشل ، انه لم يكن على علم هو او قادته العسكريون بأن كلمة « كرومويل » الرمزية قد انطلقت في انكلترا . وقد صدرت الاشارة من القيادة العامة لقوات الوطن (مذكرات تشرشل - الجزء الثاني ص ٢١٢) . ولكن رئيس الوزراء ما لبث بعد ايام أي في الحادي عشر من ايلول ، ان اذاع تحذيرا الى الشعب البريطاني ذكر فيه ان الغزو ان وقع ، فلن يتأخر حدوثه طويلا . و اضاف « ان علينا تبعا لذلك ، ان نعتبر الاسبوع القادم تقريبا فترة مهمة للغاية في تاريخنا . انها تقف على قدم المساواة مع تلك الايام التي كان فيها اسطول اسبانيا « الارمادة » يقترب من القناة ، والتي كان فيها دريك ينهي لعبته بالكرات ، او كان نيلسون يقف بيننا وبين جيش نابوليون الاعظم في بولون » .

وارشو وروتردام لم تكن شيئاً يذكر الى جانب هذه الغارة ، ولم تخل الساعات المبكرة من المساء ، حتى كانت منطقة الأرصفة في المدينة العظيمة كتلة ساعرة من اللهب ، كما توقف السير على جميع الخطوط الحديدية الممتدة الى الجنوب ، وهي خطوط متناهية في الأهمية ، بالنسبة الى أغراض الدفاع ضد الغزو . واعتقد الكثيرون في لندن ، في مثل هذه الظروف ان هذا القصف القاتل ، لم يكن إلا مقدمة للنزول الألماني المتوقع في كل لحظة ، ولهذا السبب ، انطلقت الإشارة التحذيرية بأن الغزو بات وشيك الوقوع في كل لحظة . وليس ثمة من شك ، كما سنرى عما قريب في ان هذا القصف المتوحش للندن في السابع من ايلول ، قد سجل نقطة تحول حاسمة في معركة بريطانيا ، على الرغم من توجيهه تحذيراً عن الغزو قبل الأوان ، وعلى الرغم مما ألحقه من أضرار بالغة . فقد أشار الى أن اعظم صراع حاسم شهده العالم في الهواء ، بات يقترب بسرعة من أوجه .

واقرب كذلك موعد وصول هتلر الى قراره القدرى ببدء الغزو أو تأجيله . فقد تقرر ان يصل هتلر الى النتيجة التي يريدها كما نص التوجيه الصادر في الثالث من ايلول في الحادي عشر من الشهر نفسه ، معطياً القوات المسلحة فرصة عشرة أيام ليس إلا لتنفيذ الخطوات التمهيدية . ولكن هتلر ما عتم في العاشر من ايلول أن قرر تأجيل كلمته الفاصلة حتى الرابع عشر منه . ويبدو انه كان هناك سببان على الاقل لهذا التأجيل ، أولهما الاعتقاد الذي ساد القيادة العليا للقوات المسلحة ، بأن قصف لندن قد أحدث من الدمار بالنسبة الى الممتلكات والى المعنويات البريطانية الى الحد الذي لم يعد فيه القيام بالغزو ضرورة ماسة ^(١) .

١ - تأثر الألمان اشد التأثر من التقارير الواردة من سفارتهم في واشنطن، وهي التقارير التي نقلت بعض المعلومات الواردة من لندن بعد ان اضفت عليها الكثير من التزييق . وقد قيل في هذه التقارير ان هيئة اركان الحرب الامريكية باتت تعتقد بأن بريطانيا لم يعد في وسعها ان تصمد مدة اطول . ويقول المقدم فون لوسبرغ في الصفحة الواحدة والتسعين من كتابه «في اركان قيادة الجيش الألماني» ان هتلر كان ينتظر جدياً نشوب ثورة في بريطانيا . وكان لوسبرغ ممثل الجيش في القيادة العليا للقوات المسلحة .

ونجم السبب الثاني من المتاعب التي شرع الاسطول الألماني في معاناتها من جرّاء حشده ما لديه من بواخر. فبالإضافة الى متاعب الطقس ، الذي ذكرت السلطات البحرية عنه في العاشر من ايلول ، انه بات « شاذاً كل الشذوذ وغير مستقر » ، أخذ السلاح الجوي الملكي الذي وعد غورنغ بتحطيمه ، والاسطول البريطاني يتدخلان تدخلاً متزايداً مع حشد اسطول الغزو وتجميعه . ولقد حذّر أركان حرب البحرية في ذلك اليوم من خطر الهجمات الجوية والبحرية البريطانية على حركة النقل الألمانية ، وهي الهجمات التي وصفها التحذير بأنها كانت « ناجحة كل النجاح » . وبعثت قيادة المجموعة البحرية الغربية بعد يومين أي في الثاني عشر من ايلول ، ببرقية حاشدة بالتشاؤم الى برلين جاء فيها :

« بدا التدخل الناجم عن قوات العدو الجوية ومدافعه البعيدة المدى ، وقواته البحرية الخفيفة في شكل متناهٍ في الأهمية للمرة الأولى . ولم يعد في الامكان استخدام موانئ أوستند ودنكرق وكاليه وبولون ، كمراس ليلية للبواخر ، لسبب ما تتعرض له من قصف مدفعي وجوي انكليزي . وبات في امكان وحدات الاسطول البريطاني ان تعمل حرة طليقة في القناة الانكليزية . وبات من المنتظر نتيجة هذه المتاعب ، وقوع تأجيل جديد في تجميع اسطول الغزو » .

وزادت الأمور سوءاً في اليوم التالي . فقد قامت القوات البحرية البريطانية الخفيفة باطلاق نيران مدافعها على موانئ الغزو الرئيسية في القناة ، وهي أوستند وكاليه وبولون وشربورغ . بينما تولى السلاح الجوي الملكي اغراق ثمانين زورقاً في ميناء أوستند . وتشاور هتلر في ذلك اليوم في برلين مع رؤساء قواته المسلحة الثلاث . وكان من رأيه ان الحرب الجوية تسير على خير ما يرام ، وأعلن انه لا يعترض والحالة هذه المجازفة بغزو انكلترا^(١) . وتكوّن لدى يودل الانطباع من

١ - يوميات هولدر - كتاب اسمان « سنوات المصير الألماني » ص ١٨٩ - ١٩٠ ويوتلي

ملاحظات الفوهرر بأنه « اعتزم التخلي كلية عن عملية أسد البحر » وكان هذا الانطباع صحيحاً بالنسبة الى ذلك اليوم فعلاً إذ اكده هتلر في اليوم التالي عندما عاد الى تبديل فكره .

وخلف كل من ريدير وهولدر ملاحظات سرية عن اجتماع الفوهرر بقادته العامين في برلين بتاريخ الرابع عشر من ايلول (١) . وتمكن امير البحر من ان يعطي لهتلر مذكرة قبل الاجتماع ضمنها رأي البحرية في ان :

« الوضع الجوي لا يؤمن الشروط اللازمة للقيام بعملية اسد البحر ، إذ ان خطر المجازفة ما زال كبيراً » .

وقد أظهر سيد الحرب النازي في بداية الاجتماع حالة سلبية الى حد ما ، واختلطت في افكاره المتناقضات المختلطة . فهو لن يصدر امره ببدء الغزو ، ولكنه لن يصدر في الوقت نفسه امراً بابطال الغزو وإلغائه ، وهو ما كان ريدير قد دوّنه في يومية الاسطول البحرية على انه كان « قد انتواه في الثالث عشر من ايلول » .

« ترى ما هي الأسباب لهذا التبدل الجديد في فكره ؟ قال الفوهرر :
« ان النجاح في الغزو إذا أعقبه الاحتلال ، سيضع نهاية للحرب في أقصر وقت ممكن . وستجوع انكلترا . وليس من الضروري ان يقع النزول في وقت معين ... لكن الحرب الطويلة امر غير مرغوب فيه . فلقد حققنا حتى الآن كل ما نحن في حاجة إليه » .

ولم تتحقق لبريطانيا الآمال التي علقها على إشر الكروسييا وامريكا في الحرب . فروسيا لا تريد ان تسفك دماء ابنائها في سبيل بريطانيا . ولن تصبح برامج التسليح الامريكي فعالة كل الفعل إلا في عام ١٩٤٥ . اما في هذه اللحظة فإن

١ - تقرير ريدير - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٩٨ - ١٠١ ويوميات هولدر في ١٤ ايلول .

« الحل الأشد سرعة يتمثل في النزول في انكلترا ، ولقد حقق الاسطول الشروط اللازمة . وباتت عمليات السلاح الجوي الألماني فوق كل تقدير وثناء . وستأتي أربعة ايام أو خمسة من الطقس الحسن بخير النتائج الحاسمة . . . ولدينا فرصة رائعة في ارغام انكلترا على الجثو على ركبتها » .

« إذن أين يقوم الخطأ ياترى ؟ ولماذا التردد مدة اطول في بدء الغزو ؟ وقد اقر هتler بأن المشكلة تقوم :

« في ان العدو يشفى من حالته المضنية المرة تلو المرة . . ولم تمح طائرات العدو انقائلة من الوجود تماماً حتى الآن . ولا تقدم تقاريرنا عن انتصاراتنا صورة صحيحة تماماً عن الوضع ، على الرغم من ان اضراراً شديدة لحقت بالعدو » .

ومضى هتler يعلن بعد ذلك ، على الرغم من جميع ما حققناه من نجاح فإن الشروط الأولية لنجاح عملية أسد البحر ، لم تتحقق بعد » .

ولخص هتler انعكاساته الفكرية على النحو التالي :

« ١ - ان النجاح في النزول يعني النصر ، ولكن تحقيق هذا يتطلب السيطرة الجوية المطلقة .

« ٢ - لقد حالت رداءة الطقس حتى الآن بيننا وبين الحصول على هذه السيطرة .

« ٣ - ما زالت العوامل الأخرى في وضعها الصحيح .

« ولهذا فالقرار يقضي بعدم العدول عن العملية حتى الآن » .

أما وقد وصل الى ذلك الاستنتاج السليبي ، فإن هتler قد فسخ المجال للأمال المشرقة بأن السلاح الجوي البريطاني ما زال قادراً على تحقيق النصر ، وهي الآمال التي ظلت تغذيه وتفر من بين يديه كلما شعر بدنوه من تحقيقها . وقال : « ان الهجمات الجوية قد تركت أثراً هائلاً حتى الآن ، وان كان أثرها ما زال محصوراً في الأعصاب . ولو تمكننا من تحقيق النصر في الهواء في عشرة أيام أو اثني عشر يوماً ، فإن الانكليز ، قد يقعون تحت سيطرة هستيريا جماعية » .

ورجا جيشونيك ، لتحقيق هذه الغاية ، ان يسمح له بقصف المناطق الآهلة بالسكان في لندن طالما ان توفير هذه المناطق ، لم يؤد الى ظهور « هلع جماعي » في العاصمة البريطانية . وأيد امير البحر ريدير بحماس اللجوء الى القصف الارهابي . لكن هتلر ظل على رأيه في ان التركيز على الاهداف العسكرية اكثر اهمية . وأضاف : « ان القصف الذي يهدف الى إحداث الهلع الجماعي يجب ان يترك حقي النهاية » .

ويبدو ان حماس امير البحر ريدير للقصف الارهابي نجم بصورة رئيسية عن افتقاره الى الحماس لعمليات الانزال . وتدخل في الحديث من جديد ليؤكد ثانية « الاخطار العظمى » التي تنطوي عليها هذه العمليات . وأشار الى ان الوضع في الحرب الجوية لا يمكن ان يتحسن قبل المواعيد المقررة بين الرابع والعشرين والسابع والعشرين من ايلول للنزول ، ولهذا فمن الواجب التخلي عن الانزال حتى الفترة الواقعة بين الثامن والرابع والعشرين من تشرين الاول .

ولم يكن هذا القول يعني سوى إلقاء الغزو كلية ، وهو ما أدر كهتلر عندما أصدر امره بأنه سيؤجل قراره النهائي في موضوع النزول الى البر حتى السابع والعشرين من ايلول . وإذا كان النزول متعذراً في الموعد الجديد ، فسيفكر بعد ذلك في مواعيد شهر تشرين الاول المقترحة . وصدر على الاثر توجيه من القيادة العليا هذا نصه :

برلين - ١٤ ايلول ١٩٤٠

سري للغاية

« قرر الفوهرر ما يلي :

« يؤجل البدء بعملية أسد البحر مرة ثانية . وسيصدر أمر جديد بعد السابع عشر من ايلول . يجب المضي في كافة

الاستعدادات .

« يجب المضي في الهجمات الجوية على لندن كما يجب توسيع منطقة الهدف لتشمل المؤسسات العسكرية وغيرها كمحطات السكة الحديدية .

« ويحتفظ بالهجمات الإرهابية ضد مناطق السكن المجردة للاستعمال كوسيلة نهائية للضغط » (١) .

وهكذا على الرغم من ان هتلر قرر تأجيل اتخاذ القرار في موضوع الغزو ثلاثة ايام أخرى إلا أنه لم يعدل عنه نهائياً . فهو يريد ان يمنح السلاح الجوي الألماني فرصة بضعة ايام أخرى للقضاء على السلاح الجوي البريطاني ولإضعاف مدينة لندن ، حتى يتمكن من تحقيق حركة الانزال التي ستضمن له النصر النهائي . وهكذا بات كل شيء يعتمد من جديد على قوة غورنغ الجوية التي كثر التباهي بها . وستقوم بأعظم جهد لها في اليوم التالي .

وأخذ رأي الأسطول في السلاح الجوي يسوء ساعة بعد أخرى فقد روت هيئة اركان حرب الأسطول الألماني عشية الاجتماع الخطير الذي عقد في برلين ان غارات عنيفة قام بها السلاح الجوي الملكي على موانئ الغزو الممتدة من انتويرب الى بولون . ومضت الرواية تقول :

« وقعت خسائر كبيرة في انتويرب في سفن النقل ، إذ أصيبت خمس منها كانت راسية في الميناء بأضرار بالغة ، وأغرق أحد الزوارق ، واغرقت سفينتان رافعتان ، ونسف قطار للذخيرة ، واشتعلت النيران في عدد من الاكواخ » .

وكان الوضع في الليلة التالية أشد سوءاً ، فقد روت البحرية « وقوع غارات جوية معادية قوية على جميع أرجاء المنطقة الساحلية الممتدة على الهافر الى انتويرب » . وبعث البخارة بآشارة استغاثة يطلبون المزيد من الحماية لموانئ الغزو من

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ١٠٠ - ١٠١ .

الطائرات المعادية . وروت هيئة أركان حرب البحرية في السابع عشر من ايلول ماي يلي :

« لم يهزم السلاح الجوي الملكي بعد . بل على النقيض يبدي هذا السلاح المزيد من النشاط في غاراته على موانئ القناة ، ومن عرقلته لحركات تجمعنا (١) » .

وكان القمر بدرأ في تلك الليلة واستغلت القاذفات البريطانية هذا الوضع اكبر استغلال . وروت هيئة اركان حرب الاسطول وقوع « خسائر بالغة » البواخر ، التي اكتظت بها موانئ الغزو الآن . وأغرق أو دمر أربعة وثمانون قارباً في دنكرك ، ونقل الاسطول وقوع اضرار بالغة على طول الساحل الممتد من شربورغ الى « دين هولدر » اشتملت على نصف مخزن للذخيرة سعة خمسمائة طن ، والتهاب النيران في مستودع للمؤن ، واحراق أو إغراق عدد من البواخر وزوارق الطوربيد ووقوع اصابات كثيرة بين عدد ضخم من الناس . وأضاف أركان حرب البحرية ان هذا القصف الجوي العنيف بالإضافة الى الضرب الشديد من المدافع القائمة عبر القناة الانكليزية قد حتماً ضرورة تشتيت شمل السفن الحربية وبواخر النقل المحتشدة على القناة ووقف أية حركة جديدة باتجاه موانئ الغزو.

١ - يوميات اركان حرب الاسطول الحربية - ويتلي - ص ٨٨ . ويقول مصدر الماني ان القاذفات البريطانية فاجأت في السادس عشر من ايلول ، جماعة المانية ضخمة يجري تدريبها على اعمال الغزو ، وأوقعت فيها خسائر بالغة في الرجال وفي مراكب الانزال . وادت هذه الانباء الى انتشار القول في المانيا وفي اماكن اخرى من القارة الاوروبية بأن الالمان قد حاولوا الانزال فعلا وان البريطانيين قد صدوهم (جورج فويشتر «الفارات الجوية» ص ١٧٦) وسمعت مثل هذه الرواية في جنيف في السادس عشر من ايلول ، حيث كنت اقضي اجازة بضعة ايام في ربوع سويسرا . ورأيت في الثامن عشر من ايلول وفي اليوم الذي تلاه قطاري اسعاف طويلين يفرغان محمولهما من الجنود الجرحى في ضواحي برلين . وتبينت من طريقة اربطة الجرحى، ان معظم جراحهم كانت نتيجة الحرق . ولم يكن هناك اي قتال فعلي على البر منذ ثلاثة اشهر . وسجلت اوراق البحرية الالمانية السرية بتاريخ الواحد والعشرين من ايلول ان احدى وعشرين باخرة نقل وان ٢١٤ زورقا اي ما يعادل ١٢ في المائة من مجموع القوات التي تم جمعها للغزو قد فقدت او اصبحت بأضرار (مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ١٠٢) .

ومضوا يقولون :

« وإذا لم نقم بذلك ، فإن أي عمل ينطوي على الحيوية والفعالية سيؤدي الى وقوع اصابات تجعل من المتعذر القيام بتنفيذ العملية على النطاق الذي سبق تحديده وتصوره » (١) .

ولكن هذا التعذر أصبح حقيقة واقعة . فهناك إشارة موجزة في يوميات الحرب البحرية الالمانية بتاريخ السابع عشر من ايلول تقول :

« لم نهزم سلاح العدو الجوي حتى الآن بأي حال من الاحوال . انه يظهر على النقيض من ذلك المزيد من النشاط . ولا تسمح لنا أحوال الطقس بتوقع فترة من الهدوء . ولهذا فقد قرر الفوهرر تأجيل عملية أسد البحر الى أجل غير مسمى » (٢) .

وهكذا مني هتار بالفشل لأول مرة بعد هذه السنوات الطويلة من النجاح المنقطع النظير . وظل الادعاء قائماً لمدة شهر آخر ، بأن الغزو قد يقع في ذلك الحريف ، ولكن هذا الادعاء كان أشبه ما يكون بأحلام النهار . وأصدر الفوهرر أمره رسمياً في التاسع عشر من ايلول ، بوقف أي تجمع جديد لأسطول الغزو ، وبتفريق البواخر المحتشدة في موانئ الغزو « لتقليل الخسارة الناجمة في المحولة الملاحية من جراء غارات العدو الجوية الى أدنى حد ممكن » .

وكان من المستحيل حتى الحفاظ على أسطول ضخيم موزع وعلى جميع القوات والمدافع والدبابات والمؤن التي تم تجميعها لعبور القناة للقيام بغزو اتخذ القرار بتأجيله الى أمد غير مسمى . وقال هولدر في يومياته بتاريخ الثامن والعشرين من ايلول : « ان التسويق المستمر في وجود عملية أسد البحر أصبح امراً لا يطاق » . ولاحظ شيانو في يومياته التي كتبها بعد ان اجتمع موسوليني الى الفوهرر في ممر برين في الرابع من تشرين الأول ، انه « لم يعد هناك حديث عن غزو الجزر

١ - يوميات اركان حرب الاسطول الحربية ١٨ ايلول - ويتلي .

٢ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ١٠١ .

البريطانية » . وأدت النكسة التي مني بها هتلر ، الى اشراق مزاج شريكه موسوليني ، وانشر احه بشكل لم يعرفه منذ مدة طويلة . ومضى شيانو يقول في يومياته : « لم يسبق لي ان رأيت الدوتشي في مثل هذا المزاج المرح .. الذي رأيته فيه اليوم في اجتماع برينر » (١) .

وكان الاسطول والجيش يلحفان في غضون ذلك على الفوهرر بوجوب اتخاذ القرار الفصل في إلغاء عملية أسد البحر إلغاءً كاملاً . وبيّنت له هيئة أركان حرب الجيش ان الاحتفاظ بهذه القوات على سواحل القناة « يؤدي نتيجة تعرضها للغارات الجوية البريطانية الدائمة الى اصابات مستمرة » .

واعترف سيد الحرب النازي أخيراً في الثاني عشر من تشرين الأول بفشله بصورة رسمية ، وأمر بتأجيل الغزو حتى الربيع التالي إذا تقرر آنذاك القيام به . وصدر التوجيه الرسمي بذلك على النحو التالي :

مقر قيادة الفوهرر

في ١٢ تشرين الأول عام ١٩٤٠

سري للغاية

« قرر الفوهرر استمرار التأهب منذ اليوم حتى الربيع القادم
« لعملية أسد البحر » بقصد الحفاظ على الضغط العسكري والسياسي
الموجه الى انكلترا ليس إلا .

« وإذا تقرر إعادة النظر في الغزو في الربيع أو في مطلع
صيف عام ١٩٤١ ، فستصدر الأوامر بتجديد التأهب العملي لذلك
فيما بعد ... »

١ - يوميات شيانو ص ٢٩٨ .

وصدر الأمر الى الجيش بتسريح تشكيلاته المعدة « لأسد البحر للقيام
بواجبات أخرى أو لتوزيعها على جبهات ثانية ». وصدرت التعليمات الى الأسطول ،
باتخاذ جميع الاجراءات لتسريح الرجال والسفن . ولكنه اشترط على فرعي
القوات المسلحة ان تقوموا بتنفيذ هذه التعليمات سرأً وتحت ستار من التغطية .
وأضاف هتلر في اشتراطه « وعلى البريطانيين ان يواصلوا الاعتقاد بأننا بعد الغدة
لهجوم على جبهة واحدة » (١) .

ترى ما الذي حدث حتى اضطر أدولف هتلر الى التسليم اخيراً ؟ .
لقد حدث أمران ، أولهما سير المعركة القدرية في سماء بريطانيا ، وثانيهما
انتقال أفكاره من جديد باتجاه الشرق الى روسيا .

معركة بريطانيا

وجه غورنغ هجومه الجوي العظيم على بريطانيا في عملية « النسر » ابتداء من
الحامس عشر من شهر آب ، وقد هدف من هجومه هذا الى اخراج القوة الجوية
البريطانية من الأجواء وتحقيق الشرط الوحيد الذي يتوقف عليه الغزو . ولم
يكن مشير الرايخ البدين يشك مطلقاً في النصر . وكان في منتصف شهر تموز
على ثقة من ان في وسعه ان يحطم خطوط بريطانيا الدفاعية في الجو في جنوب
انكلترا في غضون أربعة أيام عن طريق هجوم شامل ، مهداً الطريق بذلك الى
غزوها . وقال غورنغ لقيادة الجيش العامة ان تحطيم السلاح الجوي الملكي كلية
يتطلب وقتاً أطول يتراوح بين الأسبوعين والأربعة أسابيع (٢) . واعتقد قائد
القوة الجوية الالمانية الذي تملأ الأوسمة صدره ، ان السلاح الجوي الألماني وحده ،

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ١٩٤٠ ص ١٠٣ .

٢ - المقدم فون هيسلر - كتاب « دراسات عن الحرب الجوية - الجزء الثاني - الحرب
الجوية ضد بريطانيا » اقتبس منه ويتلي في ص ٥٩ .

قادر على اجبار بريطانيا على الجثو أمام المانيا ، وان من المحتمل ان لا تحتاج هذه إلى غزو تلك بقواتها البرية .

وكانت لدى غورنغ لتحقيق هذا الهدف ثلاثة أساطيل جوية أو لها الاسطول رقم (٢) بقيادة المشير كيسلرغ ويعمل من قواعده في البلاد المنخفضة وشمال فرنسا والاسطول رقم (٣) بقيادة المشير سيرل ويعمل من قواعده في فرنسا والاسطول رقم (٥) بقيادة الفريق شتومبف ويعمل من قواعده في النرويج والدانمارك وكان الاسطولان الأولان يملكان (٩٢٩) طائرة محاربة و (٨٧٥) طائرة قاذفة و (٣١٦) طائرة منقضة ، بينما كان الاسطول الاخير أصغر حجماً ويشمل (١٢٣) قاذفة و (٣٤) طائرة محاربة من ذات المحركين من طراز مسر شميت (١١٠) ، وتواجه هذه القوة الجبارة السلاح الجوي الملكي ، الذي كان يملك للدفاع عن البلاد كلها في مستهل شهر آب طائرات يتراوح عددها بين السبعمائة والثمانمائة طائرة محاربة . وقضى السلاح الجوي الالماني أطيلة شهر تموز يزيد تدريجياً في غاراته على الملاحه البريطانية في القناة وعلى موانئ بريطانيا الجنوبية . وكانت هذه العملية مجرد محاولة لجس النبض ، وعلى الرغم من ضرورة تطهير المياه الضيقة من البواخر البريطانية قبل ان يبدأ الغزو ، إلا ان الهدف الأساسي من هذه الهجمات الجوية الأولية ، كان اجتذاب الطائرات البريطانية المقاتلة الى المعركة واغرائها بالقتال . وقد فشل الالمان في تحقيق هذا الهدف . ورفضت قيادة السلاح الجوي الملكي ، دهاء منها ومكراً ، ان تدفع الى المعركة بأكثر من جزء صغيراً من مقاتلاتها ، وكانت النتيجة الحاق أفذح الأضرار بالملاحه وبيعض الموانئ . وأغرق الالمان أربع مدمرات وثمانى عشرة باخرة تجارية ، ولكن هذه المعارك التمهيدية كلفت السلاح الجوي الالماني ٢٩٦ طائرة حطمت و ١٣٥ اخرى اصبحت بأضرار . ولم يفقد السلاح الملكي اكثر من ١٤٨ طائرة مقاتلة .

وأصدر غورنغ في الثاني عشر من آب امره بشن عملية « النسر » في اليوم التالي . واستهل السلاح الجوي الالماني هذه العملية في نفس اليوم بغارات عنيفة على محطات الرادار البريطانية فأصاب خمساً منها بأضرار وأطار واحدة أخرى

من الوجود ، ولكن الالمان لم يكونوا قد أدركوا في هذا الوقت الأهمية الحيوية للرادار في الدفاع البريطاني ، ولذا لم يتابعوا هجومهم على هذه المحطات . وزج الالمان في الثالث عشر والرابع عشر بألف وخمسمائة طائرة في القتال ، ركزت هجومها على مطارات الطائرات البريطانية المقاتلة ، وعلى الرغم من انهم ادعوا تدمير خمس منها تدميراً كاملاً ، إلا ان الاضرار كانت في الحقيقة طفيفة ولا تستحق الذكر ، وخسر سلاحهم الجوي سبعة واربعين طائرة مقابل ثلاث عشرة طائرة بريطانية (١) .

وشهد الخامس عشر من آب أولى المعارك العظيمة في الجو . فقد قذف الالمان بالقسم الأكبر من طائرات اساطيلهم الثلاث وبلغ عدد الطائرات التي قذفوا بها في المعركة (٨٠١) طائرة قاذفة و (١١٤٩) طائرة محاربة . وواجه الاسطول الخامس العامل من القواعد الاسكندنافية ، الكارثة . وكان الالمان بعد ان زجوا بثمانمائة طائرة في الهجوم الضخم على الساحل الجنوبي الشرقي لانكلترا ، قد تصوروا ان السواحل الشمالية الشرقية قد خلت من أية طائرات دفاعية . وراحوا يبعثون بمائة قاذفة تحرسها أربع وثلاثون محاربة من ذوات المحركين من طائرات مسر شبيت (١١٠) لمهاجمة ساحل « التاينسايد » ، ففوجئت بسبعة أسراب من طائرات « الهاريكين » و « السبيتفاير » تخرج لملاقاتها لتحطمها . وخسر الالمان نحواً من ثلاثين طائرة معظمها من القاذفات دون ان يخسر المدافعون طائرة واحدة . وسجل هذا الانتصار نهاية اشتراك الاسطول الخامس في معركة بريطانيا ، إذ لم يعد الى الهجوم ابداً بعد هذه الكارثة .

وكان الالمان أحسن حظاً وأكثر نجاحاً في ذلك اليوم في جنوب انكلترا ، وقد شنوا أربع هجمات كثيفة تمكنت أحداها من التوغل والنفوذ الى سماء لندن

١ - ادعى الالمان انهم حطموا ١٣٤ طائرة بريطانية مقابل ٣٤ طائرة خسروها . وشرع الفريقان منذ هذا التاريخ ببالغان مبالغة كبيرة في تقدير ما ينزله الواحد منهما بالآخر .

تقريباً . وتمكنوا من اصابة أربع مصانع للطائرات في كرويدن وتدمير خمسة مطارات للطائرات المحاربة . وخسر الالمان في المعركة كلها خمساً وسبعين طائرة مقابل أربع وثلاثين خسرهما السلاح الملكي ^(١) . وعلى الرغم من تفوق الالمان العددي فإن هذه النسبة في هذه الخسائر كانت كافية لاجباط خطة المانيا في إخراج السلاح الجوي البريطاني من أجواء المعركة .

وهنا اقترف غورنغ أول خطأ من خطئيه التعبويين (التكتيكيين) الكبيرين . فقد استندت قيادة الطائرات البريطانية المقاتلة ، في الزج بطائراتها في المعركة ضد قوات تفوقها عدداً ، على براعتها في استخدام الرادار . فمذ اللحظة التي كانت الطائرات الالمانية تغادر قواعدها في أوروبا الغربية ، كانت تظهر على شاشات الرادار البريطانية ، وكانت قيادة الطائرات المقاتلة البريطانية تتابع بدقة سيرها ، وتقرر المكان الذي يجب ان تهاجها فيه والزمن الذي يجب أن يقع فيه الهجوم . وكان (الرادار) شيئاً جديداً في الحرب ، وقد ادهش الالمان الذين كانوا متخلفين كثيراً عن البريطانيين في تطوير هذا الاختراع الالكتروني . وقد شهد ادولف غالاند ، الطيار الالمانى المشهور ، أمام محكمة نورمبرغ فيما بعد قائلاً :

« وأذكر كنا ان ثمة طريقة لتوجيه أسراب الطائرات البريطانية المقاتلة من الارض ، وان هذه الطريقة جديدة علينا ، إذ كنا نسمع الاوامر الصادرة بوضوح وهي توجه طائرات السيتفاير ، و « الهاريكين » توجيهاً بارعاً ودقيقاً نحو التشكيلات الالمانية ... وكان هذا الرادار وتوجيه المقاتلات مفاجأة وأي مفاجأة مؤلمة لنا » ^(٢) .

١ - ذكر البلاغ الرسمي الذي صدر في لندن في ذلك المساء ان ١٨٢ طائرة المانية قد اسقطت وان ٤٣ أخرى يعتقد انها دمرت . وقد ادى هذا البلاغ الى الرفع من معنويات الشعب البريطاني عامة ومعنويات طياري المقاتلات المجهدين بصورة خاصة .

٢ - ادولف غالاند - الاول والاخير ص ٢٦ . وكذلك من استجواب غالاند الذي اقتبسهُ ويلموت في الصفحة ٤٤ من كتاب « معركة أوروبا » .

ومع ذلك ، لم يواصل الالمان هجومهم على محطات الرادار البريطانية ، وهو الهجوم الذي دمر الكثير في الثاني عشر من آب ، وسرعان ما اصدر غورنغ في الخامس عشر منه أمره بوقف هذا الهجوم كلية بعد ان منى بنكسته الرئيسية الأولى قائلاً : « انني اشك كل الشك فيما اذا كان ثمة فائدة من استمرار هذه الهجمات على محطات الرادار ، لاسيما وان اياً من هذه المحطات التي هوجمت لم تتوقف عن العمل » .

وكان ثمة مفتاح آخر لنجاح الدفاع عن أجواء جنوب انكلترا ، وهو وجود محطات « قطاعية » . وكانت هذه المحطات العصب الحساس الذي يوجه طائرات الهاريكين والسبيتفاير بواسطة الهواتف اللاسلكية ، الى المعركة على اساس آخر الانباء التي تلقاها من اجهزة الرادار ، ومن محطات المراقبة الارضية والطيارين في الهواء . ويقول غلاند ، انه كان في وسع الطيارين الالمان ان يسمعوها هذه التمتمة المستمرة على أمواج الاثير بين المحطات القطاعية ، وبدأوا يفهمون اخيراً اهمية هذه المراكز الارضية للمراقبة . وحولوا خططهم في الرابع والعشرين من آب الى تدمير هذه المحطات ، التي كان سبع منها يقوم في المطارات التي تحيط بلندن وهي مهمة كل الاهمية لحماية العاصمة نفسها وجنوب انكلترا بكامله . وكان هذا التحول ضربة وجهت الى الاجزاء الحيوية في دفاع بريطانيا الجوي .

وكان سير المعركة حتى ذلك اليوم ، يبدو ضد مصلحة السلاح الجوي الألماني . ففي السابع عشر من آب خسر الالمان احدى وسبعين طائرة مقابل سبع وعشرين طائرة بريطانية . وبرهنت طائرة الانقضاض البطيئة من طراز « شوكا » التي ساعدت كثيراً في تهديد الطريق امام انتصارات الجيش الألماني في بولندة والجهة الغربية على انها فريسة سهلة للمقاتلات البريطانية ، فأمر غورنغ في ذلك اليوم ، أي السابع عشر من آب بسحبها من المعركة ، مما أدى الى هبوط قوة القاذفات بنسبة الثلث تقريباً . وحدثت فترة هدوء في الجو بين التاسع عشر والثالث والعشرين من آب بسبب رداءة الطقس . وأعاد غورنغ

درسه للوضع في مقره الريفي « كارينهول » القريب من برلين ، في التاسع عشر من آب فأصدر أمره بتركيز الهجوم فور تحسن الطقس على السلاح الجوي الملكي . وراح يعلن قائلاً : « لقد وصلنا الفترة الحاسمة في الحرب الجوية ضد انكلترا ومهمتنا الحيوية هي هزم قوة العدو الجوية . وسيكون هدفنا الأول تحطيم طائرات العدو المحاربة » (١) .

وبعث الألمان بين الرابع والعشرين من آب والسادس من ايلول بنحو من ألف طائرة في كل يوم لتحقيق هذه الغاية . وكان مشير الرايخ مصيباً للمرة الاولى في حياته . أجل لقد دخلت بريطانيا في مرحلتها الحاسمة . اذ على الرغم من القتال الباسل الذي خاضه طيارو السلاح الملكي ، الذين أجهدتهم كثرة الطيران مدة شهر كامل ، إلا ان تفوق الالمان الهائل في العدد ، بدأ يترك أثره . فقد تمكن الالمان من تدمير خمسة من مطارات الطائرات المقاتلة في جنوب انكلترا تدميراً كاملاً ، ولعل ما هو اسوأ من ذلك ، انهم قذفوا بقنابلهم ستاً من المحطات القطاعية السبع قذفاً عنيفاً ، وبدأ أن جهاز المواصلات كله على وشك الانهيار . وكان مثل هذا الاحتمال يهدد بريطانيا بكارثة عنيفة .

ولعل ما هو اسوأ من هذا ، ان النتائج بدأت تؤثر على القوة الدفاعية المقاتلة للسلاح الجوي الملكي . ففي فترة الاسبوعين الحرجين بين الثالث والعشرين من آب وبين السادس من ايلول خسر البريطانيون ٤٦٦ طائرة مقاتلة اما تحطمت أو دمرت أسوأ تدمير ، وكانت خسائر السلاح الجوي الألماني أقل من ذلك . وان لم يعرف البريطانيون بها ، اذ بلغت ٣٨٥ طائرة منها (٢١٤) طائرة مقاتلة و (١٣٨) قاذفة . يضاف الى هذا ان السلاح الجوي البريطاني خسر (١٠٣) من الطيارين قتلوا و (١٢٨) اصيبوا بجراح خطيرة . ويمثل هذا الرقم ربع ما لدى البريطانيين من طيارين .

وكتب تشرشل فيما بعد يقول : « وبدأت كفة الميزان تتجه ضد قيادة

١ - سجلات سلاح الجو الألماني - ويتلي ص ٧٢ .

الطائرات البريطانية المقاتلة ... وأخذنا نحس بقلق زائد . . . ولو استمر الوضع على هذا النحو عدة اسابيع اخرى ، فإن بريطانيا كانت ستصبح حتماً دون أي دفاع منظم عن اجوائها . وكان من المحتوم نجاح الغزو للجزر البريطانية .

وهنا وقع غورنغ في خطئه التعبوي الثاني ، وبصورة مفاجئة . وكان هذا الخطأ مماثلاً في نتائجه الوحشية للخطأ الذي وقع فيه هتلر عندما أوقف هجومه المدرع على دنكرك في الرابع والعشرين من ايار . وأدى الى انقاذ السلاح الجوي الملكي الذي بدأ في الترنج وأصبح على وشك الانهيار ، ومثل نقطة تحول رئيسية في تاريخ أولى المعارك الجوية العظيمة .

فبعد ان تحمل سلاح بريطانيا في الطائرات المقاتلة الدفاعية هذه الخسائر الضخمة في الجو وعلى الارض ، والتي لم يكن في وسعه احتلالها أمداً طويلاً ، تحول السلاح الجوي الالماني في السابع من ايلول الى القصف الليلي الشامل لمدينة لندن . وهكذا نجحت مقاتلات السلاح الجوي الملكي من خطر أكيد .

ترى ما الذي حدث في المعسكر الالماني ، مما أدى الى هذا التحول في الاساليب التعبوية ، وهو التحول الذي قدر له ان يكون مفاجئاً بالنسبة لمطامح هتلر وغورنغ ؟ ان الرد على هذا السؤال مشحون بالسخرية والهزء .

ولنبداً الرد فنقول ، انه وقع خطأ ملاحى طفيف من نحو عشر من القاذفات الالمانية ليلة الثالث والعشرين من آب . فقد عهد الى هذه الطائرات بالقاء محمولها من القنابل على مصانع الطائرات ومستودعات الزيت في ضواحي لندن ، ولكنها ضلت طريقها وألقت قنابلها في وسط العاصمة ، ناسفة عدداً من البيوت ، وقاتلة عدداً من المدنيين . وخيل الى البريطانيين ان الغارة على هذا النحو كانت مقصودة فسارعوا الى الثأر من برلين في الليلة التالية .

ولم تكن الغارة ناجحة . فقد غطت سحابة كثيفة من الضباب سماء برلين في تلك الليلة ، ولم تتمكن إلا نصف الطائرات البريطانية الإحدى والثمانين التي عهد اليها بالقيام بهذه الغارة من الوصول الى هدفها . وهكذا كان الضرر الذي لحق بالعاصمة الالمانية طفيفاً ، ولكن اثر الغارة على معنويات الالمان كان هائلاً . اذ

كانت هذه هي المرة الأولى التي تسقط فيها القنابل على برلين . ودونت في يومياتي في اليوم التالي ، السادس والعشرين من آب أقول :

« أصيب البرلينيون بشيء من الذهول . ولم يكونوا يتصورون ان شيئاً من هذا قد يحدث فعندما بدأت الحرب ، أكد لهم غورنغ ان شيئاً من هذا لن يقع مطلقاً . . وقد صدقوه حتماً . ولا ريب في ان خيبة أملهم اكبر مما يتصور المرء . وكان على المرء ان يرى وجوههم ليقدر هول ما أصابهم » .

وكان الدفاع عن برلين قوياً ، اذ تحرسها حلقتان من المدافع المضادة للطائرات ، وبينما كانت القاذفات الزائرة تخلق فوقها اكثر من ثلاث ساعات ، وأزيزها يسمع من وراء السحب التي حالت بين مئات الأضواء الكشافة . وبين تمييز الطائرات المغيرة ، كان صوت القنابل المضادة للطائرات من أشد ما سمعت في حياتي . ولكن لم تتمكن اجهزة الدفاع من اسقاط طائرة واحدة . وقذف الطيارون البريطانيون بعدد من المنشورات التي تقول بأن « الحرب التي بدأها هتلر ستستمر ، وستطول ما طالت حياة هتلر » . وكانت هذه الدعاية ناجحة طبعاً ولكن صوت انفجار القنابل كان اكثر نجاحاً .

ووصلت طائرات السلاح الجوي الملكي باعداد اكبر ليلة الثامن والعشرين - التاسع والعشرين من آب . وقد دوت في يومياتي « ان هذه الطائرات قتلت الالمان لأول مرة في عاصمة الرايخ » . وكان عدد الضحايا الذي ذكرته المصادر الرسمية عشرة من القتلى وتسعة وعشرين جريحاً . وثار العظماء النازيون وهاجوا وماجوا . وراح غوبلز الذي كان قد اصدر اوامره الى الصحافة بالألا تنشر الا بضعة اسطر عن الغارة الأولى ، يأمرها الآن بأن تصرخ بأعلى صوتها حاملة على « وحشية » الطيارين البريطانيين الذين يهاجمون السكان العزل من نساء برلين واطفالها . وحملت معظم صحف العاصمة نفس العناوين الضخمة : (الهجوم البريطاني الجبان) وعادت الصحف بعد ليلتين عندما وقعت الغارة الثالثة تحمل العنوان التالي (قراصنة الجو البريطانيون فوق برلين) . ودوت في يومياتي

بتاريخ الأول من ايلول أقول :

« كان الأثر الرئيسي بعد اسبوع من الغارات الليلية البريطانية المستمرة ، نشر خيمة الأمل بين أفراد الشعب ، وبذر الشكوك في نفوسهم ... وليس ثمة من ريب في ان القصف الجوي ، لم يكن في الحقيقة قتالاً » .

وكان الأول من ايلول ، موعد الذكرى الأولى لنشوب الحرب . ولاحظت حالة الناس ، وأوضاعهم المزاجية ، بالاضافة الى اعصابهم المرهقة من جرّاء حرمانهم من النوم وتعرضهم للارهاب من الغارات المفاجئة ، وأزيز القنابل المضادة المرعب ، ودوّنت في يومياتي أقول :

« وقد تمكن السلاح الالماني في هذه السنة من تحقيق انتصارات لا مثيل لها حتى في التاريخ العسكري الرائع لهذا الشعب المحارب والمعتدي . ومع ذلك لم تنته الحرب ، ولم يكن الانتصار نتيجتها . وعلى هذه الناحية تتركز عقول الناس اليوم . انهم يتوقفون الى السلام . وهم يريدون ان يحصلوا عليه قبل حلول الشتاء » .

وأحس هتلر بأن من الضروري ان يخطبهم في الرابع من ايلول بمناسبة افتتاح حملة الشتاء في الميدان الرياضي . وقد احتفظ بسرية حضوره هناك حتى اللحظة الأخيرة ، مخافة ان تنتهز طائرات العدو فرصة وجود الغيوم وتفرّق الاجتماع بغاراتها على الرغم من انه وقع في ساعات بعد الظهر المتأخرة ، قبيل الغسق . ولم يسبق لي ان رأيت الديكتاتور النازي في مثل هذا المزاج الساخر ، أو ما يسميه الألمان بالميل الى النكتة ، الا نادراً ، مع العلم بأن هتلر كان في العادة رجلاً لا يعرف الا الجد . وقد اطلق على تشرشل اسم «المراسل الحربي البارز» . وعندما اشار الى دف كوبر قال ان (ليست ثمة كلمة في اللغة الألمانية المعروفة يمكن اطلاقها عليه . ولكن لدى البافاريين كلمة يصح اطلاقها على هذا الطراز من الرجال وهي كلمة (Krampfhenne) التي يمكن ترجمتها (بالدجاجة العجوز الشديدة العصبية) . ثم مضى يقول :

« ولا يعني هذر المستر تشرشل أو المستر آيدن ، ويعني الحياة من الشيخوخة ان اذكر المستر تشمبرلين معها ، أي شيء للشعب الألماني . ولعل خير ما يمكن قوله : هو ان هذا الهذر يضحكنا » . ومضى هتلر بعد ذلك يثير ضحك سامعيه ومعظمهم من الممرضات وموظفي الخدمات الاجتماعية ، لينطلقوا بعد ذلك مصنفين هازجين بشيء من الهستيرية . وقد واجه مشكلة الرد على سؤالين يحتلان افكار الشعب الألماني وأولهما متى يقع غزو بريطانيا وماذا ستعمل الحكومة بصدد القصف الليلي لبرلين وغيرها من المدن الألمانية ، فتحدث عن السؤال قائلا :

« ان الفضول يحتاج الشعب الانكليزي الذي يواصل السؤال .. ترى لماذا لا يقع ؟ » . اهدأوا . اهدأوا ، ان الغزو واقع . ان الغزو واقع ! »

وقد وجد سامعوه هذا التعبير مضحكا ، ولكنهم اعتقدوا على اية حال بأن هذا العهد بات قاطع . وأشار الى القصف البريطاني لبرلين ، فبدأ حديثه بشيء من المغالطة وانتهى الى شيء من التهديد العنيف ثم قال :

« ان المستر تشرشل يعرض الآن الطفل الجديد الذي ابتكرته افكاره وهو الغارات الجوية الليلية . ويقوم المستر تشرشل بتنفيذ هذه الغارات لا لأنها تأتي له بنتائج فعالة ، بل لأن السلاح الجوي البريطاني لا يستطيع ان يطير في سماء المانيا في وضع النهار ... بينما تخلق الطائرات الألمانية فوق الارض الانكليزية في كل يوم ... وعندما يجد الطيار الانكليزي ضوءاً يقذف بقنبليته لا يهمه أنى تقع .. هل تقع على المناطق الآهلة بالسكان أو المزارع أو القرى » . وانتقل بعد ذلك الى التهديد فقال :

« وظللت ثلاثة اشهر لا ارد على هذه الغارات ، اذ انني كنت اعتقد ان مثل هذا الجنون سيتوقف . وقد اعتبر المستر تشرشل سكوتي علامة ضعف وها نحن نرد الآن ليلة مقابل ليلة .

« وعندما يلقي السلاح الجوي البريطاني ، الفين أو ثلاثة آلاف
أو أربعة آلاف من الكيلوغرامات من القنابل ، فسنلقي نحن (١٥٠)
الفا أو (٢٣٠) أو (٣٠٠) أو (٤٠٠) ألف كيلو غرام .
وتقول يوميقي التي دونتها ، ان هتلر اضطر الى التوقف عند هذا الحد ،
نتيجة الدوي الصاخب من تصفيق النساء الالمانيات المستمعات اليه وهتافهن .
ومضى هتلر يقول : (وعندما يقولون انهم سيضاعفون غاراتهم على مدنتنا ،
فسنرد على ذلك باحالة مدنها الى انقاض) . ودوت هنا ان المستمعات الشابا ،
خرجن على اطوارهن واخذن يصفقن يحنون وخبال . وعندما توقف دوي
الهتاف والتصفيق اضاف قائلاً : أجل سنقطع ايدي قراصنة الجو ، فليسا عدنا
الله ويكون في عوننا) .
ودوت في ملاحظاتي أقول : (وعندما استمعت النساء الالمانيات الى
ذلك ، قفرن على اقدامهن ، واخذت صدورهن تعلو وتهبط ، وهن يصرخن
معلنات عن تأييدهن وموافقتهن) .
وأنتهى هتلر خطابه قائلاً : (وسيعين الوقت عندما ينهار احد الجانبين ،
وأود ان أؤكد لكم ان هذا الجانب لن يكون المانيا الاشتراكية الوطنية) .
ودوت اخيراً ان (الفتيات الثملات بالحماس ، رحن يصرخن صرخات الفرح ،
وهن يرددن بصوت واحد : (ابدأ . ابدأ . ابدأ) .
وعندما استمع شيانو في رومه الى تسجيل اذاعي للخطاب بعد بضع ساعات
اعترف بحيرته ودوت قائلاً : (لاريب في ان اعصاب هتلر متوترة) (١) .
وكان هذا التوتر في اعصابه عاملاً في اتخاذ القرار القدي بتحويل غارات
السلاح الجوي الألماني الطافرة في النهار على مراكز السلاح الجوي الملكي ، الى
غارات ليلية ضخمة على لندن . وكان هذا القرار سياسياً بقدر ما هو عسكري ،
وقد اتخذ الى حد ما للثأر من غارات البريطانيين على برلين وغيرها من المدن

الالمانية وهي غارات (نافهة) اذا ما قورنت بما كان السلاح الجوي الالماني يحدته في المدن البريطانية ، كما هُدف أيضاً الى تحطيم عزيمة البريطانيين على المقاومة باحالة عاصمتهم الى انقاض . ولو تحقق هذا الهدف ، وكان هتلر وغوبلز على ثقة من تحقيقه ، فان الغزو لايصبح امراً لازماً .

وهكذا بدأ الهجوم الجوي العظيم على لندن بعد ظهر السابع من ايلول . وقذف الألمان في هذه الغارة بستائة وخمس وعشرين طائرة قاذفة تحرسها (٦٤٨) طائرة مقاتلة . ففي الساعة الخامسة من مساء يوم السبت ذاك ، انطلقت الموجة الأولى المؤلفة من (٣٢٠) قاذفة تحرسها جميع الطائرات الألمانية المقاتلة ، بحلقة فوق نهر (التيمز) وبدأت تلقي قنابلها على (ترسانة) وولويتش ، وعلى محطات توليد الغاز والقوى الكهربائية والمستودعات وارصفة الميناء . وسرعان ما تحولت المنطقة الواسعة كلها الى كتلة من ألسنة اللهب . وقد أحاطت النيران في منطقة (سيلفرتاون) بالاهلين مما اضطر السلطات الى نقلهم عن طريق النهر . ووصلت الموجة الثانية التي تضم (٢٥٠) طائرة قاذفة في الساعة الثامنة والدقيقة العاشرة مساء بعد هبوط الظلام . واستأنفت الغارة التي استمرت في موجات متعاقبة حتى الساعة الرابعة والنصف من صباح الاحد . واستؤنف الهجوم في الساعة السابعة والنصف من مساء الليلة التالية ، وقامت بها نحو من مائتي قاذفة قنابل واستمرت طيلة الليل . ويقول المؤرخ البريطاني الرسمي ان (٨٤٢) شخصاً قتلوا و (٢٤٤٧) جرحوا إبان هاتين الليلتين الأوليين ، ولحقت اضرار واسعة بالمدينة المنبسطة . (١) ومضت الغارات متلاحقة ليلة إثر أخرى طيلة الاسبوع التالي (٢) .

وركب الفرور رأس المسؤولين عن السلاح الجوي الالماني لنجاح هذه

١ - راجع كتاب . تي اش اوبريان « الدفاع المدني » وهو جزء من التاريخ البريطاني الرسمي للحرب كما نقحه الاستاذ جي . آر . ام ، واصدره مكتب مطبوعات الحكومة .

٢ - لم تكن وسائل الدفاع الليلية قد اتقنت حتى ذلك الحين ولذا كانت خسائر الالمان نافهة .

الغازات ، أو ما خيل اليهم انه « نجاحها » فقررروا القيام بهجوم نهاري ضخم على العاصمة المحترقة المحطمة وأدى هذا الهجوم الذي وقع يوم الأحد في الخامس عشر من ايلول الى احدى معارك الحرب الحاسمة .

فقد ظهرت في سماء القناة الانكليزية ظهر ذلك اليوم نحو من مائتي قاذفة قنابل المانية يحرسها ثلاثة اضعاف هذا العدد من الطائرات المحاربة ، وهي تتجه الى لندن . وكانت قيادة المقاتلات البريطانية قد شهدت تجميع هذه الطائرات المهاجمة على شاشات الرادار ، واستعدت للمعركة . وسرعان ما انبرت الطائرات البريطانية لقطع طريق الطائرات الألمانية قبل ان تقترب من العاصمة ، وعلى الرغم من تمكن بعضها من الوصول الى سماء العاصمة ، إلا أن معظمها قد بدد شمله أو اسقط قبل ان يتمكن من افراغ محموله من القنابل . وعادت تشكيلة ألمانية اخرى اكثر قوة بعد نحو من ساعتين ولكنها منيت بالهزيمة ايضاً . وعلى الرغم من ان البريطانيين ادعوا اسقاط (١٨٥) طائرة ألمانية إلا أن الرقم الحقيقي كما عرف بعد الحرب من سجلات برلين كان أقل من ذلك بكثير ، اذ لم تعد الطائرات التي أسقطت ستاً وخمسين بينها اربع وثلاثون قاذفة . وخسر الطيران الملكي البريطاني ستاً وعشرين طائرة ليس إلا .

واظهرت هذه المعركة ان السلاح الجوي الألماني بات عاجزاً على أي حال بعد ان اتاح لقيادة الطائرات المحاربة فترة راحة لمدة اسبوع ، عن القيام بغارات رئيسية نهائية ناجحة على بريطانيا . أما وقد تجلى هذا الوضع ، فقد بات احتمال القيام بحركة انزال فعالة أمراً مستبعداً . وهكذا فقد مثل الخامس عشر من ايلول نقطة التحول في الحرب الجوية أو نقطة الذروة كما اسمها تشرشل فيما بعد في معركة بريطانيا . وعلى الرغم من ان غورنغ عندما أمر في اليوم التالي بتغيير أساليبه ، التي انطوت على استعمال القاذفات في وضع النهار لا لتقصف بقنابلها فحسب بل ولتكون احبولة يقصد منها خداع الطائرات المحاربة البريطانية وجرها الى المعركة ، تبجح قائلاً بأن مقاتلات العدو « لا بد وان ينتهي امرها

في غضون اربعة او خمسة ايام «^(١) . ولكن هتلر وقادة جيشه واسطوله كانوا اكثر فهماً للحقيقة ، ولم يمتد يومان على المعركة الجوية الحاسمة أي في السابع عشر من ايلول ، حتى كان الفوهرر كما ذكرنا قد اجل عملية « اسد البحر » الى امد غير مسمى .

وعلى الرغم من ان النذر شاء للندن ان تتعرض « لدك » فظيع مدة سبع وخمسين ليلة على التوالي ابتداء من السابع من ايلول الى الثالث من تشرين الثاني تقوم به نحو من مائتي قاذفة كل مرة ، مما حمل تشرشل على الاعتقاد كما قال فيما بعد ، ان المدينة ستتحول عما قريب الى ركام من الانقاض ، وعلى الرغم من ان معظم المدن البريطانية الاخرى ، وفي مقدمتها كوفن تري ، قد قضى عليها بأن تعاني ضرراً اعظم طيلة ذلك الخريف القائم والشتاء الذي تلاه ، إلا أن المعنويات البريطانية لم تصب بالانهيار ، ولم تهبط نسبة الانتاج في السلاح كما توقع هتلر بشيء من الثقة واليقين . وقد حدث العكس تماماً . فقد انتجت مصانع الطائرات في انكلترا ، وهي الهدف الرئيسي للطائرات الألمانية من الطائرات في عام ١٩٤٠ عدداً فاق ما أنتجته المصانع الألمانية اذ دفعت الى المعركة ٩٩٢٤ طائرة مقابل ٨٠٧٠ طائرة المانية . وكانت خسائر هتلر من القاذفات في سماء بريطانيا ، كبيرة الى الحد الذي استحال تعويضه ، وتشير السجلات الألمانية السرية الى ان الطيران الألماني ، لم يستفد قط من الضربة القاصمة التي تلقاها في اجواء بريطانيا في اواخر ذلك الصيف والخريف .

وكان الاسطول الألماني الذي شلته الخسائر التي مني بها في النروج في مطلع الربيع عاجزاً ، كما اعترف قادته ، طيلة الوقت عن تأمين القوة البحرية اللازمة لغزو بريطانيا . ولهذا كان الجيش الألماني ، مع افتقاره الى هذه القوة البحرية والى التفوق الجوي ، عاجزاً عن عبور مياه القناة الانكليزية الضيقة . وهكذا ظهرت عوامل اوقفت هتلر للمرة الأولى ، وعرضت خططه الجديدة للفتح

١ - سجلات المؤتمرات التي عقدها غورنغ مع قادة سلاحه الجوي - ويتلي - ص ٨٧ .

والاحتلال الى الفشل وذلك في نفس اللحظة التي كان فيها كما رأينا من قبل واثقاً من تحقيق النصر النهائي .

ولم يكن قد فكر أو فكر غيره حتى ذلك الوقت بأن المعركة الحاسمة قد تقرّر في الهواء . ولم يكن قد أدرك بعد عندما جثم الشتاء المظلم على أوروبا بكلّ كلفة ، بأن حفنة من الطيارين المحاربين الانكليز ، قد حافظوا بأحباطهم خطته للغزو ، على انكلترا كقاعدة عظيمة لإعادة تحرير القارة الأوروبية من الغرب في تاريخ لاحق . وكانت افكاره قد بدأت في الاتجاه ناحية اخرى ، بل اتجهت فعلاً الى تلك الناحية .

وهكذا نجحت بريطانيا . وكانت قد تمكنت طيلة الف عام بنجاح من الدفاع عن نفسها بقوتها البحرية . وكان بعض قادتها على الأقل ، على الرغم من كل ما ظهروا به من غباء امتلأت به صفحات هذا الكتاب ، قد ادركوا في السنوات الواقعة بين الحربين أن القوة الجوية باتت عاملاً حاسماً في أواسط القرن العشرين ، وان طائرة القتال الصغيرة وطيارها قد باتت الدرع الرئيسي للدفاع عن البلاد ، ولا ريب في ان تشرشل كان صادقاً كل الصدق عندما قال لمجلس العموم ، في احدى خطبه الخالدة في العشرين من آب ، عندما كانت المعركة في الاجواء ما زالت مستمرة على اشدها ، وكانت نتيجتها لا تزال في كفة الاقدار : « لم يحدث قط في تاريخ أي صراع بشري ، ان أحسنّ مثل هذا العدد الكبير من الناس ، يمثل هذا الدين الضخم ، لهذا العدد القليل من الناس ، مثل ما نشر به جميعاً اليوم لطيارينا » .

لو نجح الغزو

لو احتل الألمان النازيون بريطانيا ، لما كان احتلالهم أمراً ينطوي على الدماء واللفظ . ولا تترك الوثائق الألمانية المصادرة أي شك في هذا . فلقد اصدر براوختش القائد العام للجيش توجيهاً في التاسع من ايلول ، ينص على

وجوب « اعتقال جميع الذكور الأصحاء ، من سكان بريطانيا الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والخامسة والأربعين ونقلهم الى القارة الأوروبية إلا اذا اقتضت الاوضاع المحلية استثناءات في الانظمة » . وقد صدرت الاوامر التنفيذية لهذا التوجيه من مدير ميرة الجيش في القيادة العامة الى قيادة الجيشين التاسع والسادس عشر اللذين كانا قد احتشدا استعداداً للقيام بالغزو . ولم يبدأ الألمان عملهم بمثل هذه الخطوة المتطرفة في عنفها ، في أي بلد محتل ، حتى ولا بولندة نفسها . وقد حملت تعليمات براوختش العنوان التالي : « أوامر عن تنظيم الحسم العسكري في انكلترا وضمن سيره » ، وتضمنت تفاصيل واقية مسببة . ويبدو انها كانت تستهدف تأمين نهب الجزيرة البريطانية المنظم وارهاب سكانها ، وقد ألفت هيئة اركان خاصة في السابع والعشرين من تموز اطلق عليها اسم « الاركان الاقتصادية الحربية لانكلترا » لتحقيق هذا الهدف الأول . وكان من المقرر ان يصادر كل شيء فوراً الا المخزونات البيتية العادية . كما تقرر نقل الرهائن ونصت التعليمات بتعرض كل شخص يلصق اعلاناً لا يرضى عنه الألمان ، الى عقوبة الاعدام الفوري ، كما فرضت عقوبة ماثلة على كل من يتوانى في تسليم ما لديه من اسلحة أو من اجهزة الراديو في غضون اربع وعشرين ساعة .

وعهد الى همبر وحرسه النازي بمهمة فرض الارهاب الحقيقي . وعهد الى جهاز « مكتب الرايخ للأمن المركزي » الرهيب بقيادة هايدريش بتولي هذه المسؤولية . (١) وكان من المقرر ان يتولى هذه العمليات في لندن عقيد في الحرس النازي يدعى « البروفسور الدكتور فرانز سيكس » ، وهو واحد من قطاع الطرق المثقفين المعجبيين الذين استهوهم العبد النازي للعمل في شرطة همل السرية وكان الاستاذ سيكس قد تخلى عن منصبه كعميد لكلية الاقتصاد في جامعة برلين لينضم الى مكتب هايدريش الخاص ، حيث تخصص في « القضايا العلمية » ، التي

١ - يطلق على هذا الجهاز اسم ، R.S.H.A (Reichssicherheitshauptamt)
وقد تولى كما ذكرنا من قبل ، منذ عام ١٩٣٩ الاشراف على الفستابو وعلى الشرطة الجنائية ،
ومكتب الامن الخاص (S.D.) .

تلقي جوانبها الغريبة شيئاً من السحر على هنريخ هملر ذي النظارتين وعلى الأوغاد الذين يعملون تحت امرته. وفي وسع المرء ان يحكم على ما خسره الانكليز ، من عدم مجيء الدكتور سيكس الى بلادهم ، من الأعمال التي قام بها فيما بعد في روسيا حيث نشط نشاطاً ملحوظاً في جماعات الحرس النازي (Ein satzgruppen) التي ابرزت نفسها في كثرة ما ارتكبت من مذابح جماعية في روسيا ، حيث انحصر تخصص الاستاذ في اكتشاف المفوضين السياسيين السوفييات من بين الاسرى لإعدامهم ١٠

وتظهر وثائق « مكتب الرايخ للأمن المركزي » المصادرة ان غورنغ ابلغ هايدريش في الأول من آب ، بأن يكون على استعداد للعمل . فقد تقرر ان تشرع شرطة الحرس النازي ورجال المكتب الخاص ...

« فوراً في العمل في نفس الوقت الذي يقع فيه الغزو العسكري ، وذلك لاعتقال المنظمات المهمة العديدة ومكافحة الجمعيات الانكليزية المعادية لألمانيا » .

ولعل من سخرية الأقدار ان هايدريش قد عين في السابع عشر من ايلول الاستاذ سيكس بصورة رسمية لتولي منصبه الجديد في انكلترا ، وهو عين التاريخ الذي اصدر هتلر أمره فيه بتأجيل الغزو الى امد غير محدود .. وقد وجه اليه تعليماته على النحو التالي :

« تكون مهمتك مكافحة جميع المنظمات والمؤسسات المعادية لألمانيا بجميع الوسائل اللازمة ، واعتقال جماعات المعارضة في انكلترا لتحويل دون انتزاع التجهيزات الموجودة ، وتركيزها وحمايتها لاستغلالها في المستقبل . واني أقرر أن تتخذ من مدينة لندن مقراً لعملك ... واخولك أن تقيم ادارات تابعة لك في الاجزاء

١ - اصدرت محكمة نورمبرغ في عام ١٩٤٨ الحكم على الدكتور سيكس كمجرم حرب بالسجن عشرين عاماً ، ولكنه ما لبث ان اطلق سراحه في عام ١٩٥٢ .

الآخري من بريطانيا العظمى ، طبقاً لمقتضيات الأوضاع واملاءات الظروف » .

وكان هايدريش قد أعد فعلاً في شهر آب ست مجموعات من الحرس النازي للعمل في بريطانيا على ان تكون تابعة لقياداتها في لندن وبريستول وبرمنغهام وليفربول ومانشستر وادنبره أو غلاسجو ، اذا كان الانكليز قد نسفوا جسر فورت . وتقرر ان يعهد الى هذه المجموعات بنشر الارهاب النازي ، وأن تبدأ عملها باعتقال جميع الذين تتضمن القوائم الخاصة اسماءهم ، وهي القوائم التي كان قد أعدها بصورة مستعجلة تنطوي على الاهمال ، وولتر شيلبرغ ، وهو شاب آخر من المثقفين الجامعيين الاذكياء الذين يعملون تحت أمرة هملر ، وكان قد ولاه رئاسة مكتب الشعبة الرابعة لمكافحة التجسس في « مكتب الرايخ للامن المركزي » . وقد ادعى ذلك شيلبرغ نفسه ، على الرغم من انشغاله في ذلك الوقت الى حد كبير في لشبونه عاصمة البرتغال في مهمة غريبة لخطف الدوق وندسور .

ولا ريب في ان هذه القوائم الخاصة ببريطانيا التي عثر عليها بين وثائق هملر ، ممتعة للغاية ، وان لم يكن قصد هملر من الاحتفاظ بها ، ان يعثر عليها الحلفاء فيما بعد . فقد تضمنت أسماء نحو من الفين وثلاثمائة من الشخصيات البارزة في بريطانيا العظمى ، وان لم يكونوا جميعاً من الانكليز ، الذين اعتقد المسؤولون عن الفستابو ضرورة اعتقالهم فوراً . وكان اسم تشرشل طبعاً في رأس القائمة مع جميع أعضاء وزارته ، والساسة البارزين الذين يمثلون مختلف الاحزاب . وتضمنت كذلك أسماء كبار الصحفيين من رؤساء تحرير وأصحاب صحف ومراسلين وبينهم مراسلا « التايمز » السابقان في برلين نورمان ايون ودوغلاس ريدر ، اذا كانت برقياتها قد أغضبت النازيين . ويحتل المؤلفون البريطانيون مكانة خاصة في هذه القائمة التي غاب منها اسم برناردشو مما دعا الى الاستغراب . لكنها تضمنت أسماء . اش . جي ويلز وفيرجينيا وولف ، واي . ام . فورستر ، والدوس هكسلي ، وجي . بي بريستلي ، وستيفين سيندر ، وسي . بي سنو ،

ونويل كوارد ، ورييكاويست ، والسير فيليب غيبس ، ونورمان اينجل . ولم تستثن القائمة الاساتذة والعلماء ، اذ ضمت اسماء جيلبرت موري و برتراند راسل وهارولد لاسكي وبياتريس ديب وجي بي . اس هولدين .

وهدف الفستابو ايضا الى استفلال زيارتها لانكلترا لاعتقال المهاجرين اليها من المان واجانب . فقد تضمنت القوائم اسماء باديرويسكي فرويد ^١ وحاييم وايزمن وبنيش رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا وجان مازاريك وزير خارجيته . وتضمنت قائمة المهاجرين الالمان اسماء عدة بينها صديقين سابقين لهتلر كانا قد انقلبا عليه هما هيرمان روشنينغ وبوتزي هانفستينغل . وقد أسيئت تهجئة عدد من الأسماء الانكليزية الى الحد الذي بات من الصعب على القارئ ان يعرف اصحابها ، كما اضيفت احيانا الى بعض الأسماء تعاريف غريبة للغاية ، وقد ورد اسم الليدي بونهام كارتر ، على النحو التالي « الليدي كارتر- بونهام » وضيفت امامها العبارة التالية : « ولدت تحت اسم فيوليت اسكويت .. وهي سيدة تعمل في التطويق السياسي » وقد حدد امام كل اسم ، هوية القسم الخاص من « مكتب الاريخ للأمن الداخلي » الذي سيتولى أمره . وكان من المقرر ان يعهد بأمر تشرشل الى الشعبة السادسة « التجسس الخارجي » ، بينما تتولى الشعبة الرابعة « الفستابو » أمر معظم الأسماء ^٢ .

وتؤلف هذه القائمة الألمانية السوداء ملحقاً تكميلياً لكتاب سري أسود آخر اطلق عليه اسم « Informationsheft » ، ادعى شيلنبرغ ايضا انه هو الذي وضعه ، وكانت الغاية منه كما يبدو مساعدة قوات الحلفاء على نهب بريطانيا وتمييز المنظمات المعادية لالمانيا فيها ولا ريب في ان هذا الكتاب اكثر طرافة من القائمة السوداء . فقد تضمن بين قائمة المؤسسات الخطرة التي عددها والتي اشتملت على

١ - توفي المحلل النفسي المشهور في لندن في عام ١٩٢٩ .

٢ - تضمنت قائمة الذين يجب اعتقالهم عددا من الامريكيين بينهم برنارد باروخ وجون فونتر وبول روبيسون ولويس فيشر ودانيل دي لوس (مراسل الصحافة المشتركة في لندن) و م . دبليو فودور مراسل الشيكافو دبليو نيوز المعروف بكتاباته الكثيرة المعادية للنازية .

كافة المحافل الماسونية والمنظمات اليهودية التي تستحق « عناية خاصة » من « مكتب الرايخ للأمن المركزي » ، « المدارس العامة » (وهي في انكلترا تمثل المدارس الخاصة) ، « الكنيسة الانكليكانية (كنيسة انكلترا) التي وصفت بأنها « أداة قوية من أدوات السياسات الاستعمارية البريطانية » ، ومنظمة الكشف التي نعتت بأنها « مصدر ممتاز للمعلومات لجهاز المخابرات البريطانية » . وكان من المقرر ان يعتقل قائد الكشف الأعلى ومؤسسها اللورد بادن باول فوراً .

ولو حاول الألمان الغزو ، لما استقبلهم البريطانيون بالترحاب واللفظ . وقد اعترف تشرشل نفسه فيما بعد بأنه كان يسائل نفسه ترى ما كان سيتحدث لو جرب الألمان الغزو . ولكنه كان واثقاً من شيء واحد :

« كان حدوث المذابح أمراً واقعاً لا محالة فيه عند الفريقين ، وهي من النوع الكثيب والضحيم ، وبالطبع ما كان من المحتمل ان تكون هناك رأفة أو شفقة . فالألمان كانوا سيلجأون الى الارهاب ، وكنا على استعداد أيضاً لنمضي الى ابعد الحدود في حربهم » ^(١)

وهو لا يحدد بالضبط ما عناه بأبعد الحدود ، ولكن بيتر فليمنج في كتابه عن « أسد البحر » يذكر شيئاً مما عناه . فهو يقول ان البريطانيين قرروا كملجأ أخير ، اذا فشلت جميع الأساليب التقليدية الأخرى ، ان يهاجوا رؤوس الجسور الألمانية بغاز الخردل ، الذي تنشره طائرات تحلق على ارتفاع منخفض . وكان القرار مؤلماً ، وقد تطلب اتخاذه الكثير من الشجاعة الروحية على ارفع المستويات ، ويقول فليمنج « أنه أحيط آنذاك وحتى الآن بالكثير من السرية » ^٢ .

ولا ريب في ان هذا الطراز الخاص من المذابح التي تكهن بها تشرشل ، والتي كانت تتوقف على اطلاق ذلك الارهاب الذي خططت له الغستابو من عقاله ، لم

١ - تشرشل - مذكرات - الجزء الثاني ٢٧٩ .

٢ - بيتر فليمنج - عملية أسد البحر ص ٢٩٣ . كتاب رائع للغاية . ولكن لم يسمح للمؤلف بالوصول الى الوثائق السرية .

يقع في هذا المكان في هذا الوقت لأسباب تولينا شرحها فيما سلف . ولكن قدر لنا ان نشهد في اقل من عام واحد ، وفي مكان آخر من اوروبا ، الالمان يبعثون احوالاً ومفازع على نطاق لم يسبق للعالم ان جرّبه من قبل . وكان هتلر ، وحتى قبل العدول عن قراره بغزو بريطانيا ، قد توصل الى قرار آخر ، وهو ان يوجه اهتمامه الى روسيا في الربيع التالي .

ذيل المؤامرة النازية

لخطف دوق ودوقة وندسور

لعل من اطرف ما وقع في ذلك الصيف المتميز بالفتوحات الألمانية العظيمة هي القصة التي تفوق طرافتها ما فيها من اهمية ، أي قصة المؤامرة النازية لاختطاف دوق ودوقه وندسور ، ومحاولة اقناع ملك انكلترا السابق بالعمل مع هتلر في سبيل تسوية سلمية مع بريطانيا العظمى . وتتحدث وثائق وزارة الخارجية الألمانية المصادرة بأسهاب عن تطور هذه الخطة الخيالية الغريبة ^(١) ، كما يتحدث عنها وولتر شيلنبرغ القائد الشاب من قادة الحرس النازي والمكتب الخاص ، والذي انتدب للقيام بها ، في يومياته ^(٢) .

وقد ذكر ريبنتروب ليشيلنبرغ ، ان هتلر هو صاحب الفكرة . وقد احتضنها وزير خارجية النازي بكل ما لديه من حماس يقوده اليه جهله المعيب في الأمور ، واضطرت وزارة خارجية الوايخ وممثلوها الدبلوماسيون في اسبانيا والبرتغال الى اضعاء الوقت الطويل في تنفيذها في غضون صيف عام ١٩٤٠ الذي بلغ الذروة .

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (١٠) .

٢ - شيلنبرغ - الكهف - الفصل الثاني .

وكان الدوق ، الذي اشغل منصب العضوية في البعثة العسكرية البريطانية لدى القيادة العامة الفرنسية ، قد شق طريقه بعد انهيار فرنسا في حزيران عام ١٩٤٠ ، مع الدوقة الى اسبانيا لتجنب الوقوع اسيراً في ايدي الألمان . وابق ابرهارد فون ستوهرر ، السفير الألماني في مدريد ، وهو من الدبلوماسيين العريقين في السلك السياسي الى برلين في الثالث والعشرين من حزيران يقول :

« يطلب وزير خارجية اسبانيا رأيكم بالمعاملة التي يجب ان يقابل بها دوق ودوقة وندسور ، اذ ينتظر وصولهما الى مدريد اليوم في طريقهما الى انكلترا على الغالب عبر لشبونة . ويرى الوزير الاسباني اننا قد نرغب في استبقاء الدوق هنا وفي اجراء اتصال معه . ارجو الا ابراق بتعليماتكم » .

وراح ريبنتروب يبرق بتعليماته في اليوم التالي . واقترح استبقاء « الدوق والدوقة في اسبانيا مدة اسبوعين » محذراً من ان « يبدو الاقتراح صادراً عن ألمانيا » . ورد ستوهرر في اليوم التالي الخامس والعشرين من حزيران : « وعد وزير خارجية اسبانيا بعمل كل ما يمكن لاستبقاء وندسور هنا بعض الوقت » . واجتمع الوزير الاسباني العقيد خوان بيغبيد ريا اتينزا الى الدوق ، ونقل ما دار بينهما من حديث الى السفير الألماني الذي راح يبلغ برلين في برقية « سرية للغاية » بتاريخ الثاني من تموز ان الدوق لن يعود الى انكلترا ، إلا اذا اعترف بزوجه كفرد من الاسرة المالكة ، وإلا اذا اعطي له منصب ذو اهمية . و اضاف ان الدوق يؤثر ان لم تتحقق شروطه البقاء في اسبانيا في قصر وعدته به حكومة فرانكو و اضاف السفير « ان الدوق قد اعرب لوزير خارجية اسبانيا ولغيره من معارفه ، بأنه يخالف تشرشل ، ويعارض في الحرب . »

واذ تقل الدوق والدوقة الى لشبونة في مطلع شهر تموز وراح الوزير الألماني في البرتغال ، يبلغ ريبنتروب في الحادي عشر من تموز ان الدوق قد عين حاكماً لجزر البهاما ولكنه « يعتزم تأجيل سفره اليها اطول مدة ممكنة ... أملأ منه في تحول في الاحداث الى مصلحته » ... ومضى الوزير الألماني يقول :

« والدوق على يقين من انه لو ظل ملكاً على انكلترا لكان في الامكان تجنب الحرب ، اذ انه يصف نفسه مؤيداً صادقاً للتسوية السلمية مع المانيا . ويعتقد الدوق اعتقاداً جازماً بأن استمرار القصف الجوي العنيف سيجعل انكلترا ميالة الى السلام » .

وقد حملت هذه المعلومات وزير خارجية المانيا الغر ، على ان يبرق من قطاره الخاص في « فوشل » برقية « عاجلة للغاية وسرية جدالسرية » الى السفارة الألمانية في مدريد في ساعة متأخرة من نفس الليلة في الحادي عشر من تموز ، يطلب فيها منع الدوق من السفر الى جزر البهاما ، وإعادته الى اسبانيا ، ويفضل ان تكون العودة عن طريق اصدقائه الاسبانين . ومضى ريننتروب يقول : « وعندما يعود الزوجان الى اسبانيا يجب اقناعهما أو ارغامهما اذا اقتضى الأمر بالبقاء في الارض الاسبانية » . وعلى اسبانيا اذا اقتضى الأمر ان تعتقله كضابط انكليزي ، وان تعامله « كلاجيء عسكري » . ومضى ريننتروب يقول :

« ومن الواجب ابلاغ الدوق في فرصة مواتية ان المانيا تنشد السلام مع الشعب البريطاني ، وان عصابة تشرشل هي التي تقف حجر عثرة في سبيل هذا السلام ، وان من الافضل ان يتأهب الدوق لتطورات مختلفة اخرى . فالمانيا مصممة على إرغام انكلترا على الصلح ، بكل وسيلة تحت تصرفها ، وهي على استعداد في حالة حدوث ذلك ، الى تلبية كل رغبة يبديها الدوق ولا سيما اذا هدفت هذه الرغبة الى ارتقاء الدوق والدوقة عرش انكلترا . أما اذا لم يكن الدوق راغباً في العرش ، واطهر استعداداً للتعاون مع المانيا على اقامة علاقات طيبة بينها وبين انكلترا ، فإننا على اتم الالفة ايضاً ، لنضمن له ولزوجته دخلاً محترماً يمكنهما من العيش اللائق بملك من الملوك » ^(١) .

١ - ذكر ريننتروب لشلينبرغ ان الحكومة الالمانية قد وضعت مبلغ خمسين مليون فرنك سويسري ، وان « الفوهرر على استعداد ايضا لرفع هذا الرقم » .

واضاف الوزير النازي الأحق ، الذي لم يتعلم شيئاً إبان عمله كسفير لألمانيا في لندن عن طبائع الانكليز ، بأن لديه معلومات وثيقة تشير الى ان جهاز المخابرات البريطاني يعترم « الخلاص » من الدوق حال وصوله الى جزر البهاما . واجتمع السفير الألماني في مدريد في اليوم التالي ، الثاني عشر من تموز الى رامون سيرانو سونر وزير داخلية اسبانيا وصهر فرانكو ، الذي وعده بحمل الجنرال الأكبر « فرانكو » على الاشتراك في المؤامرة وتنفيذ الخطة التالية . ستوفد الحكومة الاسبانية الى لشبونة صديقاً حميماً وقديماً للدوق هو ميغويل بريمودي ريفيرا ، زعيم (الفالانج) في اسبانيا ، ونجل الديكتاتور الاسباني السابق . وسيوجه ريفيرا الى الدوق الدعوة للقدوم الى اسبانيا للاشتراك في رحلة صيد ولاجراء محادثات مع الحكومة الاسبانية عن العلاقات الانكليزية - الاسبانية . وستولى سونر ابلاغ الدوق عن مؤامرة المخابرات البريطانية لقتله . ومضى السفير الألماني يبلغ برلين قائلاً :

« وسيعرض الوزير على الدوق والدوقة بعد ذلك قبول ضيافة اسبانيا ومساعدتها المالية ايضاً . ومن المحتمل ان يحال بين الدوق وبين السفر ايضاً بطرق اخرى . وسنظل بعيدين عن الاضواء في جميع اجزاء هذه الخطة » .

وتقول الوثائق الألمانية أن ريفيرا عاد الى مدريد من زيارته الأولى للشبونة حيث اجتمع الى الدوق والدوقة في السادس عشر من تموز ، حاملاً رسالة الى وزير خارجية اسبانيا الذي نقلها الى السفير الألماني ، فتولى هذا الابراق بها الى برلين . وقد ذكرت الرسالة ان تشرشل عين الدوق حاكماً لجزر البهاما « برسالة فائقة رسمية » ، يأمره فيها بأن يمضي الى مقر وظيفته فوراً . وقد هدد تشرشل الدوق في حالة تأخره عن الذهاب « بمحاكمته أمام محكمة عسكرية » . وازافت الرسالة ان الحكومة الاسبانية وافقت « على تحذير الدوق بسرعة من الذهاب الى جزر البهاما لتولي منصبه » .

وعاد ريفيرا الى مدريد مرة ثانية من لشبونة في الثاني والعشرين من تموز ،

وأُبرق السفير الألماني في مدريد الى رينتروب في اليوم التالي « برقية عاجلة وسرية للغاية » جاء فيها :

« تحدث ريفيرا مرتين الى الدوق في جلستين طويلتين شهدت الدوقة ثانيتهما . وقد افصح الدوق عن حقيقة آرائه بصراحة وانطلاق ... فهو يحس بنفسه ينأى أكثر فأكثر من الناحية السياسية عن الملك والحكومة البريطانية الراهنة . ولا يحس الدوق والدوقة بكبير خشية من الملك الذي يعتبر انه رجلاً احمق ، ولكنها يخشيان كثيراً من الملكة الداهية التي تدسّ بدهاء ومكر ضد الدوق وضد الدوقة بصورة خاصة .

« ويفكر الدوق في اصدار بيان علني عام ... يستنكر فيه سياسة انكلترا الراهنة ويعلن خلافه مع اخيه الملك ... وقد اعرب الدوق والدوقة عن رغبتها الشديدة في العودة الى اسبانيا . وقد توصل السفير الألماني ، كما اضاف في برقيته ، الى ترتيب مع سونر ، على ايفاد رسول اسباني آخر الى البرتغال « لاقناع الدوق بمغادرة لشبونة وكأنه يعتزم القيام برحلة طويلة في السيارة ثم يعبر الحدود الى اسبانيا في نقطة يتم الاتفاق عليها ، وتتولى الشرطة السرية الاسبانية تنظيم دخوله الحدود والحفاظ على سلامته » .

وراح السفير يبعث بعد يومين ببرقية اخرى « عاجلة وسرية للغاية » الى رينتروب ضمنها بعض المعلومات الاضافية من ريفيرا ... قالت البرقية :

« عندما وجه ريفيرا نصيحته الى الدوق بعدم الذهاب الى جزر البهاما ، والعودة الى اسبانيا ، طالما أن من المحتمل ان يطلب الى الدوق ان يلعب دوراً هاماً في السياسة الانكليزية ، وقد يطلب اليه ان يرتقي العرش الانكليزي ، ظهرت علائم الدهشة على وجهي كل من الدوق والدوقة ... وقد رد كلاهما ، بأن هذا الأمر مستحيل بموجب الدستور الانكليزي الذي يحظر عودة الملك الى العرش بعد

تنازله عنه . وعندما لاحظ المبعوث الاسباني بأن سير الحرب قد يؤدي الى تبدلات في كل شيء حتى في الدستور الانكليزي ، راحت الدوقة بصورة خاصة ، تغيب في تفكير عميق . «
وقد ذكر السفير الألماني في هذه البرقية وزير خارجيته ، بأن ريفيرا نفسه لا يعرف « بوجود أية مصلحة لألمانيا في هذه القضية . ويبدو ان الاسباني الشاب يعتقد بأنه يعمل نيابة عن حكومته . »

ولم يحل الاسبوع الأخير من شهر تموز ، حتى كان النازيون قد اكملوا وضع خططهم لاختطاف الدوق والدوقة . وقد انتدب هتلر شخصياً ، وولتر شيلنبرغ ليتولى تنفيذ هذه الخطة . وطار هذا من برلين الى مدريد حيث تشاور مع السفير الألماني ثم مضى الى البرتغال ليشرع في تنفيذ الخطة . وراح السفير يبرق في السادس والعشرين من تموز برقية « مستعجلة جداً وسرية للغاية » الى ريبنتروب ضمنها خطط العملية ... وهذا ماجاء فيها :

« في وسعنا افتراض وجود تصميم صادق عند الدوق والدوقة على العودة الى اسبانيا . ولتشديد هذه العزيمة ، أوفد الرسول السري الثاني اليوم الى لشبونة يحمل رسالة الى الدوق تم اعدادها بمنتهى البراعة والذكاء ، وأرفق بها مخطط دقيق لعملية عبور الحدود ... »

« وتنص الخطة على ان يتظاهر الدوق وزوجته بالقيام رسمياً بإجازة صيفية الى منطقة جبلية لا تبعد كثيراً عن الحدود الاسبانية ، ليتمكننا من عبور الحدود اثناء رحلة صيد في وقت معين ، وفي المكان المحدد . ولما كان الدوق لا يحمل أي جواز سفر ، فمن الواجب رشوة موظف الجوازات البرتغالي المسؤول في ذلك المكان . » وتقضي الخطة ايضاً بأن يكون الرسول السري الأول « بريمو دي ريفيرا » على رأس بعض القوات الاسبانية في مكان مناسب داخل الحدود الاسبانية في الوقت المحدد لضمان سلامة الدوق

وزوجته .

« ويقوم شيلنبرغ وجماعته بالعمل من لشبونه ، بالتعاون الوثيق مع الخطة لتنفيذ الهدف .

« ولهذا الغاية سيتم إعداد الرحلة الى مكان الاجازة الصيفية ، وتهيئة رحلة الصيد ، بالتعاون مع احد كبار قادة الشرطة البرتغاليين الموثوقين ...

« وفي لحظة عبور الحدود كما هو متفق عليه ، تتولى جماعة شيلنبرغ مسؤولية ترتيبات الأمن على الطرف البرتغالي من الحدود ، ثم تواصل نفس المسؤولية الى داخل اسبانيا كحرس مباشر ، على ان يجري تبديل الحراسة من وقت الى آخر دون اي عائق .

« وحرصاً على سرية الخطة كلها ، اختار وزير داخلية اسبانيا شخصاً آخر ، سيكون امرأة على الغالب ، تتولى الاتصال اذا اقتضى الأمر بالرسول السري الثاني وتستطيع نقل المعلومات عند الحاجة الى جماعة شيلنبرغ .

« وفي حالة وقوع أي طارئ نتيجة أي عمل من جانب المخابرات البريطانية تتخذ الترتيبات اللازمة لايصال الدوق والدوقة الى اسبانيا بالطائرة . وفي هذه الحالة ، كما في حالة تنفيذ الخطة الأولى ، يشترط قبل كل شيء الحصول على الرغبة في مغادرة البرتغال من الدوق عن طريق التأثير النفسي الصريح على عقلية الانكليزية المعروفة ، دون السماح باعطائه الانطباع بأنه يفر من البرتغال ، وعن طريق استغلال ما قد يحس به من قلق من المخابرات البريطانية ، والايحاء له بجرية العمل السياسي في الارض الاسبانية .

« وبالإضافة الى ما يجب توفيره له من حماية في لشبونه ، قد يوضع رأي آخر في موضع الاعتبار اذا اقتضى الأمر ، وهو يقضي باقناعه بترك البلاد مختاراً ، عن طريق تخويله بمنافرة مناسبة يمكن ان

تعزى مسؤوليتها الى جهاز المخابرات البريطاني .
هذه هي الخطة التي وضعها النازيون لاختطاف دوق وندسور ودوقتها .
وهي تتميز بشيء من البلاهة التي عرفت عن الألمان ، وقد تعذر تحقيقها بسبب
ما عهد في الألمان من عجز عن فهم « عقلية الدوق الانكليزية » .

وقام شيلنبرغ بتنفيذ مناورة « التخويف » بدقة . فقد دبر ذات ليلة ،
قذف نوافذ الدارة التي يعيش فيها الدوقان ببعض الحجارة ، ونشر الشائعات بين
الخدم بأن هذا العمل صادر عن المخابرات البريطانية . وتمكن من ارسال باقة
من الزهور الى الدوقة وهي تحمل بطاقة كتب عليها : « احذري مكائد المخابرات
البريطانية . من صديق برتغالي ، يضع مصالحك في فؤاده فوق كل اعتبار »
وراح يبلغ برلين في تقرير رسمي انه قرر حذف ما كان قد أعد من اطلاق بعض
العيارات النارية غير المؤذية على زجاج النافذة في غرفة نوم الدوقة ، وذلك في
ليلة الثلاثين من تموز ، خشية أن يترك هذا العمل اثراً نفسياً معاكساً عند الدوقة
يضاعف من رغبتها في مغادرة البرتغال الى جزر البهاما .

وكان الوقت يسبق المتأمرين . فقد نقل شيلنبرغ في الثلاثين من تموز الى
برلين نبأ وصول السير وولتر مونكتون ، صديق الدوق القديم الى لشبونه ،
مثلاً الحكومة البريطانية التي يشغل منصباً هاماً فيها . وكانت المهمة التي جاء
من اجلها ، كما هو واضح ، اقناع الدوقين على الاسراع في السفر الى البهاما .
وابرق السفير الألماني في مدريد الى رينتروب في نفس اليوم برقية « سرية للغاية
وعاجلة جداً » يبلغه فيها انه تلقى قبل لحظات نبأ من جاسوس الماني في لشبونه
يقول ان الدوق والدوقة سيفادران لشبونه في الاول من آب ، أي بعد يومين .
وراح يسأل رينتروب في برقيته انه بالنظر الى هذه الأنباء « الا يحسن بنا الى
حد ما التخلي عن تحفظنا » ؟ ومضى السفير يقول : ان المعلومات الواردة اليه
من مصادر المخابرات الألمانية ، تفيد بأن الدوق قد أعرب لمضيفه المالي البرتغالي ،
ريكاردو دو اسبيرتويتو سانتو سيلفا عن رغبته « في الاتصال بالفوهرر » . ثم قال :
فلم لانعد العدة لاجتماع بين الدوق والفوهرر ؟

وعاد السفير يبرق في اليوم التالي أي الواحد والثلاثين من تموز الى رينتروب برقية « عاجلة للغاية وسرية جداً » يبلغه فيها ان الموفد الاسباني الذي عاد قبل لحظات من لشبونة بعد الاجتماع الى الدوقين ، قد حمل الانباء بأنها « على الرغم من تأثرهما أشد التأثر من انباء الدسائس الانكليزية ضدتهما ، ومن قلقهما على سلامة شخصيهما » ، يعترضان كما يبدو الاجار الى البهاما في الأول من آب ، وان كان الدوق يحاول « اخفاء الموعد الحقيقي » واذاف السفير « ان مدير داخلية اسانيا يعترم القيام بمحاولة اخيرة لمنع الدوق والدوقة من مغادرة البرتغال » .

وافرعت الانباء التي وردت الى رينتروب بأن الدوقين يعترضان السفر بمثل هذه السرعة ، الوزير الالماني ، وبعث من قطاره الخاص في فوشل ببرقية « عاجلة جداً وسرية للغاية » الى الوزير الالماني المفوض في لشبونة في ساعة متأخرة من بعد ظهر نفس اليوم أي الواحد والثلاثين من تموز وقد طلب في برقيته ابلاغ الدوق عن طريق مضيفه البرتغالي الرسالة التالية :

« تريد المانيا من الناحية الاساسية السلام مع الشعب البريطاني ، ولكن عصاة تشرشل هي التي تقف حجر عثرة في سبيل هذا السلام . وقد باتت المانيا على اثر رفض نداء الفوهرر الاخير بالرجوع الى حكم العقل والمنطق ، مصممة على ارغام انكلترا على الصلح بكل وسيلة تحت تصرفها . وقد يكون من الافضل ان يكون الدوق متأهباً لأية تطورات جديدة . وستكون المانيا في مثل هذه الحالة على استعداد لتلبية كل رغبة يبديها الدوق ، أو الدوقة ، وللتعاون معه تعاوناً وثيقاً ... أما اذا رغب الدوق والدوقة في اشياء أخرى ، شريطة ان يظهر ا استعداداً للتعاون مع المانيا على اقامة علاقات طيبة بينها وبين انكلترا ، فان المانيا على استعداد ايضاً للتعاون مع الدوق ، وان تهىء للدوقين مستقبلاً يتفق مع رغباتها . وعلى الصديق البرتغالي الذي يحل الدوق في ضيافته ان يبذل جهداً صادقاً للحيولة دون رحيله غداً ، لاسيما وان لدينا

تقارير موثوقة تؤكد ان تشرشل يعتزم ان يفرض سيطرته على الدوق
بعد وصوله الى البهاما ، ليستبقية هناك بصورة دائمة ، وكذلك لان
اقامة أي اتصال في اللحظة المواتية مع الدوق في جزر البهاما
سيكون امراً عسير المنال علينا .. »

ووصلت برقية وزير خارجية المانيا العاجلة الى المفوضية في لشبونه ، قبيل
منتصف الليل . واجتمع الوزير الالماني الى السنيور اسبيريتو سانتو سيلفا في
غضون الليل ، وحثه على نقل هذه الرسالة الى ضيفه الكبير . وقد نفذ المالي
لبرتغالي المطلوب منه في صباح الاول من آب ، وتشير برقية بعثت بها المفوضية
الالمانية الى برلين في نفس اليوم ، الى الدوق تأثر بالرسالة تأثراً بالغاً :

« اثنى الدوق على رغبة الفوهرر في السلام ، مما يتفق تمام الاتفاق
مع وجهات نظره هو وأعرب الدوق عن قناعاته المطلقة بأن الحرب
ما كانت لتقع ابداً ، لو كان هو على عرش انكلترا . وافق منشرحاً
على النداء الموجه اليه للتعاون في اللحظة المواتية على اقامة السلام .
لكنه يجد نفسه مضطراً على أي حال في هذه الآونة لاطاعة أوامر
حكومته الرسمية . فالعصيان يكشف نواياه قبل الأوان ، ويخلق
فضيحة عالمية ، ويقضي على ما له من مكانة في انكلترا . وهو على
يقين ايضاً بأن الظرف الحاضر ، لم يعد مواتياً للظهور في هذه الصورة
اذ لم تظهر حتى الآن أية ميول في انكلترا للتقارب من المانيا . ولكنه
على أي حال على استعداد للعودة حالاً ، عندما يظهر أي تحول في
التفكير البريطاني .. فهناك احتمال قريب الوقوع وهو ان تستدعيه
انكلترا في لحظة حرجة ، كما ان ثمة احتمالاً آخر بأن تعرب له المانيا
عن رغبتها في التفاوض معه . وهو على استعداد في كلتا الحالتين
للتضحية الشخصية ، وسيضع نفسه دائماً رهن الإشارة دون ان
يكون له أي مطمح شخصي .

« وسيظل على اتصال دائم بمضيفه السابق ، ويتفق معه على

عبارة « رمزية » حتى اذا ما وصلت اليه من مضيفه ، طار فوراً عائداً الى لشبونه .

وهكذا ابجر الدوق والدوقة على الرغم من أنف الألمان عيشة اليوم الأول من آب على ظهر الباخرة الامريكية (اكسكالير) . وبعث شيلنبرغ في اليوم التالي برقية شخصية الى وزير الخارجية (ريبنتروب) ضمنها تقريره الأخير عن فشل مهمته ، مؤكداً فيها وبأسهاب ، انه فعل كل ما في وسعه حتى اللحظة الأخيرة للحيلولة دون رحيل الدوقين . وقد استغاث السفير الاسباني في لشبونه ، وهو شقيق لفرانكو ، ليقوم بأخر محاولة مع الدوقين مناشداً اياهما عدم الرحيل . وادعى شيلنبر تحريب السيارة التي تحمل متاع الدوقين ، بحيث لم يصل الى الباخرة الا متأخراً . ونشر الألمان شائعات عن وجود قنبلة موقوتة على ظهر الباخرة . وآخر الموظفون البرتغاليون ابحارها ، الى ان أتموا تفتيشها تفتيشاً دقيقاً للتأكد من عدم وجود القنبلة .

ومع ذلك أبحر الدوقين في ذلك المساء ، وفشلت المؤامرة النازية فشلاً ذريعاً . وانحى شيلنبرغ في تقريره الأخير بالملامة على تأثير مونكتون وانهيـار « الخطة الاسبانية » وعقلية الدوق .

وهناك ورقة أخيرة بين الوثائق الألمانية المصادرة تتعلق بالمؤامرة . فقد ابرق الوزير الالماني المفوض في لشبونه في الخامس عشر من آب الى برلين يقول : « ان الشخص الموثوق قد تلقى قبل لحظات برقية من الدوق من برمودا يطلب اليه فيها ان يبعث اليه برسالة عاجلة حالما تصبح الفرصة مواتية للعمل . هل نرد على هذه البرقية ؟ »

ولم نعثربين اوراق وزارة الخارجية الالمانية على أي رد على هذه البرقية كأن هتلر قد حزم أمره في منتصف شهر آب على احتلال بريطانيا العظمى بقوة السلاح . ولم تعد ثمة حاجة الى العثور على ملك جديد لها . فستولى برلين نفسها حكم الجزر البريطانية كما تحكم البلاد المحتلة الاخرى . وهذا ما رآه هتلر على الأقل .

هذه هي القصة الغريبة كما ترويها الوثائق الالمانية السرية ، وكما اضاف اليها شيلنبرغ في روايته . وعلى الرغم من عدم ثقتنا فيما يقوله ، الا ان من الصعب علينا ان نؤمن باختراعه للدور الذي نسبته الى نفسه ، لا سيما وقد أقر هو بأن هذا الدور كان مضحكاً من أوله الى آخره .

وقد وصف الدوق وندسور في بيان اصدره عن طريق وكلائه القانونيين في لندن في الأول من آب عام ١٩٥٧ ، بعد نشر الوثائق الالمانية السرية ، هذه المراسلات التي جرت بين رينتروب وبين السفير الالماني في اسبانيا والبرتغال بأنها « اختلاقات كاملة ، وقلب كلي للحقائق من الناحية الاخرى » . وأوضح الدوق انه عندما كان في لشبونه في عام ١٩٤٠ ، ينتظر الابحار الى جزر البهاما ، اتصل به « بعض الناس » الذين سرعان ما اكتشف انهم من مؤيدي النازية ، وبدلوا جهوداً محدودة لاقناعه بالعودة الى اسبانيا وعدم المضي الى البهاما ، لتسلم مهام منصبه .

وقال : ولقد حذرني بعضهم من انني والدوقة سنتعرض الى الخطر الشخصي في حالة ذهابنا الى البهاما .. ولكنني لم أفكر لحظة واحدة في الانسحاق وراء هذه الاقتراحات ، التي عاملتها بكل ما تستحقه من زراية واحتقار » . وأصدرت وزارة الخارجية البريطانية بياناً رسمياً اعلنت فيه ان ولاء الدوق لبريطانيا العظمى ايام الحرب ، لم يتزعزع قط أو يهن (١) .

١ - صحيفة (النيويورك تايمز) عدد الاول من آب عام ١٩٥٧ .

عملية "بربروسته" الاتجاه إلى روسيا

اغتم ستالين فرصة انشغال هتلر في صيف عام ١٩٤٠ بتوجيه الفتوحات الألمانية في الغرب ، فشرع يزحف باتجاه دول البلطيق ويتقدم نحو دول البلقان . وكانت مظاهر الصداقة تبدو قائمة بين الدولتين الديكتاتوريتين الكبيرتين . ولم يكن مولوتوف الذي يعمل بوحى ستالين ، يضيع فرصة واحدة في كيل المديح والاطراء للألمان والزلفى اليهم ، مهتبلاً كل سانحة من أي عمل عدواني جديد أو فتح آخر . وراح في التاسع من نيسان عام ١٩٤٠ عندما غزت ألمانيا التروج والدانمارك ، يبلغ السفير الألماني في موسكو فون دير شولنبرغ ، ان «الحكومة السوفياتية تتفهم تمام التفهم الاجراءات التي فرضت على ألمانيا فرضاً» و اضاف قائلاً « واننا لنرجو لألمانيا النجاح الكامل في اجراءاتها الدفاعية » (١) . وعندما قام السفير الألماني بعد شهر بزيارة مولوتوف لابللاغه رسمياً قيام القوات الألمانية المسلحة بالهجوم في الغرب ، موضحاً طبقاً لتعليمات ريبنتروب ، ان هذا الهجوم « قد فرض على ألمانيا فرضاً ، من جراء الاندفاع الذي كان يعده الانكليز

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٩) ص ١٠٨ .

والفرنسيون نحو الروهر عن طريق بلجيكا وهولنده « عاد السياسي السوفيائي الى الاعراب عن سروره . وابق شولنبرغ الى برلين يقول : « استقبل مولوتوف رسالتكم بروح من التفهم ، وأضاف انه يدرك حق المانيا في حماية نفسها من الهجوم الانكليزي - الفرنسي . وأكد انه على ثقة مطلقة من نجاحنا » (١) .

واستدعى مولوتوف في السابع عشر من حزيران ، اي في اليوم الذي طلبت فيه فرنسا الهدنة ، السفير الالماني الى مكتبه « واعرب له عن تهاني الحكومة السوفياتية الحارة على الانتصارات الرائعة التي حققتها القوات الالمانية المسلحة » .

وكان هناك شيء آخر اراد الوزير السوفيائي قوله ، ولم يبد هذا القول مستساغاً في آذان الألمان . فقد ابرق السفير الألماني الى برلين « رسالة عاجلة للغاية » قال فيها ان مولوتوف ابلغه « بما يعتزم السوفييات عمله في دول البلطيق » ، مضيفاً ، وفي عيئه وهج غريب : « انه بات من الضروري جداً وضع حد للجميع هذه الدسائس التي حاولت انكلترا وفرنسا نشرها لخلق جو من عدم الثقة والخلاف بين المانيا والاتحاد السوفيائي في دول البلطيق » (٢) . وأضاف مولوتوف ان الحكومة السوفياتية رغبة منها في وضع حد لهذا « الخلاف » قد اوفدت « مبعوثين خاصين » الى دول البلطيق الثلاث . وكان هؤلاء الثلاثة في الواقع من خيرة اعوان ستالين ، فقد أوفد ديكانوزوف الى ليتوانيا وفيشينسكي الى لاتفيا وجدانوف الى استونيا .

وقد قام هؤلاء المبعوثون بالمهام التي اسندت اليهم بما عرف عنهم من دقة ، ولا سيما بالنسبة الى الآخرين . وفي الرابع عشر من حزيران ، وهو اليوم الذي دخلت فيه القوات الالمانية باريس ، بعثت الحكومة السوفياتية بانذار لمدة تسع ساعات الى ليتوانيا طلبت فيه استقالة حكومتها ، واعتقال عدد من كبار موظفيها ، ومنح روسيا الحق في ايفاد أي عدد تشاؤه من قوات الجيش الأحمر

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٢٩٤ - ٣١٦ .

٢ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٥٩٩ - ٦٠٠ .

الى بلادها . وعلى الرغم من ان الحكومة الليتوانية قد قبلت الانذار الروسي ، الا ان موسكو لم تعتبر قبولها « مرضياً » ، وقامت القوات السوفياتية في الخامس عشر من حزيران باحتلال البلاد . التي تقع وحدها دون دول البلطيق الاخرى محاذية لألمانيا . وبعثت موسكو في غضون اليومين التاليين بانذارين مماثلين الى لاتفيا واستونيا ، ثم قامت باجتياحهما على نحو مماثل ايضاً .

وكان في وسع ستالين ان لا يقل مثل هذه الأمور صلافة وقسوة عن هتلر نفسه ، وكثيراً ما يكون اكثر تشككاً . فقد عطل حرية الصحافة في هذه البلاد فوراً واعتقل زعماءها السياسيين وحل احزابها باستثناء الحزب الشيوعي ، ثم حدد الرابع عشر من تموز موعداً « للانتخابات فيها » . وبعد ان اجتمعت برلماناتها التي انتخبت بهذه الطريقة ، وقررت ضم بلادها الى الاتحاد السوفياتي ، اعلن مجلس السوفيات الأعلى قبول ليتوانيا في الوطن الأب في الثالث من آب وقبول لاتفيا في الخامس منه واستونيا في السادس من الشهر نفسه .

وأحسن ادولف هتلر بالمهانة ، ولكنه لم يستطيع ان يعمل شيئاً ، اذ ان انشغاله باعداد العدة لغزو بريطانيا قد اعجزه عن ان يفعل شيئاً . وأمر ريبنتروب باعادة مذكرات الاحتجاج التي قدمها مبعوثو الدول البلطيقية الثلاث في برلين اليهم . واراد مولوتوف المزيد من اذلال الألمان فامرهم بمنتهى الفظاظة في الحادي عشر من آب ، باغلاق مفوضياتهم في كونس وريغا وتالين ، في غضون اسبوعين واقفال قنصلياتهم في جميع دول البلطيق قبل الأول من ايلول .

ولم يشبع الاستيلاء على دول البلطيق نهم ستالين . فقد حفزه انهيار الجيوش الانكليزية - الفرنسية السريع والذي يثير الدهشة على محاولة كسب ما يمكن له ان يكسبه طالما ان المجال فسيح امامه الآن . ويبدو أنه اعتقد بأن الوقت اقصر من ان يضيعه ويفوته . وعاد مولوتوف في الثالث والعشرين من حزيران أي بعد يوم واحد من استسلام فرنسا رسمياً وتوقيعها الهدنة في كومبيين ، فاستدعى السفير النازي في موسكو وابلغه ان « حل مشكلة بسارابيا لم يعد يحتمل تأجيلاً . وقد قررت الحكومة السوفياتية اللجوء الى القوة في حالة تقاعس

الحكومة الرومانية عن قبول تسوية سلمية للمشكلة . و اضاف ان حكومته تتوقع من المانيا « عدم معارضتها في عملها هذا بل ودعمه ايضاً » . وقال ان « مطالب السوفييات تمتد كذلك الى مقاطعة بوكوفينا (١) » . وكانت رومانيا قد انتزعت مقاطعة بسارابيا من روسيا في نهاية الحرب الكونية الأولى ، أما بوكوفينا فلم تكن في يوم ما تابعة لروسيا وإنما كانت جزءاً من النمسا الى ان استولت عليها رومانيا عام ١٩١٩ . وكان ريبنتروب ، قد وافق اثناء المفاوضات التي جرت في موسكو في العام الفائت لعقد الميثاق النازي - السوفياتي ، على منح بسارابيا لمنطقة النفوذ الروسي ، وقد اكد موافقته هذه هتلر الآن عندما سأله عنها . ولكنه لم يكن قد وافق على اعطائها بوكوفينا ايضاً .

وانتشرت الآن موجة من الذعر في برلين امتدت الى القيادة الهامة للجيش في الغرب فالقوات الالمانية المسلحة محتاجة أمس الحاجة الى زيت رومانيا ، إذ انها تعتمد عليه كلية كما ان المانيا في حاجة الى ما تنتجه هذه البلاد من مواد غذائية وعلف للحيوانات . وستفقد المانيا هذا المورد حتماً اذا قام الجيش الاحمر باحتلال رومانيا . وكانت هيئة الاركان العامة الرومانية قد بعثت في الثالث والعشرين من ايار ، عندما كانت معركة فرنسا في ذروتها اشارة استغاثية الى القيادة الالمانية العليا ، تبلغها فيها ان القوات السوفياتية تحتشد على حدودها . ولخص يودل رد الفعل في مقر قيادة هتلر في يوميته التي دوّن بها في اليوم التالي فقال : « بات الوضع في الشرق منذراً بالخطر من جراء حشد القوات الروسية على حدود بسارابيا » .

ووجهت روسيا ليلة السادس والعشرين من حزيران انذاراً الى رومانيا تطلب فيه تخليها لها عن بسارابيا وعن بوكوفينا الشمالية ، وتصر على وجوب تلقي الرد على طلبها في اليوم التالي . وراح ريبنتروب ، وهو يرتعد من الفزع ،

١ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (١٠) ص ٣ - ٤ .

يتبعث بتعليمات عاجلة من قطاره الخاص الى وزيره المفوض في بوخارست يطلب إليه فيها ان ينصح الحكومة الرومانية بالاذعان لروسيا . وقد أذعنت رومانيا في السابع والعشرين من حزيران فعلاً . وزحفت القوات السوفياتية في اليوم التالي الى المناطق التي حصلت عليها وتنفتحت يراين الصعداء ، لا سيما وان مصادر الزيت والغذاء الوفيرة لم تقطع عنها ، لان روسيا لم تقم باحتلال رومانيا كلها .

ويتضح من أعمال ستالين ومن الوثائق الالمانية المصادرة نفسها ، ان الديكتاتور الروسي ، على الرغم من حرصه على اقتناص كل ما يستطيع اقتناصه في أوروبا الشرقية ، مفتتماً فرصة انشغال الألمان في الغرب ، إلا أنه لم يرغب ، ولم يتصور قط ، انه سيمصل الى حد القطيعة مع هتلر .

وحاول تشرشل في نهاية شهر حزيران تحذير ستالين في رسالة شخصية وجهها إليه ، من خطر الفتوحات الالمانية على روسيا وعلى بريطانيا ^(١) . ولم يكثرث الديكتاتور الروسي بالرسالة ، ولم يكلّف نفسه عناء الرد عليها ، ولعله كان يعتقد كما اعتقد كثيرون غيره ان بريطانيا قد انتهت . ولهذا فقد نقل الى الألمان ما أوصلته إليه الحكومة البريطانية . واستقبل ستالين في مطلع شهر تموز السير ستافورد كرييس الزعيم العمالي اليساري - الجناح ، الذي أوفده رئيس الوزراء بسرعة خارقة ، كسفير له في موسكو ، آملاً ان يحقق عن طريقه بعض التقارب مع البلاشفة ، وهو أمل اعترف تشرشل نفسه فيما بعد بخيئته . وكانت هذه المقابلة على حد تعبير تشرشل نفسه « رسمية ومتسمة بالبرود » . وقد سلم مولوتوف في الثالث عشر من تموز ، بأمر من ستالين مذكرة خطية الى السفير الالمانى ضمنها ما دار من حديث سري في هذه المقابلة .

وليس ثمة من شك في ان هذه الوثيقة طريفة غاية الطرافة . فهي تحسر النقاب أكثر من أية وثيقة أخرى عن الحدود الصارمة التي يضعها الديكتاتور السوفياتي

١ - تشرشل - مذكرات - الجزء الثاني ص ١٣٥ - ١٣٦ .

في حساباته الدقيقة في الشؤون الخارجية . وسارع شولنبرغ الى الابراق بها الى برلين ، كبرقية « عاجلة جداً وسرية » ، وأعرب ريبنتروب عن امتنانه لمحتوياتها في رسالة وجهها الى الحكومة السوفياتية أكد فيها « تقديره العظيم لهذه المعلومات » . وتقول المذكرة ان السفير كريس ألخف على ستالين ، مطالباً اياه بتبيان موقفه من عدة قضايا بينها القضية الرئيسية التالية :

« تجد الحكومة البريطانية نفسها مقتنعة كل الاقتناع بأن المانيا تجاهد لخلق نوع من السيادة لنفسها في أوروبا ... وليس ثمة من شك في ان السيادة لا تقل خطراً على الاتحاد السوفياتي منها على انكلترا نفسها . وعلى الدولتين ، والحالة هذه ، ان تتفقا على سياسة مشتركة من الحماية الذاتية ضد المانيا وان تحاولا إعادة التوازن الدولي في أوروبا الى وضعه السابق » .

وأضافت المذكرة ان ردود ستالين كانت على النحو التالي :

« لا يرى ستالين أي خطر لقيام سيادة دولة واحدة في أوروبا ، وهو لا يرى كذلك أي خطر في ابتلاع المانيا للقارة الأوروبية فهو يراقب السياسة الألمانية ويفهمها ، كما يعرف عدداً من أبرز الساسة الألمان . ولم يستطع أن يرى رغبة عند هؤلاء لابتلاع البلاد الأوروبية . وهو لا يرى كذلك ان انتصارات المانيا العسكرية تهدد الاتحاد السوفياتي ، أو تهدد علاقاته الودية بألمانيا » (١) .

وليس ثمة من شك في ان مثل هذه الخشونة المذهلة ، وهذا الجهل الفاضح ، يجعلان الانسان في حيرة من أمره . ومن الطبيعي أن لا يعرف الطاغية الروسي بما في عقل هتلر من أسرار ، ولكن سلوك الفوهرر الماضي ومطامحه المعروفة ، والسرعة غير المنتظرة في انتصاراته ، كلها دوافع كافية لتحذيره من الخطر البالغ الذي يتعرض له الاتحاد السوفياتي الآن . ولكن هذه العوامل كما يبدو ،

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (١٠) ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

لم تكن كافية ، وهذا امر لم نستطع فهمه مطلقاً .

ونحن نعرف الآن من الوثائق النازية المصادرة ومن شهادات بعض الشخصيات الألمانية البارزة التي لعبت دورها في تلك المسرحية العظيمة التي مثلت على مسرح أوروبا الغربية القسح في ذلك العام ، ان هتلر كان في هذه اللحظة التي أبدى فيها ستالين هذه الاستكانة البارزة ، يقلب في عقله فكرة الالتفات نحو الاتحاد السوفياتي وتحطيمه .

وتعود الفكرة الأصلية الى أبعد من ذلك بكثير ، انها تعود الى خمس عشرة سنة على الأقل ... الى كتاب « كفاحي » عندما قال هتلر :

« وهكذا نستأنف نحن الاشتراكيين الوطنيين اليوم السير الذي توقف قبل نحو من ستاية عام . وسنوقف الحركة الألمانية التي لا تنتهي باتجاه جنوب أوروبا وغربها ، لنعود بنظراتنا الى البلاد الواقعة شرقاً ... وعندما نتحدث اليوم عن الاراضي الجديدة في أوروبا ، علينا ان نفكر بصورة رئيسية بروسيا وبدول الحدود التابعة لها ... ويبدو ان القدر يود ان يبسط لنا طريقنا هناك الآن ... فهذه الامبراطورية الضخمة الواقعة الى الشرق باتت ناضجة الآن للتحليل والتفسيخ ، وسترمز نهاية السيطرة اليهودية على روسيا الى نهاية روسيا نفسها كدولة » (١) .

وكانت هذه الفكرة تمثل القاعدة في تفكير هتلر ، ولم يؤه ميشاقه مع ستالين الى تغيير هذه القاعدة مطلقاً ، وإذا كان قد أجل العمل بوحياها فإن هذا التأجيل لم يكن إلا لفترة قصيرة جداً . إذ لم يمض شهران على توقيع الصفقة وعقدها . وعلى استغلالها في تحطيم بولندة ، حتى كان الفوهرر يصدر تعليماته الى جيشه ، بأن يعامل البلاد البولندية المحتلة على اعتبار انها « منطقة تجميع لعمليات مقبلة » . وكان هذا في الثامن عشر من تشرين الاول عام ١٩٣٩ ، وقد دونّه

هولدر في يومياته .

وبعد خمسة اسابيع ، أي في الثالث والعشرين من تشرين الثاني ، لم تكن روسيا غائبة عن أفكاره مطلقاً وهو يخطب فرقاءه العسكريين المترددين ، متحدثاً اليهم عن الهجوم في الغرب . وراح يعلن لهم هذه الافكار قائلاً : « في وسعنا ان نقاوم روسيا عندما نكون طليقي اليدين في الغرب » . وكانت فكرة الحرب في جبهتين ، التي ظلت الكابوس المسيطر على القادة العسكريين الالمان اكثر من قرن كامل ، الغالبة على تفكير هتلر في ذلك اليوم ولذا فقد تحدث عنها بأسهاب وتطويل في ذلك اليوم . فهو لا يريد ان يكرر الخطأ الذي وقع فيه الحكام الالمان السابقون ، وسيواصل التأكد من ان الجيش لن يحارب على اكثر من جبهة واحدة في وقت واحد .

ولذا كان من الطبيعي ، والحالة هذه ، بعد ان سقطت فرنسا ، وبعد ان طاردت جيوشه فلول الجيش البريطاني عبر القناة ، وبعد ان انتعشت آماله في انهيار بريطانيا المرتقب في كل لحظة ان يتجه باهتمامه وتفكيره ثانية الى روسيا . فلقد افترض نفسه الآن متحرراً في الغرب ، إذ خيل إليه انه حقق الشرط الذي كان قد وضعه ليغزو في مركز يسمح له « بمقاومة روسيا » . وقد استفزت السرعة التي اتم فيها ستالين استيلاءه على دول البلطيق وعلى المقاطعتين الرومانيتين في حزيران هتلر الى اتخاذ قرار عاجل .

وفي وسعنا الآن ان نتابع الطريق التي أدت به الى اللحظة التي اتخذ فيها قراره هذا . ويقول يودل ان « القرار الرئيسي الجوهري » قد اتخذ « في وقت مبكر إبان الحملة في الغرب » ^(١) . ويتذكر العقيد وولتر وورليمونت نائب يودل في القيادة العامة للقوات المسلحة ، ان يودل أعلن في التاسع والعشرين من تموز في اجتماع عقده مع ضباط أركان حرب العمليات ان « الفوهرر يعترم

١ - خطاب يودل في ٧ تشرين الثاني عام ١٩٤٣ - المؤامرة النازية والعدوان (١) ص ٧٩٥ .

مهاجمة الاتحاد السوفياتي في خريف عام ١٩٤٠ . وكان هذا اكثر مما يحتمل كايئل نفسه ، وقد ناقش هتلر في هذا الموضوع مناقشة حادة محاولاً اقناعه بأن صعوبة تحقيق الهجوم في الغرب لا تقوم بسبب رداءة الطقس فحسب بل وبسبب متاعب نقل القسم الأكبر من الجيش من الغرب الى الشرق . وعندما عقد هذا المؤتمر المشار اليه في التاسع والعشرين من تموز ، ذكر وورليمنت « ان موعد الهجوم المقترح ضد روسيا كان قد تأجل الى ربيع عام ١٩٤١ » (١) .

ونحن نعرف الآن من يوميات هولدر (٢) ان الفوهرر كان لا يزال حتى قبل أسبوع واحد ، يرى إمكان القيام بالحملة على روسيا في الخريف ، إذا لم يتم بغزو بريطانيا في هذا الموعد . وطلب من براوختش في مؤتمر عسكري عقد في برلين في الواحد والعشرين من تموز بأن يشرح في الأعداد لهذه الحملة . ويبدو من رده على هتلر ان القائد العام للجيش وأركان حربه كانوا قد أولوا هذه المشكلة بعض تفكيرهم وان لم يكن كل هذا التفكير . فقد أبلغ براوختش الزعيم بأن الحملة قد تستغرق « من اربعة الى ستة اسابيع » ، وان هدفها سيكون « هزم الجيش الروسي أو احتلال ما يكفي من الارض الروسية لإبعاد خطر وصول القاذفات السوفياتي الى برلين ، أو منطقة سيليزيا الصناعية ، مع اتاحة الفرصة لطائرات السلاح الجوي الألماني للوصول الى جميع الأهداف المهمة في الاتحاد السوفياتي » . وكان براوختش يرى ان في إمكان قوة يتراوح عددها بين الثمانين والمائة فرقة المانية ان تقوم بهذا العمل وقدّر قوة روسيا بما يتراوح بين « خمسين وخمسة وسبعين فرقة صالحة » . وتشير الملاحظات التي دوّنها هولدر عن حديث براوختش اليه عما دار في الاجتماع الى ان هتلر تألم أشد الألم من خطوات ستالين في الاستيلاء على بعض الأراضي في الشرق ، وانه ، أي هتلر ، يعتقد بأن الديكتاتور

١ - شهادة وورليمنت الشفوعة باليمين في نورمبرغ في ٢١ تشرين الثاني عام ١٩٤٥ - المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٧٤١ . واستجوابه في ١٢ تشرين الاول - المؤامرة النازية والعدوان الملحق (ب) ص ١٦٢٥ - ١٦٢٧ .

٢ - يوميات هولدر - في ٢٢ تموز ١٩٤٠ .

السوفيياتي « يفاضل انكلترا » لتشجيعها على الصمود ، وان كان لا يرى أية دلالة على ان روسيا تعترم الدخول في الحرب ضد المانيا .

ودفعت خيبة الأمل في القيام بغزو بريطانيا ، هتلر على ان يعلن لأول مرة لقاداته العسكريين في المؤتمر الذي عقده معهم في « عش النسر » في اليوم الأخير من شهر تموز عام ١٩٤٠ ، قراره بالحملة على روسيا . وقد شهد هولدر شخصياً ، هذا الاجتماع ودون بنفسه وقائع ما دار فيه وملخص ما قاله سيد الحرب النازي^(١) . وتجسر هذه الملاحظات النقاب عن ان هتلر كان قد اتخذ قراراً واضحاً بمهاجمة روسيا في الربيع المقبل ، وانه حدد في ذهنه أيضاً الأهداف السوقية الرئيسية ... فقد كتب هولدر :

« قال هتلر ان آمال بريطانيا متركزة في روسيا وأمريكا . فإذا تمكننا من تحطيم آمالها في روسيا ، فان آمالها في الثانية تتحطم تلقائياً إذ ان ازالة روسيا من الوجود تؤدي الى تقوية سيطرة اليابان في الشرق الأقصى الى حد كبير » .

وزاد اقتناعه بهذه الفكرة مع تكرار دراسته لها . فلقد رأى هتلر ان تصميم بريطانيا الحرون على مواصلة الحرب ناجم عن اعتمادها على الاتحاد السوفيياتي ... « وأوضح ان شيئاً غريباً يحدث في بريطانيا . فلقد كسرت بريطانيا كسرة كاملة . ولكنها ما لبثت ان وقفت على قدميها . (ووقع هنا جدل قطع عليه أقواله ثم عاد يقول) : وليس ثمة من شك في ان روسيا قد انزعجت انزعاجاً شديداً من جراء هذه التطورات السريعة في اوروبا الغربية » .

« ولا تحتاج روسيا الى اكثر من مجرد إشارة الى انكلترا بأنها لا ترغب في ان ترى المانيا قوية اكثر من الزوم ، فآنذاك يسارع الانكليز كالغريق الى استعادة الأمل بأن الوضع قد يتبدل تبديلاً

١ - يوميات هولدر في ٣١ تموز - ١٩٤٠ .

كلياً في فترة تتراوح بين ستة وثمانية شهور .
« ولكن إذا تحطمت روسيا ، فإن آخر أمل لبريطانيا يتحطم .
أيضاً ، وتغدو المانيا آنذاك سيدة أوروبا والبلقان .
« القرار .. والنظر الى جميع هذه الاعتبارات ، يتوجب
علينا ان نصفّي أمر روسيا في ربيع عام ١٩٤١ .
« وكلما أسرعنا في تحطيم روسيا ، كلما كان هذا أجدي وأنفع »

* * *

وشرع سيد الحرب النازي بعد ذلك يوسّع في خططه الاستراتيجية التي
كانت كما اتضح لقادته العسكريين قد شرعت تنضج في عقله منذ أمد ما ، على
الرغم من كل ما كان يشغله من احداث في الجبهة الغربية . وقال ان هذه العملية
تكون جديرة بالمجازفة إذا كان هدفها تحطيم الاتحاد السوفياتي بضربة ساحقة
واحدة . ولا يكفي مطلقاً احتلال شطر كبير من الارض الروسية . وأكد هتلر
ان هدفنا يجب أن يكون « تحطيم قدرة روسيا على الوجود » . وسيكون هناك
زحفان أوليان ، أحدهما في الجنوب باتجاه كييف وحوض الدنيبر ، والثاني في
الشمال عبر دول البلطيق ومن ثم باتجاه موسكو . وهناك يتلاقى الجيشان . وقد
يتطلب الامر بعد ذلك عملية خاصة لضمان زيت حقول النفط في باكو ، وكان
مجرد التفكير بهذه الفتوحات الجديدة يثير هتلر ، إذ كان قد أعد في فكره
ما سيفعله فيها . وقال انه سيضم الى بلاده فوراً أوكرانيا وروسيا البيضاء ودول
البلطيق ، ويوسع حدود فنلندة الى البحر الابيض الشمالي . وسيخصص لهذه
العملية كلها (١٢٠) فرقة محتفظاً بستين فرقة للدفاع عن الغرب وإسكندنافيا .
واقترح أن يبدأ الهجوم في أيار عام ١٩٤١ ، ويستغرق أشهر للانهاء منه .
وسينتهي الهجوم في الشتاء . وأضاف أنه كان يؤثر لو قام بهذا الهجوم هذا العام
ولكن ثبتت استحالة تنفيذ هذا الرأي .

ومضى هولدر في اليوم التالي أي الأول من آب ، يعمل مع أركان حربه في
إعداد الخطط اللازمة . وعلى الرغم من زعمه فيما بعد ، بأنه عارض فكرة

الهجوم على روسيا كل المعارضة واضعاً إياها بالجنوب ، إلا ان اليوميات التي دوّنها في تلك الآونة تحسر النقاب عن الحماس العظيم الذي اندفع فيه ينفذ المهمة الجديدة التي أوكلت إليه .

وراح التخطيط للحملة الجديدة يقطع أشواطاً بعيدة بدقة متناهية عرفت عن الألمان ، وذلك على ثلاثة صعدان ، أولها هيئة أركان حرب الجيش وثانيها صعيد أركان حرب العمليات الحربية بقيادة وورليمونت في القيادة العليا للقوات المسلحة وثالثها فرع التسليح والاقتصاد الذي يرئسه الفريق توماس في القيادة العليا للقوات المسلحة . وقد صدرت الأوامر الى الفريق توماس في الرابع عشر من آب من المشير غرنغ بأن الفوهرر يود ان يستمر تسليم السلع التي يطلبها الروس حتى ربيع عام ١٩٤١ ليس إلا ^(١) . وعهد الى مكتب توماس أيضاً في إعداد دراسة مفصلة للصناعة والنقل ومراكز الزيت في الاتحاد السوفياتي على ان تصلح هذه الدراسة كدليل للأهداف العسكرية في الحرب ومن ثم كمرشد للإدارة العسكرية في روسيا بعد انتهاء القتال .

وكان وورليمونت قد أصدر قبل بضعة أيام ، أي في التاسع من آب ، أول توجيه له لاعداد العدة لمناطق توزيع القوات العسكرية في الشرق ، استعداداً للقفز على الروس . وقد أطلق على هذه العملية الاسم الرمزي « البناء في الشرق » . وأمر هتلر في السادس والعشرين من آب عشر فرق للمشاة وفرقتين مدرعتين بأن تتجه كلها من الغرب الى بولندا . واشترط تركيز الوحدات المدرعة في الأقسام الجنوبية الشرقية من بولندا حتى تتمكن من التدخل عند الضرورة

١ - يؤكد توماس في تقريره عن هذا الموضوع ان الروس كانوا جد دقيقين في تسليم ما يطلبه المانيا من سلع في الاوقات المينة . ويقول ان الروس ظلوا في الحقيقة « حتى بداية الهجوم على هذه الدقة » ، ويلاحظ مع شيء من السخرية ان « شحنات المطاط الهندي من الشرق الأقصى قد تم نقلها حتى في بضعة الايام الاخيرة على قطارات الشحن الروسية السريعة على سكة حديد سيبيريا . » (المؤامرة النازية والمدوان (٤) ص ١٠٨٣ .

لمحاية حقول الزيت في رومانيا^(١) . ولم يكن من السهل نقل قوات ضخمة الى الشرق^(٢) دون إثارة مخاوف ستالين وشكوكه التي سرعان ما تثور اذا ما عرف بها ، وكان الألمان جد حريصين على ان لا يعرف ستالين بهذه الاحتشادات . ولما كان من المحتوم ان تعرف روسيا ببعض هذه الحركات ، فقد صدرت الأوامر الى الفريق ايرنست كويسترينغ ، الملحق العسكري الألماني في موسكو ، لإبلاغ أركان الحرب السوفيات ، بأن القضية لا تعدو استبدال عدد من الجنود الكبار في السن بآخرين من الشبان للافادة من أولئك في الاعمال الصناعية . وأصدر يودل في السادس من ايلول ، توجيهاً آخر ، يتضمن تفصيلات وافية عن الأساليب التي يجب اتباعها لخداع الروس والتعمية عليهم . وقال في توجيهه : « ومن الواجب ان لا يخلق هذا التجميع للقوات أي انطباع لدى الروس بأننا نعد العدة للقيام بهجوم في الشرق »^(٣) .

ورغب هتلر في ان لا تحس القوات المسلحة بالتكاسل والاسترخاء بعدما حققت من انتصارات رائعة في الصيف توجت هামاتها بأ كاليل الفار ، وأصدر نتيجة لرغبته هذه توجيهاً شاملاً وسرياً للغاية في الثاني عشر من تشرين الثاني عام ١٩٤٠ ، حدد فيه المهام العسكرية التي سيكلفها بها في أوروبا وخارجها . وسنعود بعد قليل الى بعض هذه المهام . أما ما يهمننا منها الآن فالجزء الخاص بالاتحاد السوفياتي إذ ورد فيه ما يلي :

« لقد شرعنا في محادثات سياسية نهدف من وراءها الى ايضاح

-
- ١ - يوميات الحرب لاركان حرب العمليات في القيادة العليا للقوات المسلحة بتاريخ ٢٦ آب عام ١٩٤٠ ، وقد اقتبست من « محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٥٤٩ - ٥٥٠ . »
 - ٢ - كان الألمان قد احتفظوا في بولندة بسبع فرق ليس الا ، بينها فرقتان نقلتا الى الغرب اثناء حملة الربيع . وقال هولدر ان القوات هناك لم تكن كافية حتى للقيام بالاعمال الجمركية العادية . ولو قام نيتالين بمهاجمة المانيا في حزيران عام ١٩٤٠ ، لكان في امكان الجيش الاحمر ان يضل برلين قبل ان تتمكن المانيا من اعداد اية مقاومة منظمة .
 - ٣ - شهادتا وورليمونت (المؤامرة النازية والمدوان (٥) ص ٧٤٠ - ٧٤١ . وتوجيه يودل (نفس المصدر (٢) ص ٨٤٩ - ٨٥٠ .

موقف روسيا في الوقت الحاضر . ومهما كانت نتيجة هذه المحادثات ، من الواجب اتخاذ جميع الاستعدادات اللازمة للشرق ، والتي أمرت بها شفويًا فيما سبق ، والمضي في اتخاذها . وتستصدر التعليمات المتعلقة بهذه الاستعدادات فيما بعد ، حالما يقدم إليّ الجيش خطته العامة للعمليات لإقرارها » (١) .

ووصل مولوتوف في نفس ذلك اليوم ، أي الثاني عشر من تشرين الثاني الى برلين ليواصل مع هتلر نفسه هذه المحادثات السياسية .

مولوتوف في برلين

ظلت العلاقات تسير من سيئ الى أسوأ بين برلين وموسكو عدة أشهر . وكان من حق هتلر وستالين ان يخذعا أي فريق ثالث ، ولكن لم يكن من حقهما مطلقاً أن يخذع الواحد منهما الآخر . ولم يكن في وسع هتلر أن يحول بين الروس وبين الاستيلاء على دول البلطيق وعلى مقاطعتي بيسارابيا وشمالي بوكوفينا الرومانيتين ، وقد أدى عجزه هذا الى المزيد من نقمته وغضبه . وكان لا بد من وقف الزحف الروسي نحو الغرب ، ولا سيما في رومانيا ، التي يؤلف زيتها مصدراً حيوياً لألمانيا ، نظراً لأن الحصار البريطاني المفروض عليها يحول بينها وبين استيراد البترول بجرأ .

وراحت المجر وبلغاريا وغبة في اضافة تعقيدات أخرى الى مشكلة هتلر ، تطالبان ببعض الأراضي من رومانيا . وأعدت المجر في الحقيقة عدتها عندما اقترب صيف عام ١٩٤٠ من نهايته ، للمضي الى الحرب لاستعادة ترانسلفانيا التي كانت رومانيا قد اقتطعتها منها بعد الحرب الكونية الأولى . وأدرك هتلر ان

١ - توجيه ١٢ تشرين الثاني عام ١٩٤٠ . (المؤامرة النازية والمدوان (٣) ص ٤٠٣ -

مثل هذه الحرب ستعزل المانيا عن مصدرها الرئيسي للزيت الخام ، وقد تؤدي الى دخول الروس لاحتلال رومانيا كلها ، وحرمان الرايخ بصورة دائمة من الزيت الروماني .

وقد تردى الوضع الى حد ينذر بالخطر في الثامن والعشرين من آب ، مما دفع هتلر الى اصدار الأمر لخمس فرق مدرعة وثلاث فرق آلية بالإضافة الى قوات المظليين والهابطين من الجو (قوات تنقلها الطائرات) بأن تكون كلها على قدم الاستعداد للاستيلاء على حقول الزيت الرومانية في الأول من ايلول^(١) . وتشاور في نفس اليوم مع ريبنتروب وشيانو في « عش النسر » ثم أوفدهما الى فيينا حيث أمرهما بفرض القانون على وزيرى خارجية المجر ورومانيا لقبول تحكيم المحور في نزاعهما . وقد تم انفاذ هذه المهمة دون كبير عناء ، بعد ان عنف ريبنتروب كلا من الفريقين المتنازعين تعنيفاً حاداً . وقبل المجرىون والرومانيون في الثلاثين من آب وفي قصر « البيلفيدر » في فيينا التسوية التي وضعها المحور . وعندما رأى ميهاي مانويليسكو وزير خارجية رومانيا الخريطة التي تقضي باعادة نحو من نصف ترانسلفانيا الى المجر ، أغمى عليه ، وسقط فاقد الوعي على المنضدة التي كان التوقيع على الاتفاق يجري فوقها ، ولم يفق من غشيته إلا بعد ان جاء الأطباء واستخدموا الكافور في انعاشه^(٢) . وتلقت رومانيا نتيجة تعقلها في الظاهر ، ونتيجة الرغبة في اعطاء هتلر المبرر القانوني لتحقيق مشاريعه المقبلة في

١ - يوميات القيادة العليا للقوات المسلحة في ٢٨ آب (محاكات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٥٦٦ - ٥٦٧) .

٢ - يوميات شيانو ص ٢٨٩ . كلف هذا الحادث الملك كارول الروماني عرشه . ففي السادس من ايلول اضطر الملك الى التنازل عن العرش ، لمصلحة ولده ميشيل البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، ثم فر مع عشيقته الحمراء الشعر ماجدا لوبيكو في قطار خاص يضم عشر عربات محملاً اياه ما يمكن وصفه « بمنهوبات » القصر الملكي عبر يوغوسلافيا الى سويسرا . واصبح الفريق ايوني انطونسكو ، زعيم « الحرس الحديدي » الفاشي وصديق هتلر ، ديكتاتورا في البلاد .

الحقيقة ، الضمانات من المانيا وايطاليا ، لما تبقى من بلادها (١) .
وسرعان ما ألقى هتلر الضوء على هذه « المشاريع المقبلة » أمام من يثق بهم
ثلاثة اسابيع من توقيع الاتفاق . فقد أصدر في العشرين من ايلول توجيهاً في
منتهى السرية ، يأمر بموجبه بإيفاد « بعثات عسكرية » الى رومانيا ..
« ستكون مهمة هذه البعثات أمام العالم ، توجيه رومانيا
الصديقة في إعادة تنظيم قواتها المسلحة وتدريبها .
» أما المهمة الحقيقية التي يجب ان لا يعرف بها الرومانيون ولا
حتى قواتنا فهي :

١ - حماية منطقة ابار الزيت ..

٢ - اعداد العدة لتوزيع قواتنا من القواعد الرومانية مع
القوات الرومانية نفسها في حالة اضطرارنا لمحاربة روسيا
السوفياتية » (٢) .

وكان هذا الاجراء كافياً لضمان الجناح الجنوبي للجبهة الجديدة التي بدأ هتلر
يصورها في عقله .

واستاءت موسكو من عملية التوزيع في فيينا ولا سيما من الضمانة الالمانية لما
تبقى من رومانيا ، وكان معظم استيائها منصباً على عدم استشارتها . وعندما قام
شولنبرغ بزيارة مولوتوف في الأول من ايلول ، ليقدّم إليه مذكرة عاجلة من
ريينثروب يحاول فيها ان يشرح وان يبرر ما وقع في فيينا ، روى السفير ان
« الوزير السوفياتي كان متحفظاً بالنسبة الى ما أُلّفه في مقابلته السابقة » ولكن
هذا التحفظ لم يكن قوياً الى الحد الذي يحول بينه وبين الاحتجاج شفوياً بصورة
عنيفة . فقد اتهم الحكومة الالمانية بنقض المادة الثالثة من الاتفاق النازي -
السوفياتي ، التي تدعو الى التشاور بين الفريقين ، وبمواجهة روسيا « بالأمر الواقع »

١ - شملت الضمانات جميع رومانيا باستثناء دبروجه الجنوبية التي ارغمت رومانيا
على التنازل عنها لبلغاريا .

٢ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٨٧٣ .

الذي يتعارض مع التأكيدات الألمانية المتعلقة « بالقضايا ذات المصالح المشتركة »^١. وهكذا بدأ اللصوص ، كما هي العادة في مثل هذه الأحوال يتصارعون على اقتسام الغنائم .

وأخذ التفاهم يزداد حدة وعنفاً يوماً بعد آخر . فقد أبرق ريبنتروب في الثالث من ايلول ببرقية مطولة الى موسكوفيني فيها ان المانيا قد نقضت ميثاق موسكو ، وبتهم روسيا بأنها هي التي فعلت ذلك باستيلائها على دول البلطيق وعلى المقاطعتين الرومانيتين دون مشاورة برلين . وكانت المذكرة الألمانية مصوغة في عبارات قاسية ولذا فقد رد عليها الروس في الواحد والعشرين من ايلول بمذكرة لا تقل عنها عنفاً وقسوة ، لا سيما وان الفريقين قد تحولوا الآن الى عرض شكاواهما في وثائق خطية ، وقد أكد الرد السوفياتي ان المانيا هي التي ناقضت الميثاق وحذر من ان روسيا مازالت تحتفظ بمصالحها في رومانيا ، ثم انتهى الى اقتراح ينطوي على الهزء والسخرية ، إذ يعلن ان الحكومة السوفياتية على استعداد لتعديل البند الخاص بالتشاور أو حذفه من المعاهدة كلية ، إذا كانت حكومة الرايخ ترى في هذا البند أمراً يسبب لها « الضيق والعنت وتقييد اليدين »^(٢) .

وقد ثارت شكوك الكرملين من هتلر بصورة متزايدة من جراء حادثين وقعوا في شهر ايلول . فقد أبرق ريبنتروب الى شولنبرغ في السادس عشر من الشهر يطلب اليه ان يقوم بزيارة مولوتوف وان يبلغه عرضاً بأن المانيا تعزم ارسال نجدياتها الى شمال النرويج عن طريق فنلندا ، وبعث وزير خارجية النازي بعد بضعة ايام أي في الخامس والعشرين من ايلول ببرقية أخرى الى السفارة في موسكو وجهها هذه المرة الى القائم بالأعمال إذا كان شولنبرغ قد جاء برلين في اجازة . وقد نص بصراحة على هذه البرقية بأنها « سرية ومكتومة للغاية » ، كما أرفقت بتعليمات واضحة بأن لا تنفذ إلا في اليوم التالي عندما يتلقى القائم

١ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ١٧٨ - ١٨١ .

٢ - العلاقات النازية السوفياتية ص ١٨١ - ١٨٣ و ص ١٩٠ - ١٩٤ .

بأعمال السفارة من برلين كلمة « السر » إما عن طريق الهاتف أو البرق (١).
وقد طلب الى الدبلوماسي الألماني ان يبلغ مولوتوف ان اليابان وإيطاليا وألمانيا
ستوقع « في غضون بضعة الأيام التالية » حلفاً عسكرياً في برلين . ويتضمن
الحلف نصاً خاصاً ، على أنه غير موجه ضد روسيا ... وأوضح ريبنتروب
في برقيته :

« ان هذا الحلف موجه ضد دعاة الحرب الأمريكيين ليس إلا .
وبالطبع لن يكون هذا الهدف صريحاً في المعاهدة ، ولكن في
وسع المرء ان يصل الى هذا الاستنتاج من قراءة بنوده دون شك . .
والهدف الوحيد منه هو حمل تلك العناصر التي تشدد الضغط لإدخال
امريكا في الحرب ، على التعقل ، باتهامها بصراحة بأن دخول امريكا
الصراع الحالي ، سيؤدي بصورة آلية رتيبة الى وقفها موقف العداء
الحربي من ثلاث دول عظيمة » ٢ .

و ثارت شكوك الوزير السوفياتي الشديد التحفظ ، عندما حمل اليه فيرنو
فون تيبلسكيرش ، القائم بالأعمال الألماني هذه الأنباء عشية السادس والعشرين
ايلول ، لاسيما وان هذه الشكوك كانت قد بدأت تزدهر ، كما تزدهر الورود في
حزيران . وراح يقول لزيارته فوراً بذلك الاهتمام المتعاظم بالتفاصيل الذي كثيراً
ما ضايق كل من تفاوض معه من أعداء وأصدقاء ؛ بأن المادة الرابعة من اتفاق
موسكو تخوّل الحكومة السوفياتية ؛ الحق في الاطلاع على نص هذا الميثاق
العسكري الثلاثي قبل توقيعه ، مضيفاً الى ذلك قوله : « والاطلاع على أية
ملاحق سرية فيه أيضاً » .

ورغب مولوتوف أيضاً في أن يعرف المزيد عن الاتفاق الألماني مع فنلندا ،
لنقل القوات الألمانية عبر تلك البلاد ، وهو الاتفاق الذي سمع عنه أكثر ما سمع

١ - العلاقات النازية السوفياتية ص ١٨٨ - ١٨٩ .

٢ - العلاقات النازية السوفياتية ص ١٩٥ - ١٩٦ .

من الصحف بما في ضمنها برقية نقلتها وكالة الصحافة المتحدة من برلين . وأضاف مولوتوف ان موسكو قد تلقت في غضون الأيام الثلاثة الاخيرة أنباء عن نزول القوات الألمانية في ثلاث موانئ فنلندية على الأقل « بدون ان تبلغها المانيا شيئاً عن ذلك . ثم مضى يقول :

« وتود الحكومة السوفياتية ان تتلقى نص الاتفاق الذي سمح بمرور تلك القوات عبر فنلندا ، بكل ما فيه من أجزاء سرية ... وان تبلغ رسمياً الهدف من هذا الاتفاق ، وضد من هو موجه ، والأهداف التي يحققها » ١ .

وأحس الجميع في برلين حتى ريبنتروب البليد نفسه ، بالحاجة الى تهدئة الاتحاد السوفياتي ، فراح يبرق في الثاني من تشرين الاول الى موسكو بنص ما دعاه بالاتفاق مع فنلندا . وعاد فأكد ان الميثاق الثلاثي الذي تم التوقيع عليه ٢ في غضون ذلك ليس موجهاً ضد الاتحاد السوفياتي ، وأعلن بكل « إخلاص » ان ليس ثمة « أية ملاحق أو اتفاقات سرية لهذا الميثاق » ٣ . وأصدر ريبنتروب أيضاً تعليماته الى تيلسكييرش في السابع من تشرين الأول ، لإبلاغ مولوتوف « بصورة عرضية ايضاً بأن المانيا تعترم ايفاد « بعثة عسكرية »

١ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ١٩٧ - ١٩٩ .

٢ - تم التوقيع على الميثاق الثلاثي في برلين في السابع والعشرين من ايلول ١٩٤٠ ، في حفلة كانت اشبه بالتمثيليات الساخرة ، وقد وضعتها في مكان آخر (كتاب يوميات برلين للمؤلف ص ٥٣٢ - ٥٣٧) . وقد اعترفت اليابان في المادتين الاولى والثانية من الميثاق « برعاية المانيا وايطاليا في اقامة النظام الجديد في اوروبا » ، واعترفت الدولتان برعاية اليابان في تحقيق نفس الغرض في آسيا الشرقية الكبرى . ونصت المادة الثالثة على المساعدة المتبادلة في حالة تعرض اي من الدول الثلاث للموقعة للهجوم من الولايات المتحدة وان لم ينص صراحة على اسمها ، وانما اكتفي بتعريفها . وبدا لي من هذا الميثاق كما دونت في يومياتي في ذلك اليوم في برلين ، ان ابرز ما فيه هو ما يرنو اليه من ان هتلر بات مقتنعا من ان الحرب ستكون طويلة . وتوصل شيانو الذي وقع الميثاق نيابة عن ايطاليا الى نفس النتيجة (يوميات شيانو ص ٢٩٦) . وعلى الرغم من كل ما صدر من نقي ، فان الفاية من الميثاق كانت تهدف كذلك الى تحذير الاتحاد السوفياتي .

٣ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٢٠١ - ٢٠٣ .

الى رومانيا . وعندما تلقى رد فعل مولوتوف المنطوي على التشكك بالنسبة الى هذه المعلومات الجديدة ، إذ استفهم الوزير السوفياتي عن عدد القوات التي تعتمز إرسالها الى رومانيا^(١) ، راح ريبنتروب يبعث في الثالث عشر من تشرين الأول برسالة مطولة الى ستالين محاولاً تهدئة ما يحس به السوفيات من قلق تجاه المانيا^(٢) .

وكانت هذه الرسالة ، كما يتوقع المرء ، أطروحة في البلاهة والغرور ، تحتشد بالسخف والأكاذيب وتشويه الحقائق . فهو ينحوب اللوم على انكلترا لقيام الحرب ، ويحملها مسؤولية كل ما وقع حتى الآن ، ويعود فيؤكد شيئاً واحداً .. وهو « اننا قد كسبنا الحرب . ولم تعد القضية إلا مجرد وقت ومدى ماتستطيع فيه انكلترا ان تتحمل قبل ان تعترف بالانهيار » وهو يصف الحركات الألمانية ضد روسيا في كل من فنلندة ورومانيا ، وكذلك في الميثاق الثلاثي على انها « نعم » من المانيا لروسيا ويضيف ان الدبلوماسية البريطانية ووكلاء بريطانيا السريين يحاولان في غضون ذلك خلق الفتنة بين روسيا ومانيا . وراح يقترح على ستالين لإحباط هذه المحاولات ايفاد مولوتوف الى برلين « لشرح له الفوهرر شخصياً آراءه في موضوع صياغة العلاقات المقبلة بين البلدين » .

وأشار ريبنتروب بطرف خفي الى ما قد تعنيه هذه الآراء ... انها لا تعني أقل من اقتسام العالم بين الدول الأربع الجماعية .. ثم مضى يقول : « ويبدو ان رسالة هذه الدول الأربع ، وهي الاتحاد السوفياتي وايطاليا واليابان ومانيا ، وضع سياسة طويلة المدى ، عن طريق تحديد مصالحها كلها عن نطاق عالمي » .

وقد وقع بعض التأخير في السفارة الألمانية في موسكو في تسليم هذه الرسالة الى المصدر الموجهة اليه ، مما اثار غضب ريبنتروب الى حد الهياج ،

١ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

٢ - العلاقات النازية السوفياتية ص ٢٠٧ - ٢١٣ .

وأوحى له بإرسال برقية غاضبة الى شولنبرغ يطلب اليه فيها معرفة الاسباب التي حالت دون وصول رسالته حتى السابع عشر من الشهر ، ولماذا « على الرغم من معرفته بأهمية محتويات هذه الرسالة » ، لم يتم بتسليمها الى ستالين شخصياً وإنما اكتفى بتسليمها الى مولوتوف ^(١) . ورد ستالين في الثاني والعشرين من تشرين الأول برسالة كانت ودية للغاية في لمجتها . وقد جاء في هذا الرد ما يلي : « يعترف مولوتوف أنه مدين لك بزيارة لبرلين ، وعلى هذا فهو يقبل دعوتك لزيارتها » ^(٢) . ويبدو ان هذا اللطف من جانب ستالين لم يكن اكثر من مجرد قناع . فقد ابرق شولنبرغ الى برلين بعد بضعة ايام يقول ان الروس قد احتجوا على ان المانيا ترفض تسليمهم المواد الحربية في الوقت الذي يبعثون فيه بالاسلحة الى فنلندا . وقال شولنبرغ في برقية أيضاً يا ان هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها الروس عن شحنات اسلحتنا الى فنلندا . » ^(٣)

* * *

« انه يوم عبوس قاتم . وقد وصل مولوتوف وكان استقباله رسمياً ينطوي على الفتور والجمود . وبدأ وهو يقطع شارع « اونتردن لندن » بسيارته متجهاً الى السفارة السوفياتية كمدير مدرسة ريفية كادح وعادي . ولكن ليس ثمة من شك في ان نجاحه في البقاء حياً في منافسات الكرملين على « قطع الرقاب » يوحي بأن في الرجل شيئاً ما . . ويتحدث الألمان صراحة عن رغبتهم في السماح لموسكو بتحقيق الحلم الروسي القديم بالسيطرة على مضائق البوسفور والدردينيل ، في الوقت الذي يحتلون هم فيه ما تبقى من البلقان

١ - العلاقات النازية السوفياتية - نص برقية ريبنتروب الغاضبة ص ٢١٤ .

٢ - العلاقات النازية السوفياتية - نص رد ستالين ص ٢١٦ .

٣ - العلاقات النازية السوفياتية ص ٢١٧ .

كرومانيا ويوغوسلافيا وبلغاريا .. »

بهذه العبارة استهلّيت يوميتي في برلين بتاريخ الثاني عشر من تشرين الثاني عام ١٩٤٠ . ويبدو ان حديث الألمان الصريح كان صحيحاً الى حد كبير ، بالنسبة الى ما حدث . فنحن نعرف اليوم عن هذا الاجتماع الغريب والقدرى ، كما حدث ، اكثر مما كان باستطاعتنا ان نعرف ، ويرجع الفضل في ذلك الى الوثائق الألمانية الرسمية المصادرة التي يعثر المرء فيها على ما دوّنه الألمان من وقائع هذا الاجتماع الذي استغرق يومين على النحو الذي دوّنه فيه الدكتور شميدت الموجود في كل مكان . (١)

وكان ريبنتروب في الاجتماع الأول الذي دار بين وزيري الخارجية قبل ظهر الثاني عشر من تشرين الثاني ، في حالة مزاجية تعتبر من اكثر حالاته تفاهة وغروراً ، ولكن سرعان ما تمكن مولوتوف من سبر غوره ومعرفة حقيقة ما يجري الألمان وراءه . وقد بدأ ريبنتروب حديثه قائلاً : « لقد هزمت انكلترا ، وغدا الموضوع قضية وقت ليس إلا ، عندما تعترف اخيراً بهزيمتها . . . فلقد جاءت اخيراً بداية النهاية بالنسبة الى الامبراطورية البريطانية » . ومضى يقول ان البريطانيين ما يزالون يأملون في العون يأتيهم من امريكا ، ولكن « دخول الولايات المتحدة في الحرب لم يعد ذا شأن بالنسبة الى المانية ، اذ ان المانيا وايطاليا لن تسمحا لأي « انكلو - سكسوني » بأن يطيأ القارة الأوروبية ثانية . . . ولا يؤلف هذا التصميم أية مشكلة عسكرية . . . ولا تدرس دولتنا المحور الآن والحالة هذه الطريقة التي تستطيعان فيها كسب الحرب ، بل الطريقة التي يمكن بواسطتها انتهاء هذه الحرب التي كسبها المحور بالسرعة الممكنة » .

١ - مذكرة عن اجتماعات مولوتوف بريبنتروب وهتلر في ١٢ - ١٣ تشرين الثاني عام ١٩٤٠ - ص ٢١٧ - ٢٥٤ - عاد ستالين فاكد دقة هذه المذكرة ، وان لم يقصد هو تأييدها . ويقول تشرشل انه تلقى وصفا من ستالين في آب عام ١٩٤٢ عن المحادثات التي اجراها مولوتوف في برلين ثم يمضي قائلاً : « وهي لا تختلف في جوهرها عن السجلات الألمانية على الرغم من انها اكثر قوة ودقة » (تشرشل - مذكرات - الجزء الثاني ص ٥٨٥ - ٥٨٦) .

وراح ريبنتروب ، يوضح ان الحالة وقد باتت على هذا النحو ، تتطلب الآن من الدول الأربع الكبرى وهي روسيا والمانيا وايطاليا واليابان ان تحدد « مناطق نفوذها » . وقد توصل الفوهرر الى الاستنتاج بأن الطبيعة تقضي بأن تتوسع الدول الاربع « باتجاه الجنوب » . وقد شرعت اليابان فعلاً بالاتجاه جنوباً ، كما فعلت ايطاليا نفس الشيء ايضاً ، بينما ستجد المانيا بعد ان تقيم « النظام الجديد » في اوروبا الغربية ، المجال الحيوي الاضافي لها في « اواسط افريقيا . وقال ريبنتروب « أنه يتسائل » ما اذا كانت روسيا لن « تتجه ايضاً نحو الجنوب للوصول الى منفذها الطبيعي الى البحار الفسيحة ، وهو المنفذ الذي كان متناهياً في الأهمية بالنسبة لها » .

وقاطعه مولوتوف ببرود قائلاً : « أي بحر تقصد ؟ » .

وكان هذا السؤال غريباً بالاضافة الى ما فيه من حرج ، وهو ما تعلمه الألمان في غضون الست والثلاثين ساعة المقبلة من احاديث لا تنتهي مع هذا البلشفي العنيد والدقيق والكثير الكلام . واسقط في يد ريبنتروب فترة من الوقت لم يستطع فيها ان يحير جواباً . وبدلاً من ان يرد مباشرة على هذا السؤال ، راح يتحدث باسهاب عن « التبدلات العظيمة التي ستقع في جميع اطراف العالم بعد الحرب » ، وقال هاذراً ان الشيء المهم هو « ان الفريقين الشريكين في الميثاق الروسي - الألماني قد افلحا في تحقيق بعض النتائج الطبيعية ، وان في وسعها ان يستمرا في تحقيق مثل هذه النتائج » . وعندما أصر مولوتوف على الحصول من رد لسؤاله البسيط ، أجاب ريبنتروب اخيراً بأن « المنفذ الأنفع لروسيا على المدى الطويل للوصول الى البحر ، يقوم باتجاه الخليج الفارسي وبحر العرب » . ويقول الدكتور شميدت الذي شهد الاجتماع ودون وقائعه ، ان مولوتوف كان يجلس دون « ان يستطيع المرء تمييز ما يفكر فيه من تعبيرات وجهه »^١ . ولم يتحدث إلا القليل ، واقتصر قوله في النهاية على ان « الدقة والحرص » أمران ضروريان في تحديد مناطق النفوذ « ولا سيما بين المانيا وروسيا » . ويبدو ان

١ - بول شميدت ترجمان هتلر - ص ٢١٢ .

المفاوض السوفياتي الداهية ظل يخزن ما لديه حتى يقابل هتلر الذي اجتمع اليه بعد الظهر . وقد تبين ان هذا الاجتماع كان بالنسبة الى سيد الحرب النازي الواسع الجبروت ، تجربة فذة في نوعها ، ومثيرة للدهشة ومحطمة للأعصاب ونخبة للأمل .

وكان هتلر في مقابلته هذه لا يقل غموضاً عن وزير خارجيته ، ولربما كان اكثر منه استملاء . وقد بدأ كلامه قائلاً ان المانيا ستوجه « الضربة القاضية ضد انكلترا » فور تحسن الطقس . و اضاف قائلاً : « ولكن هناك مشكلة امريكية بكل تأكيد » . ومع ذلك فلا تستطيع هذه ان « تهدد حرية الدول الاخرى قبل عام ١٩٧٠ أو عام ١٩٨٠ . فلا شأن لها لا في اوروبا ولا في افريقيا أو آسيا ، وهو تأكيد سرعان ما قاطعه مولوتوف ليعلم موافقته عليه . ولكنه لم يتفق مع هتلر في الكثير مما قاله ايضاً . اذ عندما انتهى الزعيم النازي من عرضه المسهب لبعض التعليقات المفرحة ، مؤكداً عدم وجود خلافات جوهرية بين البلدين في سعيها لتحقيق ما يطمحان اليه في زحفها المشترك « نحو منافذ المحيطات » ، رد مولوتوف بأن « بيانات الفوهرر لا تعدو ان تكون ذات طبيعة عامة » . و اضاف انه يود الآن ان يعرض آراء ستالين الذي زوده عند مغادرته موسكو « بتعليمات دقيقة واضحة » . وسرعان ما كشف اوراقه امام الديكتاتور الالماني بشكل لم يكن هذا ، كما روت الوقائع التي دونها شميدت مستعداً له .

واستذكر شميدت فيما بعد هذا الاجتماع فقال : « لقد انهالت الاسئلة على هتلر ، بطريقة لم يسبق قط لأي زائر اجنبي ان تحدث بها في حضوري لهتلر . »^(١)

كان مولوتوف راغباً في ان يعرف ماذا تريد المانيا من حركاتها في فنلندة . وما الذي تعنيه كلمة النظام الجديد في اوروبا وآسيا ، وما هو الدور الذي سيعطي للاتحاد السوفياتي في هذا النظام ؟ وما هي « أهمية » الميثاق الثلاثي ؟ ومضى يقول « يضاف الى هذا ان ثمة قضايا يجب ايضاحها بالنسبة الى مصالح روسيا في البلقان والبحر الأسود بالنسبة الى بلغاريا ورومانيا وتركيا . وانهى حديثه

قائلاً بأنه يود ان يسمع من الفوهرر بعض الردود « والأيضاحات » .
ويبدو ان هتلر قد فوجئ بهذه الأسئلة لأول مرة في حياته ، فلم يستطع الرد عليها ، واقترح تأجيل الاجتماع « نظراً لاحتمال وقوع انذار بالغارة الجوية » مع الوعد بأن يدخل مع زائره في نقاش طويل في اليوم التالي .
وهكذا تأجل الشجار الى اليوم التالي ، ولم يستبعد ، وعندما استأنف هتلر ومولوتوف حديثهما في الصباح التالي ، كان الوزير الروسي عنيفاً لا يلين . وبدأ حديثه بفنلندة ، التي سرعان ما اشتبك الرجلان في شجار عنيف ومرير حولها . وطلب مولوتوف ان تسحب المانيا قوتها فوراً من فنلندة . ونفى هتلر « ان تكون الجيوش الألمانية محتلة لها . » وأكد انها تمضي من هناك الى النرويج ، ولكنه يود ان يعرف « هل تعزم روسيا ان تحارب فنلندة » . وتقول الوقائع الألمانية المدونة ان مولوتوف حاول التملص من الرد على هذا السؤال ، وان هتلر اعتبر جوابه غير مرضٍ .

وراح هتلر يصّر قائلاً : « يجب ان لا تقع حرب في البلطيق ، اذ ان مثل هذه الحرب ستعرض العلاقات الألمانية - الروسية للتوتر » . وعاد يضيف بعد لحظة واحدة ان هذا التوتر قد يؤدي الى نتائج لا يتوقعها احد » . ثم راح يسأل زائره قائلاً : « على أي حال ماذا يطلب الاتحاد السوفياتي من فنلندة بعد كل ما أخذه منها » ؟ انه يود ان يعرف ، ورد الزائر بأن الاتحاد السوفياتي يود « تسوية معها على غرار ما وقع في بسارابيا » ، أي ضمها اليه . ويبدو ان رد فعل هتلر على هذا القول قد ازعج الزائر الروسي الجامد الذي لا يتأثر أبداً فسارع يسأل هتلر ابداء رأيه فيما قاله .

وحاول الديكتاتور بدوره ان يتملص من الرد الصريح فأجاب بأنه لا يسمعه إلا ان يكرر ما سبق له قوله من « ان الحرب يجب ان لا تقع مع فنلندة » اذ ان مثل هذا النزاع قد يترك آثاراً بعيدة المدى ، لا تدرك الآن » .

ورد مولوتوف قائلاً : « يؤدي هذا الوضع والحالة هذه الى دخول عامل جديد في النقاش ... »

ويبدو ان هذا الشجار قد احتد في هذه اللحظة ، حتى ان ريبنتروب ، أحس بالهلع فسارع الى التدخل ، قائلاً ، حسب الرواية الالمانية ، « بأن ليس ثمة من داع في الحقيقة ابداً ، لخلق مثل هذه المشكلة حول موضوع فنلندة . ويبدو ان القضية لا تعدو ان تكون مجرد سوء تفاهم » .

واستغل هتلر هذا التدخل الذي جاء في وقته المناسب ، ليحول دفعة الحديث بسرعة الى موضوع آخر . وراح يفكر أو ليس في امكانه اغراء الروس بالمنهوبات التي لا حد لها ولا حصر ، والتي ستوافر مع انهيار الامبراطورية البريطانية ؟ ثم قال : « دعنا نتحول الآن الى البحث في مواضيع اكثر اهمية . ثم قال :

« بعد ان يتم احتلال انكلترا ، ستصبح الامبراطورية البريطانية مجرد اقطاعية تضم اربعين مليون كيلو متر مربع من انحاء العالم ، وفي حالة من الافلاس . وسيغدو في مكنة روسيا ان تعثر في هذه الاقطاعية المفلسة على المنفذ الذي تريده الى البحار المفتوحة والتي لا يلحق بها التجمد . . . فلقد كانت اقلية لا يعدو تعدادها خمسة واربعين مليوناً من السكان تتحكم حتى الآن في نحو من ستمائة مليون انسان يقيمون في الامبراطورية البريطانية . وهو على وشك تحطيم هذه الاقلية . . . وتنشأ في مثل هذه الظروف احتمالات واسعة تشمل العالم بأسره . . . وعلى جميع الدول التي يهمها أمر هذه الاقطاعية المفلسة ان توقف كل ما بينها من خلافات ، وان تحصر اهتمامها في تجزئة الامبراطورية البريطانية . وينطبق هذا القول على كل من المانيا وفرنسا وايطاليا وروسيا واليابان » .

ولكن الزائر الروسي البارد كالثلج والجامد العواطف لم يتأثر كما يبدو بهذه « الاحتمالات العالمية الواسعة » على الرغم مما فيها من اشراق ، كما لم يبد مقتنعاً كالألمان ، وهو ما عاد يؤكد بعد لحظات ، من ان الامبراطورية البريطانية ستكون جاهزة للاقتسام والتجزئة . وقال انه يود لو بحث في المشاكل

الأقرب الى أوروبا كتر كيا مثلاً او يلفاريا أو رومانيا .

وقال : ان الحكومة السوفياتية ترى ان الضمانة الألمانية لرومانيا انما تستهدف الإضرار بمصالح روسيا السوفياتية ، هذا اذا أراد المرء التعبير عن رأيه بصراحة . « وكان مولوتوف يواصل التعبير عما يريد قوله بصراحة طيلة اليوم ، مما ازعج مضيفيه ، وها هو الان يمضي في اصراره هذا وصراحة فيطالب المانيا « بالغاء » ضمانتها لرومانيا ولكن هتلر يرفض طلبه هذا .

ويقول مولوتوف : « حسناً » ... ولما كانت موسكو كثيرة الاهتمام بالمضايق ، فماذا تقول المانيا لو انها أي روسيا قدمت لبلغاريا ضمانات تشبه في شروطها ونصوصها الضمانات التي قدمتها المانيا وايطاليا لرومانيا ؟ » .

وكان في وسع كل من حضر الاجتماع ان يرى التجشّم واضحاً على اسارير هتلر . وراح يسأل ضيفه عما اذا كانت بلغاريا قد طلبت ضمانات ، كما فعلت رومانيا ؟ وتذكر الوقائع الألمانية عن الاجتماع ان الفوهرر قال لضيفه بأنه لا يعرف عن وجود طلب كهذا من بلغاريا . ولكنه على أي حال يود ان يشاور موسوليني قبل ان يعطي لروسيا رداً اكثر وضوحاً وتحديداً في هذا الموضوع . واضاف بشيء من التحذير قائلاً : « ولو ارادت المانيا البحث عن مصادر للاحتكاك مع روسيا لما احتاجت الى المضائق لخلق هذا الاحتكاك » .

وهنا أحس الفوهرر الذي عرف برغبته في كثرة الحديث دائماً ، بأنه لم يعد قادراً على الاستماع الى مثل هذا الروسي الصعب المراس .

وتقول الوقائع الألمانية المدونة ... « أن الفوهرر عندما وصل الحديث الى هذه النقطة ، لفت انتباه زائره الى ان الوقت بات متأخراً ، واضاف انه بالنظر الى احتمال وقوع غارات جوية بريطانية فإنه يرى من الافضل قطع الحديث في هذه المرحلة ، لاسيما وان البحث قد تناول معظم القضايا الرئيسية الى حد كاف » .

وأقام مولوتوف مأدبة عشاء ساهرة في تلك الليلة لمضيفيه في دار السفارة السوفياتية في « اونتر دين لندن » . ويبدو ان هتلر كان متعباً من الاجتماع

وكان لا يزال متأثراً من المحنة التي مر بها ، فتغيب عن الحفلة .
ولم يتغيب البريطانيون عنها ايضاً . وقد دهشت لأن قاذفات قنابلهم لم
تظهر في سماء برلين في الليلة السابقة ، كما كان شأنها في كل ليلة سابقة ، لتذكر
الوزير السوفياتي في الليلة الأولى التي قضاها في العاصمة الألمانية ، بأن بريطانيا ،
مهما قال له الالمان عنها ، ما زالت في الحرب ، وان في وسعها ان تضرب .
واني لأعترف ان البعض منا ظل ينتظر بأمل ورجاء وصول الطائرات البريطانية
ولكنها لم تصل . وأحس موظفو الويلهلمشتراسه ، الذين كانوا في قلق ، بالكابوس
يزاح عن صدورهم . ولكن هذا الشعور بالارتياح لم يدم طويلاً .

فلقد جاءت الطائرات البريطانية مساء الثالث عشر من تشرين الثاني في
وقت مبكر للغاية^(١) . وكان الظلام يخيم على برلين في الساعة الرابعة مساء في
هذا الوقت من السنة ، ولم تكد تحل الساعة التاسعة مساء حتى انطلقت
صافرات الانذار بالفارة الجوية ، وبات في وسع المرء ان يستمع الى هدير المدافع
المضادة للطائرات ، وان يصغي الى ازيز الطائرات فوق رأسه . ويقول الدكتور
شميدت الذي شهد المأدبة في دار السفارة السوفياتية ، ان مولوتوف كان قد
اقترح ان يشرب الحاضرون نخب الصداقة بين البلدين ، وان ريبنتروب كان قد
وقف على قدميه ليرد بنخب ودي مماثل عندما انطلقت الصافرات معلنة وقوع
الفارة ، فسارع الضيوف الى الملجأ . واني لأذكر ما وقع من هرج ومرج ، في
شارع « لندن » وعند زاوية الويلهلمشتراسه عندما كان الروس والالمان يهرعون
للاحتماء بملجأ وزارة الخارجية . وسارع عدد من الموظفين وبينهم الدكتور شميدت
الى فندق « ادلون » ، الذي كنا نرقب من مدخله ما يقع ، ولم يكن في وسعنا
ان نصل الى الاجتماع المرتجل الذي عقده الوزير ان الآن في اقبية وزارة الخارجية .

١ - يقول تشرشل ان الفارة الجوية قد وقعت خصيصاً لهذه المناسبة . وقد كتب يقول :
« وكنا قد سمعنا عن الاجتماع قبل وقوعه ، وعلى الرغم من اننا لم ندع الى الاشتراك فيما
دار فيه من احاديث ، الا اننا لم نرغب مطلقاً في ان نظل بعيدين عن وقائمه » . (تشرشل -
مذكرات - الجزء الثاني ص ٥٨٤) .

ولهذا فقد تولى غوستاف هيلفر مستشار السفارة الألمانية في موسكو تدوين وقائع هذا الاجتماع نيابة عن الدكتور شميدت الذي لم يستطع حضوره ، اذ كان هيلفر هذا قد قام بدور أحد المترجمين في الاجتماعات .

وحاول وزير الخارجية النازي الكثير التملص ، اغراء الروس للمرة الاخيرة ، بينما كانت القاذفات البريطانية تحوم في حلقة الدجى في السماء ، وبينما كانت المدافع المضادة ، تهدر مطلقة قذائفها عليها دون ان تترك اثراً . واستل من جيبه مشروع اتفاق ، يحول في جوهره الميثاق الثلاثي الى ميثاق للدول الاربع ، على ان تكون روسيا دولته الرابعة . واصفى مولوتوف بصبر واناة الى ريبنتروب وهو يتلو على مسامعه نص هذا المشروع .

وكانت المادة الثانية هي زبدة هذا الاتفاق . فهي تنص على ان تحترم كل من المانيا وايطاليا واليابان والاتحاد السوفياتي « مناطق النفوذ الطبيعية لبعضها البعض » . وهي تقضي ايضاً بأن تحل الخلافات في حالة ظهورها « بطريقة ودية وحيية » . وتوافق الدولتان الفاشيتان واليابان « على الاعتراف بالنطاق الحالي للممتلكات السوفياتية ، وتتعهد باحترامها » وتتعهد الدول الاربع بموجب المادة الثالثة بعدم الدخول أو بعدم تأييد أي تجمع دولي « موجه ضد أي من الدول الاربع المتعاقدة » .

واقترح ريبنتروب اعلان نصوص الاتفاق مع الاحتفاظ بسرية ملاحظتها المكتومة التي شرع الآن في تلاوتها على مسامع زميله السوفياتي . وكان اهم هذه الملاحق ، الوثيقة التي تحدد لكل دولة من الدول الاربع « مطامحها الاقليمية » . وكانت هذه المطامح بالنسبة الى روسيا ، الى الجنوب من اراضيها أي باتجاه المحيط الهندي .

ولم يستجب مولوتوف للطعم الذي قدمه اليه ريبنتروب . فالميثاق المقترح يهدف كما هو الواضح الى محاولة تحويل اهتمام روسيا عن اندفاعها التاريخي غرباً باتجاه البلطيق والبلقان وعبر المضائق الى البحر الابيض المتوسط ، حيث تصطدم حتماً مع مخططات المانيا فايطاليا الطامعة الى مكان آخر . والاتحاد السوفياتي

في الوقت الحاضر على الأقل ليس مهتماً بالمحيط الهندي الذي يبعد عنه كثيراً . ورد مولوتوف بأن ما يهم الاتحاد السوفياتي في الوقت الحاضر ينحصر في أوروبا والمضائق التركية . و اضاف قائلاً : « وعلى ضوء هذا فان الاتحاد السوفياتي لن يكتفي باتفاقات الورق ، وانما يصر على نوال ضمانات فعالة لسلامته » . ثم قال : « ولا تقتصر القضايا التي يهتم بها الاتحاد السوفياتي على تركيا بل يتعداها ايضاً الى بلغاريا ... ومع ذلك يهتم الاتحاد السوفياتي ايضاً بمصير رومانيا والمجر . ولا يمكن له ان يقف منها موقف التجاهل وعدم الاكتراث . ويهم الحكومة السوفياتية كذلك ان تعرف ما يعتزمه المحور بصدد يوغوسلافيا واليونان ، وما تنويه المانيا بشأن بولندا ... وهي تهتم كذلك بحياة السويد ... يضاف الى ذلك مشكلة المرور عبر بحر البلطيق » .

وهكذا افرغ وزير الخارجية السوفياتية ، الذي لا يكل ولا يمل ، والذي لا تظهر على اساريه أي علام انفعال ، كل ما في جعبته ، وأحس ريبنتروب انه قد بات مدفوناً تحت هذا التيهور الهائل من الاسئلة ، ذلك لأن مولوتوف قال عندما وصل الى هذا الحد ، بأن مما « يبعث في نفسه الرضى » ، ان يتكرم ضيفه بالرد عليها . واحتج ريبنتروب بأنه « يتعرض لاستجواب دقيق » ثم قال بصوت خافت :

« ان كل ما استطيع قوله وتكراره ، هو توجيه السؤال الحاسم لمعرفة ما اذا كان الاتحاد السوفياتي على استعداد ، ويحدد نفسه في وضع يمكنه من التعاون معنا في عملية تصفية الامبراطورية البريطانية الضخمة » .

وكان مولوتوف على اهبة للرد بجواب قاطع . وقد دون هيلفر هذا الرد في سجله :

« قال مولوتوف ، ان الألمان يفترضون انهم قد كسبوا الحرب ضد انكلترا . واذا صح ما اكده هتلر من ان المانيا تخوض حرب

الحياة أو الموت ضد انكلترا فان كل ما يستطيع فهمه من هذا التأكيد، هو ان المانيا تحارب من اجل حياتها وان انكلترا تحارب من اجل موتها .

وكان من المحتمل ان تفوت هذه السخريه على ذهن ريبنتروب البليد ، لكن مولوتوف لم يرغب في ان يضيع فرصته ، وان لا يفهم ضيفه سخريته . وراح يرد على تأكيد الألمان المستمر بأن بريطانيا قد انتهت قائلاً : « اذا صح هذا ، فلماذا نقبع نحن الآن في هذا الملجأ ، ولما هذه الطائرات التي تقذف بقنابلها علينا ؟ » (١) واستخلص هتلر من هذه التجربة المنهكة التي مر بها مع مساوم موسكو الصعب الشكيمة ، ومن دليل جديد جاءه بعد اسبوعين عن تزايد الشهية عند ستالين وعدم اكتفائها ، النتائج النهائية التي قررها .

وأرى من واجبي ان اقول هنا ، ان الديكتاتور السوفيياتي ، مهما كانت الطلبات التي قدمها متعارضة مع عروض هتلر ، قد قبل هذه العروض بالانضمام الى المعسكر الفاشي ، وان كان قد ألح على وجوب الحصول على ثمن اكبر مما عرضته برلين . ففي السادس والعشرين من تشرين الثاني أي بعد اقل من اسبوعين من عودة مولوتوف من زيارته الى المانيا ، ابلغ ستالين السفير الألماني في موسكو بأن روسيا على استعداد للاشتراك في الميثاق الرباعي شريطة تحقيق المتطلبات التالية :

« ١ - سحب القوات الألمانية فوراً من فنلندا التي تعتبر جزءاً من منطقة نفوذ الاتحاد السوفيياتي ...

« ٢ - ضمان أمن الاتحاد السوفيياتي في المضائق في غضون الاشهر القليلة القادمة عن طريق عقد ميثاق للعون المتبادل بين الاتحاد السوفيياتي وبلغاريا... واقامة قاعدة للقوات البرية والبحرية

١ - روى تشرشل هذه الطلقة الاخيرة التي صدرت عن مولوتوف قبل سفره في الصفحة ٥٨٦ من الجزء الثاني من مذكراته وقد تسمعا من ستالين في وقت لاحق من الحرب .

السوفياتية على مرمى من البوسفور والدردنيل عن طريق الاجارة
لمدة طويلة .

« ٣ - الاعتراف بالمنطقة الواقعة الى الجنوب من باطوم وباكو
باتجاه الخليج الفارسي كمرکز الثقل في مطامح الاتحاد السوفياتي .
« ٤ - تنازل اليابان عن حقوقها وامتيازاتها في الزيت والفحم
في شمال جزيرة سخالين » ^(١)

وهكذا طلب ستالين خمس ملاحق سرية بدلاً من ملحقين للميثاق المقترح ،
على ان تتضمن هذه الملاحق اقتراحاته الجديدة ، وطلب ايضاً ان تقوم الدول
الاربعة في حالة تعنتت تركيا في معارضة اقامة قواعد روسية تسيطر على
المضائق ، باتخاذ الاجراءات العسكرية اللازمة ضدها .

ولكن هذه الاقتراحات التفت ثمناً اعلى مما كان هتلر على استعداد للبحث
فيه . فلقد حاول الابقاء على روسيا بعيدة عن اوروبا ولكن ستالين يطالب الآن
بفنلندة وبلغاريا والاشراف على المضائق بالاضافة الى السيطرة على حقول الزيت
الارانية والعربية وهي الحقول التي تزود اوروبا في الظروف العادية بمعظم
حاجاتها من الزيت . ولم يشر الروس بقليل أو كثير الى المحيط الهندي الذي
حاول الفوهرر ان يجعل منه مركز الثقل في مطامح الاتحاد السوفياتي .

وقال هتلر لكبار قاداته العسكريين : « ان ستالين ذكي وداهية . وها هي
طلباته تزداد شيئاً فشيئاً . انه بلطجي من الطراز الأول يعتمد الابتزاز طريقة
له . ولم يعد في قدرة روسيا ان تحتل نصر المانيا . ولهذا يجب علينا ان نحملها
على الركوع على ركبتيها في اسرع وقت ممكن » ^(٢) .

وهكذا وجد البلطجي النازي العظيم ندأ له في ستالين ، وادى ادراكه
لهذه الحقيقة الى اثاره غضبه . ولم يحل مطلع شهر كانون الأول ، حتى كان يطلب

١ - برقية شولنبرغ في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٤٠ . العلاقات النازية السوفياتية ٢٥٨ -

٢٥٩ .

٢ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤١) ص ١٣ يوميات هولدر في ١٦ كانون
الثاني ١٩٤١ .

الى هولدر ان يقدم له الخطة التي وضعتها هيئة اركان حرب الجيش للهجوم الكاسح على الاتحاد السوفياتي . ونفذ هولدر الأمر ، وفي الخامس من كانون الاول حمل الخطة مع براوختش ومضيا لمقابلته ، فأقرها بعد اجتماع دام اربع ساعات . وتتضمن اليوميات الحربية للقيادة العليا للقوات المسلحة ، التي صودرت بعد الحرب ، كما تتضمن يوميات هولدر السرية نفسها تقريراً عما دار في هذا الاجتماع الخطير ^(١) . واكد سيد الحرب النازي وجوب تحطيم الجيش الاحمر الى الشمال والجنوب من مستنقعات بريديت ، وتطوير قواته وإبادتها « كما وقع في بولندا » . وقال لهولدر « انني لا ارى اهمية لموسكو » . والمهم هو تحطيم « قوة الحياة » في روسيا . ومن الواجب اشراك رومانيا وفنلندا في الهجوم ، أما المجر فلا . ومن الواجب ايضاً نقل فرقة الفريق كايتل الجبلية من نارفيك عبر شمال السويد الى فنلندا لمهاجمة المنطقة السوفياتية القطبية ^(٢) . وتقرر تخصيص نحو من (١٢٠) أو (١٣٠) فرقة لهذه الحملة الضخمة .

وتستخدم يوميات الفريق هولدر في اشارتها الى ما وقع في هذا المؤتمر ، العبارة الرمزية « اوتو » للتدليل على هذه الخطة ضد روسيا ، وهو نفس الاسم الرمزي الذي اطلق على العملية في مناسبات سابقة . ولكن لم يمض اقل من اسبوعين ، أي في الثامن عشر من كانون الأول عام ١٩٤٠ ، حتى كان هذا الاسم الرمزي قد استبدل باسم آخر قدر له ان يصبح اسماً تاريخياً . ففي هذا اليوم اجتاز هتلر نهر « روبيلون » وحزم امره . واصدر توجيهه الواحد والعشرين الذي توجه بالعبارة التالية ... « عملية بربروسا » وهذا نص ما جاء في استهلاله ...

١ - يوميات هولدر في ٥ كانون الاول عام ١٩٤٠ . المؤامرة النازية والمدوان (٤) ص ٣٧٤ - ٣٧٥ . والاخيرة ترجمة لجزء من اليوميات الحربية لقيادة الجيش العليا ، التي كان يودل يتولى رئاسة اركان حربها .

٢ - سمحت السويد التي سبق لها ان رفضت نقل قوات الحلفاء عبر اراضيها اiban الحرب الروسية - الفنلندية ، لهذه الفرقة المسلحة اكمل تسليح بعبور اراضيها . وقد انضمت المجر فيما بعد طبعا الى الحرب ضد روسيا .

سري للغاية

مقرر قيادة الفوهرر

١٨ كانون الأول ١٩٤٠

« على القوات الألمانية المسلحة ان تكون متأهبة لسحق روسيا السوفياتية في حملة سريعة قبل انتهاء الحرب ضد انكلترا . وعلى الجيش تحقيقاً لهذه الغاية ان يعد كل ما يتوافر لديه من وحدات ، شريطة ان يضمن الدفاع عن البلاد المحتلة ضد أية هجمات مفاجئة . » ومن الواجب استكمال الاعدادات اللازمة قبل الخامس عشر من ايار عام ١٩٤١ . ومن الضروري اتخاذ اقصى الحيلة ، مخافة ادراك ما نعتزم القيام به من هجوم . »

وهكذا تقرر ان يكون منتصف ايار من الربيع القادم موعد الصفر بالنسبة الى الهجوم ... وحدد هتلر « الهدف العام » لعملية بربروسه على النحو التالي :

« يجب تحطيم القسم الاكبر من الجيش الروسي العامل في غرب روسيا بواسطة عمليات جريئة ، تتمثل في شق ثغرات مدرعة وعميقة ، وكذلك في الحيلولة دون تقهقر وحدات متمسكة ومستعدة للحرب نحو آفاق روسيا الواسعة الفسيحة . أما الهدف النهائي للعملية فإقامة خط دفاعي ضد روسيا الآسيوية يمتد من نهر الفولغا الى ميناء اركانجل في الشمال . »

ومضى توجيه هتلر يتحدث بأسهاب بعد ذلك عن الخطوط الرئيسية للهجوم^(١) . وحدد بعد ذلك دوري رومانيا وفنلندة تحديداً واضحاً . فعلى

١ - ذهب كثيرون من المؤرخين الى ان هتلر لم يعض بعيدا في التفصيل في هذا التوجيه

هاتين الدولتين ان تؤمنا مناطق الوثوب للهجوم في الجناحين البعيدين في الشمال والجنوب ، وان تزود المانيا بما تحتاج اليه من قوات لتعزيز جيوشها في هذه العمليات . ورأى التوجيه ان موقف فنلندة متناه في الأهمية . إذ على الجيوش الألمانية والفنلندية المتعددة ان تزحف باتجاه ليننغراد ومنطقة بحيرة لادوغا ، وان تقطع الخط الحديدي الموصل الى مورمانسك وتستولي على مناجم النيكل في تبسامو وتحتل الموانئ الروسية التي لا تتجمد في المنطقة القطبية . واعترف هتلر ، بأن الكثير يعتمد على ما إذا كانت السويد ستسمح بعبور القوات الألمانية من النرويج في أراضيها ، ولكنه توقع وكان محقاً في توقعه ، بأن السويد لن تتوانى عن تقديم هذا التسهل .

وأوضح هتلر ان مستنقعات بريبيت هي التي ستولى تجزئة العمليات الرئيسية . وقال ان الضربة الكبرى ستوجه الى الشمال من هذه المستنقعات على ان تتولى أمرها مجموعتان كاملتان من الجيوش ، تتقدم احدهما عبر دول البلطيق نحو ليننغراد . أما المجموعة الثانية فتتقدم من الجنوب زاحفة عبر روسيا البيضاء ثم تتحول شمالاً لتلتقي بالمجموعة الأولى مكاملة بذلك الطول على ما يتبقى من القوات السوفياتية التي تحاول التراجع من البلطيق . وهنا قال هتلر ، ان في الامكان بعد تحقيق هذه الخطة توجيه هجوم موسكو . فلقد غدت العاصمة الروسية التي كانت حتى قبل اسبوعين ، « غير ذات أهمية » لهتلر ، اكثر قيمة الآن ، اذ كتب في توجيهه : « يعني الاستيلاء على هذه المدينة نصراً حاسماً من الناحيتين السياسية والاقتصادية بالاضافة الى ما يمثله من خسارة العدو لنقطة مهمة كل الأهمية في تقاطع مواصلاته الحديدية » . وأشار الى ان موسكو تمثل بالاضافة الى كونها

الاول عن عملية بربروسه ، ولعل هذا الخطأ نجم عن الشكل المختصر الذي ظهر فيه التوجيه في الترجمة الانكليزية لمجلدات « المؤامرة النازية والعدوان » . لكن النص الالمانى الكامل الوارد في كتاب « محاكمات كبار مجرمي الحرب » (٢٦) ص ٤٧ - ٥٢ « يشير الى وجود تفاصيل واقية مما يقيم الدليل على أن الالمان كانوا قد مضوا بعيداً في استعداداتهم في هذا الموعد المبكر . (المؤامرة النازية والعدوان) (٣) ص ٤٠٧ - ٤٠٩)

مركز المواصلات الرئيسي في روسيا ، المنتج الرئيسي لسلحتها .
أما مجموعة الجيوش الثالثة فتزحف الى الجنوب من المستنقعات عبر اراضي
اوكرانيا نحو كييف ، هادفة إلى تطويق القوات السوفياتية العاملة الى الغرب
من نهر الدنيبر وتحتيط بها . وتزحف القوات الالمانية والرومانية في الجنوب
البعيد لحماية جناح العملية الرئيسية والتقدم نحو اوديسا ومن هناك على ساحل
البحر الاسود . ويمكن بعد ذلك احتلال حوض الدونيتس الذي يضم نحواً من
ستين في المائة من الصناعة السوفياتية .

هذه هي الخطة العظيمة التي وضعها هتلر والتي اتمها قبل عطلة عيد الميلاد في
عام ١٩٤٠ ، وكان إعدادها على نحو من الدقة بحيث لم يطرأ عليها أي تبدل
اساسي فيما بعد ابداً . ورغبة في ضمان السرية المطلقة ، أمر هتلر باعداد تسع
نسخ فقط من التوجيه ، سلمت نسخة واحدة منها الى كل فرع من الفروع الثلاثة
لل قوات المسلحة ، على ان يحتفظ بالنسخ الباقية في مقر القيادة العليا . ووضح
التوجيه ايضاً ان من الواجب القول حتى لكبار قادة الميدان ، بأن الخطة لا
تعدو ان تكون « مجرد اجراء احتياطي في حالة تبديل روسيا لموقفها السابق
منا » . وأمر هتلر بأن يظل عدد الضباط المطلعين على هذا السر صغيراً الى
اقصى حد ممكن . ثم مضى قائلاً : « وإلا فإن ثمة خطر في ان تتضح حقيقة
اعداداتنا ، مما يؤدي الى وقوع اشد الاضرار من الناحيتين السياسية والعسكرية »

وليس ثمة من دليل على ان القادة العسكريين في قيادة الجيش العليا قد اعترضوا
على قرار هتلر ، بالاستدارة نحو الاتحاد السوفياتي الذي مكنهم اخلاصه في تنفيذ
ميثاقه مع المانيا من تحقيق انتصاراتهم العظيمة في بولندا والغرب . ولكننا رأينا
هولدر فيما بعد يكتب هازئاً « بمغامرة هتلر الروسية » ويدعي ان قادة الجيش
وقفوا موقف المعارضة منها منذ البداية ^(١) . ولكن عندما نقرأ يومياته الضخمة
كلها عن شهر كانون الأول عام ١٩٤٠ ، لا نجد فيها كلمة واحدة تؤيد ادعاءه .

١ - هولدر - هتلر كقائد ميدان ص ٢٢ .

ونجد فيها على النقيض من ذلك حماساً أصيلاً في تأييد « المغامرة » التي يتحمل هو بوصفه رئيس هيئة أركان الحرب المسؤولية في وضع مخططها .

لكن القرار أصبح حاسماً بالنسبة الى هتلر ، وكان هذا القرار الذي اتخذته في الثامن عشر من كانون الأول عام ١٩٤٠ ، العمل الفاصل الذي قرر مصيره هو ، وان لم يكن قد عرف هذه الحقيقة عندما حزم امره على اتخاذه . وأحس بالراحة بعد ان قضى على تردده في النهاية ، ومضى كما قال هو فيما بعد ، الى جبهة القناة الانكليزية ليقضي أعياد الميلاد مع جنوده وطياريه فيها ، بعيداً ما أمكنه عن روسيا التي صمم على اجتياحها . ويبدو انه ابتعد بأفكاره ، الى أكثر حد ممكن ، عن شارل الثاني عشر ملك السويد ونابليون بونابرت اللذين واجها بعد ان حققا فتوحات مجيدة لا تقل شأواً عن فتوحاته هو ، الكارثة في اعماق السهوب الروسية الفسيحة . وكيف يمكن له ان يتعرض لمثل هذه الافكار تحتاج عقله ؟ لقد بات الآن كما تظهر السجلات ، هذا الانسان الذي كان أفاقاً في فيينا في يوم ما ، يعتبر نفسه اعظم فاتح عرفه تاريخ العالم وقد بات « العظم » ذلك المرض الخطير الذي يصيب جميع الفاتحين مسيطراً عليه الى حد الجنون .

سنة اشهر من الانتظار الخائب

وواجه الفاتح النازي بعد تلك الانتصارات الكثيرة العدد التي حققها في الربيع ومطلع صيف عام ١٩٤٠ ، ستة أشهر طويلة من الانتظار الخائب . ولم يكتف القدر بأن يجنبه الحصول على النصر النهائي على بريطانيا ، بل اضاع عليه ايضاً الفرص التي اتاحت له ليوجه اليها ضربة قاتلة في البحر الأبيض المتوسط . وقابل امير البحر الاكبر ريدير زعيمه في برلين بعد يومين من انقضاء عيد الميلاد ، ولكنه لم يحمل له في هذه المقابلة أية هدايا مفرحة من التي اعتاد الناس تقديمها في مناسبة هذا العيد . وراح يقول للفوهرر : « لقد انتهى كل امل في تهديد بريطانيا في شرق البحر المتوسط والشرق الأدنى وشمال افريقيا ... ولم

يعد العمل الحاسم في البحر المتوسط الذي طالما ركّزنا آمالنا عليه ممكناً»^(١).
أجل لقد فات «الباص» هتلر في البحر المتوسط، إذا اعتمد على فرانكو
«المتذبذب»، وموسوليني «العاجز» وبتان «الخرف». فلقد حلت
الكارثة بالحليف الإيطالي في صحراء مصر، وها هو يواجه في شهر كانون الأول،
كارثة مماثلة في جبال البانيا التي تكسوها الثلوج ومثلت هذه الأحداث المشؤومة
نقاط تحول في تاريخ الحرب، وفي تاريخ الرايخ الثالث أيضاً. ولم تقع هذه
الحوادث نتيجة ما عليه حلفاء المانيا واصدقاؤها من ضعف فحسب، وإنما نتجت
ايضاً نتيجة عجز سيد الحرب النازي عن فهم السوقية الضخمة المتعلقة بحروب
تشمل القارات، وهي السوقية التي كانت المانيا في حاجة اليها، والتي لا ريدر
وحتى غورنغ بوجود تفهمها.

فلقد حاول امير البحر الاكبر مرتين في شهر ايلول من عام ١٩٤٠، أولاهما
في السادس منه والثانية في السادس والعشرين، ان يفتح امام عقل الفوهرر
آفاقاً جديدة، وان يفهمه ان الهجوم المباشر على انكلترا بات مستحيلاً. وقد
حاصر ريدر في الاجتماع الثاني زعيمه على انفراد، دون ان يكون هناك ضباط
من الجيش أو القوة الجوية، ليقطعوا عليه حبل تفكيره، وحاول في محاضرة
طويلة ومستفيضة ألقاها على مسامع الزعيم عن السوقية البحرية، افهامه اهمية
التغلب على بريطانيا في اماكن اخرى تتجاوز حدود القناة الانكليزية... ثم
مضى يقول:

«ما زال البريطانيون يعتبرون البحر الابيض المتوسط، كما
اعتبروه دائماً، محور امبراطوريتهم العالمية... وها ان إيطاليا التي
يحيط بها السلطان البريطاني من كل ناحية، تتعرض بشكل سريع
لتعدو الهدف الرئيسي للهجوم... وليس ثمة من شك في ان رفض
الإيطاليين عوننا يرمز الى انهم لم يدركوا حق الادراك بعد ما

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ١٣٥ - ١٣٦.

يواجههم من اخطار . ومع ذلك ، على المانيا ان تشن الحرب
على بريطانيا العظمى بكل ما تحت تصرفها من وسائل ، ودون
أي ابطاء ، قبل ان تتمكن الولايات المتحدة من التدخل تدخلاً
فعالاً الى جانبها . ولهذا السبب وحده ، يجب حل معضلة البحر
الابيض المتوسط في غضون اشهر الشتاء .

ولكن كيف تحل هذه المشكلة ؟ ان امير البحر يحاول شرح ذلك بالحقائق
والارقام ، فهو يقول :

« علينا ان نحتل جبل طارق . وعلينا ان نسيطر على جزر
الكناريا بقوتنا الجوية . »

« وعلينا ايضاً أن نحتل قناة السويس . »

وعاد ريدير يرسم بعد حديثه عن السويس صورة زاهية الألوان عما سيحدث
من آثار منطقية :

« ومن الضروري ان نزحف من السويس عبر فلسطين وسوريا
الى حدود تركيا . واذا ما وصلنا الى تلك النقطة ، فإن تركيا نفسها
ستغدو تحت سيطرتنا . وآنذاك ستبدو لنا المشكلة الروسية من
زاوية جديدة ... ويفقدو من المشكوك فيه ان يصبح الزحف على
روسيا من الشمال أمراً لازماً . »

وبعد ان تمكن ريدير من ان يطرد في افكاره البريطانيين من البحر الابيض
المتوسط ، وان يسيطر على تركيا وروسيا ، مضى يكمل الصورة لزعيمة . فقد
توقع وكان توقعه صحيحاً ، ان بريطانيا بتأييد من الولايات المتحدة وقوات
ديغول ، ستحاول في النهاية ان تحصل على موطئ قدم لها في افريقيا الشمالية
الغربية ، كقاعدة تشن منها حربها المقبلة ضد المحور ، ولذا حث امير البحر على
ضرورة قيام ألمانيا وفرنسة فيشي باحباط مثل هذه الخطة عن طريق ضمان بقاء
هذه المنطقة ذات الأهمية السوقية لها .

ويقول ريدير ان هتلر وافق مبدئياً على « اتجاه فكرته » بصورة عامة ،

ولكنه اضاف بأنه يرى ضرورة لبحث جميع هذه القضايا أولاً مع كل من موسوليني وفرانكو وبتان^(١) . وقد شرع فعلاً في مثل هذه المحادثات ، وان كان بعد لأي وتردد اضاعا عليه الكثير من الوقت الثمين . وقد اعد العدة لمقابلة الديكتاتور الاسباني في الثالث والعشرين من تشرين الأول ، وان يقابل بتان الذي كان يرأس الآن حكومة متعاونة مع المانيا في فيشي من اليوم التالي ، وان يجتمع الى الدوتشي بعد بضعة ايام من هذين الاجتماعين .

وكان فرانكو المدين بانتصاره في الحرب الأهلية الاسبانية الى العون العسكري الضخم الذي تلقاه من ايطاليا و المانيا ، يحس كغيره من الديكتاتوريين ، بشبهة متعطشة الى الغنائم والأسلاب ، ولا سيما اذا تمكن من الحصول عليها دون ان تكلفه ثمناً باهظاً . وكان في شهر حزيران ، عندما تهاوت فرنسا ، قد سارع الى ابلاغ هتلر ، بأن اسبانيا على استعداد لدخول الحرب ، شريطة ان تحصل على القسم الأكبر من امبراطورية فرنسا الافريقية بما في ضمنها المغرب وغرب الجزائر^(٢) ، وشريطة ان تقوم المانيا بتزويد اسبانيا بسخاء بالأسلحة والوقود والمواد الغذائية^(٣) وقد جاء هتلر الآن ليمتج الفرصة لفرانكو لتحقيق وعده ، ووصل في قطاره الخاص الى بلدة « هنداي » الواقعة على الحدود الفرنسية - الاسبانية في الثالث والعشرين من تشرين الأول ، لكن أحداثاً كثيرة وقعت بين عرض حزيران والمطالبة بالتحقيق في تشرين الاول ، ولعل أهمها صمود بريطانيا امام المانيا . ولذا فقد قدر لهتلر ان يواجه مفاجأة غير سارة .

ولم يتأثر الاسباني الداهية بتبجح هتلر بأن « انكلترا قد هزمت هزيمة حاسمة » ، كما لم يقتنع بوعد هتلر بأن يعطي اسبانيا تعويضات اقليمية في افريقيا الشمالية الفرنسية « الى الحد الذي يكون في الامكان التعويض على خسارة فرنسا من المستعمرات البريطانية » . ولكن فرانكو يريد الامبراطورية الفرنسية الافريقية

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ٩١ - ٩٧ ، ١٠٤ - ١٠٨ .
٢ - يبدو من هذا ان المطامع الاستعمارية واحدة عند جميع الدول الاستعمارية - العرب .
٣ - وثائق وزارة الخارجية الالمانية (٩) ص ٦٢٠ - ٦٢١ .

كلها ، دون أية قيود أو شروط . وكان اقتراح هتلر ان تدخل اسبانيا الحرب في كانون الثاني عام ١٩٤١ ، ولكن فرانكو أشار الى الاخطار المترتبة على هذا العمل المتأخر . وأراد هتلر من الاسبانيين ان يهاجموا جبل طارق في العاشر من كانون الثاني بمساعدة اخصائيين من الألمان الذين اشتركوا في احتلال قلعة « ايبيي ايمابل » البلجيكية من الجو . ورد فرانكو بشيء من الكبرياء الاسباني المعروف بأن الاسبانيين « وحدهم » ، هم الذين يجب ان يحتلوا جبل طارق . وهكذا ظل الديكتاتوران يتصارعان تسع ساعات . ويقول الدكتور شميدت الذي شهد المقابلة ايضاً ، ان فرانكو ظل يتكلم ، ويتكلم بصوت رتيب متصل ، وسرعان ما تضايق هتلر واشتد ضيقه ، قافزاً حيناً ، كما فعل ذات مرة مع تشمبرلين ليهتف صارخاً انه لم يعد يرى فائدة من استمرار الحديث ^(١) .

وقال فيما بعد يروي لموسوليني التجربة القاسية التي مر بها مع الكوديلو .. « انني لأؤثر أن ألقع ضرراً أو ضرسين أو ثلاثة أو اربعة من اضرامي ، على ان أمر بهذه الحنة مرة ثانية » ^(٢) .

وبعد تسع ساعات حان أثر انتهائها موعد العشاء مع هتلر في عربة طعامه الخاصة ، توقفت المحادثات تلك الليلة دون ان يتعهد فرانكو بصورة محددة بالدخول في الحرب . وترك هتلر وزير خارجيته ريبنتروب ليواصل تلك الليلة محادثاته مع سيرانو سونر وزير خارجية اسبانيا ، وليحاول اقناع الاسبانيين بتوقيع شيء ما على الأقل ، كاتفاق لاجراج البريطانيين من جبل طارق ، واغلاق الباب الغربي للبحر الأبيض المتوسط أمامهم . ولكن جميع محاولاته ذهبت ادراج الرياح . وراح ريبنتروب يسب ويشتم فرانكو في الصباح التالي امام ترجمانه

١ - شميدت - ترجمان هتلر . ص ١٩٦ . يقدم الترجمان وصفا كاملا الى حد ما لما دار من ابحاث . اما ما ورد في كتاب وزارة الخارجية الامريكية « الحكومة الاسبانية والمحور » فليس الا مقتطفات من هذه الوقائع . اما ابريك كوردت الذي شهد المحادثات فيعطي وصفا أكثر تفصيلا في مذكرته التي لم تطبع .

٢ - اوراق شيانو الدبلوماسية ن ٤٠٢ .

شميدت قائلاً : « يا له من جبان ناكر للجميل . انه مدين لنا بكل شيء ، وها هو يحاول الآن التملص من الانضمام إلينا » (١) .

وسارت مقابلة هتلر مع بيتان في بلدة مونتوار في اليوم التالي على نحو أفضل . ولعل السبب في ذلك ان المشير الانهزامي الخرف ، بطل معركة فردان في الحرب الكونية الأولى والصعب المباشر في الاستسلام الفرنسي في الحرب الثانية قد وافق على تعاون فرنسا مع محتليها في آخر محاولة لارغام بريطانيا ، حليفها السابقة ، على الركوع على قدميها . وقد وافق بالفعل على تدوين هذه الصفقة الغريبة خطياً :

« لدولتي المحور وفرنسا مصلحة مشتركة ومماثلة في تحقيق هزيمة انكلترا في اسرع وقت ممكن . ولهذا الغاية فإن الحكومة الفرنسية ستؤيد ضمن حدود طاقاتها وامكانياتها الاجراءات التي قد تتخذها دولتا المحور للوصول الى هذا الهدف » (٢) .

وقد تقرر ان تعطى لفرنسا مكافأة لها على خيانتها هذه ، « المكانة التي تستحقها في اوروبا الجديدة » كما ستعطى في افريقيا تعويضات يقدمها اليها الديكتاتوران الفاشيان من اراضي الامبراطورية البريطانية مقابل ما قد ترغم على التنازل عنه للدول الاخرى . وقد قرر الفريقان ابقاء هذا الاتفاق « سرياً للغاية » (٣) .

١ - شميدت - ترجمان هتلر ص ١٩٧ .

٢ - يوجد نص اتفاق مونتوار بين وثائق وزارة الخارجية الالمانية المصادرة ، ولكن وزارة الخارجية الامريكية لم تكن قد نشرت هذا النص عندما تم وضع هذا الكتاب . لكن ويليام لانغر يروي في الصفحتين ٩٤ و ٩٥ من كتابه « مقامرتنا في فيشي » هذا النص كما استقاه من الوثائق الالمانية التي وضعتها وزارة الخارجية تحت تصرفه .

٣ - على الرغم من ان تشرشل وروزفلت كانا على جهل بمحتويات هذا الاتفاق السري الذي عقد في مونتوار ، الا انهما توقعا اسوأ شيء ممكن . وبعث ملك انكلترا عن طريق المبعوث الامريكي نداء شخصياً الى بتان طلب اليه فيه ان لا يقف ضد بريطانيا . وكانت الرسالة التي بعث بها الرئيس روزفلت الى المشير ، صارمة ، وقد صيغت في عبارات قاسية ، وحدره فيها من النتائج السيئة التي قد تؤدي اليها خيانة فرنسة فيشي لبريطانيا (راجع كتاب ويليام =

ولم يكن هتلر راضياً حتى عن هذه التساهلات الجهورية وغير الشريفة ، ويقول الدكتور شميدت ان هتلر طلب المزيد ، ولم يكن يقنعه شيء أقل من اشتراك فرنسا الفعلي في الحرب ضد بريطانيا . وعندما عاد الترجمان الرسمي مع الفوهرر في رحلته الطويلة الى ميونيخ ، وجده في حالة من خيبة الأمل والحزن للنتائج التي حققها في رحلته . وقد ازدادت هذه الحالة سوءاً في فلورنسا ، عندما وصل اليها في صباح الثامن والعشرين من تشرين الأول لمقابلة موسوليني .

وكان الديكتاتور ان قد اجتمعاً قبل ثلاثة اسابيع فقط أي في الرابع من تشرين الأول عند ممر برينير . وكان هتلر كعادته دائماً قد تولى معظم الحديث ، مقدماً صورة مدهشة من صورته المألوفة التي يحوب فيها جميع الآفاق ، دون ان يذكر شيئاً عن ارساله قواته الى رومانيا التي تتشهاها ايطاليا ايضاً . وعندما وصل هذا النبأ الى مسامع الدوتشي بعد بضعة ايام ، هاج غضباً ، وارغى وازبد لشيانو قائلاً :

« يواجهني هتلر دائماً بالأمر الواقع . وانني لعازم هذه المرة على ان أرد له الثمن بنفس العملة التي يستعملها . وستواجهه الصحف بالمفاجأة المذهلة ، وهي اننا احتلنا اليونان . وبهذه الطريقة سنتمكن من اعادة التوازن الى نصابه » (١) .

وكانت مطامح الدوتشي في البلقان لا تقل هوساً عن مطامح هتلر نفسه ، وكثيراً ما تتعارض معها ، مما حمل الألمان على تحذير رومه في منتصف شهر آب من أية مغامرات في يوغوسلافيا واليونان . ودون شيانو في يوميته بتاريخ السابع عشر من آب يقول : « انه اشبه ما يكون بالأمر الكامل لنا للتوقف على طول الخط » . وعدل موسوليني لفترة ما على الأقل عن مشاريعه لاحراز مجد عسكري

لانفر - مقامرتنا في فيشي - الصفحة ٩٧ . وقد سمح للاستاذ لانفر لاصدار هذا الكتاب بدراسة بعض الوثائق الألمانية التي لم تسمح الحكومتان البريطانية بنشرها حتى بعد احد عشر عاماً من صدور الكتاب .

١ - بوميات شيانو ص ٣٠٠ .

جديد في البلقان ، وأكد عدوله هذا في رسالة ذليلة بعث بها الى هتلر في السابع والعشرين من آب . ولكن تلهفه الى فتح سهل وسريع في اليونان يعوّض به شيئاً عما اصاب سمعته من انهيار من جراء انتصارات شريكه المتألفة ، كان اغراءً ضخماً للقيصر الفاشي المزهو بنفسه ، لم يستطع مقاومته ، على الرغم من انه لم يكن اكثر من مجرد سراب خادع كما اثبتت الحقائق ذلك .

وحدد في الثاني والعشرين من تشرين الأول اليوم الثامن والعشرين منه موعداً للقيام بهجوم ايطالي مفاجيء على اليونان ، وراح في اليوم نفسه يسطر رسالة الى هتلر أرخها في التاسع عشر من تشرين الأول ، مشيراً فيها الى العمل الذي يتصور القيام به ، لافتاً اياه بالغموض عن طبيعة العمل وموعده . ودون شيانو في نفس اليوم في يومياته ان الدوتشي كان يخشى من ان يقوم « الفوهرر » باصدار امره اليه بالامتناع عن هذا العمل . وسمع هتلر وريبنتروب في طريق عودتهما من فرنسا في قطارهما الخاصين بخطط موسوليني ، وتوقف وزير خارجية النازي بأمر من الفوهرر في اول محطة في المانيا ليهتف الى شيانو في رومه وليحثه على عقد اجتماع فوري لزعمي المحور . واقترح موسوليني ان يعقد الاجتماع في فلورنسة في الثامن والعشرين من تشرين الأول ، وعندما نزل زائره الألماني من قطاره في صباح ذلك اليوم استقبله في المحطة وقد شمخ بأنفه وتألقت عيناه ببريق عجيب قائلاً : « لقد بدأنا زحفنا الى الفوهرر ! إن الجنود الايطاليين الظافرين عبروا الحدود اليونانية - الالبانية في صباح هذا اليوم »^(١).

وتقول جميع الروايات ، ان موسوليني طرب كالاطفال لهذا العمل الذي اراد منه ان يثار لنفسه من صديقه بالنسبة الى جميع المناسبات السابقة التي كان فيها الديكتاتور النازي قد زحف الى بلاد ما ، دون ان يأتمن حليفه الايطالي على السر قبل وقوعه . وهاج هتلر وماج . فهذا العمل الأهوج ضد عدو صعب

١ - تذكر ريبنتروب هذه الكلمات في شهادته امام محكمة نورمبرغ كما تذكرها شميدت

في كتابه ترجمان هتلر - ص ٢٠٠ .

المراس في مثل هذا الوقت من السنة الذي يعتبر من اسوأ الاوقات يهدد بقلب الاوضاع في البلقان . وكان الفوهرر ، كما كتب لموسوليني فيما بعد ، قد طار الى فلورنسة ، أملأ في منع هذا العمل المتهور ، ولكنه وصل متأخراً ، وبعد فوات الأوان . ويقول شميدت الذي شهد المقابلة ان الزعيم النازي تمكن من السيطرة على غضبه ... فقد روى في كتابه :

« ومضى هتلر الى الشمال بعد ظهر ذلك اليوم ، والمرارة تغصر فؤاده . لقد اصيب بخيبة الأمل ثلاث مرات ، الأولى في هيندباي والثانية في مونتوار وهذه الثالثة في ايطاليا . وكانت ذكريات هذه الرحلات الطويلة المجهدة ، تعود دائماً الى تخيلته في ليالي الشتاء الطويلة في السنوات القليلة الباقية من حياته فتسبب له الألم ، وتحمله على توجيه اعنف اللوم الى هؤلاء الاصدقاء الناكرين للجحيم والناكشين لليهود من شركاء المحور ومن الفرنسيين « المخادعين » (١) . وتحتم عليه الآن على أي حال ان يعمل شيئاً ليمضي في حربة ضد بريطانيا بعد ان استحال عليه غزوها . ولم يكفد الفوهرر يعود الى برلين حتى كانت الحاجة الى العمل ، قد تضاعفت عنده بسبب مهزلة جيوش الدوتشي في اليونان ، فقد انقلب الهجوم الايطالي « الظافر » هناك الى هزيمة . ودعا هتلر في الرابع من تشرين الثاني الى مؤتمر حربي في دار المستشارية في برلين ، دعا اليه كلا من براوختش وهولدر من قيادة الجيش ، وكايتل ويودل من القيادة العليا للقوات المسلحة . ويرجع الفضل الى يوميات هولدر والى نسخة مصادرة من تقرير يودل الى الاسطول ، في معرفة قرارات سيد الحرب ، التي ضمنها توجيهه الثامن عشر الذي اصدره في الثاني عشر من تشرين الثاني والذي عثر على نصه بين وثائق نورمبرغ (٢) .

١ - شميدت - ترجمان هتلر . ص ٢٠٠ .

٢ - هولدر - يوميات بتاريخ ٤ تشرين الثاني ١٩٤٠ - تقرير يودل الى الاميرال شنايويند في نفس التاريخ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ١١٢ - ١١٧ .
والتوجيه الثامن عشر في « المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٤٠٢ - ٤٠٧ » .

واتضح تأثير الاسطول الألماني على خطط هتلر السوقية ، كما اتضحت ضرورة القيام بعمل تجاه الحليف الإيطالي المترنح . ولاحظ هولدر « افتقار الفوهرر الى الثقة » بالقيادة الإيطالية . وقد تقرر على ضوء هذه النتيجة عدم ارسال قوات المانية الى ليبيا حتى تكون قوات المسترودلفو غرازياني الإيطالية التي كانت قد تقدمت ستين ميلاً داخل مصر باتجاه سيدي براني ، قد وصلت الى مرسى مطروح التي تقع على بعد خمسة وسبعين ميلاً على طول الشاطئ ، وهو ما لم يكن متوقعاً قبل عيد الميلاد ان وقع فعلاً . وتقرر في غضون ذلك اعداد بعض الخطط لايفاد عدد من طائرات الانقضاض الى مصر لمهاجمة الاسطول البريطاني في الاسكندرية وزرع الالغام في قناة السويس .

واعترف هتلر لقادته العسكريين بأن الهجوم الإيطالي في اليونان كان عملاً من اعمال الطيش والرعونة التي يؤسف لها كل الأسف وعرضت مركز المانيا في البلقان الى خطر كبير . وقد تمكن البريطانيون باحتلالهم جزيرتي كريت وليمنوس من الفوز بقواعد جوية يستطيعون منها قصف حقول الزيت الروماني بسهولة كما تمكنوا بارسال قوات الى البر اليوناني من تهديد مركز الألمان في البلقان كله . ولمواجهة هذا الخطر أمر هتلر الجيش بأن يعد خططه فوراً لغزو اليونان عن طريق بلغاريا بقوة لا تقل عن عشر فرق وان يكون ارسالها عبر رومانيا أولاً . و اضاف « انه يتوقع بأن تلتزم روسيا جانب الحياد » .

ولكن هتلر خصص جماع حديثه في مؤتمر الرابع من تشرين الثاني والقسم الاكبر من توجيهه الثامن عشر الذي صدر بعد المؤتمر ، لموضوع تحطيم مركز بريطانيا في غرب البحر المتوسط ، فقد ورد في التوجيه ما يلي :

« يجب احتلال قاعدة جبل طارق ، واغلاق مضيقها .

« ومن الواجب منع البريطانيين من الحصول على موطىء قدم

آخر في أية نقطة في شبه جزيرة ايبيريا (اسبانيا والبرتغال) أو

جزر الاطلسي القريبة منها » .

وتقرر اطلاق اسم « فيلكس » الرمزي على عملية الاستيلاء على جبل

طارق وجزر الكناريا الاسبانية وجزر الرأس الأخضر البرتغالية . وعهد الى الاسطول بدراسة احتمال احتلال جزر ماديرا والآزور البرتغالية ايضاً . وقد تضطر المانيا الى احتلال البرتغال نفسها . وتقرر ان يطلق على هذه العملية الاسم الرمزي « ايزابيلا » ، وان يعهد الى ثلاث فرق المانية بحري حشدتها على الحدود الاسبانية البرتغالية بتنفيذ هذه المهمة .

وتقرر اطلاق سراح بعض وحدات الاسطول الفرنسي للسماح لقسم من قواتها لتتمكن فرنسا من الدفاع عن ممتلكاتها في شمال غربي افريقيا ضد البريطانيين وضد ديغول . ومضى هتلر يقول في توجيهه « ومن هذه المهمة التمهيدية يمكن تطوير امراك فرنسا في الحرب ضد انكلترا » .

وقد مضت خطط هتلر الجديدة ، كما اوضحت للقادة العسكريين في اجتماع الرابع من تشرين الثاني وحددت في التوجيه الصادر بعد اسبوع ، في سرد التفاصيل الحربية الدقيقة ولا سيما بصدد قيام الألمان بتوجيه ضربة جريئة لاحتلال جبل طارق . ويبدو ان هذه الخطط قد اثرت كل التأثير على القادة العسكريين الذين رأوا فيها الدهاء والجرأة مجتمعين . ولكن هذه الاجراءات كانت ناقصة في الواقع ، ولم يكن ممكناً ان تحقق اهدافها ، واستندت الى حد ما الى خداعه لفرقائه العسكريين . فلقد اكد لهم في الرابع من تشرين الثاني ، كما دون هولدر في يومياته ، انه تلقى قبل قليل وعداً جديداً من فرانكو بدخول الحرب « وهو ما لم يقع مطلقاً » كما روينا قبل قليل . وليس ثمة من شك في ان الاهداف التي حددت باخراج البريطانيين من البحر الأبيض المتوسط كانت سليمة ، ولكن القوات التي عهد اليها باتمام المهمة لم تكن كافية ، ولا سيما بالنظر الى ما هي عليه ايطاليا من ضعف .

وقد بينت هيئة اركان البحرية هذه الحقيقة بمذكرة شديدة اللهجة سلمها امير البحر ريدير الى هتلر في الرابع عشر من تشرين الثاني^(١) و اشار الضباط

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية - (١٩٤٠) ص ١٢٥ .

البحريون في مذكراتهم الى ان الكارثة الايطالية في اليونان بعد ان صدت القوات الايطالية الى البانيا ، وكانت لا تزال تتراجع حتى ذلك التاريخ ، لم تحسن مركز بريطانيا السوقي في البحر الابيض فحسب ، بل قوت من سمعة بريطانيا ومركزها في جميع انحاء العالم . و اضافوا يقولون بصراحة لهتلر : « اما بالنسبة الى الهجوم الايطالي على مصر ، فان ايطاليا لن تتمكن أبداً من تحقيق الهجوم العام في مصر . والقيادة الايطالية في وضع تعس للغاية . اذ انها لا تفهم شيئاً عن الموقف ولا تحظى القوات الايطالية المسلحة بالقيادة او الكفاية العسكرية اللتين تتمكن عن طريقهما من القيام بالعمليات المطلوبة في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، والوصول بها الى نتيجة ناجحة بالسرعة والحسم المطلوبين » .

وانتهت مذكرة البحرية الى القول بأن على المانيا والحالة هذه ان تحمل اعباء هذه المهمة على عاتقها . ومضت تحذر هتلر قائلة بأن « القتال في المنطقة الافريقية هو الهدف السوقي الأول للحرب الألمانية في مجموعها ... وليس ثمة من شك في ان هذا القتال ذو اهمية حاسمة بالنسبة الى نتيجة الحرب كلها » .

لكن الديكتاتور النازي لم يقتنع بهذا القول . فلقد عجز طيلة الوقت عن تصور أهمية الحرب في البحر الأبيض المتوسط وشمال افريقيا ، ولم يعتبرها إلا ثانوية بالنسبة الى هدفه الرئيسي . وعندما شرح امير البحر ريدر له في اجتماعها في الرابع عشر من تشرين الثاني مفاهيم البحرية السوقية ، رد هتلر بأنه « لا يزال ميالاً الى عرض قوته العسكرية في روسيا » ^(١) ، وكانت هذه الرغبة قد تقوّت لديه في ذلك اليوم بصورة فاقت ما أحس به في أي وقت ، اذ كان مولوتوف ، قد غادر برلين قبل قليل من ذلك الصباح بعد أن اثار حنق الفوهرر وسخطه . وعندما قام امير البحر بمقابلة الزعيم بعد يومين من انتهاء عيد الميلاد ، ليرفع اليه تقريراً عن الطريقة التي تأخر الألمان فيها عن اللحاق « بالباص » في

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤٠) ص ١٢٤ .

البحر الأبيض المتوسط لم يحس هتلر باضطراب زائد ، أو ازعاج فوق العادة . ولم يُلْقِ اذنا صاغية لأقوال ريدير بأن انتصار البريطانيين على الايطاليين في مصر ^(١) وتزايد المعونة المادية التي تتلقاها من امريكا يتطلبان تركيز جميع موارد المانيا لارغام بريطانيا على الركوع ، كما يتطلبان تأجيل عملية « بربروسه » الى ان يتم دحر بريطانيا وهزمها .

وقال هتلر لأمير بحره : « من واجبنا بالنظر الى التطورات السياسية الراهنة ، وخاصة الى تدخل روسيا في شؤون البلقان ، ان نقضي مهما كان الثمن على آخر عدو لنا في القارة الأوروبية قبل ان نشتبك في المعركة الفاصلة مع بريطانيا » . وقدر له منذ هذه اللحظة حتى نهايته المرة ان يتمسك تمسكاً

١ - كانت قوة بريطانية صحراوية مفككة العرى قد تمكنت في هذا الوقت من اخراج قوات ايطالية تبلغ ثلاثة اضعافها من الاراضي المصرية بعد أن أسرت نحواً من (٢٨) الف ايطالي دون ان يخسر الا (١٣٣) قتيلاً و (٣٨٨) جريحاً وثمانية مفقودين . وقد تالفت القوة البريطانية المهاجمة من فرقة مدرعة واحدة ، وفرقة هندية من المشاة ، ولواءين بريطانيين من المشاة وكتيبة دبابات ملكية مجموع تعداد جنودها كلها لا يربو على الواحد والثلاثين الفا . وكان الهجوم البريطاني المضاد بقيادة الفريق السير ارشيبالد ويفل قد بدأ في السابع من كانون الاول ، وتمكن في اربعة ايام من الحاق الهزيمة بقوة المشير غرزاياي . وتحول الهجوم المضاد المحدود الذي بدأ في خمسة ايام الى هجوم عام دام حتى السابع من شباط ، تمكن الجيش البريطاني في غضونه من الاندفاع عبر برقة كلها مسافة نحو من خمسمائة ميل ومن ابادته جيش ايطالي كامل يضم عشر فرق في ليبيا ، بعد ان أسر (١٣٠) الف ايطالي ، ومن الاستيلاء على (١٢٤٠) مدفعاً وخمسمائة دبابة دون ان يخسر الا خمسمائة قتيل و (١٣٧٣) جريحاً وخمسة وخمسين مفقوداً . ويقول الكاتب البريطاني العسكري المعروف الفريق جي. اف. فولر ، « ان هذه الحملة من أغرب ما شهدته تاريخ الحروب من حملات » . (فولر - الحرب العالمية الثانية ص ٩٨) .

وتلقى الاسطول الايطالي ايضاً ضربة قاتلة . فقد قامت القاذفات البريطانية من حاملة الطائرات « الستريوس » التي كان السلاح الجوي الالماني قد ادعى اغراقها من قبل ، في ليلة الحادي عشر - الثاني عشر من تشرين الثاني بمهاجمة وحدات الاسطول الايطالي الراسية في ميناء تارانتو وعطلت عن العمل لعدة اشهر ثلاث بوارج وطرادين . وبدأ شيانو يوميته في الثاني عشر من الشهر المذكور قائلاً : « حقاً انه ليوم أسود . لقد أغرق البريطانيون دون انذار الدارعة كافور والحقوا اضرارا خطيرة بالبارجتين ليتوريو ودوليو » .

أعنى هذه الفكرة السوقية الجوهرية .

ووعده هتلر بترضية منه لقائده البحري « ان يعاود الكرة للتأثير على فرانكو » وذلك ليحقق هجومه على جبل طارق ، ويفلق البحر الأبيض المتوسط في وجه الاسطول البريطاني . ولكنه كان في الحقيقة قد تخلى عن هذه الفكرة كلياً . واصر في الحادي عشر من كانون الأول بمنتهى الهدوء أمراً يقضي « بالعدول عن عملية فيلكس ، اذ ان الأوضاع السياسية التي اقتضتها لم تعد قائمة » . ولكنه ما عثم تحت إلهاف قيادة اسطوله وإلحاح الايطاليين بالتشديد على فرانكو ، ان بذل محاولة أخيرة ، رغم ما فيها من ألم شخصي له . ووجه في السادس من شباط عام ١٩٤١ رسالة مطولة الى الديكتاتور الاسباني قال فيها : « أرى من الواجب أيها الكوديلو ، ان اوضح لك شيئاً واحداً ، وهو اننا نخوض معركة الحياة أو الموت ، وأن ليس في وسعنا في الحاضر ان نفدق الهبات والهدايا ...

وليس ثمة من شك في ان المعركة التي تخوضها المانيا وايطاليا الآن ، ستقرر مصير اسبانيا ايضاً . ولا يمكن لعهدك في اسبانيا ان يستمر إلا اذا انتصرنا في هذه المعركة » (١) .

ومن سوء حظ المحور ، ان هذه الرسالة وصلت الى الكوديلو (لقب اسباني يطلق على فرانكو) ، في نفس اليوم الذي أتم فيه البريطانيون محو آخر ما تبقى من قوات المشير غرازياني في برقة الى الجنوب من بنغازي . ولم يكن من المستغرب والحالة هذه ، ان يقول فرانكو عندما شرع يرد على هتلر في السادس والعشرين من شباط عام ١٩٤١ ، بعد تأكيد « ولائه المطلق » للمحور ، ان التطورات التي وقعت مؤخراً ، قد نسخت اوضاع تشرين الاول ، وبات التفاهم الذي تم في ذلك الحين بينه وبين الفوهرر « شيئاً باطلاً فات وقته » . وأقر هتلر هذه المرة ، وهي واحدة من مرات قليلة في حياته العاصفة

بالحزيمة. وراح يكتب لموسوليني قائلاً « ان زبدة ما تضمنته ثروة الاسباني المزعجة هو ان اسبانيا لا تريد ان تدخل الحرب ولن تدخلها . وليس ثمة من شك في ان هذه الحقيقة مزعجة كل الازعاج ، لأنها تعني ان امكانية توجيه ضربة الى بريطانيا بأسهل سبيل قائم ، في ممتلكاتها الافريقية ، قد زالت من الوجود مؤقتاً » .

وكانت ايطاليا لا اسبانيا ، هي مفتاح هزيمة بريطانيا في البحر المتوسط ، ولكن وضع الامبراطورية الايطالية المتهاوية لم يكن كافياً لمواجهة هذه المهمة وحده ، ولم يكن هتلر نفسه حكيماً الى الحد الذي يدفعه الى ان يقدم اليها الوسائل التي يملكها ، لتحقيق هذه المهمة . وقد اعترف الآن ان احتمال توجيه الضربة الى بريطانيا اما مباشرة عبر القناة الانكليزية ، أو بصورة غير مباشرة ، عبر البحر المتوسط الأوسع مدى ، قد زال من الوجود « في الوقت الحاضر » . وعلى الرغم مما في هذه الحقيقة من مرارة وخيبة أمل ، إلا ان مجرد الاعتراف بها قد خلق راحة نفسية لهتلر ، إذا كان في وسعه الآن ان يستدير يجماع اهتمامه الى نواح اقرب الى عقله وقلبه من غيرها .

وعقد في الثامن والتاسع من كانون الثاني عام ١٩٤١ ، مجلساً حريباً في « عش النسر » فوق برختسفادن ، الذي كانت الثلوج تغطيه « في هذا الوقت من السنة . ويبدو ان هواء الجبال قد انعشه وصفى تفكيره ، وراح من جديد كما توضح التقارير السرية المطوّلة التي وضعها امير البحر ريدر والفريق هولدر^(١) عن الاجتماع ، يحول بأفكاره آفاقاً واسعة ، وهو يحدد خططه السوقية العظمى لقادته العسكريين . وقد استعاد في هذه الجولات الضخمة تفاؤله . اذ دون ريدر قائلاً :

« يبدو الفوهرر على يقين من ان الوضع في اوروبا لا يمكن ان

١ - يوجد تقرير ريدر في « مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤١) ص ٨ - ١٣ .
اما هولدر فلم يدون ما دار فيه اجتماعات هذين اليومين حتى السادس عشر من كانون الثاني عام ١٩٤١ .

يتطور تطوراً غير مواتٍ لمانيا حتى ولو خسرتنا افريقيا الشمالية كلها . وقد بات موقفنا في اوروبا وطيد الاركان الى الحد الذي يضمن ان لا تكون النتائج ضد مصلحتنا ... ولا يمكن لبريطانيا ان تأمل في كسب الحرب إلا اذا هزمتنا في القارة الأوروبية . يؤمن الفوهرر ايماناً جازماً بأن هذا مستحيل كل الاستحالة » .

وقد اعترف بأن غزو بريطانيا المباشر « لا يمكن ان يتحقق إلا اذا شلت هذه عن الحركة الى حد كبير ، وإلا اذا أحرزت المانيا التفوق الجوي الكامل ، و اضاف ان على الاسطول والقوة الجوية ان يركزا على مهاجمة طرقها الملاحية ومداخلها لقطع التموينات عنها . وهو يعتقد ان مثل هذه الهجمات « قد تؤدي الى النصر في موعدٍ لا يبعدو تموز أو آب القادمين » . ومضى يقول ان على المانيا في غضون ذلك ، « ان تقوي نفسها تقوية كلية على القارة الأوروبية بحيث تتمكن من ان تقود حرباً أخرى ضد انكلترا (وامريكا ايضاً) » . ولا ريب في ان ورود اسم امريكا ، للمرة الأولى في الوثائق الألمانية المصادرة ، مهم كل الأهمية ، اذ دلل على ان هتلر بات يواجه في مستهل عام ١٩٤١ ، احتمال دخول الولايات المتحدة الامريكية الحرب ضده .

وتناول سيد الحرب النازي بعد ذلك ، المناطق السوقية المختلفة ، محلاً مشاكلاً ، وما يعتزم عمله تجاهها . ودون ريدر في مذكراته قائلاً : « يرى الفوهرر أن من الأمور الجوهرية بالنسبة الى نتيجة الحرب ، ان لا تنهار ايطاليا ... ولهذا فهو عازم على الحملولة دون خسارتها لشمال افريقيا ... اذ ان هذه الخسارة تؤدي الى اصابة سمعة المحور ، بضربة شديدة ... ولهذا فقد قرر ان يقدم لايطاليا عونهُ » .

وعندما وصل الى هذه النقطة ، راح يحذر قادته العسكريين من البوح بالخطط الألمانية المقبلة وقال : « انه لا يرغب في ابلاغ الايطاليين حقيقة خططنا : فهناك

خطر كبير ماثل في الاسرة الايطالية المالكة تقوم بنقل المعلومات الى بريطانيا » .

واعلن هتلر ان العون لاطاليا سيتألف من تزويدها ببعض الوحدات المضادة للدبابات وبعض اسراب الطائرات الألمانية ، لإرسالها الى ليبيا . ولعل ما هو أهم من هذا ، قراره بإيفاد فيلق الماني يضم فرقتين ونصف الفرقة لدعم الايطاليين المتراجعين في البانيا ، التي شرع اليونانيون يزحفون داخلها . و اضاف ان من الواجب وضع « عملية ماريتا »^(١) موضع التنفيذ الآن . ولهذا يتوجب نقل القوات من رومانيا الى بلغاريا فوراً ، بحيث يغزو في الامكان البدء بعملية ماريتا في السادس والعشرين من آذار . وتحدث هتلر بأسهاب ايضاً عن الحاجة الى المضي في « عملية اتيلا » ، وهي من العمليات التي تحمل اسماء رمزية والتي لاحد لها ولا حصر . وكان قد حدد هذه العملية في توجيهه في العاشر من كانون الأول عام ١٩٤٠ . وهي تقضي باحتلال ما تبقى من فرنسا ، والاستيلاء على الاسطول الفرنسي في طولون . وقد رأى هتلر الآن ان من الواجب تنفيذ هذه الخطة فوراً . فإذا ما ابدت فرنسا بعض المعارضة أو الإزعاج ، فمن الواجب سحقها سحقاً كاملاً . وكان هذا الرأي خرقاً فاضحاً لاتفاق هدنة كومبيين ، ومع ذلك لا نرى فيما كتبه هولدر أو ريدر ، أي فريق عسكري أو امير بحر ، يثير هذا الموضوع أو يعترض عليه .

وفي هذا المؤتمر العسكري نفسه ، اطلق هتلر على ستالين لقب « البلطجي المتعمد » ، وابلغ قادته العسكريين وجوب ارغام روسيا على الركوع على ركبتيها « في اسرع وقت ممكن » ... ومضى هتلر يقول :
« واذا قدر للولايات المتحدة وروسيا ان تدخلا الحرب ضد

١ - حددت عملية ماريتا في التوجيه العشرين الذي صدر في الثالث عشر من كانون الاول عام ١٩٤٠ . وتقضي هذه العملية بتجميع جيش يضم اربعا وعشرين فرقة في رومانيا والزعحف بها على اليونان عبر اراضي بلغاريا ، حالما يتحسن الطقس لتحقيق هذه العملية ، وقد وقع هتلر نفسه هذا التوجيه . (المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ١٠١ - ١٠٣) .

المانيا (كانت هذه هي المرة الثانية التي يشار فيها الى احتمال دخول امريكا) ، فإن الموقف يغدو معقداً للغاية . ومن هنا تنشأ الضرورة لازالة كل خطر قد ينجم من هذا الاحتمال منذ البداية . واذا تمكنا من القضاء على الخطر الروسي ، بات في وسعنا ان نخوض الحرب ضد بريطانيا الى أجل غير مسمى . واذا انهارت روسيا ، فإن انهيارها سيريح اليابان راحة كبرى ، ويؤدي هذا بدوره الى تزايد الخطر على الولايات المتحدة » .

كانت هذه هي افكار الديكتاتور النازي في مطلع عام ١٩٤١ عن الخطط السوقية العالمية . وما لبث ان ضمن هذه الافكار في توجيهه الثاني والعشرين ، الذي اصدره في الحادي عشر من كانون الثاني أي بعد يومين من انتهاء المؤتمر العسكري . وتقرر ان تتحرك النجيدات الألمانية الى طرابلس بموجب « عملية عبّاد الشمس » (Sunflower) وان تتحرك الى ألبانيا بموجب عملية « الزنابق الالبية ^(١) » (Alpine Violets) .

العالم يقف لاهثاً متقطع الانفاس

استدعى هتلر موسوليني للشول امامه في عشاء النسرين في يومي ١٩ و ٢٠ كانون الثاني ولم يكن هذا ميالاً الى تلبية الدعوة والقيام بالرحلة ، بعد ان حطمته وأذلته المتاعب التي واجتها قواته في مصر واليونان . ورآه شيانو « متجههم الوجه شديد العصبية » عندما استقبل قطاره الخاص ، وقد سيطرت عليه الخشية من ان يجد هتلر وريينتروب والفرقاء الألمان في موقف مهين له . وقد استصحب الدوتشي معه ليزيد الامور سوءاً الفريق الفريدو غوزوني مساعد رئيس هيئة اركان الحرب الذي وصفه شيانو في يومياته بأنه رجل عادي مكتنز البطن ،

١ - نص التوجيه (٢٢) والامور التكميلية التي تذكر الاسماء الرمزية للعمليات في المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٤١٣ - ٤١٥) .

مضبوغ الشعر ، ورأى ان في تعريفه الى الألمان مذلة ومهانة لاطاليا .
ودهش موسوليني وسري عنه ، عندما وجد هتلر ، الذي جاء لاستقباله
على رصيف محطة توش الذي تكسوه الثلوج ، جم التهذيب والدمائة ، لا يفوه
بحرف واحد من التأنيب لسجل ايطاليا المحزن في ميادين القتال . ودون
شيانو في يومياته ايضاً ، انه وجد مضيفه في حالة مزاجية معادية لروسيا اشد
العداء . وظل الفوهرر زهاء ساعتين في اليوم الثاني يحاضر ضيوفه الايطاليين
وحشداً من القادة العسكريين من البلدين . ويؤيد تقرير سري اعده الفريق
بودل (١) ان الفوهرر على الرغم من توفقه لمساعدة الايطاليين في البانيا وليبيا ،
كان يركز افكاره بصورة رئيسية على روسيا ؛ اذ قال :

« انا لا ارى كبير خطر من امريكا حتى ولو دخلت الحرب
ضدنا . أما الخطر الاكبر فيمثل من قوة روسيا الضخمة . وعلى الرغم
من اننا نملك اتفاقات اقتصادية وسياسية مواتية مع روسيا إلا اني
أوثر الاعتماد على وسائل العنف القائمة تحت تصرفي . »

وعلى الرغم من اشارته الى ما ينتوي فعله « بوسائل العنف » الا انه لم يفصح
عن حقيقة خطته لشريكه . لكن الإعداد لاستخدام هذه الوسائل كان قد
قطع شوطاً بعيداً الى الحد الذي مكن رئيس هيئة اركان حرب الجيش من
تقديم تفاصيل الخطط التي وضعها لقائده الأعلى في جلسة عقدت في برلين بعد
اسبوعين .

وقد استغرق هذا المؤتمر العسكري الذي عقد ظهر يوم الثالث من شهر
شباط ، والذي شهده كبار فرقاء القيادة العليا للقوات المسلحة والقيادة العامة
للجيش نحواً من ست ساعات . وعلى الرغم من ان الفريق هولدر ، الذي قدم
خطط هيئة اركان حرب الجيش الى الفوهرر ، قد ادعى فيما بعد في كتابه (٢)

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٢٩ - ٩٤٦ .

٢ - هولدر - هتلر كقائد ميدان ص ٢٢ - ٢٤ .

انه وبر اوختش قد اثارا الشكوك في موضوع تقديراتهم للقوة العسكرية السوفياتية ، وعارضا بصورة عامة في عملية « بربروسه » على اعتبار انها مغامرة ، الا ان يومياته التي دوّنّها في تلك الليلة نفسها أو الوثائق المدونة للقيادة العليا للقوات المسلحة المتناهية في السرية عن الاجتماع^(١) ، لا تؤيد هذه المزاعم مطلقاً . وتظهر هذه الوثائق في الحقيقة عكس هذا الادعاء ، فقد روت ان هولدر عرض في مستهل الاجتماع تقييماً اشبه ما يكون بالتقييم التجاري عززه بالارقام للقوات الحربية المتعارضة ، ذاكرًا ان قوات العدو تبلغ نحواً من (١٥٥) فرقة وان قوة المانيا ستعادل زهاء هذا العدد تقريباً ، ولكنها تتفوق في « الكيف » والكفاية تفوقاً كبيراً . وعندما حلت الكارثة فيما بعد تبين هولدر وزملائه من الفرقاء ان معلوماتهم عن قوة الجيش الاحمر كانت خاطئة تماماً . ولكنهم في الثالث من شباط عام ١٩٤١ لم يشكوا مطلقاً في صحة هذه المعلومات . اذ كانت تقارير هولدر عن القوى المتقابلة وعن الخطط السوقية التي يجب تطبيقها لمحو الجيوش الحمراء من الوجود دقيقة الى حد الاقناع^(٢) ، حتى ان هتلر نفسه لم يكتف بالموافقة عليها « في مجموعها » فحسب ، بل اشتد تأثره من الآمال البراقة التي اثارها في خيلته رئيس هيئة اركان الحرب ، وراح يهتف بحماس :

« عندما تبدأ عملية بربروسه ، فسيقف العالم لاهثاً مقطّع الأنفاس لايحير تعليقاً أو قولاً من الدهشة . »

ولم يكن في وسعه ان ينتظر متمهلاً هذه البداية ، وانما راح يصدر أمره بفراغ صبر بأعداد خريطة العملية وخطة توزيع القوات وارسالهما اليه في اسرع وقت ممكن .

١ - المؤامرة النازية والعدوان ص ٦٢٦ - ٦٢٣ .

٢ - اعتمدت الخطط السوقية بصورة جوهرية على تلك التي حددها التوجيه الواحد والعشرون الصادر في الثامن عشر من كانون الاول عام ١٩٤٠ . وعاد هتلر في تعليقاته التي قدمها لبراوختش وهولدر يؤكد اهمية « ابادّة قسم كبير من قوات العدو » بدلا من ارقامها على التراجع . وقد اكد أيضا ان الهدف الرئيسي يجب ان يكون الاستيلاء على دول البلطيق وعلى مدينة ليننغراد .

مقدمة في البلقان

كان من الضروري لهتلر قبل ان يبدأ عملية بربروسه في الربيع ان يؤمن جناحه الجنوبي الممتد في البلقان وان يثبت دعائمه . ولم يحل الاسبوع الثالث من شهر شباط عام ١٩٤١ حتى كان الألمان قد جمعوا جيشاً ضخماً في رومانيا قوامه نحو من (٦٨٠) الف رجل ، يقف على حدود اوكرانيا التي تمتد ثلاثمائة ميل بين الحدود البولندية والبحر الأسود ^(١) . فإلى الجنوب كانت اليونان لا تزال صامدة امام الايطاليين ، وكان ثمة كل ما يبرر لبرلين اعتقادها بأن القوات البريطانية ، العاملة في ليبيا ستنقل الى اليونان بجزراً . وتكشف وقائع المؤتمرات العسكرية العديدة التي عقدها هتلر في هذه الآونة النقاب عن خشيته آنذاك ، من ان يقيم الحلفاء جبهة الى الشمال من سلافيك تكون اكثر ازعاجاً لألمانيا من الجبهة الماثلة التي حاولوا اقامتها في الحرب الكونية الماضية ، اذ تتيح للبريطانيين قاعدة تمكنهم من ضرب آبار الزيت الرومانية . يضاف الى هذا ان مثل هذه الجبهة ستشل عملية بربروسه . وكان هتلر قد توقع هذا الخطر منذ كانون الأول عام ١٩٤٠ ، عندما صدر التوجيه الأول لعملية ماريتا الذي نص على قيام هجوم الماني ضخم على اليونان عبر بلغاريا بقوات يحشدتها في رومانيا .

وقد عادت بلغاريا اليوم الى نفس الخطأ الذي وقعت فيه إبان الحرب الكونية الأولى في تقدير الجانب الذي سينتصر في الحرب . وصدقت الحكومة البلغارية ادعاءات هتلر بأنه قد كسب الحرب ، وأثملت الآمال بالحصول على اراضٍ يونانية الى الجنوب تتيح لها منفذاً الى بحر ايجه ، فسارعت الى الموافقة على الاشتراك في عملية ماريتا ، الى المدى التي تسمح فيه بعبور القوات الالمانية لاراضيها على الأقل . وعقد اتفاق سري في هذه الخطوة ^(٢) . وفي ليلة الثامن

١ - العلاقات النازية السوفياتية ص ٢٧٥ .

٢ - المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٢٧٢ - ٢٧٥ .

والعشرين من شباط عبرت وحدات من الجيش الألماني نهر الدانوب من رومانيا ،
وتركزت في مواقع ذات أهمية سوقية في بلغاريا التي انضمت في اليوم التالي الى
الميثاق الثلاثي .

ولم يكن اليوغوسلافيون المتصلبون على هذا النحو من التساهل . ولكن
عنادهم حفز الألمان على المزيد من الضغط عليهم لارغامهم على الانضمام الى
معسكرهم . واستدعي الوصي على عرش يوغوسلافيا الامير بول ليلة الرابع -
الخامس من آذار بصورة متناهية في السرية الى عش النسر لمقابلة الفوهرر ، حيث
استمع الى التهديدات المألوفة ، مع اغرائه بمدينة سلانيك كرشوة لبلاده . ووصل
الى فيينا في الخامس والعشرين من آذار دراغيشا شفيتكوفيتش رئيس وزراء
يوغوسلافيا والكساندر سينكار - ماركوفيتش وزير خارجيتها بعد ان انسلا^١
بصورة سرية في الليلة الفائتة من بلغراد تجنباً للمظاهرات المعادية او لخطر
اختطافها . ووقعا بحضور الفوهرر وريبنتروب وثيقة انضمام بلادهما الى الميثاق
الثلاثي . وقد طرب هتلر لهذا التطور وراح يبلغ شيانو انه أي التطور سيساعد
هجومه المتوقع على اليونان . وتلقى الوزيران اليوغوسلافيان قبل مغادرتهم فيينا
رسالتين من ريبنتروب يؤكد فيها «عزم» ألمانيا على احترام «سيادة يوغوسلافيا
وسلامة اراضيها في جميع الظروف والأحوال» ، ووعداها بأن لا يطلب المحور
حقوق العبور لقواته داخل اراضي يوغوسلافيا « طيلة ايام الحرب » .^(١) ولكن
هتلر ما لبث ان خرق هذين الاتفاقين في وقت اعتبر قياسياً في سرعته حتى
بالنسبة الى هتلر نفسه .

ولم يكد الوزيران اليوغوسلافيان يعودان الى بلغراد ، حتى اطاح بهما
وبالحكومة وبالأمر الوصي انقلاب عشية السادس والعشرين من آذار ، قامت به
الجماهير واعلن الانقلابيون ارتقاء ولي العهد الشاب الامير بطرس الذي نجا من

١ - المؤامرة النازية والعدوان (١) ص ٧٨٣ ، نص الرسالتين اللتين سلمهما ريبنتروب
الى الوزيرين اليوغوسلافيين .

مراقبة أعوان الوصي ، بتسلله من القصر هابطاً على إحدى أنابيب المياه ، على العرش ، وعلى الرغم من أن الفريق دوشان سيموفيش زعيم العهد الجديد ، قد عرض فور توليه مقاليد الحكم على المانيا عقد ميثاق لعدم الاعتداء ، إلا أنه اتضح ببرلين أن هذا العهد ، لن يقبل مطلقاً تثيل دور « الدمية » الذي أعده الفوهرر ليوغوسلافيا ، وأظهر الصربيون حقيقة ميولهم وعواطفهم أثناء مظاهرات الفرحة الصاخبة التي قاموا بها في بلغراد ، عندما بصقت الجماهير على سيارة الوزير الألماني المفوض .

واطاح انقلاب بلغراد بالفوهرر في نوبة من أشد النوبات التي تعرض لها في حياته غضباً وهياجاً . واعتبره اهانة شخصية له ، واتخذ في سورة غضبه سلسلة من القرارات المفاجئة التي قدر لها أن تكون مفجعة لطوالع الرايخ الثالث .

وراح هتلر يستدعي قادته العسكريين إلى دار المستشارية في برلين في السابع والعشرين من آذار . وقد عقد هذا الاجتماع بصورة عاجلة وغير متوقعة حتى أن براوختش وهولدر وريننتروب ، وصلوا إليه متأخرين ليشهدوا زعيمهم وهو يتأجج سخطاً على اليوغوسلافيين مقررأ الثأر منهم فوراً . وقال أن انقلاب بلغراد ، يعرض للخطر عملية ماريتا ، وعملية بربروسة أيضاً . ولهذا فقد قرر دون أن ينتظر أية بيانات محتملة من الحكومة اليوغوسلافية الجديدة للأعراب عن ولائها ، تحطيم يوغوسلافيا عسكرياً ، وكدولة لها وجود . ولن يقوم بأية اتصالات أو تحقيقات دبلوماسية ، كما لن يوجه أية إنذارات ، وأضاف أن من الواجب تحطيم يوغوسلافيا « بمنتهى القسوة والصرامة » . وأصدر أمره إلى غورنغ فوراً وعلى التو « بتدمير بلغراد بقارات جوية في موجات متعاقبة » تقوم بها قاذفات تعمل من القواعد الجوية المجرية . وأصدر توجيهه الخامس والعشرين^(١) الذي يقضي بغزو يوغوسلافيا فوراً ، وأوعز إلى كاتل ويودل بإعداد الخطط

١ - يوجد نص جزئي للتوجيه الخامس والعشرين في المؤامرة النازية والمدوان (٦) ص ٩٣٨ - ٩٣٩ .

الحربية اللازمة للتنفيذ تلك الليلة نفسها . وأمر ريبنتروب ببلاغ كل من المجر ورومانيا وإيطاليا بأنها ستحصل على شطر من الأراضي اليوغوسلافية ، التي قرر تجزئتها بين هذه الدول الثلاث . باستثناء مساحة ضيقة قرر ان يقيم فيها دويلة كرواتية « تابعة » له . (١)

واعلن هتلر عند ذاك ؛ كما تشير فقرة « وضعت خطوط تحتها للتأكيد عليها » وردت في الوقائع السرية للغاية التي دونتها القيادة العليا للقوات المسلحة (٢) . قراراً يعتبر اكثر قراراته تلك الليلة خطورة وقدرية . فقد ذكر لقادته العسكريين « ان من الواجب تأخير موعد البدء بعملية بربروسة مدة اربعة اسابيع (٣) . »

ولعل هذا القرار الذي اتخذته سيد الحرب النازي بتأجيل هجومه على روسيا ليشفي غله الشخصي من ذلك البلد البلقاني الصغير الذي جرؤ على تحديه ، هو اكثر قرار فردي اتخذته هتلر في حياته كلها ، فجيحة واذى . ولا ارى ان من المغالاة القول ، ان الفوهرر بقراره هذا الذي اتخذته بعد ظهر ذلك اليوم في دار المستشارية في برلين ، وإبان سورة من سورات الغضب الاعمى ، قد اضاع آخر فرصة ذهبية لديه لكسب الحرب ، وليجعل من الرايخ الثالث الذي خلقه هو بمثل هذه العبقرية المدهشة والمتوحشة ، اعظم امبراطورية في تاريخ المانيا ، وليغدو هو السيد الذي لا ينازع لاوروبا . ولا ريب في ان المشير فون براوختش القائد العام للجيش الالماني ، والفريق هولدر الرئيس الموهوب لهيئة اركان

١ - قال هتلر وهو ينفث حممه ان « الحرب ضد يوغوسلافيا امر تنوق اليه شعوب إيطاليا والمجر وبلغاريا » . وقال انه سيعطي مقاطعة باتان للمجر ، ومقاطعة مقدونيا لبلغاريا وساحل الادرياتيک لإيطاليا .

٢ - وقائع القيادة العليا للقوات المسلحة عن الاجتماع - المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٢٧٥ - ٢٧٨ .

٣ - كان اول توجيه صدر عن عملية بربروسة في الثامن عشر من كانون الاول قد حدد موعد البدء بالهجوم في الخامس عشر من ايار .

الحرب ، قد تذكروا هذه الحقيقة بمنتهى المראה ، وبالمزيد من التفهم لعواقبها ، عن التفهم الذي ابدياه لحظة اتخاذ الزعيم قراره هذا ، ولذلك عندما داهمتها الثلوج العميقة ودرجات الحرارة التي تنخفض عن الصفر في روسيا ، قبل ثلاثة اسابيع او اربعة من تحقيق ما كنا يتطلعنا اليه من نصر نهائي ، وهو نصر كان مضموناً لو تأخرت الثلوج هذه المدة القصيرة . وقد ظل هذان القائدان ورفاقهما من الفرقاء العسكريين ، يلقون اللوم في الكوارث التي توالى ، على ذلك القرار الاحمق ، الذي اتخذته رجل غاضب مغرور ، في لحظة من لحظات غضبه .

وليس ثمة من ريب في ان التوجيه العسكري رقم (٢٥) الذي أصدره القائد الاعلى لفرقائه العسكريين قبل ان ينفض الاجتماع يعتبر وثيقة هتلرية نموذجية .. فقد جاء فيه :

« لقد بدل الانقلاب العسكري في يوغوسلافيا اوضاع البلقان السياسية كلها . ومن الواجب اعتبار يوغوسلافيا على الرغم من كل ما تدعيه من ولاء لنا عدوة في الوقت الحاضر يجب تحطيمها في اسرع وقت ممكن .

« وإن مما اتوق اليه أن اشق طريقي الى يوغوسلافيا ... وان ازيل من الوجود ما يدعى بالجيش اليوغوسلاقي ... »

وصدر الأمر الى يودل بوصفه رئيس قسم العمليات الحربية في القيادة العليا للقوات المسلحة باعداد الخطط اللازمة تلك الليلة . وقد تحدث امام محكمة نورمبرغ فيما بعد فقال : « ظلت اعمل طيلة تلك الليلة في مستشارية الرايخ . ولم تحل الساعة الرابعة من صباح الثامن والعشرين من آذار حتى كنت اسلم مذكرة الى الفريق فون رينتلين ، ضابط اتصالنا مع القيادة العليا الايطالية . (١) »

١ - شهادة يودل في « محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٥) ص ٣٨٧ » وخطبه في « المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٢٧٨ - ٢٧٩ » .

وكان من المحتوم ابلاغ موسوليني فوراً بالخطط العملية الألمانية ، اذ ان جيوشه المتأيلة في البانيا كانت في خطر التهديد في مؤخرتها من يوغوسلافيا ، وان يطلب اليه التعاون مع هذه الخطط . واراد هتلر أن يتأكد من فهم الدوتشي لما يطلب اليه العمل ، فلم ينتظر فراغ يودل من اعداد الخطط العسكرية اللازمة ، وراح يبعث في منتصف ليلة السابع والعشرين من آذار برسالة عاجلة الى حليفه ، وأمر بابقاها فوراً الى برلين لتصل الى الدوتشي في نفس الليلة ، وهذا نصها : (١)

« تضطربني الظروف ايها الدوتشي الى ان ابلغك بأسرع السبل الممكنة تقديراتي للوضع . والنتائج المترتبة على هذه التقديرات . »
« لقد اعتبرت يوغوسلافيا منذ البداية عاملاً خطراً في الحرب ضد اليونان ... ولهذا السبب وحده . بذلت كل جهد ممكن بصدق واخلاص ، لحمل يوغوسلافيا على الانضمام الى جماعتنا ... ولسوء الحظ لم تحقق هذه المحاولات أي نجاح ... ولا تترك تقارير اليوم اي شك في التحول المرتقب في كل لحظة في سياسة يوغوسلافيا الخارجية . »

« ولهذا فقد اعددت جميع الاجراءات اللازمة ... بالسبل العسكرية . واني لأطلب اليك الآن يادوتشي بكل ود وصداقة ، ان لا تقوم بأية عملية جديدة في ألبانيا في غضون بضعة الايام المقبلة . وارى من الضروري ان تغطي جميع الممرات الجبلية الواصلة بين يوغوسلافيا والبانيا بالقوات المتيسرة لديك . »
« واني لأرى من الضروري ايضاً يادوتشي ، ان تعزز قواتك المرابطة على الجبهة الايطالية - اليوغوسلافية بكل السبل المتوافرة لديك وبأسرع وقت ممكن . »

١ - نص رسالة هتلر الى موسوليني في ٢٨ آذار عام ١٩٤١ - المؤامرة النازية والعدوان

(٤) ص ٤٧٥ - ٤٧٧ .

« واني لأرى من الضروري كذلك ، بأن يحاط كل ما نعمله ونأمر به بالسر والكتان . وليس ثمة من شك في ان هذه الاجراءات تفقد قيمتها تماماً في حالة البوح او انصاحها ... ولهذا فإذا راعينا جانب السرية يا دوتشي تمام المراعاة ، فليس لدي من شك في اننا معاً سنحقق نجاحاً لا يقل عن النجاح الذي حققناه في التروج قبل عام . وليس ثمة من شك في ان ايماني هذا راسخ لا يتزعزع .

« وارجو ان تتقبل اخيراً تحياتي القلبية والودية .

المخلص لك

ادولف هتler

ولقد صدقت حسابات سيد الحزب النازي تمام الصديق بالنسبة الى هذا الهدف القريب ، ولكن يبدو انه لم يكن يدري مطلقاً آنذاك ان هذا الثأر الناجح من يوغوسلافيا سيكلفه ثمناً غالياً كل الغلاء على المدى البعيد وتدفقت جيوشه فجر اليوم السادس من آذار في قوة هائلة على يوغوسلافيا واليونان . عابرة من حدود بلغاريا والمجر والمانيا نفسها ، بكل ما لديها من سلاح مدرع ، وزاحفة بسرعة مقابل مدافعين يفتقرون الى التسلح وخيمت عليهم الدهشة من الغارات الأولية المألوفة التي قام بها السلاح الجوي الألماني .

وتحولت بلغراد نفسها لتلبية لأوامر هتler الى ركام . وظلت قاذفات غورنغ ثلاثة ايام متوالية بلياليها تحوم في سماء العاصمة الصغيرة على ارتفاع منخفض لا يعدو اسطحة البنايات ، اذ لم يكن في المدينة نفسها أي مدافع للطائرات ، فقتلت نحو سبعة عشر ألفاً من المدنيين ، واصابت بجراح عدداً آخر يربو على هذا العدد ، وحولت البلدة كلها الى انقاض . واطلق هتler على هذا العمل اسم « عملية القصاص » (Punishment) وليس ثمة من شك في انه كان راضياً كل الرضى عن الدقة في تنفيذ اوامره . وتحطم الجيش اليوغوسلافي من جراء عدم وجود الوقت الكافي لتعبئة قواته الاحتياطية ، ونتيجة الخطأ الذي ارتكبته قيادته في محاولتها

الدفاع عن البلاد بأسرها . ودخلت القوات الألمانية الحربية في الثالث عشر من آذار الى ما تبقى من بلغراد ، واستسلمت في السابع عشر من الشهر بقايا الجيش اليوغوسلافي وكانت لا تزال تعد ثنائي وعشرين فرقة في سراجيفو ، بعد ان فرّ الملك ورئيس وزرائه بالطائرة الى اليونان .

ولم يستطع اليونانيون الذين تمكنوا من اذلال الجيش الايطالي مدة ستة اشهر من القتال ، الصمود أمام جيش المشير فون ليست الثاني عشر ، المؤلف من خمس عشرة فرقة بينها أربع فرق مدرعة . وكان البريطانيون قد سارعوا الى ارسال اربع فرق من ليبيا الى اليونان قوامها ثلاثة وخمسين ألفاً من الجنود ، ولكن هؤلاء شأنهم شأن اليونانيين ، كانوا أقل عدداً من ان يصمدوا امام الفرق المدرعة الألمانية وأمام الضربات القاتلة التي يكيلها لهم السلاح الجوي الألماني . واستسلمت الجيوش اليونانية الشمالية للألمان وللايطاليين - وهنا تقع الممرات - في الثالث والعشرين من نيسان . ولم تمض ايام اربعة حتى كانت الدبابات النازية تهدر داخل شوارع اثينا وترفع علم الصليب المعقوف على تلة الاكروبوليس . وكان البريطانيون يحاولون يائسين في غضون ذلك ، اجلاء قواتهم من الارض اليونانية عن طريق البحر ، وشهد الساحل اليوناني « دنكرك » ثانية ولكنها اصغر حجماً وان لم تكن أقل منها نجاحاً .

ولم تحل نهاية شهر نيسان ، أي بعد ثلاثة اسابيع ، حتى كان كل شيء قد انتهى في اليونان باستثناء جزيرة كريت التي استولى عليها الألمان من البريطانيون بعد هجوم حملته الطائرات في نهاية شهر ايار . ولقد حقق هتلر في بضعة ايام من الربيع ، ما فشل الايطاليون في تحقيقه فشلاً ذريعاً طيلة اشهر الشتاء . وعلى الرغم من ان الدوتشي قد نجا من مرارة الهزيمة ، إلا انه أحس بمرارة الازلال لأن نجاحاته حدثت على يد الألمان . ولم تلتف الحصنة المحيطة للأمل التي حصل عليها من الأسباب اليوغوسلافية التي شرع هتلر في توزيعها من حدة مشاعر الألم التي عاناها . (١)

١ - أصدر هتلر في الثاني عشر من نيسان اي بعد ستة ايام من شنه هجومه في البلقان =

ولم تكن البلقان المنطقة الوحيدة التي سارع الفوهرر ، الى انقاذ شريكه الأصغر فيها وانقاذه من « السنارة » التي اشتبكت بحلقه . فلقد وافق هتلر بعد إبادة القوات الإيطالية في ليبيا ، وهو متبرم ، على ارسال فرقة مدرعة خفيفة وبعض وحدات السلاح الجوي الى افريقيا الشمالية ، حيث تمكن من ان يضمن للفريق ارون رومل ، القيادة العامة للقوات الإيطالية والالمانية فيها . وكان رومل هذا ، وهو ضابط الدبابات الجريء والوافر الذكاء والذي برز كقائد لأحدى الفرق المدرعة في معركة فرنسا ، من طراز آخر من القادة العسكريين يختلف عن الطراز الذي خبره البريطانيون في صحراء افريقيا الشمالية ، وقدر له ان يغدو بالنسبة اليهم مشكلة عظيمة دامت زهاء سنتين . ولكنه لم يكن المشكلة الوحيدة التي جابهتهم هناك . فالجيش اللجب ، والقوة الجوية الكبيرة ، اللذين أوفدهما البريطانيون الى اليونان من ليبيا كانا قد اضعفا قواتهم في الصحراء . ولم يقلق البريطانيون من هذه الحقيقة في بادىء الأمر ، على الرغم من ان مخبراتهم قد نقلت اليهم انباء وصول وحدات المانية مدرعة الى هناك في نهاية شهر شباط . ولكنهم كانوا مخطئين في تجاهلهم هذا .

فقد شرع رومل بالهجوم في برقة بصورة مباغتة في اليوم الأخير من شهر آذار مستخدماً فرقة المانية مدرعة وفرقتين إيطاليتين أحدهما مدرعة . واعاد احتلال الولايات في اثني عشر يوماً ، طوق فيها طبرق ووصل الى البردية التي لا تبعد إلا بضعة أميال عن حدود مصر . وتعرض مركز بريطانيا كله في مصر والسويس للخطر من جديد ، واصبحت سيطرة بريطانيا على شرق البحر

= توجيها سريا يقضي بتقسيم يوغوسلافيا بين المانيا وايطاليا والمجر وبلغاريا . وقد قضى التوجيه بخلق دولة كرواتيا الجديدة التابعة لالمانيا . وخص الفوهرر بلاده بالحصة السخية من البلاد اذ ضم لالمانيا كل ما كان في السابق جزءا من الامبراطورية النموسوية القديمة ، محتفظا تحت احتلالها ببلاد الصرب القديمة وبالمناطق الفنية بمناجم النحاس والفحم . وظلت حصة ايطاليا غامضة الى حد ما وان لم تكن حصة كبيرة . (للتفاصيل راجع نص التوجيه - المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٨٣٨ - ٨٣٩) .

المتوسط ، معرضة لخطر هائل ، من جراء وجود الألمان والايطاليين في اليونان ايضاً .

وجاء الربيع الثاني من الحرب بانتصارات مذهلة جديدة لألمانيا ، وغدت خطوات بريطانيا ، التي تقف وحيدة ، وتعرض بلادها لغارات السلاح الجوي الألماني كل ليلة ، والتي تطارد جيوشها هاربة من اليونان وبرقة ، أكثر قتاماً ومدعاة لليأس من أي وقت مضى . وهبطت سمعتها التي تعتبر عاملاً مهماً في صراع الحياة أو الموت حيث تلعب الدعاية دوراً بارزاً كسلاح من اسلحة الحرب ولا سيما في التأثير على الولايات المتحدة وروسيا الى الحضيض من جديد ^(١) .

ولم يتوان هتلر أو يتقاعس عن استغلال هذه الانتصارات في خطاب آخر من خطب « انتصاراته » ، ألقاه في الرايشتاغ في برلين في الرابع من ايار . وتألف هذا الخطاب من عبارات ساخرة وملأى بالحقد وجهها بصورة شخصية الى تشرشل ، الذي يعتبره من اليهود ، أشد المحرضين على الحرب ، والرجل

١ - شرع شارل . أ. ليندبرغ ، بطل الطيران المشهور ، والذي كان قد بدا المؤلف هذا الكتاب ، نتيجة السذاجة المدهشة ، ضحية تبجحاته الدعاية النازية اثناء الزيارات المتعددة التي قام بها لألمانيا ، يخطب في جماهير غفيرة من الامريكيين منبهاً بهزيمة بريطانيا ولقد خطب في الثالث والعشرين من نيسان عام ١٩٤١ ، عشية الانتصارات النازية الضخمة في البلقان وافريقيا ، في نحو من ثلاثين ألف شخص في نيويورك في الاجتماع الاول الذي عقدته لجنة امريكا اولاً « المؤلف حديثاً » فقال ... « لا تزال هناك خطة يائسة وحيدة امام الحكومة البريطانية ... وهي اقناعنا من جديد بارسال حملة عسكرية امريكية الى اوروبا ، وباشتراكنا مع انكلترا عسكرياً ومالياً في مهزلة هذه الحرب » . وقد حكم على انكلترا « لتسجيماً الدول الصغيرة في اوروبا على الحرب ضد قوات تفوقها عدداً بشكل هائل لا أمل فيه » . ويبدو انه لم يدر في خلد هذا الرجل قط ان يوغوسلافيا واليونان ، اللتين أتم هتلر سحقهما قبل قليل ، قد هوجمتا بصورة وحشية دون أي استفزاز من جانبهما ، وانهما قد حاولتا مدقوعتين بالفريزة وبالاحساس بالكرامة ، الدفاع عن نفسيهما ، متسلحتين بالبنالة امام قوات تفوق قواتهما عدداً . وقد استقال ليندبرغ في الثامن والعشرين من نيسان من منصبه كعميد احتياط في الفيلق الجوي التابع للجيش الامريكي ، وذلك بعد ان وصمه الرئيس روزفلت في الخامس والعشرين علناً بوصمة الانهزامية والدعاية الى التسليم . وقد قبل وزير الحربية استقالته فوراً .

الذي يبرع أشد البراعة في تحقيق الهزيمة ... إذ قال عنه :

« إن هذا الرجل ، هو أكثر واضعي الخطط السوقية هواية وتعطشاً للدماء في تاريخ العالم ... فلقد ظل هذا الانسان قرابة خمسة اعوام يذرع اوروبا شرقاً وغرباً كرجل مجنون يبحث عما يستطيع ان يلهب النار فيه ... فهو في الجندية سياسي فاشل ، وهو في السياسة جندي لا يقل فشلاً عنه في الجندية . والموهبة الوحيدة التي يملكها تشرشل ، هي قدرته على الكذب وهو يتظاهر بالصدق ، في وجهه تغمرة التقوى ، وعلى تشويه الحقائق الى الحد الذي يقلب الهزائم الفظيعة للغاية الى انتصارات مجيدة ... وهكذا فإن تشرشل ، الرجل السخرية في ميدان السوقية العسكرية ، وقد تمكن في يوغوسلافيا واليونان من ان يخسر مسرحين من مسارح الحرب بضربة واحدة . ولو كان تشرشل في بلاد اخرى غير بريطانيا لحوكم أمام محكمة عسكرية ... ولا يمكن وصف حالته العقلية الشاذة إلا انها صورة واضحة إما لانسان مصاب بالشلل ، أو لسكير يحلم أحلام السكرانى ... » .

ولم يحاول هتلر ، ان يكبح جماح عواطفه الحقيقية عندما تحدث عن انقلاب يوغوسلافيا الذي كان قد استفز غضبه الى حد الجنون ، إذ قال :

« وقد ذهلبنا جميعاً من ذلك الانقلاب الذي قامت به زمرة صغيرة من المتآمرين المرتشين ... وليس من شك ، في أنكم ستفهمون ايها السادة ، انني عندما سمعت بنبأ الانقلاب هذا ، أصدرت أوامري فوراً بالهجوم على يوغوسلافيا . فلقد استحال علي ان اقبل بمعاملة الرايخ الألماني على هذا النحو من الزراية ... »

وعلى الرغم من صلفه وغروره بما حققه من انتصارات في الربيع ولا سيما على بريطانيا ، إلا ان هتلر ، لم يدرك ادراكاً تاماً مدى الضربة القاسية التي وجهتها هذه الانتصارات لبريطانيا ولا الوضع اليائس الذي غدت فيه حالة امبراطوريتها .

ففي اليوم الذي كان يخطب فيه في الرايشستاغ ، كان تشرشل يكتب الى الرئيس روزفلت عن النتائج الوخيمة التي ستنتج عن خسارة بريطانيا لمصر والشرق الأوسط ويناشده ان تدحل امريكا الحرب . وكان رئيس الوزراء في حالة قائمة من اكثر الحالات التي مر بها في الحرب كآبة .. اذ كتب لروزفلت يقول : « وانني لأناشدك الله ياسيدي الرئيس ، ان لا تقلل من خطورة النتائج التي قد تنجم من انهيار الشرق الأوسط ^(١) . »

وقد حثت قيادة البحرية الألمانية الفوهرر على استغلال هذا الوضع الى اقصى الحدود . ويشاء حسن حظ المحور ، لتحسين الأوضاع بالنسبة اليه ، ان يقوم رئيس وزراء العراق الجديد ، رشيد عالي ، الذي كان ميالاً الى الألمان ، بهجوم على القواعد البريطانية الجوية في الحبانية القريبة من بغداد ، وان ينشد هتلر العون لاجراج البريطانيين من البلاد . وكان هذا في مطلع شهر ايار ^(٢) . وعندما تم الاستيلاء على جزيرة كريت في السابع والعشرين من ايار ، ناشد امير البحر ريدير ، الذي كان دائم المعارضة لعملية « بربروسا » هتلر في الثلاثين من ايار ، ان يعد العدة لهجوم حاسم على مصر والسويس . وبعث رومل الذي كان تواقفاً الى مواصلة زحفه حالما تصله النجدة التي طال انتظاره لها ، بنداوات مماثلة لهتلر من افريقيا الشمالية . وكتب ريدير الى الفوهرر يقول : « ستكون هذه الضربة أشد أثراً قتالاً على الامبراطورية البريطانية من احتلال لندن » . وسلم امير البحر بعد نحو اسبوع مذكرة الى هتلر وضعها قسم العمليات في هيئة اركان حرب الاسطول . يحذر فيه بأي حال من الاحوال في « عدم العدول عن الماضي في الحروب في المتوسط او تأجيله على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان عملية بربروسا تحتل طبعاً ، المكانة البارزة في تفكير القيادة العليا للقوات

١ - تشرشل - مذكرات - الجزء الثالث ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

١ - يبدو من هذه الفقرة ان المؤلف لم يدرس حقيقة ثورة العراق في عام ١٩٤١ ، دراسة كاملة ، واكتفى بأن يساير التيار الشائع القائل بأن الثورة كانت نتيجة الميل الى الألمان ، لا نتيجة النعمة على الاستعمار ، كما لم يعرف بأن الحرب قد فرضت على العراقيين فرضاً .
- الحرب -

ولكن الفوهرر كان قد حزم أمره . ولم يكن في الحقيقة قد بدل القرار الذي اتخذ منذ أيام عيد الميلاد المنصرم ، عندما أمر بإعداد العدة لبربروسة ، وأبلغ أمير البحر ريدير وجوب « تصفية روسيا أولاً » . وكان عقله المغلق على الحرب البرية لا يستطيع ان يفهم الخطط السوقية الواسعة التي تنادي بها البحرية . وكان حتى قبل ان يصله نداء ريدير واركان حرب البحرية في نهاية شهر ايار ، قد أوضح نفسه في التوجيه الثلاثين الذي اصدره في الخامس والعشرين من ايار (٢) . فقد امر في هذا التوجيه بإيفاد بعثة عسكرية وبعض الطائرات والاسلحة الى بغداد لمساعدة العراق . وقال : « لقد قررت تشجيع ما يقع في الشرق الاوسط من تطورات عن طريق مساعدة العراق » . ولكنه لم ير ابعاد من هذه الخطوة الصغيرة وغير الكافية . أما بالنسبة الى الخطة السوقية الاوسع مدى وأكثر سرعة والتي نادى بها امراء البحر ورومل ... فقد اعلن قائلاً :

« وليس في الامكان اتخاذ قرار نهائي بصدد ما اذا كان في الامكان شن هجوم على قناة السويس ، لاجراج بريطانيا نهائياً من مراكزها بين البحر المتوسط والخليج العربي ، وكذلك بصدد ما يلزم لهذا الهجوم من وسائل قبل الانتهاء من عملية بربروسة » .

وهكذا رأى هتلر ان تحطيم الاتحاد السوفياتي يجب ان يحتل كل اهتمام أولاً ، وان على المشاريع الأخرى ان تنتظر . وفي وسعنا الآن ان نحكم على ان هتلر قد اخطأ في رأيه هذا خطأ فاحشاً . فلقد كان في امكان هتلر في ذلك الوقت ، أي في نهاية ايار عام ١٩٤١ ، ان يوجه بجزء من قواته ليس إلا ، ضربة ساحقة للامبراطورية البريطانية قد تقضي عليها . ولم يكن ثمة من شخص يدرك هذه الحقيقة ، احسن من تشرشل المجهد المنهوك . فلقد ذكر في رسالته التي بعث بها

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٩٨ - ١٠٠٠ .

٢ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية - ١٩٤١ ، ص ٥٠ - ٥٢ .

الى الرئيس روزفلت في الرابع من ايار ، ان استمرار الحرب في حالة ضياع مصر والشرق الاوسط ، سيصبح « افتراضاً قاسياً وطويلاً وهزلياً » حتى ولو اشتركت الولايات المتحدة في الصراع . ولكن هتلر لم يدرك هذه الحقيقة . ويصبح عماه عنها اكثر صعوبة على الفهم ، اذا عرفنا ان حملته البلقانية قد أخرجت بدء عملية بربروسه بضعة اسابيع ، فقضت عليها بالشلل تبعاً لذلك . فلقد بات من الضروري اكمال اجتياح روسيا في وقت اقصر مما كان مقرراً في السابق . اذ كان ثمة موعد لا يمكن تخطينه ، وهو حلول الشتاء الروسي ، ذلك القائد الذي هزم شارل الثاني عشر ونابليون من قبل . وكان هذا يعني ان على الألمان ان يمتدحوا روسيا في غضون ستة اشهر قبل حلول الشتاء ، وهي بلاد فسيحة هائلة ، لم يستطع فاتح ان يمتدحها قط من الغرب . وعلى الرغم من ان شهر حزيران قد اطل ، إلا ان ذلك الجيش اللجب الذي وجه جنوباً بشرق ، باتجاه يوغوسلافيا واليونان كان ينتظر الآن ان يعود مسافات واسعة ، الى الحدود الروسية ، فوق طرق غير معبدة ، وعلى سكة حديد واحدة مجعدة ، لا تعتبر كافية بأي حال من الأحوال ، لتحمل اعباء هذا النقل الضخم .

وكان التأجيل ، كما أظهرت الاحداث فيما بعد ، قدرياً ممتاً . ويقول المدافعون عن عبقرية هتلر العسكرية ، ان حملة البلقان ، لم تؤثر على توقيت عملية بربروسه تأثيراً ملحوظاً ، وان التأجيل كان ناجماً على أي حال ، عن تأخر ذوبان الثلوج في ذلك العام ، مما ادى الى انتشار الوحول في طرق اوروبا الشرقية حتى اواسط حزيران . ولكن شهادة كبار القادة الألمان تختلف عن هذه الأقوال تمام الاختلاف . فلقد شهد المشير فريدريك باولوس ، الذي سيظل اسمه دائماً مترابطاً مع ستالينغراد ، والذي كان في هذا الوقت المخطط الرئيسي للحملة الروسية في هيئة اركان حرب الجيش ، امام محكمة نورمبرغ ، ان قرار هتلر بتحطيم يوغوسلافيا قد أجل البدء بعملية بربروسه نحواً من خمسة اسابيع «^(١)» .

١ - محاكمات كبار مجرمي الحرب (٧) ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

وتعطي اليوميات الحربية لقيادة الاسطول نفس الوقت الذي ذكره باولوس^(١).
وقال : المشيرفون رونشتادت الذي تولى قيادة مجموعة الجيوش الجنوبية في روسيا
لحققي الحلفاء بعد الحرب ، اننا « بدأنا الحملة في روسيا متأخرين اربعة اسابيع
بسبب حملة البلقان » . و اضاف قائلاً : « وكان هذا التأجيل غالي الثمن والتكاليف
للغاية »^(٢)؛

على أي حال ، عندما انتهت جيوش هتلر في الثلاثين من نيسان من فتحها
ليوغوسلافيا واليونان حدد هتلر الموعد الجديد لعملية بربروسا ، فقرر ان تبدأ
في الثاني والعشرين من حزيران عام ١٩٤١^(٣) .

تخطيط الارهاب

اصر هتلر على قاداته العسكريين ان يفهموا شيئاً واحداً بوضوح كلي ، وهو
ان ليست هناك قيود يجب عليهم التقيد بها في روسيا . وكان قد جمع في مطلع
شهر آذار عام ١٩٤١ ، جميع قادة القوات المسلحة الثلاث في مؤتمر حضره كبار
قادة الميدان ، وخطط لهم القانون الذي فرض عليهم اتباعه . وقد دوّن هولدر
ما قاله بالحرف الواحد :^(٤)

« ستكون الحرب في روسيا من الطراز الذي لا تتبع فيه
اصول الشهامة والفروسية . وهذا الصراع صورة للخلافات
العقائدية والعنصرية ، ومن الواجب ان يسير في قسوة لا هوادة فيها
ولا رحمة ولا تردد ، ولا مثيل لها . وعلى جميع الضباط ان يتحرروا
من العقائد المنسوخة الباطلة واني لأفهم ان ضرورة مثل هذه

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٩٦

٢ - شولمان - الهزيمة في الغرب - ص ٦٥

٣ - التوجيه السري في ٣٠ نيسان ١٩٤١ ، المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٦٣٣ - ٦٣٤

٤ - شهادة هولدر المشفوعة باليمين في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٥ - المؤامرة النازية
والعدوان (٨) ص ٦٤٥ - ٦٤٦) .

الوسائل لشن الحرب تتعدى فهم قادتكم العاملين تحت امرتكم ...
ولكنني أصر اصراراً كلياً على وجوب اطاعة اوامري دون عصيان
أو مخالفة . والمفوضون (القوميساريون) هم حملة العقيدة
الشيوعية ، وهم على خط مناقض واضح للاشتراكية الوطنية .
ولهذا يجب تصفية المفوضين تصفية تامة . وسأعفو عن جميع الجنود
الألمان الذين يتهمون بمخالفة القانون الدولي ... فروسيا لم تنضم
الى ميثاق لاهاي ، وليس من حقها ان تطالب باحترام هذا
القانون . »

وهكذا صدر الأمر المسمى « بأمر المفوضين » . وقد نوقش موضوعه مناقشات
طويلة في محاكم نورمبرغ ، عندما وجه القادة العسكريون الألمان بالقضية التي
تقول : « هل كان من واجبهم ان يطيعوا أوامر الفوهرر ويقترفوا جرائم الحرب
او كان لزاماً عليهم ان يطيعوا ما تولى عليهم ضمائرهم » (١) .

وروى هولدر فيما بعد ، ان القادة العسكريين ثاروا لهذا الامر ، ولم يكن
الاجتماع ينفض حتى كانوا يجتمعون الى قائدهم العام براوختش . وقال هذا المشير
الحائر العزم (٢) ، لقادته انه « سيقا تل ضد هذا الأمر على النحو الذي وضع
فيه » . ويقسم هولدر ان براوختش عاد فأبلغ القيادة العليا للقوات المسلحة
خطياً ، ان ضباط الجيش « لا يستطيعون تنفيذ هذه الاوامر » . ولكن هل
صدر عنه مثل هذا البلاغ حقاً ؟

١ - قال المشير فون مانشتاين على منصة الشهادة في نورمبرغ لدى البحث في « امر
المفوضين » . « كانت هذه هي المرة الاولى التي أجد نفسي فيها متورطاً في صراع بين مفاهيمي
العسكرية وبين واجبي في الطاعة . وكان لزاماً علي في الواقع ان اطيع ، ولكنني قلت لنفسي
انني كجندي لا استطيع التعاون في أمر كهذا . وقلت لقائد مجموعة الجيوش الذي كنت أعمل
تحت امرته في ذلك الوقت ... انني لا استطيع ان انفذ مثل هذا الامر الذي يتعارض مع شرفي
العسكري » (محاكمات كبار مجرمي الحرب الالمان (٢٠) ص ٦٠٩) .

واحقاقاً للحق والتاريخ اود ان اقول هنا ، ان الامر قد نفذ بالطبع على نطاق واسع .

٢ - اطلق عليه هتلر فيما بعد لقب « رجل من القش » . (احاديث هتلر السرية ص ١٥٢) .

اعترف براوختش اثناء الاستجواب المباشر في نورمبرغ ، انه لم يقيم بمثل هذا الاجراء مع الفوهرر « لأنه لم يكن ثمة سبيل لاقتناعه بتغيير موقفه » . وكل ما فعله قائد الجيش كما ذكر للمحكمة ، انه اصدر أمراً خطياً ، يطلب فيه « الحفاظ على انضباط الجيش بنفس الدقة على ضوء الخطوط والانظمة التي كانت مطبقة في الماضي » .

وسأله القاضي اللورد لورنس ، رئيس المحكمة الحاد الطبع : « اذن فأنت لم تصدر أي أمر يشير اشارة مباشرة الى « امر المفوضين » ؟ »
فرد براوختش قائلاً : « لا . لم استطع معارضة الامر بصورة مباشرة » (١)
واتيحت لضباط الجيش من رجال المدرسة القديمة ، بتقليدهم العسكرية الموروثة ، الفرصة من جديد ، للاضطراع مع ضمائرهم ، بالتوجيهات اللاحقة التي اصدرها كايتل في الثالث عشر من ايار نيابة عن الفوهرر . وقد حدد التوجيه الاساسي مهمة المحكمة العسكرية الألمانية . اذ كان من الواجب ان تفسح هذه المحكمة المجال ، ليحل محلها طراز اكثر بدائية من القوانين ... وجاء في التوجيه ماييلي :

« ليس من صلاحية المحاكم العسكرية ان تنظر في الجرائم القابلة للعقاب والتي يقتربها المدنيون من الاعداء في روسيا ، وذلك حتى اشعار آخر ...

« ومن الواجب ان يظهر الاشخاص المتهمون بعمل اجرامي فوراً أمام ضابط من الضباط ، ومن حق هذا الضابط ان يقرر ما اذا كان من الواجب اعدامهم .

« أما بالنسبة الى الجرائم التي يرتكبها افراد القوات المسلحة الألمانية ضد المدنيين الاعداء ، فليس من الضروري الادعاء عليهم من النيابة العامة ، حتى ولو كانت الجريمة المقتربة من النوع

١ - شهادة براوختش في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٠) ص ٥٨١ - ٥٨٢ ،

و ص ٥٩٢) .

العسكري سواء كانت جريمة او جنحة » .

وطلب الجيش ان يكون متساهلاً مع مثل هؤلاء الجانحين ، وان يتذكروا في كل حالة من الاحوال ما حل بألمانيا من اذى على ايدي البلاشفة منذ عام ١٩١٨ . ولا يمكن السماح بمحاكمة الجنود الألمان عسكرياً ، الا اذا كان « الحفاظ على الانضباط أو امن القوات المسلحة يتطلب مثل هذا الاجراء » . وانتهى التوجيه الى القول ، « وعلى أي حال ، فإن الاحكام التي تتطابق مع النوايا السياسية للقيادة العليا ، هي التي يمكن تصديقها » ^(١) . واشترط التوجيه ان يعتبر من « الوثائق السرية للغاية » ^(٢) .

وصدر توجيه ثان بنفس التاريخ ، وقعه كايثل نيابة عن هتلر ، يعهد الى هملر « بمهام خاصة » لإعداد العدة للإدارة السياسية في روسيا وهي « مهام » حددتها الأمر بأنها « ناجمة عن الكفاح الذي يجب ان يستمر بين نظامين سياسيين متعارضين » . وقد عهد الى الرجل الصادي ، الذي يتولى رئاسة الشرطة السرية

١ - نص امر كايثل في ٢٣ تموز عام ١٩٤١ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٨٧٦ .

٢ - امر كايثل في السابع والعشرين من تموز عام ١٩٤١ ، باتلاف جميع نسخ التوجيه الصادر في الثالث عشر من ايار في موضوع المحاكم العسكرية مع اشتراطه بأن لا يتاثر مفعول هذا التوجيه باتلاف هذه النسخ . « وازاف امر السابع والعشرين من تموز ، بأن من الواجب اتلاف نسخ هذا الامر نفسه . ولكن بعض النسخ من الامرين بقيت موجودة لتظهر في نورمبرغ ولتدمغ القيادة العليا بدليل الادانة .

وكان كايثل قد أصدر قبل أربعة ايام اي في الثالث والعشرين من تموز امرا آخر نص على انه « سري للغاية » . هذا نصه :

« أصدر الفوهرر في الثاني والعشرين من تموز بعد أن استقبل القائد العام للجيش (براوختش) الامر التالي :

« بالنظر الى المساحات الشاسعة التي تحتلها المناطق المحتلة في الشرق ، ستكون القوات المتوافرة لضمان الامن والاستقرار كافية اذا عوقبت جميع جرائم المقاومة لا بالاجراءات القانونية المعروفة بل بنشر الارهاب من قبل قوى الاحتلال ، على . يكون من النوع الكافي لمحو كل ميل للمقاومة عند السكان » (نص التوجيه المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٦٣٧ - ٦٣٩ وهناك نص آخر في نفس المصدر (٦) ص ٨٧٢ - ٨٧٥) .

أن يعمل مستقلاً « عن الجيش » وعلى « مسؤوليته الخاصة » . وقد أدرك القادة العسكريون تمام الإدراك ما عناه تعيين هتلر « لهذه المهام الخاصة » ، على الرغم من أنهم انكروا معرفتهم ذلك عندما وقفوا في محكمة نورمبرغ . يضاف الى هذا ان التوجيه قد اعلن وجوب منع الدخول الى المناطق المحتملة في روسيا عندما يكون هتلر عاملاً فيها . واشترط هتلر ان لا يسمح « حتى للشخصيات الكبيرة في الحكومة او الحزب » بدخول هذه المناطق ورؤية ما يدور فيها . وانتدب نفس التوجيه غورنغ لتولي « عملية استغلال البلاد وضمان استخدام الصناعة الألمانية لما فيها من موجودات اقتصادية » . واعلن هتلر في أمره هذا بصورة عرضية ايضاً ان روسيا « ستقسم فور انتهاء العمليات العسكرية فيها الى ولايات مستقلة لكل منها حكومتها الخاصة بها » ^(١) .

وقد عهد الى الفرد روزنبرغ البلطقي ، المدمن على الخمر ، والمعتبر رسمياً ، المفكر النازي الأول ، والذي كان من اوائل المؤمنين بهتلر من ايام ميونيخ ، بوضع الخطط العملية اللازمة لتنفيذ هذه الاجراءات . فقد عينه الفوهرر في العشرين من نيسان « مفوضاً لهيئة الاشراف المركزية على القضايا المتعلقة بمنطقة اوروبا الشرقية » وسرعان ما هب هذا الأحقق النازي المتميز بغبقرية ايجابية في اساءة فهم التاريخ ، حتى تاريخ روسيا البلاد التي نشأ فيها وترعرع وتثقف ، ومضى يقيم قواعده في البلاد التي كانت في يوم ما مسقط رأسه . وقد عثر على ملفات روزنبرغ الضخمة سليمة ، وهي مثل كتبه متعبة لمن يقرأها ، ولذا فلن اسمح لها بقطع سياق هذه القصة وان كنت أرى وجوب الرجوع اليها احياناً لأنها تحسر النقاب عن الخطط التي وضعها هتلر لروسيا .

وكان روزنبرغ قد أعد في مطلع شهر ايار أول طبعة زرقاء خطية عمّا اعتبر أعظم فتح ألماني في التاريخ فقد قررت هذه الطبعة أولاً تقسيم روسيا الأوروبية الى ما يسمى « بمفوضيات الرايخ » . ونصت على ان تتحول بولندا الروسية الى

١ - نص التوجيه الصادر في ١٣ ايار ١٩٤١ (المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص

محمية ألمانية يطلق عليها اسم « اوستلاند » ، بينما تعلن اوكرانيا « دولة مستقلة متحالفة مع المانيا » . ويتولى « مفوض » الماني خاص حكم بلاد القفقاس بما فيها من حقول الزيت الغنية ، وتؤلف دويلات البلطيق وروسيا البيضاء محميات المانية تمهيداً لضمها مباشرة الى الرايخ الالماني الأكبر . وشرح روزنبرغ في احدي مذكراته التي لاعد لها ولا حصر والتي انهال بها على هتلر وقادته العسكريين ، ان هذا يمكن تحقيقه ليهدف الى « الافصاح عن الاوضاع التاريخية والعنصرية » اللازمة لتنفيذ قراراته ، والتي لا يمكن تنفيذها الا « بألمنة » البلطيقين المشابهين عنصرياً للألمان واستبعاد العناصر غير المرغوب فيها . وأنذر بأن من الواجب « توقع عمليات ابعاد واسعة المدى في لاتفيا واستونيا » . وسيحل الألمان وغالباً ما يكونون من المحاربين القدماء محل الذين يتم ابعادهم . ويجب ان يتحول « بحر البلطيق الى بحيرة المانية داخلية » (١) .

والقى روزنبرغ قبل يومين من وثوب القوات على روسيا خطاباً في اقرب اعوانه الذين قرر ان يشتركوا معه في حكم روسيا قال فيه :
(تقف مهمة اطعام الشعب الألماني في طليعة مطالب المانيا من الشرق . وعلى سكان المناطق الروسية الجنوبية ان يعملوا كالخدم .. لاطعام الشعب الألماني .

« ونحن لا نرى مطلقاً أي داع لأي التزام من جانبنا لاطعام الشعب الروسي بالفائض من منتجات تلك البلاد . ونحن نعرف ان هذه الضرورة قاسية وعارية من كل مشاعر .. وسيخيب المستقبل عدة سنوات قاسية للشعب الروسي » (٢) .

حقاً انها لسنوات قاسية للغاية ، اذ ان الألمان كانوا يعدون العدة بصورة متعمدة لتجويع الملايين من الروس حتى الموت .

١ - نص تعليمات روزنبرغ - المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٦٩٠ - ٦٩٣ .

٢ - النص في المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٧١٦ - ٧١٧ .

وكان غورنغ الذي عهد إليه بتولي الاستغلال الاقتصادي للاتحاد السوفياتي ، أكثر وضوحاً من روزنبرغ نفسه في هذه القضية . فقد أصدرت هيئة اركانه الاقتصادية للشرق في الثالث والعشرين من ايار عام ١٩٤١ ، توجيهاً مطولاً ، اشترطت فيه ان لا يحول الفائض من المنتجات الزراعية في المناطق الخصة في الجنوب الروسي الى أهل المناطق الصناعية ، حيث ستدمر المصانع فيها . ومن الواجب ترك العمال وعائلاتهم في هذه المناطق يموتون جوعاً ، أو يسمح لهم بالهجرة الى سيبيريا اذا استطاعوا الى هذه الهجرة سبيلاً . أما انتاج روسيا العظيم في المواد الغذائية فيجب ان يحوّل الى الألمان . ومضى التعميم يقول :

« وعلى الادارة الألمانية في هذه المناطق ان تحاول تلطيف آثار المجاعة التي ستقع حتماً فيها ، وان تعجل في العودة الى الأوضاع الزراعية الأولية . ولكن هذه الاجراءات لن تحول دون المجاعة . وستكون أية محاولة لإنقاذ الناس هناك من الموت جوعاً ، عن طريق استيراد الفائض من المناطق الخصة ذات القرية السوداء ، على حساب المؤن المرسلة الى اوروبا ، مما يضعف من طاقة المانيا على المضي في الحرب ، ويحطم قدرة المانيا وأوروبا على مقاومة الحصار ، عليكم جميعاً ان تفهموا هذه الأمور بوضوح وصراحة » (١) .

ترى كم عدد المدنيين الروس الذين سيموتون نتيجة هذه السياسة الألمانية المتعمدة ؟ . هناك اجتماع عقده رؤساء الوزارات في الثاني من ايار ، قدم رداً عاماً على هذا السؤال . فقد نقلت مذكرة سرية عن الاجتماع انه قرر « ان ليس ثمة من شك في ان نتيجة هذه السياسة ستعني موت الملايين من الاشخاص جوعاً ، هذا اذا اخذنا من البلاد كل ما يحتاج اليه » (٢) . وقد أكد غورنغ ومعه روزنبرغ ايضاً ان هذه الحاجات ستؤخذ من البلاد ، وان على الجميع ان يفهموا هذا

١ - نص التوجيه - المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ٢٠٠

٢ - مذكرة عن الاجتماع - المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٢٧٨ .

بوضوح وصراحة .

فهل قام ألماني واحد، يحتاج على هذه الوحشية المتعمدة والمخطط لها بل وعلى هذه الخطة المدروسة الرامية الى قتل الملايين من الناس عن طريق تجويعهم؟ اننا لا نرى في جميع المذكرات المتعلقة بالتوجيهات الألمانية لسلب روسيا أي ذكر لأية معارضة من أي نوع، حتى ولو كانت من طراز ما ابداه القادة العسكريون من معارضة « لأمر المفوضين » . ولم تكن هذه الخطط مجرد خيالات شريرة وشرسية ، راودت عقولاً وأرواحاً شاذة لبعض الرجال من امثال هتلر وغورنغ وروزنبرغ ، فقد اتضح من السجلات والوثائق ان مئات الموظفين الالمان ظلوا يعملون في مكاتبهم اسابيع وشهوراً طويلة ، في ايام الربيع المشرقة الدافئة ، يجمعون الارقام ويضعون المذكرات التي تحسب عن عمد وسابق اصرار ، ضحايا ذبح الملايين من الناس . وقد تقرر ان يكون التجويع سلاح هذا القتل ، وجلس هنريخ هملر ، صاحب الوجه الوديح ، ومربي الدجاج السابق في مكتبه في مقر قيادة الحرس النازي في برلين في تلك الايام ، يدرس من وراء نظارتيه المشاريع التي أعدت له لذبح ملايين اخرى بطرق اسرع واكثر عنفاً .

وأحس هتلر بالرضى من عمل احبائه الكثيري الجدد ، من عسكريين ومدنيين في وضع الخطط لاجتياح الاتحاد السوفياتي وتدميره واستغلاله ، ولقتل الملايين بالجملة من مواطنيه ، فحدد في الثلاثين من نيسان موعد الهجوم في الثاني والعشرين من حزيران ، ثم القى خطابه المنتصر في الرايشستاغ في الرابع من ايار ، وانسحب الى ركنه الهادىء اللطيف في « عش النسر » فوق ذرى برختسغادن . حيث يستطيع ان يتطلع بعينه الى ما في جبال الالب من روعة الجمال ، وقد اكتست قممها بثلوج الربيع ، وان يتصور فتوحاته المقبلة ، التي يعتبرها اعظم من كل ما حقق من فتوحات سابقة ، والتي سبق له ان قال عنها لقادته العسكريين ، ان العالم بأسره سيقف أمامها مشدوهاً متقطع الانفاس .

وهنا ، وفي هذا المكان الهادىء المنعزل ، تلقى ليلة السبت العاشر من ايار عام ١٩٤١ ، أنباء غريبة وغير متوقعة ، هزته هزاً عنيفاً ، وارغمته كما ارغمت

كل انسان آخر تقريباً في العالم الغربي ، على الابتعاد بتفكيره ولو مؤقتاً عن حوادث الحرب ووقائعها ، فأقرب المقربين اليه ، ونائبه في زعامة الحزب النازي ، والرجل الثاني في التسلسل بعد غورنغ لخلافته في حكم المانيا ، والحدن الأمين الذي ظل على اخلاصه له وولائه المهووس منذ عام ١٩٣١ ، ومنذ مصرع روم ، واقرب الاصدقاء الى قلبه ، قد طار من القفص فعلاً ، وراح ، يفاوض العدو ، على مسؤوليته الخاصة .

فرار رودلف هس

أصاب النبأ الأول الذي تلقاه هتلر عشية ذلك اليوم العاشر من ايار ، عن ركوب رودلف هس وحيداً ، طائرة المانية مقاتلة من طراز مسر شмит (١١٠) متجهاً الى سكوتلندة ، الزعيم ، كما روى الدكتور شميدت فيما بعد ، بذهول يشبه ما قد يصيبه « لو اصابته قنبلة عش النسر »^(١) . وعثر الفريق كايتل على الفوهرر وهو يذرع مكتبته الفسيحة جيئة وذهاباً مشيراً باصبعه الى جبهته ومتمماً بصوت خفيض ان هس قد جنّ حقاً^(٢) . وهتف هتلر صارخاً : « يجب ان اتحدث الى غورنغ فوراً » . وعقد في الصباح التالي اجتماعاً صاحباً شهده غورنغ وجميع قادة الحزب ، واخذ يدرس معهم الطريقة التي يجب ان يصور فيها هذا الحادث المربك وهو يقدمه الى الرأي العام في المانيا والخارج . وشهد كايتل فيما بعد ، ان سكوت البريطانيين في البداية عن وصول هذا الزائر لم يهتفوا عليهم مهمتهم ، وتركز أمل هتلر ومستشاريه في البداية ، على ان تكون طائرة هس ، قد نضب خزانها من الوقود ، وان يكون قد سقط بها في بحر الشمال ولقي حتفه في اعماقه الباردة .

١ - شميدت - ترجمان هتلر ص ٢٣٣ .

٢ - استجواب كايتل - المؤامرة التآزيرية والمدوان - الملحق (ب) ص ١٢٧١ - ١٢٧٣ .

وقد جاءت الانباء الاولى لهتلر عن الموضوع في رسالة تفتقر نوعاً ما الى التماسك ، كتبها هس وسلمها رسول خاص بعد بضع ساعات من طيرانه في الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والاربعين من بعد ظهر العاشر من ايار من مدينة اوغزبرغ . وقال هتلر يحدث كايثل : « انني لا استطيع ان اعرف هس في هذه الرسالة . إنه شخص آخر مختلف تمام الاختلاف . ولا ريب في ان شيئاً ما قد حدث له . شيء من طراز الاضطرابات العقلية » . ولكن الفوهرر ظل يشك فيما وقع ، فأمر باعتقال مسر شमित الذي طار هس من مطار شركته ، كما اعتقل عشرات من موظفي مكتب نائب الزعيم .

وإذا كان هتلر قد دهش من رحيل هس المفاجيء فإن دهشة تشرشل من مجيئه غير المتوقع كانت اكبر واشد ^(١) . أما ستالين فقد ثارت شكوكه الى حد كبير للغاية . وظلت هذه الحادثة الغريبة سرّاً من الاسرار طيلة الحرب ، ولم تتضح إلا في محادثات نورمبرغ عندما وقف هس بين زمرة المتهمين . وفي وسعنا أن نسرد الحقائق المتعلقة بها بإيجاز .

كان هس دائماً رجلاً مهووس الفكر وان لم يكن يماثل روزنبرغ في الحماسة . وقد طار الى بريطانيا مدفوعاً بفكرة خادعة طرأت على عقله ، بأن في استطاعته ان يصل الى تسوية سلمية مع بريطانيا . وعلى الرغم مما في هذه الفكرة من خداع ، إلا ان مما لا شك فيه انه كان مخلصاً ، وليس ثمة من داع مطلقاً الى الشك في هذا الاخلاص . وكان هس قد تعرف الى الدوق هاملتون في برلين إبان الالعب الاولمبية في عام ١٩٣٦ ، وعندما بات على بعد اثني عشر ميلاً من منزل الدوق في اسكوتلندة ، مما يشير الى دقته في الملاحة الجوية ، راح يقذف بنفسه من طائرته المسر شमित ، ويهبط بمظلته سالماً الى الارض ، فيسأل فلاحاً رآه أمامه ان ينقله الى منزل اللورد الاسكوتلندي . وحدث ان كان الدوق

١ - رسم تشرشل صورة واضحة للطريقة التي تلقى فيها النبأ في ساعة متأخرة من ليلة السبت ، عندما كان يزور دارته الريفية ، وكيف ان النبأ بدا له غريباً في بداية الامر الى حد عدم تصديقه (مذكرات تشرشل - الجزء الثالث - الحلف الاعظم . ص ٥٠ - ٥٥) .

في السلاح الجوي الملكي ، وهو قائد جناح في عمله تلك الليلة ، في إحدى غرف العمليات في قطاع من القطاعات ، وكان قد رأى طائرة المسر شملت على شاشة الرادار وهي تقترب من الساحل ثم رآها تتجه نحو الأرض بعيد الساعة العاشرة . وبعد نحو من ساعة ، نقل اليه نبأ سقوطها على الأرض وقد اشتعلت فيها النيران ، وان طائرها الذي هبط بمظلته قد ذكر ان اسمه الفرد هورن وادعى انه قادم في « مهمة خاصة » لمقابلة الدوق هاملتون . وقد رتبّت السلطات البريطانية أمر هذا الاجتماع في الصباح التالي .

وراح يشرح للدوق انه قادم في « مهمة انسانية وان الفوهرر لا يريد ان يهزم انكلترا وانه يريد وقف الحرب معها » . وقال هس ، ان هناك حقيقة واقعة ، وهي ان هذه هي المرة الرابعة التي يحاول الطيران فيها الى بريطانيا اذ اضطر في المحاولات الثلاث السابقة الى النكوص على عقبيه بسبب رداءة الطقس ، و اضاف ان هويته كعضو في وزارة الرايخ تظهر « اخلاصه ورغبة المانيا الصادقة في السلام » . ولم يتراجع هس في هذه المقابلة . وفي المقابلات التالية التي جرت له مع آخرين عن التأكيد بأن المانيا ستربح الحرب ، وانها اذا استمرت فإن حالة بريطانيا ستغدو فظيعة ، وهو ينصح مضيفه والحالة هذه بأن ينتهزوا فرصة وجوده ليفاوضوا لعقد الصلح . وكان هذا المتعصب النازي واثقاً من ان البريطانيين سيجلسون اليه ويتحدثون معه في أمر الصلح ، الى الحد الذي حمله على ان يطلب من الدوق ، أن يسأل الملك « منحه كلمة الامان » اذ انه جاء الى انكلترا دون أي سلاح وبمحض رغبته الخاصة ^(١) . وطالب فيما بعد بأن يعامل بالاحترام الذي يعامل به أي وزير .

وقد اجري المحادثات التالية معه ، من الجانب البريطاني ، باستثناء محادثة واحدة ، ايفون كير كباتريك السكرتير الأول السابق في السفارة البريطانية في برلين والخبير بالشؤون الألمانية . وقد عرضت تقاريره السرية عن المحادثات

١ - تقرير الدوق هاملتون الشخصي - المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٣٨ - ٤٠

كلها فيما بعد على محكمة نورمبرغ^(١). وراح هس يردد لهذا الانسان العليم بالشؤون النازية. ما سبق لهتر قوله من تفسيرات لاعتداءاته التي تبدأ بالنمسا مارة باسكندينايا ومنتهية بالاراضي المنخفضة ، واصر على القول بمسؤولية بريطانيا عن الحرب ، وعلى التأكيد بأنها ستخسر ما حتماً ، اذا لم توقفها الآن ، ثم تلا على مسامعه اقتراحاته لعقد الصلح . ولم تكن هذه الاقتراحات تعدو ما سبق لهتلر ان عرضه دون نجاح على تشمبرلين عشية هجومه على بولنده ، وهو ان تطلق بريطانيا حرية العمل والمجال لألمانيا في اوروبا مقابل اطلاق هذه لها حرية العمل والمجال في امبراطوريتها . ونصت الاقتراحات ايضاً على وجوب عودة المستعمرات الألمانية السابقة ، وعلى وجوب قبول بريطانيا بعقد الصلح مع ايطاليا . وقد روى كير كباتريك في تقريره ما يلي :

« وعندما كنا نوشك اخيراً على مغادرة الغرفة ، اطلق هس سهمه الاخير . فقد اعلن انه نسي ان يؤكد ، بأن هذه الاقتراحات لا يمكن ان تقبل من جانب المانيا إلا اذا تولت المفاوضة فيها حكومة انكليزية غير الحكومة الحالية . فالمستر تشرشل الذي خطط للحرب منذ عام ١٩٣٦ ، وزملاؤه الذين باعوا أنفسهم لسياسته الحربية ليسوا من النوع الذي يستطيع الفوهرر ان يرضى عنه » .

وفي رسم كل مر ف هس شخصياً ، ان يشهد بأنه كان الساذج الوحيد بين الألمان الذين مضوا بعيداً في السياسة التي شنها الحزب النازي أولاً والرايخ الثالث ثانياً . وكان يتوقع كما يبدو من وقائع المحادثات التي جرت معه ان يستقبل فوراً كمفاوض جدي ، إن لم يكن من قبل تشرشل فمن « حزب المعارضة » ، الذي كان يظن ان الدوق هاملتون أحد زعمائه . وعندما وجد ان اتصالاته مع المسؤولين البريطان ظلت مقتصرة على كير كباتريك ، أخذ

١ - تقارير كير كباتريك عن مقابلاته لهس - المؤامرة النازية والعدوان (٨) ص ٤٠ - ٤٦

يفقد هدوءه ويتحول الى التهديد . وراح يرسم في المقابلة التي جرت له مع الدبلوماسي البريطاني الكثير الشكوك في الرابع عشر من ايار ، النتائج البوذية لبريطانيا اذا اصررت على المضي في الحرب . وقال إن بريطانيا ستشهد عما قريب حصاراً كاملاً للغاية وفضيماً للجزر البريطانية . وروى كير كباتريك ان هس قال له :

« وليس من المجدي بالنسبة الى أي انسان هنا ان يتصور بأن في وسع انكلترا ان تستسلم ، وان تواصل شن حربها من امبراطوريتها . ويعتزم هتلر في حالة وقوع مثل هذا ان يواصل حصاره لانكلترا . بحيث يصبح لزاماً علينا ان نواجه التجويع المتعمد لشعب هذه الجزر » .

وحدث هس على وجوب الشروع في المفاوضات التي تحمل الكثير من الاخطار لاجرائها فوراً . وقد أوضح لكير كباتريك كما روى هذا « ان طيرانه ، استهدف اعطاءنا فرصة للشروع في مفاوضات مع احتفاظنا بكرامتنا . واذا ما رفضنا هذه الفرصة فإن رفضنا هذا يعتبر بهاناً واضحاً على اننا لانريد التفاهم مع المانيا ، وان من حق هتلر في هذه الحالة ، بل من واجبه ، ان يحطمنا تمام التحطيم ، وان يتركنا بعد انتهاء الحرب في حالة من العبودية الدائمة » . وأصر هس على ان يظل عدد المفاوضين صغيراً . ومضى يقول :

« وهو كوزير من وزراء الرايخ لا يستطيع ان يضع نفسه في موقف الانسان الفرد الذي يتعرض لوابل من التعليقات والأسئلة من عدد ضخم من الناس » .

وقد انتهت المحادثات بالنسبة الى كير كباتريك عند هذا الحد المضحك . ولكن مجلس الوزراء البريطاني كما روى تشرشل نفسه ، وهو ما يثير الدهشة ^(١) قد طلب الى احد أعضائه وهو اللورد سيمون ان يقابل هس في العاشر من حزيران .

١ - تشرشل مذكرات - الجزء الثالث - الحلف الاعظم . ص ٥٤

وقد روى محامي الدفاع عن هس في محكمة نورمبرغ ان سيمون وعده بأن يعرض اقتراحاته السلمية على الحكومة البريطانية (١).

وليس ثمة من من شك في وضوح دوافع هس . فلقد اراد مخلصاً السلام مع بريطانيا . ولم يكن لديه ذرة من الشك في ان ألمانيا ستربح الحرب وستحطم المملكة المتحدة ما لم يعقد الصلح فوراً . وكانت هناك ولا ريب اهداف اخرى . فلقد جاءت الحرب له بكسوف شخصي . ورأى ان ادارته للحزب النازي ككنايب هتلر ، إبان الحرب ، عمل بليد ، وليست فيه أية أهمية . وكان كل ما يهم المانيا الآن ، تسيير دفة الحرب ودفة الشؤون الخارجية . وكانت هذه هي القضايا التي استأثرت دون سواها باهتمام الفوهرر ، وسلطت الاضواء على غورنغ وريبنتروب وهملر وغوبلز والقادة العسكريين . وأحس هس بالمرارة والغيرة . فهل هناك من سبيل أفضل لاستعادة مركزه القديم عند زعيمه المحبوب وفي البلاد ، من القيام بمثل هذه الخطوة الجريئة والرائعة من الفراهة السياسية ، وتدير امر الصلح ، بصورة فردية بين المانيا وبريطانيا ؟

واخيراً كان نائب الزعيم الكث الحاجبين كفيره من كبار قادة النازي الآخرين وفي مقدمتهم هتلر نفسه وهملر ، قد شرع يؤمن ايماناً قوياً بالتنجيم والفلك . فعندما كان في نورمبرغ اسر لطبيب السجن النفساني الدكتور دوغلاس . ام . كيلى ، ان احد منجميه كان في أواخر عام ١٩٤٠ ، قد قرأ له طالعه ، فقال له ان نجمه يشير الى ان العناية الالهية تشاء له ان يحقق السلام . وروى ايضاً ان مستشاره القديم الاستاذ هوشوفر ، العالم الجغرافي - السياسي في ميونيخ ، قد رآه في الحلم ، يخطو عبر قاعات القصور الانكليزية المسدلة

١ - محاكمات كبار مجرمي الحرب الالمان (١٠) ص ٧ . قال هس لمحكمة نورمبرغ ان اللورد سيمون قد قدم نفسه اليه باسم « الدكتور غوثري » ، وانه قال له ما يلي : « لقد جئت مخولاً من الحكومة ، وانا على استعداد للبحث معك في كل شيء قد يبدو نافعا ، وقد ترغب في الافضاء به لبصل الى علم الحكومة » (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٧٤)

الستائر حاملاً السلام الى الشعبين « النورديين » العظمين^(١) . ولا ريب في أن مثل هذه الأقوال لرجل لم يخرج قط عن دور المراهقة الفكرية ، قد سيطرت على جميع أفكاره ، وساعدت على ان توحى له بالقيام بهذه المهمة الغريبة الى انكلترا .

وخرج أحد ممثلي الادعاء في نورمبرغ ، وهو انكليزي ، بفكرة جديدة عن الدافع الى رحلة هس . فقد ذكر ان نائب الفوهرر طار الى انكلترا ليحاول الوصول الى تسوية سلمية معها . لتتمكن المانيا من الحرب في جبهة واحدة عندما تشرع في هجومها على الاتحاد السوفياتي . وقال ممثل الادعاء الروسي للمحكمة انه واثق من صحة هذا الدافع . وقد شاركه في هذه الثقة أيضاً حوزيف ستالين ، الذي تركزت شكوكه العظيمة في هذه الآونة على بريطانيا لا على المانيا حيث كان من الواجب ان تتركز . وقد أقنعه وصول هس الى سكوتلندة ، بأن ثمة مؤامرة خفية للغاية يجري طبخها بين تشرشل وهتلر . لفتح لألمانيا في هجومها على الاتحاد السوفياتي نفس الحرية التي أتاحها لها الديكتاتور الروسي عند مهاجمتها بولندة والغرب . ولم يشأ ان يعدل عن هذا الاعتقاد ، حتى بعد ثلاث سنوات عندما حاول رئيس الوزراء البريطاني في زيارته الثانية لموسكو اقناعه بالحقيقة . ولكن يتضح الى حد كبير من عملية الاستجواب التي قام بها كبير كباتريك للرجل ، والتي حاول فيها ان يستخلص منه ما لديه من معلومات عن نوايا هتلر تجاه روسيا ، ان هس كان أحد رجلين ، أما الجاهل بوجود عملية بربروسة تمام الجهل ، أو الرجل الذي لا يعرف انها واقعة في وقت قريب ، هذا إذا كان قد عرف بوجودها حقاً .

وكانت الأيام التي تلت هروب هس المفاجيء ، من أشد الأيام مضايقة وإزعاجاً لهتلر في حياته . فقد أدرك ان سمعة عهده ونظامه ، قد تحطمت الى حد كبير من جراء فرار أخلص أنصاره والمتعاونين معه . وراح يفكر في الطريقة

١ - دوغلاس أم . كيلي . زنانات نورمبرغ ص ٢٣ - ٢٤

التي يجب أن يلجأ إليها لشرح هذه القضية الى الشعب الالماني والى العالم الخارجي . وأقنعه استجواب المعتقلين من بطانة هس بأن ليس ثمة من مؤامرة عليه أو افتقار الى الولاء له . وآمن بأن مساعده ، قد انهار ليس إلا . وتقرر في اجتماع عش النسر ، وبعد ان أيد البريطانيون وصول هس الى بلادهم ، تقديم هذا التفسير الى الشعب . وسرعان ما نشرت الصحف الالمانية وصفاً قصيراً ، ذكرت فيه ان هذا الرجل الذي كان قبل قليل كوكباً ساطعاً من كواكب الاشتراكية الوطنية قد بات « انساناً مهووساً ، وخيالياً ملتبس العقل ، ومرتبكه ، تسيطر عليه « الهلوسات » التي يمكن ردها الى ما أصيب به من جراح في الحرب الكونية الأولى » . ومضى البلاغ الرسمي الذي نشرته الصحف الألمانية يقول :

« ويبدو ان رفيق الحزب هس ، قد عاش أخيراً في حالة من « الهلوسة » والخيال حملته على الاعتقاد بأن في وسعه ان يحقق تفاهماً بين انكلترا وألمانيا ... ولن يؤثر هذا الحادث على أي حال ، على مواصلة الحرب التي فرضت فرضاً على الشعب الألماني » .

وأصدر هتلر أوامره سرّاً ، بقتل هس فوراً إذا عاد ^(١) ، كما أمر علناً بإقالة رفيقه القديم من جميع مناصبه ، واختار محله ، في نيابة زعامة الحزب مارتن بورمان ، الرجل الأكثر دهاء ومكرّاً من سلفه . وأمل الفوهرر ، في أن

١ - عاش هس بعد هتلر ، وظهر في محاكمات نورمبرغ ، شخصاً محطمها حزيناً ، يتظاهر في شطر من المحاكمات بفقدان الذاكرة ، وان كان عقله في الحقيقة قد اهتز وفقد توازنه . وقد حكمت عليه المحكمة بالسجن مدى الحياة ونجا من الحكم بالاعدام ، رافة بحاله من جراء ما أصيب به من انهيار عقلي . وقد وصفت وضعه في نهاية كتابي .. « يوميات برلين » .

وقد عامله البريطانيون معاملتهم لاسرى الحرب ، واطلقوا سراحه في الماشر من تشرين الاول عام ١٩٤٥ ، ليتحكن من الظهور كمتهم امام محكمة نورمبرغ . وكان اثناء اسره في انكلترا ، يشكو بمرارة من ان البريطانيين قد انكروا عليه حقه في « الامتيازات الدبلوماسية الكاملة » ، التي واصل المطالبة بها ، وبدأ عقله غير المتزن ، ينهار شيئاً فشيئاً ، متمرضاً الى نوبات من فقدان الذاكرة . وقد روى للدكتور كيلبي ، انه حاول الانتحار مرتين اثناء اعتقاله . واذاف انه بات على يقين من ان البريطانيين يحاولون قتله بالسّم .

ينسى الناس في وقت قريب هذه القصة الغريبة ، وعادت أفكاره تتجه بسرعة إلى موضوع الهجوم على روسيا الذي لم يعد موعده بعيداً .

حالة الكرملين

ظل رجال الكرملين ، وعلى رأسهم ستالين يأملون مع ما عرف عنهم من واقعية مجردة ، أملاً أعمى ، في ان تنجو روسيا بشكل من الأشكال من خنق الطاغية النازي ، هذا على الرغم من قيام جميع الدلائل على نوايا هتلر كحشده الجيوش الجرارة في بولندة ، وتجميعه أكثر من مليون جندي نازي في دول البلقان القريبة ، واحتلال قواته المسلحة ليوغوسلافيا واليونان بالإضافة الى رومانيا وبلغاريا والمجر . ولكن شكوكهم الطبيعية كانت تنمو بدون ريب وتزايد على ضوء الحقائق العارية ، ولم يكن في وسعهم ان يكتبوا سخطهم المتزايد من حركات هتلر في جنوب شرق أوروبا . ومع ذلك ، فهناك شيء يبعد كثيراً عن الواقع ، ولا يكاد يصدق أو يفهم ، في تلك الرسائل الدبلوماسية التي تبودلت بين موسكو وبرلين في غضون أسابيع ذلك الربيع ، والمحفوظة في الوثائق الألمانية المصادرة ، إذ تصور من ناحية محاولات الألمان الرغناء لخداع الكرملين حتى النهاية ، وعجز القادة السوفييات ، عن إدراك الواقع إدراكاً تاماً وصحيحاً ، واتخاذ الخطوات اللازمة لمواجهة هذا الواقع في الوقت المناسب .

وعلى الرغم من ان الروس قد احتجوا مرات عدة على دخول القوات الألمانية الى رومانيا وبلغاريا ، وكذلك على الهجوم على يوغوسلافيا واليونان ، معتبرين هذه الأعمال خرقاً للميثاق النازي - السوفيياتي ، وتهديداً « لمصالح الأمن السوفيياتية » ، إلا أنهم مالبثوا ان تراجعوا ، وأغرقوا في محاولة ترضية برلين ، كلما اقترب موعد الغزو . وقد تولى ستالين نفسه زمام المبادرة في هذا الميدان . فقد أبرق السفير الألماني فون ديرشولنبرغ من موسكو في الثالث عشر من نيسان عام ١٩٤١ ، برقية ممتعة الى برلين ، روى فيها كيف ان ستالين قد

أبدى في تلك الليلة التي غادر فيها يوسوماتسوكا وزير خارجية اليابان موسكو أثر انتهاء زيارته لها ، « عواطف ودية بارزة » لا نحو اليابان وحدها ، بل ونحو ألمانيا أيضاً ... ومضى السفير يقول في برقيته :

« وعندما كنا في المحطة ، استدعاني ستالين بصورة علنية ، وألقى بذراعه على كتفي وقال : « يجب ان نظل أصدقاء ، وعليك أنت ان تفعل كل شيء لتحقيق هذه الغاية ! » . وعاد ستالين بعد قليل فالتفت الى ملحنا العسكري بالنيابة العقيد كريبس ، وبعد ان تأكد من هويته الألمانية ... قال له : « سنظل أصدقاء لكم ، مهما حدث » (١) .

وأبرق القائم بالأعمال الألماني في موسكو ، تيبلسكيرش ، بعد ثلاثة أيام الى برلين ، مؤكداً ان التظاهرة التي وقعت في المحطة ، قد أقامت الدليل على ما يحمله ستالين من صداقة لألمانيا ، وان أهميتها تقوم بصورة خاصة « بالنسبة الى الشائعات الرائجة باستمرار عن توقع نشوب الصراع بين ألمانيا والاتحاد السوفياتي » (٢) . وكان تيبلسكيرش ، قد أبلغ برلين في اليوم السابق ان الكرملين قد قبل « دون قيد أو شرط » وبعد شهر من الماطلة والتسويق ، الاقتراحات الألمانية لتسوية مشاكل الحدود بين البلدين من نهر ايفوركا حتى بحر البلطيق . وأضاف « ان هذا الموقف المتساهل من جانب الحكومة السوفياتية يعتبر في منتهى الغرابة والاهمية » (٣) . وليس ثمة من شك في هذه الغرابة بالنسبة الى ما كان يطبخ في برلين من إعدادات .

وظلت الحكومة السوفياتية على تساهلها أيضاً في موضوع تزويد ألمانيا المحاصرة بما تحتاج اليه من مواد أولية مهمة . وقد نقل شنوري المسؤول عن

١ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣٢٤

٢ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣٢٦ .

٣ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣٢٥ .

المفاوضات التجارية مع موسكو الى سادته النازيين في الخامس من نيسان عام ١٩٤١ ، وهو يكاد يطير من الفرح ، ان الشحنات الروسية بعد ما طراً عليها من هبوط في شهري كانون وشباط من العام نفسه بسبب ما وقع من « فتور في العلاقات السياسية » قد عادت الى الارتفاع بسرعة خارقة في شهر آذار ولا سيما في القمح والزيت ومعدن المنغيز وغيره من المعادن الثمينة وغير الحديدية . ثم أضاف قائلاً .

« وقد عادت حركة النقل العابرة في سيبيريا الى ما كانت عليه من نشاط . ووضعت الحكومة السوفياتية ايضاً تلبية لطلبنا قطار شحن خاصاً على الحدود المنشورية تحت تصرفنا لنقل المطاط » (١) . وعاد شنوري بعد ستة أسابيع أي في الخامس عشر من ايار فنقل الى حكومته ان الروس الكرماء ، قد وضعوا عدة قطارات شحن تحت تصرف الالمان لنقل أربعة آلاف طن من المطاط الخام الى المانيا على خطوط سيبيريا ، نظراً لحاجة المانيا الماسة الى هذه المادة . ثم قال :

« ويقوم الروس بتسليم كميات المواد الأولية التي تم التعاقد عليها ، بدقة في الأوقات المعينة ، على الرغم مما يلقيه هذا التسليم من أعباء ثقيلة عليهم ... واني لواقع تحت الانطباع بأن في وسعنا ان نطلب من الروس مطالب اقتصادية تتعدى الحدود المتفق عليها في معاهدة العاشر من كانون الثاني . وهي طلبات تتضمن لنا الحصول على كميات من الاغذية ومتطلبات المواد الأولية لالمانيا ، تفوق المدى الذي تعاقدنا عليه » (٢) .

وذكر شنوري ان تسليم الالمان للآلات التي تحتاج اليها روسيا والتي تم التعاقد عليها ، قد هبط هبوطاً كبيراً . وأضاف ان هذا لا يهم كثيراً طالما ان الروس راضون عن هذا الوضع . لكنه شعر بالقلق في تقريره في الخامس عشر

١ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣١٨ .

٢ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

من ايار ، من جراء عامل جديد . . فقد شكنا من « المتاعب العظيمة التي يخلقها هذا السيل الذي لا نهاية له من الشائعات عن توقع الصراع بين المانيا وروسيا » . وهي متاعب تقع مسؤوليتها على المصادر الالمانية الرسمية . وأوضح شنوري في مذكرة مطولة بعث بها الى الخارجية الألمانية ، إنه مندهش من ان هذه المتاعب لا تصدر عن روسيا وانما عن المؤسسات الصناعية الألمانية التي قال انها تحاول « الانسحاب » من عقودها مع الروس .

وأرى لزماً علي هنا أن أذكر بأن هتلر كان يبذل كل ما في وسعه لنفي هذه الشائعات ، وان كان في الوقت نفسه ، يحاول اقناع قادته العسكريين وكبار موظفيه بأن الخطر يتزايد على المانيا من توقع هجوم روسي عليها . وعلى الرغم من ان هؤلاء القادة العسكريين ، كانوا يعرفون الحقيقة من مصادر مخبراتهم ، إلا انهم كانوا كما يبدو واقعين تحت تأثير سحر هتلر عليهم ، الذي يكاد يشبه التنويم المغناطيسي ، حتى ان هولدر وبراوختش ومانشتاين وغيرهم من القادة العسكريين ، باستثناء باولوس الذي كان اكثر صدقاً منهم ، ظلوا بعد الحرب ، يقولون ان الحشود العسكرية السوفياتية على الحدود البولندية باتت منذرة بالخطر في مطلع صيف عام ١٩٤١ .

وقد اجتمع الكونت فون ديرشولنبرغ الذي وصل الى برلين قادماً من موسكو في اجازة قصيرة الى هتلر في الثامن والعشرين من نيسان وحاول اقناعه بنوايا روسية السلمية . وراح يشرح له افكاره قائلاً : « إن روسيا قلقة للغاية من الشائعات التي تتوقع هجوماً ألمانياً من روسيا » وأضاف قائلاً : « وأنا لا استطيع ان اصدق بأن روسيا ستهاجم قط المانيا ... واذا كان ستالين قد رفض السيرجنباً الى جنب مع انكلترا وفرنسا في عام ١٩٣٩ عندما كانتا قويتين ، فمن المؤكد انه لن يتخذ مثل هذا القرار اليوم وهو يرى ان فرنسا قد انتهت وان انكلترا قد دكت دكاً عنيفاً . واني لوائق على النقيض من ذلك ، من استعداد ستالين للمضي الى أبعد مما وصل اليه في التساهل معنا » .

وراح الفوهرر يتظاهر بالشك في ذلك . فلقد « حذره » ما وقع في صربيا

من أحداث ثم قال : « ترى أي شيطان استحوذ على الروس حتى يعقدوا ميثاق صداقة مع يوغوسلافيا ؟ » ^(١) . وأضاف قائلاً : « وانني لأصدق ان ليس في الإمكان حمل روسيا على مهاجمة المانيا » ، ولكنه يجد نفسه مضطراً رغم ذلك « الى اتخاذ موقف الحيطة والحذر » . ولم يتحدث هتلر الى سفيره في الاتحاد السوفياتي عن الخطط التي وضعها لغزو تلك البلاد ، وظل شولنبرغ ، وهو الالماني الشريف الصادق من رجال المدرسة القديمة جاهلاً بما يدور حتى النهاية .

وظل ستالين ايضا على هذا الجهل . وان لم يكن جاهلاً للدلائل والتحذيرات عما ينتوي هتلر عمله . واحتجت الحكومة السوفياتية رسمياً في الثاني والعشرين من نيسان على ثمانين حادثة من حوادث انتهاك الطائرات النازية لحدود بلادها وقعت بين السابع والعشرين من آذار والثامن عشر من نيسان ، وقدمت في احتجاجها التفاصيل الوافية المتعلقة بكل حادث من هذه الحوادث . وقالت مذكرة الاحتجاج ، انه عثر في احدى طائرات الاستطلاع الالمانية التي اضطرت الى الهبوط على مقربة من روفنو في الخامس عشر من نيسان على جهاز تصوير وعلى اسطوانات من الافلام التي تم تصويرها ، وعلى خريطة طوبوغرافية للمناطق القريبة من الاتحاد السوفياتية « وكلها دلائل واضحة على الهدف الذي كان يسعى إليه ملاحو الطائرة » . ومع ذلك فقد حافظ الروس على لهجتهم الودية حتى في احتجاجهم . إذ أضافت ان الأوامر قد صدرت الى قوات الحدود السوفياتية « بعدم اطلاق النار على الطائرات الالمانية التي تحلق فوق الارض السوفياتية طالما ان هذا التحليق لا يتكرر بصورة مستمرة » ^(٢) .

١ - كانت الحكومة السوفياتية في الخامس من نيسان أي في اليوم الذي سبق الهجوم الالماني على يوغوسلافيا قد سارعت الى عقد « معاهدة صداقة وعدم اعتداء » مع الحكومة اليوغوسلافية الجديدة هادفة من ورائها كما يبدو ، الى القيام بمحاولة محيطة لوقف هتلر عند حده . وكان مولوتوف قد نقل نبأ هذه المعاهدة الى شولنبرغ في الليلة السابقة ، وقد تلقى السفير الالماني على ذلك هاتفا : « انها لحظة غير مؤاتية مطلقاً » وحاول عبثاً ان يحمل الروس على تأجيل توقيع المعاهدة على الأقل . (العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣١٦-٣١٨)

٢ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣٢٨ .

وعاد ستالين في مطلع شهر ايار ، فخطا عدة خطوات جديدة للتفاهم مع المانيا. فقد طرد الممثلين الدبلوماسيين لبلجيكا والنرويج واليونان وحتى يوغوسلافيا من موسكو وأمر باغلاق مفوضياتهم سعيًا منه لإرضاء هتلر . واعترف بحكومة رشيد عالي في العراق الموالية للنازية (؟) . وفرض رقابة صارمة على الصحافة السوفياتية للحيولة دون استفزاز المانيا . وقد ابرق شولنبرغ الى برلين في الثاني عشر من ايار يقول :

« ان القصد من هذه التظاهرات من جانب حكومة ستالين عن نواياها ، تخفيف حدة التوتر بين الاتحاد السوفياتي و المانيا وخلق جو أفضل للمستقبل . وعلينا ان نذكر دائماً ان ستالين كان يؤيد تمام التأييد بصورة شخصية ودائماً وجود علاقات ودية بين المانيا والاتحاد السوفياتي » (١) .

وعلى الرغم من ان ستالين كان منذ عهد طويل الحاكم المطلق في الاتحاد السوفياتي ، إلا ان هذه هي المرة الأولى التي يستعمل فيها شولنبرغ في برقياته عبارة « حكومة ستالين » . وكان لهذا الاستعمال سبب طيب . ففي السادس من ايار ، تولى ستالين شخصياً رئاسة مجلس مفوضي الشعب أو رئاسة الوزراء ، خالفاً في هذا المنصب مولوتوف الذي ظل وزيراً للخارجية . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتولى فيها الامين العام للحزب الشيوعي ، وصاحب السطوة والنفوذ ، منصباً حكومياً ، وكان تفسير الرأي العالمي لهذا التبدل ، ان الوضع قد بات خطيراً كل الخطورة بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي ولا سيما من ناحية علاقاته مع المانيا النازية ، حتى ان ستالين أصبح وحده القادر على معالجته بوصفه الرأس الاسمي والحقيقي للحكومة . وكان هذا التفسير واضحاً كل الوضوح ، ولكن كان ثمة تفسير آخر أقل منه وضوحاً ، وقد أبرزه السفير الالماني ذو الكفاية ابرازاً جلياً في رسالته الى برلين .

١ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣٣٨ .

فلقد روى السفير ان ستالين كان غير راض عن التدهور الذي طرأ على العلاقات الالمانية - السوفياتية ، وقد حمل مسؤوليته لدبلوماسيته مولوتوف الجامدة وقال :

« واني لأرى ان في وسعنا الافتراض بأن ستالين قد وضع هدفاً لسياسته الخارجية يعتبر في منتهى الأهمية ... وهو يأمل في ان يصل الى هذا الهدف بجهود الخاصة . وإني لأعتقد اعتقاداً جازماً ، انه في مثل هذا الوضع الدولي الذي يعتبره ستالين خطيراً ، فإن هذا الرجل قد حدد لنفسه هدفاً وهو ابعاد الاتحاد السوفياتي عن الصراع مع المانيا »^(١).

ولكن ألم يكن الديكتاتور الروسي الداهية قد أدرك الآن أي في أواسط ايار عام ١٩٤١ ، ان من المستحيل عليه ان يحقق هذا الهدف ، وان سبيله الوحيد للوصول إليه لا يعدو ان يكون الاستسلام الذليل لهتلر ؟ وليس ثمة من شك في ان ستالين قد أدرك ما يعنيه احتلال هتلر ليوغوسلافيا واليونان ، وما يرمز اليه وجود هذه الحشود الضخمة من القوات الالمانية في رومانيا والمجر على حدوده الجنوبية الغربية ، وما يرمي اليه تركيز القوات المسلحة الالمانية على حدوده الغربية في بولندة . وليس ثمة من ريب ايضاً في ان هذه الشائعات المتواترة في موسكو قد وصلت الى مسامعه . إذ لم يكد يحل اليوم الأول من ايار حتى كانت الشائعات من الشدة بحيث دفعت شولنبرغ الى وصفها في برقية بعث بها الى برلين في الثاني من الشهر « بالأقاويل عن وقوع صراع عسكري في اقرب وقت بين المانيا وروسيا » وان هذه الأقاويل كانت من سعة الانتشار في العاصمة السوفياتية الى الحد الذي بات فيه هو وموظفو سفارته عاجزين عن دحضها ونفيها . ثم مضى يقول :

« وأرجو ان تتذكروا ان جميع محاولتنا لدحض هذه الشائعات

١ - برقيات شولنبرغ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

في موسكو لن تجدني فتيلًا ، إذا ظلت هذه الشائعات تصل باستمرار من المانيا ، وإذا بات كل مسافر قادم الى موسكو أو ماربها ، لا يكتفي بحمل هذه الشائعات معه بل ويؤكدها سارداً الحقائق التي تقوم دليلاً على صحتها » (١) .

وكان الشك قد بدأ يتطرق الى السفير المهنك نفسه . فقد ظلت التعليمات تصل إليه من برلين طالبة منه ان ينفي هذه الشائعات وان ينشر بدلاً منها أقوالاً تؤكد عدم وجود أية حشود المانية على حدود روسيا ، وان قوات كبيرة فعلاً (وقد حدد عددها بثماني فرق لمعلوماته الخاصة) ، يجري نقلها « من الشرق الى الغرب » (١) . ومن المحتمل ان تكون هذه التعليمات قد أيدت شكوك السفير وقلقه ، إذ ان الصحف في جميع أنحاء العالم كانت قد شرعت في هذا الوقت تطبل وتزمر للحشود الألمانية على الحدود السوفياتية .

وكان ستالين قبل أمد طويل من هذه الوقائع ، قد تلقى تحذيرات محددة عن خطط هتلر ومشاريعه . ولكن يبدو أنه لم يلق الى هذه التحذيرات بالاً . وكان اكثر هذه التحذيرات جدية وخطورة من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية . ففي مطلع كانون الثاني عام ١٩٤١ بعث سام . اي وودز ، الملحق التجاري الأمريكي في برلين ، بتقرير سري الى وزارة الخارجية في واشنطن يقول فيه انه علم من مصادر المانية موثوقة ، ان هتلر ، يعد الخطط اللازمة للهجوم على روسيا في الربيع المقبل . وكان هذا التقرير مطولاً ومليئاً بالتفاصيل التي تحدد خطة هيئة أركان الحرب الألمانية للهجوم (وقد قامت القرائن فيما بعد على صحة هذه التفاصيل ودقتها) ، والتي تشرح الاعدادات التي يجري اتخاذها لاستغلال الاتحاد السوفياتي اقتصادياً بعد استكمال احتلاله (٣) .

١ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣٣٤ .

٢ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

٣ - عرفنا ونحن في برلين سام وودز هذا ، وكان انساناً مستظهِراً بفطرته (اي مولماً بالظواهر) وكنا نرى فيه رغم حبنا له ، افتقاراً الى تفهم شؤون السياسة العالمية والتاريخ ،

وخيل الى كوردل هل وزير الخارجية الامريكية في بداية الأمر ، ان وودز وقع ضحية « خدعة » المانية . وراح يستدعي جي أدغار هوفر ، رئيس دائرة الاستخبارات المركزية . وعندما قرأ هوفر تقرير الرجل ، أكد صحته وصدقته . فقد ذكر وودز أسماء عدد من مصادره في مختلف وزارات برلين وفي هيئة أركان الحرب الألمانية ، وعندما تم التحري عن أصحاب هذه الأسماء في واشنطن ، تبين أنهم من الناس الذين يعرفون الكثير ، وان ميولهم المعادية للنازية تدفعهم الى الحديث والثرثرة . وقرر هل رغم العلاقات المتوترة بين الحكومتين الامريكية والسوفياتية ان يبلغ الروس المعلومات التي جاءته ، وأوعز الى وكيل وزارته سمنر ويلز بنقل فحوى التقرير الى السفير السوفياتي قسطنطين أومانسكي . وقد تم هذا في العشرين من آذار ، وكتب سمنر فيما بعد يقول :

« وعلا الشحوب وجه المستر اومانسكي . وسكت لحظة واحدة

ثم اكتفى بقوله :

« انني لأدرك تمام الإدراك خطورة الرسالة التي قدمتها لي . ولا

ولذا كان بالنسبة اليها آخر موظف في السفارة الامريكية في برلين يستطيع الوصول الى مثل هذه المعلومات الخطيرة ، ولا ريب في أن زملاءه في السفارة ما زالوا يشكون في أنه توصل الى هذه المعلومات ولكن كوردل هل قد أكد هذا في مذكراته وسرد تفاصيل التقرير . فقد روى وزير الخارجية المتوفي انه كان لوودز صديق الماني من خصوم النازية ، وكانت لهذا الصديق اتصالات عالية في وزارات برلين ، وبنك الرايخ والحزب النازي . وقد نقل هذا الصديق لوودز في شهر آب عام ١٩٤٠ ، ان مؤتمرات تمقد في مقر قيادة هتلر للدرس الاعدادات اللازمة لشن هجوم على الاتحاد السوفياتي . وظل هذا المخبر ، منذ ذلك الحين يطلع المحقق التجاري على كل ما يجري في هيئة اركان الحرب ، وبسبب اولئك الذين يخططون لاستفلال روسيا اقتصاديا . وكان وودز يجتمع الى هذا المخبر تجنباً للعيون والرقباء في مختلف دور السينما في برلين ويتسلم منه في الظلام قصاصات مطوية من الورق (راجع مذكرات كوردل هل - الجزء الثاني - ص ٩٦٧ - ٩٦٨) .

وقد غادرت برلين في كانون الاول عام ١٩٤٠ . وابلغني جورج كينان ، ألمع رجال السلك السياسي في السفارة . والذي ظل هناك ، ان السفارة علمت من مصادر عدة بالهجوم الالماني المقبل على روسيا . ويقول كينان هذا ان قنصلنا في كوينفريبرغ ، كوينيندال ، ابرق بتقرير قبل اسبوعين او ثلاثة اسابيع من بدء الهجوم ، يحدد فيه بالضبط الموعد الصحيح الذي سيبدأ فيه الزحف على روسيا .

ريب في أن حكومتي ستعترف بجميلكم على هذه الثقة ، وسأبلغها فوراً ما دار بيننا من حديث (١) .

ولكن الحكومة الأمريكية لم تتلق أية إشارة عن هذا الاعتراف بالجميل أو عن تصديق الحكومة السوفياتية لهذه المعلومات الهامة . ويروي كوردل هل في مذكراته ان موسكو غدت على النقيض أشد عداءً وشراسة في علاقاتها بأمريكا ، لأن مساعدتها - أي أمريكا - لبريطانيا ، قد حالت بينها وبين تزويد روسيا بكل ما تحتاجه من مواد . ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذا الموقف العدائي ، فإن وزارة الخارجية الأمريكية ، على حد رواية هل ، وقد تلقت برقيات من مفوضيتها في بخارست وستوكهولم في الأسبوع الأول من حزيران تؤكد عزم الألمان على غزو روسيا في غضون اسبوعين ، بعثت بنسخ من هذه البرقيات الى سفيرها ستانينهاردت في موسكو ، الذي تولى بدوره نقلها الى مولوتوف .

وحاول تشرشل بدوره ان يحذر ستالين ، ففي الثالث من نيسان طلب الى السير ستافورد كريبس ، سفيره في موسكو ، ان يسلم رسالة شخصية الى الديكتاتور ، يشير فيها الى مدى ما في تحركات القوات الالمانية في جنوب بولندا من أهمية الى روسيا ، مؤكداً له انه تلقى هذه المعلومات من أحد وكلاء بريطانيا السريين . وكان سخط تشرشل من تأخر كريبس في تسليم هذه الرسالة الى ستالين لا يزال ماثلاً عندما دوّن هذه الواقعة في مذكراته (٢) .

وقد عرف كريبس قبل انتهاء شهر نيسان الموعد المحدد للهجوم الالمانى ، وقد نفي الى علم الالمان ان كريبس يعرف هذا الموعد . فقد بعث الملحق البحري الالمانى في موسكو في الرابع والعشرين من نيسان برسالة مقتضبة الى القيادة العليا للأسطول في برلين هذا نصها :

« يتوقع السفير البريطانى ان يكون الثاني والعشرون من

١ - سمنر ويلز - حان الوقت للقرار ص ١٧٠ - ١٧١ .

٢ - تشرشل - مذكرات - الجزء الثالث - الحلف الاعظم ص ٣٥٦ - ٣٦١

حزيران يوم بدء الحرب» (١).

وقد دوت هذه الرسالة التي عثر عليها بين الأوراق النازية المصادرة ، من ليويميات الحربية للأسطول الالماني في نفس اليوم بعد ان أضيفت الى نهايتها اشارة تعجب (٢) . وقد دهش أمراء البحر الالماني من دقة تكهن السفير البريطاني . ولكن الملحق البحري الالماني المسكين ، الذي كان كسفيه في موسكو آخر من يعلم بالسر ، أضاف الى برقيته العبارة الساذجة التالية... «أنها سخافة كبرى» .

ويبدو ان مولوتوف قد شارك الملحق البحري تفكيره هذا . فقد استقبل بعد نحو من شهر من هذا التاريخ ، أي في الثاني والعشرين من ايار السفير الألماني شولنبرغ لبحث معه بعض القضايا . وراح السفير يبرق لبرلين ان مولوتوف كان كعادته «ودوداً وواثقاً من نفسه وغزير المعلومات» ، ثم أكد ان ستالين ومولوتوف «وهما أقوى رجلين في الاتحاد السوفياتي» يبذلان كل ما في وسعهما من جهد لتجنب الصراع مع المانيا (٣) .

ولكن السفير الفطن كان مخطئاً في نقطة واحدة على الأقل ، إذ لم يكن مولوتوف في هذه الآونة بالذات «غزير المعلومات» فعلاً . ولكن السفير نفسه لم يكن كذلك غزير المعلومات أو واسع الاطلاع .

وقد تبين مدى جهل وزير الخارجية السوفياتية وافتقاره الى المعلومات في تعبير علي أففى به في الرابع عشر من حزيران عام ١٩٤١ ، أي قبل أسبوع واحد من توجيه الضربة الالمانية . ففي ذلك المساء استدعى مولوتوف السفير شولنبرغ ، وسلمته نص بيان لوكالة «تاس» قال انه سيداع في تلك الليلة وستنشره الصحف في الصباح التالي (٤) . وقد اتهم البيان السفير البريطاني كريس شخصياً

١ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣٣٠

٢ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٩٧ .

٣ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣٤٤ .

٤ - العلاقات النازية السوفياتية . ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

بترويج « هذه الشائعات المنتشرة ، عن حرب وشيكة الوقوع بين الاتحاد السوفياتي والمانيا » في الصحف الانكليزية والاجنبية . وأكد البيان الرسمي الصادر عن الحكومة السوفياتية ان هذه الشائعات ليست إلا مجرد « سخافة واضحة » ومناورة دعائية حمقاء تقوم بها القوى المتكاثفة ضد الاتحاد السوفياتي والمانيا » ثم مضى يقول :

« وترى الدوائر السوفياتية ان الشائعات عن عزم المانيا .. على شن هجوم ضد الاتحاد السوفياتي تفتقر كل الافتقار الى الصحة » .
وفسر البلاغ التحركات الالمانية العسكرية الاخيرة من البلقان الى الحدود السوفياتية بأنها عادية « ولا شك لها بالعلاقات الالمانية - السوفياتية » . أما بالنسبة الى الشائعات القائلة بأن روسيا ستهاجم المانيا ، فقد وصفها البلاغ بأنها « كاذبة واستفزازية » .

ويظهر مدى السخرية في بلاغ « تاس » هذا ، بالنسبة الى الحكومة السوفياتية في خطوتين المانيتين ، وقعت احدهما يوم نشر البلاغ أي في الخامس عشر من حزيران ، ووقعت الثانية في اليوم التالي .

ففي الخامس عشر من حزيران بعث ريبنتروب من مدينة البندقية حيث كان يتشاور مع زميله شيانو ، برسالة سرية الى بودابست ، يحذر فيها الحكومة المجرية من الخطر ويطلب اليها « اتخاذ الاجراءات لضمان حدودها » .. ثم يقول : « بالنظر الى الحشود الروسية الضخمة على حدود المانيا الشرقية ، قد يجحد الفوهرر نفسه مرغماً في مستهل شهر تموز على أبعد تقدير ، على توضيح العلاقات الالمانية - الروسية ، والى تقديم مطالب معينة في هذا الصدد » (١) .

وهكذا نجد الالمان يلحون بعض التلميح الى المجرين ، بينما يضمنون بمثله على حليفهم الأول . إذ عندما وجه شيانو ، سؤالاً الى ضيفه ريبنتروب ، في اليوم

١ - العلاقات النازية السوفياتية ص ٢٤٦ .

التالي وكانا يستقلان « غندولا » في قنوات البندقية ، عن صحة الشائعات الرائجة حول هجوم الماني متوقع على روسيا ، رد وزير خارجية النازي قائلاً :

« ليس في وسعي يا عزيزي شيانو ، ان أفضي اليك حتى الآن بشيء ، لأن القرارات جميعها مخزنة في صدر الفوهرر الذي لا يمكن النفاذ إليه . لكن هناك شيئاً واحداً مؤكداً على الأقل ، وهو اننا إذا هاجمناهم ، فإن روسية ستالين ستمحي من الخارطة في غضون ثمانية اسابيع » (١) .

وبينما كان الكرملين يعد العدة لإذاعة بيانه « المهندم » الى العالم في الرابع عشر من حزيران عام ١٩٤١ ، مؤكداً فيه ان شائعات الهجوم الالماني على روسيا ليست إلا « سخافة واضحة » ، كان أدولف هتلر في اليوم نفسه ، يعقد آخر مؤتمراته العسكرية الضخمة لبحث مع كبار قادة القوات الألمانية المسلحة الخطوط النهائية لعملية بربروسه . وكان توقيت تجميع القوات في الشرق ، وتوزيعها ، وإعدادها في نقاط القفز ، قد حددت كلها في الثاني والعشرين من أيار . ولم تمض ايام حتى كان بيان آخر قد صدر متضمناً الصورة المعدلة للتوقيت (٢) . وهذا البيان طويل مسهب يتضمن كافة التفاصيل ويعتبر وثيقة في غاية الأهمية ، إذ يظهر انه لم يحل الأول من حزيران حتى كانت جميع الخطط « اللازمة لاجتياح روسيا قد استكملت وان تحركات القوات الواسعة والمعقدة ، بما في ضمنها الجنود والمدفعية والمدركات والطائرات والبواخر والتموينات قد قطعت شوطاً بعيداً طبقاً للخطة المرسومة . وتقول فقرة مختصرة في اليوميات الحربية لقيادة الاسطول بتاريخ التاسع والعشرين من ايار ان « الحركات الأولية للسفن الحربية المشتركة

١ - اقتبست هذه الفقرة من الجملة الاخيرة التي دونها شيانو في يومياته في الثالث والعشرين من كانون الاول عام ١٩٤٣ من الزنزانة رقم ٢٧ في سجن فيرونا قبل بضعة ايام من اعدامه . واضاف ان الحكومة الإيطالية علمت بالغزو الالماني لروسيا بعد ساعة من وقوعه (يوميات شيانو ص ٥٨٣)

٢ - يوجد النص في المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٨٥٢ - ٨٦٧) .

في عملية ببروسة قد بدأت » . واستكملت المحادثات مع اركان حرب كل من رومانيا والمجر وفنلندة ، وكانت الدولة الأخيرة تواقا الآن لاستعادة ما انتزعه الروس منها في حرب الشتاء . وأصدر هتلر من مقره في برختسغادن في التاسع من حزيران أمراً يدعو فيه قادة القوات المسلحة الثلاث العامين ، وكبار قادة الميدان الى اجتماع نهائي يدوم يوماً كاملاً ، ويعقد في برلين في الرابع عشر من حزيران للبحث في ببروسة .

وعلى الرغم من ضخامة المهمة ، فإن هتلر وقادته العسكريين كانوا في وضع الوثائق المطمئن وهم يدرسون تفاصيل « اللحظة الأخيرة » لأعظم عملية عسكرية شهدتها التاريخ ، تتمثل في هجوم عام على جبهة تمتد نحواً من ألف وخمسمائة ميل من ميناء بتسامو على المحيط المتجمد الشمالي الى البحر الأسود . وكان براوختش قد عاد في الليلة الفائتة الى برلين من جولة تفتيشية على التحشدات في الشرق . ودون هولدر في يومياته ان القائد العام للجيش كان مرتاحاً كل الارتياح ، إذ وجد جميع الضباط والجنود في أروع حالة وعلى أتم الاهبة والاستعداد .

وقد انتهى هذا الحفل العسكري للصاحب الأخير في الساعة السادسة والنصف من مساء اليوم نفسه ، وكان قد بدأ في الساعة الحادية عشرة ، ولم يتوقف إلا عند الساعة الثانية بعد الظهر قليلاً ليتناول الحاضرون الغداء الذي انتهز هتلر فرصته ليلقي على مسامعهم خطاباً آخر من خطبه النارية الاستفزازية التي تعود على إلقائها عشية المعارك ^(١) . ويقول هولدر ان هذا الخطاب كان من « الخطب السياسية الجامعة » التي أكد فيها هتلر ، انه يجد نفسه مضطراً لمهاجمة روسيا ، اذ ان انهيار ما سيرغم انكلترا على « التسليم » ، ويبدو ان الفوهرر المتعطش للدماء ، قد أكد شيئاً آخر غير هذا . وقد تحدث كايكل عما أكده زعيمه إبان

١ - لم نشر على وقائع هذا الاجتماع الرسمية بين الوثائق المصادرة ولكن هولدر قدم وصفا له في يومياته بتاريخ الرابع عشر من حزيران عام ١٩٤١ ، كما ان كايكل اورد في افادته امام محكمة نورمبرغ وصفا له (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٥٢١ - ٥٢٢) . وتحدثت يوميات اركان حرب الاسطول الحربية بايجاز عنه .

الاستجواب المباشر في محكمة نورمبرغ اذ قال :

« كانت الفكرة الأساسية من خطاب هتلر ان الصراع القادم ، معركة حاسمة بين عقيدتين ، وان علينا ان ننظر الى الاجراءات التي نعرفها كجنود - وهي الاجراءات الوحيدة الصحيحة في نظر القانون الدولي - يجب ان تقيّم على اساس مفاهيم مختلفة تمام الاختلاف . »

واضاف كايتل ، ان الفوهرر شرع بعد ذلك يصدر أوامر مختلفة لانقاذ ارهاب لا مثيل له في روسيا « بالطرق الوحشية » .

وراح محامي الدفاع عن كايتل يوجه اليه السؤال التالي : « ولكن هل أثرت انت أو غيرك من القادة العسكريين أية اعتراضات على هذه الأوامر ؟

فرد كايتل قائلاً : « لأم أثر أنا أية اعتراضات » و اضاف ان أياً من القادة الآخرين لم يعترض كذلك . (١)

١ - أكد هاسيل هذه الحقيقة . فقد كتب بعد يومين من الاجتماع في يومياته أي في السادس عشر من حزيران يقول : « لقد وافق براوختش وهولدر على اساليب هتلر في روسيا . وهكذا بات لزاماً على الجيش ان يتحمل اعباء القتل والحرق التي كانت مقتضرة على الحرس النازي حتى الآن » .

ويبدو ان « المتأمرين » المناهضين للنازية ، قد ظنوا بسداجة بادىء ذي بدء ان اوامر هتلر لنشر الارهاب في روسيا قد تستثير القادة العسكريين وتدفع بهم الى الاشتراك في الثورة ضد النازية . ولكن لم يكذب السادس عشر من حزيران حتى كان هاسيل نفسه قد منى بخيبة الامل ، اذ استهل يومياته في ذلك التاريخ بقوله :

« عقدنا عدة مؤتمرات مع بوبيتز وبيك واوستر لندرس ما اذا كانت بعض الاوامر التي تلقاها قادة الجيش (والتي لم يقوموا باصدارها بعد الى من هم دونهم) قد تكون كافية لتفتح عيون القادة العسكريين على طبيعة العهد الذي يحاربون من اجله . وتتعلق هذه الاوامر ببعض الاجراءات الوحشية التي يتحتم على الجنود اتخاذها ضد البلاشفة عند غزو روسيا .

« وقد توصلنا الى الاستنتاج بأن ليس في وسعنا ان نأمل في شيء الآن ... فالقادة العسكريون يخدعون انفسهم ... انهم لم يعودوا اكثر من عرفاء لا حول لهم ولا طول (يوميات فون هاسيل ص ١٩٨ - ١٩٩) .

ولا يستطيع المرء ان يصدق ، وان كان هذا هو الصدق بعينه ، ان رجال الكرمليين بكل ما عرف عنهم من وفرة الشكوك وشدة الدهاء والصلابة ، وعلى الرغم من جميع الأدلة والتحذيرات التي مثلت واضحة جلية أمامهم ، قد ظلوا على جهل حتى اللحظة الأخيرة ، من ان الضربة ستنزل بهم ، وبقوة كادت ان تحطم بلادهم كل تحطيم .

ففي الساعة التاسعة والنصف من مساء ذلك اليوم الممتع من أيام الصيف ، في الواحد والعشرين من حزيران عام ١٩٤١ ، أي قبل تسع ساعات من بدء الهجوم الألماني ، استقبل مولوتوف السفير الألماني في مكتبه في الكرملين وسلم اليه ما دعاه تشرشل « بففلته الأخيرة » فبعد ان ذكر للسفير عدداً جديداً من حوادث خرق الالمان بطائراتهم للحدود السوفياتية ، مؤكداً انه أوعز الى سفيره في برلين بلفت انظار ريبنتروب اليها ، اتجه مولوتوف الى موضوع آخر وصفه شولنبرغ في برقيته العاجلة التي بعث بها الى الويلهمشتراسة تلك الليلة :

« قال مولوتوف ان هناك عدة دلائل تشير الى ان الحكومة الألمانية غير راضية عن الحكومة السوفياتية . وتواترت الشائعات ايضاً عن ان الحرب بين المانيا والاتحاد السوفياتي باتت وشيكة الوقوع... ولا تستطيع الحكومة السوفياتية فهم الدوافع لعدم الرضى هذا .. ولذا فهو يود ان يعرف معنى الاسباب التي أدت الى هذا الوضع الراهن في العلاقات الالمانية - السوفياتية .

» وقد رددت عليه بأن ليس في استطاعتي الاجابة على سؤاله
لافتقاري الى المعلومات المتعلقة به . » ^(١)

ولكنه تلقى الرد قبل طويل وقت .

اذ عندما كان يبرق رسالته هذه ، كانت موجات الاثير بين برلين وموسكو ، تحمل رسالة اذاعية طويلة بالرموز موجهة من ريبنتروب اليه ومؤرخة في الواحد

١ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .

والعشرين من حزيران عام ١٩٤١ ، وقد حملت في مطلعها العبارة التالية :
« مستعجل للغاية - سري جداً - للسفير شخصياً » ، ثم جاء استهلاها على
النحو التالي :

« عليك حال وصول هذه البرقية ان تحرق كل ما تبقى
لديك من مفاتيح الرموز . وعليك ايضاً ان تعطل جهاز الارسال
الاذاعي .

« ازجو ابلاغ الهر مولوتوف فوراً ان لديك رسالة عاجلة تود
ابلاغها اليه .. وارجو يعد ذلك ان تنتقل اليه الاعلان التالي . »

وكان الاعلان من النوع الذي ألفناه عن هتلر ، والذي يكاد ينضح بالكاذيب
والاختلاقات العفنة من طول اختزانها ، والتي برع هتلر وريننتروب في صياغتها ،
قليل كل عمل جديد من اعمال العدوان غير المستفز . وهذا هو على الاقل ،
الانطباع الذي يتكوّن لدى مؤلف هذا الكتاب كما عاد الى قراءة هذا الاعلان
وان كان يفوق جميع الاعلانات السابقة ، في خداعه الوقح ، وسلطته . فلقد
ادعى ان روسيا قد واصلت خرق الميثاق النازي - السوفياتي ، في الوقت الذي
تمسكت به المانيا تمسكاً صادقاً . وقد اقترب الاتحاد السوفياتي اعمال «التخريب
والارهاب والتجسس» ضد المانيا . وحاول ان «يحارب المحاولة الالمانية لاقامة
نظام مستقر في اوروبا» . وقد توأماً مع بريطانيا « للهجوم على القوات الالمانية
في رومانيا وبلغاريا » . وقد «هدد» بحشده « كل ما توافر له من قوات روسية
على طول الجبهة الممتدة من البلطيق الى البحر الأسود » وجود الرايخ وكيانه .
ثم مضى الاعلان يقول :

« وقد قضت الانباء التي تلقيناها في بضعة الايام القليلة الماضية
على كل ما تبقى لدينا من شكوك عن الطبيعة العدوانية لهذا الحشد
الروسي .. يضاف الى هذا ان انباء قد وصلتنا من انكلترا تتحدث
عن المفاوضات التي اجراها السفير كريس لتحقيق تعاون أوسع
مدى سياسياً وعسكرياً بين انكلترا والاتحاد السوفياتي .

«وتعلن حكومة الرايخ على ضوء كل هذا ان الحكومة السوفياتية
خلافاً للالتزامات التي قبلتها على نفسها ..

« ١ - لم تكتف بمواصلة محاولتها لتهديم المانيا في اوروبا بل
وضاعفتها ايضاً .

« ٢ - وانها قد تبنت سياسة خارجية تشتد شيئاً فشيئاً في
مناهضتها لألمانيا .

« ٣ - وانها قد حشدت جميع قواتها في حالة تأهب على الحدود
الألمانية .

«ولهذا فإن الحكومة السوفياتية قد ناقضت معاهداتها مع المانيا
وبانت على وشك مهاجمتها من الخلف في صراعها من اجل الحياة .
ولهذا فقد أمر الفوهرر القوات الألمانية المسلحة بمقاومة هذا الخطر
بكل الوسائل الموجودة تحت تصرفها » (١)

وراح ريبنتروب ينصح سفيره في النهاية بقوله : « ارجو ان لا تدخل في أي
نقاش حول موضوع هذا التبليغ » ولكن ماذا يسع شولنبرغ ان يقول ، وهو
الذي هزّه هذا التبليغ هزاً وحطم آماله ، بعد ان كرس خيرة سني حياته لتحسين
العلاقات بين المانيا وروسيا ، والذي يعرف اكثر من غيره ان هذا الهجوم على
الاتحاد السوفياتي ، لا مبرر له من استفزاز او غيره ؟ وما هو يعود الى الكرملين مع
أول خيط من خيوط الفجر ، فيكتفي بتلاوة الاعلان الالمانى (٢) . وأصاب الذهول

١ - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣٤٧ - ٣٤٩ .

٢ - وهكذا انتهت حياة هذا السفير المحنك الدبلوماسية . وقد عاد الى المانيا ، وارغم
على التقاعد ، فانضم الى حلقة المعارضة التي يقودها الفريق بيك وغوربدلر وهاسيل وغيرهم ،
وقد اعد ليكون في وقت ما وزير خارجية المهد الجديد المناوىء لهتلر . وروى هاسيل ان
شولنبرغ كان راغباً في عام ١٩٤٣ ، في اجتياز الخطوط الروسية ليتحدث الى ستالين في
موضوع عقد صلح عن طريق التفاوض مع حكومة مناوئة للنازية في المانيا (يوميات فون هاسيل
ص ٣٢١ - ٣٢٢) وقد اعتقل شولنبرغ واودع السجن بعد اكتشاف مؤامرة شهر تموز عام
١٩٤٤ لاغتيال هتلر . ونفذ فيه رجال الفستابو حكم الاعدام في العاشر من تشرين الثاني .

مولوتوف ، وهو يصفي صامتاً حتى النهاية ثم قال :
« اذن فهي الحرب . ولكن هل تعتقد اننا نستحق هذا ؟ »

* * *

وكان نفس المنظر ، يمثل في ذات الوقت من فجر اليوم في دار الويلهشتراسة في برلين . فلقد ظل السفير السوفياتي فلاديمير ديكانوزوف طيلة بعد ظهر الواحد والعشرين من حزيران يهتف الى وزارة الخارجية يطلب تحديد موعد لمقابلة ريبنتروب ، ليقدم اليه احتجاجه المتواضع على استمرار الطائرات الألمانية في خرق حرمة الحدود السوفياتية . وقيل له ان وزير الخارجية النازي « خارج المدينة » . وفي الساعة الثانية من صباح الثاني والعشرين من حزيران ، قيل له ان ريبنتروب سيستقبله في الساعة الرابعة صباحاً في دار الوزارة . وهناك تلقى هذا المبعوث الذي كان في وقت ما نائباً لوزير الخارجية ، والرجل الذي يعتمد عليه ستالين في سلمه وحربه ، ويوفده لاصطياد المشاكل وخلقها ، والذي رتب لستالين أمر الاستيلاء على ليتوانيا ، الصدمة الكبرى في حياته ، وهي عين الصدمة التي ذاقها مولوتوف في موسكو . وقد وصف الدكتور شميدت ، الذي شهد الاجتماع ، المنظر بقوله :

« لم أر في حياتي ريبنتروب في نفس الحالة العصبية التي رأيتها فيها ذلك الصباح في الخمس دقائق الأخيرة ، التي سبقت وصول ديكانوزوف . فلقد كان يذرع الغرفة طولاً وعرضاً وكأنه وحش حبيس في قفصه ..

« ودخل ديكانوزوف ، ويبدو انه لم يكن قد تكهن بما هو جار ، فمد يده كالعادة الى ريبنتروب . وجلسنا ... وشرع ديكانوزوف ، يوجه بالنيابة عن حكومته بعض الأسئلة التي يطلب ايضاحاً لها .. ولكنه لم يكذباً حديثه ، حتى كان ريبنتروب يقاطعه ، وقد بدت في وجهه تعابير جامدة كالصخر ، قائلاً : « اننا لم استدعك لهذا الآن » ..

وشرع وزير الخارجية النازي المتعجرف بعد ذلك في ايضاح القضية التي استدعى السفير من اجلها ، وسلمه نسخة من المذكرة التي كان شولنبرغ يتلوها في نفس اللحظة على مسامع مولوتوف ، وابلغه ان القوات الالمانية شرعت في تلك الآونة في اتخاذ « اجراءات عسكرية مضادة » على الحدود السوفياتية . ويقول شميدت ان المبعوث السوفياتي الذي بدا في صورة الدهشة مجسدة ... « استعاد هدوءه بسرعة ، وأعرب عن أسفه العميق » لهذه التطورات التي حمل المانيا مسؤوليتها .. ثم « نهض من مقعده ، وانحنى بأدب ، وغادر الغرفة دون ان يمديه لمصافحة الوزير » (١) .

وهكذا انتهى شهر العسل بين النازيين والسوفيات . وفي الساعة الثالثة والنصف من صباح الثاني والعشرين من حزيران عام ١٩٤١ ، اي قبل نصف ساعة من رفع الستارة عن التمثيليتين الدبلوماسيتين الاخيرتين في الكرملين والويلهاستراسه ، دوّت مدافع هتلر على طول مئات الأميال من جبهة اشعلت النيران فيها الى وقت طويل .

* * *

ووقعت هناك مقدمة دبلوماسية اخرى ، للرواية المدفعية . فبعد ظهر الواحد والعشرين من حزيران ، جلس هتلر الى مكتبه في مقر قيادته الجديد ، تحت الارض « عرين الذئب » على مقربة من راستنبرغ القائمة في إحدى اجحات بروسيا الشرقية الكثيفة ، واملى على احدى سكرتيراته ، رسالة مطولة الى موسوليني . وقد اتبع في هذه المرة ، كما في المرة السابقة التي هيا فيها لاعتداءات جديدة ، نفسها الاسلوب بعدم الركون الى الثقة في صديقه الحميم وكبير حلفائه ، واطلاعه على السر ، قبل اللحظة الاخيرة . وها هو الآن يطلعه عليه في الساعة التي سبقت الاخيرة . وليس ثمة من شك في ان كتابه هذا يعتبر اصدق دليل وأوضحه على الاسباب الحقيقية التي حملته على اتخاذ هذه الخطوة القدرية القاضية ، وهي الخطوة

١ - مذكرة شميدت الرسمية عن الاجتماع - العلاقات النازية - السوفياتية ص ٣٥٦ - ٣٥٧ وكذلك في كتابه « ترجمان هتلر » ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

التي ظلت أمداً طويلاً تحيّر العالم الخارجي ، والتي مهدت الطريق لنهايته ونهاية الرايخ الثالث . واود ان اقول : ان الرسالة مكتنزة بأكاذيب هتلر العادية وأضاليله ، وهي الاكاذيب التي يحاول « بيعها » حتى الى اصدقائه . ولكن وراء هذه الاكاذيب وبين سطورها تظهر حقيقة افكاره وتقديراته الصحيحة - وان كانت قد اخطأت - عن الاوضاع العالمية في صيف عام ١٩٤١ ، وهو الصيف الثاني في الحرب ... وهذا ما جاء في الرسالة :

« يا دوتشي ... ! »

« انني اكتب اليك هذه الرسالة في اللحظة التي انتهت فيها اشهر طويلة من الدراسات العميقة ومن الانتظار المحطم باستمراره للاعصاب ، الى اتخاذ اقصى قرار اتخذته في حياتي .

« ولأبدأ الآن بتحليل الوضع . لقد خسرت انكلترا الحرب . وهي كإنسان غريق تحاول التشبث بكل قشة تلوح لها . ومع ذلك فإن في بعض امانيتها بالطبع شيئاً من المنطق ... وقد ادى انهيار فرنسا ... الى تحول انظار دعاة الحرب البريطاني الى المكان الذي واصلوا في البداية التطلع اليه لإشعال نار الحرب عن طريقه ، وهو روسيا السوفياتية .

« وللبدين أي روسيا السوفياتية وانكلترا ، مصلحة مشتركة ومتعادلة في وجود أوروبا ، التي غدت محطة من جراء الحروب الطويلة . ويقف الاتحاد الأمريكي الشمالي وراء هاتين الدولتين يستحثها على السير في هذا الطريق ... »

وراح هتلر يوضح بعد ذلك ، انه لا يستطيع مع وجود قوات عسكرية سوفياتية ضخمة قابضة في مؤخرته ، ان يجمع القوة الكافية « لا سيما في الهواء » لشن هجوم شامل على بريطانيا يرغمها على الاستسلام ... ثم قال :

« وتقف جميع القوات الروسية المتوافرة على حدودنا في الواقع .. ولو افترضنا ان الظروف قد اتاحت لي المبرر لاستخدام

القوة الجوية الالمانية ضد انكلترا ، فهناك خطر مائل بأن روسيا ستشرع آنذاك في خطتها « الابتزازية » التي اجد نفسي مضطراً للاذعان لها وانا صامت بسبب شعوري بالافتقار الى القوة الجوية... وستكون انكلترا ، اقل استعداداً وتقبلاً للسلام منها في اي وقت مضى اذ سيكون في وسعها تركيز آمالها على شريكها روسيا . . . وليس ثمة شك في ان هذا الأمل سينمو بصورة طبيعية مع كل تقدم تحرره القوات الروسية المسلحة في استعدادتها . ويقف وراء كل هذا ، ما يأمل البريطانيون في الحصول عليه في عام ١٩٤٢ من شحنات المعدات الامريكية الضخمة .

« وقد توصلت اخيراً بعد ان انهكت عقلي في التفكير ، الى قرار لمواجهة هذا الوضع ، وهو ان اقطع « الانشطة » قبل ان تطبق على خناقي ... ووجهة نظري الشاملة تتلخص فيما يلي :

١ - ليس في الإمكان الوثوق بفرنسا كما لم يكن في الامكان الوثوق بها سابقاً .

٢ - لا اعتقد بأن ثمة خطراً في شمال افريقيا بالنسبة الى مستعمراتك ايها الدوتشي قبل حلول الخريف .

٣ - ما زالت اسبانيا تقف موقفاً متردداً وانني لأخشى انها لن تختار الجانب الذي تقف فيه إلا بعد ان تكون نتيجة الحرب قد تقررت »^(١) - ليس ثمة من مجال للقيام بهجوم على مصر قبل الخريف . .

٦ - لم تعد قضية دخول امريكا الحرب ، أو عدم دخولها فيها مسألة مهمة ، طالما انها تعين اعداءنا بكل ما لديها من قوى تستطيع حشدها وتعبئتها .

٧ - ان الوضع في بريطانيا نفسها سيء للغاية . وباتت قضية توينها بالقضاء والمواد الأولية تتعقد بصورة متزايدة . ولا تعيش

١ - لم يورد المؤلف السبب الرابع في الاصل الانكليزي - العرب - .

الروح النضالية فيها لشن الحرب إلا على الآمال ، على أي حال .
وتستند هذه الآمال ، على افتراضين لا ثالث لهما ، هما روسيا
وامريكا وليس أمامنا مجال لازالة امريكا من الوجود . ولكن في
وسعنا ان نبعد روسيا عن الحلبة . وتعني ازالة روسيا في الوقت
نفسه ، انفراجاً هائلاً للبابان في الشرق الاقصى ، كما تعني ايضاً
احتمال قيام تهديد اضخم المجالات النشاط الامريكي عن طريق التدخل
الياباني .

« ولهذا فقد قررت على ضوء هذه الظروف ان اضع نهاية لتمثيلية
النفاق والخداع التي تعرض على مسرح الكرملين . »

وقال هتلر ان المانيا لن تكون بحاجة الى اية قوات ايطالية في روسيا .
(فهو لا يريد ان يشرك ايطاليا في ايجاد احتلال روسيا كما لم يشركها في ايجاد
احتلال فرنسا) . ولكن في وسع ايطاليا ، في رأيه ، ان « تقدم مساعدة
حاسمة » عن طريق تعزيز قواتها في افريقيا الشمالية ، والإعداد « للزحف على
فرنسا في حالة نقضها لمعاهدتها » . وكان هذا القول بمثابة طعم رائع للدوتشي
الجائع الى الاحتلال ... ثم مضى يقول :

« اما بالنسبة الى حربنا الجوية ضد انكلترا ، فسنقف في الوقت
الحاضر موقف الدفاع ... »

« وأما بالنسبة الى الحرب في الشرق ، يا دوتشي ، فإنها ستكون
شاقة حقاً ، ولكنني لا اشك لحظة واحدة في نجاحها . واني لآمل
فوق كل اعتبار بأنه سيكون في امكاننا ان نضمن قاعدة مشتركة
لتمويننا بالغذاء من اوكرانيا التي ستزودنا بالمؤن الاضافية التي قد
نحتاج اليها في المستقبل . »

وانتقل بعد ذلك الى محاولة الاعتذار عن تأخره في ابلاغ شريكه بقراره في
وقت ابكر فقال :

« واذا كنت قد تأخرت يا دوتشي حتى هذه اللحظة عن

أبلغك هذه المعلومات فإن السبب في ذلك عائد الى ان القرار النهائي نفسه لن يتخذ قبل الساعة السابعة من هذا المساء
« ومهما كانت النتيجة يا دوتشي فإن وضعنا لا يمكن ان يسوء بسبب هذه الخطوة ، وانا واثق من انه سيتحسن .. وإذا لم تحاول انك لترا ان تستخلص النتائج الصحيحة من الحقائق المجردة ، فإن في وسعنا آنذاك ، بعد ان نؤمن مؤخرتنا ان نزود انفسنا بالمزيد من القوة للتخلص من عدونا . »

وشرح هتلر اخيراً ما يحس به من راحة بال لأنه توصل في النهاية الى اتخاذ قراره فقال :

« واسمح لي ان اقول لك شيئاً آخر يا دوتشي . انني أحس ثانية بأنني قد تحررت روحياً ، بعد ان جهدت كثيراً للوصول الى هذا القرار . فالشراكة التي عقدناها مع الاتحاد السوفياتي ، كانت عبئاً ثقيلاً على ضميري على الرغم من اخلاص جهودنا الكاملة للوصول الى تفاهم نهائي معه . ولقد كنت متضايقاً منها لأنني رأيت فيها على نحو أو آخر ، تحولاً عن جذوري ومفاهيمي والتزاماتي السابقة . واني لمغتبط الآن لأنني تحررت من هذه الآلام العقلية ...
« وختاماً ارجو ان تقبل تحيات الحب والزمالة ... »

المخلص لك

ادولف هتلر « (١) »

وفي الساعة الثالثة من صباح الثاني والعشرين من حزيران ، أي قبل نصف ساعة من موعد وثوب القوات الألمانية على الاتحاد السوفياتي ، ايقظ السفير الألماني فون بيسارك ، الكونت شيانو من نومه لينقل اليه رسالة هتلر الطويلة ،

١ - رسالة هتلر لموسوليني في ٢١ حزيران ١٩٤١ - العلاقات النازية - السوفياتية ص

التي تولى الوزير الايطالي نقلها بدورء هاتفياً الى موسوليني الذي كان يستجم في قصره الصيفي في ريسوني . ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي يوقظ بها الدوتشي من غطيطة في منتصف الليل ، ليتلقى رسالة من شريكه في المحور ، مما كان يسبب له دائماً الضيق والازعاج ... وراح موسوليني يقول غاضباً لشيانو : « انني لا اجرؤ حتى على ازعاج خدمي في منتصف الليل ... ولكن الألمان يدفعونني الى القفز من فراشي في أية ساعة من ساعات الليل ، دون اي اعتبار أو احترام » . (١) ومع ذلك لم يكد موسوليني ينتهي من تفريك عينيه ، حتى راح يصدر أوامره ، باعلان الحرب فوراً على الاتحاد السوفياتي . فلقد بات اخيراً الاسير المطيع للألمان . وكان يعرف هذه الحقيقة ويثور على معرفته لها . وراح يقول لشيانو : « انني لا ارجو إلا شيئاً واحداً ، وهو ان يخسر الألمان في حربهم هذه في الشرق الكثير من ريشهم » (٢) . ومع ذلك فقد كان يدرك ان مستقبله هو ، يعتمد الآن كل الاعتماد على السلاح الألماني . وكان واثقاً من ان الالمان سيفوزون في روسيا ، ولكنه كان يأمل في ان تنزف الدماء من انوفهم فيها على الاقل ، لتضعف قوتهم .

ولم يكن موسوليني يعرف أو حتى يشك ، كما لم يشك أي انسان آخر في الغرب ، من كلا الجانبين ، في أن الألمان سيلقون في روسيا مصيراً اسوأ مما رجاه موسوليني . وفي صباح يوم الاحد الثاني والعشرين من حزيران ، وهو نفس الموعد الذي عبر فيه نابوليون نهر النيمين في عام ١٨١٢ ، في طريقه الى موسكو ، وبعد سنة تماماً من استسلام فرنسا ، بلاد نابوليون في كومبيين ، تدفقت جيوش ادولف هتلر المدرعة والآلية ، والتي لم تعرف الهزيمة حتى ذلك اليوم نهرالنيمين وغيره من الانهار ، متوغلة بسرعة البرق في الاراضي الروسية . وبوغت الجيش الاحمر ، رغم جميع التحذيرات ، والنذر والقرائن ، كما دون الفريق هولدر في

١ - يوميات شيانو ص ٣٦٩ و ص ٣٧٢ .

٢ - يوميات شيانو ص ٣٧٢ .

يوميته للنهار الأول « مباغطة تعبوية. (تكتيكية) ، على طول الجبهة كلها. » (١)
واستولى الألمان على جميع الجسور الاولى وهي سليمة . ويضيف هولدر ، ان
الروس كانوا في الحقيقة وفي معظم نقاط الجبهة ، غير متأهبين للعمل ، وقد
اجتاحتهم الجيوش الفازية حتى قبل ان يتمكنوا من تنظيم المقاومة . وقد
دمرت مئات الطائرات السوفياتية وهي جاثمة في مطاراتها . (٢) ولم تمض بضعة
ايام ، حتى كان الألوف من الاسرى يتدفقون على المؤخرة الألمانية ، اذ تم
تطويق جيوش كاملة بسرعة خارقة ، وبدا ان الوضع الذي « وقع في بولندا »
يتكرر من جديد .

ودون هولدر المعروف بخبره في يوميته الثالث من تموز بعد ان اطلع على
آخر تقارير هيئة اركان الحرب يقول : « لا اعتقد ان من المبالغة القول بأن
« الهجوم » ضد روسيا ، قد تحقق في اربعة عشر يوماً . واضاف ان كل شيء
سينتهي في غضون اسابيع . »

١ - تضمنت يومية هولدر لليوم الاول ، ملاحظة غريبة للغاية . فبعد ان ذكرت ان محطات
الاذاعة الروسية ، التي كان الالمان يلتقطون اذاعاتها ، قد عادت الى البث عند الظهر ، قالت
« ان هذه الاذاعات تطلب الى اليابان التوسط لحل الخلافات السياسية والاقتصادية بين
روسيا والمانيا ، وان تظل نشطة في الاتصال مع وزارة الخارجية الالمانية » . فهل اعتقد
ستالين بعد تسع ساعات من بدء الهجوم ، ان في وسعه ان يوفق في وقفه والعدول عنه ؟

٢ - روى الفريق غوينتر بلومينترت ، رئيس اركان الجيش الرابع فيما بعد معتمداً على
ذاكرته ، ان قطار برلين - موسكو السريع ، اجتاز الخطوط الالمانية عند نهر بوغ متجهاً الى
بريست ليتوفسك دون « اي حادث » بعيد منتصف ليل الواحد والعشرين من حزيران ، وعندما
كانت المدافع الالمانية قد صوبت افواهاها على اهدافها منتظرة اشارة الانطلاق . وقال ان هذا
الحادث بدا له غريباً كل الغرابة . وكان سكوت المدافع الروسية وعدم ردّها حتى بعد بدء
الهجوم لا يقل غراباً في عينه عن الحادث الاول ... وكتب على ضوء ذلك يقول : « لقد بوغت
الروس مباغطة كلية في جبهتنا » . وعندما اطلت تباشير الفجر ، التقطت محطات الاشارة الالمانية
رسائل على اجهزة اذاعة الجيش الاحمر تقول : « اننا نتعرض لاطلاق النار . ماذا نفعل ؟ » .
وسرعان ما جاء الرد من القيادة العامة الروسية ... « لا ريب في انكم معتوهين . لم لا
ترسلون اشارتكم بالرموز ؟ » (كتاب القرارات القدرية - اعداد سيمور فريدين وويليام
ويتشاردسون) .

تحويل التسّيار

اعتقد هتلر عندما هلّ خريف عام ١٩٤١ ان روسيا قد انتهت ...
 ففي غضون الاسابيع الثلاثة الأولى من بدء العمليات الحربية تمكنت مجموعة
 جيوش الوسط التي يقودها المشير فون بوك والمؤلفة من ثلاثين فرقة مشاة وخمس
 عشرة فرقة مدرعة أو آلية ، من الاندفاع مسافة اربعمائة وخمسين ميلاً من
 بياالستوك الى سمولنسك . وباتت موسكو على بعد مائتي ميل فقط نحو الشرق
 على الطريق الرئيسية التي سار عليها نابوليون في عام ١٨١٢ . وكانت مجموعة
 جيوش الشمال بقيادة المشير فون ليب والمؤلفة من احدى وعشرين فرقة مشاة
 وست فرق مدرعة ، تتحرك في الوقت نفسه عبر دول البلطيق باتجاه ليننغراد
 وفي الجنوب كانت مجموعة جيوش المشير فون رونشتادت المؤلفة من خمس وعشرين
 فرقة مشاة واربع فرق آلية ، واربع فرق جبلية وخمس فرق مدرعة ، تتقدم
 نحو نهر الدنيبر ومدينة كييف عاصمة اوكرانيا الحصبة ، التي يتشهاها هتلر
 ويطمع فيها .

وكان الزحف الألماني يسير وفق الخطة المرسومة كما ذكر بلاغ القيادة العليا
 للقوات المسلحة على طول جبهة تمتد الف ميل من البلطيق حتى البحر الاسود .
 وكان الديكتاتور النازي واثقاً كل الثقة من ان هذا الزحف سيستمر على هذه

الدرجة من السرعة لا سيما وان الجيوش السوفياتية تطوّق واحداً إثر آخر ، أو تُشَتَّت بصورة مستمرة ، حتى انه اصدر في الرابع عشر من تموز أي بعد نحو ثلاثة اسابيع من بدء الغزو ، توجيهاً يقول ان في الامكان « تخفيض قوة الجيش في المستقبل القريب الى حد كبير » ، وينصح بالتركيز في الانتاج الحربي على السفن الحربية . وطائرات السلاح الجوي ، ولا سيما الاخيرة ، للمضي في الحرب ضد بريطانيا ، العدو الاخير الباقي ، وضد « امريكا اذا اقتضت الضرورة محاربتها »^(١) . واوعز في نهاية شهر ايلول الى القيادة العليا ، بإعداد العدة لتسريح اربعين فرقة من فرق المشاة حتى يكون في الامكان استخدام افرادها كيد عاملة اضافية في الصناعة .^(٢)

وبدا لهتلر ان مدينتي روسيا العظيمة ، ليننغراد التي بناها بطرس الاكبر عاصمة له على بحر البلطيق ، وموسكو العاصمة القديمة وعاصمة البلاشفة حالياً ، قد باقتنا وشيكتي السقوط في يديه . وراح في الثامن عشر من ايلول يصدر اوامر صارمة « بعدم قبول استسلام ليننغراد أو موسكو ، حتى ولو عرض تسليمها »^(٣) و اوضح ما يرى وقوعه بالنسبة اليهما في التوجيه الذي اصدره قاده العسكريين في التاسع والعشرين من ايلول :

« قرر الفوهرر وجوب زوال سان بطرسبرغ (ليننغراد) من خريطة الوجود . وعندما تنتهي روسيا ، لا تعود هناك اهمية لوجود هذه المدينة الكبيرة .

« ويرى الفوهرر وجوب الاطباق على المدينة وتحويلها الى انقاض بقذائف المدفعية وقنابل الطائرات المفجرة ...
« وهو يطلب انه في حالة احتلال المدينة يجب هدمها ، اذ لا

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٠٥ - ٩٠٦ . ويوجد النص الكامل باللغة الالمانية في «محاکمات كبار مجرمي الحرب» (٣٤) ص ٢٩٨ - ٣٠٢ .
٢ - تقرير هولدر (عرضت صورة منه في نورمبرغ)
٣ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٢٩ .

يمكننا وليس من واجبنا ان نحل مشكلة الابقاء على السكا اورن
تزويدهم بالغذاء اللازم . وليست لنا مصلحة في حرب الوجود التي
تخوضها الآن ، في الحفاظ حتى على قسم من سكان هذه المدينة
العظيمة (١) » .

وعاد هتلر الى برلين في نفس الاسبوع أي في الثالث من تشرين الأول ،
وأعلن في خطاب وجهه الى الشعب الألماني ، انهيار الاتحاد السوفياتي ، اذ قال :
« انتي اعلن اليوم وبدون أي تحفظ ، ان العدو في الشرق قد وقع ، ولن يقدر
له ان يقف ثانية ... وتمتد الى ما وراء قواتنا مساحات من الأرض تبلغ ضعف
مساحة الرايخ الألماني ، عندما جئت الى الحكم في عام ١٩٣٣ » .

وعندما سقطت اوريل في الثامن من تشرين الاول ، وهي مدينة مهمة
للفاية ، الى الجنوب من موسكو في ايدي الالمان ، اوفد هتلر ، رئيس دائرة
صحافته اوتوديتريش ، بالطائرة الى برلين ، ليبلغ مراسلي الصحافة العالمية فيها
في اليوم التالي ، ان آخر الجيوش السوفياتية المتأسكة وهي جيوش المشير
بوديني في الجنوب قد هزمت وشتت شملها ، وان نحواً من ستين الى سبعين
فرقة يقودها المشير فورشيوف قد تم تطويقها في جبهة ليننغراد .

وانهى ديتريش بيانه مختالاً : « لقد انتهت روسيا السوفياتية من جميع
النواحي العسكرية . وقد اهيل التراب في الحلم البريطاني في الحرب على
جبهتين » .

ولكن هذه التبجحات العلنية من جانب هتلر وديتريش كانت غير ناضجة وسابقة

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٣١ - قال غورنغ لشيانو بعد بضعة اسابيع من
هذا التاريخ .. « سيموت نحو من عشرين او ثلاثين مليوناً من الناس في روسيا من الجوع .
ولعل من الخير ان يقع هذا ، اذ من الواجب افناء بعض الشعوب . وليس في وسعنا ان نعمل
شيئاً ، حتى ولو لم نعمل على تحقيق ذلك . ومن الواضح انه اذا كان لا بد للجنس البشري
من الموت جوعاً ، فان شعبيا هما آخر من يجب ان يموت .. ولقد بدأ الاسرى الروس يأكلون
بعضهم البعض في معسكرات اعتقالهم » (اوراق شيانو الدبلوماسية ص ٤٦٤ ، ٤٦٥) .

لأوانها على الأقل (١) . فالروس على الرغم من المباغته التي ووجهوا بها في الثاني والعشرين من حزيران ، وعلى الرغم مما ادت اليه هذه المباغته من خسائر فادحة في الرجال والمعدات ، ومن انسحابهم السريع ، ووقوع بعض خيرة جيوشهم في الفخ ، قد شرعوا في تموز يبدون مقامة متزايدة من النوع الذي لم تواجهه القوات الالمانية المسلحة من قبل . وبدأت يوميات هولدر وتقارير بعض قادة الميدان من امثال الفريق غودريان ، الذي كان يقود مجموعة ضخمة من القوات المدرعة في الجبهة الوسطى ، تحمل انباء متفرقة ما لبثت ان تحولت الى انباء حاشدة ، عن وصف القتال العنيف والصمود الروسي اليأس والهجمات المضادة والخسائر البالغة في القوات الالمانية كما في القوات الروسية .

وكتب الفريق بلومينترت فيما بعد يقول : « ان سلوك القوات الروسية حتى في هذه المعركة (معركة مينسك) مناقض تمام المناقضة لسلوك البولنديين وحتى الحلفاء الغربيين في الهزيمة . فالروس حتى عند تطويقهم ، يثبتون في مواقعهم ويقاثلون بعناد (٢) » . وقد ثبت ان هناك عدداً اكبر من هؤلاء الجنود وكميات أوفر وأحسن من المعدات ، بما تصوره هتلر أو حلم فيه . فهناك فرق سوفياتية جديدة كاملة . لم تكن المخابرات الألمانية تعلم عنها شيئاً ، تتوافد باستمرار على ميدان القتال . وكتب هولدر في يومياته بتاريخ الحادي عشر من آب يقول : « أخذ يتضح لنا يوماً بعد يوم ، اننا قللنا من تقدير قوة روسيا الهائلة لا على صعيد الاقتصاد والنقل فحسب بل وعلى الصعيد العسكري ايضاً وهذا هو المهم . فلقد قدرنا في البداية قوات روسيا بمائتي فرقة ، وها نحن نواجه حتى

١ - لكن هذا الافتقار الى التضج والسبق للوان ، لم يكن قوياً على أي حال ، بحيث يعادل آراء هيئة اركان الحرب الامريكية التي راحت تبلغ الصحفيين الامريكيين والمراسلين في واشنطن في شهر تموز بصورة سرية ان مسألة انهيار الاتحاد السوفياتي باتت قضية اسابيع قليلة . ولذا لم يكن من الغريب ان يصدق الناس في الولايات المتحدة وبريطانيا كما في المانيا وغيرها بيانات هتلر والدكتور هايدريش عن انتهاء الاتحاد السوفياتي في مطلع تشرين الاول .

٢ - مقال للفريق بلومينترت في كتاب « القرارات القدرية » من اعداد سيمور فريدير وويليام ريتشاردسون ، ص ٥٧ .

الآن (٣٦٠) فرقة . ونحن لا نكاد نحطم عشر فرق روسية ، حتى يقذف الروس بعشر فرق أخرى . وهكذا باتت جبهتنا مفتقرة الى الكثافة على هذا المدى الفسيح . فليس في جبهتنا أي عمق . وهذا يؤدي الى نجاح هجمات العدو المتكررة في كثير من الأحيان » . وقال رونشتادت بصراحة لمحققي الحلفاء بعد الحرب : « ماكدنا نبداً الهجوم ، حتى أدركت ان كل ما كتب عن روسيا ، لم يكن أكثر من مجرد هراء » .

وخلف عدد من الفرقاء وبينهم غودريان وبلومنتريت وسيدب ديتريش ، تقارير تعرب عن دهشتهم عندما واجهوا لأول مرة الدبابات الروسية (ت ٣٤) التي لم يكونوا قد سمعوا عنها من قبل والتي كانت مصفحة بشكل قوي الى الحد الذي لا تؤثر فيه قذائف المدافع الألمانية المضادة للدبابات . وقال بلومنتريت فيما بعد ان ظهور هذه الدبابات قد رمز الى بداية ما بات يدعى « بارهاب الدبابات » . ولأول مرة في الحرب ، لم يتمتع الألمان بمزية التفوق الجوي الهائل لحماية قواتهم الأرضية ، وللقيام بأعمال الاستطلاع أمامها . فعلى الرغم من الخسائر الفادحة التي منيت بها الطائرات السوفياتية على الأرض في اليوم الاول من الحملة ، وفي معارك الايام الاولى ، ظلت أسراب جديدة من الطائرات المحاربة السوفياتية تظهر يوماً بعد آخر ، كالفرق الجديدة ، دون ان يعرف الالمان المكان الذي تأتي منه . يضاف إلى هذا ان سرعة الزحف الألماني ، وافتقار روسيا الى المطارات الصالحة ، قد حتم بقاء قواعد المقاتلات الألمانية بعيدة الى الوراء بحيث لم تعد نافعة في تقديم الغطاء الكافي الى الجبهة . وقال الفريق فون كلايست فيما بعد : « ولقد تعطلت قواتي المدرعة في مراحل عدة من الزحف ، عن التقدم بسبب الافتقار الى الغطاء الجوي » (١) .

وهناك خطأ ألماني آخر في حساباتهم عن الروس ، وقد ذكره كلايست للمؤرخ ليدل هارت ، وقد شاركهم فيه بالطبع في ذلك الصيف الكثيرون من الناس

١ - ليدل هارت - الفرقاء الالمان يتكلمون ص ١٤٧

في الغرب .

فلقد قال كلايست : « لقد تركزت آمالنا في النصر الى حد كبير على توقعنا ان يؤدي الغزو الى اضطراب سياسي في روسيا ... وقد أقيمت آمال كثيرة على الاعتقاد القائل بأن الشعب الروسي سيثور على ستالين إذا مني بخسائر جسام وهزائم قاسية . وكان مستشارو الفوهرر السياسيون هم الذين قووا هذا الاعتقاد » (١) .

وكان هتلر قد قال بالفعل ليودل : « لسنا في حاجة الى اكثر من القرع على الباب ، وسرعان ما سينهار جميع البناء المتعفن وراءه » .

وبدت للفوهرر فرصة « قرع الباب » وكأنها قد اجتازت نصف الطريق بنجاح في شهر تموز ، مما أدى الى وقوع أول الخلافات العظيمة في موضوع الخطط السوقية في القيادة العليا الالمانية والى اتخاذ الفوهرر قراراً تحدى فيه احتجاجات معظم كبار القادة ووصفه هولدر بأنه كان « اكبر الاخطاء السوقية في الحملة الشرقية كلها » . وكانت القضية بسيطة ولكنها جوهرية . فهل تواصل مجموعة جيوش الوسط بقيادة المشير بوك . وهي اقوى مجموعات الجيوش الالمانية الثلاث واكثرها نجاحاً حتى الآن اندفاعها من سمولنسك التي وصلت في السادس عشر من تموز عبر المائي ميل التي مازالت تفصلها عن موسكو ، أو هل تتمسك القيادة بالخططة الاصلية التي وضعها هتلر في توجيه الثامن عشر من كانون الاول الماضي والتي تقضي بالاندفاع رئيسياً على الجناحين الشمالي والجنوبي ؟ وبكلمة أخرى هل تكون موسكو هي الهدف الاول أو ليننغراد وأوكرانيا ؟ .

وأصرت القيادة العامة للجيش بزعامة براوختش وهولدر ، يؤيدها بوك الذي كانت مجموعة جيوشه المركزية تتقدم على الطريق الرئيسي . باتجاه موسكو ، وكذلك غودريان الذي تتولى قواته المدرعة طليعة هذا الزحف ، على اندفاع هائل وشامل باتجاه العاصمة السوفياتية . وقد استند هؤلاء في رأيهم الى مبررات

١ - ليدل هارت - الفرقاء الالمان يتكلمون ص ١٤٥

كثيرة منها التأكيد على الاهمية النفسية لاحتلال عاصمة العدو . وأشاروا الى هتلر بأن موسكو مركز حيوي من مراكز إنتاج الاسلحة ، كما انها ، وهذا هو المهم ، المركز الرئيسي لاجهزة المواصلات والنقل في روسيا . وأضافوا انه إذا ماتم احتلالها ، فإن السوفيات سيحرمون من مصدر جوهرى من مصادر سلاحهم ، كما سيعجزون عن نقل القوات والمؤن الى الجبهات الضعيفة التي ستضعف نتيجة لذلك وتذبل وتنهار .

وكانت هناك حجة أخيرة وحاسمة قدمها الفرقاء الى العريف السابق الذي بات الآن قائدهم الاعلى . فقد دلت جميع تقارير مخبراتهم على ان الروس قد حشدوا قواتهم الرئيسية الآن أمام موسكو ، للدفاع دفاعاً كاملاً وعنيداً عن العاصمة . وقد شرع جيش سوفياتي قوامه نصف مليون رجل ، تمكن من النجاة من الطوق الذي فرضته ذراعاً كاشة المشير بوك ، في حفر الخنادق والخطوط المنيعه الى الشرق من سمولنسك للحيلولة دون اندفاع الماني جديد نحو العاصمة . وكتب هولدر في تقرير أعده للحلفاء فور انتهاء الحرب يقول : (١)

« وهكذا كان مركز الثقل للقوات الروسية أمام مجموعة جيوش الوسط.... »

« وكان قد طلب الى هيئة الأركان العامة ان تركز هدف عملياتها على هزم قوة العدو العسكرية . ولهذا رأت الهيئة ان مهمتها التالية والملحة يجب ان تتركز على هزم قوات تيموشنكو ، عن طريق حشد كل ما يتوافر لها من قوات في مجموعة جيوش الوسط ، وان تزحف بقواتها على موسكو ، لاحتلال مركز ثقل مقاومة العدو ، وتحطيم تشكيلات العدو الجديدة . وتحتم تنفيذ الحشد اللازم لهذا الهجوم في اسرع وقت ممكن نظراً لتقدم أشهر الصيف من نهايتها . وكان على مجموعة جيوش الشمال في غضون ذلك ان تحقق مهمتها

١ - تقرير هولدر .

الأساسية وان تحاول الاتصال بالفنلنديين . ونحتم على مجموعة جيوش الجنوب ان تتقدم نحو الشرق ، لتجميد اكثر ما يمكن من قوات العدو .

« وعندما انتهت المحادثات الشفوية بين هيئة أركان الجيش والقيادة العليا للقوات المسلحة الى الفشل ، قدم القائد العام للجيش (براوختش) مذكرة من هيئة الاركان العامة الى هتلر » .

ونحن نعرف الآن من يوميات هولدر أن هذه المذكرة قد قدمت في الثامن عشر من آب . ويقول هولدر : « وكانت ثمرة المذكرة انفجاراً عنيفاً » . فقد ركز هتلر عينيه الجائعتين على أراضي اوكرانيا الخصبه اللازمة للغذاء ومناطقها الصناعية وكذلك على حقول الزيت الروسي التي تقع وراءها في القفقاس . ورأى بالإضافة الى ذلك ، ان فرصة ذهبية قد لاحت أمامه لإيقاع جيوش بودييني إلى الشرق من الدنيبر وراء كييف في الفخ ، لاسيما وان هذه المدينة كانت لا تزال صامدة . وكان يريد ايضاً احتلال ليننغراد ، والاتصال مع الفنلنديين في الشمال . ولتحقيق هذا الهدف المزدوج ، كان من الضروري نقل عدد من فرق المشاة والفرق المدرعة من جبهة جيوش الوسط وإرسالها الى الشمال ، وبصورة خاصة الى الجنوب . أما موسكو ففي وسعها ان تنتظر .

وراح هتلر في الواحد والعشرين من آب يهاجم هيئة أركان حربه الثائرة بتوجيه جديد . وقد نقل هولدر نص هذا التوجيه بكامله في يوميته للنهار التالي ، وهذا بعض ما جاء فيه :

« لا تتفق اقتراحات الجيش عن سير العمليات في الشرق مع نواياي ... »

« ان الهدف الأساسي الذي أسمى لتحقيقه قبل حلول الشتاء ، هو احتلال القرم ومناطق الصناعة ومناجم الفحم في حوض الدونتس وقطع تموينات الزيت من القفقاس عن الجيوش الروسية ، ولا أرى ان هذا الهدف هو احتلال موسكو . أما هدفنا في الشمال

فحصر ليننغراد والاتصال مع الفنلنديين ... »

وأضاف هتلر في توجيهه ان من الواجب تحطيم الجيش السوفياتي الخامس في حوض الدينير في الجنوب ، والذي أزعجت مقاومته الحرون هتلر أشد ازعاج أياماً عدة ، تحطيماً كاملاً ، كما يجب احتلال اوكرانيا والقرم وتطويق ليننغراد وتأمين الاتصال مع الفنلنديين . وانهى توجيهه قائلاً : « واذا تحققت هذه الأهداف ، اصبح في الإمكان خلق الأوضاع اللازمة للهجوم على جيش تيموشنكو وهزمه بنجاح » . وعلق هولدر بمرارة على هذا التوجيه قائلاً :

« وهكذا أصبح الهدف في هزم الجيوش الروسية أمام موسكو هزماً حاسماً ، أمراً ثانوياً بالنسبة الى الاستيلاء على المناطق الصناعية المهمة والتقدم باتجاه الزيت الروسي ... وبات هتلر الآن واقعاً تحت سيطرة الفكرة القائلة بالاستيلاء على مدينتي ليننغراد وستالينغراد ، إذ انه اقنع نفسه بأن سقوط « هاتين المدينتين المقدستين عند الشيوعية » سيؤدي الى انهيار روسيا .

وأراد هتلر ان يضيف الالهانة الى الأذى ، في حديثه الى مشيريه وفرقائه الذين خالفه الرأي ولم يقدروا عبقريته السوقية ، فبعث بما أسماه هولدر « بالمذكرة المضادة » - أي لمذكرة الجيش في الثامن عشر - وهي مذكرة وصفها رئيس هيئة أركان الحرب بأنها « حاشدة بالاهانات » كقولها ان القيادة العليا للجيش مكتظة « بالأدمغة المتحجرة » التي تجمّدت فيها نظريات منسوخة فترات وقتها . وراح هولدر ينفث في يومياته في النهار التالي ما يعتور في نفسه من مشاعر السخط والغضب قائلاً : « هذا أمر لا يطاق ! ولم يسمع من قبل ! . لقد تجاوز الحدود » . وراح يتشاور بعد ظهر ذلك اليوم وعشيته مع المشيرفون براوختش في موضوع تدخل الفوهرر « الذي لا يمكن قبوله » في أعمال قيادة الجيش العامة وأركان حربها ، مقترحاً في النهاية ان يقدم هو وقائد الجيش استقالتيهما . ودون هولدر في يومياته : « ولكن براوختش رفض هذا الاقتراح قائلاً انه لا عملي ، ولن يغير من واقع الأمر شيئاً . » وهكذا استسلم المشير الجبان مرة ثانية ،

كما استسلم مرات عدة من قبل ، لإرادة الرجل الذي كان عريفاً في وقت ما .
وعندما جاء الفريق غودريان قائد المدرعات المتألم الى مقر قيادة الفوهرر
في اليوم التالي ، أي الثالث والعشرين من آب ، لقي هولدر الذي حشّه ، مع انه
لا يحتاج الى حث ، على ان يحاول التحدث الى هتلر وحمله على العدول عن قراره
المفجع ، ولكنه ما لبث ان قابل براوختش قائده العام الذي بادره قائلاً : « انني
أمنعك من أن تذكر موضوع موسكو للفوهرر . لقد أصدرنا أمراً ببدء العملية
في الجنوب . وباتت المشكلة الآن مجرد تنفيذ ليس إلا . ولذا لم تعد للنقاش
أية فائدة » .

ومع ذلك ، عندما أدخل غودريان على الفوهرر ، ولم يرافقه في المقابلة
براوختش او هولدر ، عصى أوامر قائده ، وراح يجادل الزعيم بأقوى ما لديه
من حجة محاولاً اقناعه بالهجوم الفوري على موسكو ... وقد دوّن فيما بعد
ما جرى قائلاً :

« سمح لي هتلر بالكلام حتى النهاية ، وراح يشرح لي بعد ذلك
باسهاب الاعتبارات التي دفعته الى اتخاذ قرار مفاير . وقال ان مواد
أوكرانيا الأولية ومواردها الزراعية ، ضرورية للغاية لاستمرار
الحرب في المستقبل . وتحدث عن ضرورة تجميد القرم والخلاص من
خطرهما ناعثاً إياها « بحاملة الطائرات السوفياتية التي تصلح لمهاجمة
حقول الزيت في رومانيا » . وسمعتة يستعمل لأول مرة عبارة :
« ان فرقائي لا يعرفون شيئاً عن النواحي الاقتصادية للحرب » ..
وكان قد أصدر أوامر صارمة ، بأن يكون الهجوم على كييف هو
الهدف السوقي الفوري ، وان تدور جميع الأعمال العسكرية حول
هذه الفكرة الرئيسية . ورأيت هنا للمرة الأولى ، منظرأً قدر لي
فيما بعد ان أراه يتكرر باستمرار ... فقد أبصرت بالحاضرين جميعاً
من أمثال كايتل ويودل وغيرها ، يحنون رؤوسهم موافقين على كل
عبارة تصدر عن هتلر ، بينما ظللت وحدي ، لا يؤيدني انسان في

وجهة نظري ... » (١) .

ولكن هولدر لم يحن رأسه موافقاً ولا مرة واحدة في المناقشات السابقة . وعندما اجتمع اليه غودريان في اليوم التالي ، لينقل اليه فشله في حمل هتلر على تغيير رأيه ، ذكر هذا ان رئيس هيئة أركان الحرب « اصيب لدهشتي بانهيـار عصبي كامل ، حمله على ان يتفوه باتهامات وشتائم ، ليس لها ما يبررها مطلقاً » (٢) .

كانت هذه أعنف أزمة مرت بها القيادة العسكرية العليا الألمانية منذ بداية الحرب . ولكن أزمات أخرى أشد منها عنفاً ما لبثت ان توالى في ايام المحنة .

وتحقق لهجوم رونشتادت في الجنوب ، بعد ان تلقى النجـدات من قوات غودريان المدرعة ومن فرق المشاة التي تم سحبها من الجبهة الوسطى ، النجاح الذي وصفه غودريان نفسه بأنه « نصر تعبوي - تكتيكي - عظيم » . وسقطت كييف في أيدي الالمان في التاسع عشر من ايلول ، بعد ان كانت الوحدات الألمانية قد توغلت مسافة مائة وخمسين ميلاً وراءها ، وانتهت معركة كييف في السادس والعشرين من ايلول بتطويق جيش روسي ضخم استسلم من أفرادـه حسب ادعاء الالمان نحو من (٦٦٥) الف أسير . وكانت هذه المعركة بالنسبة الى هتلر « أعظم معركة في تاريخ الحرب » ، ولكن على الرغم من روعة نتائـجها ، فإن بعض قادته العسكريين ظلوا على تشككهم في أهميتها السوقيـة ، وأرغمت مجموعة جيوش بوك المفترقة الى المدرعات على الجمود مدة شهرين على خط نهر « دنيـنا » الواقع الى ما وراء سمولنسك . وكانت أمطار الخريف التي ستحيل الطرقات الروسية الى حمات من الوحل ، تقترب يوماً بعد يوم . وسيعقب الشتاء ببرده

١ - هاينز غودريان - قائد الدبابات - ص ١٥٩ - ١٦٢ .

٢ - يقدم هولدر في يوميته بتاريخ الرابع والعشرين من آب ، رواية أخرى مخالفة لهذه الرواية . فهو ينتهم غودريان « بالافتقار الى الشجور بالمسؤولية » وبتبديل فكره بعد مقابله هتلر ، ويسخر منه قائلاً ان من الصعب ان يحاول المرء تغيير طبيعة اخر . واذا صح ما زعمه غودريان من انه قد « اصيب بانهيـار عصبي » ، فان تدويناته المتعالة في يومياته لذلك اليوم تشير الى أنه قد شفي من اصابته بسرعة .

وثلوجه هذه الأمطار .

الزحف العظيم على موسكو

وافق هتلر ، وهو برم ، على إلخاف براوختش وهولدر وبورك ، وأمر استئناف الزحف على موسكو ، ولكن بعد فوات الأوان . وقد اجتمع إليه هولدر بعد ظهر الخامس من ايلول ، وكان الفوهرر بعد أن حزم أمره ، قد بات على عجلة من أمره للوصول الى الكرملين . وراح يوجه اليه أمره قاقلاً : « لتبدأوا الهجوم في الجبهة الوسطى بعد ثمانية ايام أو عشرة » . (ودون هولدر في يومياته « هذا مستحيل ») . وأضاف هتلر قائلاً : « طوقوهم واضربوهم وحطموهم » . ووعد بأن يعيد الى الجبهة الوسطى ، مجموعة غودريان المدرعة التي كانت لا تزال تخوض معركة عنيفة في اوكرانيا وان يضيف إليها لواء رينهاردت المدرع الذي سيسحبه من جبهة ليننغراد . ولكن لم يكن بالامكان إعادة القوات المدرعة واصلاحها وتجهيزها واعادتها للمعركة قبل مطلع تشرين الأول . وشنت الهجوم العظيم أخيراً في الثاني من تشرين الأول . وأطلق عليه الاسم الرمزي « أعاصير » وقد تقرّر ان تنزل بالروسن زوابع قوية أشبه بالعواصف الدوارة والأعاصير ، وان تحطم آخر ما تبقى لديهم من قوات محاربة أمام موسكو ، وان تؤدي الى انهيار الاتحاد السوفياتي .

ولكن الديكتاتور النازي وقع من جديد فريسة عظمائه (جنون العظمة) . ولم يكن ليكتفي بالاستيلاء على العاصمة الروسية قبل حلول الشتاء ، فقد أصدر أوامره الى المشير فون ليب في الشمال ، بأن يستولي على ليننغراد في نفس الوقت وان يتصل بالفنلنديين وراء المدينة ، ثم يزحف لقطع سكة حديد مورمانسك . وأمر رونسشتادت في الوقت ذاته بأن يطهر سواحل البحر الأسود الشمالية ويحتل روستوف ويضع يده على حقول الزيت في ميكوب وان يندفع الى ستالينغراد على نهر الفولغا ليقطع آخر اتصال بين ستالين والقفقاس . وعندما

حاول ررنشتادت ان يوضح له ان تنفيذ أوامره يعني التقدم نحو اربعمائة ميل الى ما وراء نهر الدنيبر مع بقاء جناحه الأيسر مكشوفاً ومعرضاً للخطر ، رد عليه القائد الأعلى ، بأن الروس في الجنوب باتوا عاجزين عن ابداء أية مقاومة جدية . وسرعان ما وجد ررنشتادت الذي يقول انه « ضحك عالياً » من هذه الأوامر المضحكة ، عكس ما كان يقول له زعيمه .

واتصف الزحف الألماني على الطريق التي استخدمها نابوليون في هجومه على موسكو ، في مستهله بسرعة « الأعاصير » فعلاً وهو جها . ففي الأسبوعين الأولين من تشرين الأول ، تمكن الالمان في المعركة التي أطلق عليها بلومنتريت فيما بعد اسم « معركة للدرس » ، من تطويق جيشين سوفياتيين بين فيازما وبريانسك ، وادعوا أسر (٦٥٠) الف جندي روسي والاستيلاء على خمسة آلاف مدفع وألف ومائتي دبابة . ولم يحل اليوم العشرون من تشرين الأول حتى كان الالمان قد باتوا على بعد اربعين ميلاً من موسكو ، وكانت الوزارات السوفياتية والسفارات الاجنبية تجلو بسرعة عنها الى كويبشيف على نهر الفولغا . وقد اعتقد حتى هولدر العاقل الرصين ، الذي كان الآن قد سقط عن جواده وكسر عظم ترقوته ، فأدخل المستشفى للمعالجة ، ان في امكان القوات الالمانية إذا توافرت لها القيادة الجريئة ، والطقس الحسن ان تحتل موسكو قبل حلول فصل الشتاء السيء .

وكانت أمطار الخريف قد بدأت على أي حال في السقوط وحلت فترة انتشار الوحول « راسبوتيتزا » . وكثيراً ما اضطر الجيش اللجب ، المتحرك على عجلات آلية الى ابطاء حركته والتوقف عن الزحف احياناً . وكثيراً ما أرغمت القيادة على سحب الدبابات في المعارك لجر المدافع وشاحنات الذخيرة وإخراجها من الوحول . وكانت الجيوش تفتقر الى السلاسل والموثقات (التعشيقات في الميكانيك) اللازمة لاداء هذا العمل بالاضافة الى ان حزم الحبال كانت تقذف بها طائرات النقل لاستعمالها لرفع التموينات العسكرية الأخرى من أماكنها . وقد بدأت الأمطار تنهمر في أواسط شهر تشرين الأول . وقد روى غودريان فيما بعد معتمداً على ذكرياته : « ان الأحوال ظلت العامل المسيطر في

الأساييم القليلة التالية » . وقد وصف الفريق بلومنتريت رئيس أركان حرب جيش المشير فون كلوغه الرابع ، وهو الجيش الذي تولى خوض معركة موسكو ، هذا الوضع بوضوح إذ قال :

« يخوض جندي المشاة في الوجود ، وكثيراً ما تزل به قدماه ، بينما تحتاج الوحدات الى اعداد ضخمة من الجياد لجر كل مدفع الى الامام . وتغطس جميع العربات ذات العجلات حتى محاور دواليبها (ونالها) في الوجود . وحتى الجرارات لا تستطيع حراكاً إلا بمنتهى الصعوبة . وسرعان ما تجمدت اعداد ضخمة كبيرة من مدافعنا الثقيلة وتوقفت عن الحركة ... وفي وسع الانسان ان يتصور العناء الذي واجهته قواتنا المجاهدة من جراء هذا الوضع » .^(١)

وسرعان ما تسالت لأول مرة الى يوميات هولدر وتقارير غودريان وبلومنتريت وغيرهما من الفرقاء الالمان علائم الشك الذي تحول الى يأس . وانتقلت هذه المخاوف الى صفار الضباط وجنود الميدان ، أو انها نبعت منهم . وعاد بلومنتريت بذاك رته الى تلك الأيام فقال : « وهكذا عندما غدت موسكو على مرمى الأبصار من قواتنا ، بدأت الحالة النفسية عند قادتنا وجنودنا في التبدل . وقد أخذت مقاومة العدو تشتد ، وأصبح القتال أكثر عنفاً ومرارة .. وهبط عدد الجنود في كثير من سرايانا الى الستين والسبعين جندياً » . وكان هناك نقص في المدافع الصالحة للعمل والدبابات . ويمضي القائد قائلاً : « وأصبح الشتاء على الأبواب ، ولكن لم تكن ثمة علامة على وصول ملابس الشتاء إلينا ... وبدأت أولى وحدات « الأنصار » تعمل وتثبت وجودها وراء الجبهة ، في الغابات الشاسعة والمستنقعات . وكثيراً ما تعرضت أرتال التموين للكمان التي ينصبها هؤلاء الأنصار ... »

وراح بلومنتريت يتذكر الآن أشباح جنود جيش نابوليون الأعظم ، الذين

١ - مقال بلومنتريت ٩ كتاب « القرارات القدرية » ص ٦٦ .

كانوا قد ساروا على نفس هذا الطريق من قبل . وبدأت ذكريات مصير نابوليون
تؤرق على الغزاة النازيين مضاجعهم . وأخذ الفرقاء الألمان يقرأون أو يعيدون
قراءة ما كتبه كولينكورت من وصف قاتم عن الشتاء المفجع الذي قضاه الفاتح
الفرنسي في روسيا في عام ١٨١٢ .

والى الجنوب ، حيث الطقس لا يزال أكثر دفئاً ، وإن كانت الأمطار
والوحول لا تقل هناك سوءاً عن الشمال ، لم تكن الأمور تسير كذلك سيراً
مرضياً . فقد دخلت دبابات كلايست مدينة روستوف الواقعة على مصب نهر الدون
في الواحد والعشرين من تشرين الثاني بين قرع الطبول الذي دوت به دعاية
غوبلز ، هاتفة بأن « بوابة القفقاس » قد غدت مفتوحة أمام الألمان . ولكن هذه
« البوابة » لم تظل مفتوحة أمداً طويلاً . فقد أدرك كل من كلايست ورونشتادت
ان من المحال الاحتفاظ بروسوف وحدها . ولم تمض خمسة ايام حتى كان الروس
يستعيدونها وحتى كان الألمان الذين يتعرضون للهجوم من جناحي الشمال
والجنوب يتقهقرون متراجعين بسرعة خمسين ميلاً الى نهر ميوس ، حيث أراد
كلايست ورونشتادت في البداية ان يقيموا خطهم للشتاء .

ويعتبر التراجع من روستوف نقطة تحول أخرى في تاريخ الرايخ الثالث .
فلقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يبنى بها أي جيش نازي بنكسة خطيرة
وعلق غودريان فيما بعد بقوله : « لقد بدأت مصائبنا في روستوف ... وكان
هذا ما سطر لنا في كتاب القدر » . وقد كلفت هذه النكسة المشيرفون ورونشتادت ،
الضابط الأكبر في الجيش الألماني قيادته . وروى القائد فيما بعد للمحققين في
نورمبرغ انه عندما كان يتراجع نحو نهر ميوس :

« جاءني أمر مفاجئ من الفوهرر يقول : « لا تقهقر شعرة
واحدة . وظل في المكان الذي انت فيه . ورحت أبرق له على التو
قائلاً : « انه جنون مطبق ان نحاول الصمود في مكاننا . فمن
الناحية الاولى لا يستطيع الجنود ان يصمدوا ، وحتى ولو صمدوا ،
ولم يتراجعوا فإنهم سيلقون الدمار . واني أكرر طلي بسحب هذا

الامر ، فإذا تعذر ذلك ، أرجو ان تعثروا على قائد آخر » .
ووصل رد الفوهرر في تلك الليلة نفسها وهو يقول : « لقد استجبت
لرغبتك . أرجو ان تسلم قيادتك لخلفك » ويمضي رونشتادت قائلاً :
« وعلى الاثر ذهبت الى بيتي (١) » .

وقد يكون هذا الجنون في اصدار الامر الى القوات البعيدة بالصمود حيث
هي ، مهما كان الخطر الذي تتعرض له قد أنقذ الجيش الالماني من الانهيار الكامل
في الاشهر المحطمة التالية ، على الرغم من أن كثيرين من الفرقاء يعارضون هذا
الرأي ، إلا انه أدى حتماً الى كارثة ستالينغراد والى الكوارث الاخرى التي
قررت مصير هتلر .

وحلت ثلوج الشتاء وبرودة الطقس التي تهبط عن الصفر بسرعة في ذلك الشتاء
في روسيا . وقد لاحظ غودريان تساقط الثلج ليلة السادس — السابع من تشرين

١ — استجواب رونشتادت في عام ١٩٤٥ . نقل وقائعه شولمان في كتابه « الهزيمة في
الغرب » ص ٦٨ - ٦٩ . وقد دون هولدر في يومياته بتاريخ الثلاثين من تشرين الثاني يصف
تراجع رونشتادت الى نهر ميوس وقرار هتلر باقالة المشير يقول : « كان الفوهرر في هياج
متناه في الغلو » ... ثم مضى يقول : « واستدعى الفوهرر براوختش وكال له التوبيخ واللوم ،
والاهانات » وكان هولدر قد بدأ يومياته لذلك اليوم معددا ارقام الخسائر الالمانية حتى السادس
والعشرين من تشرين الثاني وقال : بلغ مجموع الخسائر في جيوش الشرق دون حساب الموضى
(٧٤٣،١١٢) بين ضابط وجندي أي نحواً من (٢٣) في المائة من مجموع القوة التي يبلغ تعدادها
ثلاثة ملايين ومائتي ألف .

وسجل هولدر في الاول من كانون الاول حلول رايخناو محل رونشتادت وكان الاول لا يزال
يقود الجيش السادس الذي سبق له ان قاده في فرنسا والذي كان يجتاز الآن محنة عصبية
الى الشمال من فرق كلايست المدرعة التي كانت تواصل انسحابها من روستوف .
ودون هولدر قائلاً : « واتصل رايخناو بالفوهرر هاتفياً يسأله بالانسحاب الليلة الى خط
ميوس . وقد سمح له الفوهرر بالانسحاب . وهكذا وصلنا اليوم الى ما كان علينا ان نصل اليه
بالامس . ولكننا اضعنا وقتاً وقوة وضحيينا برونشتادت . » ثم اضاف قائلاً : « ما زالت صحة
براوختش تدعو الى القلق من جراء الهياج العصبي المستمر » . وسجل هولدر في العاشر من
تشرين الثاني ان قائد الجيش العام اصيب بنوبة قلبية حادة .

الأول ، أي في نفس اللحظة التي استؤنف فيها الزحف على موسكو . وقد ذكره هطول الثلج بواجبه في ان يطلب الى القيادة العامة تزويده بملابس الشتاء ولا سيما الأحذية الثقيلة العالية والجوارب الصوفية الثقيلة . وقد سجل في الثاني عشر من تشرين الأول ان الثلج كان لا يزال يتساقط . وفي الثالث من تشرين الثاني ، هبت أول موجة من البرد والصقيع ، وهبطت درجة الحرارة الى ما تحت نقطة التجمد ثم استمرت في الهبوط . وفي السابع من الشهر روى غودريان وقوع أول حادثة من حوادث « عضه البرد » بين جنوده ، كما روى ان درجة الحرارة هبطت في الثالث عشر الى الثامنة تحت الصفر فهرنهايت ، وان الجنود أخذوا يعانون الأحوال من الافتقار الى ملابس الشتاء . وأثر البرد القارس على المدافع وعلى الآلات ايضاً . وكتب غودريان يقول :

« يسبب لنا الصقيع الكثير من المتاعب ، لا سيما وان « القيير » اللازم لطرق الدبابات لم يصل بعد . وأدت شدة البرد الى عدم الإفادة من المناظر المقراية (التلسكوبية) . وكنا نحتاج الى ايقاد النيران لنتمكن من ادارة الآلات في الدبابات . وكثيراً ماتجمد الوقود ، أما الزيت فقدبات لرجاً . وخسر كل فوج من أفواج الفرقة (١١٢) من فرق المشاة نحواً من خمسمائة رجل من جراء « عضه البرد » . وباتت المدافع الرشاشة عاجزة عن الاطلاق من جراء البرد ، كما برهنت مدافعنا المضادة للطائرات من عيار (٣٧) مليمترأ على انها غير مجدية مع دبابات (ت ٣٤) الروسية . » (١)

ويقول غودريان « ان النتيجة كانت انتشار الهلع الذي امتد حتى وصل الى بوغورودسك . وكانت هذه هي المرة الاولى التي يقع فيها مثل هذا الأمر إبان الحملة الروسية ، كما كانت بمثابة تحذير من ان طاقة مشاتنا على القتال كانت قد بلغت نهايتها . »

١ - غودريان - قائد فرق الصاعقة ص ١٨٩ - ١٩٠ .

ولكن لم تكن طاقة المشاة وحدها هي التي بلغت حدود نهايتها . ففي الواحد والعشرين من تشرين الثاني دوّن هولدر في يومياته ان غودريان هتف للقيادة ليقول ان قواته المدرعة « قد وصلت حدود طاقتها وانتهت » . ويعترف هذا القائد الصلب الشكيمة وذو الطبيعة العدوانية ، انه كان قد قرر في ذلك النهار زيارة قائد مجموعة جيوش الوسط ، المشير بوك ، ليطلب اليه تغيير الأوامر التي بعث بها اليه إذ انه « عاجز عن ان يرى سبيلاً لتحقيقها » . وكان في حالة كثيية وانحطاط معنوي ، اذ دوّن في نفس اليوم يقول :

« تجعل برودة الطقس القارصة ، والافتقار الى المأوى ، ونقص الملابس ، والخسارة البالغة في الرجال والمعدات ، والحالة السيئة لتموينات الوقود ، مهمة القائد شاقة بل شقاء ، وكلما طال هذا الوضع ، كلما تحطمت من جراء المسؤوليات الجسام التي أتملها »^(١).

وعندما عاد غودريان بأفكاره فيما بعد الى تلك الأيام كتب يقول :

« ان كل من رأى تلك المتاهات التي لا حدود لها من الثلوج الروسية في ذلك الشتاء الذي علّمنا معنى الشقاء ، وكل من أحس بالرياح المتجلدة التي كانت تهب فوقها ، دافنة بين طيات الثلج كل ما تلقاه في طريقها . وكل من مضى بسيارته ساعة بعد ساعة في هذه الأرض الحرام التي لا يقيم فيها انسان ليعثر بعد رحلته الشاقة على مأوى حقير لا يسد مسغبة ولا يغني فتيلاً ، ويجد فيه بعض الرجال العراة من ملابس الدفء وانصاف الجياع ، ورأى بعد ذلك الجنود السيبيريين (الروس) وقد ارتدوا الملابس الدافئة ، وحصلوا على أجود الطعام ، وتدرّعوا بكل ما يلزمهم لقتال الشتاء . . يستطيع حقاً ان يحكم على الاحداث التي وقعت الآن »^(٢).

١ - غودريان - قائد فرق الصاعقة ص ١٩٢

٢ - غودريان - قائد فرق الصاعقة ص ١٩٤ .

وفي وسعنا الآن ان نسرد هذه الأحداث بإيجاز ، ولكن بعد ان نؤكد نقطة واحدة ، وهي انه على الرغم من اعترافنا بفضاعة الشتاء الروسي ، وبأن الجنود الروس كانوا مهياًين طبعا لهذا النوع من القتال ، بصورة تفضل تهيئة الألمان لها ، إلا ان العامل الاساسي في كل ما وقع الآن لم يكن الطقس ورداءته ، وإنما كان القتال العنيف الذي خاضته قوات الجيش الاحمر ، وعزيمتها التي لم تن ولم تضعف على عدم التسليم . ولا ريب في أن يوميات هولدر ، وتقارير قادة الميدان ، التي تتحدث باستمرار عن دهشتها من مدى عنف الهجمات والهجمات المضادة الروسية ، وعن يأسها من نكسات الالمان وخسائيرهم ، خير دليل على ما أقول . ولم يستطع القادة العسكريون الالمان ان يفهموا لماذا لم يتعرض الروس للاننيار ، كما انهار الفرنسيون وكثيرون غيرهم ، كانت مبرراتهم في الاننيار أقل من مبررات الروس التي تحتل طليعتها طبيعة نظامهم الطاعى والنتائج المفجعة التي انزلتها بهم الضربات الالمانية الاولى .

وكتب بلومنتريت يقول : « وقد اكتشفنا في نهاية تشرين الاول ومطلع تشرين الثاني ، ونحن في غاية الدهشة وخيبة الامل ، ان الروس المهزومين لم يكونوا يعرفون انهم قد انتهوا من الوجود كقوة عسكرية » . ويتحدث غودريان عن مقابلته لجنرال قيصري متقاعد قديم على مقربة من أوريل في الطريق الى موسكو .. ويروي ان هذا القائد المعجوز قاله له :

« لو انكم جئتم قبل عشرين عاما لاستقبلناكم بأذرع مفتوحة ، أما الآن فقد فات الأوان . فلقد شرعنا الآن نقف على أقدامنا وها انتم تجيئون وتحاولون إعادةتنا عشرين عاما الى الوراء ، بحيث يتحتم علينا أن نعود الى البداية من جديد وها نحن نحارب الآن في سبيل روسيا ، ونحن جميعا متحدون في هذا الهدف » (١) .

ومع ذلك ، عندما اقترب تشرين الثاني من نهايته وسط هذه الاعاصير

الثلجية الجديدة . ومن درجات حرارة تقل كثيراً عن الصفر ، ظلت موسكو ، تبدو كأنها باتت في متناول هتلر وقادته العسكريين . وكانت الجيوش الألمانية في شمال العاصمة وجنوبها وغربها قد باتت على بعد عشرين أو ثلاثين ميلاً من هدفها . وبدا لهتلر الذي كان يقف أمام الخريطة في مقر قيادته بعيداً في بروسيا الشرقية ، يتطلع الى ما أمامه ، ان هذه المسافة الباقية لم تعد شيئاً يستحق الذكر . فقد توغلت جيوشه نحواً من خمسمائة ميل ، ولم تبقى أمامها إلا هذه الأميال العشرون أو الثلاثون . وراح يقول ليودل في منتصف شهر تشرين الثاني ... « لم تبقى أمامنا إلا رمية أخرى أخيرة ، وسنحقق انتصارنا » . وشبه المشير فون بوك قائد مجموعة جيوش الوسط ، الوضع في حديث هاتفي مع الفريق هولدر في الثاني والعشرين من تشرين الثاني ، بما كان عليه في معركة المارت « عندما أدى الفوج الأخير الذي قذف في المعركة الى تقرير مصيرها . » قال بوك لرئيس هيئة أركان الحرب انه « يعتقد بإمكان تحقيق كل شيء » على الرغم من مقاومة العدو المتزايدة . وعندما حل اليوم الأخير من تشرين الثاني ، كان يقذف في الحقيقة بآخر ما تبقى لديه من أفواج . وتقرر ان يبدأ الهجوم الشامل الأخير على قلب الاتحاد السوفياتي في اليوم التالي الأول من كانون الاول عام ١٩٤١ .

ولكن هذا الهجوم تعثر على مقاومة فولاذية . وكانت آمال هتلر المشرقة قد تركزت على أعظم قوة دبابات سبق لها ان حشدت في تاريخ الحرب في جبهة واحدة . فقد تدفقت دبابات الفيلق الرابع الذي يقوده الفريق هوبنر ودبابات الفيلق الثالث الذي يقوده الفريق هيرمان هوث من شمال العاصمة متجهة نحو الجنوب ، بينما اندفعت قوات الجيش المدرع الثاني الذي يقوده غودريان من جنوب العاصمة ، أي من بلدة تولا باتجاه الشمال . وأخذت دبابات الجيش الرابع الضخم الذي يقوده كلوغه تشق طريقها في الوسط متجهة شرقاً نحو العاصمة عبر الغابات التي تحيط بها . وتمكن فوج استطلاع من فرقة المشاة (٢٥٨) من النفاذ في الثاني من كانون الاول الى « خيمكي » إحدى ضواحي موسكو ،

واصبح رجاله على مرأى من قباب الكرملين ، ولكن ما عثم ان طرد منها في الصباح التالي ، على ايدي بعض الدبابات الروسية وقوة مختلطة تم تشكيلها على جناح السرعة من عمال مصانع المدينة . وكانت هذه اقرب نقطة من موسكو استطاع الجنود الألمان الوصول اليها ، وكانت المرة الأولى والاخيرة التي وقعت فيها أنظارهم على الكرملين .

ولم يحل مساء اليوم الأول من كانون الأول ، حتى كان بوك ، الذي يعاني من آلام قاسية في معدته ، قد هتف الى هولدر ليقول له انه بات عاجزاً عن متابعة الهجوم بقواته الضعيفة . وحاول رئيس هيئة اركان الحرب ان ينعش معنوياته فقال له : « على المرء ان يحاول ارغام العدو على الركوع بآخر مجهود يبذله . فإذا ما ثبتت استحالة ذلك ، بات لزاماً علينا ان نصل الى استنتاجات جديدة » . وراح هولدر يدوّن في اليوم التالي في يوميته : « وضلت مقاومة العدو ذروتها » . وعاد بوك الى الهاتف في اليوم التالي أي الثالث من كانون الأول ليتحدث عن طريقه الى رئيس هيئة اركان الحرب الذي دوّن رسالته في يومياته :

« اضطرت رؤوس اندفاع الجيش الرابع الى التراجع ، لأن الجناحين عجزا عن الاندفاع ... وعلينا ان نواجه الآن اللحظة التي تكون فيها قوة رجالنا قد بلغت نهايتها » .

وعندما تحدث بوك للمرة الأولى عن التحول الى الدفاع ، حاول هولدر تذكيره بأن « الاستمرار في الهجوم هو خير وسائل الدفاع » . ولكن القول كان اسهل بكثير من العمل من جراء عناد الروس وقسوة الطقس . ونقل غودريان في اليوم التالي أي الرابع من كانون الأول ، بعد ان اوقف الروس المحاولة التي قام بها جيشه المدرع الثاني لاحتلال موسكو من الجنوب ، الى القيادة العليا ان درجة الحرارة قد هبطت الى الاحدى والثلاثين دون الصفر . وعادت فهبطت في اليوم التالي خمس درجات اخرى . وقال أن دباباته « باتت عاجزة عن الحركة » ، وان جناحيه ومؤخرته الى الشمال من تولا ، قد اصبحت كلها معرضة للخطر .

وكان الخامس من كانون الأول ، هو اليوم الحاسم . فقد اوقف الألمان في كل مكان في الجبهة التي تمتد مائتي ميل على شكل نصف دائرة حول موسكو . ولم يحل المساء حتى كان غودريان يبلغ قائده بوك ، ان قواته لم تضطر الى الوقوف فحسب بل باتت مرغمة على التراجع ، وراح بوك يهتف الى هولدر ليقول له « ان قوته قد بلغت منتهاها » . بينما ابلغ براوختش رئيس هيئة اركان حربيه ، والياس يقطر من عباراته ، انه قرر الاستقالة من منصبه كقائد عام للجيش . حقاً لقد كان يوماً قائماً ومرراً للفرقاء الألمان . وتذكر غودريان ذلك اليوم الاخير فيما بعد فكتب يقول :

« كانت هذه هي المرة الأولى التي اجد نفسي مضطراً فيها الى اتخاذ قرار من هذا النوع ، ولم يكن اشقّ علي من هذا القرار ... فلقد تحطم هجومنا على موسكو . وضاعت جميع تضحيات جنودنا البواسل واحتملهم ، هباء وعيباً . لقد منينا بهزيمة مؤلمة » (١) .

وادرک بلومنتريت رئيس هيئة اركان حرب جيش كلوغه الرابع ، ان نقطة التحول قد أتت . واستذكر تلك الايام فيما بعد ، فكتب عنها يقول : « لقد انهارت آمالنا في اخراج روسيا من الحرب في عام ١٩٤١ في اللحظة الاخيرة » . وتحول الفريق الروسي جورجي جو كوف الذي خلف المشير تيموشنكو في قيادة الجبهة الوسطى قبل نحو من ستة أسابيع الى الهجوم في اليوم التالي ، أي السادس من كانون الاول . واطلق على جبهة تمتد مائتي ميل أمام موسكو سبعة جيوش وفيلقي فرسان ، يبلغ مجموعها كلها مائة فرقة تتألف كلها من جنود يدخلون المعركة لأولى مرة أو آخرين مارسوا القتال فيما مضى ، وكلهم مجهزون بأحسن الاسلحة والمعدات ، ومدربون على القتال في مثل هذا الطقس البارد والثلوج الكثيفة . وكانت الضربة التي وجهها هذا القائد الذي كان مغموراً حتى هذه اللحظة ، بمثل هذه القوة الضخمة من المشاة والمدافع والدبابات والفرسان

١ - غودريان - قائد فرق الصاعقة ص ١٩٩ .

والطائرات التي لم يكن هتلر قد تصور لحظة واحدة وجودها ، من العنف والمباغطة الى الحد الذي لم يستفق الجيش الألماني ولا الرايخ الثالث من هوله ابداً . وبدا لعدة اسابيع في غضون ما تبقى من شهر كانون الأول ذاك الشديد البرودة والمرارة ، وفي شهر كانون الثاني ان الجيوش الالمانية المهزومة والمتراجعة ، والتي تتعرض جبهتها باستمرار للاختراق من جانب الروس ، قد تتفسخ في أية لحظة وتباد في الثلوج الروسية ، تماماً كما حدث لجيش نابليون الاعظم قبل نحو من مائة وثلاثين عاماً . وقد اقتربت هذه الجيوش في عدة لحظات حرجة من هذه النهاية . ومن المحتمل ان تكون ارادة هتلر الصخرية وتصميمه الفولاذي هما اللذان انقذا جيوش الرايخ الثالث من الكارثة النهائية ، لكن الذي لا شك فيه ان الفضل في هذا الانقاذ يعود حتماً الى قوة احتفال الجندي الألماني وصبره على الأهوال .

لكن الفشل كان ذريعاً . فلقد شلت الجيوش السوفياتية في الاشهر الماضية ولكنها لم تحطم . ولقد صمدت موسكو كما صمدت ليننغراد وستالينغراد ، ولم يتمكن هتلر من احتلال حقول زيت القفقاس وظلت شرابين الحياة الروسية المتصلة ببريطانيا وامريكا من الشمال والجنوب ، مفتوحة لم تقطع . ولأول مرة منذ اكثر من عامين من الانتصارات العسكرية المتلاحقة ، كانت جيوش هتلر تتراجع الآن أمام قوة متفوقة عليها .

ولم يكن هذا كل شيء . اذ كان الفشل اعظم بكثير . وقد ادرك هولدر ذلك وان جاء ادراكه متأخراً . اذ كتب في يومياته يقول : « لقد تحطمت الاسطورة القائلة بأن الجيش الالمانى لا يغلب » . وقدر لروسيا ان تشهد انتصارات المانية اخرى عندما عاد الصيف ، ولكن لم تستطع هذه الانتصارات ان تعيد للجيش الالمانى تلك الاسطورة . وهكذا يمثل السادس من كانون الاول عام ١٩٤١ ، نقطة تحول أخرى ، في التاريخ القصير للرايخ الثالث ، وكانت ولا شك نقطة تحول قدرية من الدرجة الاولى . لقد وصل سلطان هتلر الى سمعته ، ومنذ هذه اللحظة بدأ في الافول ، وقد لفته الضربات المضادة النامية ، من

الشعوب التي اختار هو ان يشن حروبه العدوانية عليها .

* * *

وحدث الآن تبدلات جذرية في القيادة العليا الالمانية وبين قادة الميدان .
اذ لما بدأت الجيوش الالمانية تتراجع على الطرق المتجمدة ، وفوق الحقول التي
تكسوها الثلوج أمام الهجوم السوفياتي المضاد ، أخذت رؤوس الفرقاء الالمان
تتدحرج . وقد رأينا كيف ان رونشتادت قد ابعد من قيادة الجيوش الالمانية
في الجنوب ، عندما وجد نفسه مضطراً الى الانسحاب من روستوف . وازدادت
آلام المعدة عند المشير فون بوك من جراء نكسات شهر كانون الاول ، وسرعان
ما خلفه في الثامن عشر من الشهر نفسه المشير فون كلوغه ، الذي كان جيشه
الرابع المحطم يتراجع الى الابد من ضواحي موسكو . وحق الفريق غودريان
الجريء ، خالق الحرب المدرعة الجماعية التي اوجدت ثورة في المعارك العصرية ،
اقل من منصبه ايضاً يوم عيد الميلاد لأنه اصدر أمراً بالتراجع دون اذن من
رؤسائه . وحق الفريق هوبنر ، قائد الدبابات البارِع الذي لا يقل كفاية
عن زميله غودريان والذي وصلت مجموعته المدرعة الى ابواب موسكو من
ناحية الشمال ، ثم اضطر الى التراجع ، اقل من منصبه بأمر من هتلر
لنفس الاسباب ، وانتزعت رتبته منه ، وحرّم عليه ارتداء البزة العسكرية .
ولقي الفريق هانز الكونت فون سبونيك ، الذي كان قد تلقى ارفع الاوسمة
الالمانية لقيادته حركات انزال القوات المحمولة من الجو في لاهاي في السنة
الماضية ، عقاباً اشد ، لأنه اضطر الى سحب فرقة واحدة من فيلقه في
القرم في التاسع والعشرين من كانون الاول بعد أن نزلت القوات الروسية
من البحر وراءه . فلم يكتف هتلر بانتزاع رتبته منه ، وانما امر باعتقاله ومحاكمته
عسكرياً ، ثم نفذ الاعدام فيه باصرار من الفوهرر (١) .

وقد تعرض حتى كايثل الختوع لبعض المشاكل مع القائد الأعلى . فقد رأى

١ - لم ينفذ فيه حكم الاعدام الا بعد مؤامرة تموز عام ١٩٤٤ على حياة هتلر ، التي لم
يكن مشتركاً فيها بأية حالة من الاحوال .

حتى هذا القائد الذي لا يبصر الا ما يراه سيّده في الأيام الأولى من شهر كانون الاول ان الانسحاب من منطقة موسكو أمر ضروري لتجنب الكارثة . وعندما حشد كل مالدیه من شجاعة ، وجرؤ على ابداء رأيه هذا لهتلر ، راح هذا يكيل له الشتائم ، صارخاً في وجهه ومطلقاً عليه اسم « الانسان البليد » . وعثر يودل بعد قليل على رئيس القيادة العليا التعس ، جالساً الى مكتبه ، يكتب استقالته ، وقد وضع مسدسه الى جانبه . وانتزع يودل المسدس بهدوء واقنع كايتل ، دون كبير عناء كما يبدو ، بالبقاء في منصبه وابتلاع اهانات الفوهرر ، فابتلعها بكثير من الاحتمال والصبر حتى النهاية المرة (١) .

وأدى الجهد الناجم عن قيادة جيش لا يستطيع ان يفوز دائماً ، في ظل قائد أعلى يصر على ان يكون الفوز باستمرار من نصيب جيشه ، الى تجدد الثوبات القلبية عند المشير فون براوختش ، وعندما شرع جو كوف في هجومه المضاد كان المشير قد صمم على التخلي عن منصبه كقائد عام للجيش . وقد عاد الى مقر القيادة العامة من جولة طاف فيها الجبهة المتراجعة في الخامس عشر من كانون الأول ، وعثر عليه هولدر وهو « في حالة تهدم » . ودون هولدر في يوميته قائلاً : « لم يعد براوختش يرى سبيلاً للخلاص ، وانقاذ الجيش من وضعه اليائس .. » أجل كان رئيس الجيش قد وصل الى نهاية مداه . وكان قد طلب الى هتلر في السابع من كانون الاول تسريحه من منصبه ، ثم عاد فكرر هذا الطلب في السابع عشر منه . وقبل الفوهرر طلبه رسمياً ونحاه من منصبه بعد يومين . وقد افضى الفوهرر لغوبلز بعد ثلاثة اشهر ، برأيه الصريح في الرجل الذي اختاره هو لقيادة جيشه ، وكتب غوبلز في يوميته بتاريخ العشرين من آذار عام ١٩٤٢ يقول :

« لقد تحدث الفوهرر عنه (براوختش) بعبارات تنطوي على الزايرة والاحتقار فوصفه بأنه جبان ومغرور وأخرق ومخبول (٢) »
واعلن هتلر لاخوانه رأيه في براوختش فقال : « انه ليس

١ - غوير ليتنر - تاريخ هيئة اركان الحرب الالمانية ص ٤٠٣ .

٢ - يوميات غوبلز ص ١٣٥ - ١٣٦ .

بالجندي وإنما هو رجل ضعيف خائر العزم . ولو ظل براوختش في منصبه بضعة اسابيع اخرى لانتهدت الاوضاع الى كارثة (١) . وبدأت التكهّنات بين قادة الجيش عن الرجل الذي سيخلف براوختش ولكن جميع هذه التكهّنات خابت في اصابة هدفها تماماً كما خابت من قبل سنوات عدة بصدد من سيختلف هندنبيرغ . واستدعى هتلر في التاسع عشر من كانون الاول ، هولدر الى حضرته وابلفه انه سيتولى بنفسه قيادة الجيش العامة . واذاف ان في وسعه ان يستمر في منصبه كرئيس لهيئة اركان الحرب ، اذا اراد الاستمرار ، وقد اراده هولدر فعلاً . ولكن هتلر ، أوضح صراحة ، انه سيتولى بنفسه منذ تلك اللحظة تصريف أمور الجيش ، كما يصرف كل شيء آخر في ألمانيا . ثم قال له :

« ان في وسع كل انسان ان يتولى هذا المنصب الذي لا أهمية له ، في قيادة الجيش بصورة عادية . ولكن مهمة القائد العام ، في الحقيقة هي تدريب الجيش بالطريقة الاشتراكية الوطنية . واني لا اعرف ان ثمة « فريقاً » يستطيع ان يقوم بهذه المهمة كما أقوم بها أنا . ولهذا فقد قررت ان أتولى بنفسى قيادة الجيش (٢) » .

وهكذا كمل انتصار هتلر على فيلق الضباط البروسيين . وبات الافاق الفيني السابق ، والعريف في يوم ما ، رئيس الدولة الألمانية ووزير حريبتها والقائد الأعلى لقواتها المسلحة ، والقائد العام لجيشها . وبات « الفرقاء » كما اشتكى هولدر في يومياته ، مجرد موزعي بريد ، يحملون أوامر هتلر المستندة على مفاهيمه الشخصية في الخطط السوقية .

ولم يمض طويل وقت حتى كان هذا الديكتاتور المصاب بالمعظم ، قد جعل من نفسه شيئاً اكبر من كل هذا ، فقد اضى على نفسه سلطاناً شرعياً لم يسبق لأي رجل آخر في تاريخ « الرايخات » الألمانية سواء أكان امبراطوراً او ملكاً

١ - محادثات هتلر السرية ص ١٥٣ .

٢ - هولدر - هتلر كقائد ميدان ص ٤٥ .

او رئيس جمهورية ، ان حصل عليه . ففي السادس والعشرين من نيسان عام ١٩٤٢ ، تمكن من ان يحمل الرايشستاغ الذي « يبصم له على كل شيء » على سن قانون يمنحه الصلاحيات المطلقة التي تمنح الحياة أو الموت لكل رجل في المانيا ، ويوقف جميع القوانين التي قد تقف عقبة في طريق هذه الصلاحيات . وأرى لزماً علي ان أورد نص هذا القانون حتى يصدق القارىء هذا الأمر الذي لا يكاد يصدق :

« في مثل هذه الحرب التي يخوضها الشعب الالماني ويواجه فيها النضال في سبيل الوجود او الفناء ، من الواجب ان يتمتع الفوهرر بجميع الحقوق التي يفترض ان يملكها ليستطيع عن طريقها الوصول الى النصر او الإسراع فيه . ولهذا ، ودون التقيد بالأنظمة القضائية المرعية ، وبوصفه زعيم الأمة والقائد الأعلى لقواتها المسلحة ورأس حكومتها ، والرئيس الأعلى لأجهزتها التنفيذية ، وقاضيا الاعلى وزعيم حزبها ، يجب ان يكون الفوهرر في وضع يمكنه من ان يفرض بجميع الوسائل الموجودة تحت تصرفه ، على كل الماني ، اذا اقتضى الامر ، سواء أكان جندياً عادياً أو ضابطاً ، موظفاً عالياً او خفياً ، قاضياً ، أو كبيراً من كبراء الحزب أو تابعاً من اتباعه ، عاملاً أو صاحب عمل ، ان يؤدي واجباته على أكمل وجه . ومن حق الفوهرر ، في حالة تقاعس أي انسان عن اداء واجباته ، وبعد التحري الواعي ، دون اكتراث بما يسمى بالحقوق المكتسبة . ان يفرض أية عقوبة مناسبة ، وان يقبل أي مسيء من منصبه او رتبته أو مكانته دون أية اجراءات قانونية معروفة (١) » .

وهكذا لم يعد هتلر في الحق ، زعيم المانيا بل بات قانونها . ولم يحدث قط لا في المصور الوسطى ولا قبلها في الايام القبلية البربرية ، ان تمكن أي الماني من

اغتصاب مثل هذا السلطان الطفياني لنفسه اسماً وشرعاً وحقيقة .
ولكن هتلر كان قبل هذه السلطات الاضافية السيد المطلق للجيش الذي تولى
الآن قيادته المباشرة وقد قام بهذه الحركة في ذلك الشتاء القاسي ليوقف تراجع
جيوشه المهزومة ويحنبها مصير جيش نابوليون وهو يتراجع على نفس الطرق
المتجمدة والمكسوة بالثلوج عائداً من موسكو . وسرعان ما اصدر أمراً صارماً
بمنع أي تراجع آخر . وقد ناقش القادة العسكريون الألمان طويلاً حسنات هذا
الصمود العنيد ومساوئه ، وما اذا كان قد انقذ القوات الالمانية من الكارثة
الكاملة ، أو انه سبب تلك الخسارات الهائلة التي لم يكن ثمة مناص منها . وقد
ادعى معظم القادة العسكريين انهم لو منحوا حرية العمل ، في الانسحاب عندما
بات وضعهم لا يطاق ، لكان في إمكانهم انقاذ عدد أكبر من الرجال وكميات
اضخم من المعدات ، ولأضحوا في وضع افضل يكتفون من اعادة تنظيم جيوشهم
وشن هجوم مضاد . وما حدث هو ان فرقاً كاملة كانت تحتاج احياناً أو تطوَّق
ثم تجزأ الى اقسام صغيرة ، بينما كان في وسع أي انسحاب في الوقت المناسب
ان ينقذها .

ومع ذلك فقد وجد بعض القادة العسكريين الذين اعترفوا بعد لأي وتردد
بأن ارادة هتلر الحديدية في الاصرار على صمود الجيوش وقتالها ، كانت اعظم ما
انجزه من اعمال الحرب ، لأنها على الغالب كانت السبب في انقاذ جيوشه من
التفسخ الكامل فوق الثلوج . ولا ريب في ان الفريق بلومنتريت كان خير من
لخص هذا الرأي وعبر عنه اذ قال :

« ليس ثمة من شك في ان أمر هتلر المتمصّب ، ببقاء القوات
الألمانية صامدة في أماكنها دون الاكتراث بأوضاع كل وحدة من هذه
القوات أو بالظروف المستحيلة التي تصمد فيها ، كان امراً صحيحاً .
وقد ادرك هتلر بدافع غريزته ، أن أي تراجع عبر الثلوج والجليد ،
يجب ان يؤدي في غضون بضعة ايام الى تحلل الجبهة وتفسخها ، وانه
اذا وقع مثل هذا التطور ، فإن القوات المسلحة الألمانية ستواجه

نفس المصير الذي حل بالجيش الاعظم ... ولم يكن ثمة سبيل
للانسحاب إلا عبر الارض العراء ، طالما ان الطرق والممرات كانت
تغطيها الثلوج التي تحول دون السير فيها ... ولن تنقضي ليالٍ
طويلة على الانسحاب ، حتى يكون العياء قد ادرك الجنود ، الذين
سينبطحون حتماً في أي مكان ، ثم يموتون في هذا المكان نفسه .
ولم تكن هناك مواقع مهيأة في المؤخرة ، يستطيع الجنود الانسحاب
اليها ، كما لم يكن هناك أي خط من الخطوط الدفاعية التي يتمكنون
من الارتكاز اليها (١) .

وقد وافقه على هذا الرأي ايضاً الفريق فون تيلسكيرش قائد احد الفيالق
اذ قال :

« كان هذا الأمر العمل العظيم الوحيد الذي حققه هتلر . فلقد
كان الجنود في تلك الآونة العصبية يذكرون ما سبق لهم ان سمعوه
عن تراجع نابوليون من موسكو ويعيشون في كابوس هذه
الذكريات . ولو سمح للجنود بأن يبدأوا في التراجع لتحول تراجعهم
الى فرار مصحوب بالهلع (٢) .

ولكن الهلع كان قد ظهر في الجيش الألماني . ولم يقتصر ظهوره على الجبهة
وانما بدا واضحاً ايضاً في المؤخرة ، وفي القيادة العامة بالذات ، وقد سجله
هولدر تسجيلاً تصويرياً في يومياته . ففي يوم الميلاد عام ١٩٤١ ، استهل هولدر
يوميته بقوله : « انه ليوم عصيب » . وعاد يكرر هذه العبارة في مستهل
يوميات عدة قبل رأس السنة وبعده ، عندما يتحدث عن أي خرق جديد من
جانب الروس لجبهة الالمان ، وما ينجم عن كل خرق من وضع خطر بالنسبة الى
الجيش المختلفة . وهذا بعض ما دونه :

« ٢٩ كانون الأول ... يوم عصيب آخر ... مكالمات هاتفية

١ - مقال بلومنتريت في كتاب « القرارات القدرية » ص ٧٨ - ٧٩ .

٢ - ليدل هارت - الفرقاء الانكليز يتكلمون ص ١٥٨ .

بعيدة المدى ومسرحية بين الفوهرر وكلوغه . منع الفوهرر أي انسحاب آخر للجناح الشمالي من الجيش الرابع . الجيش التاسع في وضع حرج للغاية ويبدو ان القادة قد فقدوا عقولهم . حديث هاتفي ثائر عند الظهيرة من كلوغه . يريد الجيش التاسع التراجع الى ما وراء ريخيف ...

« ٢ كانون الثاني عام ١٩٤٢ .. يوم من القتال الوحشي ... الجيشان الرابع والتاسع في ازمة خطيرة ... ادى اختراق روسي الى الشمال من « مالويا روسلافيتس » الى تمزيق الجبهة وفتح ثغرة واسعة فيها ، ومن الصعب معرفة الطريقة التي تمكن بواسطتها اعادة تثبيت الجبهة في الوقت الحاضر ... حمل هذا الوضع كلوغه على المطالبة بسحب الجبهة المائلة ... دارت مناقشة عاصفة مع الفوهرر الذي اصر على موقفه فهو يريد ان تظل الجبهة في موضعها مهما كانت النتائج ...

« ٣ كانون الثاني - اصبح الوضع اكثر خطورة نتيجة الاختراق الروسي بين مالويا روسلافيتس وبوروفسك . يحس كويبلر^(١) وبوك بالكثير من الاثارة ويطالبان بالانسحاب من جبهة الشمال التي شرعت في الانهيار . ويقع منظر مسرحي جديد بطله الفوهرر ، فهو يشك في شجاعة قادته العسكريين وفي قدرتهم على اتخاذ قرارات قاسية . ولكن الجنود لا يستطيعون الصمود في مواقعهم عندما تكون درجة الحرارة ثلاثين تحت الصفر ، ويأمر الفوهرر ، بأنه سيقدر شخصياً ما اذا كان من الضروري القيام بالانسحابات جديدة ... »

١ - خلف الفريق كويبلر ، المشير كلوغه في السادس والعشرين من كانون الاول كقائد للجيش الرابع عندما تسلم هذا قيادة مجموعة جيوش الوسط . وعلى الرغم من صلابته كجندي الا انه لم يطق احتمال الجهد اكثر من ثلاثة اسابيع فخلفه في قيادته الفريق هنريكي .

ولم تعد مثل هذه القرارات في يد الفوهرر وإنما في يد الجيش الروسي . وكان في وسع هتلر ان يرغم الجنود الالمان على الصمود بقوة في اماكنهم والموت فيها ، ولكن لم يكن في قدرته ان يوقف الزحف الروسي ، إلا بالقدر الذي كان في وسع الملك كانيوت ^(١) او يمنع التيارات الهوائية من الهبوب . واقترح بعض ضباط القادة العليا ذات مرة من مرات الهلع ان انقاذ الموقف قد يتطلب اللجوء الى استعمال الغازات السامة . ودون هولدر في يوميته بتاريخ السابع من كانون الثاني يقول : « يحاول العقيد اوخسندر اقناعي بأن نبدأ باستخدام الغازات السامة ضد الروس » . ولكن قد تكون شدة البرودة هي التي اعاقت استخدام الغازات . على أي حال ، لم يؤد الاقتراح الى اية نتيجة .

وكان الثامن من كانون الثاني من « الايام العصبية حقاً » كما دون هولدر في يومياته ... ومضى قائلاً : « لم يعد في وسع كلوغه احتمال الفجوة التي فتحها الروس في سوخينجي الى الجنوب الغربي من موسكو . وهو ما يزال يصّر على سحب جبهة الجيش الرابع الى الراء » . وظل المشير طيلة اليوم على الهاتف يحدث هتلر وهولدر ، مصرراً على هذا الانسحاب . واخيراً وافق الفوهرر في المساء على هذا الانسحاب ، وهو برم ، وسمح لكلوغه بالانسحاب « خطوة خطوة ليضمن حماية مواصلاته » .

وهكذا تراجعت الجيوش الألمانية التي كانت قد اعدت عدتها للاحتفال بعيد الميلاد في موسكو ، خطوة خطوة ، وحياناً في خطوات سريعة ، مرغمة امام الجيوش الروسية على هذا التراجع خوفاً من التطويق ومن عمليات الاختراق . وعندما حلّ شهر شباط ، وجد الألمان انفسهم في مواضع يتراوح بعدها عن

١ - الملك كانيوت الكبير (توفي عام ١٠٣٦ ميلادية) ، ملك الدانمرك وانكلترا . تولى الملك في انكلترا عام ١٠١٤ بعد موت ابيه الملك سوين الدانماركي الذي فتح جزءا كبيرا من انكلترا ، بعد ان انتصر على ملكها الكسوني اثيلريد ونفاه الى نورمانديا . ظل في حروب طويلة مع اثيلريد واولاده الى أن انتصر عليهم . وله قصص مشهورة منها قصة محاولته منع التيارات الهوائية من الهبوب ببناء سور عال - المغرب - .

العاصمة بين خمسة وسبعين ميلاً ومائتي ميل . ودون هولدر في يومياته في نهاية هذا الشهر المتجمد ، الثمن الباهظ الذي دفعته المانيا لهذه المغامرة الروسية الخاطئة ، فقد قدر الخسائر حتى الثامن والعشرين من شباط بـ (٦٣٦,١٠٠٥) أو (٣١) في المائة من مجموع القوات الألمانية ، قتل منهم نحو (٢٥١,٢٠٢) بجراح و (١١١,٤٦) فقدوا ولم يمتز لهم على اثر . وبلغت الخسائر من « عضة البرد » نحواً من (١١٢,٦٢٧) شخصاً . ولم تشمل هذه الأرقام بالطبع الخسائر التي مني بها المجرىون والرومانيون والايطياليون في روسيا .

وسيطر الهدوء على الجبهة كلها مع مجيء ذوبان الثلوج في الربيع ، وشرع هتلر وهولدر في اعداد الخطط اللازمة للإتيان بقوات جديدة وأعداد من الدبابات والمدافع ، لاستئناف الهجوم في جزء من الجبهة على الأقل . ولم يعد في طاقة الألمان ان يهجموا على طول الجبهة الواسعة كلها ، فلقد قضت الغرامة الكبيرة التي دفعوها لبرد الشتاء القارص ولهجوم جو كوف المضاد على ذلك الأمل .

ونحن نعرف الآن ، ان هتلر كان قد ادرك قبل هذا الوقت ان مقارمته في احتلال روسيا قد فشلت ، وانه لم يعد قادراً على احتلالها لا في ستة اشهر ولا ست سنوات . ويروي هولدر في يوميته التي كتبها في التاسع عشر من تشرين الثاني عام ١٩٤١ ، ان الفوهرر ألقى محاضرة طويلة على عدد من ضباط القيادة العامة . فعلى الرغم من وجود قواته على بعد بضعة اميال من موسكو ، وعلى الرغم من زحفها العنيف للاستيلاء عليها إلا انه كان قد تخلى عن آماله في اخضاع روسيا هذا العام ، واستدار بأفكاره الى السنة القادمة . وقد دون هولدر آراء الزعيم على النحو التالي :

« اهدفنا للعام القادم : أولاً القفقاس كلها . غاية الهدف الوصول الى حدود روسيا الجنوبية . الوقت بين آذار ونيسان . في الشمال بعد وقت حملة السنة الحالية الوصول الى فولوغدا أو

غوركي^(١) . ولكن ليس قبل نهاية ايار .

« ومن الواجب ابقاء تحديد الاهداف الأخرى للعام المقبل مفتوحاً . فكل شيء يتوقف على مدى طاقة سككنا الحديدية . وتظل هناك قضية بناء « جدار شرقي » فيما بعد قائمة .

واذا كان هتلر يتوقع ان يتم تحطيم الاتحاد السوفياتي ، فلن تكون ثمة حاجة الى جدار شرقي . ولا ريب في ان هولدر أخذ يتمعن فيما قاله الفوهرر . عندما مضى هذا يقول :

« يخرج الانسان بانطباع واحد وهو ان هتلر يدرك الآن ان اياً من الفريقين لن يستطيع تحطيم الفريق الآخر ، وان هذا الوضع سيؤدي الى مفاوضات للصلح » .

وليس ثمة من ريب في ان هذه اليقظة كانت « مرة » على الفاتح النازي الذي كان قبل ستة اسابيع خلت ، وفي برلين قد اذاع رسالة اعلن فيها « دون أي تحفظ » ان روسيا « قد ضربت ضربة قاضية ، ولن تستطيع الوقوف ثانية » . وها هي خططه هي التي تحطمت ، وآماله هي التي قضى عليها بالزوال . وما عتمت هذه الآمال ان تحطمت من جديد في السادس من كانون الأول ، أي بعد اسبوعين ، عندما شرعت الهزيمة تلاحق بقواته متراجعة تحت الضربات المنهالة عليها من ضواحي موسكو .

وحدث في اليوم التالي ، أي السابع من كانون الأول عام ١٩٤١ ، حادث في الطرف الثاني من الكرة الارضية حول الحرب الأوروبية التي كان هو الذي أثارها باستخفاف الى حرب عالمية ، قدر لها ، وان لم يدرك هو هذه الحقيقة آنذاك ، ان تقرر مصيره ومصير الرايخ الثالث . فقد هاجمت القاذفات

١ - تقع فولوغدا على بعد (٣٠٠) ميل الى الشمال الشرقي من موسكو وتسيطر على الخط الحديدي الممتد الى اركانجل . أما غوركي فيقع على بعد (٣٠٠) ميل الى الشرق من العاصمة .

اليابانية ميناء اللؤلؤ (بيرل هاربور) . وسارع هتلر في اليوم التالي^(١) في قطاره
الى برلين عائداً من مقر قيادته في « عرين الذئب » . انه مرتبط بعهد سري
مقدس مع اليابان وقد حان الوقت اما للوفاء به أو نقضه .

١ - كان هتلر يدون حركاته وسكناته كلها في تقويمه اليومي الذي عثر عليه بين الوثائق
المصادرة .

دور الولايات المتحدة

كان ادولف هتلر قد اعطى وعده المتهور لليابان في غضون سلسلة من المحادثات التي اجراها في برلين مع يوسوكي ماتسوكا ، وزير خارجية اليابان المتشيع للنازية في الربيع عام ١٩٤١ أي قبيل بدء الهجوم الالماني على روسيا ، وتمكننا الوثائق الالمانية المصادرة عن وقائع هذه الاجتماعات من متابعة التطور الفكري عند هتلر الذي قاده الى احدى اخطائه الحسابية الجسام الاخرى . وتشير هذه الوقائع وغيرها من الوثائق الالمانية المصادرة الاخرى والمتعلقة بتلك الفترة الى ان الفوهرر كان جاهلاً اشد الجهل ، وان غورنغ كان مغالياً في الفرور والتعظيم . وان ريبنتروب كان مفرقاً في البلادة ، حتى ان ثلاثتهم لم يستطيعوا فهم القوة العسكرية المحتملة للولايات المتحدة ، وهو خطأ كان قد ارتكبه في الحرب الكونية الاولى ، كل من غليوم وهندنبيرغ ولودندورف .

ولقد كان ثمة تناقض اساسي منذ البداية في سياسة هتلر تجاه امريكا . وعلى الرغم من انه كان يزدرى طاقاتها العسكرية ، إلا انه حاول أشد ما وسعه من جهد طيلة السنتين الاوليين من الحرب ، ابقاءها خارج نطاقها . وكانت هذه ، كما رأينا من قبل ، هي المهمة الرئيسية التي أوكل بها الى السفارة الالمانية في واشنطن ، التي مضت بعيداً في تنفيذها الى الحد الذي دفعها الى رشوة بعض اعضاء الكونغرس

ومحاولة دفع الاموال الى الكتاب ومساعدة « لجنة امريكا أولاً » ، ودعم
الامريكيين من انصار العزلة ، وذلك لابقاء امريكا بعيدة عن الانضمام الى اعداء
المانيا في الحرب .

وقد ادرك هتلر تمام الادراك ، كما توضح اقواله المتعددة في جلساته الخاصة ،
ان الولايات المتحدة ، طالما يتولى قيادها الرئيس روزفلت ، ستظل واقفة في
طريق خططه العظيمة للسيطرة على العالم وتجزئة الكرة الارضية بين دول الميثاق
الثلاثي . وكان يرى ان الواجب يدعوه الى معالجة امريكا في النهاية ، وان يكون
هذا العلاج « قاسياً وصارماً » . ولكنه يؤثر ان تتم هذه المعالجات مع الدول
المناوئة له فرادى . وكان هذا الايثار هو السر في نجاح خطته السوقية حتى
الآن . فدور الولايات المتحدة قادم ولا شك ، ولكن بعد ان ينتهي من تصفية
اموره مع بريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي . وآذاك يخلو له الجو ليعالج مع
حليفه اليابان وايطاليا أمر هذه الدولة « الحديثة النعمة » أمريكا التي ستدعن
بعد ان تغدو وحيدة منعزلة ، لإرادة دول المحور الظافرة .

وكانت اليابان هي مفتاح الجهود التي بذلها هتلر للابقاء على امريكا خارج
الحرب الى ان تكون ألمانيا قد باتت على استعداد لمعالجة امرها . وكانت
اليابان في رأيه ، وعلى حد قول وزير خارجيته ريبنتروب لموسوليني في الحادي
عشر من آذار عام ١٩٤٠ ، تمثل الثقل الكافي للتوازن مع الولايات المتحدة ،
وان ثقلها هذا سيحول بين امريكا وبين محاولة التدخل في اوروبا ضد ألمانيا كما
تدخلت في الحرب الكونية الاولى ^(١) .

وكان هتلر وريبنتروب طيلة تعاملها أيام الحرب مع اليابان يؤكد ان أهمية
عدم استفزاز الولايات المتحدة مخافة تخليها عن حيادها . وكانا قد اصبحا في
مستهل عام ١٩٤١ تواقين كل التوق ، لجر اليابان الى الحرب ، لا ضد امريكا ، ولا
ضد روسيا ايضاً التي كانا على وشك مهاجمتها ، وانما ضد بريطانيا التي رفضت

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية (٨) ص ٩٠٤ - ٩٠٦

التسليم حتى عندما ظهرت في مظهر الدولة المغلوبة . واشتد الضغط النازي على اليابان في مطلع عام ١٩٤١ . وفي الثالث والعشرين من شباط استقبل ريبنتروب في أقطاعيته التي سرقها في « فوشل » على مقربة من سالزبرغ ، السفير الياباني الحاد المزاج والناري الطباع ، الجنرال هيروشي اوشيا ، الذي كثيراً ما اعتبره مؤلف هذا الكتاب ، اكثر نازية من النازيين انفسهم . وقال ريبنتروب لزائره ، انه على الرغم من ان ألمانيا قد كسبت الحرب فعلاً ، إلا ان من واجب اليابان ان تدخلها « في أسرع وقت ممكن ، حرصاً على مصالحها » وان تضع يدها على امبراطورية بريطانيا في آسيا . ثم مضى يقول :

« وليس ثمة من شك في ان تدخل اليابان بصورة مباغتة في الحرب ، سيحمل امريكا على البقاء بعيدة عنها . فأمريكا التي تفتقر الى السلاح في الوقت الحاضر ، والتي ستتردد في تعريض اسطولها لأية مخاطر الى الغرب من جزر « الهواي » ، ستتخذ نفس الموقف في حالة وقوع تطور مماثل . وإذا اعلنت اليابان بدورها احترامها للمصالح الامريكية فلن يكون هناك أي احتمال في ان تستخدم روزفلت حجة « الكرامة المهذرة » لجملة طعم الحرب مستساغاً عند الامريكيين . وليس من المعقول ان تعلن امريكا الحرب لكي تجد نفسها عاجزة عن عمل أي شيء ، وهي ترى اليابان تضع يدها على جزر الفلبين » .

واعلن ريبنتروب انه حتى ولو اشتركت الولايات المتحدة في الحرب ، فإن « اشتراكها هذا لن يعرض للخطر ، النصر النهائي لدول الميثاق الثلاثي . » ففي استطاعة الاسطول الياباني ان ينتصر بسهولة على الاسطول الامريكي ، وستتحقق نهاية الحرب بسرعة بسقوط كل من بريطانيا وامريكا . وكانت هذه الاقوال كافية لإدارة رأس المبعوث الياباني المتشقق للحرب ، واشتعال النار في فؤاده التي اقبل ريبنتروب على اذكاء ضرامها . وقد نصح ريبنتروب اليابانيين بأن يكونوا اكثر صلابة . وان يستخدموا « لقة واضحة » في المحادثات الراهنة التي يجزونها

في واشنطن . وقال :

« ولن يحجم الأمريكيون عن خوض الحرب ، الا اذا ادركوا انهم سيواجهون تصميماً عنيداً . فالشعب في الولايات المتحدة لا يريد التضحية بأبنائه ، وهو لهذا يعارض في دخول بلاده الحرب .. ويحس الشعب الأمريكي بدافع غريزته ، ان روزفلت واليهود من « جاذبي الخيوط » وراء الكواليس ، يدفعونه دفعاً الى الحرب التي لا يريدونها ... ولهذا يجب ان تكون سياساتنا مع الولايات المتحدة واضحة وقاسية » .

ولم يبق أمام وزير خارجية النازي الا أن يوجه تحذيراً أخيراً وهو التحذير الذي سبق له ان فشل في دفع فرانكو الى الحرب ... فقال :

« واذا قدر لألمانيا ان تضعف ، فستجد اليابان نفسها تواجه تحالفاً دولياً معادياً في وقت قريب للغاية ... اننا جميعاً في مركب واحد . ومصير بلدنا المشترك ، يقرر الآن لعدة قرون قادمة ... فهزيمة المانيا لا تعني الا نهاية احلام اليابان الاستعمارية » ^(١)

واراد هتلر اطلاع كبار قادته العسكريين ورجال وزارة الخارجية على سياسته اليابانية الجديدة فأصدر في الخامس من آذار عام ١٩٤١ ، توجيهاً سرياً للغاية جعل له عنواناً « امر اساسي رقم ٢٤ بصدد التعاون مع اليابان .. » وهذا نصه : ^(٢)

« يجب ان يكون الهدف من التعاون المستند الى الميثاق الثلاثي ، اقناع اليابان في اقرب وقت ممكن ، باتخاذ اجراءات فعالة في الشرق الأقصى . وستؤدي هذه الاجراءات الى شل قوات بريطانيا العظمى ، وإلى تحول مركز الثقل في المصالح الأمريكية إلى المحيط الهادي ... »
« وعلمنا أن نؤكد بأن الهدف المشترك من ادارة دفعة الحرب ،

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٤) ص ٤٦٩ - ٤٧٥

٢ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ٩٠٦ - ٩٠٨

هو ارغام انكلترا على الركوع على قدميها بسرعة ، والابقاء بذلك على الولايات المتحدة خارج نطاق الحرب .

« وسيعني الاستيلاء على سنغافورة وهي المركز المهم في الشرق الأقصى الى نجاح حاسم في تسيير دفعة الحرب بالنسبة الى الدول الثلاث » .

وحت هتلر اليابانيين ايضاً على الاستيلاء على قواعد بحرية بريطانية اخرى وعلى بعض القواعد الامريكية « اذا لم يكن في الامكان الحيولة دون دخول امريكا في الحرب » . وانتهى من توجيهه باصدار الأمر الى رجاله « بعدم اطلاع اليابانيين مطلقاً على موضوع عملية بربروسه » . وهكذا كان هدف هتلر ، استخدام حليفته اليابان كما استخدم حليفته ايطاليا لتحقيق المطامع الألمانية ، دون ان يأتمن اياً منها على نواياه تجاه روسيا .

وبعد نحو من اسبوعين ، أي في الثامن عشر من آذار ، حث امير البحر ريدير في الاجتماع الذي عقده هتلر معه ومع كايتل ويودل ، على وجوب دفع اليابان الى مهاجمة سنغافورة . ووضح ريدير ان الفرصة المتاحة الآن لن تتكرر ثانية وهي انشغال « الاسطول البريطاني الكبير في اماكن اخرى وافتقار الولايات المتحدة للاستعداد لحرب اليابان وضعف اسطولها امام الاسطول الياباني . » وقال امير البحر ان احتلال سنغافورة « سيحل كافة المشاكل الآسيوية الاخرى المتعلقة بالولايات المتحدة وانكلترا » ويمكن اليابان ايضاً ، وبالطبع ، من تجنب الحرب مع امريكا اذا ارادت تجنبها . واعرب ريدير عن اعتقاده بوجود عقبة واحدة ، وليس ثمة من شك في ان ذكره لها قد حمل هتلر على العبوس . فالمعلومات الواردة للبحرية الألمانية من مخابراتها تشير الى ان اليابان لن تتحرك ضد بريطانيا في جنوب شرقي اسيا الا اذا « شرعت المانيا في النزول في انكلترا » . وليس ثمة من سجل لهذا الاجتماع في وثائق البحرية ، ولا الى ما رد به هتلر على قائده البحري . وكان ريدير يعرف حتماً ان القائد الأعلى لم يعد أية خطط للنزول في انكلترا هذا العام ، ولا يحلم حتى في القيام به .

وفاه ريدر بعبارة اخرى لم تلق استجابة عند الفوهرر ، فقد اوصى « باعلام ماتسوكا بالخطط الالمانية المقررة لروسيا » (١) .

وكان وزير خارجية اليابان في طريقه الآن الى برلين عن طريق سيبريا وموسكو ، وهو يفضي بين الحين والآخر طيلة الطريق بتصاريح مشايعة للمحور ، ومشبعة بروح الميل الى الحرب ، على حد تعبير كوردل هل وزير خارجيات امريكا في وصفها . (٢) وقد جاء وصوله الى برلين في السادس والعشرين من آذار متزامناً مع لحظة غربية بالنسبة الى هتلر ، إذ أطاح الانقلاب في بلغراد تلك الليلة بالحكومة اليوغوسلافية المشايعة لالمانيا ، وانشغل الفوهرر في وضع الخطط لسحق تلك البلاد البلقانية العاصية ، حتى انه اضطر الى تأجيل اجتماعه بزائره الياباني حتى بعد ظهر السابع والعشرين من الشهر .

واجتمع ريننتروب اليه في الصباح ، وعزف له كما يقولون على الاسطوانات القديمة المحفوظة لمثل هذه المناسبات ، ولعرضها على اذان مثل هؤلاء الضيوف ، ومكثراً في الهذر والثثرة حتى الى حد يفوق مألوفه دون ان يسمح لماتسوكا القصير واللبيب ، بالتفوه بكلمة واحدة . ولا تترك الوقائع السرية المطولة التي أعدها الدكتور شميدت ، والموجودة الآن بين وثائق وزارة الخارجية الالمانية المصادرة ، أي شك في هذا . (٣) واعلن ريننتروب ان المحور قد فاز في الحرب ، « وان القضية لم تعد اكثر من مجرد وقت للاعتراف بهذه الحقيقة . » ولم يكد يتوقف عن الحديث قليلاً حتى راح يحث ضيفه « على وجوب الهجوم بسرعة

١ - تقرير ريدر عن الاجتماع - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ١٩٤١ ص ٣٧ وفي

المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩٦٦ - ٩٦٧ .

٢ - ابدى هل هذه الملاحظة لأمير البحر نومورا سفير اليابان الجديد في واشنطن في الرابع عشر من آذار بحضور الرئيس روزفلت . ورد نومورا بأن ماتسوكا « يتحدث بصوت عال للاستهلاك الداخلي اذ انه من الساسة الطموحين » (مذكرات كوردل هل الجزء الثاني ص ٩٠٠ - ٩٠١)

٣ - نشر هذا الحديث مع الاحاديث التالية والتي اشترك هتلر في بعضها في العلاقات

النازية - السوفياتية ص ٢٨١ - ٣١٦ .

على سنغافورة » ، اذ ان الهجوم في رأيه « سيكون عاملاً حاسماً في انهيار بريطانيا بسرعة . » ولم تطرف للزائر الياباني الضئيل الجسم عين أمام هذا التناقض الصارخ ، وانما ظل جالساً هناك « في غموضه » على حد تعبير شميدت ، فيما بعد دون « ان يترك المجال للذين يجلسون أمامه في تبين حقيقة تأثير هذه الاقوال الغريبة عليه » (١)

واشار ريبنتروب الى امريكا فقال :

« ليس ثمة من شك في انه لولا الآمال الجديدة التي يبعثها روزفلت في نفس تشرشل بين الحين والآخر ، لتخلى البريطانيون عن الحرب منذ امد طويل ... ولقد كان للميثاق الثلاثي منذ امد ، هدف واحد وقبل كل شيء ، هو بث الرعب في امريكا وابقاؤها بعيدة عن الحرب ... وقد تحتم اتخاذ جميع الوسائل لمنع امريكا من القيام بدور فعال في الحرب ، وكذلك من جعل مساعدتها لانكلترا كبيرة الأثر والفعل . وقد يحول الاستيلاء على سنغافورة على الغالب بين امريكا والحرب ، لأن الولايات المتحدة لا تستطيع ان تغامر بارسال اسطولها الى المياه اليابانية ... وسيكون روزفلت في وضع شاق للغاية ... »

وعلى الرغم من ان هتلر كان قد اشترط عدم ابلاغ ماتسوكا بالهجوم الألماني المتوقع على روسيا ، وهو احتياط ضروري . للابقاء على سرية الانباء ومنعها من التسرب إلا أن ريبنتروب ألمح في هذه الاجتماعات للوزير الياباني تلميحات تكاد تكون مكشوفة ، وكان لهذه التلميحات نتائجها المفجعة بالنسبة الى المانيا . فلقد ذكر للوزير الياباني ان العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، صحيحة ولكنها ليست ودية ، واذا ما حاولت روسيا تهديد المانيا « فإن الفوهرر سيحطمها » . وأضاف ان الفوهرر على ثقة من ان الأمر اذا تطور الى حرب « فلن تكون

١ - شميدت - ترجمان هتلر ص ٢٢٤ .

هناك دولة اسمها روسيا في غضون بضعة أشهر ،
واتسعت عينا ماتسوكا من الدهشة ، وبان فيها الفزع ، فسارع ريبنتروب
يطمئنه بأنه لا يعتقد بأن « ستالين سيتبع سياسة بعيدة عن الحكمة » . ويقول
شميدت ان ريبنتروب استدعي في هذه اللحظة لمقابلة هتلر لبحث الازمة
اليوغوسلافية ، ولم يتمكن من العودة حتى لحضور حفلة الغداء الرسمية التي
يفترض في انه هو الذي اقامها تكريماً لضيفه الكبير .

وبدأ هتلر عمله مع وزير خارجية اليابان بعد ظهر ذلك اليوم ، وبعد ان كان
قد حزم أمره على تهشم دولة اخرى هي يوغوسلافيا . وقد استهل حديثه معه
قائلاً : « لقد خسرت انكلترا الحرب ، ولم تعد القضية إلا مجرد ذكاء لازم لفهم
هذه الحقيقة » . ومع ذلك فما زالت بريطانيا الفرقي تتعلق « بقشتين » هما
روسيا وامريكا . وكان الفوهرر في حديثه عن الاتحاد السوفياتي اكثر احتراً
وحيطه من وزير خارجيته . فلقد ذكر بأنه لا يعتقد ابداً ان خطر الحرب مع
الاتحاد السوفياتي سيظهر ابداً . وتلك المانيا على أي حال فرقاً يتراوح عددها
بين المائة والستين والمائة والسبعين « للدفاع عن نفسها ضد روسيا » وانتقل بعد
ذلك الى الولايات المتحدة فقال :

« وتواجه امريكا ثلاثة احتمالات ، اما ان تسليح نفسها او
تساعد انكلترا أو تشن الحرب في جبهة اخرى . فاذا آثرت تسليح
نفسها فلن يكون في وسعها أن تساعد انكلترا وبالعكس . واذا
تخلت عن انكلترا ، فستلقى هذه نهايتها ، وستجد امريكا نفسها
آنذاك تحارب دول الميثاق الثلاثي وهي وحيدة . على أي حال ،
لا تستطيع امريكا كانت ظروفها أن تشن الحرب
على جبهة اخرى . »

وانتهى الفوهرر قائلاً : « ليس ثمة من فرصة افضل يمكن للانسان ان
يتصورها من هذه الفرصة المتاحة الآن لليابان لتوجه ضربتها في المحيط الهادي » .
وأضاف قائلاً وهو يشدد على كل كلمة يقولها : « ولن تعود مثل هذه الفرصة ثانية .

فهي فريدة من نوعها في التاريخ » . واعرب ماتسوكا عن موافقته على كلام الفوهرر ، ولكنه ذكره بأنه لسوء الحظ « ليس بالرجل الذي يسيطر على مقدرات اليابان ، وان ليس في امكانه في الوقت الحاضر ، ان يتعهد باسم الامبراطورية اليابانية بأنها ستقوم بأي عمل . »

ولكن هتلر وهو الحاكم المطلق في المانيا ، كان قادراً على تقديم الوعود ، وقد قطع عهداً لليابان ، تلقائياً وبدون أي طلب من جانبها ، وذلك في الرابع من نيسان بعد عودة ماتسوكا الى برلين من اجتماعه بموسوليني . ^(١) وقد وقع هذا الاجتماع عشية الهجوم النازي على بلدين بريئين وآخرين وهما يوغوسلافيا واليونان . وكان الفوهرر وهو المتعطش للفتوحات السهلة وللثأر من بلفراد في احدى حالاته الحربية . وقال لزمائره ، انه على الرغم من عدم رغبته في الحرب مع الولايات المتحدة ، إلا انه لا يبعدها كثيراً عن حساباته . ولكنه لا يعتبر قوة امريكا العسكرية أمراً ذا بال . ^(٢) ثم مضى يقول :

« لقد اعدت المانيا عدتها بحيث لا تسمح لأي امريكي بأن يطمأ بأقدامه اوروبا . وستشن المانيا حرباً كلها حيوية ضد امريكا بواسطة غواصاتها وطائراتها ، وستكون بفضل تجاربها الحربية العظيمة اكثر من ند لامريكا بالاضافة الى الحقيقة الواقعة وهي ان الجنود الالمان خير بكل تأكيد من الجنود الامريكيين » .

١ - قال ماتسوكا لهتلر ان موسوليني ذكر امامه « بان امريكا هي العدو رقم واحد وان روسيا السوفياتية تأتي في المرتبة الثانية » .

٢ - كما لا يعتبر أي امر آخر يتعلق بامريكا على جانب من الاهمية . وقد عرض هتلر هذا الرأي الغريب عن امريكا ، ويبدو انه كان في هذا الوقت قد شرع في تصديق اقوال دعايته النازية ، في حديث آخر اجراه مع موسوليني في الجبهة الروسية في اواخر شهر آب عام ١٩٤١ . وتقول الوثائق الايطالية ان الفوهرر قدم للدوتشي عرضاً مسهباً عن الزمرة اليهودية التي تحيط بروسيا وتستهفل الشعب الامريكي . وقال انه لا يستطيع مهما كانت المغيرات ان يعيش في بلد كالولايات المتحدة ، التي تستمد مفاهيمها عن الحياة من المتاجرة المبترزة ، والتي لا تمتشق اياها من التعابير السامية للروح الانسانية كالموسيقى مثلاً . « (اوراق شيانو الدبلوماسية ص ٤٤٩ - ٤٥٢) » .

وقد حمل هذا التبجح على ان يعطي ذلك العهد القدري الذي دونه شملت
في وقائع الاجتماع ... اذ قال :

« اذا اشتبكت اليابان في صراع مع الولايات المتحدة ، فإن
المانيا بدورها ستتخذ الخطوات اللازمة فوراً ... »

ويتضح من ملاحظات شملت ان ماتسوكا لم يدرك على الفور اهمية ما كان
الفوهرر قد وعد به .. ولذا فقد عاد الفوهرر الى تكراره ... قائلاً :

« ان المانيا كما قلت ، ستشارك فوراً في حالة وقوع حرب بين
اليابان وامريكا . »

وقد دفع هتلر الثمن غالياً ، لا بالنسبة الى هذا التأكيد المرتجل فحسب ،
والذي اعطي في حالة عارضة ليس إلا ، وانما ايضاً بالنسبة الى خداعه في عدم
اطلاع اليابانيين على حقيقة ما انتواه من الهجوم على روسيا فور اتمامه احتلال
البلقان . وكان ماتسوكا قد سأل ريبنتروب بلطف وكياسة ، اثناء اجتماعها في
الثامن والعشرين من آذار ، عما اذا كان يؤثر في طريق عودته الى بلاده « ان
يتوقف في موسكو ليتفاوض مع الروس في عقد ميثاق عدم اعتداء أو معاهدة
حياد » . وأجاب وزير الخارجية النازي ، المفتقر للذكاء ، بمنتهى البلاهة ان
« من الافضل ان لا يثير ماتسوكا مثل هذا الموضوع في موسكو ، اذ انه قد لا
ينسجم تمام الانسجام مع طبيعة الاوضاع الراهنة » . ولم يفهم الوزير النازي ،
اهمية سؤال زميله الياباني . وعندما حل اليوم التالي ، وكان قد وعى ما قاله
ضيفه ، شرع يطرق الموضوع عندما بدءا محادثتهما . وقال اولاً ، بصورة عارضة
تشبه الصورة التي اعطى هتلر فيها عهده ، ان « المانيا ستضرب روسيا فوراً في
حالة قيام هذه بأي اعتداء على اليابان . » و اضاف انه يود أن يؤكد لزاره هذا
ليطمئن « اليابان على ان في وسعها أن تندفع نحو سنغافورة دون أن تخشى من
اية تعقيدات مع روسيا » . وعندما اعترف ماتسوكا اخيراً ، بأنه وهو يمر في
موسكو في طريقه الى برلين ، كان قد اقترح عقد ميثاق عدم اعتداء مع
الاتحاد السوفياتي ، وبعد أن ألمح الى ان الروس كانوا سيالين الى الاستجابة

لاقتراحه ، التبس الأمر على عقل ريبنتروب البليد واكتفى بأن يوجه النصيحة الى زميله الياباني بأن يعالج القضية « بطريقة الاصطناع » .

ولكن عندما وصل وزير الخارجية الياباني الى موسكو في طريق عودته الى الوطن ، راح يوقع معاهدة حياد مع ستالين ، نصت ، كما أبرق السفير الألماني في موسكو فون دير شولنبرغ الى حكومته بعد أن ادرك أهميتها ، على أن تظل كل من الدولتين على الحياد في حالة تعرض الأخرى للاشتباك في حرب مع دولة ثالثة . وكانت هذه المعاهدة التي وقعت في الثالث عشر من نيسان ، هي الوحيدة التي احترمتها اليابان حتى النهاية ، على الرغم من صراخ الألمان المتوالي وندائهم لها بوجوب التنكر لها . إذ لم يخل صيف عام ١٩٤١ ، حتى كان النازيون يتوسلون الى اليابانيين لا لمهاجمة سنغافورة او مانيل ، بل لمهاجمة فلاديفوستوك .

ولم يدرك هتلر في البداية أهمية ميثاق الحياد بين روسيا واليابان . وقد بلغ امير البحر ريدير في العشرين من نيسان ، الذي جاءه مستوضحاً عن هذه المعاهدة ، بأنها عقدت « بموافقة المانيا » وانه يرحب بها « لأنها ستمنع اليابان من مهاجمة فلاديفوستوك وتقنعها بمهاجمة سنغافورة بدلاً منها ^(١) » . وكان هتلر في هذه المرحلة على ثقة من قدرة المانيا على تحطيم الاتحاد السوفياتي في الصيف . وهولا يريد

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون الحربية ١٩٤١ ص ٤٧ - ٤٨ . وقد احدث نبأ توقيع ميثاق الحياد السوفياتي - الياباني هلعاً شديداً في واشنطن ، إذ ان روزفلت وهل ، كانا ميالين الى حمل وجهة نظر مماثلة لوجهة نظر هتلر ، وهي ان هذه المعاهدة ستجبر القوات اليابانية التي كانت مجمدة خشية وقوع حرب محتملة مع روسيا ، للعمل في الجنوب ضد الممتلكات البريطانية او الممتلكات الامريكية كذلك . ويحسر شيروود في كتابه « روزفلت وهوبكنز » النقاب عن سر وهو ان روزفلت عندما تلقى نبأ توقيع الاتفاق في الثالث عشر من نيسان مزق خطة كان قد اعدّها لشن هجوم عدواني من السفن الحربية الامريكية على الفواصات الالمانية في غرب الاطلسي . وأصدر الرئيس امراً آخر ، يوعز الى السفن الحربية الامريكية بمراقبة حركات السفن الحربية الالمانية الى الغرب من ايسلندة دون اطلاق النار عليها . وقد اعتبرت الدوائر الامريكية الرسمية ان عقد ميثاق الحياد الروسي - الياباني قد جعل الوضع في المحيط الهادي خطراً الى الحد الذي لا يسمح بمغامرات بعيدة المدى في الاطلسي . (روبرت شيروود - روزفلت وهوبكنز ، ص ٢٩١) .

ان يشرك اليابان في هذا العمل العظيم الجبار ، تماماً كما اعتذر عن اشراك ايطاليا في احتلال فرنسا. وكان على يقين ايضاً من انه لن يحتاج الى معونة اليابان مطلقاً. وردد ريبنتروب افكار سيده ، فذكر لمتسوكا في اجتماعها في التاسع والعشرين من آذار ، بأنه يعتقد ان من الافضل في حالة اضطرار المانيا لمهاجمة روسيا ، ان يمتنع الجيش الياباني عن مهاجمة روسيا .

ولكن آراء هتلر وريبنتروب في هذا الصدد ما لبثت ان تبدلت تبديلاً مفاجئاً وجذرياً بعد أقل من ثلاثة أشهر . اذ لم تقض ايام ستة على شن الهجوم الالماني على روسيا حتى كان ريبنتروب يبرق في الثامن والعشرين من حزيران الى سفيره في طوكيو ، الفريق يوجين اوت ، يطلب اليه ان يبذل المستحيل ، لجل اليابان على مهاجمة روسيا السوفياتية في مؤخرتها. وأوعز الى اوت ان يغري الشهية اليابانية بالفنائم وان يقنعهم بأن هذه الخطوة هي خير سبيل للبقاء على حياد امريكا . وأوضح ريبنتروب رأيه بقوله :

« ومن المنتظر ان يؤدي الاسراع في هزيمة الاتحاد السوفياتي ولاحقاً سيمانيا اذا اشتركت اليابان في اتخاذ عمل في الشرق ، الى اقناع الولايات المتحدة بلاجدية الدخول في حرب الى جانب بريطانيا العظمى المعزولة تماماً والتي تواجه اقوى حلف في العالم » ^(١)

وقد أيد ماتسوكا ، الدخول في حرب فورية ضد روسيا ، لكن حكومة طوكيو لم تقبل رأيه ، اذ ان موقفها تلخص في انه اذا صحت ادعاءات الألمان بأنهم سيهزمون روسيا بسرعة ، فلا حاجة لهم في أي عون من اليابان . لكن طوكيو ، لم تكن على أي حال واثقة من نصر نازي صاعق على روسيا ، وكان هذا هو السبب الحقيقي في موقفها هذا .

ولكن ريبنتروب أصر على موقفه . وفي العاشر من تموز عندما كان الهجوم الالماني في روسيا قد أخذ يحقق انتصاراته مما حمل شخصاً رضيعاً كهولدر على

١ - تريفوس - المانيا والحياد الامريكي ١٩٣٩ - ١٩٤١ ص ١٢٤ .

التفكير بأن النصر قد تحقق ، بعث الوزير النازي من قطاره الخاص في الجبهة الشرقية ببرقية جديدة وأكثر قوة في التعبير الى سفيره في طوكيو قال فيها :
« لما كانت روسيا ، طبقاً لرواية السفير الياباني في موسكو على وشك الانهيار .. يبدو ان من غير المعقول ان تظل اليابان مكتوفة اليدين ، فلا تسارع الى حل مشكلتي فلاديميرستوك وسيبيريا عندما تستكمل استعداداتها العسكرية ..

« واني اطلب اليك ان تستخدم كافة الوسائل المتوافرة لديك للاصرار على دخول اليابان في الحرب ضد روسيا في اقرب تاريخ ممكن .. وكلما تم اشتراكها في الحرب بصورة أسرع ، كلما كان هذا أفضل وأبقى . وسيكون الهدف الطبيعي ان نلتقي نحن واليابانيون على الخط الحديدي الممتد عبر سيبيريا قبل حلول الشتاء » (١)

ولكن مثل هذا الأمل البراق لم يؤثر حتى على الحكومة اليابانية العسكرية . فقد رد السفير اوت بعد اربعة ايام ، يقول انه يبذل قصارى جهده لاقناع اليابانيين بمهاجمة روسيا في اسرع وقت ممكن ، وان ماتسوكا يؤيد هذا الرأي كل التأييد ، ولكنه - أي اوت - يواجه « عقبات كبرى » في حكومة طوكيو يتحتم عليه تذليلها (٢) . وقد اضطر ماتسوكا الميال للحرب ، الى التنحي عن منصبه في الوزارة بعد وقت قصير ، وفقدت المانيا باستقلالته في الوقت الحاضر على الأقل أهم صديق لها في الحكومة اليابانية ، وعلى الرغم من ان العلاقات قد عادت بين برلين وطوكيو ، كما سنرى فيما بعد ، الى سابق عهدهما من القوة والوثوق الا انها ، لم تبلغ قط حداً يقنع اليابانيين بحكمة مساعدة المانيا في حربها ضد روسيا . وهكذا وجد هتلر مرة ثانية حليفاً ماكرأ يتفوق عليه في لعبة الخديعة التي ابتكرها . (٣)

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٥٦٤ - ٥٦٥ .

٢ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٥٦٦ .

٣ - واصل ريبنتروب محاولاته هذه طيلة الخريف ، وفي عدة مرات لاحقة في السنتين

« تجنبوا الحوادث مع الولايات المتحدة »

اصبح من المهم كل الأهمية بالنسبة الى المانيا اثر اصرار اليابان على رفضها مساعدة هتلر على رفع « كستنائته » من النار في روسيا، اذ ان اليابان كانت مهمة « بكستنائها » هي الذي اخذ في الاستواء ، ان تظل الولايات المتحدة بعيدة عن الحرب ، الى ان يتم لها احتلال الاتحاد السوفياتي الذي كان هتلر يطمح في استكمالها في صيف ذلك العام نفسه أي عام ١٩٤١ ، وقبل حلول الشتاء .

وكان الاسطول الالماني مغيطاً من القيود التي وضعها هتلر على الجهود التي يبذلها لمنح الشحنات الأمريكية من الوصول الى بريطانيا ولمواجهة الزيادة في الاعمال العدائية التي تقوم بها السفن الامريكية ضد الغواصات الالمانية وضد السفن الاخرى العاملة في الاطلسي . وكان امراء البحر النازيون وهم ابعد نظراً في الشؤون البحرية من هتلر الذي اغلق عقله « على البر » ، قد ادر كوا منذ البداية ان دخول امريكا الحرب شيء لا بد منه ، وحثوا القائد الأعلى على التأهب لمثل

التاليتين لاقناع اليابان بالهجوم على روسيا في مؤخرتها ، ولكنه كان ينلقى دائماً رد حكومة طوكيو المهذب ... نحن آسفون ، من فضلك » .

وظل هتلر على امله طيلة الصيف . وقد ابلغ ريدر في السادس والعشرين من آب ، بأنه « واثق من ان اليابان ستنفذ هجومها على فلاديفوستوك ، حالما يتم لها تجميع قواتها اللازمة . وما الامتناع الحالي الا نتيجة الرغبة في أن يتم تجميع هذه القوات دون أي ازعاج ، وفي أن يأتي الهجوم على نحو مباغت » (مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ١٩٤١ ص ١٠٤) .

وتكشف الوثائق اليابانية كيف ان طوكيو قد تملصت من الالمان في هذه القضية المعقدة . فعندما طلب السفير الالماني اوت مثالا في التاسع عشر من آب من نائب وزير الخارجية اليابانية معرفة رأي حكومته في التدخل ضد روسيا ، اجاب هذا بقوله : « ان القيام بمهاجمة روسيا معضلة صعبة بالنسبة الى اليابان وتتطلب دراسة عميقة » . وعندما وجه اوت في الثلاثين من آب ، وكان قد بات الان سفيرا دائماً الازعاج سؤالاً الى وزير خارجية اليابان امير البحر تويودا بقوله : « هل هناك أي احتمال في أن تشترك اليابان في الحرب الروسية - الالمانية ؟ » رد هذا قائلاً : « إن استعدادات اليابان ماضية في طريقها ولكنها تحتاج بعض الوقت لاستكمالها » . (المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٥٤٥ - ٥٤٦) .

هذا الاحتمال . فبعد انهيار فرنسا في حزيران عام ١٩٤٠ حث امير البحر ريدير ،
يدعاه غورنغ ، هتلر ، على ان يستولي فوراً على افريقيا الغربية الفرنسية ، وعلى
الجزر في المحيط الاطلسي وبينها ايسلنده وجذر الأزور والكناري ، لمنع الولايات
المتحدة من احتلالها . وقد ابدى هتلر اهتمامه في هذا الموضوع ، ولكنه اراد
اولاً ان يغزو انكلترا وان يحتل روسيا . وآنذاك يستطيع ان يعالج موضوع
الامريكيين الحديشي النعمة ، بعد ان يغدو وضعهم يائساً لا يطاق . وتكشف
مذكرة سرية للغاية وضعها الرائد فريهر فون فالكنشتاين ، من ضباط هيئة اركان
الحرب ، النقاب عن آراء هتلر في نهاية صيف عام ١٩٤٠ ..

« يشغل الفوهرر نفسه الآن في موضوع احتلال جزر المحيط
الاطلسي ، هادفاً الى مواصلة الحرب ضد امريكا في تاريخ لاحق .
وتجري المشاورات في هذا الصدد الآن هنا .. » (١)

وعلى هذا لم تكن القضية ، ما اذا كان هتلر يعتزم المضي الى الحرب ضد
الولايات المتحدة أو لا ، بل كانت في تحديد الموعد الذي يختاره هو لشن الحرب
عليها . وعندما حل الربيع القادم ، كان هذا الموعد قد بدأ في الاطلاع على ذهن
الفوهرر . ففي الثاني والعشرين من أيار عام ١٩٤١ ، تشاور أمير البحر ريدير مع
القائد الأعلى . ونقل لأركان حربه « إن على الاسطول أن يرفض فكرة احتلال
جزر الأزور » . فهو لا يملك القوة الكافية لذلك ، ولكن هتلر كان قد بات
متحمساً أشد الحماس للمشروع ، ورد على قائد بحريته طبقاً للملاحظات السرية
التي دوّنّها هذا (٢) بقوله :

« ما زلت اؤيد احتلال جزر الأزور لاستخدامها في شن هجمات
جوية تقوم بها القاذفات البعيدة المدى على الولايات المتحدة . فقد
ينشأ هذا الاحتمال في الخريف القادم (٣) .

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٣) ص ٢٨٩ .

٢ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية - ١٩٤١ ص ٥٨ .

٣ - لم يكن لدى الالمان طائرات بعيدة المدى تستطيع الوصول الى الساحل الامريكي

وكان هتلر يعني بذلك ، ان الاحتمال سينشأ بعد انهيار الاتحاد السوفياتي .
وهنا يحل دور امريكا . وقد اوضح ذلك بجلاء لأمير البحر ريدير عندما اجتمع
اليه بعد شهرين أي في الخامس والعشرين من تموز ، وكان الهجوم في روسيا على
اشده . فقد دون ريدير عن الفوهرر قوله : « عندما تنتهي الحملة الشرقية ،
سيحتفظ بحقه في اتخاذ اجراءات قاسية ضد الولايات المتحدة . » ^(١) ولكن
حتى يحين ذلك الوقت اصر هتلر على قائد بحريته في ان « يتجنب حمل امريكا
على اعلان الحرب ... وذلك حرصاً على الجيش الذي يشتبك الآن في معركة
عنيفة . »

ولم يقتنع ريدير بهذا الموقف . وتظهر يومياته عن الاجتماعات التي عقدها مع
هتلر ، والتي يستطيع المرء الاطلاع عليها في الوثائق الالمانية المصادرة ، ان
صبره كان قد بدأ ينفذ من الاغلال التي قيد بها الاسطول الالماني . وكان يبذل في
كل مقابلة له مع الفوهرر كل جهد ممكن لاقتناعه بابدال موقفه .

وكان ريدير قد رفع في وقت مبكر من ذلك العام أي في الرابع من شباط
مذكرة الى هتلر ، اعرب فيها عن شكوك الاسطول القوية في جدوى بقاء
امريكا على الحياد ، وذلك بالنسبة الى المانيا . وكان من رأي امراء البحر ان
دخول امريكا الحرب قد يكون « ذا نفع لمجهود المانيا الحربي » ولا سيما اذا
اغدت اليابان دولة محاربة الى جانب المحور ^(٢) . ولكن الديكتاتور النازي لم
يقتنع بهذا الرأي مطلقاً .

واثبت في يدي ريدير . فمعركة الاطلسي قد وصلت اوجها ، ولم تستطع
المانيا الفوز فيها . والتموينات الامريكية بموجب قانون الاعارة والتأجير
تتدفق على بريطانيا . وجعلت « دوريات حياض الجامعة الامريكية » مهمة

في جزر الازور بله العودة اليها ، ولا ريب في ان هذا القول دليل على انحرافات هتلر العقلية
في هذا الوقت ، اذ اعتمد على « قاذفات بعيدة المدى » لا وجود لها .

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية - ١٩٤١ ص ٩٤ .

٢ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية الملحق الاول بتاريخ ٤ شباط ١٩٤١ .

الفواصات الألمانية أكثر صعوبة وأقل اثراً . وقد عرض ريدير كل هذه الأمور على هتلر ، دون ان يتأثر بها أو يقتنع . وعاد الى الاجتماع بالزعم في الثامن عشر من آذار ، ونقل اليه ان السفن الحربية الامريكية تتولى حراسة القوافل الامريكية المتجهة الى بريطانيا حتى مياه اسلنده . وطلب من الفوهرر ان يسمح بمهاجمتها دون انذار . ورجاه ان يعمل أي شيء ليحول دون فوز الولايات المتحدة بموطىء قدم لها في افريقيا الغربية الفرنسية . وقال له : « ان هذا الاحتمال ، كثير الخطورة . » واصفى هتلر الى كل ما قاله قائد اسطوله وقال : وهنا موطن الهزل — انه سيبحث في جميع هذه القضايا مع وزارة الخارجية هادفاً من قوله هذا الى التخلص من امير البحر وآرائه (١) .

وظل يسوف ويماطل في الاستجابة الى الاسطول طيلة الربيع واول الصيف ، ورفض في العشرين من نيسان الاستماع الى حجج ريدير المقنعة « بوجوب شن الحرب على سفن امريكا التجارية طبقاً للانظمة البحرية » (٢) وكانت اولى المصادمات المسجلة بين السفن الحربية الامريكية والألمانية قد وقعت في العاشر من نيسان عندما قذفت المدمرة الامريكية بعض قنابل الاعماق على غواصة المانية ظهرت في المنطقة على استعداد للهجوم . وفي الثاني والعشرين من ايار ، عاد ريدير الى « عش النسر » يحمل مذكرة مطولة ، يقترح فيها اجراءات مضادة للاعمال غير الودية التي يقوم بها الرئيس روزفلت ، ولكنه لم يستطع التأثير على قائده الأعلى . ودون امير البحر قائلاً :

« يعتبر الفوهرر ان موقف رئيس الولايات المتحدة ، ما زال غير نهائي ، وهو لا يرغب بأي حال من الاحوال في احداث وقائع تؤدي الى دخول امريكا الحرب (٣) . »

وقد تعززت الاسباب المؤدية الى تجنب الحوادث عندما بدأت الحملة على

-
- ١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٣٢ .
 - ٢ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٤٧ .
 - ٣ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ٢٢ ايار ١٩٤١ .

روسيا وفي الواحد والعشرين من حزيران ، أي في اليوم الذي سبق الهجوم ، عاد هتلر يؤكد هذه الاوامر لريدر . وكان امير البحر الاكبر قد قدم اليه وصفاً رائعاً عن مشاهدة الغواصة الألمانية (يو ٢٥٣) للبارجة الامريكية تكساس في منطقة الحصار البحري الذي اعلنته المانيا في شمال الاطلسي ، ترافقها مدمرة ، وان الغواصة طاردها محاولة مهاجمتها ، ثم اضاف قائلاً : « ان العمل الحازم مع الولايات المتحدة اكبر اثرأ من مجرد الاستسلام » . وقد وافق الفوهرر على المبدأ ولكنه لم يوافق على العمل المحدد الذي اشار به قائد بحريته وعاد مرة يؤنب الاسطول ويحذره .

« اعلن الفوهرر بايضاح وتفصيل ، رغبته في تجنب أي حادث مع الولايات المتحدة ، الى ان تكون عملية بربروسة قد قطعت شوطاً بعيداً . فبعد بضعة اسابيع ، سيكون الموقف اكثر اتضاحاً ، ومن المنتظر ان يترك اثرأ مناسباً على الولايات المتحدة واليابان . وستكون امريكا اقل ميلاً لدخول الحرب ، بسبب التهديد الياباني الذي سيشرع في الازدياد . ولهذا يجب توقف جميع الهجمات على السفن البحرية في المنطقة المغلقة طيلة الاسابيع التالية ان امكن . »

وعندما حاول ريدر مناقشته في ان من الصعب التمييز ليلاً بين السفن الحربية المعادية والمحايدة ، اسكته الفوهرر مصدراً امره اليه بأن يوجه تعليمات جديدة تنص على وجوب تجنب أية حوادث مع امريكا ، وعلى الاثر اصدر قائد البحرية تعليمات في تلك الليلة نفسها يقضي بالامتناع عن الهجوم على أية سفن حربية داخل المنطقة المغلقة او خارجها الا اذا كانت هويتها البريطانية معروفة بشكل قاطع . وقد صدر امر مماثل الى قيادة السلاح الجوي الألماني^(١)

وأعلن الرئيس روزفلت في التاسع من تموز ان القوات الامريكية ، قد تولت احتلال جزيرة ايسلندة بدلاً من القوات البريطانية . وكان رد فعل برلين عنيفاً

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ص ٨٨ - ٩٠ .

وفورياً. وأُبرق ريندتروب الى طوكيو يقول: « ان هذا التدخل من جانب القوات العسكرية الامريكية لمساعدة انكلترا في منطقة سبق لنا ان اعلنا رسمياً ، انها منطقة قتال ، يعتبر في حد ذاته عدواناً على المانيا واوروبا (١) . »

وهرع ريدير الى « عرين الذئب » وهو المقر الذي كان الفوهرر يدير منه جيوشه في روسيا . وقال الفوهرر انه يود قراراً... « فهل يعتبر احتلال امريكا لجزيرة ايسلندة اشتراكاً فعلياً في الحرب ، أو مجرد عمل استفزازي يجب تجاهله؟ » اما الاسطول الألماني فقد اعتبر نزول القوات الامريكية في ايسلندة عملاً حربياً ، وراح يذكر الفوهرر في مذكرة من صفحتين ، بجميع اعمال «العدوان» التي ارتكبتها حكومة روزفلت ضد المانيا . وطالب الاسطول فوق ذلك بمنحه الحق في إغراق سفن الشحن الامريكية في منطقة القوافل وفي مهاجمة السفن الحربية الامريكية اذا تطلبت الضرورة ذلك . (٢) وذكر تقرير ريدير عن الاجتماع ان هتلر رفض مطالب الاسطول ثم مضى قائلاً :

« أوضح الفوهرر بشكل مفصل تلهفه الشديد على تأجيل دخول الولايات المتحدة الحرب شهراً أو شهرين آخرين فمن الناحية الأولى يجب تركيز القوة الجوية كلها في الحملة الشرقية ، وهو لذلك لا يود تحويل أي جزء منها الى معارك ثانية : أما من الناحية الثانية فان حملة ظافرة في الجبهة الشرقية تترك أثراً هائلاً في الوضع كله وعلى موقف الولايات المتحدة نفسها . ولهذا فهو لا يرغب في الوقت الحاضر ، في إحداث أي تبدل في التعليمات الحالية ، ويود ان يرى من الناحية الأخرى استمرار القوات الألمانية في تجنب أية حوادث . » وعندما ذكر ريدير ان قاداته البحريين لا يمكن اعتبارهم مسؤولين عن أي « خطأ » قد يحدث . اذا ما صيبت بواخر امريكية رد هتلر بأن من الواجب

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٥٦٥ .

٢ - أرى من الجدير ان ندون هنا ان امير البحر ريدير الح في محاكمات نوومبرغ على القول بأنه عمل كل ما في وسعه لتجنب استفزاز الولايات المتحدة على دخول الحرب .

التأكد على الأقل من هوية السفن الحربية والتثبت من انها معادية قبل الهجوم عليها. وأراد هتلر ان يتحقق من ان أمراء البحر قد فهموا تعليماته فهماً صحيحاً، فأصدر أمراً محدداً في التاسع عشر من تموز يشترط «عدم مهاجمة السفن الأمريكية في مناطق العمليات الحربية الواسعة سواء أكانت مبحرة على انفراد او في قوافل انكليزية أو امريكية ، هذا اذا تم تمييز هوية هذه السفن قبل اللجوء الى السلاح» أما في مناطق الحصار التي اعترفت الولايات المتحدة أيضاً بأنها محظورة على سفنها ، ففي الإمكان مهاجمة السفن الأمريكية . ولكن هتلر ، أوضح بصورة خاصة في أمره هذا بأن المنطقة الحربية « لا تشمل الطريق البحري بين ايسلندة والولايات المتحدة (١) . »

لكن الأخطاء كثيراً ما تقع على حد تعبير ريدير . ففي الواحد والعشرين من ايار أغرقت غواصة المانية سفينة الشحن الأمريكية (روبن مور Robin Moor) وهي في طريقها الى جنوب افريقيا ، وفي مكان يبعد عن منطقة الحصار الألمانية . وأغرقت باخرتان تجاريتان أمريكيتان قبيل نهاية الصيف ، بعد نسفها بالطرايد . وأطلقت غواصة المانية في الرابع من ايلول ، طوربيدين على المدمرة الأمريكية « غرير » دون ان تصيبها . وبعد نحو من اسبوع أي في الحادي عشر من ايلول ، ردروزفلت على هذا الهجوم بخطاب أذاعه ، واعلن فيه انه قد اصدر الأوامر الى الاسطول الأمريكي لاطلاق النار على اية غواصة المانية عند رؤيته لها ، وحذر من ان السفن الحربية الألمانية تتحمل مسؤولية الخطر الذي تتعرض له اذا ما دخلت الى منطقة الدفاع الأمريكية .

وألهب الخطاب برلين . وهاجمت الصحافة الألمانية روزفلت واطلقت عليه لقب « داعية الحرب رقم واحد » وتذكر ريبنتروب في محاكمات نورمبرغ ان هتلر ، تأثر تأثراً بالفا . « ولكن عندما وصل امير البحر ريدير الى مقر قيادة الفوهرر في «عرين الذئب» بعد ظهر السابع عشر من ايلول ليحثه على اتخاذ

١ - محاكمات كبار مجرمي الحرب (٣٤) ص ٣٦٤ . والترجمة الانكليزية الجزئية في المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٩١٦ . وهي مضللة الى حد ما .

خطوات انتقامية عنيفة للرد على امر « اطلاق النار عند الرؤية » ، كان الفوهرر قد هدأت ثأثرته . وعاد القائد الأعلى فرد بعبارة « لا » على توسل امير البحر ، بالساحح للاسطول الألماني بمهاجمة السفن الامريكية وتحريره من القيود المفروضة عليه . وذكر ريدير في تسجيله لما دار في هذا الاجتماع :

« لما كان من المحتمل بأن تأتي نهاية ايلول بالقرار العظيم الفاصل في الحملة الروسية ، فإن الفوهرر يطلب اتخاذ كل انواع الحذر لتجنب اية احداث في الحرب مع السفن التجارية قبل نحو منتصف شهر تشرين الأول . »

ومضى ريدير يدون وهو حزين : « لهذا فقد سحب القائد العام للاسطول وامير البحر قائد سلاح الغواصات (دوتنس) اقتراحاتها . ومن الواجب ابلاغ الغواصات بالاسباب التي تدعو مؤقتاً الى التمسك بالاوامر القديمة (١) . » وليس ثمة من شك في ان هتلر كان يسلك بالنسبة الى الظروف سلوكاً ينطوي على الكثير من ضبط النفس غير المجهود فيه . ولكن من المعترف به انه كان من الصعب كل الصعوبة على قادة الغواصات الشبان ، العاملين في مياه الاطلسي العاصفة ، والمجهدين باستمرار من جراء تزايد الوسائل الناجعة في مكافحة الغواصات عند البريطانيين وهي وسائل كانت السفن الحربية الامريكية تشترك فيها احياناً ، ان يضبطوا نفوسهم واعصابهم . وكان هتلر قد ذكر لريدير في شهر تموز انه لن يحاسب قط أي قائد غواصة اذ اغرق سفينة امريكية « بطريق الخطأ . » ورد في التاسع من تشرين الثاني في خطابه السنوي المجهود للحرس النازي القديم في حانة الجمعة المشهورة في ميونيخ على خطاب روزفلت قائلاً :

« لقد امر الرئيس روزفلت سفنه بأن تطلق النار على السفن الالمانية فور رؤيتها لها . اما انا فقد اصدرت امري الى السفن الالمانية بأن لا تطلق النار عند مشاهدتها سفناً امريكية ، وان

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية في ١٧ ايلول ١٩٤١ . ص ١٠٨ - ١١٠ .

تدافع عن نفسها اذا هوجمت. وسأقدم كل ضابط الماني يتقاعس عن الدفاع عن نفسه امام محكمة عسكرية . »

وعاد في الثالث عشر من تشرين الثاني فأصدر توجيهاً جديداً يحتم على الغواصات الالمانية الدفاع عن نفسها في حالة تعرضها الى الهجوم شريطة ان تتجنب قبل ذلك الاشتباك مع السفن الحربية الامريكية . (١)

وبالطبع كان قادة الغواصات قد دافعوا عن انفسهم قبل صدور هذا الأمر الجديد . ففي ليلة السادس عشر - السابع عشر من تشرين الأول ، قامت المدمرة الامريكية كيروني (Kearny) . التي جاءت لمساعدة قافلة تعرضت لهجوم الغواصات الالمانية بقذف قنابل الاعماق على احدى هذه الغواصات ، فردت هذه بنفسها بالطوربيد . وقد قتل احد عشر رجلاً من بحارة المدمرة . وكان هؤلاء أول الضحايا الامريكيين في الحرب غير المعلنة مع المانيا . (٢) ولكن سرعان ما وقع ضحايا آخرون . ففي الواحد والثلاثين من تشرين الأول ، نسفت المدمرة الامريكية روبن جيمس (Reuben James) بالطرايد الألمانية وغرقت وهي تقوم بحراسة احدى القوافل ، وغرق معها مائة من مجموع بحارتها الذين يعبدون (١٤٥) رجلاً . وكان بين الفرقى جميع ضباطها السبعة . وهكذا بدأت حرب النيران بين المانيا والولايات المتحدة قبل ان تبدأ الحرب الرسمية بأمد طويل .

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية في ١٣ تشرين الثاني عام ١٩٤١ .

٢ - أعلن روزفلت في خطاب القاه في يوم البحرية في السابع والعشرين من تشرين الاول مشيراً الى هذا الحادث ان «التاريخ قد سجل من اطلق الرصاصة الاولى» . وارى من الانصاف ان اقول ان المدمرة الامريكية بالقائها قنابل الاعماق كانت البادئة باطلاق النار . وتقول وثائق البحرية الالمانية السرية ان هذا الحادث لم يكن الاول من نوعه . ويؤكد المؤرخ البحري الامريكي الرسمي ان المدمرة الامريكية نيبالاك (Niblack) قد هاجمت في العاشر من نيسان غواصة المانية بقنابل الاعماق (صمويل ايليوت موريسون - تاريخ العمليات البحرية الامريكية في الحرب الكونية الثانية - المجلد الاول ص ٥٧) .

اليابان تعمل لنفسها

رأينا من قبل ان هتلر عهد الى اليابان بدور المحافظة على ابقاء الولايات المتحدة خارج الحرب ، ولم يعهد اليها ولو مؤقتاً ، بارغامها على دخول الحرب فقد عرف ان احتلال اليابان لسنغافورة وتهديدها الهند ، لن يعنيا مجرد ضربة قاصمة للبريطانيين بل وتحويل اهتمام امريكا وبعض مجالات نشاطها وحيويتها من الاطلسي الى الهادي . وعندما شرع يرجو اليابان مهاجمة فلاديفوستوك ، كان يرى في مثل هذه الخطوة لا مجرد وسيلة لمساعدته في حرب روسيا واخضاعها ، بل ضغطاً اضافياً على الولايات المتحدة لابقائها على الحياد . ومن الغريب كل الغرابة ، انه لم يدر في خلد هتلر أو خلد أي انسان آخر في المانيا إلا مؤخراً ، بأن اليابان لا تبحث الا عن مصالحها ، وانها قد تخشى الشروع في هجوم عظيم في جنوب شرقي آسيا ضد البريطانيين والهولنديين او مهاجمة روسيا في ظهرها ، الا اذا كانت هي قد اطمأنت الى مؤخرتها بتحطيم الاسطول الامريكى في المحيط الهادي . ومن الحق ان يقال ان الفاتح النازي ، كان قد وعد ماتسوكا بأن المانيا ستدخل الحرب ضد امريكا اذا وقعت بين هذه واليابان ، ولكن ماتسوكا بات خارج الحكم الآن ، وكان هتلر قد واصل الحافه على اليابان لتجنب الصراع المباشر مع امريكا والتركيز على بريطانيا والاتحاد السوفياتي الذين كانت مقاومتها تحول بينه وبين كسب الحرب . ولم يخطر في بال الحكام النازيين ان اليابان قد تعطي الأولوية في اهتمامها الى الصراع المباشر مع الولايات المتحدة .

ولا يمكن القول ان برلين كانت تريد من اليابان ان تتفاهم مع امريكا . فمثل هذا التفاهم كفيلاً بإحباط الاهداف الرئيسية من الميثاق الثلاثي التي يمكن تلخيصها في بث الفزع في نفوس الامريكيين ومنعهم من دخول الحرب . وقد تكون هذه هي المرة الوحيدة التي قدر فيها ريبنتروب تقديرأ صادقاً واميناً افكار الفوهرر عندما وقف في نورمبرغ يقول لمستجوبيه :

« كان يخشى من ان يؤدي أي ترتيب بين الولايات المتحدة واليابان

الى طمانينة امريكا على مؤخرتها ، وآ نذاك يغدو اشتراك امريكا
في الحرب ، أو هجومها غير المتوقع الآن اسرع مما يظن .. وكان
يخس بالقلق من حدوث مثل هذا الاتفاق ، نظراً لوجود جماعات في
اليابان تود التوصل الى اتفاق مع امريكا » (١)

وكان بين اعضاء هذه المجموعة امير البحر كيشيز ابورو نومورا ، الذي وصل
الى واشنطن في شباط عام ١٩٤١ ، لتولي منصبه كسفير اليابان الجديد . وقد
اثارت سلسلة المحادثات السرية التي دارت بينه وبين كوردل هل ، والتي بدأت في
شهر آذار هادفة الى تسوية الخلافات بين البلدين بصورة سلمية ، واستمرت
حتى النهاية ، الكثير من القلق في برلين . (٢)

وقد جهد الألمان كل ما وسعهم لتخريب محادثات واشنطن هذه . وقدم
وايز ساكر في الخامس عشر من ايار مذكرة الى ريننتروب اشار فيها الى ان أية
معاهدة سياسية بين اليابان والولايات المتحدة شيء لا يرغب فيه في الوقت الحاضر .
وقال انه ما لم تحل المانيا دون ذلك فإن المحور قد يخسر اليابان نهائياً . (٣) وقام
الفريق اوت سفير المانيا في طوكيو بزيارة وزارة الخارجية اكثر من مرة محذراً
من مفاوضات هل - نومورا . وعندما رأى ان محاولاته هذه لم تؤت اكلًا ، وان
المفاوضات ظلت مستمرة ، تحوّل الى مناورة جديدة ، وهي اقناع اليابانيين
بأن يشترطوا لاستمرار هذه المفاوضات ان تتخلى الولايات المتحدة عن عونها
لبريطانيا وعن سياستها المناوئة لألمانيا . (٤)

كان هذا في شهر ايار . وجاء الصيف بتبديل جوهرى . ففي شهر تموز كان
هتلر مشغولاً في اقناع اليابان بمهاجمة الاتحاد السوفياتي ، وقطع كوردل هل في

١ - المؤامرة النازية والعدوان - الملحق (ب) . ص ١٢٠٠
٢ - كتب هل في مذكراته فيما بعد يقول : « اني أشهد بأن نومورا كان مخلصاً وصادقاً
في محاولته تجنب الحرب بين بلاده وبلادي » (مذكرات كوردل هل (٢) ص ٩٨٧ .
٣ - تريفوس - « المانيا والحياد الامريكى » ١٩٣٩ - ١٩٤١ ص ١٠٢ .
٤ - تريفوس - المانيا والحياد الامريكى ص ١٠٣ .

الشهر نفسه مفاوضات مع السفير الياباني نتيجة قيام اليابانيين بغزو الهند الصينية الفرنسية . وقد استؤنفت هذه المحادثات في منتصف شهر آب تقريباً عندما اقترحت الحكومة اليابانية ، عقد اجتماع شخصي بين الأمير كونوي رئيس وزراء اليابان وبين الرئيس روزفلت بقصد الوصول الى تسوية سلمية . وبالطبع لم ترض برلين عن هذه الخطوة مطلقاً ، وسرعان ما هرع اوت الذي لا يحس بأي تعب او نصب ، الى وزارة خارجية طوكيو للاعراب عن امتعاض المانيا من هذا التحول في الاحداث . وأبلغه وزير الخارجية أمير البحر تويودا ونائبه أمـاو ، بصرامة ان المحادثات المقترحة بين كونوي وروزفلت ، لن تؤدي إلا الى تحقيق اهداف الميثاق الثلاثي التي ترمي ، كما أراد تذكيره الى « منع امريكا من الاشتراك في الحرب » (١) .

وعندما استمرت محادثات هل - نومورا في الخريف ، تحوّلت الويلهلمشتراسة من جديد الى اساليبها التي سبق لها اتباعها في الربيع . وقد أصرت على طوكيو بموجب اصدار تعليماتها الى نومورا لتحذير الولايات المتحدة من استمرار سيرها في اعمالها غير الودية تجاه المحور الأوروبي - المانيا وايطاليا - لأن هذا الاستمرار قد يؤدي الى اشعال نيران الحرب بينها وبينها ، وستجد اليابان نفسها في مثل هذه الحالة مضطرة الى الاشتراك معها في حربها . ويتبين من هذا ، ان هتلر كان لا يزال راغباً في عدم دخول امريكا الحرب ، وقد قام بخطوته هذه في الحقيقة « لبلف » واشنطن وحملها على البقاء بعيدة عنها ، وتقديم بعض العون في الوقت نفسه له ، عن طريق تخفيف اعمال امريكا الحربية في الاطلسي .

وعلم وزير الخارجية هل فوراً بهذا الضغط الألماني الجديد ، ويرجع الفضل في معرفته له ما سمي « بالسحر » ، وهي طريقة مكنت الحكومة الامريكية منذ انتهاء عام ١٩٤٠ ، من حل جميع البرقيات والرسائل اللاسلكية اليابانية حتى ولو كانت في اعقد الرموز اليابانية ، وسواء منها ما كان متبادلاً بين طوكيو

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٦) ص ٥٤٦ - ٥٥١ .

وواشنطن أو بينها وبين برلين وغيرها من العواصم . وقد نقل الطلب الألماني برقية إلى نومورا من وزير خارجيته تويودا في السادس عشر من تشرين الأول عام ١٩٤١ ، مرفقاً بالتعليمات اللازمة لتقديمه بصورة مخففة إلى هل (١) .

وسقطت حكومة كوني في ذلك اليوم ، وحلت محلها حكومة عسكرية يرئسها الفريق المحارب : السريع الغضب هيدكي توجو . وهرع الفريق أو شيا ، وهو من نفس الطراز المحارب إلى وزارة الخارجية في برلين ، لينقل إلى الحكومة الألمانية الأنباء السارة وقال السفير ان استلام توجو الحكم كرئيس للوزراء يعني ان اليابان ستزداد تقرباً من شريكيتها في المحور ، وان محادثاتها مع واشنطن ستوقف . وقد أهمل السفير سواء عن قصد او بلا قصد ابلاغ اصدقائه النازيين ما سيؤدي إليه وقف هذه المحادثات من نتائج ، وان تعيين توجو رئيساً للوزراء ، يعني والحالة هذه اكثر بكثير مما توهموه هم ، وان هذه الحكومة الجديدة تعبير عن التصميم على حرب الولايات المتحدة إلا اذا أدت مفاوضات واشنطن إلى نهاية سريعة ، بقبول الرئيس روزفلت الشروط اليابانية لاطلاق يدها لا في محاربة روسيا بل في احتلال جنوب شرقي آسيا . ولم يحلم هتلر أو ريننتروب قط بهذا الاتجاه الجديد ، اذ انها كانا لا يزالان يتصوران اليابان نافعة ومفيدة للمصالح الألمانية ، اذا هاجمت سيبيريا وسنغافورة وافزعت واشنطن وحملتها على القلق تجاه المحيط الهادي ومنعتها من دخول الحرب . ولم يستطع الفوهرر أو وزير خارجيته البليد بالطبع ، ان يفهم ابداً ان فشل مفاوضات نومورا - هل في واشنطن ، وهو ما كانا يرغبان فيه رغبة عظيمة سيؤدي إلى النتيجة التي كانا يحاولان تجنبها منذ أمد طويل إلى ان يكون الوقت قد بات مناسباً لوقوعها ، وهي دخول امريكا في الحرب العالمية (٢) .

١ - مذكرات هل ص ١٠٣٤ . ويوجد نص برقيات تويودا إلى نومورا في « الهجوم على ميناء اللؤلؤ - شهادات امام اللجنة المشتركة للتحقيق في هجوم ميناء اللؤلؤ (١٢) ص ٧١ - ٧٢

٢ - تكشف مذكرات الامير كوني في التي وضعا بعد الحرب ، النقاب عن انه اضطر في الرابع من آب الي الموافقة على طلب للجيش ، بأن يخرج من الاجتماع المقترح مع الرئيس =

وبدأت الاحداث تتلاحق الآن وبسرعة هائلة .

ففي الخامس عشر من تشرين الثاني ، وصل الى واشنطن ساپورو كوروزو ، مبعوثاً خاصاً من الحكومة اليابانية لیساعد نومورا في مفاوضاته . ولكن وزير الخارجية هل ، سرعان ما أحس أن هذا الدبلوماسي ، الذي وقع في برلين بالنيابة عن حكومته ، الميثاق الثلاثي . والذي تبدو منه علامت تشييعه للألمان ، لم يحمل معه أية اقتراحات جديدة . وخيل للوزير ان مهمته تنحصر في اقناع واشنطن بقبول الشروط اليابانية فوراً ، أو تهدئة الحكومة الامريكية في حالة فشله في الشق الأول ، عن طريق مواصلة المباحثات الى ان تكون قد غدت متأهبة لتوجيه ضربة مفاجئة ثقيلة ^(١) . ووصلت الى نومورا من طوكيو ، في التاسع عشر من تشرين الثاني ، رسالة « الرياح » المشؤومة ، وقد تمكن مسجلو الرموز في وزارة الخارجية الامريكية من حلها واطلاع هل عليها . فلقد ذكرت الرسالة للسفير انه في حالة سماعه من مذيع الانباء على اذاعة طوكيو القصيرة ، التي تلتقطها السفارة يومياً ، عبارة « رياح شرقية وامطار » ، فإن هذه العبارة تعني ان الحكومة اليابانية قد قررت الحرب مع امريكا . وعلى السفير في هذه الحالة وعند تلقيه هذا الإنذار ، ان يتلف جميع الرموز والأوراق السرية فوراً .

واستفاقت برلين الآن على ما هو جارٍ . ففي اليوم الذي سبق تاريخ رسالة « الرياح » ، أي في الثامن عشر من تشرين الثاني ، فوجيء ريبنتروب الى حد ما ، بطلب من طوكيو ، تسأل فيه المانيا توقيع معاهدة تتعهد الدولتان فيها بعدم عقد أي صلح منفرد مع اعداء مشتركين . ولم يفسر اليابانيون ما يعنونه بكلمة « اعداء » ، ولكن وزير خارجية النازي أمل ولا شك في ان تكون روسيا في مقدمة هؤلاء الاعداء . ووافق على الاقتراح « من ناحية المبدأ ، ولعله كان واقعاً تحت تأثير الاعتقاد « اللذيد » بأن اليابان توشك في النهاية على الوفاء

= روزفلت في حالة رفض الرئيس لطلبات اليابان « مصمما على الحرب مع الولايات المتحدة »

(هل - مذكرات - ص ١٠٢٥ - ١٠٢٦) .

١ - كوردل هل - مذكرات . ص ١٠٦٢ - ١٠٦٣ .

بعودها الفامضة في ضرب الاتحاد السوفياتي في سيبيريا . ولم يكن ثمة شك في ان برلين قد رحبت بهذه الخطوة التي جاءت في وقتها ، اذ ان مقاومة الجيش الاحمر على طول الجبهة الواسعة ، كانت قد غدت هائلة . وكان الشتاء الروسي قد بدأ في قرع الابواب ، في وقت ابكر مما كان متوقعا . وخيل للألمان ان هجوماً يابانياً على فلاديفوستوك وعلى المقاطعات البحرية الروسية في المحيط الهادي ، قد يؤدي الى مزيد من الضغط الذي يقود بدوره الى انهيار السوفيات . وسرعان ما طاش سهم ريبنتروب ، وخابت آماله . فقد تلقى في الثالث والعشرين من تشرين الثاني برقية من سفيره أوت في طوكيو ، يقول فيها ان جميع الدلائل تشير الى ان اليابانيين ينوون التحرك جنوباً ، بقصد احتلال سيام وجزيرة بورنيو التي تسيطر عليها هولنده ، والغنية بحقول زيتها ، وان الحكومة اليابانية تود ان تعرف اذا كانت المانيا على استعداد للوقوف الى جانبها في حالة خوضها غمار حرب ما . وكانت هذه البرقية تعني بوضوح ان اليابان لن تهاجم روسيا ، وانما تفكر بشن « حرب اخرى » مع هولنده وبريطانيا في جنوب المحيط الهادي ، قد تدفعها الى الاشتباك في نزاع مسلح مع الولايات المتحدة . ولكن ريبنتروب وأوت ، لم يفهما النقطة الاخيرة . وتظهر البرقيات المتبادلة بينهما في هذه الايام انه على الرغم من ادراكها الآن ، ادراكاً بعث خيبة الأمل في نفسيهما . من ان اليابان لن تهاجم روسيا ، إلا انها اعتقدا ان حركتها جنوباً تستهدف ممتلكات هولنده وبريطانيا ، ولا علاقة لها بالولايات المتحدة . وهكذا سيظل العم سام بعيداً ، تحقيقاً لرغبة هتلر ، الى ان يحين دوره ^(١) .

ويرجع سوء تقدير الألمان للموقف الى حد كبير الى امتناع اليابانيين في هذه المرحلة عن اطلاع الحكومة الألمانية على حقيقة قراراتهم القدرية بصدد امريكا . وكان وزير الخارجية هل ، احسن اطلاعا من الألمان ، بفضل عملية « السحر » الرائعة في حل الرموز . وكان قد عرف في الخامس من تشرين الثاني ان وزير

١ - الوثيقتان (٤٠٧٠) و (٤٠٧٠ ب) - تريفوس - المانيا والحياد الاميركي ص

الخارجية اليابانية الجديد ، شيفينوري توغو ، قد ابرق الى نومورا ، يحدد فيه الخامس والعشرين من الشهر آخر موعد لتوقيع الاتفاق مع الحكومة الامريكية على اساس الشروط اليابانية ، وقدمت اليابان اقتراحاتها النهائية الى واشنطن في العشرين من تشرين الثاني . وقد عرف هل وروزفلت ان هذه الاقتراحات نهائية ، اذ ان عملية « السحر » اطلعتها بعد يومين على برقية مرسله من توغو الى نومورا وكوروزو تبين هذه الحقيقة بوضوح ، وتؤجل الموعد النهائي للاتفاق حتى التاسع والعشرين ... وهذه هي البرقية :

« هناك اسباب لا تستطيعان فهمها تحم علينا الرغبة في الوصول الى تسوية للعلاقات اليابانية - الامريكية قبل الخامس والعشرين من هذا الشهر . أما اذا كان في الامكان استكمال التوقيع قبل التاسع والعشرين ، فقد قررنا الانتظار حتى ذلك التاريخ . ونحن جادون كل الجد هذه المرة ، ولا يمكن تغيير الموعد النهائي . أما بعد هذا التاريخ فستتوالى الحوادث على نحو آلي رتيب » (١) .

وكان الخامس والعشرون من تشرين الثاني تاريخاً دقيقاً كل الدقة . ففي ذلك اليوم اجبرت قوة الحاملات اليابانية متجهة الى ميناء اللؤلؤ . ومضى كوردل هل في واشنطن الى البيت الابيض لتحذير مجلس الحرب من الخطر الذي تواجهه البلاد من اليابان ، ويؤكد لقادة الجيش والاسطول الامريكيين احتمال قيام اليابان بهجمات مباغتة . واقم في برلين في ذلك اليوم احتفال فخيم الى حد ما ، جددت فيه دول المحور الثلاث وسط الاحتفالات وتظاهرات الالهة ميثاق مكافحة الشيوعية (الكومنترن) لعام ١٩٣٦ . وكانت هذه الحركة مجرد ايماء خالية من الهمية . اذ ان هذا الميثاق ، كما دون بعض الألمان ، لم يعمل شيئاً لادخال اليابان في الحرب ضد روسيا . لكنها كانت فرصة اتحت لرينتروب الشغوف بالالهة ليحمل على روزفلت ناعثاً إياه « بمجرم الحرب الأول » وليذرف

١ - كوردل هل - مذكرات ص ١٠٥٦ و ١٠٧٤ .

دموع التماسيح على « الشعب الأمريكي الصادق المتدين » الذي يتعرض لخدعة مثل هذا القائد الذي لا يعرف المسؤولية .

ويبدو ان وزير الخارجية النازي قد مثل بهذه العبارات التي استخدمها . وراح يستدعي اوشيا عشية الثامن والعشرين من تشرين الثاني ، عقب خروجه من مجلس حرب طال اجتماعه ، رأسه هتلر . واعلن للسفير الياباني ان الموقف الألماني من الولايات المتحدة قد « تصلّب الى حد كبير » . وابرق السفير بهذه المعلومات الجديدة الى طوكيو بسرعة . وبدأ ان سياسة هتلر الرامية الى بذل كل جهد للابقاء على امريكا خارج الحرب الى ان تكون المانيا قد باتت مستعدة لها ، غدت الآن منبوذة . فقد تحول رينتروب فجأة الى موقف من يحث اليابان على محاربة الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى واعداء إياها بدعم الرايخ الثالث . وبعد ان حذر الوزير ، السفير الياباني من « ان تردد اليابان الآن ... قد يؤدي الى تركيز كل ما لدى بريطانيا وامريكا من قوة عسكرية ضدها - وهي نظرية لا شك في سخفها طالما ان الحرب في اوروبا لم تكن قد انتهت - مضى قائلاً لزمته :

« لقد صدق هتلر اليوم عندما قال ان ثمة خلافات جوهرية في حق الوجود بين المانيا واليابان والولايات المتحدة . وقد تلقينا معلومات تقول ، بعدم وجود أمل عملي في الوصول بالمفاوضات اليابانية - الامريكية الى نهاية ناجحة ، وذلك بسبب تعنت الولايات المتحدة في موقفها .

« فإذا صحت هذه المعلومات ، واذا كانت اليابان قد توصلت الى قرار بحرب بريطانيا والولايات المتحدة ، فياني واثق من ان هذا القرار ان يكون في مصلحة المانيا واليابان المشتركة فحسب ، بل سيؤدي الى أحسن النتائج بالنسبة الى اليابان نفسها » .

ودهش السفير الياباني ، وهو رجل قصير مكنتز الجسم من هذا الحديث دهشة ارتياح . ولكنه اراد ان يتأكد مما سمعه ، وان ما فهمه هو الصحيح ،

فراح يسأل الوزير : « هل تعني سعادتك ان حالة من الحرب الفعلية ستقوم بين المانيا والولايات المتحدة ؟ »

وتردد ريبنتروب قليلاً ... وخيل اليه انه افراط في حديثه . ثم قال : « ان روزفلت رجل متعصب لرأيه ، ويستحيل على المرء ان يتكهن بما سيلجأ اليه من اجراءات » .

وبدا هذا الرد غريباً وغير مرض الى اوشيا ، وذلك بالنسبة الى ما قاله الوزير قبل لحظات ، وما لبث ان عاد الى النقطة الاساسية قبيل انتهاء المقابلة . وراح يسأل ريبنتروب : « ترى ماذا سيكون موقف المانيا اذا توسعت الحرب فعلاً لتشمل بلاداً كانت ولا تزال تساعد بريطانيا ؟ . ورد ريبنتروب قائلاً :

« اذا اشتبكت اليابان في حرب مع الولايات المتحدة ، فإن المانيا ستشارك في هذه الحرب فوراً وليس ثمة احتمال مطلقاً لدخول المانيا في صلح منفرد مع الولايات المتحدة في مثل هذه الظروف ، ان الفوهرر واضح كل الوضوح في هذا الموقف » (١) .

وكانت هذه هي الضمانة الصريحة التي تنشدتها الحكومة اليابانية . فلقد سبق هتلر ان قدم مثل هذا الوعد في الربيع المنصرم لماتسوكا ، ولكن خيل لليابان ان هذا الوعد قد نسي في خضم ما تلاه من احداث . ولا سيما اثر ما أحس به هتلر من سخط على رفض اليابان الاشتراك معه في حربه ضد روسيا . ولم يبق من وجهة النظر اليابانية إلا ان تحمل المانيا على تضمين هذا الوعد في وثيقة خطية . وابرق الفريق اوشيا بهذه المعلومات وهو يكاد يرقص فرحاً الى طوكيو في التاسع والعشرين من تشرين الثاني . وسرعان ما وصلت اليه في برلين تعليمات جديدة في اليوم التالي تقول ان « محادثات واشنطن قد قطعت ... » ومضت الرسالة تقول :

« فهل لسيادتكم ان تقابل المستشار هتلر على الفور ووزير

خارجيته رينتروب وان تنقل اليها بصورة مكتومة ملخصاً لما
وقع من تطورات . قل لها ان انكلترا والولايات المتحدة قد اتخذتا
اخيراً موقفاً استفزازياً . وقل لها ايضاً ان هاتين الدولتين تضعان
الخطط لنقل قواتهما العسكرية الى اماكن عدة في شرق آسيا ، واننا
نجد انفسنا مرغمين على مقابلتها بالمثل ونقل قواتنا ايضاً الى اماكن
جديدة . وانقل اليها بصورة سرية للغاية ان ثمة خطراً كبيراً في
ان الحرب قد تنشب فجأة بين اليابان والدولتين الانكلوسكسونيتين
اثر بعض التصادم في الاسلحة ، وأضف الى ذلك ان موعد اندلاع
هذه الحرب قد يأتي في وقت اسرع مما يحلم فيه أي انسان ^(١) .

وكان اسطول الحاملات الياباني قد قطع الآن في طريقه الى ميناء
للؤلؤ . وغدت اليابان على عجلة من أمرها ، فهي تريد من المانيا التوقيع خطياً
على وعدها . وفي نفس اليوم الذي كان اوشيا يتلقى فيه تعليماته الجديدة من
طوكيو ، أي في الثلاثين من تشرين الثاني ، كان وزير خارجية اليابان يتشاور
في طوكيو مع السفير الالماني اوت ، مؤكداً له ان محادثات واشنطن قد تحطمت
بسبب رفض اليابان الموافقة على طلب امريكا بأن تتخلى عن الميثاق الثلاثي .
وأعرب عن أمله في ان يقدر الألمان لبلاده هذه التضحية دعماً للقضية المشتركة .
وقال توغولزائره اوت : « ان هناك قرارات خطيرة على وشك الوقوع .
فالولايات المتحدة تستعد استعداداً جدياً للحرب ، ولا يساور اليابان أي خوف
من انقطاع المفاوضات . وهي تأمل في مثل هذه الحالة ان تقف المانيا وايطاليا
الى جانبها تنفيذاً للميثاق الثلاثي » .. وابرق اوت الى برلين يقول :

« قلت للوزير انه لا يمكن ان يكون ثمة شك في موقف المانيا

١ - الهجوم على ميناء اللؤلؤ (١٢) ص ٢٠٤ . والمؤامرة النازية والمدون (٦) ص
٣٠٨ - ٣١٠ ويقول كوردل هل انه تلقى صورة من هذه البرقية عن طريق عملية « السحر » .
ويتبين من هذا ان كلا من واشنطن وبرلين كانت تعرفان في نهاية تشرين الثاني ان اليابان قد
تهاجم الولايات المتحدة « في وقت اسرع مما يحلم فيه أي انسان » (هل - مذكرات ص ١٠٩٢) .

المقبل . وعاد الوزير الياباني فصرح انه يفهم من كلامي ان المانيا
ستعتبر في مثل هذه الحالة ان علاقتها باليابان اصبحت قضية مصير
مشترك . ورددت بأنني اعتقد ان المانيا على استعداد حتماً لعقد
اتفاق بين الدولتين على هذا الاساس « (١)

عشية الهجوم على ميناء اللؤلؤ

كان الفريق اوشيا ، سفير اليابان في برلين من عشاق الموسيقى الكلاسيكية
الالمانية النمساوية ، وعلى الرغم من خطورة الوضع وحراجه مضى الى النمسا ،
ليتمتع بحضور عيد « موزار » فيها . ولكن قدر له ان لا يتمكن طويلاً من
متابعة الاستماع الى معزوفات الموسيقى النمساوية العظيمة . فقد تلقى السفير نداءً
عاجلاً من برلين في الأول من كانون الأول ، وطار الى سفارته ليتسلم تعليمات
حكومته الجديدة ، التي حثته على العمل فوراً لضمان توقيع المانيا على الاتفاق
الجديد . اذ ان الموقف لا يحتمل أي ابطاء .

ولكن ريبنتروب جمد الآن وتردد بعد ان وجد نفسه « في زاوية » ، لا
يستطيع الخروج منها . ويبدو انه ادرك للمرة الأولى ادراكاً تاماً نتائج الوعود
المتهورة الطائشة التي قطعها لليابانيين فحاول الآن التملص منها ، والوقوف
موقفاً فاتراً . وراح يقول : لأوشيا في ساعة متأخرة من ليلة الأول من كانون
الأول . انه يجد نفسه مضطراً لاستشارة الفوهرر أولاً قبل اتخاذ أي التزام
محدد . وعاد السفير الياباني الى الويلهمشتراسة يوم الاربعاء في الثالث من كانون
الأول ، ملحقاً على عقد الاتفاق الجديد ، ولكن ريبنتروب دفعه مسوفاً مثل
هذه الخطوة . وقال يرد على رجاء السفير وتأكيده بأن الوضع بات دقيقاً لا
يحتمل أي ابطاء ، انه على الرغم من تأييده شخصياً لعقد مثل هذا الاتفاق

الخطي ، الا انه لا يرى مندوحة عن تأجيل القضية الى ان يعود الفوهرر من مقر قيادته في وقت لاحق من الاسبوع . وكان هتلر قد طار في الحقيقة ، كما روى شيانو بشيء من الفرح في يومياته ، الى الجبهة الجنوبية في روسيا للاجتماع الى الفريق فون كلايست « الذي كانت جيوشه تواصل التراجع تحت ضغط هجوم روسي غير متوقع »

وكان اليابانيون قد استداروا في هذا الوقت ، نحو موسوليني ايضاً ، الذي لم يكن مشغولاً في أية جبهة من الجبهات . وكان السفير الياباني في رومة ، قد زار الدوتشي في الثالث من كانون الأول ، وطالب اليه رسمياً ان تعلن ايطاليا الحرب على الولايات المتحدة ، تنفيذاً للميثاق الثلاثي ، حالما تشبك اليابان معها في حرب . وأراد السفير ايضاً ان يحصل على معاهدة مع ايطاليا تؤكد استحالة قيام صلح منفرد . وروى شيانو في يومياته ان المترجم الايطالي كان « يرتجف كورقة على شجرة » . ورد الدوتشي بأنه سيكون « سعيداً » للاستجابة الى طلب اليابان بعد التشاور مع برلين .

ووجد شيانو في اليوم التالي برلين قد غدت حذرة كل الحذر ودون في مستهل يوميته للرابع من كانون الاول يقول :

« من المحتمل ان يمضي الألمان في هذا الطريق ، اذ لا طريق سواها امامهم ، ولكن فكرة استفزاز امريكا على التدخل ، فكرة يمجها الألمان ، ويزداد كرههم لها . اما موسوليني فسعيد لمثل هذه الخطوة » .

وكان القرار في موضوع كهذا ، يتعلق باعطاء تعهد رسمي لليابان ، من حق سيد الحرب النازي وحده . ولا عبرة لرأي ريبنتروب ، على الرغم من ان هتلر كان لا يزال يولي آراء وزير خارجيته بعض الاهتمام مما يثير الدهشة . ويبدو ان وزير الخارجية تمكن ليلة الرابع - الخامس من كانون الأول من الحصول على موافقة الفوهرر ، وراح يسلم السفير الياباني في الساعة الثالثة صباحاً مسودة مشروع اتفاق تتعهد المانيا بموجبه بأن تنضم الى اليابان في حربها ضد الولايات

المتحدة وبأن لا تعقد أي صلح منفرد معها . وبعد ان اتخذ هذه الخطوة القدرية ، واتبع زعيمه في « قلب » السياسة التي تمسك بها بإصرار مدة سنتين ، رأساً على عقب ، لم يستطع ريبنتروب إلا ان يحاول التأكد من ان حليفه الإيطالي ، سيسير في ركابه . وقد استهل شيانو يوميته للخامس من كانون الاول على النحو التالي :

« قضيت ليلة قطع علي هدوءها ريبنتروب بأرقه وقلقه . فبعد تسويق ومماطلة دامام يومين ، بات الآن لا يستطيع إضاعة دقيقة واحدة في الرد على اليابانيين . وقد بعث إلي في الساعة الثالثة صباحاً سفيره ماكنزن ، ليقدم إلي في بيتي مشروعاً بميثاق ثلاثي للتدخل إلى جانب اليابان مع الوعد القاطع بعدم عقد أي صلح منفرد . وأراد مني الألمان إيقاظ الدوتشي في هذه الساعة المتأخرة ، ولكنني امتنعت عن إيقاظه وسر الدوتشي من موقعي غاية السرور » .

وأعد اليابانيون مشروع اتفاق أقره هتلر وموسوليني ولكنها لم يوقعاه بعد ، وكان هذا مصدر قلق لليابانيين . وشكوا في ان مماطلة الفوهرر ناجمة عن الرغبة في المقابلة بالمثل ، أي ان تنضم اليابان إلى ألمانيا في حربها مع روسيا مقابل انضمام هذه إليها في حربها ضد الولايات المتحدة . وقد ضمن وزير خارجية اليابان برقيته التي بعث بها إلى سفيره أوشيا في برلين في الثلاثين من تشرين الثاني تعليقاته إليه عن الطريقة التي يعالج فيها هذه المشكلة المعقدة إذا أثارها الألمان والإيطاليون اذ قال :

« واذا سألوكم عن موقفنا من السوفييت ، أجب بأننا قد أوضحنا موقفنا من الروس في اليابان الذي أصدرناه في تموز الماضي . وقل لهم اننا لا نعي بتحركاتنا جنوباً تخفيف ضغطنا ضد السوفييات ، واننا في حالة اشتراك روسيا مع انكلترا والولايات المتحدة ضدنا ولجوءها إلى الأعمال العدوانية ، سنقلب عليها بكل ما لدينا من قوة . أما الآن فإن من مصلحتنا ان نواصل الضغط جنوباً ، واننا نؤثر في

الوقت الحاضر الامتناع عن أية حركة مباشرة في الشمال (١) » .

وحل السادس من كانون الاول. وشن جو كوف في ذلك اليوم هجومه المضاد امام موسكو ، وتراجعت الجيوش الالمانية في جو تغمرة الثلوج ، ويسيطر عليه البرد القارس. وكان هذا التطور حافزاً يدفع هتلر الى المطالبة بالمثل . وأحسست وزارة الخارجية في طوكيو بالكثير من القلق تجاه هذا الموضوع . فقد غدت القوة البحرية الامريكية على مرمى من طائراتها التي تحلق من حاملاتها . ولم تكتشف السفن والطائرات الامريكية موقعها حتى هذه اللحظة نتيجة ما يشبه المعجزة . ولكنها قد تكتشفها في أية لحظة . وأبرقت طوكيو رسالة مطوّلة بالراديو الى نومورا و كوروزو في واشنطن تأمرهما فيها بزيارة الوزير كوردل هل في الساعة الواحدة من بعد ظهر الفد ، الأحد ، السابع من كانون الاول ، وان يقدموا اليه رفض اليابان للاقتراحات الامريكية الأخيرة والتأكيد له على ان المفاوضات باقت مقطوعة بحكم الواقع . وتحوّلت طوكيو في غمرة يأسها نحو برلين تطلب منها الضمانة الخطية على تأييد المانيا لها . ولم يكن سادة الحرب اليابانيون ليثقوا بالألمان ثقة كافية تمكنهم من ابلاغهم بالضربة التي قد يوجهونها الى الولايات المتحدة في اليوم التالي . ولكنهم كانوا اكثر قلقاً من ان يرفض هتلر اعطاء الضمانة الخطية إلا اذا وافقت اليابان على اعلان الحرب ضد روسيا بالاضافة الى الولايات المتحدة وبريطانيا . وابق توغو رسالة مطوّلة في هذا الصدد الى سفيره اوشيا في برلين يحثه فيها على محاولة التسوية مع الألمان في موضوع روسيا ، وان لا يقبل بوجهة نظرهم ، الا اذا اقتضت الضرورة قبوله تمام الاقتضاء . اذ على الرغم من ان القادة العسكريين اليابانيين كانوا مخدوعين في قدرتهم على التغلب على بريطانيا وامريكا إلا انهم كانوا لا يزالون يحتفظون ببعض التعقل الذي مكنهم من ان يدركوا عجزهم عن محاربة الروس في نفس الوقت حتى مع مساعدة المانيا لهم . وتكشف تعليقات توغو الى اوشيا في ذلك اليوم القديري السبب في السادس

من كانون الاول ، والتي عثر عليها بين الرسائل التي حل جهاز « السحر » رموزها ، النقاب عن الدبلوماسية التي طبقها ابناء الشمس مع الرايخ الثالث في الساعة الحادية عشرة .. وهذا ما جاء فيها :

« نود لو امكننا تنكّب الصراع المسلح مع روسيا الى ان تسمح به الظروف السوقية . لذا اعمل على تفهيم الحكومة الألمانية وجهة نظرنا هذه وفواضهم لكي يمتنعوا مؤقتاً على الأقل عن الاصرار على تبادل المذكرات الدبلوماسية في هذا الموضوع .

« وأرجو ان توضح لهم بإسهاب وتفصيل انه بالنسبة الى المواد الامريكية التي تشحن الى روسيا السوفياتية ... فإن هذه المواد ليست وافرة لكم ولا جيدة الكيف ، وانه في حالة شننا الحرب على الولايات المتحدة ، فإننا سنضع ايدينا على جميع البواخر المتجهة الى روسيا السوفياتية . أرجو ان تحاول الوصول الى تفاهم مع الألمان في هذا الصدد .

« أما اذا أصرّ ريبنتروب على ان نقدم نحن بدورنا ضماناً في هذه القضية ، ولما كنا لا نجد مناصاً آخر ، في هذا الصدد ، فعليك في هذه الحالة ان تؤكد لهم اننا من ناحية المبدأ سنمنع وصول شحنات المعدات الحربية الامريكية الى روسيا السوفياتية عبر المياه اليابانية ، وان تطلب اليهم الموافقة على اجراء يسمح باضافة بيان آخر ينص على اننا قد لا نستطيع تطبيق هذا المنع تمام التطبيق طالما ان الاسباب السوقية تحتم علينا عدم الاشتباك في حرب مع الاتحاد السوفياتي ، او بكلمة اخرى طالما اننا عاجزون عن الاستيلاء على السفن السوفياتية .

« وفي حالة رفض الحكومة الالمانية الموافقة على هذا الوضع ، واصرارها على ربط موافقتها على هذا الموضوع ، باشتراكنا في الحرب ، وبتوقيعنا معاهدة تضمن عدم عقد أي صلح منفرد ، فإننا

لا نرى مندوحة من تأجيل عقد هذه المعاهدة كلية (١) » .

وكان هذا القلق من جانب اليابانيين في غير موضعه . اذ ان هتلر ، لأسباب جهلها العسكريون اليابانيون كما جهلها كل انسان آخر ، نظراً لخلافها مع المنطق والفهم ، لم يصّر على قيام اليابان بحاربة روسيا بالإضافة الى حربها مع الولايات المتحدة وبريطانيا ، مع ان موقفه هذا كان لا بد وان يتبدل لو ان سير الحرب قد اتخذ اتجاهاً مغايراً .

وعلى أي حال ، فإن اليابانيين كانوا قد قرروا ليلة السبت السادس من كانون الاول عام ١٩٤١ ، توجيه ضربة يتحدث عنها الركبان الى الولايات المتحدة في المحيط الهادي ، وان لم يكن هناك في واشنطن أو في برلين من يعرف متى تقع هذه الضربة وأين توجه . وتولت الاميرالية البريطانية في ذلك الصباح ابلاغ الحكومة الامريكية بأن أسطول غزو يابانياً ضخماً ، شوهد متجهاً عبر خليج سيام نحو برزخ « كرا » (Kra) مما يشير الى ان ابناء الشمس ، كانوا يعتزمون اولاً غزو سيام ولربما الملايو ايضاً . ووجه الرئيس روزفلت في الساعة التاسعة من مساء اليوم نفسه رسالة شخصية الى امبراطور اليابان يرجوه فيها ان يشترك معه في ايجاد « السبل اللازمة لتبديد السحب القاتمة » ، ويحذره في الوقت نفسه من مغبة اندفاع القوات العسكرية اليابانية باتجاه جنوب شرقي آسيا ، مؤكداً له ان مثل هذه الخطوة ستخلق وضعاً « لا يمكن تصوره » . وراح ضباط المخابرات في وزارة البحرية الامريكية يعدون آخر تقرير لهم عن مواقع السفن الحربية الرئيسية في الأسطول الياباني . وجاء في هذا التقرير ان معظم هذه الوحدات قابعة في موانئها الداخلية في اليابان وبينها جميع حاملات الطائرات والسفن الحربية الأخرى التي تؤلف القوة التي كانت في نفس تلك اللحظة قد باتت على بعد ثلاثمائة ميل من ميناء اللؤلؤ ، والتي كانت تعد قاذفاتاً للتخليق غداً في مهمتها الخطرة .

وابلغت وزارة البحرية في نفس تلك الليلة - ليلة السبت - الرئيس والمستر هل ان السفارة اليابانية تقوم باتلاف اوراقها السرية ورموزها . وكان عليها ان تحمل اولاً رسالة توغو المطوّلة التي جاءت في اربعة عشر جزءاً . وكان حلاًّ للرموز في البحرية الامريكية يقومون بحل نفس الرسالة وبالسرية ذاتها ، وفي الساعة التاسعة والنصف مساء وصل الى البيت الابيض ضابط بحري يحمل ترجمة ثلاثة عشر جزءاً منها . وقرأ الرئيس روزفلت هذه البرقية فهتف قائلاً للمستر هاري هوبكنز الذي كان يتشاور معه في مكتبه .. « انها تعني الحرب » ولكن البرقية لا تذكر شيئاً عن مكان الحرب وزمانها ، ولم يعرف الرئيس بالطبع شيئاً عنها . وحتى امير البحر نومورا ، لم يكن يعرف شيئاً عنها ، وكذلك الحال بالنسبة الى ادولف هتلر القابع بعيداً في اوروبا الشرقية ، اذ كان روزفلت يعرف اكثر منه حتماً .

هتلر يعلن الحرب

بوغتت برلين كما بوغتت واشنطن بالهجوم الياباني الكاسح على اسطول امريكا في المحيط الهادي في قاعدته الرئيسية في ميناء اللؤلؤ ، في الساعة السابعة والنصف صباحاً (حسب التوقيت المحلي) من يوم الأحد السابع من كانون الأول عام ١٩٤١ . وعلى الرغم من ان هتلر كان قد وعد ماتسوكا شفويّاً بأن تشترك المانيا مع اليابان في الحرب ضد الولايات المتحدة ، وعلى الرغم من صدور وعد مماثل من ريبنتروب وزير خارجيته الى اوشيا سفير اليابان في برلين ، إلا ان التوكيد الخطي لم يكن قد وقع بعد ولم يكن اليابانيون قد فاهوا ببنت شفة الى الألمان عن مشروعهم لميناء اللؤلؤ^(١) . يضاف الى هذا ان هتلر كان غارقاً حتى

١ - اعتقد الكثيرون منذ امد طويل ، ان هتلر كان على علم سابق بالساعة المحددة للهجوم على ميناء اللؤلؤ ، ولكنني لم استطع العثور على اية قصاصة ورق في الاوراق الالمانية المصادرة تقيم الدليل على صحة هذا الاعتقاد .

اذنيه في مشاغل الجبهة الشرقية حيث تحتم عليه ان يشدد من عزائم قاداته العسكريين الخائرة ، ويحول دون تراجع قواته نحو الغرب .

وكان الظلام قد خيم على برلين عندما التقط جهاز الاستماع الى الاذاعات الأجنبية أول نبأ عن الفارة المتلصصة على ميناء اللؤلؤ . وعندما نقل موظف في قسم الصحافة في وزارة الخارجية الألمانية هاتفياً الى ريبنتروب النبأ الذي هز العالم بأسره ، رفض هذا ان يصدقه في البداية ، وغضب غضباً شديداً لإزعاجه في تلك الساعة . وقد علق على النبأ بقوله : « انه قد يكون من احاييل العدو الدعائية » ، وطلب ان لا يزعجه انسان حتى الصباح ^(١) . ولمل ريبنتروب كان صادقا للمرة الوحيدة في حياته عندما شهد في محاكمات نورمبرغ « بأن الهجوم جاء مباغتة كاملة لنا . فلقد كنا نتوقع هجوماً يابانياً على سنغافورة او على هونغ كونغ . ولكننا لم نتوقع مطلقاً ان يستهدف الهجوم الياباني الولايات المتحدة ، اذ اننا لم نكن نعتبر ان هذا الهجوم في مصلحتنا ^(٢) » . ولكنه كان كاذباً عندما قال للمحكمة ان الهجوم قد آله ، اذ انه احس بالسعادة الفامرة تجاهه ، وكان هذا هو انطباع شيانو الذي استهل يوميته للثامن من كانون الأول على النحو التالي :

« تلقيت هاتفياً ليلياً من ريبنتروب . انه سعيد كل السعادة للهجوم الياباني على الولايات المتحدة . ولقد احسست بالفرح ينطلق من كلماته الى الحد الذي ارغمني على تهنيته ، على الرغم من انني لم اكن واثقاً من ان هذا التطور لمصلحتنا ... ورأيت موسوليني سعيداً ايضاً للانباء ، فلقد كان منذ عهد بعيد يود توضيح الموقف بين امريكا والمحور » .

ومضى الفريق اوشيا في الساعة الواحدة من بعد ظهر الاثنين في الثامن من كانون الأول الى الويلهمشتراسة ، ليحمل ريبنتروب على توضيح موقف المانيا .

١ - شميدت - ترجمان هتلر . ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

٢ - محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٢٩٧ .

وطلب ان تعلن المانيا الحرب رسمياً على الفور على الولايات المتحدة . وبعث
اوشيا برسالة اذاعية الى طوكيو قال فيها :

« رد ريبنتروب بأن هتلر يجتمع في تلك اللحظة في مؤتمر في
مقر قيادته العامة الى المختصين لبحث معهم في الشكليات المتعلقة
باعلان الحرب ، ليضمن تأثيراً مؤاتياً على الرأي العام الألماني .
ووعده الوزير بأنه سينقل رغبتكم فوراً الى هتلر ، ويعمل كل ما في
وسعه لتحقيق هذه الرغبة فوراً » .

وابلغ وزير خارجية النازي السفير الياباني ايضاً ، وفقاً لما ورد في برقية
الاخير الى طوكيو ، بأن هتلر اصدر في صباح ذلك اليوم ذاته « اوامره الى
الاسطول الألماني لمهاجمة السفن الامريكية حيثما وجدها وحينما يلقاها (١) » .
ولكن الديكتاتور تردد في اعلان الحرب (٢) .

ويقول التقويم اليومي الذي يسجل حركات الفوهرر ، ان هتلر سارع بالعودة
الى برلين ليلة الثامن من كانون الأول فوصلها في الساعة الحادية عشرة من صباح
اليوم التالي . وادعى ريبنتروب في نورمبرغ ، انه بين للزعيم ان المانيا ليست
ملزمة بموجب نصوص الميثاق الثلاثي باعلان الحرب ضد الولايات المتحدة لأن
اليابان هي المعتدية كما هو واضح كل الوضوح ... ومضى يقول :

« يلزمنا الميثاق الثلاثي بمساعدة اليابان في حالة واحدة وهي
ان تتعرض اليابان لهجوم من جهة ما ... ومضيت لمقابلة الفوهرر
واوضحت له الناحية القانونية للوضع وقلت له ، اننا على الرغم من
ترحيبنا بحليف جديد ضد انكلترا ، الا ان هذا الوضع يعني ايضاً
ظهور خصم جديد لنا يتحتم علينا ان نعالجه ... هذا اذا أعلننا

١ - المؤامرة النازية والعدوان (٧) ص ١٦٢ .

٢ - كان وزير الخارجية اليابانية توغو « يقول في نفس الوقت للسفير الألماني اوت »
تنتظر الحكومة اليابانية ايضاً ، ان تسارع المانيا الى اعلان الحرب على الولايات المتحدة »
(وثائق نورمبرغ الكتاب العاشر قضية وايز ساكر) .

الحرب على الولايات المتحدة .

« وقلت له ان نصوص الميثاق الثلاثي لا تشترط علينا ان نعلن الحرب رسمياً على الولايات المتحدة طالما ان اليابان هي التي هاجمت . وفكر الفوهرر طويلاً في هذه القضية ثم ما لبث ان اتخذ قراراً واضحاً كل الوضوح سرعان ما ابلغني ، اذ قال : « اننا اذا لم نقف الى جانب اليابان فإن الميثاق يغدو ميتاً من الناحية السياسية . ولكن هذا لا يعتبر السبب الرئيسي . فالعامل الأول هو ان الولايات المتحدة تطلق النار على بواخرنا . ولقد كان الامريكيون عنصراً قوياً في هذه الحرب وكانوا قد خلقوا بأعمالهم وضعاً يشبه اوضاع الحرب » .

« وكان من رأي الفوهرر في تلك اللحظة أن من الواضح ان الولايات المتحدة ستشن الحرب على المانيا . ولهذا فقد أمرني بأن اسلم الى الممثل الامريكي جواز سفره واوراقه ^(١) » .

وكان روزفلت وهل ينتظران هذا القرار في واشنطن بكل ثقة . ولقد تعرضا لضغط شديد من جانب الكونغرس ليعلنا الحرب على المانيا وايطاليا في الثامن من كانون الأول أي في نفس الوقت التي اعلناها على اليابان . ولكنها آثرا الانتظار . وكان قصف ميباء اللؤلؤ قد انقذهما من وضع حائر مرتبك ، وقد جاءتهما المعلومات التي اقنعتهم بأن الديكتاتور النازي العنيد سينقذهما من حيرة اخرى ^(٢) . وكانا قد فكرا طويلاً في الرسالة التي التقطها والموجهة من السفير اوشيا في برلين الى طوكيو في التاسع والعشرين من تشرين الثاني ، وهي الرسالة

١ - جمعت هنا بين شهادة ريبنتروب في التحقيق المباشر في نورمبرغ (محاكمات كبار مجرمي الحرب (١٠) ص ٢٩٧ - ٢٩٨) وبين بياناته الاخرى الموجودة في المؤامرة النازية والمدوان - الملحق ب - ص ١١٩٩ - ١٢٠٠) .

٢ - كنت واقفا في واشنطن في تلك الاونة تحت الانطباع بأنه سيكون من الصعب على الرئيس روزفلت ان يحمل الكونغرس على اعلان الحرب على المانيا . وبدا لي ان ثمة شعورا قويا في كل من المجلسين كما في الجيش والبحرية على أن من واجب البلاد تركيز كافة جهودها =

التي اكدت لليابانيين ان المانيا ستشارك مع اليابان في الحرب . اذا اشتبكت مع الولايات المتحدة فيها . ولم يكن هناك في الرسالة ما يشير الى ان المانيا قد اشترطت تقديم مساعدتها في حالة تعرض اليابان للاعتداء . انها اشبه ما تكون بصك على بيعاض ، وليس ثمة من ريب في ان اليابانيين كانوا يلحفون على برلين

= على هزم اليابان ، وان عليها ان لا تحمل على عاتقها عبئا اضافيا بقتال المانيا في نفس الوقت .

وقد نقل هانز تومسون القائم بأعمال السفارة الالمانية في واشنطن هذا الشعور الى برلين ، لا سيما انه كان كفيه من المبعوثين في الخارج ، لا يعرف شيئا عن حقيقة ما كان هتلر وريبنتروب يدبرانه من خطط . وقد بعث تومسون الى برلين رسالة على الراديو فور انتهاء الرئيس من القاء خطابه في الكونغرس صباح الثامن من كانون الاول ، وهو الخطاب الذي اعلن فيه الحرب على اليابان قال فيها : « تشير الحقيقة الماثلة في تجنب روزفلت ذكر المانيا او ايطاليا في خطابه حتى ولو في كلمة واحدة ، الى ان الرئيس سيحاول اولا تجنب كل ما يؤدي الى تخرج الوضع في الاطلسي » . وراح تومسون يبعث في عشية اليوم نفسه برسالة اخرى عن الموضوع قال فيها : « ما زال الشك قائما فيما اذا كان روزفلت سيطلب اعلان الحرب على المانيا وايطاليا او لا . ومن المنطق بالنسبة الى وجهة نظر القادة العسكريين الامريكيين ، ان تتجنب بلادهم كل ما يؤدي الى حرب في جبهتين » . وكان القائم بالاعمال الالمانى قد اكد في عدة برقيات سبقت هجوم ميناء اللؤلؤ ان الولايات المتحدة ليست على استعداد للحرب في جبهتين . وكان في الرابع من كانون الاول قد نقل الى حكومته برسالة اذاعية ، ما كتبه « الشيكافو تريبون » عن « الخطط الحربية التي اعدتها القيادة العليا الامريكية وامالها في هزم المانيا وحلفائها » .

ويؤكد تقرير الصحيفة هذه - على حد رواية القائم بالاعمال الالمانى - ان اشتراك امريكا الكامل في الحرب ، لن يكون قبل تموز من عام ١٩٤٣ ، وان الاجراءات العسكرية ضد اليابان ذات طابع دفاعي .

واكد تومسون في رسالته التي بعث بها الى برلين عشية الثامن من كانون الاول ان الهجوم على ميناء اللؤلؤ سيؤدي حتما الى تخفيف الضغط عن المانيا بالنسبة الى اعمال امريكا العدائية لالمانيا في الاطلسي وراح يقول :

« وتعني الحرب مع اليابان تحول جميع النشاط الى مشاريع التسليح الامريكي نفسها . مما يقلل من مساعدات الاعارة والتأجير ، والى انتقال كل نشاط لامريكا الى المحيط الهادي » .

واني مدين بالنسبة الى البرقيات المتبادلة بين الويلهلمستراسه وبين السفارة الالمانية في واشنطن اثناء هذه الفترة ، الى وزارة الخارجية الامريكية التي مكنتني من الاطلاع على هذه البرقيات وستنشر هذه البرقيات فيما بعد في سلسلة « وثائق وزارة الخارجية الالمانية » .

الآن في دفع قيمة هذا الصك .

وقد وفّت المانيا بالتزامها ، ولكن بعد تردد طويل من جانب سيد الحرب النازي . وقد دعا الرايشتاغ الى الاجتماع في التاسع من كانون الأول ، أي يوم وصوله الى برلين ثم عاد فأجل الاجتماع يومين ، أي حتى الحادي عشر من الشهر . ويبدو أنه حزم في هذه الآونة امره كما روى ريبنتروب . وكان قد ملّ من الهجمات التي يشنها الرئيس روزفلت عليه وعلى النازية ، وكان صبره قد نفذ من الأعمال الحربية التي يشنها الاسطول الامريكي على الغواصات الألمانية في الاطلسي ، والتي ظل امير البحر ريدير يلحف عليه بوجود مقابلتها بالمثل اكثر من عام تقريبا وكانت كراهيته لامريكا والامريكيين قد تزايدت في الآونة الاخيرة ، كما ازداد لديه الميل ، وهنا يقبع السوء كل السوء ، الى التقليل الى حدٍ خطر من قوة الولايات المتحدة واحتمالاتها العسكرية ^(١) .

وقد بالغ في الوقت نفسه مبالغة ضخمة في تقدير قوة اليابان العسكرية . ويبدو انه اعتقد ، بأن اليابان ، التي كان يعتبر اسطولها اقوى الاساطيل في العالم ، عندما تنتهي من امر البريطان والامريكيين في المحيط الهادي ، ستتحول على روسيا وتساعد على انهاء فتوحاته العظيمة في الشرق . وقد اعرب لبعض اعوانه بعد بضعة شهور ، عن اعتقاده بأن دخول اليابان الحرب « كان ذا قيمة كبيرة لنا ، ولا سيما بالنسبة الى الموعد الذي اختارته » ثم قال :

« لقد جاء اشتراكها هذا في الواقع في نفس اللحظة التي كانت مفاجآت الشتاء الروسي ، تضغط بشدة على معنويات شعبنا ،

١ - قال هتلر لبعض اخدانه بعد شهر واحد ، في حديث له في مقر قيادته في السابع من كانون الثاني عام ١٩٤٢ ... « انا لا ارى مستقبلا مشرقا للامريكيين . فامريكا بلاد منحلة . وفيها مشاكلها العنصرية ، كما تعاني من الافتقار الى العدالة الاجتماعية . وان عواظمي المناوئة « الامريكانية » هي مشاعر من الكراهية والتقزز ... ويكشف كل ما يتعلق بسلوك المجتمع الامريكي على ان نصف هذا المجتمع « متهود » ، وان النصف الثاني « متزنج » (نسبة الى الزنوج) . فكيف يمكن للمرء ان يتوقع من دولة كهذه ان تظل متماسكة ، لا سيما وانها تقيم كل اعتباراتها على اساس الدولار » (محادثات هتلر السرية . ص ١٥٥) .

وعندما كان كل فرد في المانيا ، واقفاً تحت ضغط الحقيقة القائلة بأن الولايات المتحدة ستشارك في الصراع ان عاجلاً وان آجلاً . ولهذا كان التدخل الياباني مؤثماً كل الموااة من وجهة نظرنا (١) » وليس ثمة من شك في ان ضربة اليابان المتلصصة والقوية للأسطول الامريكي في ميناء اللؤلؤ قد اشعلت اعجابه واستفزته ، وقد اشتد هذا الاعجاب من جراء ما فيها من « مباغته » ، كان يزهو دائماً بتطبيقها . وقد اعرب عن مشاعره هذه للسفير اوشيا في الرابع عشر من كانون الأول عندما انعم عليه بالصليب الاعظم من وسام الاستحقاق للنسر الالماني المذهب اذ قال له : « لقد اتبعت الطريقة الصحيحة في اعلان الحرب . فهذه الطريقة هي المثلى دائماً » .

وأضاف انها تشبه طريقته هو ثم قال :

« تلخص هذه الطريقة في التفاوض اطول زمن ممكن . ولكن اذا رأى المرء ان الجانب الآخر ، غير مهتم إلا بالتسويق والمماطلة ، وبالحاق العار والمذلة به ، دون وجود اية رغبة حقيقية لديه في الوصول الى اتفاق ، فإن عليه ان يضرب فوراً ، وبأقصى ما يمكن من عنف ، وان لا يضيع وقته في اجراءات اعلان الحرب . ولقد انعش فؤاده ما سمعه عن العمليات اليابانية الأولى . فلقد فاض هو نفسه طويلاً وبمنتهى الصبر مع بولنده ، وكذلك مع روسيا . وعندما ادرك ان الجانب الآخر لا ينوي حقاً الوصول الى اتفاق ، راح يضرب فجأة وبدون انتظار للشكليات . وسيواصل اتباع هذا الاسلوب في المستقبل ايضاً (٢) » .

وكان ثمة سبب آخر ، حدا بهتلر الى اتخاذ قراره المتسرع هذا باضافة الولايات المتحدة الى قائمة اعدائه الاقوياء . وقد اشار الدكتور شميدت الذي ظل طيلة

١ - محادثات هتلر السرية . ص ٣٩٦

٢ - المؤامرة النازية والعدوان (٥) ص ٦٠٣

ذلك الاسبوع كثير التجوال بين المستشارية ووزارة الخارجية الى هذا السبب بقوله : « تكوّن لدي الانطباع بأن رغبة هتلر المتأصلة في الشهرة هي التي دفعته الى الرغبة في اعلان الحرب على امريكا قبل ان تبادره هي بهذا الاعلان الذي كان واثقاً من وقوعه ^(١) » . وقد ايد سيد الحرب النازي هذه الحقيقة في الخطاب الذي ألقاه في الرايشتاغ في الحادي عشر من كانون الأول ... اذ قال للنواب « الهتافة » : « سنكون نحن دائماً المبادرين بالضرب . وسنكون دائماً أول من يضرب » .

وسادت الخشية برلين حقاً في العاشر من كانون الأول ، من ان تسبقها واشنطن الى اعلان الحرب ، مما دفع ريبنتروب الى ارسال برقية حازمة الى ممثله تومسون ، في واشنطن ، يحذره فيها من أي تلميح قد يشير الى ما تنتوي برلين فعله ، في اليوم التالي ، مخافة تسرب هذا التلميح الى وزارة الخارجية الامريكية . وبعث الوزير النازي في رسالة برقية « بالراديو » في العاشر من كانون الأول الى تومسون نص الاعلان الذي سيتولى هو تبليغه الى القائم بالاعمال الامريكي في برلين في الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر الحادي عشر من كانون الأول . وتضمنت تعليماته الى تومسون ان يقوم بزيارة وزير الخارجية هل بعد ساعة واحدة تماماً أي في الثالثة والنصف من بعد ظهر اليوم نفسه حسب توقيت برلين ، وان يسلمه نسخة من الاعلان ، ويطلب اليه تسليمه جواز سفره ، ثم يسلم مهام التمثيل الدبلوماسي الالماني في واشنطن الى المبعوث السويسري . وحذر ريبنتروب في نهاية رسالته مبعوثه من أي اتصال بوزارة الخارجية الامريكية قبل تسليم المذكرة مضيفاً قوله : « نود في جميع الظروف والاحتمالات ان لا تسبقنا الحكومة هناك في مثل هذه الخطوة » .

ومهما كانت الدوافع التي حملت هتلر على التردد وتأجيل اجتماع الرايشتاغ مدة يومين فليس ثمة من شك بالنسبة الى الرسائل المتبادلة بين

الويلهلمشتراسة وبين السفارة الالمانية في واشنطن وكذلك بالنسبة الى اوراق اخرى في وزارة الخارجية الالمانية ، في ان الفوهرر اتخذ قراره القدرى بإعلان الحرب على الولايات المتحدة في التاسع من كانون الأول ، أي في نفس اليوم الذي عاد فيه الى عاصمته من مقر قيادته في الجبهة الروسية . ويبدو ان الطاغية النازي اراد مهلة اليومين الاضافيين لا ليضمن المزيد من التفكير في الموضوع بل ليعد بعناية خطابه في الرايشتاغ ليؤمن له التأثير اللازم على الشعب الألماني ، الذي كان يدرك تمام الاداك بما يذكره من وقائع الحرب الكونية الأولى ، الدور الحاسم الذي لعبته امريكا بدخول الحرب .

وعهد هتلر في التاسع من كانون الأول الى هانز ديكهوف الذي ما زال يحمل رسمياً لقب السفير الألماني في الولايات المتحدة ، والذي قبع دون عمل في الويلهلمشتراسة منذ سحبت الدولتان سفيريهما في خريف عام ١٩٣٨ ، بأعداد قائمة مطولة عن الأعمال المناوئة لألمانيا التي ارتكبتها روزفلت منذ نشوب الحرب ، ليضمنها الفوهرر في خطابه الى الرايشتاغ (١) .

وصدر الأمر الى تومسون في التاسع من كانون الأول ، ليحرق جميع اوراقه السرية ومفاتيح الرموز الموجودة لديه . وابرق الى برلين في الحادية عشرة والنصف صباحاً يقول : « نفذت جميع تعليماتكم » . وقد تبين الآن ولأول مرة حقيقة ما يدور في برلين ، وبعث في المساء ببرقية الى الويلهلمشتراسة "يقول فيها ان

١ - كان ديكهوف الذي وصفه هاسيل « بالمستكين بطبيعته » ، قد أعد قبل نحو من اسبوع تلبية لطلب رينتروب ، مذكرة مطولة عنوانها « مبادئ للتأثير على الراي العام الأمريكي » . وقد تضمنت مبادؤه الاحد عشر .. « ان روزفلت هو الخطر الحقيقي الذي يهدد امريكا ... لليهود تأثير كبير على روزفلت عن طريق فرانكفورتر وباروخ وبنيامين كوهين وصمويل روزغان وهنري مورغنتاو وغيرهم ... يجب ان يكون شعار كل ام امريكية : « انا لم انشئ ولدي ليموت في سبيل بريطانيا » . (من اوراق وزارة الخارجية الالمانية التي لم تنشر بعد) . وكانت نظرة بعض الامريكيين في وزارة الخارجية وفي سفارتنا في برلين طيبة بالنسبة الى ديكهوف الذي اعتبروه خصماً للنازية . اما انا فكننت ارى انه يفتقر الى الدكاء اللازم لمن يناهض النازية ، وقد ظل يخدم هتلر حتى النهاية اذ اشغل منصب السفير في اسبانيا بين عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٥ .

وزارة الخارجية الامريكية تعرف ايضاً ما هو واقع في برلين . و اضاف قائلاً :
« والمعتقد هنا ان المانيا ستعلن الحرب على الولايات المتحدة في غضون اربع
وعشرين ساعة أو انها ستقطع علاقاتها الدبلوماسية بها (١) » .

هتلر في الرايشتاغ - ١١ كانون الأول

خصص هتلر القسم الاعظم من خطابه ، الذي ألقاه في الحادي عشر من كانون
الأول على المخلوقات « الآلية » التي تحتل مقاعد الرايشتاغ ، والذي دافع
فيه عن اعلانه الحرب على الولايات المتحدة خصمه لتوجيه الاهانات الشخصية
الى فرانكلين ديلاو روزفلت . وقد اتهم الرئيس بأنه هو الذي استفز الحرب
ليطفي فشله في سياسته الاقتصادية المسماة « بالتوزيع الجديد » او « النيوديل » ،
كما ذكر مرعداً ومزبداً ان « هذا الرجل وحده » الذي يدعّم اصحاب الملايين
واليهود هو « المسؤول عن الحرب الكونية الثانية » . وتفجّر حقّد هتلر وغضبه
الدفينان على هذا الرجل الذي وقف منذ البداية في طريقه وحال بينه وبين
الوصول الى السيطرة العالمية ، والذي ألحق به الاذى دائماً وقدم المساعدات
الضخمة الى بريطانيا في اللحظة التي بدت فيها جزيرتها محطمة معزولة وشبكة
الانهيار ، والذي وقف اسطوله درعاً في المحيط الاطلسي يفسد عليه خطته ،
ويضيع عليه آماله ... وقد استهل هتلر خطابه قائلاً :

١ - حث تومسون حكومته على اعتقال المراسلين الصحفيين الامريكيين في برلين انتقاماً من
اعتقال الحكومة الامريكية عدداً من الصحفيين الالمان في الولايات المتحدة . وتشير مذكرة لوزارة
الخارجية الالمانية وقمها وكيل الوزارة ايرنست وورمان ومؤرخة في العاشر من كانون الاول الى
ان الامر قد صدر باعتقال جميع المراسلين الامريكيين في برلين كعمل « ثاري » . وقد استثنى
من امر الاعتقال « غيدو اينديريس » كبير مراسلي « النيويورك تايمز » في برلين « نظراً لمواقفه
الودية من المانيا » على حد تعبير وكيل الوزارة المذكور ، وقد يكون هذا القول ظلماً للمرحوم
اينديريس ، الذي كان يعاني من سوء الحالة الصحية في ذلك الوقت والذي كان مرضه على
الغالب السبب في عدم اعتقاله .

« ارجو ان تسمحوا لي بتحديد موقفي من ذلك العالم الآخر ،
الذي يمثله رجل كان يؤثر ان يجري احاديثه على مقربة من نيران
المدفئة ، بينما كان جنودنا يقاتلون وسط الثلوج وفوق الجليد . انه
الرجل الذي يعتبر المسؤول الأول عن هذه الحرب .

« وقد اتفاضى عن الحملات المهينة التي كان يشنها علي هذا الرئيس
المزعوم . ولا يهمني قط ، انه يطلق علي اسم قاطع الطريق . فهذا
التعبير على أي حال لم يُصنع في اوروبا وانما صيغ في امريكا ، لأن
اوروبا تفتقر الى قطاع الطرق . يضاف الى هذا انني لا ألوم
روزفلت على اهاناته لي ، فأنا اعتبره مجنوناً ، ولا يقل في جنونه
عن سلفه ويلسون .. فهبوا أولاً يحرّض على الحرب ، ثم يزور
الاسباب ويزيفها ، ويعود بعد ذلك فيرتدي مسوح النفاق المسيحي
ثم يقود الجنس البشري ببطء ولكن باستمرار ، الى الحرب ،
مستجيراً بالله ومشهداً اياه على طهارة هجومه ، على النحو المألوف
عند قدماء الماسونيين ...

« وقد ارتكب روزفلت سلسلة من ابشع الآثام في حق القانون
الدولي . فهو يغتصب البواخر بدون حق وبصورة لا مشروعة ،
ويستولي ظمناً وعدواناً على ممتلكات الرعايا الألمان والايطاليين ، كما
يستخدم وسائل التهديد والنهب والسلب مع اولئك الذين حرّمهم
من حرياتهم عن طريق اعتقالهم . ومضت هجمات روزفلت الى
حد بعيد متحدية كل قانون وعرف دوليين ، فأصدر أمره الى
الاسطول الأمريكي بمهاجمة السفن التي ترفع العلمين الألماني والايطالي
وإغراقها ، مخالفاً بذلك كل شرعة دولية ، وأخذ الوزراء
الامريكيون يتبجحون بإغراق الغواصات الألمانية بهذه الطريقة
الاجرامية . وهاجمت الطرادات الامريكية سفن المانيا واطاليا
التجارية واستولت عليها واعتقلت ملاحها .

« وهكذا فشلت جميع الجهود التي بذلتها المانيا وايطاليا
للحيلولة دون امتداد الحرب ، وللحفاظ على العلاقات مع الولايات
المتحدة على الرغم من الاستفزات التي لا تطاق والتي ظل الرئيس
روزفلت يحترمها سنوات طويلة » .

وراح هتلر يتسائل بعد ذلك عن دوافع روزفلت لمضاعفة المشاعر المناوئة
لألمانيا الى حد الحرب . وقدم تفسيرين لها قائلا :

« انني افهم تمام الفهم ان ثمة مسافات شاسعة تفصل بين آراء
روزفلت وآرائي . فروزفلت ينتمي الى اسرة ثرية ، والى الطبقة
التي تجد الطرقات امامها في الدول الديموقراطية مفروشة بالورود .
أما انا فأنتمي الى أسرة صغيرة فقيرة ، وقد شقت طريقي بالنضال
والعمل والجهد وعندما حلت الحرب العظمى ، كان روزفلت يحتل
مركزاً مكنه من تذوق نتائجها الحسنة ليس إلا ، والتي لا يعرفها
الا اولئك الذين يفيدون على حساب دماء الآخرين . أما انا فكنت
من تلك الفئة التي تطيع الأوامر ، وعدت بالطبع من الحرب التي
خدمت فيها جندياً عادياً ، وانا في حالة من الفقر تماثل تلك التي
دخلت الحرب فيها في عام ١٩١٤ . وقد اشتركت مع الملايين في
مصائرهم ، أما روزفلت فكان مصيره مصير تلك الطبقة التي تعد
عشرة آلاف ليس إلا .

« وعندما انتهت الحرب ، حاول روزفلت تجربة حظه في
المضاربات المالية . وقد جنى الارباح الطائلة من موجات الغلاء
وعلى حساب شقاء الآخرين ، بينما كنت انا مريضاً في المستشفى
اعاني الآلام .. »

وأسهب هتلر في هذه المقارنة الفردية ، قبل ان ينتهي الى نقطته الثانية وهي
ن روزفلت قد لجأ الى الحرب لتغطية فشله كرئيس للجمهورية وقال :
« جاءت الاشتراكية الوطنية الى الحكم في المانيا في نفس

السنة التي انتخب فيها روزفلت رئيساً للجمهورية ... وهكذا تسلم الزمام في دولة تعاني وضعاً اقتصادياً سيئاً ، بينما تسلمت انا قيادة الرايخ وهو يواجه الدمار المطلق بفضل الديمقراطية ...

« وبينما حققت المانيا في ظل الاشتراكية الوطنية بعثاً لا مثيل له في الحياة الاقتصادية ، أخفق روزفلت حتى في إيجاد أي تحسن مهما كان ضئيلاً في بلاده ... وعلى المرء ان لا يدهش من هذه الحقيقة اذا اخذ بعين الاعتبار ان الرجال الذين دعاهم الى مساعدته أو الرجال الذين دعوهم للحكم بعبارة أخرى ، يمتنون الى العنصر اليهودي الذين تتركز مصالحهم دائماً في تفسيح البلاد لافي تنظيمها وانضباطها. » وكانت جميع التشريعات التي استنها روزفلت لسياسته الاقتصادية « التوزيع الجديد » خاطئة مغلوطة . وليس ثمة من شك في ان استمرار هذه السياسة الاقتصادية سيؤدي حتماً الى اخفاق الرئيس في اوقات السلم على الرغم من براعته في الجدل والنقاش . ولو وجد الرئيس في دولة اوروبية ، لتعرض حتماً وفي النهاية الى المحاكمة امام محكمة الدولة ، بتهمة الإتلاف المتعمد للثروة القومية ، وأمام محكمة مدنية عادية ، ما كان لينجو حتماً من عقابها بتهمة اتباع الاساليب التجارية الاجرامية . »

وكان هتلر يعرف ان هذا التقييم لسياسة « النيوديل » التوزيع الجديد ، يلقي تأييد الكثيرين من دعاة العزلة من الامريكيين ، كما يلقي تأييد شطر كبير من مجتمع رجال الأعمال . وقد حاول استغلاله الى اقصى حدود الاستغلال ، جاهلاً للحقيقة الواقعة ، وهي ان جميع هذه الفئات كغيرها من الفئات الامريكية ، قد سارعت يوم الهجوم على ميناء اللؤلؤ الى تأييد بلادها . وهكذا نراه يضي مشيراً الى هذه الفئات :

« وقد ادرك الكثيرون من الامريكيين هذه الحقائق وفهموها فهماً كاملاً ، وبينهم بالطبع عدد من ابرز الرجال . وهكذا اخذت

معارضة ضخمة تتجمع فوق رأس هذا الرجل . وخيل اليه ان سبيله الوحيد للخلاص يقوم في تحويل انتباه البلاد قاطبة من السياسة الداخلية الى السياسة الخارجية ... وقد شجعه على تبني هذه الفكرة من يحيط به من اليهود ... وتحلقت حول هذا الرجل جميع حقارات اليهود الشيطانية ، فمد اليها يده متعاوناً معها .

« ومن هنا نشأت الجهود المتزايدة التي بذلها هذا الرئيس الامريكي لخلق الحروب .. وتحرق في نفسه شهوة عارمة وحيدة سنوات عدة ، وهي ان تنشب الحرب في مكان ما من هذا العالم . » وعقب ذلك سرد طويل للجهود التي بذلها روزفلت في هذا الاتجاه ابتداء من خطاب « العزل الصحي » في شيكاغو عام ١٩٣٧ ، وذوى صوت هتار بعد ذلك قائلاً : « وتسيطر على هذا الرجل الآن مخاوف شديدة ، من ان يؤدي حلول السلام في اوروبا ، الى ضياع الملايين من الأموال التي انفقها على التسليح ، مما يحمل الناس الى التطلع اليه على انه « نصّاب مخادع » طالما ان ليس ثمة من يهاجم امريكا . ولهذا فقد حزم امره على ان يستفز الآخرين على مهاجمة بلاده . » واعرب الطاغية النازي عن ارتياحه لأن القطيعة قد وقعت ، وراح يحاول اشراك الشعب الالماني في شعوره هذا ... وقال :

واني لأعتقد انكم جميعاً ، قد شعرتم بالانفراج الآن ، من ان دولة واحدة على الاقل كانت البادئة في اتخاذ الخطوات اللازمة للاعتراض على هذا التشويه المخزي والفريد من نوعه للحق والحقيقة ، واني لعلى يقين من ان الحقيقة الواقعة ، المثلة في ان الحكومة اليابانية ، وقد سعت الى مفاوضة هذا الرجل سنوات طوالاً ، ملت اخيراً من سخريته بها بطريقة غير كريمة ، قد ارضت الشعب الالماني وغيره من الشعوب الكريمة في العالم ، ارضاءً عميقاً ... وعلى رئيس الولايات المتحدة ان يدرك اخيراً - واني اقول هذا لأنني اعرف حق المعرفة عقله المحدود - اننا على علم بالهدف من نضاله وهو

تخطيط الدول واحدة اثر اخرى ،

« أما الشعب الالماني فلا يطلب احساناً لا من المستر روزفلت ولا من المستر تشرشل ، فكيف يطلبه من المستر ايدن ؟ انه يريد حقه ، ولا شيء غير هذا الحق . وسيؤمن هذا الشعب لنفسه حقه في الحياة ، حتى ولو تأمر عليه الآلاف من افثال تشرشل وروزفلت ... »

« ولهذا فقد اعددت العدة اليوم ، لتسليم جوازات السفر للقائم بأعمال امريكا في بلادنا ... » (١)

وعندما وصل هتلر الى هذه النقطة ، قفز جميع اعضاء الرايشتاغ على اقدامهم ، هاتفين ، وضاعت كلماته وسط هرج ومرج اشبه ما يكون ببرج بابل .

وبعد لحظات ، أي في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، استقبل ريننتروب في احدى « وقفاته » الجمادة ، ليلاند موريس ، القائم بأعمال امريكا في برلين ، وتركه واقفاً امامه واخذ يتلو على مسامعه اعلان المانيا الحرب ، وبعد ان قدم اليه نسخة من الاعلان ، صرفه من حضرته ... وجاء في الاعلان :

« وعلى الرغم من حرص المانيا الدائم على التمسك بالقواعد التي ينص عليها القانون الدولي في علاقاتها بالولايات المتحدة ، طيلة ايام هذه الحرب ، لجأت الحكومة الامريكية اخيراً الى اعمال حربية مكشوفة ضد المانيا . ولهذا ، خلقت الحكومة الامريكية بأعمالها هذه حالة حرب بين البلدين . »

« ولهذا قررت حكومة الرايخ قطع جميع علاقاتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة ، والاعلان بأن هذه الظروف التي خلقها الرئيس

١ - توجد ترجمة جزئية لخطاب هتلر في كتاب « كلمات هتلر » اعداد غوردون برانج ص ٩٧ - و ص ٣٦٧ - ٣٧٧ .

روزفلت ، قد دفعتها الى اعتبار نفسها في حالة حرب مع الولايات المتحدة اعتباراً من هذا اليوم . (١)

وانطوى الفصل الاخير من مسرحية اليوم على قيام المانيا وايطاليا واليابان بتوقيع ميثاق ثلاثي يعلن « تصميم الدول الثلاث الذي لا يهن ، على عدم اغمد سلاحها الى ان تصل الحرب المشتركة ضد الولايات المتحدة وانكلترا الى نتيجة ناجحة » كما تعهدت ايضاً بعدم عقد أي صلح منفرد .

وهكذا نرى هتلر، الذي كان قبل اقل من ستة اشهر لا يواجه إلا دولة واحدة محاصرة هي بريطانيا في حرب بدت له وكأنها قد انتهت لمصلحته، قد دفع اعظم ثلاث دول صناعية في العالم، الى الوقوف ضده، وكان دفعه لها عن عمد وطواعية . مع علمه المطلق بأن القوة العسكرية في مثل هذه الحرب التي يخوضها معها ، تعتمد كلية ، وعلى المدى الطويل ، على القوة الاقتصادية . وتملك هذه الدول الثلاث في الوقت نفسه ، تفوقاً عديداً هائلاً في عدد رجالها على دول المحور الثلاث . ويبدو ان هتلر وقادته العسكريين وامراء بحره قد اهملوا التفكير في هذه الحقائق العارية المجردة ، في ذلك اليوم العصيب من ايام الشهر الاخير من عام ١٩٤١ .

وقد اهمل الفريق هولدر ، وهو الرئيس الحضيف لهيئة اركان الحرب ، ان يدوّن في يوميته بتاريخ الحادي عشر من كانون الاول ، ان المانيا قد اعلنت الحرب على الولايات المتحدة . واكتفى بأن يذكر حضوره عشية ذلك اليوم محاضرة القاها قبطان الماني عن « اسس الحرب البحرية بين امريكا واليابان » . ويبدو انه تعمد حصر ما تبقى من يوميته للحديث عن الانباء السيئة التي تصل باستمرار من قطاعات الجبهة الشرقية التي انهكتها الحرب . ويبدو ان افكاره لم تتسع للحديث عن ذلك اليوم الخطير ، الذي تقرر فيه ان تواجه جيوشه التي لحقها الضعف قوات جديدة ستتوافد من العالم الجديد .

ورحب أمير البحر ريدر فعلاً بخطوة هتلر الجديدة . وراح يتشاور مع

١ - المؤامرة النازية والعنوان (٨) ص ٤٣٢ - ٤٣٣ .

الفوهرر في اليوم التالي ، أي الثاني عشر من كانون الاول مؤكداً له « ان الوضع في الاطلسي سينفجر بعض الانفراج من جراء التدخل الياباني الناجح » . واندفع يتحدث عن هذا الموضوع فقال :

« وصلت انباء تقول ان امريكا نقلت بعض بوارجها من الاطلسي الى المحيط الهادي . ومن المؤكد ان امريكا ستحتاج الى بعض الوحدات الخفيفة ولا سيما من المدمرات بأعداد متزايدة في المحيط الهادي . وستكون الحاجة الى سفن النقل ماسة جداً ، مما يدعونا الى توقع نقل عدد من بواخر النقل الى المحيط الهادي ، وبذلك يشتد الضغط على ملاحه بريطانيا التجارية » .

لكن هتلر ، الذي غطس هذه « الفطسة » متظاهراً بالشجاعة المتهورة ، ما لبث ان فاء الى عقله ، وأضحى فريسة الشكوك والخاوف . وتولدت لديه اسئلة عدة أراد توجيهها الى امير البحر الاكبر ، اذ قال يسأله : « هل تعتقد ان العدو ، سيقوم بخطوات قريبة في المستقبل ، لاحتلال جزر الازور والرأس الاخضر ، ومهاجمة داكار ، ليستعيد بعض هيئته التي فقدتها ، نتيجة ما مني به من نكسات في المحيط الهادي ؟ » ولكن امير البحر لم يكن يشاركه مخاوفه هذه فرد قائلاً :

« ستجد الولايات المتحدة نفسها مرغمة على تركيز كل ما لديها من قوى في المحيط الهادي في غضون الاشهر القليلة القادمة . ولا تود بريطانيا حتماً كذلك ان تغامر بأية وحدات جديدة بعدما منيت به من خسائر في بوارجها الضخمة . ^(١) ولا يحتمل مطلقاً ان تكون

١ - كانت الطائرات اليابانية قد اغرقت قبل يومين اي في العاشر من كانون الاول بارجتين بريطانيتين هما « الامير ويلز » و « ريبالس » ، على مقربة من ساحل الملايو . وادت هذه الخسارة الجسيمة مع ما مني به الاسطول الامريكي من خسائر في سفنه الحربية في ميناء اللؤلؤ في السابع من كانون الاول ، الى التفوق الكامل للاسطول الياباني في المحيط الهادي وبحر الصين والمحيط الهندي . وكتب تشرشل فيما بعد ، يصف هذه الخسارة بقوله : « لم اطلق طيلة ايام الحرب مثل تلك الهزة المباشرة » .

البواخر متوافرة لدى الدولتين للقيام بهذه المهام الاحتلالية أو لنقل المؤن الى هذه القوات المحتلة »

وكان ثمة سؤال آخر ، اكثر أهمية .. فقد قال هتلر : « وهل تعتقد ان هناك احتمالاً في ان تتخلى بريطانيا والولايات المتحدة مؤقتاً عن شرق آسيا ، وان تركزا اهتمامهما على سحق المانيا وايطاليا اولاً ؟ » ورأى امير البحر ثانية ان واجبه يقضي بتطمين هتلر فقال :

« أرى ان ثمة استحالة في ان يتخلى العدو عن شرق آسيا ولو مؤقتاً ، اذ ان مثل هذا التخلي يعرض مركز بريطانيا في الهند لخطر جسيم ، ولاستطيع الولايات المتحدة في الوقت نفسه سحب اسطولها من المحيط الهادي ، طالما ان الاسطول الياباني هو صاحب اليد العليا في هذا المحيط . »

وحاول ريدير كذلك ، ان يبعث المرح في نفس الفوهرر فأبلغه ان ست غواصات المانية « ضخمة » ستمضي « في اسرع وقت ممكن » الى ساحل الولايات المتحدة الشرقي . (١)

وانصرفت افكار القائد الأعلى ، وقادته العسكريين على الفور عن العدو الجديد ، الذي كانوا على ثقة من انشغاله حتى اذنيه في المحيط الهادي ، الى الامعان في دراسة الوضع السيئ في الجبهة الشرقية وكذلك في الجبهة الافريقية الشمالية ، حيث كان رومل قد اضطر ايضاً الى التراجع والانسحاب . ولم يقدر لأفكارهم ان تعود الى هذه الناحية الجديدة ، الا بعد انصرام عام واحد ، هو اكثر اعوام الحرب حسماً وقدرية ، اذ وقعت فيه نقطة التحول الفاصلة ، التي لم تكتف بتقرير مصير الحرب التي كان الالمان قد اعتقدوا طيلة عام ١٩٤١ انهم قد كسبوا ، وانما قررت كذلك مصير الرايخ الثالث ، الذي رفعته انتصاراته المذهلة في اوائل الحرب ، بسرعة خارقة الى مكانة رفيعة جداً ، دفعت هتلر الى الاعتقاد

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية (١٩٤١) ص ١٢٨ - ١٣٠ .

مخلصاً ، بأنه - أي الرايخ - سيظل مزدهراً الف عام .
وعندما هلّ مطلع العام الجديد - ١٩٤٢ - كانت تدوينات هولدر في يومياته
قد تحولت الى التشاؤم ، اذ كتب يقول في يوميته بتاريخ الثلاثين من كانون الأول
عام ١٩٤١ وفي اليوم الذي تلاه ، وهو آخر ايام السنة .. « يوم آخر قاتم كل
القتام » . ويبدو ان حاسة رئيس هيئة اركان الحرب السادسة قد دفعته الى توقع
اشياء اكثر هولاً وفظاعة .

نقطة التحول العظيمة - ١٩٤٢ ستالينغراد والعالمين

عودة المتآمرين الى الحياة

اضرمت النكسات الشديدة التي منيت بها جيوش هتلر في روسيا في غضون شتاء عام ١٩٤١ - ١٩٤٢ ، وصرف عدد من « مشيري » هتلر و « فرقائه » من الخدمة ، الامال من جديد في نفوس المتآمرين على عهد هتلر .

وكان هؤلاء قد اخفقوا في بعث الاهتمام في نفوس كبار القادة العسكريين ، للاشتراك في ثورة ، طالما ان جيوشهم كانت تحطم كل ما امامها ، محقة نصراً سهلاً ، وراء آخر ، وطالما ان ايجاد السلاح الالماني ، والرايخ الالماني كانت تحلق الى السماء . اما الآن فقد أخذ الجنود المتعجرفون والذين لا يعرفون الهزيمة ، يتراجعون في الثلوج وفي زمهرير الجو امام عدو برهن على كفايته وقدرته على الوقوف ندأ ، وتجاوزت الخسائر في ستة اشهر اكثر من مليون رجل ، بينما صرف من الخدمة عدد من أشهر القادة العسكريين وتعرض بعضهم من امثال هوبنر وسبونيك للعار ، بينما لحق الاذلال بالآخرين واعتبروا اكباش الفداء من الطاغية الذي لا يرحم .^(١)

١ - في وسعنا ان نذكر ان قائمة القادة الذين اُحيلوا الى التقاعد ، تضمنت المشير فون =

وانهى فون هاميل يوميته بتاريخ الواحد والعشرين من كانون الاول عام ١٩٤١ بقوله : « لقد بات الوقت ناضجاً ومناسباً . وكان هاميل وزملاؤه المتآمرون على يقين من ان فيلق الضباط البروسيين سيثار من المعاملة السيئة التي يتعرض لها ، ويثور على جنون القائد الاعلى الذي يقودهم ويقود جيوشهم الى شفير الكارثة . في الحرب الروسية . وكان المتآمرون قد اقتنعوا منذ عهد بعيد ، كما رأينا من قبل ، بأن القادة العسكريين الذين يتولون قيادة القوات المحاربة هم وحدهم الذين يملكون السلطان الفعلي للطاحاة بالطاغية النازي . وها هي الفرصة متاحة لهم اليوم قبل ان يفوت الاوان . وعامل التوقيت مهم كل الهمية . ولم يعد في امكان المانيا بعد النكسات التي منيت بها في روسيا ودخول امريكا في حلبة الصراع ان تكسب الحرب . ولكنها لم تحسرها بعد . ففي وسع حكومة مناهضة للنازية في برلين ان تحصل على شروط مؤاتية ، تترك المانيا دولة قوية ، وفي حوزتها بعض المكاسب التي حققها هتلر كالنمسا وبلاد السويد وبولندا الغربية .

= براونش القائد العام للجيش والمشير فون رونشتادت والمشير فون بوك ، وهما قائدا مجموعتي جيوش الجنوب والوسط . والفريق غودريان عبقري حرب الدبابات . وسرعان ما لحق بهؤلاء قائد مجموعة جيوش الشمال ، المشير فون ليب ، الذي صرف من الخدمة في الثامن عشر من كانون الثاني عام ١٩٤٢ - ومات المشير فون راينهاو الذي خلف رونشتادت في قيادته في اليوم الذي سبق هذا التاريخ متأثرا من نوبة قلبية . ومات الفريق اوديت من قادة سلاح الطيران منتحرا باطلاق النار على نفسه في السابع عشر من تشرين الثاني عام ١٩٤١ . ونحي نحو من خمسة وثلاثين قائدا من قادة الفياق والفرق من مناصبهم واستعيض عنهم بأخرين اثناء تراجع الشتاء .

ولم تكن هذه الا البداية . ولخص المشير فون مانشتاين ما وقع للقادة اثناء شهادته في محكمة نورمبرغ ، عندما شرعوا يخسرون المعارك او وجدوا اخيرا الجراءة الكافية لمعارضة هتلر . وقال المشير للمحكمة ... (ان عشرة من مجموع سبعة عشر مشيرا . قد سرحوا الى منازلهم ابان الحرب ، ولقي ثلاثة منهم حتفهم نتيجة المؤامرة على حياة هتلر في العشرين من تموز عام ١٩٤٤ . ولم يتمكن الا مشير واحد من البقاء في مركزه حتى نهاية الحرب . واحيل لثمانية عشر فريقا من مجموع ستة وثلاثين على التقاعد ، ومات خمسة منهم نتيجة مؤامرة ، او اقبلوا من مناصبهم طردا . وتمكن ثلاثة من الفرقاء من البقاء في مراكزهم حتى نهاية الحرب .) محاكمات كبار مجرمي الحرب (٢٠) ص ٦٢٥ .

وكانت هذه الافكار تسيطر على عقولهم في صيف عام ١٤٩١ ، حتى عندما كانت الآمال في تحطيم الاتحاد السوفياتي ، لا تزال مشرقة وقائمة . وجاء نص ميثاق الاطلسي الذي اصدره روزفلت وتشرشل في التاسع عشر من شهر آب ، ضربة قاسية لهم ، ولا سيما المادة الثامنة منه التي اشترطت نزع السلاح من المانيا بعد الحرب الى ان يتم الوصول الى اتفاق عام لنزع السلاح . وعنت هذه المادة بالنسبة لهاسيل وغويردلر وبيك وغيرهم من اعضاء حلقة المقاومة ان الحلفاء لا ينوون التمييز بين المانيا النازية وبين المانيا المناهضة للنازية، وانها برهان كما قال هاسيل - على ان انكلترا وامريكا لا تحاربان هتلر فحسب، وانما ترغبان في تحطيم المانيا وجعلها دولة لا حول لها ولا طول . ورأى هذا السفير الارستقراطي السابق ، الذي كان والفا حتى رأسه في خيانة هتلر الآن ، والذي كان يريد ان يحصل على اكثر ما يمكنه الحصول عليه لالمانية الجديدة التي لا يوجد هتلر فيها ، في المادة الثامنة ، طبقاً لما دونه في يومياته « تحطيماً لكل فرصة معقولة في السلام » . (١)

وعلى الرغم من ان ميثاق الاطلسي ، قد خيب آمال المتآمرين ، الا ان اذاعته ، حشتهم على العمل ، اذ بينت لهم ضرورة التخلص من هتلر ، قبل ان يفوت الاوان على قيام عهد مناوئ للنازية يستطيع ان يساوم مساومة ناجحة للحصول على صلح لألمانيا التي لا تزال تحتل معظم انحاء اوروبا . ولم يكونوا يعارضون في استخدام فتوحات هتلر للحصول على الافضل الشروط لبلادهم واسفرت سلسلة المحادثات التي دارت في برلين ابان الايام الاخيرة من شهر آب بين هاسيل وبويتز واوستر ودوهناني والفريق فريدريك اولبرخت رئيس اركان جيش الوطن عن تعهد « الوطنيين الألمان » كما كانوا يلقبون انفسهم بتقديم « مطالب معتدلة للغاية » الى الحلفاء ولكن هناك بعض المطالب ، على حد تعبير هاسيل التي « لا يمكن لهم ان يتراجعوا عنها » . لم يحدد هاسيل هذه المطالب

التي لا يستطيعون التراجع عنها ، ولكن في وسع المرء ان يستخلص من يومياته
الباقية ، انها تشمل الاصرار على المطالبة بحدود المانيا لعام ١٩١٤ في الشرق
مع اضافة النمسا وبلاد السويد اليها .

لكن الوقت لم يكن يتحمل أي تأجيل او ابطاء ، وقد دون هاسيل بعد
مؤتمر عقده مع شركائه في نهاية شهر آب ، في يوميته يقول : « انهم جميعا متفقون
على ان الوقت يسابقنا . وعندما تغدو فرصنا في النجاح طفيفة او تختفي من
الوجود ، فلن يبقى أمامنا الكثير مما نستطيع عمله ^(١) » .

وبذل المتآمرون بعض الجهود مع كبار القادة العسكريين في الجبهة الشرقية
لاقناعهم باعتقال هتلر إبان حملة الصيف في روسيا . وعلى الرغم من ان الجهود لم
تحقق اكلها في هذه المرحلة ، اذ ان كبار القادة كانوا غارقين في الانتصارات
الأولية المدهشة التي حققوها ، بحيث كان من المتعذر عليهم حتى التفكير في
الانقلاب على الرجل الذي أتاح لهم الفرصة لتحقيق هذه الانتصارات ، إلا ان
بدورها ظلت مخفية في عقول العسكريين بحيث قدر لها ان تنمو في النهاية .

وتركزت المؤامرة في ذلك الصيف في مقر قيادة المشير فون بوك ، الذي
كانت جيوشه في الجبهة الوسطى تستهدف موسكو في زحفها . وكان رأس
المتآمرين هنا اللواء هينينغ فون تريسكو من أركان حرب المشير بوك ، الذي
انقلب حماسه السابق للاشتراكية الوطنية الى عداوة دفعه الى الانضمام الى المتآمرين
ويساعده فابيان فون شلابريندورف مرافقه العسكري ، ومتآمران آخران
فرضا على بوك كمرافقين له هما الكونت هانز فون هاردنبرغ ، والكونت
هنريخ فون ليهندورف ، وكلاهما ينتميان الى أسرتين المائيتين قديمتين وبارزتين ^(٢)
وكان بين المهام التي عهدت اليهما اقناع المشير باعتقال هتلر في إحدى زياراته
لمقر قيادة الجيوش الوسطى . ولكن كان من الصعب اقناع بوك . وعلى الرغم
من ادعاءاته السابقة باحتقار النازية إلا انه كان قد ارتقى سريعا في ظلها ، وكان

١ - يوميات فون هاسيل ص ٢٠٩ .

٢ - اعدام النازيون ليهندورف في الرابع من ايلول عام ١٩٤٤ .

من الفرور والطموح على درجة كبيرة بحيث لم يستطع ان يغامر في هذه المرحلة. وعندما حاول تريسكو ذات يوم ان يلفت نظره الى ان الفوهرر يقود البلاد الى الكارثة رد عليه بوك صارخاً « انا لا أسمح لأحد بمهاجمة الفوهرر »^(١).

واسقط في يد تريسكو ومرافقه الشاب ولكنهما لم يياسا . وعندما قام الفوهرر بزيارة مقر قيادة مجموعة جيوش الوسط في الرابع من آب عام ١٩٤١ ، في بلدة بوريسوف ، وضع الضابطان خططها لاعتقال الفوهرر وهو في سيارته من المطار الى قيادة بوك . ولكن المتآمرين كانوا لا يزالان من الهواة ، ولم يكونا قد حسبا حساباً لترتيبات الأمن التي يتخذها الفوهرر . ولم يتح هتلر للضابطين المتآمرين الفرصة للاقتراب منه ، اذ وصل الى المطار يحيط به حرسه الخاص من الحرس النازي ، ولم يستعمل احدى السيارات العسكرية التي جاءت الى المطار لاستقباله ، وانما استخدم اسطول سيارته الخاص الذي أوفد الى المطار قبل وصوله . وقد علمت هذه القصة المتآمرين من رجال الجيش بعض الدرس ، واوها ، أن الوصول الى هتلر ليس بالأمر السهل ، اذ ان الحراسة عليه شديدة دائماً . أما الدرس الثاني فهو ان وضع اليد على الفوهرر واعتقاله قد لا يحل المشكلة ، طالما ان الفرقاء المهمين إما ان يكونوا جنباء والى حد كبير ، أو متمسكين بقسم الولاء الذي اقسموه ، بحيث يتعذر عليهم ان يساعدوا المتآمرين في تنفيذ خططهم . ولا ريب ان بعض المتآمرين الشبان ، وهم من المدنيين الذين ارتدوا الآن الملابس العسكرية من أمثال شلابريندورف قد توصلوا الآن أي في خريف عام ١٩٤١ ، وهم برمون ، الى الاستنتاج القائل بأن الطريقة المثلى للخلاص من هتلر وقد تكون الطريقة الوحيدة ، هي قتله . ففي مثل هذه الحالة يمكن للقادة العسكريين الجنباء وقد تحرروا من قسم الولاء للزعيم ان يسيروا مع العهد الجديد ، وان يضمنوا له دعم الجيش وتأيينه .

ولكن قادة المؤامرة في برلين لم يكونوا على أهبة بعد للمضي الى هذا الحد .

١ - شلابريندورف - ص ٣٦ .

وكانوا يحكيون مؤامرة حمقاء اطلقوا عليها اسم « العمل المنزل » ، واعتقدوا لسبب او لآخر ان هذه المؤامرة سترضي ضمائر الفرقاء من ناحية الايمان التي اقساموها بالولاء للفوهرر ، وفي الوقت نفسه تخلص الرايخ من ادولف هتلر . ومن الصعب حتى في هذا اليوم ، ان نتابع افكارهم في هذا الموضوع ، وكل ما عرفناه هو أنهم اعتقدوا ان كبار القادة العسكريين سواء في الشرق او في الغرب ، سيرفضون عندما يتلقون اشارة اتفق عليها ، اطاعة اوامر هتلر بوصفه القائد الأعلى للجيش . وكان هذا الترتيب يعني نكثهم بيمينهم للفوهرر . ولكن هؤلاء السفسطائيين في برلين ادعوا انهم لا يرون هذه الحقيقة . وذكروا ان الهدف الحقيقي من الخطة على أي حال خلق الاضطراب ، مما يسهل السبيل أمام بيك بمساعدة فصائل من الجيش الداخلي في برلين للاستيلاء على السلطة وخلع هتلر ، وعلان الحركة الاشتراكية الوطنية حركة لا قانونية .

ولم يكن الجيش الداخلي في الحقيقة قوة عسكرية صحيحة ، وانما كان مجموعة غربية من المجندين الذين بعد ان يؤدوا بعض التدريب العسكري الأساسي ، يوفدون الى الجبهة ليحلوا محل القتلى او انفقودين من رجالها . وتطلب نجاح المغامرة ، ضمان تأييد بعض كبار القادة في روسيا أو في البلاد المحتلة ، الذين يسيطرون على بعض القوات المؤقتة . وبدا للمتآمرين ان خير من يصلح لهذه المهمة ، هو ذلك القائد الذي اشترك مع هولدر في المؤامرة الرامية للقبض على هتلر إبان ازمة ميونيخ ، وهو المشير فون ويتزليبين الذي بات الآن قائداً عاماً في الجبهة الغربية . وقرر المتآمرون ايفاد فون هاسيل في اواسط كانون الثاني عام ١٩٤٢ لضمات اشتراكه في المؤامرة مع الفريق فون فالكنهاوزن القائد العسكري في بلجيكا ، وللتشاور معها . واستخدم السفير السابق ، الذي بات مراقباً من القسطنطينية ، ستار القيام بجولة لالقاء محاضرات يخطب فيها جماعات الضباط وموظفي الاحتلال في موضوع « المجال الحيوي والاستعمار » . وتمكن بين المحاضرات من التشاور بصورة سرية مع فالكنهاوزن في بروكسل ومع ويتزليبين في باريس ، متلقياً من الرجلين انطباعات طيبة ، ولا سيما من القائد الأخير .

وكان المشير قد أحس بالألم لاختفائه عن الأضواء في فرنسا بينما يخوض رفاقه من المشيرين معارك عظيمة في روسيا ، فكان تواقاً للعمل . وقد اعرب هاسيل عن رأيه في ان خطة « العمل المنغل » التي وضعوها خطة خيالية طوبائية . وأكد ان العمل المباشر هو السبيل الوحيد . وكان على استعداد لإداء دور بارز . وكان خير وقت لتوجيه الضربة على الغالب ، الصيف القادم ، عندما يستأنف الهجوم الألماني في روسيا . واعتزم اعداداً منه لذلك اليوم العظيم ان يكون في أحسن حالاته الصحية ، وقرر لذلك اجراء عملية جراحية بسيطة . ومن سوء حظ المشير وشركائه ، ان هذا القرار أدى الى عواقب مفرجة . فقد كان ويتزليبين يشكو كما يشكا فريدريك الأكبر وكثيرون غيره من قبل ، من ألم « البواسير ^(١) » . وكانت العملية اللازمة للشفاء من هذا المرض من النوع العادي الرتيب في دنيا الجراحة ، ولكن عندما طلب ويتزليبين في الربيع اجازة قصيرة لاجراءها والخلاص من الآلام الشديدة التي يعانيتها ، اغتم هتلر هذه الفرصة ، فأحال المشير الى التقاعد من الخدمة الفعلية ، وعيّن خلفاً له ، المشير رونشتادت ، الذي لا يميل الى التآمر ضد الزعيم الذي عامله قبل قليل ، معاملة سيئة . وهكذا وجد المتآمرون ان أملهم الكبير في الجيش قد غدا مشيراً بلا جنود تحت قيادته . ولم يكن في الامكان اقامة عهد جديد من الحكم بلا جنود .

واسقط في يد قادة المؤامرة . وواصلوا عقد اجتماعاتهم السرية ، والحديث عن المؤامرة ، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على ما لحق بهم من يأس . ودون فون هاسيل في يومياته في نهاية شباط عام ١٩٤٢ ، بعد واحد من هذه الاجتماعات التي لا عد لها ولا حصر قائلاً : « يبدو في هذه اللحظة اننا عاجزون عن ان نفعل شيئاً مع هتلر ^(٢) » .

ولكن كان في امكانهم ان يفعلوا الكثير في موضوع تقويم افكارهم بصدد

١ - كان ملك بروسيا كثيراً ما يشكو من هذا المرض الذي اثر على قواه العقلية وعلى نشاطه البدني ايضاً .

٢ - فون هاسيل - مذكرات - ص ٢٤٣ .

طراز الحكومة التي يريدون اقامتها في المانيا بعد خلع هتلر وتقوية الحالة المعبرة التي يجدون انفسهم فيها ، وتوطيد أركان المنظمة غير المجدية التي ينتمون اليها بحيث تستطيع تسلم زمام الحكم عندما تحين الساعة .

وكان معظم زعماء المقاومة من المحافظين والطاعنين في السن ، ولذا فقد كانوا يتوقعون قبل كل شيء الى اعادة ملكية « الهوهنزولرن » الى المانيا . ولكنهم ظلوا مختلفين امدأ طويلاً ، على الأمير الذي سيرفعونه الى العرش . وكان بوبيتز وهو أحد كبار المدنيين من المتآمرين ، يود اعادة ولي العهد المكروه لدى معظم رفاقه ، أما شاخت فكان يؤثر النجل الأكبر لولي العهد ، أمير ويلهم ، بينما يفضل غويردلر النجل الأصغر من أبناء القيصر غليوم الثاني ، وهو الأمير اوسكار أمير بروسيا . واتفقوا جميعاً على استبعاد الابن الرابع للقيصر وهو الامير اوغست ويلهم ، أو « اووي » كما يسمونه ، اذ كان من غلاة المتعصبين للنازية ويشغل منصباً بارزاً في الحرس النازي .

وعندما حل صيف عام ١٩٤١ ، كانتمة شبه اتفاق ، على ان خير مرشح للعرش هو لويس - فرديناند ، النجل الثاني والأكبر من الاحياء لولي العهد (١) . وكان هذا الامير آنذاك في الثالثة والثلاثين من عمره ، وقد عمل نحواً من خمس سنوات في مصانع فورد في ديربورن ، وبات يعمل الآن موظفاً في شركة طيران « لوفتهانزا » ، وكان على اتصال بالمتآمرين ، ولذا فقد نال اعجابهم جميعاً ، وغدا افضل المرشحين من امراء الهوهنزولرن للعرش ، نظراً لفهمه عقلية القرن العشرين ، وذكائه وميوله الديموقراطية . يضاف الى هذا ، ان الامير كان متزوجاً من أميرة روسية اسمها « كيرا » وهي «غراندوقة سابقة» وتتميز بسعة ادراكها وشجاعتها ، كما كان ، وهذا أمر مهم بالنسبة للمتآمرين في هذه المرحلة ، صديقاً شخصياً للرئيس روزفلت الذي سبق له ان دعا الزوجين الى الإقامة في البيت الابيض عندما كانا يقضيان شهر العسل في امريكا في عام ١٩٣٨ .

١ - قتل الامير ويلهم النجل الأكبر لولي العهد في احدى معارك فرنسا في ٢٦ ايار عام ١٩٤٠ .

ولم يكن هاسيل وبعض اصدقائه على يقين مطلق ، من ان لويس - فرديناند هو المرشح النموذجي . وقد علق بقسوة في يوميته التي دوّنها في عيد ميلاد عام ١٩٤١ ، عليه بقوله : « انه يفتقر الى كثير من المزايا ، التي لا يستطيع العمل بدونها » . ولكنه اراد ان يجاري شر كاءه فوافق عليه .

وكان هاسيل يحصر جل اهتمامه في شكل الحكومة الألمانية المقبلة وطبيعتها . وكان قد أعد في وقت مبكر من ذلك العام . بعد التشاور مع الفريق بيك ومع غويردلر وبوبيتز برنامجاً للفترة الانتقالية ، سرعان ما عاد الى تعديله ، في مشروع آخر أعده في نهاية عام ١٩٤١ ^(١) . وتضمن المشروع اعادة الحرية الفردية . وان يسند بالسلطان الأعلى في هذه الفترة التي يعد إبانها الدستور الجديد الى وصي يكون رئيس الدولة ، ويعيّن حكومة ومجلساً للدولة . وهكذا كان هذا المشروع « جماعياً » في طبيعته ولذا فقد عارضه غويردلر والنقابيون من المتأمرين ، واقترحوا بديلاً له اجراء استفتاء فوري ، بحيث تستطيع الحكومة المؤقتة الاستناد الى التأييد الشعبي واقامة الدليل على طبيعتها الديمقراطية . ولكن بالنظر الى افتقار المتأمرين الى خطة افضل من مشروع هاسيل ، فقد قبلوا به بصورة عامة ، كبيان سياسي مؤقت على الأقل يشرح الاهداف ، الى ان تم في عام ١٩٤٣ ، تحت ضغط « حلقة كريساو » التي يتزعمها الكونت هيلموت فون مولتكه ، وضع برنامج اكثر ليبرالية وتحرراً .

واتفق المتأمرون اخيراً في ربيع عام ١٩٤٢ ، على اختيار زعيم رسمي لهم . وكانوا قد اعترفوا جميعاً بالفريق بيك زعيماً لهم ، لا بالنسبة الى سعة مداركه وقوة شخصيته فحسب ، بل وبالنسبة الى ما يتمتع به من مكانة بين القادة العسكريين ، وشهرة في البلاد وخارجها . ومع ذلك ، فقد كانوا على شيء كبير من فتور الهمة ، حتى انهم تهاونوا في تنظيم أنفسهم وفي تسليمه مقاليد القيادة .

١ - يوجد نص المشروع الاول الذي اعد في كانون الثاني - شباط عام ١٩٤٠ في يوميات هاسيل . ص ٣٦٨ - ٣٧٢ . اما نص المشروع الثاني الذي اعد في نهاية عام ١٩٤١ ففي كتاب ويلر - بنيت - نقمة السلطان - الملحق (ا) ص ٧٠٥ - ٧١٥ .

وعلى الرغم من ان البعض وفي طليعتهم هاسيل كانوا معجبين اشد الاعجاب
بالفريق ، ويجلّونه اكبر اجلال ، إلا انهم كانوا يشكون فيه بعض الشكوك .
وقد دوّن هاسيل في يومياته ، قبيل عيد ميلاد عام ١٩٤١ يقول ان
« المشكلة الرئيسية عند بيك ، هي انه انسان نظري . ولا ريب في ان بويتر
كان صادقاً عندما وصفه بأنه رجل بارع في الأساليب « التكتيك » ، ولكنه
ضعيف في العزم والإرادة . وقد اثبتت الأحداث فيما بعد ، ان هذا الحكم كان
صحيحاً ، وان طبيعة الفريق التي تتميز بالمراوغة ، وافترقاره الى الحسم في بت
الأمر والحزم في العمل ، قد اديا الى نتائج مفعجة ومحنة في النهاية .

ومع ذلك فقد قرر المتآمرون بعد عدة جلسات سرية عقدوها ، في آذار عام
١٩٤٢ ، اسناد القيادة الى بيك ، ودوّن السفير السابق هاسيل في يومياته انهم
قرروا في نهاية ذلك الشهر « اختياره زعيماً رسمياً للجماعة » (١)

ومع ذلك ظلت المؤامرة اقرب الى الخيال منها الى الواقع ، ويبدو هذا الجو
من اللاواقعية الذي أحاط حتى بأكثر الاعضاء فيها حيوية منذ البداية ، مسيطراً
على جميع أحاديثهم ومشاوراتهم التي لا تنتهي ، كما يتبين لكل من يتابع اخبارهم
في السجلات التي خلفوها ، وكانوا يعرفون ان هتلر يعتزم استئناف الهجوم في
روسيا في الربيع فور جفاف الأرض . واعتقدوا ان هذا الهجوم لن يؤدي إلا
الى المزيد من غرق المانيا في اللجة التي دخلتها . ومع انهم اكتروا من الحديث ،
إلا انهم ظلوا يفتقرون الى العمل . وجلس فون هاسيل في الثامن والعشرين من
آذار ١٩٤٢ ، في دارته في اينهاوزن يدوّن في يوميته :

« جرى حديث طويل في برلين في الأيام الأخيرة مع جيسين (٢) .

١ - فون هاسيل . يوميات ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

٢ - كان جينز بطرس جيسين استاذ علم الاقتصاد في جامعة برلين ، من ادمغة المؤامرة .
وكان قد تحول الى نازي متعصب في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣١ و ١٩٣٣ ، واصبح أحد
المثقفين العباقرة في الحزب . ولكن سرعان ما طاشت احلامه ، وخابت آماله بعد عام ١٩٣٣ ،
وتحول بسرعة الى خصم عنيد للنازية ، وقد اعتقل بتهمة الاشتراك في المؤامرة على حياة =

وكذلك مع بيك وغويردلر . ويبدو ان الأمل ضعيف » (١) .
وكيف يمكن لهذه الآمال ان تكون مشرقة ؟ ان المتأمرين يفتقرون حتى الى
خطة العمل ، في هذا الوقت ، وقبل ان يفوت الأوان .
ولكن ادولف هتلر ، هو الذي كان قد أعد خطته ، لهذا الربيع الثالث من
الحرب ، وكانت لديه الارادة الشرسة لتنفيذ هذه الخطط .

آخر هجوم الماني عظيم في الحرب

على الرغم من ان حماقة الفوهرر ، في رفض السماح للجيش الألمانية بالتراجع
في روسيا في الوقت المناسب ، قد أسفرت عن خسائر كبيرة في الرجال والمعدات ،
وأدت الى الانهيار المعنوي في بعض القيادات والى وضعٍ ظل يهدد لبضعة اسابيع
من شهري كانون الثاني وشباط من عام ١٩٤٢ بالوصول الى كارثة كلية ، الا ان
الشيء الثابت الذي لا يتطرق اليه الشك ، هو ان تصميم الفوهرر المتعصب على
الصمود والقتال ، قد ساعد في وقف التيار السوفيياتي . وتولت الشجاعة
المأثورة عن الجندي الألماني وتحمله الشدائد ، ما تبقى من المهمة .

ولم يحل العشرون من شباط حتى كان الهجوم الروسي من البلطيق حتى
البحر الأسود قد فقد قوة اندفاعه ، وعندما حلت نهاية آذار ، كان فصل
الوحوّل قد جاء وأدى الى هدوء نسبي في الجبهة الطويلة الدامية . ولحق الأعياء
بالفريقين . وحسر تقرير عسكري الماني صدر في الثلاثين من آذار عام ١٩٤٢ ،
النقاب عن الضريبة الباهظة التي دفعها الألمان في حرب الشتاء . فقد ذكر هذا
التقرير ان ثمانى فرق فقط من مجموع (١٦٢) فرقة محاربة في الشرق قد حافظت
على طاقاتها الهجومية . ولم يبق لدى الفرق الست عشرة المدرعة إلا نحو من

= هتلر في ٢٠ تموز عام ١٩٤٤ ، ونفذ فيه حكم الاعدام في سجن « بلويتزنسيه » في تشرين
الثاني من ذلك العام .

١ - فون هاسيل - يوميات ص ١٤٧ .

(١٤٠) دبابة صالحة للخدمة وهو أقل من العدد الموجود في فرقة واحدة في العادة (١) .

وراح هتلر ، الذي بات الآن ، القائد العام للجيش الألماني بالاضافة الى منصبه كقائد أعلى للقوات المسلحة ، يشغل نفسه في إعداد الخطط اللازمة لهجوم الصيف المنتظر ، بينما كانت قواته تخذل الى الراحة ، والى اعادة تنظيم نفسها ، بل وقبل ذلك حين كانت تترجع في ثلوج الشتاء . ولم تكن خططه هذه المرة على نفس الدرجة من الطموح التي كانت لديه في العام المنصرم . ولكن يبدو انه فاء الآن الى عقله ، وأدرك انه ليس بوسعها تحطيم جميع قوات الجيش الأحمر في حملة واحدة . وقرر ان يحشد جماع قواته في هذا الصيف في الجنوب ، وان يحتل حقول زيت القفقاس ، وحوض الدونتس الصناعي ، وحقول الخنطة في كوبان واحتلال ستالينغراد على نهر الفولغا . وكان من المنتظر ان يؤدي هذا الهجوم الى عدة اهداف رئيسية . فهو يحرم الروس من الزيت ومن الكثير من المواد الغذائية والصناعية التي يحتاجون اليها للمضي في الحرب بينما يتيح للألمان الحصول على ما هم بحاجة ماسة اليه من زيت ومن مواد غذائية .

ولقد صرح هتلر للفريق باولوس قائد الجيش الألماني السادس السبيء الحظ قبيل بدء هجوم الصيف بقوله : « اذا لم يتح لي ان احصل على زيت ميكوب وغروزني ، فإني سأضطر الى انهاء هذه الحرب » (٢)

وكان في وسع ستالين ان يقول نفس هذا القول ايضاً . فهو في حاجة الى زيت القفقاس ليستطيع المضي في الحرب . وهنا تقوم أهمية ستالينغراد . فاحتلال الألمان لها ، يفلق أمام الروس آخر طريق عبر بحر قزوين وبحر الفولغا ،

١ - كتاب وزارة الحربية الامريكية عن الحملة الالمانية في روسيا - التخطيط والعمليات ١٩٤٠ - ١٩٤٢ ص ١٢٠ . وتستند هذه الدراسة الى حد كبير على وثائق الجيش الالمانسي المصادرة والمذكرات التي أعدها قادة الجيش الالمانسي للحربية الامريكية بعد الحرب ، والتي لم قدم للمدنيين وان كنت مدينا بالفضل لدائرة التاريخ الحربي في وزارة الحربية الامريكية .

٢ - محاكمات كبار مجرمي الحرب (٧) ص ٢٦٠

وهي الطريق التي يمكن بواسطتها وصول الزيت الى روسيا الوسطى طالما ان جنودها يسيطرون على آبار الزيت .

واحتاج هتلر بالاضافة الى الزيت اللازم لتحريك طائراته ودباباته وشاحناته الى الرجال لسد الفراغ في صفوف قواته التي غدت مفتقرة الى الكثافة . وبلغت الخسائر الاجمالية في نهاية حرب الشتاء (١٩٣٥ و ١٩٦٧) مع استثناء المرضى ، ولم يكن لديه عدد متوافر من الجنود ، يسد الفراغ الذي خلفته هذه الخسائر . وتحولت القيادة العامة الى حلفاء المانيا أو على الأصح الى اتباعها ، طالبة منهم قوات اضافية . وهرع الفريق كايتمل إبان الشتاء الى بودابست وبوخارست ، لتجميع الجنود الرومانيين والهنغاريين وحشد فرق كاملة منهم ، للصيف المقبل . وناشد غورنغ واخيراً هتلر نفسه موسوليني ارسال وحدات ايطالية .

ووصل غورنغ الى رومة في نهاية كانون الثاني عام ١٩٤٢ ، ليؤمن حصول المانيا على نجدات ايطالية لقواتها في روسيا . مؤكداً لموسوليني ان الاتحاد السوفياتي سيهزم في هذا العام وان بريطانيا العظمى ستلقي سلاحها في عام ١٩٤٣ . ووجد شيانو ان مشير الرايخ البدين المولع بالأوسمة بات من النوع الذي لا يطاق . ودون في يومياته بتاريخ الثاني من شباط ان المشير « كعادته منتفخ الأوداج ، ثقيل الظل » ثم قال :

« وبعد يومين يغادر غورنغ رومة . تناولنا العشاء في فندق اكسلسيور ، وظل غورنغ يتحدث طيلة العشاء عن المجوهرات التي يملكها . وبالفعل كان يضع عدداً من الخواتم الجميلة في أصابعه ... وكان يرتدي ونحن في الطريق الى المحطة معطفاً من فرو السمور هو وسط بين ما كان يرتديه سائقو السيارات في عام ١٩٠٦ ، وما ترتديه عاهر من الدرجة الاولى عندما تذهب الى دار الاوبرا » (١)

١ - يوميات شيانو . ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

وكان فساد الرجل الثاني في الرايخ واهتراؤه يزيدان يوماً بعد آخر . ووعد موسوليني غورنغ بإرسال فرقتين إيطاليتين إلى روسيا في شهر آذار ، شريطة أن يزودهما الألمان بالمدافع ، ولكن قلقه ما لبث أن اشتد من جراء هزائم حليفه في الجبهة الشرقية إلى الحد الذي حمل هتلر على أن يقرر أن الوقت بات مناسباً لعقد اجتماع آخر مع صديقه ليشرح له مدى قوة ألمانيا .

ووقع الاجتماع في سالزبرغ في التاسع والعشرين والثلاثين من شهر نيسان ، وقد حلّ موسوليني وشيانو وحاشيتهما ضيوفاً مكرمين في قصر كليشام الفخم ، الذي كان في يوم ما مقر الاساقفة - الأمراء ، والذي أعاد النازيون الآن زخرفته بالستائر والآثاث والسجاد التي جاءوا بها من فرنسا والتي خيل لشيانو أنهم « لم يدفعوا فيها ثمنًا عاليًا » . وبدت على الفوهرر مظاهر الاعياء . ودوّّن شيانو في يومياته يقول : « يبدو أن شهور الشتاء في روسيا قد أثرت عليه كل التأثير وقربته من الشيخوخة . فقد لاحظت لأول مرة الشيب يصبغ فوديه بالبياض »^(١) . وقد استهل الاجتماع بالبيان الألماني المؤلف عن تقدير الأوضاع بصورة عامة . وأكد رينتروب وهتلر لضيوفهما من الإيطاليين أن كل شيء على ما يرام في روسيا وشمال أفريقيا والغرب ، والحرب البحرية . وأسرّ لهم أن الهجوم المقبل في الشرق سيستهدف آبار زيت القفقاس ومضى رينتروب يقول :

« وعندما تفقد روسيا مصادر زيتها ، فإنها ستضطر إلى التسليم .
وحينئذ سيخفي البريطانيون رؤوسهم لانقاذ ما يمكن انقاذه من
امبراطوريتهم المنهارة ... أما أمريكا فهي « خدعة » كبيرة » .
واصفى شيانو ، وهو يكبت جماح مشاعره ، إلى ما يقوله زميله الألماني

١ - كان غوبلز قد رأى هتلر قبل نحو من شهر في مقر قيادته وأعرب عن ذمومته في يومياته من الاعياء الذي بدا عليه ، إذ دون قائلاً : « لاحظت أن شعره قد ابيض ... وقد ابلغني أنه عانى من عدة نوبات من الدوار ... أنني قلق أشد القلق على حالة الفوهرر » . وأضاف غوبلز قائلاً : « أنه بات يكره الصقيع والثلج كرها فطرياً . ولعل مما يقلق الفوهرر أن الثلج ما زال يغطي البلاد » (يوميات غوبلز ص ١٣١ - ١٣٧) .

وخيل اليه ، وهو يستمع الى حديثه عما يمكن لامريكا ان تفعل ، ان الألمان هم الذين « يبلفون » في الحقيقة لا الامريكان ، وانهم عندما يفكرون حقاً في هذا الموضوع « تنتشر الرعدة في ظهورهم » .

وكان الفوهرر هو الذي تكلم كعادته طيلة الوقت . ودون شيانو في يومياته قائلا :

« ان هتلر يتكلم ويتكلم ويتكلم ، ويعاني موسوليني من ذلك اشد الآلام ، فقد تعود على ان يكون هو المتكلم دائماً ، ولكنه الآن يجد نفسه مضطراً الى السكوت والاصغاء . وبعد الغداء ، في اليوم الثاني ، وكانت جعبة الحديث قد فرغت ظل هتلر يتكلم بلا انقطاع اربعين دقيقة . ولم ينس حجة واحدة ، أو موضوعاً واحداً . فهو يتحدث عن الحرب والسلام ، والدين والفلسفة ، والتاريخ والفن . وظل موسوليني يتطلع بصورة آلية الى ساعته .. والألمان التمساء ملزمون بالاستماع الى هذا الحديث كل يوم ، واني لعل ثقة من انه ليست ثمة ايماءة أو كلمة أو عبارة ، أو وقفة ، لم يحفظها الألمان عن ظهر قلوبهم . وراح الفريق يودل بعد نضال اسطوري يجاهد ويفالب جفنيه ليبعد عنها الكرى ، وهو جالس على الارىكة . وكان كايكل مستلقياً في مقعده ولكنه نجح في الابقاء على رأسه عالياً . ان صلاته الوثيقة بهتلر تمنعه من النوم » ^(١)

وعلى الرغم من هذا التيهور الهائل من الحديث والثروة ، او ربما نتيجة له ، تمكن هتلر من الحصول على وعدٍ من الدوتشي بإرسال المزيد من « الطعام البشري » لنيران مدافع الجبهة الروسية . وهكذا كللت مهمته هو وكايكل بالنجاح لدى « الاتباع » حتى ان القيادة العليا الألمانية حسبت ان في استطاعتها الحصول على اثنتين وخمسين فرقة « حليفة » لمهمة الصيف ، منها (٢٧) فرقة رومانية

و(١٣) بحرية و (٩) ايطالية ، وفرقتان سلوفاكيتان وفرقة اسبانية . وتؤلف هذه الفرق ربع قوة المحور المشتركة في الشرق . وهكذا تقرر تزويد الجبهة الجنوبية حيث ستوجه الضربة الرئيسية ، بإحدى واربعين فرقة جديدة منها احدى وعشرون فرقة من حلفاء المانيا تضم عشراً بحرية وستاً ايطالية وخمساً رومانية . ولم يرغب هولدر ومعظم القادة العسكريين الآخرين في ان يركزوا آمالاً كثيرة على مثل هذا العدد الضخم من الفرق « الاجنبية » ، التي كانوا يشكون حقاً في كفاياتها القتالية . ولكنهم نظراً لافتقارهم الشديد الى الرجال ، اضطروا الى قبول هذا الوضع ، وكان قرارهم هذا عاملاً عمماً قريب في الكارثة التي حلت في الشرق .

وكان نجم المحور في مطلع صيف عام ١٩٤٢ في سعود . فقد حقق حتى قبل بدء الوثوب نحو القفقاس وستالينغراد نصراً مثيراً في شمال افريقيا . وكان الفريق رومل قد استأنف الهجوم في الصحراء في السابع والعشرين من ايار عام ١٩٤٢^(١) . ووجه بفيلقه الافريقي المشهور المؤلف من فرقتين مدرعتين وفرقة مشاة آلية اخرى ، هجوماً سريعاً تعززه ثلثي فرق ايطالية احداها مدرعة . وسرعان ما ارغم جيش بريطانيا الصحراوي على التراجع نحو الحدود المصرية . واستولى في الواحد والعشرين من حزيران على طبرق مفتاح الخطوط الدفاعية البريطانية بعد ان صمدت في الهجوم الأول تسعة اشهر طويلة ، وبعد يومين كان يجتاز الحدود المصرية . ولم تحل نهاية حزيران ، حتى كان على ابواب العلمين التي تبعد خمسة وستين ميلاً الى الغرب من الاسكندرية ومن دلتا النيل . وخيل للكثيرين من ساسة الحلفاء الذين وقفوا مشدوهين أمام الخرائط يتطلعون إليها

١ - كانت قوات رومل قد اجبرت بعد سلسلة من المعارك الوحشية مع البريطانيين في شهري تشرين الثاني وكانون الاول عام ١٩٤١ ، على التراجع عبر برقة الى منطقة العقيلة في طرفها الغربي ولكنه ما لبث بدهائه المألوف وجراته ان عاد الى الاندفاع في كانون الثاني عام ١٩٤٢ ، فاستولى على الاراضي التي فقدتها ، وذلك في زحف سريع دام سبعة عشر يوماً احتل الغزاة التي شرع منها في زحفه الجديد في ايار عام ١٩٤٢ .

انه لم يعد ثمة ما يحول بين رومل وبين توجيه ضربة قاضية الى البريطانيين باحتلال مصر ، ومن ثم الزحف بعد وصول النجيدات اليه شمالاً لاحتلال حقول الزيت العظيمة في الشرق الاوسط ، والاندفاع الى القفاس للالتقاء مع الجيوش الألمانية في روسيا ، التي كانت قد شرعت في زحفها باتجاه تلك المنطقة من الشمال .

ومثلت هذه اللحظات اكثر ايام الحرب قتاماً بالنسبة الى الحلفاء واكثرها اشراقاً بالنسبة الى المحور . ولكن هتلر ، لم يكن يفهم كما ذكرنا من قبل الحرب على صعيدها العالمي ، ولم يدرك كيف يستغل انتصارات رومل المدهشة في افريقيا . وقد انعم على القائد الجريء بعضا الماريشالية . ولكنه لم يبعث اليه بما هو في حاجة اليه من نجيدات ومؤن ^(١) . وكان تحت إلحاف امير البحر ريدير وحث رومل ، قد وافق برماً على ايفاد الفيلق الافريقي وقوة طيران صغيرة الى ليبيا ، ولكنه لم يفعل هذا إلا ليحول دون انهيار الايطاليين في شمال افريقيا ، لا بقصد الانسجام مع اهمية احتلال مصر .

وكانت جزيرة مالطة الصغيرة هي محور هذا الاحتلال بالفعل . وهي جزيرة صغيرة في المتوسط تقع بين صقلية وقواعد المحور في ليبيا . وكانت القاذفات البريطانية والغواصات والسفن الحربية الاخرى ، تعمل من هذه القلعة ، وتنزل

١ - تالم موسوليني اشد الالم من انعام هتلر على رومل برتبة « المشير » بعد احتلاله طبرق ، وذلك لان هذا الانعام ، كما دون شيانو في يومياته قد اضى على المعركة طابما المانيا . وهرع الدوتشي فوراً الى ليبيا ليفتصب الامجاد لنفسه ، معتقدا انه سيكون في وسعه دخول الاسكندرية ، كما قال شيانو ، « في غضون خمسة عشر يوما » . واتصل في الثاني من تموز بهتلر برقياً للتشاور معه في « موضوع الحكومة السياسية المقبلة في مصر » ، مقترحاً ان يكون رومل القائد العسكري وان يعين ايطالي لمنصب « المفوض المدني » ورد هتلر بأنه لا يعتبر المسألة مستعجلة تستحق هذا الاهتمام (يوميات شيانو من ٥٠٣ - ٥٠٤) .

وظل موسوليني ينتظر بفارغ الصبر في دونة الواقعة وراء الجبهة . وتذكر الفريق فريتز بايرلين رئيس اركان حرب رومل فيما بعد فقال : (اجل ظل موسوليني ينتظر اليوم الذي يستعرض فيه دبابات المحور في ظلال الاهرامات) - (القرارات القديسية اعبداد فريدين وريشاردسون من ١٠٣) .

الدمار بالبواخر الألمانية والايطالية التي تحمل الرجال والعتاد الى شمال افريقيا. وقد غرق من هذه البواخر في شهر آب عام ١٩٤١ نحو من (٣٥) في المائة من مجموع البواخر التي تنقل لرومل نجاته ومؤنه ، بينما غرق في شهر تشرين الأول نحو من (٦٣) في المائة . ودون شيانو في يومياته في التاسع من تشرين الثاني بشيء من الأسى يقول :

« لقد تخلينا منذ التاسع عشر من ايلول عن محاولة مرور القوافل الى ليبيا . فقد دفعنا ثمناً غالياً لكل محاولة من هذه المحاولات ... وقد اعدنا المحاولة الليلة . وارسلنا قافلة من سبع بوآخر يحرسها طرادان من حمولة العشرة آلاف طن وعشر مدمرات ... وقد غرقت جميع بوآخرنا ، اجل جميعها . وعاد البريطانيون الى مينائهم في مالطة بعد ان ذبحونا » (١) .

وحول الألمان ولكن بعد طويل وقت ، عدداً من غواصاتهم من معركة الاطلسي الى البحر الابيض المتوسط ، وتلقى كيسلرغ اسراباً اضافية جديدة من الطائرات لقواعده في صقلية . وقد تقرر تجريد مالطة ومنعها من العمل ، وتحطيم الاسطول البريطاني في شرق المتوسط ، اذا كان ذلك ممكناً . وكان البريطانيون قد خسروا حتى نهاية عام ١٩٤١ ، ثلاث بوارج ، وحاملة للطائرات وطرادين وعدة مدمرات وغواصات ، واضطر ما تبقى من اسطولهم الى اللجوء الى القواعد المصرية . وظلت القاذفات الألمانية تقصف الجزيرة بمجمها ليلاً ونهاراً عدة اسابيع متلاحقة . وادى ذلك الى مرور التموينات الألمانية بسلام ، ولم يخسر المحور في شهر كانون الاول أية باخرة وتمكن رومل من تعزيز قواته استعداداً للاندفاع العظيم داخل مصر .

وتحدث امير البحر ريدر الى هتلر في شهر آذار ، وحثه على الموافقة على الخطة التي وضعت لهجوم رومل نحو نهر النيل (عملية عائدة) وعلى الخطة .

الرامية لاستيلاء المظليين على مالطه (عملية هرقل) وكانت من المقرر ان يبدأ الهجوم من ليبيا في نهاية ايار ، وان يقع على مالطه في منتصف تموز . ولكن هتلر ما لبث في الخامس عشر من حزيران ، وكان رومل في خضم انتصاراته الأولية ، أن أجل الهجوم على مالطه . وراح يوضح لريدر قائلاً انه لا يستطيع توفير أي جنود أو طائرات من الجبهة الروسية . وعاد بعد بضعة اسابيع فكرر تأجيل عملية هرقل ، قائلاً ان في وسعها ان تنتظر حتى يتم هجوم الصيف في الشرق تحقيق هدفه ، وحتى يكون رومل قد احتل مصر ^(١) . واضاف ان في الامكان ابقاء مالطه هادئة في غضون ذلك بفضل الغارات الجوية المستمرة عليها .

ولكن مالطه لم تهدأ ، وادى فشل الألمان في تجميدها ، أو الاستيلاء عليها الى دفعهم عما قريب ثناً غالياً . وتمكنت قافلة بريطانية ضخمة من الوصول الى الجزيرة المحاصرة في السادس عشر من حزيران ، وادى وصولها على الرغم من خسارة بعض السفن الحربية وبواخر الشحن في العملية ، الى عودتها الى الحياة . ونقلت طائرات « السبيتفاير » الى الجزيرة من حاملة الطائرات واسب (Wasp) ، وتمكنت بعد برهة قصيرة من طرد القاذفات الالمانية من الاجواء . وسرعان ما أحس رومل بالأثر اذ اغرق ثلاثة ارباع سفن التموين المرسلة اليه .

وكان قد وصل الى العلمين ، ولديه ثلاث عشرة دبابة فقط صالحة للعمل ^(٢) . ودون في يوميته بتاريخ الثالث من تموز يقول : « ان قوتنا قد اضمحلت » وقد وقع هذا في اللحظة التي بدأت تترامى فيها أمام انظار الالمان اهرامات مصر ، والجائزة المفترية بالوصول الى النيل والسويس . وهكذا ضاعت فرصة اخرى ، ولعلها من آخر الفرص التي شاءت العناية الالهية ان تمنحها لهتلر ، مع ما فيها من طلائع الحرب وسعودها .

١ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ١٩٤٢ . ص ٤٢ و ٤٧ .

٢ - جاءت هذه المعلومات في شهادة الفريق بايرلين بعد الحرب . ومن المحتمل ان يكون مبالغا في تعداد خسائره . اما مخابرات الحلفاء فتقدر العدد ب (١٢٥) دبابة .

هجوم الصيف الالمانى في روسيا

١٩٤٢

بدأ هتلر في نهاية صيف عام ١٩٤٢ ، وكأنه مازال في قمة العالم . فالغواصات الالمانية تفرق ما حملته (٧٠٠) الف طن من البواخر البريطانية والامريكية في الشهر الواحد في الاطلسي ، وهو رقم يفوق ما يمكن لاحواض بناء السفن في الولايات المتحدة وكندا واسكوتلندة ان تنتجه . وعلى الرغم من أن الفوهرر كان قد عرّى قواته في الغرب من رجالها ودباباتها وطائراتها ، رغبة منه في الخلاص من روسيا ، إلا أنه لم تبد ثمة أية دلالة في الصيف على ان البريطانيين والامريكيين كانوا اقوياء الى الحد الذي يمكنهم من القيام بحركة انزال مهما ضوّلت عبر القناة . ولم يغامروا حتى بمحاولة الاستيلاء على ممتلكات فرنسا في افريقيا الشمالية ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان فرنسا التي اضعفتها الولاءات المجرّاة لم تكن تملك ما تدرأ به هذه المحاولات إن وقعت ، بينما لم يكن الالمان يملكون شيئاً سوى بعض الغواصات ، وحفنة من الطائرات العاملة من ايطاليا وطرابلس .

وعجزت الطائرات البريطانية والاسطول البريطاني عن منع الطرادين - البارجتين الالمانيتين ، شارنهورست « وغنيزناد » والطراد الثقيل « البرنس يوجين » من اقتحام القناة الانكليزية في وضع النهار ، والوصول بأمان الى مياه الوطن من بريست ^(١) . وكان هتلر يخشى ان يقوم البريطانيون والامريكيون

١ - وقع هذا في ١١ - ١٢ شباط عام ١٩٤٢ ، وكان بمثابة مباغطة ضخمة فوجيء بها البريطانيون . ولم يكن بالامكان الاحشد قوى ضعيفة بحرية وجوية في الوقت المناسب لمهاجمة الاسطول الالمانى وقد الحقت به خسائر طفيفة . وعلقت صحيفة التايمز اللندنية تقول : لقد نجح نائب الاميرال سيلياكس (الذي قاد عملية التسلل) ، حيث فشل الدوق ميدينا سيدونيا ... ولم يحدث منذ القرن السابع عشر ما هو اشد ابلاما لكرامة قوة بحرية كبريطانيا في مياهها الداخلية من هذا) .

باحتلال شمال النروج ، ولعل هذا كان السبب في اصراره على إعادة هذه القطع البحرية من بريست ، وذلك لاستخدام هذه القطع الثلاث الثقيلة في الدفاع عن المياه النروجية . وراح يقول لريدنر في نهاية كانون الثاني عام ١٩٤٢ ان « النروج هي منطقة القدر » ، وان من الواجب الدفاع عنها مهما كان الثمن . وقد اثبتت الوقائع التي تلت ، ان لا ضرورة لكل هذه الاحتياطات . فلقد كانت هناك خطط أخرى تنتظر القوات الانكليزية والامريكية في الغرب . وبدأت مساحات الفتوحات الالمانية على الخريطة في ايلول عام ١٩٤٢ ، مدهشة تأخذ العقل . وكان البحر الابيض المتوسط قد غدا في الواقع بحيرة للمحور ، تحتل المانيا وايطاليا معظم سواحله الشمالية من اسبانيا الى تركيا والقسم الاكبر من سواحله الجنوبية من تونس الى نحو ستين ميلاً من نهر الراين . وكانت القوات الالمانية بالفعل تقف موقف الحارس من رأس الشمال في النروج عند المنطقة القطبية حتى مصر ومن بريست على الاطلسي الى القسم الادنى من نهر الفولغا على حدود آسيا الوسطى .

ووصلت قوات الجيش الالمانى السادس الى الفولغا الى الشمال من ستالينغراد في الثالث والعشرين من آب . وكان علم الصليب المعقوف قد ارتفع قبل يومين فوق جبل البروس ، وهي اعلى قمة في جبال القفقاس اذ ترتفع (١٨٠٤٨١) قدماً عن سطح البحر . واستولى الالمان في الثامن من شهر آب ، على حقول زيت ميكوب التي تنتج مليونين ونصف مليون من الاطنان في العام ، ولكنهم وجدوها مخربة كل التخریب . ووصلت دبابات كلايست في الخامس والعشرين الى موزدوك التي لا تبعد الا خمسين ميلاً عن مركز الزيت السوفياتي الأساسي حول غروزني ، وقراية مائة ميل فقط عن بحر قزوين . ولم يحل الواحد والثلاثون من آب حتى كان هتلر يبحث المشير ليست قائد الجيوش العاملة في القفقاس ، ليحشد كل ما لديه من قوات للشروع في الاندفاع الاخير نحو غروزني حتى يضع يده على حقول الزيت . وفي ذلك اليوم نفسه ، الاخير من شهر آب ، شن رومل هجومه على العلمين يحذوه الأمل الكامل باختراق الجبهة البريطانية

والوصول الى النيل .

وعلى الرغم من ان هتلر لم يكن قط راضياً عن النتائج التي حققها قادته
المسكرون ، اذ كان قد نحى المشير فون بوك من قيادة الجبهة الجنوبية كلها ،
في الثالث عشر من تموز ، وعلى الرغم من انه كان كما يقول هولدر في يومياته يلحظ
باستمرار ، شامئاً مرعداً ومزبداً ، على القادة الآخرين وهيئة اركان الحرب ،
بوجوب التقدم بسرعة اكبر ، إلا انه كان يعتقد ان النصر الحاسم بات في قبضته .
وقد اصدر امره الى الجيش السادس والى الجيش المدرع الرابع بالالتفاف شمالاً
مع نهر الفولغا ، وراء ستالينغراد بعد احتلالها ، في حركة تطويقية ضخمة تمكنه
في النهاية من التقدم نحو روسيا الوسطى وموسكو من الشرق ، في الوقت الذي
تتقدم فيه قواته من الغرب . واعتقد ان الروس قد انتهوا ، وتحدث عنه هولدر
في هذه اللحظة ، فقال انه كان يتكلم عن الاندفاع يحجزه من قواته عبر ايران
الى الخليج الفارسي ^(١) ، وعن الالتقاء سريعاً مع اليابانيين في المحيط الهندي .
ولم يكن لديه شك في صحة تقرير للمخابرات الالمانية بتاريخ التاسع من ايلول ،
يقول ان الروس قد استخدموا كل ما لديهم من قوات احتياطية في الجبهة كلها .
وكانت افكاره تتحول في حديث له مع امير البحر ريدير في نهاية شهر آب ،
من روسيا التي بات يعتبرها « المجال الحيوي الوافي من الحصار » الى البريطانيين
والامريكيين ، الذين كان على ثقة من انهم سيرغمون عما قريب « على التفاوض
لعقد الصلح » ^(٢) .

ولكن على الرغم من اشراق جميع الظواهر في تلك الفترة ، إلا انها كانت
على حد تعبير الفريق زيتزلر ، سراياً خادعاً . وكان جميع القادة العسكريين ،
سواء منهم قادة الميدان أو رجال هيئة اركان الحرب ، يرون نقاط ضعف
وعيوباً في الصورة الجميلة . وفي الامكان تلخيص هذه العيوب . فالألمان لا
يملكون الموارد من رجال ومدافع ودبابات وطائرات ، ووسائل نقل ، التي

١ - هولدر « هتلر كقائد ميدان » ص ٥٠ - ٥١ .

٢ - مؤتمرات هتلر في الشؤون البحرية ١٩٤٢ . ص ٥٣

تمكنهم من الوصول الى الاهداف التي اصر هتلر على وجوب تحقيقها . وعندما حاول رومل ان يسرد هذه العقبات لسيد الحرب بالنسبة الى جبهة مصر ، أمره هتلر بأن يمضي الى اجازة مرضية يقضيها في جبال سيميرينغ . وعندما حاول هولدر والمشير ليست ، ان يقوموا بنفس العمل بالنسبة الى الجبهة أمر بصرفهما من الخدمة .

وكان في وسع اكثر الهواة في فن السوقيّة العسكرية بداية ، ان يرى الخطر المتزايد على الجيوش الألمانية في جنوب روسيا ، عندما شرعت المقاومة السوفياتية تتصلب في القفقاس وستالينغراد ، وعندما اقترب موسم امطار الخريف . وكان الجناح الشمالي للجيش السادس ، مكشوفاً بصورة خطيرة على طول خط اعالي الدون مسافة (٣٥٠) ميلاً من ستالينغراد الى فوردرنج . وكان هتلر قد عهد بحماية هذا الجناح الى ثلاثة جيوش تابعة ، وهي الجيش المجري الثاني الى الجنوب من فوردرنج والجيش الايطالي الثامن الى الجنوب الشرقي والجيش الروماني الثالث الى اليمين عند منحني الدون الى الغرب من ستالينغراد . وبالنظر الى العداء المستحكم بين الرومانيين والمجريين ، تطلب الوضع ، الفصل بينهما بالقوات الايطالية وكان ثمة جيش تابع رابع في السهوب الواقعة الى الجنوب من ستالينغراد ، وهو الجيش الروماني الرابع . وبالإضافة الى ان الكفايات القتالية في هذه الجيوش كلها كانت ضعيفة فإنها كانت مفتقرة الى العتاد اللازم ، كالقوة المدرعة والمدفعية الثقيلة والحركة . وكانت منتشرة كذلك بشكل جعلها تفتقر الى التكثف . فالجيش الروماني الثالث مسؤول عن الدفاع بأفواجه التسعة والستين عن جبهة تمتد (١٠٥) اميال . ولكن ماذا يفعل هتلر ، وهذه الجيوش الحليفة هي كل ما تبقى لديه . ولم تكن هناك وحدات المانية كافية ملء الفراغ . ولما كان يعتقد كما قال لهولدر ان الروس قد « انتهوا » فلم يكن يحس بأي قلق من هذه الجبهة الطويلة والعارية على نهر الدون .

ومع ذلك ، فقد كانت هذه الجبهة هي مفتاح الحفاظ على الجيشين السادس والرابع المدرع في ستالينغراد ، ومجموعة الجيوش (١) في القفقاس . فإذا انهار

جناح الدون تعرضت القوات الالمانية في ستالينغراد للتطويق وقطعت طريق العودة على القوات العاملة في القفقاس . وأراد سيد الحرب النازي ان يقامر مرة اخرى . ولم تكن هذه المقامرة هي الوحيدة في حملة الصيف كلها .

ففي الثالث والعشرين من تموز ، وكان الهجوم في ذروته ، قامر هتلر بمقامرة سابقة . كان الروس يتراجعون تراجعاً كاملاً بين الدونتس والدون الأعلى ، متقهقرين بسرعة الى ستالينغراد باتجاه الشرق ، والى مصب الدون في الجنوب . وتحتم عليه ان يتخذ قراراً ، فهل يركز القوات الالمانية لاحتلال ستالينغراد واغلاق طريق نهر الفولغا ، او يوجه ضربته الرئيسية في القفقاس بحثاً عن الزيت الروسي ؟ وكان هتلر في وقت مبكر من ذلك الشهر قد فكر في هذه القضية المعقدة ، ولكنه لم يكن قد حزم أمره مطلقاً . كانت رائحة الزيت قد استهوته في البداية ، وفي الثالث عشر من تموز فصل الجيش المدرع الرابع من مجموعة الجيوش (ب) ، الزاحفة جنوباً مع الدون نحو المنحنى ونحو ستالينغراد الواقعة الى الوراء وأمر بإيفادها جنوباً لمساعدة جيش كلايست المدرع الاول ، في عبور الدون الأدنى على مقربة من روستوف باتجاه حقول الزيت في القفقاس . وكان من المحتمل ان يتمكن الجيش المدرع الرابع آنذاك من الاسراع الى ستالينغراد واحتلالها ، اذ لم تكن قد حصنت بعد . وعندما أدرك هتلر غلظته ، كان الوقت قد فات ، وضاعف خطأه . فقد أمن بإعادة الجيش الرابع بسرعة الى جبهة ستالينغراد بعد اسبوعين ، وكان الروس قد استفاقوا من هول الضربة الاولى ، وأعدوا مواقعهم لوقف زحفه ، بينما أدى سحبه من جبهة القفقاس الى اضعاف قوات كلايست بحيث غدت عاجزة عن اكمال زحفها الى حقول الزيت في غروزي (١) .

١ - أيد كلايست هذه الحقيقة للبدل هارت فقال : « كان في وسع الجيش المدرع الرابع ان يجعل ستالينغراد دون قتال في نهاية شهر تموز ، ولكنه تحول نحو الجنوب لمساعدتي في عبور نهر الدون . ولم اكن في حاجة الى مساعدته . اذ ضايقني في الطرق التي استخدمها . وعندما عاد الى الشمال بعد اسبوعين كان الروس قد حشدوا قوات كافية في ستالينغراد =

وكان نقل هذه الوحدة المدرعة الضخمة الى ستالينغراد نتيجة القرار القدرى الذي اتخذته هتلر في الثالث والعشرين من تموز . فقد ضمن تصميمه العنيد على احتلال ستالينغراد والقفقاس في نفس الوقت خلافاً لنصيحة هولدر وقادة الميدان الذين لم يصدقوا إمكان تحقيق الهدفين في وقت واحد ، توجيهه رقم (٤٥) الذي بات مشهوراً بين أساطير الجيش الألماني . حقاً لقد كان هذا التوجيه من أكثر الحركات التي اتخذها هتلر في الحرب قدرية ، اذ أنه أدى في النهاية وبعد وقت قصير إلى فشله في تحقيق الهدفين وأسفر عن أكبر هزيمة إذلالاً في تاريخ السلاح الألماني ، مؤكداً له أنه لن يستطيع كسب الحرب ، وإن أيام الرايخ الثالث الذي سيعيش الف عام قد باتت معدودة .

وأصاب الذعر الفريق هولدر ، ووقعت جلسة عاصفة في « وكر الذئب » في مقر القيادة العامة في أوكرانيا على مقربة من فينيتسا ، الذي كان هتلر قد انتقل اليه في السادس عشر من تموز ليكون قريباً من الجبهة . وقد حث رئيس هيئة أركان الحرب على وجوب تركيز القوات الرئيسية على هدف الاستيلاء على ستالينغراد ، وحاول أن يوضح أن الجيش الألماني لا يملك القوة الكافية لتنفيذ الهجومين القويين في وقت واحد وفي اتجاهين مختلفين . وعندما رد هتلر بأن الروس قد « انتهوا » ، حاول هولدر إقناعه ، بأنه وفقاً لما لدى مخابرات الجيش من معلومات ، فإن هذا القول بعيد عن الحقيقة كل البعد . ودون هولدر بأسمى في يومياته تلك الليلة يقول :

« يتخذ التقليل المستمر من إمكانات العدو وطاقاته شكلاً ضخماً ، وقد بات خطراً كل الخطورة . وقد بات العمل الجدي هنا مستحيلاً . وتضفي ردود الفعل المريضة على التأثيرات الوقتية ، والافتقار الكامل الى الطاقة على تصميم الوضع وما فيه من

= لوقف زحفه « وكان كلابست في هذا الوقت قد بات في حاجة الى قوة الدبابات الإضافية . « وكان في وسعنا إن نصل الى هدفنا - وهو زيت غروزي - لو لم تسحب هذه القوات مني . . . للمساعدة في الهجوم على ستالينغراد » (ليدل هارت - الفرقة الأولى يتكلمون من ١٦٩ - ١٧١

احتمالات على هذه « القيادة » المزعومة طبيعة غريبة كل الغرابة » .
وعاد رئيس هيئة اركان الحرب ، الذي باتت ايامه معدودة في منصبه الآن
الى هذا الوضع ثانية وكتب يقول :

« باتت قرارات هتلر لا تتفق مطلقاً مع مبادئ السوقية
العسكرية والعمليات الحربية ، المقررة في الفن العسكري منذ
اجيال بعيدة . ولم تكن هذه القرارات إلا ثمرة مزاج عنيف يتبع
التأثيرات المؤقتة ، ولا يعترف بأية حدود للطاقت والممكنات ،
وانما يجعل من احلام يقظته ، الدافع لجميع هذه الاعمال (١) »

وعاد هولدر فيما بعد فروى قصة عما اسماء « بالمبالغات المريضة في تقدير
القوة الحقيقية لطاقت القائد الاعلى ، والتقليل الاجرامي في تقدير قوة العدو »
على النحو التالي :

« وفي ذات يوم تلا أحد المسؤولين تقريراً موضعياً على مسامع
هتلر ، يظهر ان ستالين كان لا يزال قادراً في عام ١٩٤٢ ، على
حشد قوات تتراوح بين المليون والمليون والربعم من الجنود غير
المجهدين في المنطقة الواقعة الى الشمال من ستالينغراد والغرب من نهر
القولغا ، وحشد نحو من نصف مليون من الجنود في القفقاس ، ويقدم
الدليل المادي على ان انتاج روسيا من الدبابات للخط الأول يبلغ
نحواً من (١٢٠٠) دبابة في الشهر ، هجم القائد الاعلى على الرجل ،
وقد ضم قبضته وتدفع الزبد من شذقيه ، ومنعه من قراءة ما
اسماه بالهذر الأحق » (٢)

ويقول هولدر ، « ولم يكن المرء في حاجة الى مواهب الانبياء والعرفان
ليتبين ما سيقع عندما يطلق ستالين هذه القوات التي يبلغ تعدادها مليوناً ونصف

١ - هولدر « هتلر كقائد ميدان » ص ٥٠ .

٢ - هولدر « هتلر كقائد ميدان » ص ٥٢ .

المليون على ستالينغراد وجناح الدون^(١) . وقد بينت هذه الحقيقة بكل وضوح . » وكانت النتيجة تنحية رئيس اركان الحرب من منصبه .

ووقع هذا في الرابع والعشرين من ايلول . وعندما كان هولدر قبل ذلك بأيام أي في التاسع من ايلول ، قد سمع من كايثل نبأ تنحية المشير ليست من القيادة العامة لجميع القوات العاملة في القفقاس ، ادرك ان دوره قد اتي . وقيل له ان الفوهرر بات مقتنعاً من انه « لم يعد ذا كفاية للمتطلبات النفسية التي يفرضها عليه مركزه » . وقد شرح هتلر قوله هذا شرحاً اكثر تفصيلاً لرئيس اركان حربه في اجتماعها الوداعي في الرابع والعشرين .

قال هتلر : لقد كنت واياك نعاني من اعصابنا . ويرجع نصف ما اعانيه من اجهاد عصبي اليك . ولا ارى خيراً في الاستمرار على هذا النحو . ونحن في حاجة الآن الى الحماس الاشتراكي الوطني لا الى القدرة المهنية ولا يمكنني ان اتوقع مثل هذا الحماس من ضابط من ابناء المدرسة القديمة مثلك » .

وعلق هولدر فيما بعد قائلاً : « كان هذا هو حديثه . وكان فيه اقرب الى المتعصب السياسي منه الى القائد العسكري المسؤول »^(٢)

وهكذا اخرج فرانز هولدر من المسرح . ولم يكن بدوره خالياً من الأخطاء . التي تشبه اخطاء سلفه الفريق بيك ، في انه كان مشوش الفكر ، خائر العزيمة ، مشلول الارادة على العمل . وعلى الرغم من انه كثيراً ما وقف ضد هتلر ، وان كانت وقفاته دون أي تأثير ، إلا انه كان كغيره من ضباط الجيش الذين احتلوا ارفع الرتب في الحرب الكونية الثانية ، قد قطع اشواط

١ - ويقول هولدر انه وجد عرضاً في اوكرانيا في ذلك الوقت كتاباً عن الهزيمة التي حققها ستالين بالفريق دينيكن ، بين منحى الدون وستالينغراد اثناء الحرب الاهلية في روسيا . ويضيف ان الوضع كان آنذاك مماثلاً للوضع الحالي في عام ١٩٤٢ ، وكيف ان ستالين استغل « ببراعة فائقة » ضعف دفاع دينيكن على طول نهر الدون . ثم مضى يقول : (ومن هنا نشأ تبادل اسم المدينة من (تساريتسين) الى ستالينغراد .

٢ - اقتبست اقوال هتلر وهولدر من يوميات الاخير وكتابه ومن كتاب (هاينز شرويتز) - ستالينغراد ص ٥٣ .

بعيدة معه ، مستاعدا اياه في اعتداءاته الشريرة وفتوحاته . ومع ذلك فقد ظل محتفظاً ببعض الفضائل التي تمت الى عصور اكثر فضيلة . وكان آخر من تولى رئاسة اركان حرب جيش الرايخ الثالث من ابناء المدرسة القديمة (١) . وقد خلفه في منصبه الفريق كورت زيتزلر وهو ضابط شاب من طراز مختلف ، كان يعمل رئيساً لاركان المشير رونشتادت في الغرب ، واحتمل الآن في منصبه الجديد الذي كان يعتبر ولا سيما في الحرب الكونية الأولى اعلى مناصب الجيش الألماني واكثرها مسؤولية ، ما لا يحتمله « آذن » في مكتب الفوهرر ، حتى جرت محاولة اغتيال الديكتاتور في تموز عام ١٩٤٤ . (٢)

ولم يؤد تبدل رئيس هيئة اركان الحرب الى أي تبدل في وضع الجيش الألماني الذي توقف زحفه المزدوج الآن من جراء اشتداد المقاومة السوفياتية . واستمر قتال الشوارع المرير طيلة شهر تشرين الأول في مدينة ستالينغراد نفسها . واحرز الألمان بعض التقدم من بناية الى بناية ، ولكن بعض خسائر مذهلة ، اذ ان حطام مدينة كبيرة يقدم ، كما يعرف كل من خبر الحروب العصرية ، فرصاً عدة لاشتداد المقاومة وإطالتها ، وقد استغل الروس كل شبر من هذا الحطام اكبر استغلال .

١ - كان فصل هولدر من منصبه خسارة ، لا للجيش الألماني وحده بل للمؤرخين ايضا ، اذ ان يومياته التي لا تقدر بثمن قد انتهت في الرابع والعشرين من ايلول عام ١٩٤٢ . وقد اعتقل في النهاية واودع في معتقل داخاو ، مع غيره من كبار المسجونين من امثال شوشنيغ وشاخت ، وحررت القوات الامريكية في نيدر دوف في جنوب التيرول في ٢٨ نيسان ١٩٤٥ . وقد تعاون منذ ذلك التاريخ حتى وضع هذا الكتاب مع الجيش الأمريكي في عدد من الدراسات التاريخية للحرب العالمية الثانية . واني لمدين له بكثير من الردود على الاسئلة التي وجهتها اليه وبارشادي الى بغض المصادر .

٢ - كان الفريق يودل ، رئيس قسم العمليات في القيادة العليا للقوات المسلحة ، والمعروف بأمانته وولائه للفوهرر ، موضع الزايرة في هذا الوقت ايضا فقد عارض في فصل المشير ليست والفريق هولدر وساقه دفاعه عنهما الى التعرض لفضب هتلر الذي ظل شهورا طويلة ، يرفض مصافحة يودل ، أو تناول الطعام معه او مع غيره من ضباط الاركان . وكاذ هتلر يأمر بفصل يودل من منصبه في نهاية شهر كانون الثاني عام ١٩٤٣ . وان يعين الفريق باولوس خلفا له ، ولكن الوقت قد فات ، فان باولوس كما سنروي فيما بعد . لم يعد بين يدي هتلر .

وعلى الرغم من ان هولدر وخلفه فيما بعد قد حذرا هتلر من ان القوات الالمانية في ستالينغراد قد بلغت نهاية طاقتها ، فإن القائد الأعلى اصر على وجوب الاستمرار في التقدم ، وكان يقذف بفرق جديدة سرعان ما تلتهمها نيران الجحيم .

وبدلاً من ان تكون ستالينغراد وسيلة لتحقيق غاية ، وهي غاية تحققت فعلاً عندما وصلت الوحدات الألمانية الى ضفاف الغولغا الغربية الى الشمال والجنوب من المدينة ، وقطعت حركة النقل في النهر ، باتت الآن ، أي ستالينغراد ، هي الغاية نفسها . وبات احتلالها الآن بالنسبة الى هتلر ، قضية كرامة شخصية . وعندما حاول حتى زيتزلر ، متدرعاً بالشجاعة الكافية ان يقترح على الفوهرر نظراً للخطر الماثل على الجناح الشمالي الطويل على نهر الدون ، سحب الجيش السادس من ستالينغراد الى منحني الدون ، ثار هياج هتلر وصرخ بقائده قائلاً : « حيث يضع الجندي قدمه ، لن يكون هناك تراجع » .

وعلى الرغم من الازوال والخسائر الفادحة فإن الفريق باولوس ، قائد الجيش السادس ، ابلغ هتلر في رسالة بعث بها عن طريق «الراديو» في الخامس والعشرين من تشرين الأول ، بأنه ينتظر اتهام الاستيلاء على ستالينغراد على ابعد تقدير في العاشر من تشرين الثاني . وانتعشت معنويات هتلر بهذا التأكيد ، فاصدر هتلر اوامره في اليوم التالي الى الجيش السادس والجيش المدرع الرابع ، الذي كان لا يزال يقاتل الى الجنوب من المدينة بالاستعداد للدفاع شمالاً وجنوباً على طول نهر الفولغا فور سقوط ستالينغراد .

ولم يكن هتلر في الحقيقة جاهلاً بالخطر الذي يهدد جناح الدون . وتوضح يوميات القيادة العليا للقوات المسلحة ان هذا الخطر كان يسبب له قلقاً بالغاً . ولكن المشكلة في انه لم يحمل هذا الخطر على محمل الجد الى حد كبير ، وانه نتيجة لذلك ، لم يقيم بأي عمل لتجنبه . أجل لقد كان واثقاً كل الثقة من السيطرة على الوضع حتى انه في اليوم الاخير من شهر تشرين الأول ، غادر هو واركان حرب القيادة العليا وهيئة اركان حرب الجيش ، مقرهم في فينيتسا في اوكرانيا عائدين الى «عش النسر» «وولفسانزي» في راستينبرغ . وكان الفوهرر قد

اقنع نفسه ، بأنه اذا كان ثمة هجوم سوفياتي في الشتاء فإن هذا الهجوم سيقع في الجبهتين الوسطى والشمالية .
ولكنه ما كاد يصل الى هناك حتى كاذت الانباء السيئة قد بدأت في التوارد اليه ، من جبهة اخرى اكثر بعداً ، ففيلق رومل الافريقي ، بدأ يتعرض الى الخطر .

الضربة الاولى

العلمين والنزول الانكليزي — الامريكي

استأنف ثعلب الصحراء ، وهو الاسم الذي اطلق على رومل ، على جانبي الجبهة ، هجومه في العلمين في الواحد والثلاثين من آب ، هادفاً الى اجتياح الجيش البريطاني الثامن ، والزحف الى الاسكندرية ونهر النيل . ودارت معركة عنيفة في حرارة الصيف اللاهبة على طول الجبهة الصحراوية التي تمتد اربعين ميلاً بين البحر ومنخفض القطاره ، ولكن رومل عجز عن اختراق الجبهة واضطر في الثالث من ايلول الى التحول الى الدفاع . وكان الجيش البريطاني قد تلقى اخيراً في مصر ، تعزيزات قوية في الرجال والمدافع والدبابات والطائرات ، وكان القسم الاكبر من المادتين الاخيرتين من امريكا . وكان هذا الجيش قد تلقى في الخامس عشر من آب قائدين جديدين ، احدهما فريق شاذ الطباع ولكنه موهوب يدعى السير برناردلو مونتغمري ، الذي تولى قيادة الجيش الثامن والفريق السير هارولد اليكزاندرو ، الذي اثبت فيما بعد انه بارع في الشؤون السوقية وماهر في الادارة ، وقد تولى الآن مركز القائد العام في الشرق الأوسط .

وكان رومل قد امضى بعد نكسته لقضاء اجازة مرضية في جبال سيميرينغ الى الجنوب من فيينا ، ليتعالج من انف مصاب وكبد متقرح . وسرعان ما

تلقي مكالمات هاتفية من هتلر هناك . قال الفوهرر : « اسمع يا رومل ، الانباء سيئة من افريقيا . ويبدو لي ان الوضع غامض الى حد ما ، كما يظهر ان ليس ثمة من يعرف حقيقة ما وقع للفريق شتوم . ^(١) وهل في استطاعتك ان تعود الى افريقيا وتتسلم القيادة من جديد ؟ » ^(٢) وقد وافق رومل على العودة فوراً على الرغم من مرضه .

وعندما وصل رومل الى مقر قيادته في غرب العلمين في المساء التالي ، كانت المعركة التي شنها مونتغمري في الساعة التاسعة والدقيقة الاربعين من الثالث والعشرين من تشرين الأول قد انتهت بالخسارة للامان . فلقد كان لدى الجيش الثامن عدد وافر من المدافع والدبابات والطائرات ، وعلى الرغم من ان الخطوط الألمانية - الإيطالية كانت لا تزال صامدة ، وعلى الرغم من الجهود اليائسة التي بذلها رومل ، لنقل فرقه المحطة لوقف الهجمات المختلفة ، ولشن هجمات مضادة احياناً ، إلا انه ادرك ان الوضع بات يائساً . فلم تكن لديه قوات احتياطية لا في الرجال ولا في الدبابات ولا في الزيت . فلقد بات السلاح الجوي البريطاني مسيطراً في الجو لأول مرة ، وكان يضرب قواته ومدرعاته وما تبقى من مستودعات تموينه دون رحمة أو شفقة .

وتمكنت مشاة مونتغمري ومدرعاته في الثاني والعشرين من تشرين الثاني من اختراق الخطوط الإيطالية في جنوب الجبهة ، وبدأت تحتاج امامها الفرق الإيطالية فيها . وبعث رومل في تلك الليلة برسالة اذاعية الى مقر قيادة هتلر في الجبهة الشرقية في بروسيا الشرقية على بعد الفي ميل ، قائلاً انه لم يعد في وسعه الصمود ، وانه يعتزم الانسحاب ، قبل ان تضيق الفرصة الى موقع الفوقه على بعد

١ - توفي شتوم ، الذي تولى القيادة نيابة عن رومل اثناء مرضه ، من نوبة قلبية اصابته في الليلة الاولى من الهجوم البريطاني اثناء فراره على اقدامه فوق رمال الصحراء من دورية بريطانية كادت تقتله .

٢ - اقتبسها الفريق بايرلين نقلاً عن اوراق رومل - القرارات القدرية - اعداد فريدين ريشاودسون ص ١١٠

اربعين ميلاً غرباً .

وكان قد شرع في الانسحاب عندما جاءته في اليوم التالي رسالة مطولة على أمواج الأثير من سيد الحرب الأعلى هذا نصها :

« الى المشير رومل

« أرقب ويرقب معي الشعب الألماني بأسره ، المعركة الدفاعية البطولية التي تخوضونها في مصر ، مع ثقتنا المطلقة بكفايات قيادتك وبسالة القوات الألمانية والايطالية العاملة تحت امرتك . وفي مثل هذا الوضع الذي تجد نفسك فيه ، لا يمكن ان يكون ثمة اعتبار آخر ، سوى الصمود بقوة واصرار ، وعدم التراجع خطوة واحدة ، والقذف بكل مدفع وكل رجل في المعركة . وليس في مكنتك ان تعرض على جنودك سوى الطريقة الوحيدة التي تقودك إما الى النصر او الى الموت .

ادولف هتلر» (١)

وعنى هذا الأمر الأحمق شيئاً واحداً اذا أطيع ، وهو القضاء على الجيوش الايطالية والالمانية بالموت والابادة السريعة ، ويقول بايرلين ، ان رومل لأول مرة في افريقيا لم يدر ما يصنعه . فبعد نضال قصير مع ضميره وعلى الرغم من اعتراضات الفريق ريترفون توما ، القائد الفعلي للفيلق الافريقي الالماني الذي قال بأنه سينسحب على اي حال ، قرر اطاعة أمر القائد الأعلى . (٢) ودون رومل فيما بعد في يومياته يقول : « وقد قررت اخيراً ان اتخذ القرار لانني كنت دائماً اطلب الطاعة العمياء من جنودي ، وأردت ان افرض هذه الطاعة

١ - اقتبس الرسالة بايرلين ايضا ، القرارات القدرية - فريدين وريشاردسون ص ١٢٠

٢ - وفي اليوم التالي ، الرابع من تشرين الثاني قال الفريق فون توما للفريق بايرلين :

« ان امر هتلر جنون مطبق لا مثيل له . وليس في مكنتي ان امضي في تنفيذه مدة أطول » ... ثم راح يرتدي بزة نظيفة تحمل شارة رقبته والاوسمة التي يحملها ، ووقف الى جانب دبابته المحترقة ، الى ان جاءت وحدة بريطانية فاستسلم لها ، وتناول في المساء عشاءه مع مونفومري في مطعم القيادة .

على نفسي » . ولكنه عاد فكتب في يومية لاحقة ، ما يدل على انه كان اكثر وعياً .

وأصدر رومل ، وهو برم ، الأمر بوقف الهجوم ، وبعث في الوقت نفسه رسولاً بالطائرة الى هتلر ، محاولاً ان يشرح له ، انه ما لم يسمح له بالتراجع فوراً ، فسيضيع كل شيء . ولكن الاحداث كانت اسرع منه ، وقرر عشية الرابع من تشرين الثاني ، مغامرة باحتمال تقديمه الى محكمة عسكرية بتهمة عصيان أوامر القائد الأعلى ، ان ينقذ ما تبقى من قواته وأن يتراجع الى الفوقة . ولم يكن في وسعه ان يسحب إلا ما تبقى من وحداته المدرعة والآلية . أما قوات المشاة ومعظمهم من الايطاليين ، فقد خلفوا الى الوراء ليستسلموا وهو ما فعلته غالبيتهم حتماً . ^(١) وتلقى في الخامس من تشرين الثاني رسالة قصيرة من الفوهرر تقول : « اني موافق على انسحاب جيشك الى موقع الفوقة » . ولكن دبابات مونتغمري كانت قد اجتاحت ذلك الموضع ايضاً . ولم تمض سبعة ايام ، حتى كان رومل قد تراجع سبعة ميل الى ما وراء بنغازي بما تبقى من جيشه الافريقي ، الذي لا يربو عدد من بقي منه على الخمسة والعشرين الف ايطالي وعشرة آلاف الماني وستين دبابة ، ولم تعد لديه فرصة للوقوف حتى في مكانه الجديد .

وكانت هذه بداية النهاية بالنسبة الى أدولف هتلر ، كما كانت اكثر معركة حسماً فاز فيها اعداؤه ، وان كانت هناك معركة ثانية اكثر حسماً على وشك ان تبدأ على السهوب الثلجية في جنوب روسيا . ولكن قبل ان تبدأ هذه المعركة فعلاً ، قدر للفوهرر ان يسمع المزيد من الانباء السيئة من شمال افريقيا ، وهي التي قررت مصير المحور في ذلك الجزء من العالم .

وفي الثالث من تشرين الثاني وكانت الانباء الأولى قد جاءت عن كارثة

١ - بلغت خسائر رومل في العلمين (٥٩) الف شخص بين قتل وجريح واسير ، بينهم (٣٤) الفا من الالمان ، وذلك من مجموع قوة تعد ستة وتسعين الفا .

رومل ، تلقى مقر قيادة الفوهرر كلمة تقول ان اسطولاً ضخماً للحلفاء قد شوهد متجمعاً في جبل طارق ، ولم يستطع احد في القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية ان يتكهن بالغاية التي يهدف لها هذا الاسطول . ومال هتلر الى الاعتقاد ، بأنه لم يكن اكثر من مجرد قافلة اخرى قوية الحماية متجهة الى مالطة . ولا ريب في ان لهذا الاعتقاد اهمية ، اذ ان عدداً من كبار رجال القيادة العليا ، كانوا قبل نحو من اسبوعين أي في الخامس عشر من تشرين الأول ، قد ناقشوا عدة تقارير عن « نزول انكلو - سكسوني » وشيك الوقوع في غرب افريقيا . ويبدو ان النبأ جاء من رومة ، اذ ان شيانو قبل نحو من اسبوع أي في التاسع من تشرين الأول ، دوّن في يومياته بعد حديث مع رئيس المخابرات السرية العسكرية ، ان « الانكليز والامريكيين يتأهبون للنزول بقوة في شمال افريقيا . » وقد أحزنت هذه الانباء شيانو ، اذ توقع ، وكان توقعه صحيحاً ، ان مثل هذه الخطوة ستؤدي حتماً الى هجوم مباشر للحلفاء على ايطاليا .

ولم يحمل هتلر وهو المشغول في محاولة منع الروس من ابداء مقاومتهم الجهنمية ، هذه الانباء الأولية على محمل الجد . واقترح يودل في اجتماع عقده القيادة العليا للقوات المسلحة في الخامس عشر من تشرين الاول ، ان يسمح لفرنسة فيشي بارسال نجدات الى افريقيا الشمالية ليتمكن الفرنسيون من صد أي انزال يقوم به الانكليز والامريكيون . ولكن الفوهرر ، رفض كما تقول يوميات القيادة العليا ، هذا الاقتراح ، لانه قد يؤدي الى اغصاب الايطاليين الذين كانوا يتوجسون خيفة ويتقدون غيظاً من أي حركة تهدف الى تقوية فرنسا . ويبدو ان القضية قد نسيت في مقر القيادة الى ان عادت الى الذاكرة في الثالث من تشرين الثاني . ولكن في ذلك اليوم ، وعلى الرغم من ان العملاء الالمان في الجانب الاسباني من جبل طارق قد نقلوا الى برلين مشاهدتهم اسطولاً انكليزياً امريكياً ضخماً يتجمع هناك ، فإن هتلر كان مشغولاً بحمل رومل على الصمود في العلمين ، الى حد انه لم يكلف نفسه عناء التفكير بما بدا له ، مجرد قافلة اخرى متجهة الى مالطة .

وأبلفت القيادة العليا الألمانية في الخامس من تشرين الثاني ان قوة بحرية بريطانية قد ابجرت شرقاً من جبل طارق . ولكن هتلر ، لم يول ما وصله من اخبار من جبل طارق أي اهتمام إلا في السابع من تشرين الثاني أي قبل اثني عشرة ساعة من بدء نزول الحلفاء في شمال افريقيا وكانت التقارير التي وصلت قبل ظهر ذلك اليوم الى مقر قيادته في بروسيا الشرقية قد اكدت ان قوات بحرية بريطانيا قد عادت الى جبل طارق ، حيث التقت بأسطول ضخ من سفن النقل والسفن الحربية كان قادماً من الاطلسي ، ثم اتجهت كلها معاً شرقاً نحو البحر المتوسط . ودار نقاش طويل بين ضباط الاركان وبين الفوهرر . ترى ماذا تعني هذه الحركات كلها ؟ وما هو هدف هذه القوة البحرية الضخمة ؟ قال هتلر انه بات ميالاً الى الاعتقاد ، بأن الحلفاء قد يحاولون القيام بعملية انزال رئيسية بأربع فرق أو خمس في طرابلس او بنغازي ، لتطويق زومل من مؤخرته . وأعلن امير البحر كرانكي ، ضابط الاتصال البحري في مقر القيادة العامة للقوات المسلحة ، بأنه لا يمكن ان تكون هناك اكثر من فرقتين معاديتين ، هذا على اكثر تقدير ومع ذلك ، يجب القيام بعمل ما وطلب هتلر تعزيز السلاح الجوي في البحر المتوسط فوراً ، ولكن قيل له ان هذا مستحيل في الوقت الحاضر . واذا حكمنا على ضوء ما ورد في يوميات القيادة العامة للقوات المسلحة ، تبين لنا ان كل ما فعله هتلر في ذلك الصباح هو ابلاغ رونشتادت القائد العام في الغرب ليكون على استعداد لتنفيذ عملية « انطون » ، وهو الاسم الرمزي الذي اطلق على خطة احتلال ما تبقى من فرنسا .

ومن اثر ذلك ، غادر القائد الاعلى مقر قيادته بعد ان تناول غداءه في السابع من تشرين الثاني متجهاً الى ميونيخ حيث كان من المقرر ان يلقي في الليلة التالية خطابه السنوي على اخدانه القدماء في الحزب الذين يجتمعون للاحتفال بالذكرى السنوية لانقلاب حانة الجمعة . وبدأ الفوهرر بعمله هذا غير مكترث بحالة رومل الذي سيسقط في الفخ اذا نزلت القوات البريطانية والامريكية وراء ظهره ، ولا بالانباء الاخيرة التي وردته عن توقع البدء بهجوم

روسي مضاد في حوض الدون مستهدفاً مؤخرة الجيش السادس في
ستالينغراد . (١)

وتغلب السياسي في الرجل ، كما دون هولدر ، على الجندي في هذه اللحظة
الحرجة في الحرب . وعهد بأمر القيادة العليا في الشرق الى عقيد يدعى فريهير
تروخ فون بوتلر براندينفيلز ، لأن كايتل ويودل ، وهما اكبر ضابطين فيها قد
رافقا الفوهرر للاشتراك في احتفالات حانة الجمعة . وليس ثمة وجود غرابة
في مثل هذا التصرف الذي يحمل سيد الحرب الاعلى ، الذي كان يصير على توجيه
الحرب في جبهات بعيدة ومترامية حتى على مستويات الفرق والالوية والافواج ،
على الابتعاد الوف الاميال عن الميادين ليشارك في مهمة سياسية في وقت كان
البيت فيه قد بدأ بالتهدم على رأس أهليه . وكان ثمة تحول في الرجل ، نوع من
الاهتراء والانحلال ، تماماً كما وقع بالنسبة الى غورنغ ، الذي راح يزداد اهتمامه
على الرغم من تدهور سلاحه الجوي الذي كان في يوم ما متناهيماً في القوة ،
بمجوهراته وقطاراته الدمي ، دون ان يترك وقتاً للاهتمام بالواقع البشع الناجم
عن حرب طويلة تزداد عنفاً وشدة .

ووصلت القوات الانكليزية - الامريكية بقيادة الفريق ايزنهاور الى
سواحل مراكش (المغرب) والجزائر في الساعة الواحدة والنصف من صباح
الثامن من تشرين الثاني عام ١٩٤٢ ، وفي الساعة الخامسة والنصف كان
ربينتروب يتحدث هاتفياً من ميونيخ الى شيانو في رومه ناقلاً اليه الانباء .
ودون شيانو في يومياته يقول :

« كان ثائر الاعصاب في حديثه وود ان يعرف ما ننتوي نحن
عمله . وارى ان اعترف انني قد فوجئت بالنبأ ، وكنت لا ازال

١ - علمت من تقويم هتلر اليومي الذي عثر عليه مع الوثائق المصادرة ان الاحتفالات قد
نقلت من حانة الجمعة القديمة التي وقع فيها الانقلاب حقا الى حانة الجمعة اخرى اكثر اناقة وهي
حانة لوين بروكلر . ولعل القراء يذكرون ان الحانة القديمة كانت قد تحطمت من جراء انفجار
القبلة الموقوتة التي كادت تقضي على الفوهرر ليلة الثامن من تشرين الثاني عام ١٩٣٩ .

أحسن بالنعاس لم استطع ان اعطيه رداً مرضياً .
وعلم وزير خارجية ايطاليا من السفارة الألمانية ان الموظفين فيها قد « فزعوا
من الضربة الجديدة » .

ولم يصل قطار هتلر الخاص من بروسيا الشرقية الى ميونيخ حتى الساعة
الثالثة والدقيقة الاربعين من بعد ظهر ذلك اليوم ، وكان اول ما تلقاه من انباء
عن نزول قوات الحلفاء في شمال غربي افريقيا من النوع المتفائل . (١) اذ قيل
له ان الفرنسيين يبذلون مقاومة عنيدة في كل مكان ، وانهم احبطوا محاولات
النزول في كل من الجزائر ووهران . وكان امير البحر دارلان ، وهو صديق
للألمان ، ينظم اعمال الدفاع في الجزائر بموافقة حكومة فيشي . أما ردود فعل
هتلر الاولى فكانت متضاربة تمام التضارب . واصدر امره بوجوب تقوية حامية
كريت التي كانت خارجة تماماً عن مسرح الحرب الجديد ، موضحاً ان مثل
هذه الخطوة لا تقل في اهميتها عن ارسال النجذات الى افريقيا . وأصدر أمراً
الى الغستابو بنقل الفريق ويغان والفريق جيرو فيشي والاحتفاظ بهما هناك
تحت الرقابة . (٢) وطلب الى المشير فون رونشتادت ان يهيء عملية « انطون »
شرط ان لا يجتاز بقواته خط الحدود الى فيشي الى ان يتلقى اوامر جديدة .
وطلب الى شيانو (٣) والى بيير لافال الذي كان قد غدا الآن رئيس وزراء حكومة

١ - اعتمدت في مصدري هنا كما في اماكن اخرى من هذا الفصل عن اجتماعات هتلر في
مقر قيادته العليا ، على ما يسمى بيوميات القيادة ، التي كان يعدها حتى ربيع عام ١٩٤٣
الدكتور هيلموت غرينر ، ليخلفه في اعدادها حتى نهاية الحرب الدكتور بيرسي ايرنست شرام .
وقد اُتلفت اليوميات الاصلية في مطلع ايار عام ١٩٤٥ بأمر من الفريق وينتر نائب يودل . وتولى
غرينر بعد انتهاء الحرب اعادة كتابة القسم الذي كان قد اعده هو من ملاحظاته الاصلية
ومسوداته وسلمه الى فرع التاريخ العسكري في وزارة الحربية الامريكية . وقد طبع جزء من
هذه المادة في كتاب غرينر نفسه .

٢ - كان الفريق جيرو يصل في تلك الساعة الى الجزائر . وكان قد فر من معسكر الماني
لابرى الحرب واقام في شمال فرنسا حيث نقلته غواصة بريطانية في الخامس من تشرين الثاني
الى جبل طارق للتشاور مع ايزنهاور قبل البدء بمعمليات الانزال .
٣ - دون شيانو في يومياته بتاريخ التاسع من تشرين الثاني : « هتف لي رينتروب =

فيشي مقابلته في ميونيخ في اليوم التالي .

وظلت فكرة التحالف مع فرنسا تداعب خيال هتلر مدة اربع وعشرين ساعة ، محاولاً ادخالها الحرب الى جانبه ضد بريطانيا وامريكا ، وحلها في الوقت الحاضر على تقوية تصميم بتان على مقاومة نزول الحلفاء في افريقيا . ويبدو انه لقي تشجيعاً لفكرته هذه من العمل الذي قام به بتان بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة صباح الاحد في الثامن من تشرين الثاني ومن بيان المشير الفرنسي العجوز الى القائم بالاعمال الامريكي من ان قواته ستقاوم الغزو الانكلو - امريكي . وتؤكد يوميات القيادة لذلك اليوم الأحد ان هتلر كان منشغلاً في اعداد « تعاون واسع النطاق مع الفرنسيين » . وقدم الممثل الألماني في فيشي ، كورغ فون نداءً ، في مساء ذلك اليوم نفسه ، اقتراحاً الى بتان لعقد تحالف وثيق بين المانيا وفرنسا . (١)

ولكن هتلر ما لبث ان غير فكره في الصباح التالي ، بعد ان القى خطابه التقليدي على مناضلي الحزب القدامى ، وهو الخطاب الذي اعلن فيه ان ستالينغراد باتت في ايدي الألمان بشكل حازم . وقد ابلغ شيانو ، بأنه لا يشك مطلقاً في رغبة الفرنسيين في القتال ، وانه صمم على احتلال فرنسا الكاملة ، والنزول بقواته في كورسيكا واقامت رأس جسر في تونس . وقد نقل هذا القرار دون تحديد الوقت الى لافال عندما وصل الى ميونيخ بالسيارة في العاشر من تشرين الثاني . ووعد الفرنسي الحائن بأن يحث بتان على الازعان لرغبات الفوهرر ولكنه اقترح ان يعطي الألمان بخططهم دون ترقب موافقة المشير الحرف ، وهو ما اراد هتلر ان يعمل به فعلاً . وقد ترك شيانو لنا وصفاً عن رئيس وزراء فيشي الذي اعدم بتهمة الخيانة بعد انتهاء الحرب ... هذا ما جاء فيه :

= اثناء الليل ، قائلا ان علي او على الدوتشي ان نذهب الى ميونيخ في أسرع وقت . وسيكون لافال هناك ايضا . ايقظت الدوتشي ولكنه لم يكن راغباً في الذهاب لا سيما وانه كان متعباً ومريضاً ، اذن سأذهب انا » .

١ - محاكمة المسيو بتان - شهادة لافال . ص ٢٠٢ .

« بدا لافال برباط عنقه الابيض وبزته التي تشبه ما يرتديه فلاحو الطبقة الوسطى في فرنسا ، غريباً كل الغرابة في ذلك اللهو الفسيح بين هذ العدد الضخم من اصحاب البزات العسكرية . وهو يحاول ان يتحدث بلهجة أليفة عن رحلته . وعن نومه الطويل في السيارة ، ولكن كلمات تمضي دون ان يأبه بها احد . ويعامله هتلر بشيء من الكياسة الباردة ... »

« ولم يكن في وسع المسكين ان يتصور « الأمر الواقع الذي سيواجهه به الألمان . ولم يحدثه احد عن العمل الوشيك الوقوع . وعن أن الأوامر باحتلال فرنسا قد صدرت بينما يجلس هو في الغرفة المجاورة يدخن سيجارته متحدثاً الى مختلف الناس . وذكر لي فون ريننتروب ان لافال سيلج بما هو حادث ، في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي ، وانه بالنظر الى ما ورد من معلومات فإن هتلر وجد نفسه مرغماً على اتخاذ اجرائه باحتلال البلاد . » (١)

وقد اصدر هتلر امره باحتلال ما تبقى من فرنسا ، متحدياً بذلك اتفاق الهدنة في الساعة الثامنة والنصف من مساء العاشر من تشرين الثاني ، وتم تنفيذه صباح اليوم التالي دون اي حادث ، سوى الاحتجاج الذي لاجدوى منه ، والذي قدمه بتان . واحتل الايطاليون كورسيكا ، وشرعت الطائرات الألمانية في نقل القوات لاحتلال تونس التي يسيطر عليها الفرنسيون قبل ان تصل اليها قوات ايزنهاور .

وكان ثمة قصة اخرى من قصص الخداع النموذجي الذي تميز به هتلر . ففي الثالث عشر من تشرين الثاني ، أكد الفوهرر لبتان ان الألمان والايطاليين لن يحتلوا طولون حيث يرباط الأسطول الفرنسي منذ توقيع الهدنة . وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني سجلت يوميات القيادة العليا للقوات المسلحة ان هتلر

قرر تنفيذ عملية «ليلي» في أسرع وقت ممكن ^(١) وكان «ليلي» هو الاسم الرمزي الذي اطلق على عملية احتلال طولون والاستيلاء على الاسطول الفرنسي . وهاجمت القوات الألمانية صباح السابع والعشرين القاعدة البحرية ولكن البحارة الفرنسيين صمدوا لها وقتاً مكن ملاحى السفن الحربية الفرنسية من تنفيذ تعليمات أمير البحر دي لا بورد بإغراقها وهكذا أضاع المحور الاسطول الفرنسي ، بعد ان كان في حاجة ماسة الى سفنه الحربية في المتوسط ، ولكن الاسطول ، ضاع كذلك بالنسبة الى الحلفاء الذين لو انضم اليهم لأضافوا قوة ثينة الى قوتهم .

وتقلب هتلر على ايزنهاور في السباق لاحتلال تونس . ولكن هذا النصر كان موضع الشك . فقد نقل بناء على امر هتلر نحو ربع مليون من الجنود الألمان والايطاليين لاحتلال رأس الجسر هذا . ولو كان الفوهرر قد بعث بنحو خمس هذه القوة والدبابات الى رومل قبل بضعة اشهر ، لكان من الممكن ان يكون ثعلب الصحراء ، قد وصل الآن الى ما وراء نهر النيل ، ولما كان مكنة الانكليز والامريكيين ان ينزلوا في افريقيا الشمالية الغربية ، ولخسر الحلفاء حوض البحر الابيض المتوسط خسارة كلية ، مؤمناً للمحور بذلك الوقاية السرية لبطنه . ولكن قدر لكل جندي ودبابة ومدفع ، اوفدها هتلر على جناح السرعة الى تونس في ذلك الشتاء وللبقية الباقية من الفيلق الأفريقي ان يضيع كلها في

١ - ارى من الانصاف ان نذكر ان هتلر شك كثيراً ، وكان له بعض الحق في ذلك ، في ان الاسطول الفرنسي قد يحاول الابحار الى الجزائر والانضمام الى الحلفاء . فعلى الرغم من تعامله الخائن مع الألمان وكراهيته العنيفة للبريطان ، كان أمير البحر دارلان ، الذي كان يزور ولده المريض في الجزائر آنذاك ، قد تعرض لضغط شديد من ايزنهاور ليعمل كقائد لفرنسا في افريقيا الشمالية ، لا بوصفه الضابط الفرنسي الوحيد الذي يستطيع وقف مقاومة الاسطول والجيش الفرنسيين للحلفاء فحسب ، بل لان في استطاعته ان يحمل أمير البحر الفرنسي الذي يقود الاسطول في طولون على الاسراع باسطوله الى افريقيا الشمالية للانضمام الى قوات الحلفاء البحرية ايضاً . ولكن هذه الامال ما لبثت ان تحطمت على الرغم من المحاولة التي قام بها دارلان . وقد تلقى من أمير البحر دي لا بورد رداً على الرسالة التي بعث بها اليها ، لنقل الاسطول من طولون الى افريقيا الشمالية ، عبارة واحدة تحمل الكثير من المعاني رغم خسرتها وهي عبارة « .. لعنة ! » راجع كتاب « محاكمة المشير بيتان » .

الربيع ، وان يمضي عدد آخر من الجنود الألمان الى اقفاص اسرى الحرب اكبر من العدد الذي اسر في ستالينغراد ، وهو المسرح الذي يجب ان نعود اليه الآن . (١)

كارثة ستالينغراد

كان هتلر والقادة الكبار من رجال القيادة العليا للقوات المسلحة يقضون وقتاً طيباً في الأجواء الاولية المحيطة ببرخستفان عندما وصلت اليهم الانباء الأولى عن الهجوم الروسي المضاد عند نهر الدون بعد بضع ساعات من شنه وسط زوبعة شديدة فجر التاسع عشر من تشرين الثاني . وعلى الرغم من ان الالمان كانوا يتوقعون هجوماً في هذه المنطقة ، إلا ان اركان القيادة لم يتوقعوا ان يكون من النوع الذي يتطلب عودة هتلر وكبار مستشاريه العسكريين من امثال كايتل ويودل بسرعة بالغة الى مقر القيادة في بروسيا الشرقية ، بعد الخطاب الداوي الذي ألقاه الفوهرر في حانة الجمعة على رفاقه القدامى عشية الثامن من تشرين الثاني . وهكذا فقد انتجعوا شيئاً من الراحة في هذا الجو الجلي المحيط ببرخستفان .

وقد قطع عليهم راحتهم هذه ، نداء هاتفي مستعجل من الفريق زيتزلر الرئيس الجديد لهيئة اركان الحرب ، الذي كان قد تخلف عنهم في راستينبرغ . وكان ينقل اليهم انباء وصفتها يوميات القيادة العليا بأنها « مفزعة للغاية » . وتمكنت قوة مدرعة روسية هائلة في الساعات الأولى من الهجوم من اختراق جبهة الجيش الروماني الثالث بين سيرافيموفيتش وكليتسكايا على نهر الدون الى الشمال الغربي من ستالينغراد . والى الجنوب من المدينة المحاصرة شرعت قوات سوفياتية

١ - يقول ايزنهاور ان قوات المحور بلغت ٢٤٠ ألف جندي بينها ١٢٥ ألفاً من الالمان والباقي من الايطاليين . وتضمنت هذه الارقام اولئك الذين استسلموا في الاسبوع الاخير من الحملة اي من ٥ حتى ١٢ ايار ١٩٤٣ . (حملة صليبية في اوربا ص ١٥٦) .

هوية اخرى تهاجم بضراوة الجيش الالماني المدرع الرابع والجيش الروماني الرابع ، وباتت تهدد جبهة الجيشين بالاختراق .

وكان هدف الروس واضحاً لكل من يتطلع الى الخريطة ، وكان هذا واضحاً بصورة خاصة لزيترلر ، الذي عرف من مخبراته العسكرية ان العدو قد حشد ثلاثة عشر جيشاً مع ألوف الدبابات في الجنوب لقطع ستالينغراد وكان الروس يندفعون بهذه القوة الهائلة من الشمال والجنوب لقطع ستالينغراد وارغام الجيش الالماني السادس إما على التراجع بسرعة الى الغرب أو الاقتناع بالحصار . وادعى زيترلر فيما بعد ، انه عندما رأى هذا الخطر ، حث هتلر على السماح للجيش السادس بالانسحاب من ستالينغراد الى منحى الدون ، حيث كان في الامكان تثبيت الجبهة المحطمة . ولكن مجرد صدور هذا الاقتراح قذف بهتلر في سورة من سورات غضبه .

وصرخ القائد الأعلى قائلاً : « لن اتخلى عن نهر الفولغا ... لن ارجع عن الفولغا » . وهنا انتهى كل شيء . ولكن هذا القرار الذي اتخذ في سورة من سورات الغضب أدى الى كارثة . وأصدو هتلر أمراً شخصياً الى الجيش السادس بالصمود حول ستالينغراد (١) .

وعاد هتلر وأركان حربه الى مقر القيادة العليا في الثاني والعشرين من تشرين الثاني . وكانت الانباء التي وصلت في هذا اليوم الرابع من الهجوم

١ - يوجد مقال الفريق زيترلر عن معركة ستالينغراد في كتاب « القرارات القدرية » من اعداد فريدين وقد اعتمدت عليه في كتابة هذا الجزء . ومن المصادر الاخرى يوميات القيادة العليا الالمانية وكتاب هولدر ، وكتاب هاينز شرويتز . « ستالينغراد » . وقد تمكن شرويتز وهو مراسل حربي الماني كان مع الجيش السادس من الوصول الى سجلات القيادة العليا ورسائلها الاذاعية والبرقية مع مختلف القيادات والى اوامر العمليات الحربية والغرائب العسكرية والاوراق الخاصة لعدد من الذين شهدوا معركة ستالينغراد . وقد تمكن من الخلاص من المدينة قبل استسلامها ، وعهد اليه بكتابة القصة الرسمية لمعركة ستالينغراد ، ولكن الدكتور غوبلز منع طباعة كتابه . وتمكن شرويتز من انقاذ مسودة الكتاب بعد الحرب وواصل دراساته للمعركة قبل ان يعيد كتابته من جديد .

مفجعة . فقد التقى الجيشان السوفييتان الزاحفان من الشمال والجنوب عند كالاخ التي تقع على بعد اربعين ميلاً الى الغرب من ستالينغراد عند منحني الدون . ووصلت في المساء رسالة لاسلكية من الفريق باولوس قائد الجيش السادس تؤكد تطويق قواته . وأصدر هتلر فوراً أوامره الاذاعية الى باولوس بنقل قيادته الى المدينة للدفاع عنها بإصرار وعناد ، واكد ان تموين الجيش سيتم عن طريق الطائرات الى ان يتم انقاذه .

لكن هذا الحديث لم يكن أكثر من مجون وهذر . فهناك عشرون فرقة المانية وفرقتان رومانيتان تم تطويقهما في ستالينغراد . ورد باولوس بإشارة اذاعية يقول ان هذه القوات تحتاج الى (٧٥٠) طناً من المؤن يومياً . وكان هذا الرقم فوق طاقة السلاح الجوي الالماني الذي كان يفتقر الى العدد المطلوب من طائرات النقل . وحتى لو كان هذا العدد متوافراً ، لما كان في امكان هذه الطائرات ان تخترق الزوابع والاعاصير ، عبر منطقة حقق فيها الروس الآن التفوق في طائرات القتال . ومع ذلك أكد غورنغ هتلر ان في وسع سلاحه الجوي ان يؤدي المهمة . ولكنه لم يستطع حتى الشروع فيها .

وكان انقاذ الجيش السادس المطوق ، احتمالاً اكثر عملية وتفاؤلاً . واستدعى هتلر في الخامس والعشرين من تشرين الثاني المشير فون مانشتاين ، اكثر قادته في الميدان كفاية وموهبة عسكرية ، فجاء من جبهة ليننغراد ليتولى قيادة التشكيلة الجديدة التي تم خلقها والتي اطلق عليها اسم مجموعة جيوش الدون . وكانت مهمته ان يندفع من الجنوب الغربي وان ينجد الجيش السادس في ستالينغراد .

ولكن الفوهرر فرض الآن شروطاً مستحيلة على قائده الجديد . وحاول مانشتاين ان يوضح له ، ان الأمل الوحيد في النجاح ، يقوم في محاولة الجيش السادس المحصور الخروج من ستالينغراد باتجاه الغرب ، بينما تقوم قواته هو ، التي يؤلف الجيش المدرع الرابع طليعتها ، بالضغط باتجاه الشمال الشرقي ضد الجيوش الروسية التي تقوم حاجزاً بين القوتين الالمانيتين . ولكن هتلر رفض مرة ثانية

الانسحاب من نهر الفولغا . فعلى الجيش السادس ان يبقى في ستالينغراد وعلى
مانشتاين ان يشق طريقه اليه فيها .

وحاول مانشتاين اقناع سيد الحرب الأعلى باستحالة تحقيق خطته ، فالقوة
الروسية ضخمة للغاية . ومع ذلك ، فقد شن مانشتاين وقلبه مفعم بالأسى هجومه
في الثاني عشر من كانون الاول . وقد اطلق على هذه العملية اسم « عملية زوابع
الشتاء » ، اذ ان الشتاء الروسي كان قد بلغ أشده الآن في السهوب الجنوبية ،
مكثراً الثلوج في تلال عالية ، وهابطاً بدرجة الحرارة دون الصفر . وحقق
الهجوم في البداية بعض النجاح ، وتمكن الجيش المدرع الرابع الذي يقوده الفريق
هوث من الاندفاع باتجاه الشمال الشرقي على جانبي السكة الحديدية الممتدة من
كوتلينيكوفسكي الى ستالينغراد التي تبعد نحواً من خمسة وسبعين ميلاً . وعندما
حل التاسع عشر من كانون الاول كان هذا الجيش قد بلغ في زحفه الى بعد أربعين
ميلاً من القطاع الجنوبي للمدينة ، وبات في الواحد والعشرين على بعد ثلاثين
ميلاً ، واصبح في مكنة القوات المحاصرة من الجيش السادس ان ترى عبر السهوب
الثلجية في الليل ، اشارات النور التي يطلقها منقذوها .

وأكد القادة الألمان في شهاداتهم ، انه كان في وسع الجيش المحاصر في
ستالينغراد في هذه الآونة ان يحاول الخلاص بالزحف باتجاه الجيش الرابع
المدرع ، وان يحقق النجاح المطلوب . ولكن هتلر عاد من جديد بمنع الجيش
السادس من المحاولة . وأبرق زيتلر في الواحد والعشرين الى باولوس بيلفه سماح
الزعيم للقوات بمحاولة شق طريقها ، شريطة ان تحتفظ في الوقت نفسه بمواقفها
في ستالينغراد . ويقول رئيس هيئة أركان الحرب ، ان هذه المحاولة المطبقة
كادت تؤدي به الى الجنون .

وعاد زيتلر يقول فيما بعد : « وفي الليلة التالية توصلت الى هتلر ان يسمح
بعملية الاختراق والنجاة . وقلت له ان هذه هي فرصتنا الاخيرة لانقاذ مائتي
الف رجل من جيش باولوس » .

« ولكن هتلر » يرفض . . . ويصر على رفضه . وحاولت عبثاً

ان اشرح له الأوضاع داخل القلعة المزعومة . من ياس الجنود الجياع
وفقدتهم الثقة في قيادتهم العليا ، والجرحى الذين يلقون حتفهم
بسبب الافتقار الى العناية الطبية اللازمة ، بينما يتجمد الألوف من
البرد حتى الموت . ولكنه ظل يصم أذنيه عن الاستماع الى هذه
الحجج التي قدمتها » .

وفشل الفريق هوت في قطع الثلاثين ميلاً الباقية الى ستالينغراد في وجه
مقاومه روسية أخذت في الازدياد في وجهه وعلى جناحيه . وكان يعتقد انه لو
حاول الجيش السادس خرق الحصار ، لم الاتصال بين الجيشين ، ولكان في
وسعها ان ينسجبا معاً الى كوتيلنيكوفسكي . وكان مثل هذا العمل كافياً لانقاذ
نحو من مائتي روح المانية ^(١) . وكان من المحتمل ان يتحقق ذلك بين الواحد
والعشرين والثالث والعشرين من كانون الاول . ولكن هذا العمل بات مستحيلاً
بعد ذلك التاريخ . فلقد كان هوت جاهلاً بأن الجيش الاحمر قد وجه ضربته
من الشمال . وبات الآن يهدد الجناح الأيسر لمجموعة جيوش الدون كلها . وهتف
مانشتاين في الثاني والعشرين من كانون الاول الى هوت يأمره بإعداد نفسه لتلقي
أوامر خطيرة جديدة . وجاءت الأوامر في اليوم التالي ، وهي تقضي على هوت
بالتخلي عن زحفه الى ستالينغراد ، وان يوفد إحدى فرق المدرعة الثلاث الى
جبهة الدون في الشمال ، وان يدافع عن نفسه حيث هو ، وبكل ما تبقى لديه
من قوات ، أطول مدة ممكنة .

وهكذا فشلت محاولة انقاذ ستالينغراد .

١ - ذكر المشير فون مانشتاين في مذكراته التي كتبها بعد الحرب انه في التاسع عشر
من كانون الاول امر خلافا لاوامر الفوهرر ، الجيش السادس ، ان يبدأ محاولة الاختراق من
ستالينغراد نحو الجنوب الشرقي ليتصل بالجيش الرابع المدرع . وقد نشر في كتابه نص الامر
الذي اصدره ، ولكنه تضمن بعض التحفظات ، التي حيرت باولوس الذي كان لا يزال خاضعاً
لاوامر هتلر بعدم القيام بالمحاولة . ويضيف مانشتاين ان « هذه كانت الفرصة الأخيرة
الوحيدة امامنا لانقاذ الجيش السادس » (مانشتاين - الانتصارات الضائعة ، ص ٣٣٦ -
٣٤١ وص ٥٦٢ - ٥٦٣) .

وكانت اوامر مانشتاين الخطيرة الجديدة ، نتيجة الانباء المفزعة التي وصلت اليه في السابع عشر من كانون الأول . ففي صباح ذلك اليوم تمكن جيش سوفياتي من اختراق جبهة الجيش الايطالي الثامن في الشمال على الدون عند بوغوشار ، ولم يحل المساء حتى كان يفتح ثغرة عمقها سبعة وعشرون ميلاً . ولم تمض ثلاثة ايام حتى كانت الفجوة قد بلغت في عرضها تسعين ميلاً ، بينما فرق الايطاليون في هلع من الميدان واخذ الجيش الروماني الثالث الى الجنوب في الانحلال والتفسخ ولا سيما بعد الضربات العنيفة التي تعرض لها في المرحلة الاولى من الهجوم الروسي في التاسع عشر من تشرين الثاني . ولم يكن من المستغرب والحالة هذه ان يطلب مانشتاين النجدة من قوات هوث المدرعة لتساعده في سد الفجوة . وادت هذه الخطوة الى سلسلة من ردود الفعل .

ولم تتراجع جيوش الدون وحدها ، بل تراجعت معها قوات هوث ايضاً ، وهي التي كانت قد باتت على مقربة من ستالينغراد . وادت هذه الانسحابات الى تهديد الجيش الألماني في القفقاس ايضاً . اذ ان وصول القوات السوفياتية الى روستوف على بحر آزوف يهدد طريق رجعته . وبعد يوم أو يومين من عيد الميلاد لفت زيتزلر نظر هتلر الى الحقيقة الواقعة ، وهي انه ما لم يأمر بالانسحاب من القفقاس الآن فإن الألمان سيواجهون ستالينغراد ثانية . وأصدر القائد الأعلى ، وهو برم تعليماته بالانسحاب في التاسع والعشرين من كانون الأول الى مجموعة جيوش (أ) التي يتولى كلايست قيادتها والتي تضم الجيش المدرع الأول والجيش السابع عشر ، والتي فشلت في تحقيق مهمتها في الاستيلاء على حقول الزيت في غروزني . وبدأت هذه القوات ايضاً تراجعاً طويلاً بعد ان كانت على قاب قوسين أو ادنى من هدفها .

وحملت الانتكاسات التي مني بها الألمان في روسيا والجيوش الالمانية الايطالية في شمال افريقيا موسوليني على التفكير . وكان هتلر قد دعاه للمجيء الى سالزبرغ للتحديث اليه في اواسط شهر كانون الأول ، وقبل الدعوة الدوتشي المريض ، الذي كان يراعي الآن حمية شديدة من جراء اوجاع معدته ، على الرغم

من أنه قال لسيانو انه سيذهب الى هناك بشرط واحد فقط ، وهو ان يتناول وجبات طعامه وحيداً ، « لأنه لا يريد ان يراه الألمان النهمون وهو يعيش على الارز والحليب » .

وقرر موسوليني ان الوقت قد حان لابلغ هتلر بوجوب تخفيض خسائره في الشرق ، والوصول الى نوع من المساومة مع ستالين ، وتركيز قوة المحور للدفاع عما تبقى من شمال افريقيا والبلقان واوروبا الغربية. وراح يقول لسيانو: « سيكون عام ١٩٤٣ ، سنة الجهد من الانكليز والامريكان » . وعجز هتلر عن مغادرة مقر قيادته في الشرق لمقابلة موسوليني ، فسافر شيانو تلك المسافة الطويلة الى راستنبرغ في الثامن عشر من كانون الأول ، وكرر ، دون تعليقات من الدوتشي على مسامع الفوهرر ، اقتراحات موسوليني . وظهر هتلر زرايته بهذه الاقتراحات واكد لوزير خارجية ايطاليا ، ان في وسعه ، دون ان يضعف الجبهة الروسية ، ايفاد قوات اضافية جديدة الى شمال افريقيا التي يجب الحفاظ عليها . وقد وجد شيانو الروح المعنوية عند الالماني في مقر القيادة العليا في اسوأ حالاتها ، على الرغم من تأكيدات هتلر المطمئنة . فدوّن في يومياته يقول :

« الجو كئيب وثقيل . فبالاضافة الى الانباء السيئة ، هناك هذا الجو الحزين الذي يخيم على هذه الغابة الكئيبة ، والملل الذي ينتج عن الحياة الجماعية في الثكنات .. ولا يحاول انسان ان يخفي عني ما يحسون به جميعاً من تعاسة من انباء خرق الروس للجبهة . وهناك محاولات مفضوحة لإلقاء اللوم علينا » .

وكان الناجون من الجيش الايطالي الثامن ، عند الدون ، يحاولون الفرار بأرواحهم ، وعندما حاول احد اعضاء حاشية شيانو ان يسأل احد ضباط القادة العليا الالمانية عما اذا كان الايطاليون قد منوا بخسائر فادحة ، رد عليه الضابط قائلاً : « ليست هناك خسائر ، لأنهم يركضون فراراً ^(١) » .

١ - يوميات شيانو ص ٥٥٦ ، وتوجد اقتراحات موسوليني في يوميات القيادة العليا بتاريخ ١٩ كانون الاول .

واذا كانت القوات الالمانية في القفقاس وفي الدون ، لم تفر رাকضة ، فإنها كانت تتراجع بأقصى سرعة ممكنة لتجنب خطر التطويق . وكان كل يوم جديد من مستهل عام ١٩٤٣ يحمل معه انباء تراجعهم مسافة جديدة عن ستالينغراد . وقد حان الوقت الآن للروس للقضاء على الألمان هناك . ولكنهم أتاحوا أولاً للجنود الذين تقرر مصيرهم من رجال الجيش السادس الفرصة للنجاة بحيودهم . ودخل ثلاثة من الضباط الشبان في الجيش الأحمر ، صبيحة الثامن من كانون الثاني عام ١٩٤٣ ، الخطوط الألمانية وهم يحملون الراية البيضاء ، عند القطاع الشمالي لمدينة ستالينغراد ، ووجهوا انذاراً نهائياً الى الفريق باولوس من الفريق رو كوسوفسكي قائد القوات السوفياتية في جبهة الدون . وبعد ان ذكره الإنذار بأن جيشه بات معزولاً ، وبأن النجدة لا تستطيع الوصول اليه ، ولا التموينات من الجـر ، اضاف قائلاً :

« بات وضع قواتك يائساً . ان جنودك يعانون من الجوع والمرض والبرد . ولم يبدأ الشتاء الروسي الغليظ القلب بعد . فأمامكم صقيع قاس ورياح قرّة ، وأعاصير شديدة . وليست لدى جنودك ملابس شتوية تقيهم البرد القارس ، والأوضاع الصحية رهيبة ومفرغة . وهكذا فإن وضعك يائس وليس لأية مقاومة اخرى من معنى . »
وبالنظر الى هذه الاوضاع وتجنباً للزيد من سفك الدماء ، فإننا نقترح عليك القبول بالشروط التالية للتسليم . . .

وكانت الشروط مشرفة للغاية . فسيعطى للأسرى جميعاً حصص غذائية عادية . وسيحصل الجرحى والمرضى والمصابون بعضة البرد على العلاج الطبي . وفي وسع جميع الأسرى الحفاظ على أشرطة رتبهم ، وأوسمتهم ، وحاجياتهم الخاصة . ومنح باولوس اربعاً وعشرين ساعة للرد على هذا الانذار .

وعلى الفور بعث باولوس بنص الانذار الى هتلر ، طالباً منه السماح له بحرية العمل . ولكن سيد الحرب الأعلى رفض طلبه فوراً . وبعد اربع وعشرين ساعة من انقضاء المهلة المحددة في طلب التسليم ، في صباح العاشر من كانون الثاني ،

استهل الروس المرحلة الأخيرة من معركة ستالينغراد بقصف مدفعي شديد من نحو من خمسة آلاف مدفع .

وكان القتال الذي تلا مرأً ودموياً . وحارب الفريقان ببسالة وتهور على الحطام المتجمد من اطلال المدينة ، ولكن حريهم لم تطل ، اذ لم تمض ستة ايام حتى كان الجيب الألماني قد تقلص الى النصف أو الى بقعة سعتها خمسة عشر ميلاً طوياً وتسعة اميال عرضاً . وفي الرابع والعشرين من كانون الثاني تم تمزيق الجيب الى جزئين ، وخسر الألمان آخر ارض تصلح للطيران ، ولم يعد في وسع الطائرات التي جاءت لهم ببعض المؤن ولا سيما بالعلاجات الطبية للمرضى والجرحى ، والتي نقلت نحواً من تسعة وعشرين الف مريض الى المستشفيات ان تهبط في حطام المدينة .

وعاد الروس فأتاحوا لعدوهم الباسل الفرصة من جديد للاستسلام . ووصل المبعوثون الروس الى الخطوط الألمانية في الرابع والعشرين من كانون الثاني حاملين عرضاً جديداً . وعاد باولوس يتنازعه واجبه في اطاعة اوامر الفوهرر المجنون ، والتزامه بانقاذ جنوده الاحياء من خطر الابادة يناشد الفوهرر فأبرق اليه في الرابع والعشرين من كانون الثاني رسالة بالراديو هذا نصها :

« بات الجنود بلا عتاد أو طعام .. لم تعد القيادة الفعالة ممكنة .. عندي ثمانية عشر الفا من الجرحى دون مؤن أو عقاقير أو لفافات .. بات الدفاع مدة أطول لا معنى له . اصبح الانهيار محتوماً . يطلب الجيش الأذن الفوري بالاستسلام لانقاذ ارواح من تبقى من الجنود » .

وقد حفظ رد هتلر في الوثائق وهذا نصه :

« أمنكم من الاستسلام ، على الجيش السادس ان يحافظ على مواقعه حتى الرجل الأخير والطلقة الأخيرة ، وسيساهمون بصبرهم البطولي إسهاماً لا ينسى في اقامة جبهة دفاعية وانقاذ العالم الغربي ... »

العالم الغربي !! لقد كانت هذه العبارة برشامة مرة للجيش السادس الذي قاتل ضد ذلك العالم في فرنسا وفي الفلاندرز قبل وقت قصير .

ولم تكن المقاومة لأمد أطول غير مجدية ، ولا منطقية فحسب ، بل كانت مستحيلة ايضاً ، وعندما اقترب شهر كانون الثاني عام ١٩٤٣ من نهايته ، كانت المعركة الاسطورية قد انتهت من نفسها ، متضائلة كلهب شمعاً أخذ في التضاؤل الى ان خفت وانتهى . ولم يحل الثامن والعشرون من كانون الثاني حتى كان ما تبقى من جيش عظيم في يوم ما ، قد تجزأ الى ثلاثة جيوب ، في الجنوبي منها يقع مقر قيادة الفريق باولوس الذي اقامه في قبو ما تبقى من حطام حانوت ضخمة لبيع مختلف انواع السلع . ويقول شاهد عيان ، ان القائد العام جلس على سريره السفري في زاوية معتمدة في حالة تقرب من الانهيار..

ولم يكن باولوس في هذه الآونة ولا جنوده ، في حالة تسمح لهم بتقبل سيل الرسائل البرقية الذي بدأ ينهال عليهم لتهمتهم ببطولتهم . وبعث غورنغ الذي كان يتمتع بعض الوقت بشمس ايطاليا الدافئة في الشتاء ، زاهياً بمعطفه الثمين من الفراء ، وبالخواتم والجواهر المتألقة في اصابعه برسالة اذاعية في الثامن والعشرين قال فيها : « سيخلد التاريخ النضال البطولي الذي خاضه الجيش السادس ، وستحدث الأجيال المقبلة ببسالة عن جرأة لانفيارك ، وعن صلابة القصر (في اسبانيا) ، وعن شجاعة نارفيك ، والتضحية بالذات في ستالينغراد » .

ولم يتسرب المرح الى صدورهم وهم يصفون في الليلة الاخيرة ، ليلة الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٤٣ ، وهي الذكرى العاشرة لوصول النازيين الى الحكم الى مشير الرايخ البدين وهو يلقي اذاعته المليئة بالخيلاء والغرور فيقول :

« سيتحدث الناس والألمان بعد ألف عام عن هذه المعركة (ستالينغراد) بما تستحقه من اجلال ومهابة ، وسيذكرون ، انه على الرغم من كل شيء ، فإن نصر المانيا النهائي قد تقرر فيها ... وستحدث الناس في السنوات المقبلة عن المعركة البطولية على نهر

الفولغا ويقولون: اذا جئتم المانيا، قولوا انكم رأيتمونا في ستالينغراد
نموت دفاعاً عن شرفنا واطاعة لأمر قادتنا كما يجب ان نموت في
سبيل مجد المانيا .

وهكذا بلغت ايجاد الجيش السادس وآلامه الفظيعة نهايتها . وبعث باولوس
في الثلاثين من كانون الثاني ، رسالة اذاعية الى هتلر : « لن يتأخر الانهيار
النهائي اكثر من اربع وعشرين ساعة » .

وحفزت هذه الاشارة القائد الأعلى على ان يطر الضباط الذين تقرر مصيرهم
في ستالينغراد بسلسلة من الترقيات ، آملاً في ان تؤدي الى التشديد من عزيمتهم
على الموت موتاً مجيداً في مراكزهم التي تغمرها الدماء . وقال هتلر ليودل : « لم
يحدث قط في تاريخ المانيا العسكري ان أسر قائد برتبة المشير » .. وراح ينعم
على باولوس برتبة المشير برسالة اذاعية . ورفع نحواً من ١١٧ ضابطاً آخرين الى
رتب أعلى . فكانت اياماً من ايماءات المقابر .

وكانت النهاية في حد ذاتها ، ذروة في التخاذل . وبعث باولوس في اليوم
الاخير من كانون الثاني برسائلته الاخيرة الى مقر القيادة .

« لقد صمد الجيش السادس وفاء منه بقسمه ، وإدراكاً لأهمية
رسائلته السامية في مراكزه حتى الرجل الأخير والطلقة الأخيرة
في سبيل الزعيم والوطن » .

وبعث عاملاً اللاسلكي في مقر قيادة الجيش السادس في الساعة السابعة
والدقيقة الخامسة والاربعين رسائلته الاخيرة من جانبه .. « ان الروس على
ابواب المخزن الذي نحن فيه . وها نحن نحطم اجهزتنا » و اضاف حرفي (CL)
وهما الاشارة اللاسلكية المتفق عليها دولياً لترمز الى ان هذه المحطة قد توقفت
عن البث » .

ولم يدر هناك قتال في اللحظة الاخيرة في مقر القيادة . ولم يصمد باولوس
واركان حربه حتى الرجل الاخير . ومدت ثلة من الروس يقودها ضابط صغير
برؤوسها الى الجحر المعتم الذي يقيم فيه القائد العام .. وطلب الروس منه التسليم

فوافق رئيس اركان حرب الجيش السادس الفريق شميدت على التسليم . وجلس المشير باولوس حزينا على سريره . وعندما وجه شميدت اليه الحديث قائلاً : « هل لي ان اسأل المشير اذا كان ثمة ما يقال ايضاً ؟ » كان المشير اكثر تعباً من ان يرد على رئيس اركان حربيه .

وظل جيب الماني صغير يضم كل ما تبقى من فرقتين مدرعتين وأربع فرق للمشاة صامداً في الشمال في خرائب مصنع للجرارات . وتلقى هذا الجيب ليلة الأول من شباط رسالة من مقر قيادة الفوهرر تقول :

« ينتظر الشعب الألماني منكم ان تقوموا بواجبكم تماماً كما فعل الجنود في القلعة الجنوبية . وكل يوم بل وكل ساعة تواصلون القتال فيها ، يسهلان علينا اقامة جبهة جديدة » .

واستسلمت هذه الجماعة قبل ظهر الثاني من شباط بعد ان بعثت برسالة اخيرة الى القائد الأعلى ... « لقد حاربنا حتى الرجل الأخير ، ضد قوات هائلة تفوقنا عدداً . عاشت المانيا » .

وخيم الصمت اخيراً على ميدان المعركة الذي تغطيه الثلوج وتنتشر فوق حطامه الدماء . وحلقت في الساعة الثانية والدقيقة السادسة والأربعين من بعد ظهر الثاني من شباط طائرة استطلاع المانية فوق المدينة وبعثت بالرسالة الاداعية التالية : « ليس ثمة اية اشارة على وجود قتال في ستالينغراد » .

وفي ذلك الوقت كان نحو من (٩١) الف جندي الماني بينهم اربعة وعشرون فريقاً نصفهم يتضورون جوعاً ويئونون من عضه البرد ، والكثيرون منهم جرحى ، وجلهم ذاهلون محطمون ، يحجلون فوق الثلوج والجليد ، يضعون « حراماتهم » التي غسلتها الدماء فوق رؤوسهم في درجة حرارة تقل عن الصفر بأربع وعشرين ، متجهين الى معسكرات الاسرى المتجمدة في متاهات سيبيريا . واذا ما استثنينا عشرين الف روماني وتسعة وعشرين الف جريح تم اخذهم جواً فقد كان هؤلاء كل ما تبقى من جيش فاتح ، كان يعد نحواً من (٢٨٥) الفاً قبل شهرين ليس إلا . أما الباقون فقد ذبحوا ذبح النعاج . ولم يقدر

إلا خمسة آلاف فقط من هؤلاء الواحد والتسعين ألفاً الذين بدأوا سيرهم المجهد نحو الأسر ، في ذلك اليوم من أيام الشتاء ، ان تكتحل عيونهم بمرأى الوطن ثانية (١) .

وفي غضون ذلك كان سيد الحرب النازي يعود الى مقر قيادته الدافئ في بروسيا الشرقية ، وهو المسؤول بعناده وبلادته عن هذه الكارثة ، وينحي باللامة على قادته العسكريين في ستالينغراد ، لأنهم لم يعرفوا كيف ومتى يموتون . وقد عاشت سجلات أحد المؤتمرات التي عقدها هتلر في مقر قيادته مع فرقائه في الأول من شباط ، الى ما بعد الحرب لتلقي ضوءاً على طبيعة الديكتاتور النازي في تلك الفترة القاسية من حياته ومن حياة جيشه وبلاده .. ولتتحدث بصراحة عن هذه الطبيعة ...

« لقد استسلموا هناك ، رسمياً ، وكلياً . وكان في إمكانهم ان ينظموا صفوفهم ، وان يؤلفوا متراًساً دفاعياً كالقنافذ ، ثم يطلقون النار على انفسهم بآخر الطلقات المتبقية لديهم ... كان من واجب الرجل (باولوس) ان يقتل نفسه ، تماماً كما كان يفعل القادة السابقون اذ يلقون انفسهم على سيوفهم عندما يرون انفسهم خاسرين ... وحتى فاروس ، اصدر امره الى عبده قائلاً : « والآن اقتلني ... »

واخذ حقد هتلر على باولوس ، لانه قرر ان يعيش ، يزداد سماً كل ما عادت به افكاره الى ذلك الموضوع :

« وعليكم ان تفكروا انهم سيحملونه الى موسكو .. وتصوروا المأزق الذي سيقع هناك ... انهم سيحملونه على توقيع ما يريدون ... وسيقدم لهم اعترافات كثيرة ... ويصدر بيانات ...

١ - هذه هي الارقام التي اوردتها حكومة بون في عام ١٩٥٨ . وقد مات كثيرون من الاسرى من جراء انتشار وباء التيفوس في الربيع المقبل .

وسوف ترون . انهم سيسرون الآن في منحدر الافلاس الروحي الى اقصى اعماقه ... وسترون ان اسبوعاً واحداً لن ينقضي ، قبل ان يتحدث سايدليتز وشميدت وحتى باولوس من الاذاعة (١) ... وسينقلونهم بعد ذلك الى ليوبلانكا حيث ستأكلهم الجرذان هناك .. فكيف يمكن للمرء ان يكون جباناً على هذا النحو ؟ انني لا استطيع ان افهم ذلك ...

« وما هي الحياة . ان الحياة هي الأمة . والفرد ميّت على أي حال . ووراء حياة الفرد تقوم حياة الأمة . فكيف يمكن للمرء ان يخاف من هذه اللحظة التي يموت فيها ، والتي يستطيع ان يحرر فيها نفسه من هذا الشقاء ، اذا كان واجبه لا يستطيع ان يقيده الى وادي الدموع هذا . لا !

« وهكذا يتحتم على الكثيرين من الناس ان يموتوا ، ثم يظهر رجل واحد يلوّث بطولات الكثيرين ، في اللحظة الاخيرة . وكان في وسعه ان يحرر نفسه من جميع الاحزان وان يمضي الى الأبدية ، والى الخلود القومي ، ولكنه آثر ان يمضي الى موسكو !..

« وما يؤلني شخصياً أشد الألم هو انني رفّفته الى رتبة المشير . كنت أريد ان أقدم له هذه الترقية الاخيرة . انه المشير الاخير الذي سأعينه في هذه الحرب . على المرء ان لا يعد « الصيصان » قبل تفريخ البيوض (٢) » .

وتبع ذلك تبادل قصير في وجهات النظر بين هتلر والفريق زيتلر ، عن

١ - كان هتلر على حق في تكهنه ، باستثناء التوقيت ليس الا . فلم يحل تموز من الصيف التالي حتى كان باولوس وسيدليتز اللذان اصبحا قائدي ما اطلق عليه اسم اللجنة الوطنية لالمانيا الحرة ، قد اذاعا من محطة اذاعة موسكو ، رسائل تحت الجيش الالمانى على التخلص من هتلر .

٢ - فيليكس جيلبرت - هتلر يوجه حربه . ص ١٧ - ٢٢ . والكتاب مجموعة من الوثائق عن مؤتمرات هتلر .

الطريقة التي يمكن بها نقل انباء الاستسلام الى الشعب الالماني . ففي الثالث من شباط أي بعد ثلاثة ايام من العملية ، اصدرت القيادة العليا للقوات المسلحة البلاغ الخاص التالي :

« انتهت معركة ستالينغراد . وقد قاتل الجيش السادس وفاء منه لقسمه بالقتال حتى النفس الاخير قتال الابطال في ظل القيادة المثالية للمشير باولوس ، ولكن تغلب عليه العدو بفضل تفوقه العددي الهائل ، وبفضل الظروف القاسية التي واجهت قواتنا » .
وقد سبق عزف الطبول تلاوة هذا البلاغ من الاذاعة الالمانية ، وعزفت بعد انتهاء البلاغ القطعة الثانية من سيمفونية بتهوفن الخامسة . وأعلن هتلر الحداد العام اربعة ايام ، وأغلقت في هذه المدة جميع المسارح ودور السينما وقاعات الرقص .

* * *

وكتب وولتر غويرليتز المؤرخ الالماني في كتابه عن هيئة اركان الحرب يقول : « كانت ستالينغراد بمثابة « بينا » ثانية ، وكانت ولا ريب أعظم هزيمة مني بها أي جيش الماني في تاريخه ^(١) » .

ولكنها كانت اكثر من ذلك . فهي تمثل مجتمعة مع معركة العلمين ومع نزول القوات البريطانية والامريكية في شمال افريقيا اعظم نقطة تحول في تاريخ الحرب الكونية الثانية . فالمد العالي للفتوحات النازية الذي اجتاح معظم انحاء اوروبا حتى حدود آسيا على نهر الفولغا . واجتاح افريقيا حتى نهر النيل تقريباً قد بدأ يتحول الى جزر الآن ، ولن يعود الى حالة المد ابدأ . وقد انتهى الآن عهد الهجمات النازية العظيمة الصاعقة ، التي تستخدم فيها ألوف الدبابات والطائرات والتي تنشر الفزع في صفوف جيوش العدو ممزقة إياها شر ممزق . وقد تقع حتماً هجمات محلية يائسة ، كهجوم خاركوف في ربيع عام ١٩٤٣ وهجوم

١ - غويرليتز - تاريخ هيئة اركان الحرب الالمانية ص ٤٣١ .

الاردنين في اعياد ميلاد عام ١٩٤٤ . ولكنها تؤلف في مجموعها جزءاً من النضال الدفاعي ، الذي قدر للألمان أن يمضوا فيه بصلابة هائلة وبسالة عظيمة ، طيلة السنتين الاخيرتين من الحرب . وقد انتقل زمام المبادرة من ايدي هتلر ، ولن يعود قط اليهما . واصبح هذا الزمام الآن في ايدي اعدائه وسيظل فيها . وهذا لا يقتصر على الحرب في الارض فحسب ، بل وفي الهواء ايضاً . وفي ليلة الثلاثين من ايار عام ١٩٤٢ ، قام البريطانيون بأول هجوم تشنه الف طائرة ، فقصفوا كولون ليلحقوا بها المدن الاخرى في ذلك الصيف الرهيب . وقد خبر المدنيون الألمان شأن الجنود الألمان في ستالينغراد والعلمين ، لأول مرة الاهوال التي كانت قواتهم المسلحة قد لحقتها بالآخرين حتى الآن .

واخيراً وفي ثلوج ستالينغراد ، وعلى رمال الصحراء الافريقية المحرقة تحطمت احلام النازيين الرهيبة . ولم تقرر الكوارث التي حلت بباولوس ورومل مصير الرايخ الثالث وحده بل مصير النظام الجديد المزعوم والمخيف والعجيب الذي اشتغل هتلر واجلافه من رجال الحرس النازي في اقامته في البلاد المحتلة . وقبل ان نصل الى الفصل الاخير وهو انهيار الرايخ الثالث ، ارى حرياً بنا ان نقف هنيهة ، وان نرى ما هو شكل هذا النظام الجديد ، في نظرياته واجراءاته الوحشية ، لنقدر كيف نجت هذه القارة الاوروبية ذات الحضارة العريقة والتليدة ، بأعجوبة من هذا الكابوس القصير والمخيف ، الذي خبرت فيه استهلال اهواله . ولا ريب في ان هذا الفصل ، بالنسبة الى هذا الكتاب كما بالنسبة الى الاوروبيين الاخير ، الذين عاشوه ، أو لقوا حتفهم قبل انتهائه اشد الفصول في تاريخ الرايخ الثالث قتاماً وادلهاماً .



فهرست القسم الثالث

ص	
٥	الكتاب الرابع - الحرب (الانتصارات الاولى ونقطة التحول)
٧	١٨ - سقوط بولندة
٢٣	١٩ - حرب « الجلوس » في الغرب
٩٩	٢٠ - احتلال الدانمارك والنرويج
١٧٠	٢١ - النصر في الغرب
٢٥٤	٢٢ - عملية « اسد البحر »
٣١٧	٢٣ - عملية « ببروسة » الاتجاه الى روسيا
٤٢٩	٢٤ - تحول التيار
٤٦٣	٢٥ - دور الولايات المتحدة
٥٢٠	٢٦ - نقطة التحول العظيمة - ١٩٤٢ ستالينغراد والعلمين

